



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة جيلالي اليايس - سيدي بلعباس -

كلية اللغات والآداب والفنون

قسم اللغة والأدب العربي

بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في النقد الأدبي

إشكالية الزمن في القصص القرآني

تحت إشراف الأستاذ الدكتور :

حبيب مونسي

إعداد الطالب :

بن ذهيبة لطروش

لجنة المناقشة :

رئيساً	جامعة سيدي بلعباس	أ.د. سعيد عكاشة
مشرفاً ومقرراً	جامعة سيدي بلعباس	أ.د. حبيب مونسي
عضواً مناقشاً	جامعة سيدي بلعباس	د. سعداني يوسف
عضواً مناقشاً	جامعة مستغانم	د. عبدالقادر مزاري
عضواً مناقشاً	جامعة معسكر	د. حميدي بلعباس
عضواً مناقشاً	جامعة سعيـدة	د. دين العربي

السنة الجامعية : 2016 – 2017



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس -

كلية اللغات والآداب والفنون

قسم اللغة والأدب العربي

بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في النقد الأدبي

إشكالية الزمن في القصة القرآني

تحت إشراف الأستاذ الدكتور :

حبيب موني

إعداد الطالب :

بن ذهبية لطروش

لجنة المناقشة :

رئيساً	جامعة سيدي بلعباس	أ.د. سعيد عكاشة
مشرفاً ومقرراً	جامعة سيدي بلعباس	أ.د. حبيب موني
عضواً مناقشاً	جامعة سيدي بلعباس	د. سعداني يوسف
عضواً مناقشاً	جامعة مستغانم	د. عبدالقادر مزاري
عضواً مناقشاً	جامعة معسكر	د. حميدي بلعباس
عضواً مناقشاً	جامعة سعيـدة	د. دين العربي

السنة الجامعية : 2016 – 2017

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝

الإهداء

إلى روح والدي المرحومين جزاهما الله عني كل خير .

إلى زوجتي الوفية وابني العزيزين وفاء وإسماعيل الطاهر .

إلى إخواني وأخواتي الأحباء

أهدي هذا العمل .

المقدمة

لقد تناول القرآن الكريم مسألة الزمن كخلق خلقه الله تعالى، وحين نتلو سوره وآياته تصادفنا آيات تحمل ألفاظ الزمن ودلالاته، كالحين والأجل والأمد والوقت والعصر واليوم والشهر، وهذا لا يعني أن النص القرآني مجرد جامع لألفاظ الزمن . فالقرآن الكريم عرض علينا مرحلة الخلق والوجود، خلق الكون والإنسان، فقدم قصة خلق الكون بسماواته وأرضه، وأحصى المدة الزمنية المعدودة بستة أيام، وأثار مشهد إحياء الأرض بعد موتها. كما سرد علينا قصة خلق الإنسان، عارضا مراحل تكونه ونموه، وإخراجه طفلا إلى الحياة، ومروره بمراحل أطوار العمر المختلفة إلى حين أجله وموته، ليؤكد إعادة بعثه في اليوم الآخر، وفي عالم الغيب. لكن الزمن يبقى في حد ذاته إشكالية مستعصية على الإنسان المخلوق، وخاصة حين يجد أن الموت في انتظاره، يتربص به كل حين. كما بقي الزمن قضية خطيرة، تعرض لها الفلاسفة، وتناولها العلماء والمفكرون، والأدباء والنقاد قديما وحديثا، ولا زالت البحوث متواصلة .

لهذا أصبح الزمن يشكل قضية محورية وأساسية، شغلت بال الإنسان منذ القدم، ولا زالت تسيطر على فكره، فالإنسان يحس بوجوده، حين يرى بأنه جاء إلى هذه الحياة، ثم يغادرها مرغما، فالمدة التي انقضت من عمره (الماضي)، لا يمكن إرجاعها ثانية، إذ ليس بمقدورنا إعادة تشكيل الحياة، أو الزمن من جديد. فالأمر خارج عن إرادتنا ورغبتنا، وليس بملك أيدينا، لأننا نخضع للزمن والزمن لا يخضع لنا. فالزمن مسألة الإنسان حتى وإن لم يهتم به، ويبقى المؤثر الرئيسي على حياة الكائنات الحية، ممارسا عليها تغييرات، عبر مراحل النشأة والتكوين، والتطور والفاء. وأكثر هذه الكائنات تأثرا بالزمان، هو الإنسان. لهذا قدم لنا القرآن الكريم طبيعة الإنسان الزمانية، فقال تعالى - خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ - وربما هذه إشارة إلى ما يسمى بالزمن النفسي، الذي يكون نتيجة ما يكابده الإنسان في مسيرته الدنيوية، وكأن الإنسان بنية زمنية نفسية. بل حتى أن الدنيا جعلها القرآن بنية زمنية قصيرة مهما امتدت وطالت، وكأنها لحظة عاجلة تمر في يوم أو بعضه، مقارنة بالآخرة الخالدة الباقية. وهذا لكون الإنسان خُلِقَ للآخرة، وليس للدنيا، ولكن بعد مغادرته الدنيا بالموت المحتوم .

لذا قدم القرآن الكريم حقيقة الزمن كخلق من مخلوقات الله تعالى، مستعرضا توظيف الزمن بالمستوى النسبي الغيبي والخارق، والإشراف عليه من طرف خالقه سبحانه وتعالى، لإثارته كقضية إعجازية من جهة، واستظهاراً لطلاقة قدرته تعالى من جهة ثانية. فأحصى زمن

مدة خلق الكون - السماوات والأرض - وعددها بستة أيام، هذا الكون الذي احتار العلماء والفلاسفة، في كيفية إنشائه مكانا وزمانا. كما عدد نسب زمن مدة اليوم المختلفة - عند الله تعالى - بألف سنة، وخمسين ألف سنة، وكل هذا من أجل لفت الانتباه لظاهرة الزمن النسبية. وبالتالي فهل تتحول ظاهرة الزمن في القرآن الكريم إلى إشكالية عسيرة أمام الدارس للنص؟ أم هي مسألة واضحة تتطلب من قارئ النص، أن يتدبرها ويبحث سرها وحقيقتها؟. وانطلاقا من هذه التساؤل، كانت رغبتنا في تناول قضية إشكالية الزمن من مصدرها الإلهي، وهو القرآن الكريم الذي نؤمن به ككلام الله، ووحيه المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فهو مرجعنا الأساسي لفهم قضايا الحياة والوجود، والإنسان والمصير، فهو الذي يرشدنا إلى ذلك، إذا أحسنا فهمه وتدبره، مصداقا لقوله تعالى - أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ - والقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، وبهذا يكون الوحي بالنسبة لنا - نحن المؤمنين - هداية ونورا، وسبيلا ومنهاجا.

يبتعد منهج القرآن الكريم في معالجته للزمن، عن أسلوب الفلاسفة والمفكرين، لأن الله تعالى هو الذي خلق الزمن، وهو الذي يتحدث عن حقيقة خلقه. لهذا كانت رغبتنا في اختيار موضوع بحثنا الموسوم ب **إشكالية الزمن في القصص القرآني** - بالإضافة إلى أن الإيمان يفرض علينا، ربط علاقة خاصة بالقرآن الكريم، ويجعل تلاوته عبادة، ودراسته تقربا إليه تعالى. وخاصة أنه سبحانه وتعالى قد وصف وحيه، بأنه شفاء للنفوس. هذه النفوس التي تكابد توترات الحياة وأزماتها. وقد ظلت مسألة الزمن وإشكاليته تراودني منذ أن كنت طالبا بالثانوية، أتلقى دروس مادة الفلسفة، فترسمت في ذهني على أساس أنها مادة معقدة تنشئ الكفر والإلحاد. وخاصة أنها تتناول مسائل لها علاقة بالوجود والحياة والموت، الأمر الذي كون لي فكرة أولية، عن الفلسفة والفلاسفة في تلك المرحلة. لكنني بعد ذلك، وجدت أن القرآن الكريم قد وضع حولا لمواضيع الألوهية والوجود، والحياة والموت، وما بعد الموت .

كما أن دراسة مادة الرياضيات، وتكرار عبارة - إلى ما لا نهاية - أوقفتني متسائلا عن حقيقة هذا المفهوم اللانهائي واللامحدود، وهل العملية الحسابية مستمرة إلى ما لا نهاية؟ في حين أن إيماننا بالله تعالى يجعل لكل شيء حداً - كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ - وأن الله تعالى وحده هو الذي لا نهاية له، فلا أول له ولا آخر. لقد بقيت عبارة - زائد وناقص ما لا نهاية - تلح علي، لأوفق ما بين إيماني بالله تعالى وهو الخالق للامحدود، وانتفاء الشبهة عليه

سبحانه، وبين كل شيء منته وفان - كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۚ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ -
وازداد تساؤلي وبحثي محاولاً التقرب من حقيقة تلك المفاهيم، فوجدت أن الأمر الذي لفت
انتباهي، هو موضوع الزمن، باعتبار أن كل شيء معرض للتغير والنمو، والفناء والانتها
بعامل الزمن .

فكان هدفي أن تكون دراستي لإشكالية الزمن، على ضوء القرآن الكريم ومنهاجه،
فهو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أما الإطار الذي يمكننا أن نعثر
فيه على حقيقة الزمن مجسدة، بشكل واضح ومفهوم جلي، هو ميدان القصص القرآني. حيث
تناول القرآن الكريم قصة الحياة والموت، وقصة الخلق والإنسان ومصيره، وهذه ما تميز به
القصص القرآني عن سائر الفضاءات السردية الفنية والتاريخية. إلا أنني أردت أيضا أن
تكون دراستي ردا على من حاول أن يجعل من القصص القرآني قصصا خيالية أو أساطير
الأولين، المقولة التي ظلت تتكرر على ألسنة الكفار والملحدين والعلمانيين منذ زمن أقرأ.
وهذا وفق زعمهم، أن قصص القرآن تحتوي على خوارق وغيبيات تتنافى مع العقل والواقع،
والمنطق والعلم. كما أن البعض رأى في دراسة القرآن الكريم مغامرة خطيرة ومزلق أخطر،
ربما تهوي بصاحبها إلى ما لا يُحمد عقباه. لكن حل هذا الإشكال، هو أن يلتزم الباحث بالنص
القرآني، وأن يكون مقدرًا حقيقة الألوهية، مصداقا لقوله تعالى - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ - فنفي الشبيهة
عن الخالق، هو المبدأ الذي التزمت به، في دراسة كلامه المنزل، دون أن أحيد عنه أبدا، أو
أتجاوز حدود طبيعتي البشرية .

وقد أثرت إشكالية الزمن من جانب، أن القرآن الكريم - وهو كلام الله الأزلي - كيف
يتسنى لنا أن نستوعب أحداث قصصه التي وقعت، بعد أن سطرت في علم الغيب؟ وهل هذه
جبرية وحتمية، لن يحيد عنها هذا الإنسان المخلوق والمسؤول؟ وكيف تناول القرآن الكريم
قضية القضاء والقدر وحتمية الأحداث؟ وكيف أن القرآن الكريم، قد فصل مدة خلق السماوات
والأرض، قبل أن يكون زمان ومكان؟ مع عرضه لقيم نسبية الزمن، تتراوح ما بين كلمح
للبصر، وخمسين ألف سنة. ولهذا فهل أبهم القرآن الكريم تفاصيل زمن أحداث قصصه كما
يزعم البعض؟ بل كيف يكون القرآن الكريم قد ذكر أزمنة في بعض قصصه، وأعرض عن
ذلك في بعضها الآخر؟ وكيف يكون النص القرآني مُهملاً تفصيل زمن أحداث قصصه، والله

عز وجل هو الذي خلق لنا وسائل وأدوات الزمن، وسخرها لنا لإدراك الزمن والحساب ؟
فالله هو الذي سخر لنا الشمس والقمر دائبين، وعاقب بين الليل والنهار. وقد حاولت أن أتعامل
مع كل هذه التساؤلات التي أثيرتها كإشكالية لبحثها ضمن النص القرآني، وبمعنى آخر هل
القصص القرآني أجاب عن تلك التساؤلات التي بقي يطرحها العلم والفلسفة ؟ وهل أبطل
النص القرآني اتهامه بإيهام الزمن له ؟ وكيف وظف القرآن الكريم الزمن في قصصه ؟ .

إن دراسة موضوع إشكالية الزمن في القصص القرآني - وفي حدود علمي - لم
أقف على أنها عُولجت بالشكل الذي تبنيته في بحثي هذا، حيث أن الباحثين والدارسين قد
اهتموا بدراسة الزمن النحوي، ومنهم من تناوله ضمن النص القرآني، كأطروحة الزمن في
القرآن الكريم لعبد الكريم بكري، وهي دراسة نحوية لصيغ الأفعال، وأطروحة مفهوم الزمن
في القرآن الكريم لموسى بابا عمي، وهي عملية إحصائية تقدم المفهوم المعجمي والسياق
الدلالي لألفاظ الزمن. كما أن أغلب اهتمام الدارسين كان في الجانب السردى وبلاغته، وربما
هذا تائراً بالتيارات النقدية الغربية. لذا كانت دراستهم محاولة تطبيق النظريات النقدية
وإسقاطها على النص القرآني، مما اعتبره تعسفاً وابتعاداً عن مبدأ التدبر القرآني. ولا ينبغي
أن نُخضع كلام الله الخالق عز وجل للتنظير البشري .

لقد اعتمدت في هذا البحث ثلاثة مناهج : المنهج التحليلي المقارن والتاريخي، وخاصة
أن مبدأ التدبر والاعتبار يتطلب تشريح النص كما يقول به النقد. واتخذت النص القرآني دليلاً
لا نقاش فيه، وجواباً شافياً لكل التساؤلات حول إشكالية الزمن، وفق مبدئي الإيمان بكلام
الله، ومصدقا لقوله تعالى - ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ - كما اعتمدت على الحديث
الشريف، لتأتي بعد ذلك أقوال المفسرين، وعلماء الإسلام، ثم العلماء الآخرين، والمفكرين
والنقاد. واعتمدت في الأساس على الأدلة من القرآن الكريم، ليكون النص القرآني هو المجيب
بذاته عن ذاته، وهو الذي يرد على كل الاتهامات المثارة حول قصصه، محاولاً أن أبعد عن
المسائل الخلافية، أو التي اعتمدت على الإسرائليات والغريب. كما حاولت أن أبين بعض
مزاعم العلمانيين والحدائبيين الذين لا يؤمنون بالوحي والغيب، لكنهم بذلوا جهوداً مضنية
ومتواصلة، في اتهام القصص القرآني بما ليس فيه. وأن عدم إيمانهم بالقرآن كوحي إلهي،
يجعل دراستهم جهداً ضائعاً، وعملاً غير بريئ. كما أن منهج التحليل يفرض علينا تقديم

الدليل، للوصول إلى استنتاج منطقي، فكان تمسكي بالنص القرآني كدليل، وخاصة أن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي يطالب بالبرهان والدليل، دحضاً لكل شك وافتراء .

واعتمدت المنهج المقارن، للمقارنة بين القصص القرآني، وقصص العهد القديم، وذلك للوقوف على خصائص كل منهما، بالإضافة إلى عرض بعض نصوص الأساطير القديمة، لتكتمل أوجه المقارنة، وتظهر أخيراً ملامح القصص القرآني المتفردة، وصولاً إلى أن القصص القرآني يبتعد عن كل نقل من الكتب الدينية السابقة. وبالتالي قد أتاح لي المنهج المقارن الوقوف على خصائص الخطاب الديني، قبل زمن إقرأ وبعده، وكيف كانت القصة الدينية المستوحاة من أسفار العهد القديم والجديد. وهذا ما يبين جليا الفروق بين السرد الفني والتاريخي، وبين السرد القرآني، أي: بين النص البشري، والنص الإلهي. طبقاً لما طالب به القرآن الكريم من إجراء موازنة بين أي كتاب هو أهدى من القرآن الكريم. كما تحدى المدعين بأن يجدوا أي اختلاف فيه أو تناقض في حقائقه أو قصصه .

أما اعتمادي المنهج التاريخي، هو أن القرآن الكريم تناول قصص الأمم الماضية متعرضاً لقصة العقيدة التي نزلت مع الإنسان، ولم تكن أبداً صناعة بشرية، أو نباتاً أرضياً أو تطوراً بدأ بتعدد الآلهة، لينتهي بالتوحيد، وهذا ما تزعمه نظريات الأديان المقارنة. وهذا ما استوجب علي البحث في تاريخ المعتقدات، واستبيان سبب الصراع الديني بين أهل الأديان السماوية الثلاثة (اليهود النصارى والمسلمون)، وكيف انحرف الناس عن عقيدة التوحيد إلى الشرك والكفر، وصولاً إلى أن عقيدة التوحيد هي العقيدة السماوية الوحيدة، التي دعا إليها جميع الرسل والأنبياء. وكل هذا تبين من خلال عرض التاريخ الديني لأهل الكتاب، ومقارنته بما جاء في القرآن الكريم، مع عرض الأحداث التاريخية المناسبة لذلك. وبالتالي أصبح النص القرآني يشكل توتراً حاداً لأهل الكتاب، وكذا المشركين والملحدين، والمستشرقين والعلمانيين، وذلك منذ زمن إقرأ إلى الآن، مما جعل التهم تتوجه للنص القرآني عامة، ولقصصه خاصة. لكن النص القرآني يبقى مهيمناً وفارصاً ذاته، رافعاً التحدي باستمرار عبر الامتداد الزمني، ومُحِيناً للرد على تهم وافتراءات أهل الكتاب، والمشركين والملحدين عبر التاريخ. وهذا ما يؤكد إعجازية النص القرآني عامة، وقصصه خاصة .

أما منهجية البحث فتمثلت في تقسيم البحث إلى مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، اشتمل كل فصل على تمهيد وثلاثة مباحث :

1 - **الفصل الأول** : تناولت فيه زمانية المكان في القصص القرآني، لأبين كيف أن القرآن الكريم بدأ بربط المكان بالزمان بداية من خلق الكون - المكان (السموات والأرض) ، مفصلاً المدة الزمنية لخلق الكون، وكلما انتقل إلى مكان، إلا وربطه بزمن نسبي. ثم تناولت ارتباط المكان بالزمن الخارق، وهذه ميزة القصص القرآني المتفردة. ثم كان ارتباط المكان بالزمن الغيبي، وهذا ما اهتم به القرآن الكريم في قصصه، ليجلي طلاقة القدرة الإلهية، وصدق النبوءة المتجلية في المكان المقدس - القضية الزمكانية المحورية - وهو بيت الله، مع تقديم قصص من القرآن الكريم تمثل هذا الجانب. وهذا ما يبين أن توظيف الزمن هو توظيف ديني إعجازي، لإثبات طلاقة القدرة الإلهية ، ويوم البعث .

2 - **الفصل الثاني** : اشتمل على زمانية الأحداث في القصص القرآني، لتبدأ الإشكالية تتعقد باعتبار أن القرآن الكريم كوشي سبق أحداث القصص، حيث كان مسطراً في اللوح المحفوظ منذ الأزل، مما يؤدي إلى إشكالية لن يسكت أمامها الفكر والبحث. فتناولت حتمية وسيرورة الأحداث في القصص القرآني، لأبين أن إرادة الله الفوقية، هي التي توجه الأحداث، وفق المشيئة العليا، والعلم المطلق، والحكمة البالغة، لتبقى أحداث القصص تسير في خط مرسوم لها سلفاً. ثم ارتباط الأحداث بالزمن الغيبي، وهذا أيضاً ما أكدته القصص القرآني، ليجلي ظاهرة الإعجاز، في تحقق الغيب طيلة زمن نزول الوحي وبعده، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. كما تناولت ارتباط الأحداث بالزمن الخارق، حيث تتجلى طلاقة قدرة الله تعالى في توظيف الخارق في قصصه وفي الواقع، وطلاقة قدرته في توظيف الزمن بمدته الممتدة أو المقلصة، وفق مشيئته العليا سبحانه وتعالى .

3 - **الفصل الثالث** : وتم فيه بحث زمانية الخطاب القرآني، حيث ازدادت الإشكالية تعقيداً، لأن الوحي قد ارتبط بزمن النزول، ومع هذا فهو مسطر في اللوح المحفوظ. فتناولت ارتباط الخطاب القرآني بالزمن، حيث ارتبط النزول بالزمن، وهو نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض. مركزاً على علاقة الخطاب البشري الوطيدة بالزمن، واختلاف الخطاب القرآني

عن ذلك، وبإجراء مقارنة بينه وبين خطاب العهد القديم والجديد. ثم الخطاب القرآني والتاريخ، حيث بينت تحدي الخطاب القرآني في تناوله مسائل تاريخية، على الرغم من أن القرآن الكريم، ليس كتاب تاريخ، وإنما هو مصدر للتاريخ البشري. وذكرت استعمال القرآن الكريم إشارات ودلالات تفرض على الدارس الرجوع إلى الموسوعة المعرفية لاستيعابها وفهمها. كما تناولت الخطاب القرآني والخلود، لأبين بالدراسة المقارنة، أن الخطاب الديني السابق، وقبل زمن إقرأ، قد مورس عليه التحريف بسبب فعل الزمن، ففقد النص الأصلي لكتاب اليهود والنصارى، في حين بقي النص القرآني محفوظاً، ليبقى الخطاب القرآني خالداً، ومستمرا ما بعد الموت، مشتملاً على مرحلة الخلود، في عالم الآخرة .

4 - الفصل الرابع : اشتمل على زمانية القصة القرآنية، فتناولت الزمن في القصة القرآنية، بإجراء مقارنة بين قصص العهد القديم، وقصص القرآن الكريم لإبراز الاختلاف، من حيث توظيف عنصر الزمان. كما تناولت ظاهرة الارتداد الزمني في القصة القرآنية، موضحاً قدرة وطاقة استيعاب القصة القرآنية لزمن البشرية، وتاريخ العقيدة، حيث تستلزم توفر موسوعة معرفية، وطاقة تفسيرية لاستيعابها. لأنهي الفصل باللازمين في القصة القرآنية، وهي ميزة تفرقت بها القصة القرآنية عن سائر الأنواع السردية، معتبراً ذلك هو إشكالية الإشكاليات، لأن أي منظومة سردية، لم تتناول موضوع اللازمين. وعلى هذا تبقى القصة القرآنية، وحيدة متفردة في هذا المجال اللازمين، بولوجها إلى عالم الموت، والبرزخ، إلى عالم الخلود وما بعد الموت، وإلى القبلية والبعدية، واللذين لا يستطيعهما أي من البشر .

أما بالنسبة لمصادر ومراجع البحث، فقد اعتمدت بشكل أساسي على القرآن الكريم برواية حفص، والحديث الشريف، وكتب التفسير، منها التراثية : كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وكتاب مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي. أما الحديثة ، كتفسير المنار لرشيد الرضا، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وتفسير الشعراوي، وكذا تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، وكتاب نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ الغزالي، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، وهو من تأليف مجموعة من المفسرين. كما استعنا بمراجع في الدراسات القرآنية الحديثة، منها كتاب تحت راية القرآن الكريم للرافعي، وكتاب النبأ

لرشيد الرضا، ومدخل إلى القرآن لعبد الله دراز. أما المراجع المعربة فمنها كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، وهو دراسة تحليلية ومقارنة في القرآن الكريم، وقصصه وخطابه، وكتاب التوراة الإنجيل القرآن والعلم لموريس بوكاي، وقد أفادني في الدراسة المقارنة بين النصوص الدينية، من حيث الجانب التاريخي والعلمي .

وفي دراسة موضوع الزمن، استعنت بمراجع منها المعربة ككتاب تاريخ موجز للزمن لسنتين هوكنغ، وكتاب الزمن والسرد للفيلسوف المعاصر بول ريكور ، وكتاب الزمن والرواية لمندولا . كما استعنت بالمراجع في النقد ومنها المعربة ، ككتابي نقد وحقيقة، والتحليل النصي لرولان بارت، ومفاهيم سردية لدوروتوف، وكذلك بالمراجع العربية ككتاب الزمن النوعي وإشكاليات السرد النوعي، لهيثم الحاج علي، وكتاب الخطاب القرآني للدكتور عشراتي. بالإضافة إلى المراجع التي تشمل الفكر العلماني، ككتاب الفن القصصي لخلف الله، وكتاب مفهوم النص لحامد أبي زيد، وكتاب مدخل إلى القرآن للجابري. أما المعربة فمنها كتب محمد أركون وهي نزعة الأنسنة، ونافذة على العالم الإسلامي، والقرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب .

بالإضافة إلى أسفار العهد القديم والعهد الجديد، ونسخها المختلفة، وبعض المراجع في دراسة العهد القديم والجديد، ومراجع في تاريخ وتراث أهل الكتاب، للوقوف على حقيقة معتقداتهم، وقصصهم الديني، بالإضافة إلى المراجع المتنوعة منها التاريخية والفكرية ، والعلمية، وبعض الموسوعات، لتأكيد بعض المعلومات، وتحديد بعض المفاهيم والمصطلحات .

وقد اعترضتني بعض الصعوبات أثناء البحث، منها : صعوبة التعامل مع النص القرآني المعجز، والذي يعتبره البعض مغامرة خطيرة، مما جعلني أبتعد عن كل تأويل، يمس بعقيدة التوحيد، أو يمس بتنزيه ذات الله العليا، محاولاً الالتزام بحدود النص ، والوقوف عند طبيعتي البشرية، وهذا ما عملت به طيلة البحث. والصعوبة الثانية تتمثل في موضوع التفسير، حيث لم أجد تفسيراً قد اهتم بقضية الزمن ودراستها كإشكالية، ضمن القصص القرآني. بل جاء بعضها مبنوثة في كتب التفسير، كما أن أغلب التفسير لقصص القرآن

جاءت سرداً تاريخياً مركزاً على قصص الأنبياء، الذي تكثرت تفسيراته ذات الاتجاه الواحد. والصعوبة الثالثة تمثلت في أن مراجع النقد الأدبي العربي لا تفي بالحاجة، وخاصة في دراسة الزمن في القصص القرآني، بسبب اختصاصها بالمنظومة الأدبية، معتمدة على النظريات الغربية المستخلصة من المرجعية الوثنية قديماً، والعلمانية والإلحادية حديثاً. مما يؤدي إلى اقتصار النظرة النقدية على النص الأدبي، دون النص الديني، وخاصة مع النص القرآني، مما يجعل التنظير النقدي في غالب الأحيان، يخالف منهج ومبدأ القرآن الكريم، وهو الأمر الأخطر. أما الصعوبة الرابعة هي أن القرآن الكريم لا ينبغي أن يخضع للتنظير البشري. ولهذا فكلام الله عز وجل، يتجاوز المنظومة النقدية، وإن النقد لا يتسع إلى منظومة القصص القرآني. وهذا ما أوضحتها في بداية البحث، حيث أن المبدأ القرآني يطلب منا دراسة قصصه، لاستخلاص الحكم والعبر، وفق مبدأ التدبر والاعتبار، لاستيعاب سنن الله تعالى وفهمها في الكون والخلق، والوصول إلى الحقيقة الأزلية - لا إله إلا الله - وأي دراسة تهدف إلى الابتعاد عن حكمة التدبر والاعتبار، هي محض ضلال وزيف عن الحق المبين .

وفي الختام لا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل والتقدير الفائق لأستاذي الدكتور حبيب مونس الذي تشرفت بإشرافه على هذا العمل، وصبره عني طيلة مدة البحث، فله مني كل التقدير والاحترام. وشكري موصول أيضاً لأفراد عائلتي وأصدقائي الذين ساهموا وساعدوا في إخراج هذا العمل .

وقد حاولت بحمد الله تعالى وفضله أن أقوم بهذا البحث في الدراسات القرآنية، وأن أدلل تلك الصعوبات بفضله تعالى، متقرباً بهذا العمل إليه عز وجل، بأن يجعله في ميزان حسناتنا، وصالح أعمالنا، وأن يتقبله كصدقة جارية على روعي والدي المرحومين، وأن يغفر لنا زلاتنا، وتجاوزنا في هذا العمل. فإن أخطأت فمن نفسي، ومن طبيعتي البشرية، وإن أصبت فبتوفيق منه سبحانه وتعالى الذي يسر لي الأسباب، وذل لي الصعاب لدراسة قصص وحيه الخالد، وكلامه الحق. وبهذه الدراسة أكون قد أدركت حقيقة قوله تعالى - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ - ، وقوله - بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۚ ۲۱ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ - . كما أدركت حقيقة قوله عز وجل - فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - فله تعالى الكمال المطلق، وتعالى الله عما يصفون، والله ولي التوفيق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل الأول

زمانية المكان في القصص القرآني

أ - ارتباط المكان بالزمن في القصص القرآني

ب - ارتباط المكان بالزمن الخارق في القصص القرآني

ج - ارتباط المكان بالزمن الغيبي في القصص القرآني

تمهيد

لقد تعرض القرآن الكريم للمكان كدلالات إعجازية، يمكن للدارس أن يكشف بعض جوانبها. فالقرآن الكريم عرض ضمن آياته، قصة بداية المكان وإيجاده، ليؤسس لحقيقة الخالقية التي يتفرد بها الله سبحانه وتعالى، وليضع حدا لكل اعتقاد باطل، حول حقيقة الألوهية وماهية الوجود ونشأته، وبداية خلق الكون وإيجاده " والقرآن الكريم لا يدخل في جدل ذهني جاف بصدد قضية الألوهية والربوبية، كالذي جد فيما بعد بتأثير المنطق اليوناني والفلسفة الإغريقية، إنما يلمس المنطق الفطري الواضح المباشر- إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن - "1. ولكن يظل الفيزيائي ستيفن هوكنغ* يتساءل: " ما الذي نعرفه عن الكون؟ وكيف نعرفه؟ من أين أتى الكون، وإلى أين يذهب؟ هل للكون بداية؟ وإذا كان له، فما الذي حدث قبل ذلك؟ ما طبيعة الزمان؟ هل سيصل قط إلى نهاية؟ "2. إنها أسئلة فرضتها طبيعة الإنسان المحدودة، كما فرضتها إشكالية الزمن والمكان، ولن نجد جواباً لكل هذه التساؤلات المستمرة، إلا من خالق المكان والزمان. " ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُؤَفَّكُونَ "3. وبهذا يكون القرآن الكريم قد أجاب على هذه الأسئلة، التي لا زالت تتردد على ألسنة العلماء والباحثين والفلاسفة، ولا زالوا في حيرة من أمرهم، ما لم يجدوا جواباً قاطعاً، ومن مصدر يقين. إن النص القرآني قد حسم قضية بداية المكان، وعرف خالق الكون، رب العالمين .

ففاتحة الكتاب التي افتتحت بتمجيد رب المكان " اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ٢ "4. تعلن بكل وضوح عن أن ملكية المكان - الكون - وخلقها هي لله وحده " ومفهوم الإسلام أن هذا العالم خلق بعد أن لم يكن، فليس أزلياً، ولا أبدياً بأي شكل من الأشكال. وقد ابتدأ من العدم، وسوف ينتهي لقيام الساعة "5. وبالتالي يسقط كل خطاب يتناول قضية ادعاء امتلاك المكان والوجود لغير الله تعالى، أو إخفاء صاحب الوجود وإنكاره، لنزع صفة الخالقية عنه، أو الكفر

سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، الجزء الحادي عشر، دار الشروق، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، 2003 بيروت. ص 1751.

*ستيفن هوكنغ (1942 . ؟) عالم فيزيائي دكتوراه في علم الكون .

2 ستيفن هوكنغ: تاريخ موجز للزمان، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العلمية للكتاب، 2006. ص 20.

3 سورة غافر: الآية 62.

4 سورة الفاتحة: الآية 2.

5 أنور الجندي: سقوط الإيديولوجيات، رابطة العالم الإسلامي، السنة الثانية عشرة، العدد 139، 1414 هـ. ص 152.

به " إن الهدف الأسمى للقرآن، هو أن يوقظ في الإنسان وعياً أسمى بعلاقاته المتشعبة بالله والكون"¹. يقول تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"². لقد جاءت هاتان الآيتان في سورة البقرة، كتمهيد لسرد قصة خلق آدم. وبعدها يقول تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ "³. فخلق الإنسان وخلاقته في الأرض حكمة إلهية، لا يقدر الملائكة أن يصلوا إلى كنهها، إنهم عاجزون عن الإحاطة بعلم الله المطلق .

وبعملية الخلق التي جاء بها الوحي تبطل كل نظرية افتراضية حول بداية الكون والحياة. يقول الشعراوي : " والحياة الدنيا هي مرحلة بين قوسين، القوس الأول : هو أن الله يخلقنا ويوجدنا، وتمضي رحلة الحياة إلى القوس الثاني الذي تخمد فيه بشریتنا، وتتوقف حياتنا وهو الموت. أي : أننا في رحلة الحياة من الله وإليه "⁴. فالوجود بداية من الله ونهاية إليه، ولهذا فالخطاب القرآني الذي أقر الخالقية لله وحده منذ بداية نزول الوحي " أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ "⁵، جعل حداً لكل سرد يتناول بداية الخلق والوجود، دون سند علمي أو مصدر إلهي. لذلك قال تعالى موضحاً جهل الإنسان ببداية الخلق : " مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضَلِّلِينَ عَضُدًا "⁶. فخلق المكان والإنسان غيب لا نملك مفاتيحه، إلا ما أعلمنا به الخالق علام الغيوب بواسطة وحيه ورساله. إن " فكرة الزمن الكوني مرتبطة كل الارتباط بنظرية الانفجار الأعظم التي تعتبر ولادة لزماننا. وقد تكون هذه الولادة غير حقيقية، إذا ما أخذنا بفكرة الكون اللانهائي أو أزلية الوجود "⁷. وأمام إشكالية بداية المكان والزمان يظل الفكر الإنساني يقدم الافتراضات والاحتمالات التي لا تنتهي. يقول ستيفن هوكينغ " بأن الزمان يستمر وراء الأزل، سواء كان الكون قد وُجد، أو لم يوجد

1 محمد إقبال : تجديد الفكر الديني ، ترجمة محمد يوسف عدس ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 2011 . ص 26 .
2 سورة البقرة : الآيتان 28 ، 29 .
3 سورة البقرة : الآية 30 .
4 الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المجلد الأول ، مطابع أخبار اليوم ، 1991 مصر . ص 224 .
5 سورة العلق : الآيتان 1 ، 2 .
6 سورة الكهف : الآية 51 .
7 عبد اللطيف الصديقي : الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات، الطبعة الأولى بيروت 1995 . ص 88 ، 89 .

دائماً ... فإن مفهوم الزمان لا معنى له قبل بدء الكون "1. ولهذا نرى القرآن الكريم يؤكد عملية الخلق مُبَرِّهناً عليها، هذه العملية التي مارسها الإرادة الإلهية على كل شيء، بما فيها الزمان، والذي هو القضية الخطيرة والأساسية .

لقد تكررت الآيات التي تتناول خلق المكان، لتقر صفة الخالقية لله وحده. يقول تعالى " وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "2. ويقول: " إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "3، ويقول أيضا: " أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "4. فهذه الآيات تدل بكل وضوح على أن خالقية المكان ومالكيته، هما لله وحده لا شريك له. وما دام لله خالقية المكان، فكذلك له خالقية الزمان " إن باري الأشياء ومحدثها كان قبل كل شيء، وأن الليل والنهار والزمان والساعات محدثات، وأن محدثها الذي يديرها ويصرفها قبلها. إذ كان من المحال أن يكون شيء يحدث شيئا، إلا ومحدثه قبله "5. وبهذا تنتهي كل أسطورة تسرد بداية الخلق والحياة " فالبحث المحموم عن شيء يقوم مقام اليقينييات القديمة انتهى ببعضهم إلى يقظة دينية جديدة، ترجعهم إلى الإيمان الخالص الذي ينكر على الإنسان حقه في السؤال، وأدى بأخرين إلى صوفية تلغي جميع التساؤلات. وقد قاد الماركسيين إلى محاولة التوصل إلى دياكتيكية تحل في اعتقادهم جميع التناقضات، في إطار مبدأ اجتماعي عام. أما العالم فإنه يبحث عنه بسبر أغوار اللامحدود والمتناهي في الصغر، ولكن هنا أيضا تصطدم فيزياء الكم، بمشكلة الزمن "6. فالبحث عن المكان يستلزم أيضا، البحث عن الزمان، بل نجتاز إلى البحث عن ما قبل الزمكان.

ربما " لم يتغير شعورنا تجاه الزمن على نحو جذري، مثلما اكتسبه هذا القرن - القرن العشرون - ... وأن حضارتنا ترى العالم كتاريخ، تميزا عن العالم كطبيعة "7. فالزمن

1 ستيفن هوكينغ : المرجع السابق . ص 20 .

2 سورة الروم : الآية 26

3 سورة . يونس : الآية 3 .

4 سورة : يونس: الآية 55

5 محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري ، الجزء الأول ، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (ب ت) . ص 28 .

6 أ أ مندولا : الزمن والرواية ، ترجمة بكر عباس ، دار صادر الطبعة الأولى 1997 . ص 12 .

7 المرجع نفسه . ص 7 .

تحول إلى هاجس كبير، فتحول إلى قضية دينية وعلمية وفلسفية، وحتى أدبية. وأصبح كل فريق يسعى لمعالجة الظاهرة الزمانية، من خلال زاوية رؤيته الخاصة، دون أن يكون له علم بحقيقة الموضوع، إلا من خلال ما يصل إليه العقل الإنساني، بالبحث والتأمل والتفكير والتجربة، وهذا لا يكفي في ميدان موضوعه الزمان " فالنظريات بطبيعتها متغيرة، والعلم المنظور إليه من زاويتها متحرك، إذ أنه من المحتمل أن أي تصور صالح اليوم، يصبح غير مقبول غدا "1. وهذا ما يؤكد نسبية إدراك الحقائق لدى الإنسان، كما يظهر جهله للغيب الذي اختص الله تعالى به ذاته العليا، إلا ما شاء هو بحكمته ومشينته، أن يحيط به عباده الذين اصطفاهم. " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصَعْرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ "2. فعلم الله مطلق " إن طبيعة هذا التصور ليست بشرية، وأنه ليست لها سابقة في كلام البشر شعره ونثره "3، إنه الخطاب الإلهي الذي لا يستطيع أحد أن يتقمصه ، أو يدعيه .

لهذا فإن أولى الإشكاليات التي تصادفنا أثناء بحثنا في معنى الوجود وحقيقته، هي بداية الخلق وكيفيته " فكل المناقشات الدينية العقيمة حول فكرة الخلق، قد نشأت من هذه النظرة الضيقة للعقل المتناهي، وبهذا الاعتبار يصبح الكون مجرد حادثة وقعت بالصدفة، في حياة الذات الإلهية "4. ستبقى إشكالية الوجود مسألة عويصة، يصعب على عقل الإنسان حلها، ولن يجد لها تفسيراً، إلا إذا استند إلى وحي إلهي " إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ اللَّهَارَ يُطَلِّبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ "5. فقد أشارت هذه الآية إلى خلق الكون ومدته الزمانية بالإضافة إلى الإشراف على عملية حركة الليل والنهار الدائبة. فعبرة " واستوى على العرش، دلت على أن الكون كله استجاب له، وانقاد لأمره دون منازع "6. ويقول سيد قطب:

" (ثم) هنا ليست للتراخي الزماني، إنما هي للبعد المعنوي، فالزمان في هذا المقام لا ظل

1 د . موريس بوكاي : أصل الإنسان ، ترجمة فوزي شعبان ، المكتبة العلمية ، 1981 . ص 194 .

2 سورة سبأ : الآية 3 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني والعشرون . ص 2887 .

4 محمد إقبال : المرجع السابق . ص 112 .

5 سورة الأعراف : الآية 54 .

6 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد الثاني والعشرون ، ص 13511 ،

له، وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله سبحانه، ثم كانت. فهو سبحانه منزه عن الحدوث، وما يتعلق به من الزمان والمكان "1. فالمسألة بالنسبة للمؤمنين، قد حُسمت نهائياً بالوحي الإلهي. فالكون مخلوق ببداية، وما قبل لا نكاد أن نتصوره، وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى. يقول محمد إقبال: " فما هي إذن حقيقة هذا الكون، الذي نعيشه في الرؤية القرآنية ؟. أول ما يتبادر إلى الذهن، إن الكون ليس نتيجة لهو من لدن خالقه "2. يقول موريس بوكاي* : " وفي القرن السابع الميلادي أنزل القرآن الكريم وأبلغ للبشر - وبخلوه من عدم الدقة والصوابية الموجودين في النصوص التوراتية - فهو يعرض خلق العالم والإنسان، ونهاية العالم المخلوق، ومصير الإنسان والحياة والآخرة، بعد انبعاث الأموات والحساب الأخير. وقد أعطى دقائق خفية عن بعض النقاط التي أذهلت الغرب اليوم كثيرا "3. ولن يجراً أحد من المسلمين أن يعتقد عكس ذلك، أيا كان مستواه من العلم والمعرفة.

كما لا يتجرأ أحد، أن يعلن توصله إلى حقيقة بداية الكون والوجود، ولن يجراً أي ملحد أن يدعي لنفسه خلق أي ذرة في هذا الكون. بل إن كل كائن حين جاء إلى الحياة، وجد المكان والزمان مهياًين له. فإن " عددا قليلا منا، هم الذين ينفقون وقتا كثيرا في تساؤل عن السبب في أن الطبيعة هي ما هي عليه، ومن أين أتى الكون ؟ وهل الكون كان دائما هنا ؟ وهل يأتي وقت ينساب فيه الزمان وراء، وتسبق النتائج الأسباب ؟ "4. إنها أسئلة ستبقى مطروحة أمام كل بعيد عن الوحي الإلهي. لكن الإعلان عن خلق الكون بمدته الزمنية في النص القرآني، يدل على القدرة والمشئنة الإلهية، والعلم الواسع الذي يقف أمامه هذا الإنسان المخلوق، عاجزا محتارا " إنها قد تكون ست مراحل، وقد تكون ستة أطوار، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام "5. إلا أن رغم وجود هذا الكون، ووجودنا نحن البشر فيه، يوجد من يكفر بالخالق ومن يشرك به " وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ يحسن أن يقال لهم، إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الأشياء

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الحادي عشر . ص 1762 ، 1763 .

2 محمد إقبال : المرجع السابق . ص 27 .

* موريس بوكاي 1920 ، 1998 طبيب فرنسي عين على رئاسة وفد لفحص وترميم مومياء فرعون، أسلم وقام بدراسة مقارنة الكتب المقدسة والقرآن.

3 د . موريس بوكاي : المرجع السابق . ص 122 ، 123 .

4 سنتيفن هوكنغ : المرجع السابق . ص 12 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الثالث . ص 1296 .

العظيمة في هذه المدة الصغيرة، كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور، والحجر المنحوت شريكا له في المعبودية والإلهية ؟¹. وبالتالي فالاختلاف جلي بين الخالق الذي يخلق، وبين المخلوق الذي خُلِق من العدم، بين الخالق الذي كان قبل الزمان والمكان، وبين المخلوق الذي لم يكن شيئا مذكورا.

وبتفرد الله بالخالقية، يكون الوحي قد حسم الإشكال، يقول تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"². فخلق الكون - المكان - الذي نعيش فيه وشعورنا بحركة الزمان الدائبة، بين تعاقب الليل والنهار، آيات تفرض على كل صاحب عقل تدبرها لينتهي كل ادعاء باطل، أو مقولة أسطورية حول عملية الخلق، وبداية الحياة. إن "مفهومي الزمان والخلود وعلاقتها مع الله، كانا موضوعي جدال فلسفي شديد خلال تاريخ الديانات"³. فمقدار الحقيقة في الحديث عن مسألة بداية الحياة، دون وحي إلهي، يكاد يكون صفرا، ورصيد الإنسان في هذا الفضاء الغيبي، هو رصيد فارغ، مقارنة بما أنتجه في ميادين علوم المادة. "وقد أثارت مشكلة الزمان انتباه المفكرين والمتصوفة المسلمين، ويرجع هذا (في جانب منه) إلى حقيقة أن القرآن يذهب إلى أن اختلاف الليل والنهار، هو أحد آيات الله الكبرى. كما يرجع في جانب آخر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في تعريفه لله بأنه هو الدهر"⁴. كما اكتسب المكان قيمة أكثر من ارتباطه بالزمان في الدراسات الفيزيائية الحديثة، منذ ظهور النظرية النسبية، وبدء طرح فكرة اتصال الزمان بالمكان، في مفهوم الزمكان"⁵. وكما أن خلق المكان وملكيته لله وحده، فكذلك خلق الزمان وملكيته، هي أيضا لله وحده، يقول تعالى: " وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"⁶ ويقول أيضا: " أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"⁷. ولتبدأ قصة الحياة والوجود، بقدرة الله الخالق عز وجل وحده، دون أي شريك له ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

¹ الإمام فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، الجزء السابع والعشرون دار العلم للطباعة ، الطبعة الأولى 1981 بيروت . ص 103 .¹

² سورة آل عمران : الآية 190 .

³ د . جيفري لانغ : حتى الملائكة تسأل ، ترجمة د. منذر العيسى ، دار الفكر دمشق 2013 . ص 114 .

⁴ محمد إقبال : المرجع السابق . ص 124 .

⁵ هيثم الحاج علي : الزمن النوعي وإشكالية النوع السردي ، الانتشار الغربي ، الطبعة الأولى 2008 بيروت . ص 141 .

⁶ سورة المؤمنون : الآية 80 .

⁷ سورة الأعراف : الآية 54 .

ومن " الدلالة أيضا على حدوث الأيام والليالي، أنه لا يوم إلا وهو بعد يوم كان قبله يوم كائن بعده، فمعلوم أن ما لم يكن ثم كان، أنه محدث مخلوق، وأنه له خالقا ومحدثا "1.

يقول تعالى " تَبْرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ٢ "2، فالله هو الذي خلق الإنسان ووهب له الحياة " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ٣ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤ "3. فوجود الإنسان يتطلب حتما، مكانا مهيا وزمانا. يقول تعالى: " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩ "4، ويقول أيضا: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٠ "5. إن الربط بين المكان والزمان يدل على الحركة والحياة، وكأنها بداية لقصة الإنسان والوجود. هذا هو المنهج الذي اتبعه القرآن الكريم، في سرده لقصة الإنسان والخلق، وهو منهج بعيد كل البعد، عن أي طرح افتراضي أو أسطوري، أو تأملي أو خيالي، لأن السارد في النص القرآني هو الخالق لكل شيء، وهو السارد لقصة الوجود " إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا اللَّهُ يُقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ٥٧ "6. فالآية تنفي مسبقا، وبشكل أكيد أي مجال للخيال، أو الخرافة أو الأسطورة، وعلاقتها بالنص القرآني عامة، وقصصه خاصة.

ولهذا يلفتنا القرآن الكريم دائما، إلى هذا الربط المتلازم، بين المكان والزمان لعملية خلق الكون وظاهرة اختلاف الليل والنهار، كدلالة على وجود الخالق القادر. وبهذا يكون القرآن الكريم قد طرح إشكالية الزمان من خلال عملية الخلق، مما يُولد تساؤلات حول مفهوم الزمان قبل وجود المكان. وجاء في تاريخ الطبري " إن الله عز وجل خلق السماوات والأرض قبل خلقه الزمان والأيام والليالي، وقبل الشمس والقمر "7. لكن إذا كان العلماء قد أثبتوا أن الزمن بدأ مع الانفجار الكوني الأعظم، فهل فكرت يوما ماذا كان قبل بداية الزمن؟ وماذا سيكون بعد نهاية الزمن؟. ولما " كان العلم الغربي قد تجاهل الحقائق التي قدمها الدين الحق، فقد تصور فروضا منها الصدفة والجبرية ونظرية الانفجار الهائل، وغيرها من مفاهيم

1 محمد بن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 21 .
2 سورة الملك : الآيتان 1 ، 2 .
3 سورة الفرقان : الآية 54
4 سورة البقرة : الآية 29 .
5 سورة آل عمران : الآية 190 .
6 سورة الأنعام : الآية 57 .
7 محمد ابن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 26 .

مغلوبة. حيث إن الكون في مفهوم الإسلام لم يبدأ بالانفجار، ولم يتطور بالصدفة، ولا يقر التطور المطلق "1. يقول تعالى " إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۗ ۓ "2، وهنا تظهر إشكالية أخرى حول عدد أيام خلق الكون، وحقيقة مدتها، وتدفع بالسؤال اللغز حول وجود الزمان قبل المكان، وكيف سيتم معرفة مقدار اليوم بدون مكان؟. إن قضية بداية الخلق بقدر ما هي قضية خطيرة، فهي قضية مهمة وأساسية. تُرى كم عالماً متخصصاً يشترك لبحثها وبيانها وتفصيلها؟ .

ستحتاج قضية بداية الخلق إلى كل عالم، وكل متخصص في شتى العلوم، تحتاج إلى عالم الأحياء والفيزياء، والفلك والجيولوجيا، والرياضيات والهندسة، وعلماء آخرين، بالإضافة إلى الفلاسفة والمفكرين، ليقدموا لنا فرضيات ونظريات. لكن مع ذلك كله، تبقى المعرفة نسبية، لأن أي " نظرية فيزيائية هي دائماً مؤقتة، بمعنى أنها فرض وحسب "3. فلا نكاد نتعاطى معها حتى يُظهر الامتدادُ الزمني خطأها، أو نقصها. في حين يقدم لنا القرآن الكريم قصة الخلق بمنهج يتحدى به كل هؤلاء العلماء مجتمعين، ليعلن عن خلق الكون من العدم. إن اللاشيء لن يتحول إلى شيء، وإن العدم لا يصير وجوداً، إلا بمشيئة الموجد المحيي سبحانه وتعالى " تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَمَاتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ "4. كما أن الله تعالى هو الذي بث الحياة في مخلوقاته ليجعلها حية تدب " وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ "5. وهذه إحدى عجائب الوجود الكبيرة " فوجود الحياة على هذه الأرض، سرٌّ لا يدعي أحد حتى اليوم إدراكه ولا تفسيره. الحياة في أول صورها في الخلية الواحدة السانجة الصغيرة، فكيف بضخامة هذا السر؟ والحياة تنتوع وتتركب وتتعدد أنواعها وأجناسها، وفصائلها وأنماطها إلى غير حد يعلمه الإنسان أو يحصيه "6. إذ كيف يمكن " أن تتحول كلمات نخطتها على أوراق، تصف فيها هيئة إنسان، مهما بلغت تفاصيلها ودقتها، إلى إنسان حقيقي (من لحم ودم)؟. لقد أصبح من الضروري الإقرار

1 أنور الجندي : المرجع السابق . ص 151 .

2 - سورة يونس : الآية 3 .

3 ستيفن هوكينغ : المرجع السابق . ص 21 .

4 سورة آل عمران : الآية 27 .

5 سورة لقمان : الآية 10 .

6 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الواحد والعشرون . ص 2787 .

بأن هناك نظاما ما، مازال مجهولا، هو المسؤول عن هذا التشكيل. ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ مازال مجهولا مطلقا¹. لهذا كان ربط القرآن الكريم بين المكان والزمان في قصصه، وفق مستويات تتجاوز مستوى الزمن الموضوعي والتاريخي إلى الخارق والغيبى. " يتعامل العلم مع الأشياء والقوانين التي تحكمها، ولكنه لا يتعامل مع العدم الذي يسبق الأشياء والقوانين. يتعامل العلم فقط مع ما يمكن ملاحظته وقياسه، ولا يملك أي قدرة على التعامل مع الغيب، أو مع الإله، أو مع ما قبل الزمان، وما خارج المكان². فلا العلم ولا الفلسفة يستطيعان التعامل مع المسائل الغيبية، إلا الله عالم الغيب سبحانه وتعالى .

إن " امتياز الأزل عن اللايزال يستدعي حقيقة الأزل، وانقضاء حقيقة الأزل محال، فهذه أبحاث غامضة في حقيقة التقدم والأولية والأزلية، وما هي إلا بسبب حيرة العقول البشرية في نور جلال ماهية الأزلية والأولية. فإن العقل إنما يعرف الشيء الذي أحاط به³. وبحثنا لموضوع توظيف الزمن في المجالين الغيبى والخارق، يجعلنا قريبين من فهم تلك الإشكالية لزمانية المكان في القصص القرآني. كما أن مفتاح إشكالية الوجود الزمني، هو فعل - كن - الذي صدر من الخالق لينفذ مشيئته العليا " بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ١١٧ "4. أما كيف خُلِقَ الكون؟ فهذا فوق إدراك البشر. " لقد صدر الكون عن خالقه عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة كن فيكون. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن على الصورة المقدره له بدون وسيط من قوة أو مادة. أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها ... فذلك هو السر الذي لم يُكشَفَ للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهياة لإدراكه⁵. وحسبنا أن نقف عند حدود طبيعتنا البشرية، وأن نلتزم بالنص القرآني، دون أن نكلف ببحث مسألة فوق طاقتنا .

تناول النص القرآني قصة المكان، من بداية خلقه إلى غاية اكتماله، مع تفصيل المدة الزمنية لخلق المكان. فالنص القرآني عرف بالخالق قبل الخلق، فأية " أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ

1 - د . عمرو شريف : رحلة عقل ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الرابعة 2011 ، مصر الجديدة . ص 102 . 103 .

2 المرجع نفسه . ص 129 .

3 فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء السابع والعشرون . ص 212 .

4 سورة البقرة : الآية 117 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 106 .

الَّذِي خَلَقَ " 1 - في أول التنزيل، توازي آية " أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ۲ " في فاتحة الكتاب. فقبل فعل الخلق لابد من خالق فاعل " وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ يحسن أن يقال لهم الكفار : إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكاً له في العبودية والإلهية ؟ " 3. وهذا هو المنهج الذي اتبعه القرآن الكريم لمعالجة إشكالية الزمانية عبر قصصه. إن بداية المكان ونشأته، وبداية الإنسان - بداية الوجود - لا يمكن لنا أن نجد لها أثراً في أي إنتاج سردي على الإطلاق، دون أن يكون مجرد تخمين أو افتراض، أو ملحمة أسطورية. وقد مضى علماء الغرب في الطريق الصعب، وحاولوا فهم الأمور من منطلق الأسطورة، وتراث الإنثربولوجيا، فأخفقت معطيائهم جميعاً، أخفقت في نظرية الطوطمية ونظرية القانون الطبيعي، وفي نظرية خلق الإنسان (التطور) " 4. الأمر الذي جعل الزمن إشكالية معقدة، يصعب على العقل أن يخوض فيها، دون مصدر إلهي وثيق. يقول بول ريكور* : " أتفق هنا مع هايدغر أن سؤال الذاتية ينتمي إلى دائرة المشكلات المتعلقة بنوع الكائن، الذي يسميه بالأنية، أو (الوجود الذاتي) والذي يصفه بقدرته على مساءلة ذاته عن كيفية وجوده، وهذا يصل نفسه بالوجود من حيث هو وجود، وإلى نفس دائرة المشكلات تنتمي مفاهيم مثل الوجود في - العالم - والهم - والوجود " 5. لذا فقصة المكان والزمان غير ماثلة في فضاء السرد الفني والتاريخي والعلمي، كما هي ماثلة بحقيقتها الجلية في النص القرآني عامة، وفي قصصه خاصة.

إن الفلسفة تنطلق من بداية موجودة، يجهل الفيلسوف بدايتها، كما ينطلق العلم من موجود مادي معين، يجهل العالم سبب نشأته. وبالتالي فلا الفلسفة ستجيب على هذه الإشكالية الزمانية، ولا العلم " فإننا كلنا فلاسفة وعلماء وأناساً عاديين وحسب، سنتمكن من المساهمة في مناقشة السؤال عن السبب في وجودنا، نحن والكون، ولو وحدنا الإجابة عن ذلك، فسيكون في ذلك الانتصار النهائي للعقل البشري، لأننا وقتها سنعرف الفكر الخلاق " 6. وكان على

1 سورة العلق : الآية 1 .

2 سورة الفاتحة : الآية 2 .

3 فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء السابع والعشرون ، ص 103 .

4 أنور الجندي : المرجع السابق . ص 152 .

* بول ريكور 1913 ، 2005 فيلسوف فرنسي وعالم إنسانيات وواحد من ممثلي التيار التأويلي ومن رواد السرد .

5 بول ريكور : الهوية السردية ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 1999 ، الدار البيضاء . ص 255 .

6 ستيفن هوكينغ : المرجع السابق . ص 151 .

الباحث أن يقول سنعرف أن لهذا الكون ربا خالقا. " إن الفلسفة ترى الحقيقة على ما تظهر عليه من بعيد أما الدين فيهدف إلى توثيق صلته بالحقيقة عن قرب. الفلسفة نظرية، أما الدين فتجربة حية، إنها مصاحبة واتصال حميم "1. إن الفيلسوف والعالم لا يملكان علما بالغيب، ولا يستطيعان الخروج عن المكان، ولا التحرر من الزمان. بالإضافة إلى كونهما خلقا من مخلوقات الله تعالى، يتساويان مع المكان والزمان في المخلوقية، فجميعهم خلق الله، لا يتفاوتون إلا بما خص الله الخالق كل واحد منهما بما أَراده الله، وفق مشيئته وعلمه وحكمته، ولا اعتراض على ذلك إطلاقا. فلا المكان يعترض عن صفته الجمادية المسخرة لنا، ولا الحيوان يرفض طبيعته البهيمية، ولا الإنسان العاقل يحتج على طبيعة إنسانيته. وحتى إن افترضنا ذلك جدلا، فلن يغير احتجاجه شيئا من طبيعته التي خلقه الله عليها. فالخالقية التي تتصف بها الذات العليا في قوله تعالى: " هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤ "2. تتجلى طلاقتها في خلق الكون بكل ما فيه، ومن فيه .

لهذا كان إيماننا بأن هذه الإشكالية، لا بد من معالجتها ضمن القصص القرآني، ووفق منطوق النص، دون أن نحيد عن سياقه، ولا نحمله ما لا يحتمل " وبالقدر نفسه من الخطأ ، الافتراض أن كينونة الله أو وجوده، محصور بنقطة، أو فاصل زمني محدودين "3. كما أن " القدسية صفة تعظيم تنسب لكل شيء يتعالى على العالم، ويتنزه عن مشابهته "4. وحسبنا قوله تعالى عن ذاته العليا، وقوله الحق : " فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهَا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ "5. وهذا يدل على انتفاء الشبيهة على الذات الإلهية، وبه " كان اتفاق أهل السنة أن الله ليس كمثل شيء، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله "6. وعلى هذا الأساس ستتم دراستنا للموضوع مستهلين مبحث هذا الفصل ، بارتباط المكان بالزمان في القصص القرآني .

1 محمد إقبال : المرجع السابق . ص 105 .

2 سورة الحشر : الآية 24 .

3 د. جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 115 .

4 طه عبد الرحمن : روح الحدائث ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 2006 ، الدار البيضاء المغرب . ص 52 .

5 سورة الشورى : الآية 11 .

6 ابن تيمية : منهاج السنة ، الجزء الثاني ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، الرياض. ص 110 .

أ - ارتباط المكان بالزمان في القصص القرآني :

إن القرآن الكريم حين ربط المكان بالزمان ضمن إطار قصصه، لم يتعرض إلى الزمن الموضوعي - الكرونولوجي - إلا من خلال ما يخدم العقيدة مما أدى ببعض المهتمين بالدراسات القرآنية من مستشرقين وعرب، إلى القول بإيهام القرآن للزمان في قصصه. إلا أن الملاحظ يجد أن القرآن الكريم عند توظيفه الزمن، تجاوز المجال الطبيعي والتاريخي إلى المجال الخارق والغيبى. بل أكثر من ذلك، إن القرآن الكريم جعل بداية للزمان، وبداية للمكان. يقول تعالى: " أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " 1، ويقول أيضا: " ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " 2. وعن ابن عباس قال: " قال الله عز وجل للسموات أطلعي شمسي وقمري واطلعي نجومى، وقال للأرض شققي أنهارك واخرجي ثمارك، فقالتا أتينا طائعين " 3. وهذا المعنى في التفسير، يوضح أن الخلق خضع لإرادة خالقه ومشينته سبحانه وتعالى. أما الكيفية فلا هي تزيد في علمنا، ولا هي تنقص من جهلنا، ولا يقدر عقلنا أن يحيط ببداية خلق الكون، لأنه من الغيب. لكننا نستطيع أن ندرك وراء عظمة هذا الخلق، خالقا أعظم، لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به .

كما أن كلمة استوى " إن كانت للعرش يقول - استوى على - وإن كانت للسماء قال - استوى إلى - البعض فهم على أنه كاستواء المخلوق على الكرسي، فوقفوا في التشبيه والتجسيم أما استوى إلى السماء، يعني قصدتها وتوجه إليها، بإرادته سبحانه ... استوى على العرش دلت على أن الكون كله استجاب له، وانقاد لأمره دون منازع. لذلك قال هنا في السماء والأرض قالتا أتينا طائعين " 4. والاختلاف جلي في المعنى وفي التصور، وعرش الرحمن خارج عن أي تصور بشري. يقول سيد قطب: " ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا عن الكلام في خلق الأرض والسماء يتحدثون عن القبلية والبعدية ويتحدثون عن الاستواء والتسوية، وينسون أن قبل وبعد اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى،

1 سورة الأنبياء : الآية 30 .

2 سورة فصلت : الآية 11 .

3 محمد بن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 26 .

4 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد الثاني والعشرون ، ص 13511 .

وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان إلى التصور البشري المحدود، صورة غير المحدود¹. وبالتالي فالخوض في كيفية الاستواء، هو غرور فكري، وشطحات عشوائية لا يُنتظر من صاحبهما إلا الضلال المبين - وليس بعد الحق إلا الضلال - والمؤمن العالم يحترم فكره ويقف عند حدود بشريته، التي حددها الله عز وجل، بعلمه وحكمته وإرادته. كما يقف أمام جلال الألوهية، مسبحاً بحمد وعظمة الله الواحد الأحد، منزهاً ربه عن كل صفة، لا تليق بجلاله وسلطان عزته .

إن السرد القصصي الفني يبني أحداثه على مكان وزمان موجودين سابقاً، ولا دخل للسارد في مسألة الزمكانية إطلاقاً، ولا يشغل باله في البحث عن بدايتها أو نهايتها، أو الربط بين المكان والزمان، ليجلي لنا مدى أثر الفاعلية المطلقة. لأن هذا الأمر ليس في متناول القدرة البشرية المحدودة، الخاضعة لشروط الزمن. لهذا تنحصر العملية السردية في تتبع وعرض ووصف الحركة والفعل للشخص، ضمن المكان والزمان الموجودين. أما المنهج القرآني فيقدم لنا أن " العالم ليس مجرد جملة من الظواهر تحتاج إلى رفع الطلاسم عنها، باكتشاف قوانينها، وإنما هو جملة من الظواهر التي ترتقي إلى رتبة الآيات، فتحمل معاني دقيقة تدل على أن لها خالقاً يتقدس عن مماثلتها². ولهذا تعرض النص القرآني للزمكانية، ليجعل منها مبدأ الاعتبار والتدبر. ولا بد أن نشير في هذا المقام إلى أن المسألة الزمكانية في القرآن، بعيدة كل البعد عن أي وجهة فلسفية، وخاصة حين يُبحث ارتباط المكان بالزمان، عند بداية عملية الخلق .

يعلن القرآن الكريم هذه الحقيقة، ليسرد عملية خلق الإنسان الذي سيحيا على هذا المكان " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ "3. ليصبح المكان مُسخرًا لهذا الإنسان من طرف الله، ومُهيأً له قبل أن يحل به. لذلك قال تعالى تمهيدا لقصة آدم " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا "4. فعملية الوجود بالنسبة لحياة الإنسان تركز على ارتباط المكان

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 53 .

2 طه عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 52 .

3 سورة البقرة : الآية 30 .

4 سورة البقرة : الآية 29 .

بالزمن، بعد تسخيرهِ للإنسان، ولا يمكن أن يحصل ذلك، إلا من خلال الله الخالق. لقد " اكتسب المكان قيمة أكبر من حيث ارتباطه بالزمن، في الدراسات الفيزيائية الحديثة، منذ ظهور النظرية النسبية، وبدء طرح فكرة اتصال الزمان بالمكان في مفهوم الزمكان "1. إلا أننا كمؤمنين نرى أن قيمة المكان الأساسية ينبغي أن تتجه نحو معرفة المكون الذي أوجده وأبدعه. كما ينبغي أن تكون قيمة الإنسان الحقيقية، هي معرفة خالقه، ليعرف حقيقة نفسه " هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ "2. فأين كان قبل أن يحين زمن ميلاده ؟ وأين هم الذين سيأتون بعدنا ؟ وفي أي مكان وزمان هم الآن ؟. والسؤال نفسه يكون حول بداية المكان المخلوق .

تقص علينا سورة فصلت هذه الحقيقة، وتفصل مدة الخلق الزمانية للأرض والسماء . يقول الله تعالى، ردا على منكري الخالق، وعملية الخلق : " قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبُرُكَّ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ١٠ "3. ثم يذكر الله تعالى عدد السماوات ومدة خلقهن، فيقول : " فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٢ "4. وبالتالي فمدة خلق الأرض وتهيئتها هي أربعة أيام، ومدة خلق السماوات هي يومان. ولربما أثار البعض مسألة التناقض في عدد أيام الخلق المفصلة في هذه الآيات، دون أن يكلف نفسه استيعاب مفهوم سياق الخطاب القرآني. والجواب إن المراد بقوله - قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ - إلى قوله - وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ - مع اليومين المتقدمين " ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره ... ثم قال - فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ - وأراد سوى الأربعة، وذلك لا مخالفة فيه لأن المجموع يكون ستة "5، باعتبار اليومين داخلين في الأيام الستة. كما انحرف بعضهم عن الحق، حيث اعتبرت الأيام الأربعة أشخاصا، وهذا ما جاء في كتاب الهفت والأظلة " هي الأيام التي خلق الله بها الأرض وهي : محمد

1 هيثم الحاج علي : الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردية ، الانتشار العربي ، الطبعة الأولى ، 2008 ، بيروت . ص 141

2 سورة الإنسان : الآية 1 .

3 - سورة فصلت : الآياتان 9 ، 10 .

4 سورة فصلت : الآية 12 .

5 الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق أبي الفضل الديمياطي، دار الحديث ، 2006 القاهرة . ص 365 .

وعلي والحسن والحسين "1 . وهذا تعسف وانحراف في فهم النص، سببه الهوى الشخصي. وهل بهذا الاعتقاد الباطل تفهم إشكالية الزمان في النص القرآني ؟

إن " هذا الكون كون مؤمن مسلم، يعرف بارئته ويخضع له، ويسبح بحمده كل شيء حي عدا بعض الأناسي "2. ولا علاقة لأي أحد من عباد الله - مهما كانت مكانته - بعملية خلق الكون إنها إرادة الله ومشينته هو وحده. يقول تعالى مبينا عظمته سبحانه وتعالى: " أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ ٨٣ "3. فالمكان والزمان وكل المخلوقات خاضعة لله وحده لا شريك له " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝ ١٥ "4 إن " الكون مسخر لخدمة الإنسان، والتسخير معناه التذليل، ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان. وإذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرد بقدر الله، مثلا الفياضات والبراكين والكوارث الطبيعية، نقول إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى، إلى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا، ولا بسيطرتنا عليه، وإنما يخدمنا بأمر الله له "5. فنحن نعيش ضمن كون مُسخر لنا، وقد يعبر العلماء عن هذا التسخير بقولهم: " يبدو الكون قد تم تفصيله على مقياس الإنسان "6 وكذلك في قولهم: " يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون "7. لكن السؤال الأهم هو من فصل هذا الكون على هذا المقياس؟ ومن أعلم الكون بقدمنا، وباحتياجاتنا الحياتية والضرورية، علماً بأن الكون خلق جامد، غير عاقل؟ وهل وصل الحد بالكون أن يكون عالماً ليتهيأ لنا بهذا الذكاء الخارق، والشكل الدقيق لينسجم مع طبيعتنا، ويتحول إلى كون مسخر لنا، وليس العكس؟. " ليس الإنسان مفصلاً على طراز داروين، ولا الكون مفصلاً على طراز نيوتن "8. فلا بد أن نجد جواباً كافياً لدى العلماء والفلاسفة لهذا التساؤل، وهنا نقطة الاختلاف بين المؤمن والكافر .

1 ابن عمر الجعفي : الهفت الشريف ، تحقيق د.مصطفى غالب، دار الأندلس ، الطبعة الثانية ، بيروت (ب ت). ص 139 .
2 سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، دار الشروق ، الطبعة الثانية 2003 . ص 1822
3 سورة آل عمران : الآية 83 .
4 - سورة الملك : الآية 15 .
5 - الشيخ مجيد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، ص 230 .
6 - عمرو شريف : المرجع السابق . ص 140 .
7 عمرو شريف : المرجع السابق . ص 140
8 علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب، مؤسسة بافاريا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1994 . ص 45 .

لقد أجاب النص القرآني على تسخير الكون لنا، وما نلمسه في الآيات القرآنية، نلمسه أيضا في الآيات الكونية. أما " مسلمة أن الإنسان يسود الطبيعة، فلا تقل شيوعا في أوساط الحدائين منذ أن نطق ديكارت، وهي في نظرنا لا تزيد في كونها استعاريا، حكمه حُكم الخيال الجميل. فالحقيقة أن سيد الشيء، إنما هو مالكة، والإنسان لا يملك الطبيعة، فلم يخلقها بيده ولا بأمره"¹. لكن النص القرآني لم يقف عند حد التسخير، بل زاد عن ذلك مسألة مهمة وخطيرة ، وهي سرد قصة خلق الكون مع ذكر المدة الزمانية. وقد تكررت الآيات لتؤكد المدة، فجاء إحصاء مدة خلق كل ما في الأرض وتهيئتها، وتسوية السماوات بستة أيام ، في قوله تعالى : " إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٥٤ " 2 وقوله : " إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۗ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذُكِّرَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ٣ " 3 وكذلك " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا لَنُكْفِرُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ " 4 وأيضا " الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ قَسَىٰ بِنُحُورِهِمْ سَبْحًا فَاتَّخَذُوا مِنْهَا نَعْلًا وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ " 6. ولن يستطيع إحصاء تلك المدة الغيبية، إلا الخالق، عالم الغيب والشهادة، الله تعالى، ولا علاقة لتلك الأيام بأي شخص، ولن يتحول إلى وسيلة، لعملية الخلق مهما كانت منزلته، فالكل مخلوق، والله وحده هو الخالق المتفرد بالخالقية سبحانه وتعالى .

كما نجد أن مدة ستة أيام قد أشار إليها العهد القديم، في سفر التكوين، حين تعرض لعملية الخلق " ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادسا"⁷ لكن نص العهد القديم، يضيف كلاماً لا يدل على تنزيه الخالق جل جلاله " فأكملت

¹ طه عبد الرحمن : المرجع السابق . 44 .

² سورة الأعراف : الآية 54 .

³ سورة يونس : الآية 3 .

⁴ سورة هود : الآية 7 .

⁵ سورة الفرقان : الآية 59 .

⁶ سورة السجدة : الآية 4 .

⁷ العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الأول ، الفقرة 31

السموات والأرض وكل خبرها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل "1. وصفة الخالقية ترفض هذا الادعاء بالتعب المزعوم لذات الله، والحد من قدرة الخالق المطلقة. ويقول مفسرو هذا النص: "نحن نعيش في عالم مشحون بالحركة، ومع ذلك فقد بين الله لنا أن الراحة مفيدة، وليست خطأ إن كان الله نفسه قد استراح من عمله، فلا عجب أن نكون نحن أيضا في حاجة إلى الراحة... فأوقات الراحة تنعشنا وتعدنا لأوقات العمل والخدمة"2. ولسنا ندري هل هؤلاء المفسرون يتحدثون عن حقيقة الألوهية، وكون الله هو الخالق، أم يتحدثون عن طبيعة الإنسان، وكونه مخلوقا يحتاج إلى الراحة لمواصلة نشاطه؟ أم هم يساوون بين خلق الله، وعمل الإنسان، تساويهم الخالق بالمخلوق؟. كما تنص ملحمة الخلق البابلية على اتخاذ هذا اليوم هو يوم الاجتماع بعد انتهاء الإله مردوخ من العمل "في الرواية البابلية كان هذا اليوم موعدا للاجتماع العظيم لتحديد الأقدار ولمنح الألقاب على مردوخ"3. وبهذا يكون تقاطع نص سفر التكوين مع الأسطورة البابلية، في قصة خلق الكون.

لم يغفل الخطاب القرآني هذه الفرية، بل رد عليها في قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝ ٣٨"4. إن الله في الخطاب القرآني لا يمسه لغوب، ولا تأخذه سنة ولا نوم "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ"5. ولهذا نجد الخطاب القرآني يُسقط كل تهمة، أو نقص ينسبهما أي سرد إلى الذات العليا، والتي تتصف بالكمال المطلق، لتجعل حداً لكل ادعاء باطل، لا يليق بجلال عظمتها، وعز سلطانه، سبحانه وتعالى. وكيف يكون ذلك مقبولا للذات العليا؟ إن "غاية الغايات أن نقول: إن الوجود الأبدي أكمل الوجود، وإن أكمل الوجود يخلق وجودا آخر دونه في الكمال"6. فكيف يخضع الله تعالى للزمكانية، وهو الذي خلق المكان والزمان؟ ومن هنا فرق الخطاب القرآني بين الخالق الذي - ليس كمثل شيء - وبين الوجود الزمكاني "خالق واحد لا أول له ولا آخر...".

1 الموجه نفسه: الإصحاح الثاني، الفقرتان 1، 2.
2 مجموعة من الباحثين: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ترجمة شركة ماستر ميديا، الشركة الدولية للكتاب المقدس، القاهرة 1997. ص 9
3 كارين أمسترونج: الله والإنسان. ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد للنشر، الطبعة الأولى 1996 دمشق. ص 75.
4 سورة ق: الآية 38.
5 سورة البقرة: الآية 255.
6 - عباس محمود العقاد: موسوعة العقاد الإسلامية، المجلد الرابع، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 1970 بيروت. ص 114

وعالم مخلوق خلقه الله ويفنى كما يوجد بمشيئة الله. وإذا عبرنا عن هذه العقيدة بلغة الفلسفة، قلنا : إنهما وجودان، وجود الأبد، ووجود الزمان "1 ليجعلنا القرآن الكريم أمام حقيقة لا يكاد أي واحد أن ينكرها حتى الكفار والمشركين. " وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۚ ۲۰ "2. فكل الآلهة التي تصورها المشركون بزعمهم، أو نحتتها أيديهم، هي مخلوقة ومصنوعة، تتساوى في المخلوقية مع الذين يعبدونها ويؤلّهونها ويقدمونها، بل هم أرفع منها درجة من حيث العقل والتكريم .

إن الكون وكل ما يحتويه مخلوق، له بداية زمانية، كما له نهاية زمانية. وأن الله وحده هو الخالق الذي لا أول له ولا آخر " هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ 3 "3. إنه خارج المكان والزمان " فتبين إذا كان القديم بارئ الأشياء وصانعها، هو الواحد الذي كان قبل كل شيء، وهو الكائن بعد كل شيء، والأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، وأنه كان ولا وقت ولا زمان ولا ليل ولا نهار، ولا ظلمة ولا نور، إلا نور وجهه الكريم "4. إنه الخالق الموجد، وجاء في الحديث الشريف في باب بدء الخلق " كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض "5. فهو الخالق وهو الفاعل، والكل مفعول به ومنفعل. فالمكان يتحول إلى مخلوق طائع ينفذ أمر الله، فخلق المكان كان بأمر الله، ومدة الخلق وتفصيلها أيضا كانت بعلم الله تعالى، ثم تم خلق الإنسان. يقول تعالى : " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۚ ۷ "6. وهذا الترتيب في الخلق الذي يسرده النص القرآني، يبطل وصف العهد القديم بما لا يليق بالله تعالى .

إننا نفهم حقيقة قصة آدم، حين أخرجه الله من الجنة، ليهبطه إلى الأرض التي هيأها له في سابق علمه سبحانه، وكان ذلك بعد المعصية " فأدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى "7. هذا الترتيب في الخلق، هو ما يتفق مع كل فكر علمي. يرى " العلماء والفلاسفة

1 - المرجع نفسه ، ص 111

2 سورة النحل : الآية 20 .

3 سورة الحديد : الآية 3 .

4 محمد ابن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 30 .

5 الإمام البخاري : صحيح البخاري ، مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر 2011 . ص 499 .

6 سورة السجدة : الآية 6

7 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

الماديون أن بداية نشأة الكون كانت تلقائية، وأن انتقاله من مرحلة إلى أخرى في هذه النشأة، كان يتم بعشوائية، لذلك يعتبرون القول بأي قصد وراء خلق الكون - وهو ما يُعرف بالغاائية - خروجاً صريحاً على العلم. بينما يرى المؤمنون بمفهوم التصميم الذكي : إن ما في بنية الكون من توافق مذهل مع احتياجات الإنسان دليل على الغائية، التي تعني أن الإله قد صمم الكون على هذه الهيئة ليكون مناسباً لنشأة الحياة بصفة عامة، ونشأة الإنسان بصفة خاصة¹. والفرق واضح بين النظرتين، باعتبار أن الإنسان يستحيل عليه أن يعيش ويستقر، إلا على هذه الأرض التي نحيا عليها منذ ألبينا آدم، إلى أن يأتي أجل إلى حين .

لقد بدأت قصة الإنسان في الجنة، تلك البداية التي لا يعلم بداية زمنها، إلا الله الخالق " وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٥٩ "2، وستنتهي بعد مدة زمنية كذلك، علمها عند الخالق وحده. يقول تعالى : " وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٥ "3. في هذه اللحظة الزمانية الغيبية ينتهي كل شيء، فيصبح المكان هباء منثوراً ، وهذا ما أكدته النص القرآني " كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧ "4. إن الوجود الزمني سينتهي كما بدأ، سينتهي المكان بزمن غيبي معلوم عند الخالق العليم، كما بدأه بزمن غيبي، لا يعلم بدايته إلا هو. لقد حاول بعضهم أن يخوض في مسألة المدة الزمنية من بداية آدم، فزعم " اليهود أن جمع ما ثبت عندهم على ما في التوراة مما هم فيها من لدى خلق الله آدم إلى وقت الهجرة، وذلك في التوراة التي في أيديهم اليوم : أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنان وأربعون سنة، وقد ذكروا ذلك بولادة رجل رجل، ونبي نبي وموته، من عهد آدم إلى هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم "5. يقول تعالى : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظُهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ

1 - عمرو شريف : المرجع السابق ، ص 139 .

2 - سورة الأنعام : الآية 60 .

3 سورة الزخرف : الآية 85 .

4 سورة الرحمن : الآيتان 26 ، 27 .

5 محمد بن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص 17 .

بِعَيَّرِ عِلْمَ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ٢٠"١. والخوض في قصة زمن بداية الحياة، والخلق بغير علم إلهي، هو رجم من الغيب .

ينقل لنا عباس محمود العقاد عرضاً من محاكمة جرت حول مدة خلق السماوات والأرض* : " وهذه بعض الأسئلة والأجوبة، التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامي الدفاع وخبير الاتهام :

هل لك أن تخبرني يا مستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟ .

كلا يا سيدي .. لست أدري .

ولا على وجه التقريب ؟

لست أحاول .. ولعلي أقرب من تقديم العلماء، ولكني أحب أن أدقق أكثر قبل الجواب .

أعتقد أن الكرة الأرضية صنعت في ستة أيام ؟ .

ستة أيام نعم .. ولكنها ليست الأربعة والعشرين ساعة"٢. إن هذا الموقف القضائي لا يحل

المسائل الغيبية، فلا المحكمة تستطيع ذلك، ولا العلم يقدر أن يجد الإجابة عن مسائل غيبية.

بل وصل في الولايات المتحدة أن طور " الأصوليون البروتستانت إيديولوجيات تعرف باسم

- علم الخلق - تعتبر أساطير الإنجيل دقيقة علمياً، من ثم ظلوا يقومون بحملات لمنع تدريس

نظرية التطور بالمدارس، لأنها تتعارض مع قصة الخلق كما جاءت بسفر التكوين"٣.

والتعارض بين العلم والدين، يستحيل أن يكون، إلا إذا كان أحدهما تخريفاً وباطلاً. لأن

المسائل الغيبية هي من اختصاص الله الذي يملك مفاتيح الغيب وحده، وكل محاولة ذاتية في

هذا الأمر، فهي محض ادعاء باطل، لا تقدم ولا تؤخر، لأنها لا تستند إلى حق، ولا تُستمد

من وحي إلهي .

١ سورة لقمان : الآية 20 .

٢ - عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، المجلد الرابع . ص 309 ، 310 .

* هذه المحاكمة جرت في شهر يوليو عام 1925 : لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقي الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات . وحوكم الأستاذ سكوب بدايتون في هذا التاريخ ، لأنه خالف القانون الذي حرم تدريس المذهب لخروجه عن العقيدة الدينية ... إلا = أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيراً عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذاهب البراهين العلمية . فأخذ منهم فريق في تفسير المذهب بالمعنى الذي يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية . عن المرجع نفسه للعقاد صفحة 310 . وهذا يدل على المأزق الإيماني الذي وجدت الكنيسة نفسها فيه من خلال نص العهد القديم = والنظريات والفرضيات العلمية . وما بين العلم والعقيدة اليهودية والمسيحية . وما بين تعاليم الكتاب المقدس والتعليم المدني ، وما بين الفكر الديني والفكر العلماني . مما أدى إلى إشكالية لم تستطع الكنيسة ولا العدالة ولا العلم أن يجد لها حلاً ، فكفر العلم بالعقيدة ثم بالدين كله ، مما جعل نصوص الكتاب المقدس عرضة للنقد والتكذيب . ولهذا فالنص القرآني قد حسم الأمر في البداية بقوله تعالى في سورة البقرة وفي الآية الأولى منها " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه " .

٣ كارين أمسترونج : الله لماذا؟ ، ترجمة فاطمة ناصر، مكتبة الأسرة 2010 ، مصر . ص 18 .

بالنسبة لنا - نحن المؤمنين - فللمكان وللزمان بداية معلومة عند الخالق، كما أن الحياة مستحيلة بدون المُحي الذي لا يموت. مما يجعلنا نصل إلى نتيجة إيمانية و يقينية لا شك فيها ، وهي أن الله هو الذي خلق المكان والزمان، ثم خلق الإنسان. لم تخص " الأدبية القرآنية المكان من حيث هو حيز مادي، أو فضاء فيزيقي مائل، أو متخيل بتنويهاها، إلا لكونه أحد الموضوعات الأساسية التي ارتكز حولها الخطاب القرآني، سواء وهو يبني مجالته الحسية بوصف مظاهر العظمة المادية التجلية فيه، أو وهو يستدل بآثار الكون الحسي عن ألوهية الخالق رب العالمين "1. كما أنه لا يمكن لأي مخلوق أن يدعي بأنه خلق ولو ذرة من هذا الكون، وحتى المشركين الذين اتخذوا أرباباً يعبدونهم من دون الله الخالق، يتحداهم الله بهذا السؤال " هَذَا خَلَقُ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظُّلُمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١١ "2. إن الخطاب القرآني يفضح كل ادعاء لأي متأله مزعوم، بل يجعله صفراً لا يساوي شيئاً، مقابل مخلوقات الله المتجسدة، أمام تلك الادعاءات الباطلة التي لا تصمد أمام صدقية وإعجازية وتحدي الخطاب القرآني. إن الحياة سر، لا يعلم كنهها إلا خالقها. ولم يسمح لعقل الإنسان المحدود أن يعرف ذلك السر الإلهي لعملية الحياة، ولن يستطيع العلم أن يجيب على هذا السر الغيبي .

إن مسألة الحياة والموت، هي خارجة عن نطاق حدود العلوم الذي ينشط في عقل الإنسان. فالعلم يبحث في الكائنات الحية، ولكنه لا يبحث ما هو السر في حياتها. وهذا ما أدى بطرح السؤال - ما هي الحياة؟* - على علماء البيولوجيا والأطباء، وعلماء الطبيعة، وقد أجاب أحدهم بقوله: " حتى الآن لا نعرف على وجه التحديد ماهية الحياة. نحن لا نستطيع حتى أن نقدم تعريفاً كاملاً ودقيقاً لظاهرة الحياة "3. فالعلم لا يجيب عن سر الحياة ونشأتها، وإنما يدرس الكائنات الحية التي يستطيع أن يراها تتحرك وتنمو، لكنه يصعب عليه إدراك هذا السر " إن لغز الإنسانية قد بدأ في لحظة الخلق، تلك المقدمة السماوية، أو الفعل الذي

1 - د . سليمان عشراي : الخطاب القرآني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1998 . ص 147 .

2 سورة لقمان : الآية 11 .

3 علي عزت بيجوفيتش : المرجع السابق . ص 67 .

* في سنة 1950 وضع أندريه جورج سؤالا واحدا لعلماء البيولوجيا والأطباء ، وعلماء الطبيعة هو : ما هي الحياة ؟ . وكانت الإجابات التي تلقاها ذرة وغير محددة . ومن الإجابة التي جاءت ردا على هذا السؤال : " يظل السر كاملا فنقص المعلومات تجعل كل تفسير للحياة أقل وضوحا من معرفتنا الغريزية بها " عن كتاب الإسلام بين الشرق والغرب ، ص 67

سبق تاريخ الإنسانية كله، وليس في مقدور العقل أو العلم أو الخبرة في حد ذاتها، أن تساعدنا في الاقتراب أو الفهم الأفضل، لهذه الأمور كلها¹. والسؤال : كيف تنتج مادة حية من مادة ميتة ؟ هو سؤال محير حقاً، لا زال العلم يطرحه على نفسه. لكن الله تعالى يتحدث عن خالقيته وفاعليته في قوله : " إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ نُوْفُكُونَ ٩٥ "2. وأمام هذه الظاهرة المتكررة لدورة الكائنات الحية اختتمت الآية بسؤال إنكاري لمنكري الخالق - فأنى تؤفكون - ؟ .

هذه الخالقية التي تتصف بها الذات العليا، تؤسس لمرحلة ماقبلية حيث لا مكان ولا زمان والأمر الملفت للانتباه، هو أن القرآن الكريم قد عالج تلك الإشكالية، دون تعقيد أو غموض، بعيداً عن أي توظيف أسطوري أو خيالي. فكما أن بداية الكتاب أعلنت الربوبية لله وحده في سورة الفاتحة - اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - كذلك كانت بداية التنزيل تعلن الخالقية لله وحده " أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ "3. إن خلق المكان الذي نعيش عليه، يفرض علينا أن نسأل ما قبل المكان، وهذا يحيلنا بطريقة آلية على الزمان، وبالتالي تظهر لنا إشكالية (الماقبل). لأن المرحلة التي سبقت وجود المكان، لا يعلمها إلا الله الخالق العليم، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك " هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُورًا "4. وقال أيضا : " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ "5. وهكذا " في آية واحدة قصيرة يُفتح سجل الحياة كلها ويُطوى، وتُعرض في ومضة صورة البشرية في قبضة البارئ ينشرها من همود الموت أول مرة، ثم يقبضها بيد الموت في الأولى، ثم يحييها كرة أخرى، وإليه مرجعها في الآخرة، كما كانت منه نشأتها في الأولى "6. فكل الوجود في قبضة خالقه وموجده، وقد جاءت هذه الآية تمهيدا لقصة آدم - عليه السلام - كما ذكرنا سابقا، لتضع أمامنا حلا لإشكالية بداية الوجود .

1 علي عزت بيجوفيتش : المرجع السابق . ص 232 .

2 سورة الأنعام : الآية 95 .

3 سورة العلق : الأيتان 1 ، 2 .

4 سورة الإنسان : الآية 1 .

5 سورة البقرة : الآية 28 .

6 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 53 .

أما مسألة المكان الذي لم يكن موجوداً، ثم صار كائناً بأمر من الله عز وجل " ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ "1. وجاء في الحديث الشريف في باب بدء الخلق " كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض "2. يقول تعالى: " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا "3. والمعنى كما يقول ابن عاشور: " إن العرش كان مخلوقاً قبل السماوات، وكان محيطاً بالماء، أو حاوياً الماء. وحمل العرش أنه ذات مخلوقة فوق السماوات، هو ظاهر الآية. وذلك يقتضي أن العرش مخلوق قبل ذلك، وأن الماء مخلوق قبل السماوات والأرض. وتفصيل ذلك وكيفيته، وكيفية الاستعلاء مما لا قبل للأفهام به، إذ التعبير عنه تقريب "4. وجاء مرة أخرى في كتاب الهفت والأظلة " العرش في الباطن أربعة أركان، أي أربعة أشخاص، فالركن الأول هو محمد صلى الله عليه وسلم والركن الثاني أمير المؤمنين (علي) والركن الثالث الحسن، والركن الرابع الحسين "5. فمرة هم الأيام الأربعة، ومرة هم أركان العرش الأربعة، وهذا غلو ورجم بالغيب في المسائل الغيبية، بعيد عن الحق. أما مسألة كيف " كان هذا الماء؟ وأين كان وفي أي حالة من حالاته كان؟ وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء؟ فزيادات لم يتعرض لها النص. وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدره لعلمه إلا هذا النص في حدوده "6. وهذا هو الكلام المعقول الذي يطابق عقيدة المؤمن بالغيب، والذي نحاول أن نسير وفقه .

إن هذه الآية قد وضعت لنا حداً في مفهومنا للزمان لن نستطيع تجاوزه، كما وضعت لنا حداً في مفهومنا للمكان لن نقدر أن ندركه. وهذا ما يؤكد على الظاهرة الزمكانية التي يؤسس لها النص القرآني " فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه، وحسبنا ما يقص لنا عنه بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا ويصلح سرائرنا ومعاشنا. ولنأخذ من القصة ما تشير إليه

1 سورة فصلت: الآية 11 .

2 الإمام البخاري: صحيح البخاري، مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، مصر 2011. ص 499 .

3 سورة هود: الآية 7 .

4 الشيخ طاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير. الجزء الثاني عشر. ص 7 .

5 ابن عمر الجعفي: الهفت الشريف، تحقيق د. مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة الثانية بيروت (ب ت). ص 79 .

6 سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع، الجزء الثاني عشر، ص 1857 .

من حقائق كونية وإنسانية ، ومن تصور للوجود وارتباطاته، ومن إحياء بطبيعة الإنسان وقيمه وموازينه، فذلك أو حده أنفع للبشرية وأهدى "1. ولذلك قال تعالى: "فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ أَحَقُّ فَمَآذَا بَعَدَ أَحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصَرَّفُونَ ۚ ۳۲"2. مما يجعلنا نتوقف عند هذه المرحلة " من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود، في شكلهما الذي انتهى إليه، كان هناك الماء، وكان عرش الله سبحانه على الماء "3، وعند هذا الحد حُسمت قضية الزمكانية، بنص الوحي الإلهي. لكن العهد القديم، وفي بداية سفر التكوين يقول: " في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء "4. ومرة أخرى يجعل نص العهد القديم من ذات الله تجسيدا، يتصل بالمكان المخلوق المحدود. إن تحديد الخالق بالمكانية، يسقط الإيمان بالغيب، ويخلخل تصور صاحب هذا الكلام الدال على التخيل والتخريف، البعيد عن الحق، فضلا على إبعاد النص، وإخراجه من مجال الوحي الإلهي .

إن عملية خلق الكون هي قصة بداية الزمكانية بالنسبة لنا نحن البشر، وقد حاول الفيلسوف المعاصر بول ريكور أن يقدم هذه الأطروحة في بداية خلق الزمان، فقال: " لكن أطروحة كون الزمن قد خلق مع خلق العالم، وهي الأطروحة التي نجدها أصلا عند أفلاطون تترك المجال مفتوحا أمام إمكان وجود أزمنة أخرى قبل الزمان ... وهكذا فإن الزمان الموجود قبل الخلق كله أمر لا يمكن التفكير فيه "5، كما أن اعترافات القديس أغوستين*، تدل على حيرته حول الظاهرة الزمكانية، التي لم يجد لها جوابا شافيا، فيقول: " طالما أن الأزمنة منك وحدك تستمد وجودها، فلو قدرنا وجود زمن سابق لخلقك السماء والأرض، فلم يدعونا أنك كنت عاطلا عن العمل ؟ إذ ذاك لم الوقت هو أيضا من صنعك، وما أمكن أن يكون وقت قبل أن تصنع أنت الزمن. وبالعكس فلو لم يكن وقت قبل السماء والأرض، فلم

1 سيد قطب : المرجع نفسه ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

2 سورة يونس : الآية 32 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1857 .

4 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الأول / 1 ، 2 .

5- بول ريكور : الزمان والسرد، ترجمة سعيد الغانمي، الجزء الأول، دار الكتاب الجديدة، الطبعة الأولى، طرابلس 2006. ص 54
* القديس أغسطين (354 ، 430) من أصول فينيقية ومن أكبر آباء الكنيسة ، وكان أسقف كنيسة هيبون (مدينة عنابة بالجزائر حاليا)

يسألون عن نوع عملك آنذاك، حيث لا وقت ولا آنذاك ؟ "1. والأمر الذي دعا أغوسطين للتساؤل، هو أن الكتاب المقدس الذي يؤمن به كوشي من عند الله، لم يعرض مسألة الخلق بطلاقة القدرة والإرادة، والعلم والأمر- كن فيكون - ومسألة الزمكانية هي التي طرحت فكرة الزمن الكوني. " إن فكرة الزمن الفكري مرتبطة كل الارتباط بنظرية الانفجار الأعظم التي تعتبر ولادة لزماننا وقد تكون هذه الولادة غير حقيقية إذا ما أخذنا بفكرة الكون اللانهائي أو أزلية الوجود "2. ومرة أخرى تظهر لنا الضبابية حول مسألة الوجود في بدايته الزمانية أو في أزليته. لهذا نجد النص القرآني قد ربط خلق المكان بالزمان، وأعلن عن قصة المكان ومدته الزمانية، على الرغم من أن عملية الخلق عند الله لا تخضع لشروط الزمان .

لقد أكد النص القرآني عملية الخلق بأمر الله - كن فيكون - في قوله تعالى : " بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " ١١٧ "3. ويقول أيضا : " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " ٨٢ "4. كما لا ينبغي لنا أن نشبه عملية الخلق، بعمل الإنسان، وهذا ما جعل أغوسطين يتساءل دائما عن عملية الخلق فيقول : " ولكن كيف صنعت السماء والأرض وما هي الآلة التي استخدمتها في عملك العظيم ؟ ... كل هذا بمجدك يا خالق الكل، وأنت فكيف صنعته ؟ اللهم كيف صنعت السماء والأرض ؟ طبعا لا في السماء ولا في الأرض، وأنت لم تصنع الكون في هذا الكون، إذ لم يكن مكان ولا أمكن أن يكون قبل أن يخلق "5. وهذه الحيرة تدل على افتقار نص العهد القديم، لمفهوم واضح لحقيقة الخالق، وكأن الله عز وجل يحتاج إلى ما يحتاجه الإنسان لكي يخلق. " فقصة الخلق في الإصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتي الذي ألفه كهنتيون في أثناء السبي البابلي أو بعده، أما قصة الخلق في الإصحاح الثاني فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودي الذي ألف قبل المصدر الكهنوتي لسنين "6 ولهذا يقول الباحث : " فالكاتب المتأخر الكهنوتي يصور الإله صورة مجردة، على نحو ما قد يصور الإنسان وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها في

1 القديس أغوسطين : اعترافات القديس أغوسطينوس ، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق الطبعة الرابعة 1991 ، بيروت . ص 248 .

2 الزمن أبعاده . ص 88 ، 89 .

سورة البقرة : الآية 117 .

3

4 سورة يس : الآية 83 .

5 القديس أغوسطينوس : المرجع السابق ، ص 243 .

6 السيد سلامة غنمي : التوراة والإنجيل بين التناقض والأساطير ، دار الأحمدي للنشر ، الطبعة الأولى 2000 . ص 173 ، 174 .

بساطة أن تكون فكانت. أما الكاتب المتقدم - اليهودي - فقد صور الإله في صورة حسية، فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما فعل الإنسان "1. يقول تعالى: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧ "2 إن صاحب هذا الخطاب هو خارج المكان، وكذلك خارج الزمان، وإشرافه الكلي والمطلق على الكون، دليل على أنه هو رب الكون - سبحانه وتعالى عما يصفون - " فالخلق هو أمر خاضع لصفات الله ومنسجم معها "3. وحقيقة الألوهية بهذا التنزيه والكمال المطلق تبطل سؤال الرب لآدم في العهد القديم أين يختبئ " ونادى الرب الإله آدم أين أنت "4. إن سعة علم الله وإحاطته بملكه وبخلقه، تتنافى مع صفة رب العهد القديم المحصور في مكان ضيق، لا يدري ماذا جرى، أو يجري في جنته المحدودة؟ فما بالك عما يجري وسيجري في هذا الكون الشاسع المتسع التي تقدر فيه المسافات بالسنين الضوئية .

إن النص القرآني أراد أن يلفت انتباهنا إلى ربط المكان بالزمان، حتى في عملية الخلق وهذا لحكمة التأمل والتدبر في الظاهرة الزمانية، التي تؤكد قدرة وطلاقة إرادة الله تعالى. فلا غرابة إذن، إذا ربط القرآن الكريم، المكان بالزمان في القصص القرآني على هذا الأساس ، للوقوف على الدلالات الإعجازية، التي تخدم قضية الإيمان، وتجلي طلاقة قدرة الله في الخلق والإحياء والإماتة والبعث " هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٦٨ "5. وهذا ما أسست له قصدية القص في القرآن الكريم. فحين نتتبع ربط المكان بالزمان في النص القرآني، ندرك بأن هناك حكما مقصودة من وراء ذلك، لذا فارتباط المكان بالزمان في القصص القرآني ليس عملا تاريخيا، ولا عملا فنيا، ولكنه مدلول عقائدي يؤسس لعقيدة الإيمان بوجود الله الخالق الواحد، والإيمان بيوم البعث الذي ظل قضية عسيرة على الكافرين والمشركين، وظلوا ينكرونها على الرغم من وجودهم فوق المكان، وتحركهم في الزمان. فنحن قبل زمن ميلادنا لم نكن شيئا يذكر " هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ

1 المرجع نفسه . ص 174 .

2 سورة : الزمر : الآية 67 .

3 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 113 .

4 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرة 9 .

5 سورة غافر : الآية 68 .

شَيًّا مَذْكُورًا ١ "1. إننا أينما توجهنا إلا واعترضنا المكان، وحيثما تحركنا، إلا وتحركنا ضمن الزمان. بل أصبح وجودنا مرهونا بهما لا يكاد أي منا أن يتحرر من قبضتهما، أو يخرج عن إطارهما .

إن المكان والزمان أساس وجودنا في هذه الدنيا، كما هما أساس للدلالة على خالقهما ، وبهذه الصيغة يكون النص القرآني قد تناول عنصرَي الزمان والمكان، ضمن قصصه كظاهرة تؤسس للعقيدة والإعجازية، جعلت خطية القص تسير بين معلمين متوازيين لا تخرج عنهما : هما الإيمان والإعجاز. فكل عنصر في القصص، لا بد أن يكون موظفا لخدمة هدف العقيدة والإعجاز أما الرأي الذي يقول : قد " أبهم القرآن مقومات التاريخ في قصصه فأبهم الزمان والمكان "2 ، فالحقيقة أن القرآن الكريم لم يعمد إلى عملية الإبهام للمكان والزمان هكذا، دون قصد، أو حكمة يقول تعالى : " الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ "3. فأيات النص القرآني محكمة إحكاماً، ومفصلة تفصيلاً بعلم الله المطلق، الذي لا يفوته شيء، أو يغيب عنه أمر . فالنص القرآني تناول الظاهرة الزمكانية وفق صفات الذات العليا، ليجلي ظاهرة الإعجاز . لهذا فهو قد تناول الزمان في مجاله الخارق والغيبى، دون أن يلتفت إلى الزمان الموضوعي أو التاريخي. وتعاملُ الوحي في توظيف الزمن بتلك الكيفية، هو عملية تتجاوز المحدود الطبيعي للبشر، لتؤسس للظاهرة الإعجازية. كما كان توظيف الوحي للزمن الموضوعي ضمن قصصه في حدود ما يخدم به مجال العقيدة، وهذا ما سيتضح لنا خلال مجريات البحث. والسؤال الذي كان يجب على هؤلاء بحثه هو: لماذا فصلت أزمنة أحداث في قصص القرآن، دون قصص أخرى ؟. وانطلاقاً من هذا السؤال، يجب أن تُبحث الحكمة من وراء هذه الاستثناءات في عملية توظيف الزمن في بعض القصص القرآني دون الآخر .

فزمن خلق السماوات والأرض في ستة أيام كما جاء في الوحي، يمثل قصة الخلق التي تجاوز فيها القرآن الكريم الزمن الموضوعي وفق مقاييسنا البشرية، لأننا لا يمكننا معرفة

1 سورة الإنسان : الآية 1 .

2 محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ، سينا للنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت 1999 . ص 59 .

3 سورة هود : الآية 1 .

الزمن إلا من خلال وجودنا داخل حيز المكان، الذي يمتاز بتعاقب الليل والنهار. لكن عملية الخلق بالنسبة لله تعالى، لا تخضع إلى معالجة زمانية. إن " أكبر التعقيدات تنشأ عندما ننسب في تعاملنا مع الزمن، بعض القيود الإنسانية إلى الله "1، لأن الله يخلق ب (كن) " فخلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، لا يعني أن الستة أيام كلها، كانت مشغولة بالخلق، بل قال سبحانه - كن - وبعد ذلك ترك مكونات السماوات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها، لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام "2. ونحن نعترض على عبارة - ترك مكونات السماوات - لأنها تذهب بالبعض إلى تخلي الله عن الكون بعد خلقه، أو إلى القول بالمصادفة والعشوائية، فلا ينبغي علينا أبداً أن نقارن عمل الله عز وجل، بعملنا البشري في الحركة والفعل والزمن. " وإنما يُهال الذهن المغلق بهذا التقدير، لأنه يظن أن مسألة الخلق مسألة حمل وانتقال، وتحريك أقال، وحيرة بين الأرقام والمقادير الموزعة، في آفاق الفضاء السحيق "3. فالذي لا يستوعب قدرة الله لعملية بداية الخلق، لا يمكن له أن يناقش المدة الزمانية لخلق الكون، فهو يحاول عبثاً أن يُخرج عقله من حدوده الطبيعية، ليلج به في مجال لن يتجاوزه إطلاقاً، وهو المجال الغيبي .

لهذا لفت الله عز وجل انتباهنا إلى أن وحدة اليوم في مقياسنا البشري ليست كما هي عند الله الخالق العليم: " وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۗ ٤٧ "4. ومهما حاولت التفسيرات والتأويلات أن تقدم الرأي في ذلك، فالمسألة تتناول الزمن بمجاله النسبي. " ومع حلول النظرية النسبية على يد العالم الفيزيائي ألبرت آينشتاين تكون النيوتونية قد وصلت مستواها الأخير، فالزمن لم يعد مطلقاً، بل نسبياً يختلف قياسه من شاهد إلى آخر، يتلون وينحني ويتمدد ويؤثر ويتأثر. هذا بالإضافة إلى اندماجه مع المكان في قالب واحد يعرف بالزمكان "5. إن الله هو الذي يتحكم في الزمن وفق مشيئته وإرادته، لأن " إدارة شؤونه تحتاج بمقاييسنا الزمنية إلى أزمنة بعيدة إلى ألف عام أو أكثر. لكنها في عمل الخالق الكبير، لا تستغرق زمناً

1 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 114 .

2 محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد 7 ، ص 4167 .

3 - عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص 33 . -

4 سورة الحج : الآية 47 .

5 عبد الغني عبد الرحمن محمد : الزمن بين الدنيا والآخرة ، مكتبة مدبولي الطبعة الأولى 1994 ، القاهرة . ص 29 .

يُذكر "1. هذا السياق يمهّد أيضا للزمن بمجاليه الخارق والغيبى، وهذا بدوره يدل على أن الله هو وحده الذي خلق الزمن، وهو وحده المتصرف فيه، وفق مشيئته وعلمه. وإذا أردنا أن نفهم هذه النسبية، فهي شبيهة بالجسم وظله، عند تعرضه لأشعة الشمس أو الضوء، فإن ظل الجسم يظل يتمدد بأضعاف الحجم الحقيقي، ويتقلص إلى أن يختفي، وهذا مع بقاء طول الجسم على حاله دون تغيير. فكذا الزمن فوحدة اليوم، لا تتغير بالنسبة للخالق، لكن تمدد كتلتها وتقلصها يكونان حسب المكان، ووفق الإرادة الإلهية .

فإذا ما جئنا إلى قصة الإنسان بعد خلقه، وهبوطه إلى الأرض المكان، نجد أيضا أن هذا المكان الذي سيعيش عليه الإنسان، قد ارتبط بزمن " فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَى حِينٍ 36 "2. أصبحت الأرض (المكان) مرتبطة بالزمن الذي حدد مدته الله الخالق العليم، ولا سبيل للبشر في ذلك " فاستجابت له السماء قائلة اذهب أيها الرجل فإنني أعطيتك عقلا ويدا، وأعطيتك ترابا وزمانا "3. فإذا عدنا إلى ما قبل قصة الإنسان على الأرض، فلا نجد ذلك المكان - الجنة - الذي عاش فيه آدم وزوجه مرتبطا بزمن، يقول تعالى " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ 35 "4. بل ذكر القرآن الكريم مواصفات هذا المكان - الجنة " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى 117 إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى 118 وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى 119 "5. فآدم سيحيا في هذا المكان، دون إحساس بأي تعب أو جوع، مما يوحي بانعدام الشعور بالزمن. إي خلو هذا المكان، من الإحساس بكل متاعب الحياة وشقائها التي تولد إحساسا بالزمن الموضوعي، أو إحساسا بالزمن النفسي، فلا الشعور بالتعب والجهد، الذي ينتج عن عامل الحركة والفعل، ولا الشعور بالضيق والملل، الذي ينتج عن العامل النفسي .

1 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، منشورات بغدادى 2000 الجزائر . ص 319 .

2 سورة البقرة : الآية 36.

مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الكتاب دمشق 2001 ص 49

3

4 سورة البقرة : الآية 35

5 سورة طه : الآيات 117 ، 118 و 119

لقد أثار هذا المكان - الجنة - اختلافا في تحديده لدى المفسرين " فأين كان هذا الذي كان ؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حينما من الزمان ؟ ... هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته، أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته. فلم يهب لهم القدرة على إدراكه، والإحاطة به "1. والأهم من ذلك، هو أن النص القرآني قدم المواصفات للمكان، دون أن يذكر مدلولاً زمنياً، وهي قضية أساسية نراها أهم من البحث عن تحديده. لكن حينما ارتكبت المعصية، وهبط آدم إلى الأرض، نجد ربط المكان بالزمان " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَى حِينٍ ٣٦ "2. لقد ارتبط الزمان بالأرض المكان، حيث الاستقرار والمتاع إلى حين، وهذه الخصوصيات الزمانية بين المكانين، هي التي ينبغي أن تُبحث وتُدرس. إن عدم ربط المكان قبل الأرض - الجنة - بالزمان يوحي لنا بأن شعور الإنسان بحقيقة الزمن لا يتحقق إلا بارتباط هذا الإنسان بالأرض، فإن هو خرج من مجالها، أو فقد الإحساس بحركة تعاقب الليل والنهار، فسيفقد حتماً الإحساس بعنصر الزمن، وهذا ما أقره القرآن الكريم، ويؤكد العلم ويثبتته الواقع، ليعكسه القرآن الكريم على واقع قصصه.

كما أن قصة خلق آدم توحى بأنه مخلوق لهذه الأرض - المكان - " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ٣ "3. وإذن فآدم " مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى، ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟ "4. تلك أسئلة تتبادر إلى ذهن الإنسان، حين يسرد علينا القرآن الكريم قصة خلق آدم ووضعه في الجنة - المكان الأول - ثم هبوطه إلى الأرض - المكان الثاني. إن " قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكر، والندم وطلب المغفرة، إنها هي هي، تجربة البشرية المتجددة المكررة "5. فقصة آدم هي قصة الإنسانية، ورحلتها على هذا

1 سيد قطب : المرجع السابق المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

2 سورة البقرة : الآية 36 .

3 سورة البقرة : الآية 30 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

5 سيد قطب المرجع السابق . ص 59 .

المكان الأرضي، بأجل زمني محدود - بداية ونهاية - معلوم عند الخالق العليم، ومجهول لدى الإنسان المخلوق .

إن القرآن الكريم حين يربط المكان بالزمان ضمن قصصه، يؤكد حقيقة تصرف طلاقة القدرة الإلهية في الزمان، باعتباره خلقاً من مخلوقات الله تعالى، وليفت انتباهنا بأن الخالق تتساوى عنده كل مقادير الزمن، مهما اختلفت أحجامها وقيمها، عندنا نحن البشر. لقد ربط القرآن الكريم أيضاً بين المكان والزمان، حين تحدث في سورة المعارج، فبين الله تعالى مقدار اليوم ، في قوله تعالى: " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤ "1. وتغير هذا المقدار سببه تغير المكان الذي أصبح خارج المجال الأرضي أي السماء، وكذلك صفة العارجين إليه. يقول الشيخ محمد الغزالي: " والملكوت الإلهي من الفرش إلى العرش، أو من الأرض السفلى إلى سدرة المنتهى، قد يقطعه البشر في خمسين ألف سنة، أما الروح الأمين وجمهرة الملائكة فتقطعه في زمن محدود "2. فالانتقال عبر هذا المكان الفضائي، خارج المجال الأرضي إلى المكان الغيبي - سدرة المنتهى - غير وحدة القياس الزمني لليوم، حيث امتد اليوم إلى وحدة زمانية، أصبحت تعادل خمسين ألف سنة، مما يجلي القدرة الإلهية المطلقة .

هذه النسبية الخارقة لوحدة اليوم، تؤسس في نظرنا لمعجزة قصة المعارج للرسول صلى الله عليه وسلم والتي كانت معجزة زمانية، لم يرها أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - وقد أخبرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم وروتها كتب السيرة. إلا أن أصحاب العقول القاصرة وقفوا عندها متسائلين، وحاولوا أن يجدوا حلاً للعروج بالروح، وليس بالجسد. وقد أشار القرآن الكريم إلى الرحلة المعجزة من المكان الأرضي إلى سدرة المنتهى " وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ١٥ إِذْ يَعْشَى الْسِدْرَةَ مَا يَعْشَى ١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ١٧ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ١٨ "3. فلا بد للمقياس الزمني أن يتغير، وأن تتجلى القدرة الإلهية المطلقة التي لا يحدها مكان ولا زمان، ولا تخضع لشروط الزمكانية، لأن الله هو الخالق لهذه القوانين، ومتى شاء فعل، والتماس الحلول البشرية القاصرة، لتفسير هذه

1 سورة المعارج : الآية 4

2 محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 478

3 سورة النجم : الآيات 13 ، 14 ، 15 ، 16 ، 17 ، 18 .

المعجزة الزمانية، هو دليل على الجهل بحقيقة الألوهية، وهذا يناقض الإيمان بالغيب. وذكرنا لمعجزة المعراج كان هنا في ارتباط المكان بالزمان، لنبين أن تغيير المكان من العالم الدنيوي، إلى العالم الغيبي - سدرة المنتهى - قد تغيرت معه وحدة اليوم الزمنية، وهي قضية مثيرة للانتباه، وسنتناول معجزة قصة الإسراء المعراج وأحداثها بشيء من التفصيل في الفصل الثاني - إن شاء الله - .

إن القرآن الكريم حين أثار هذه النسبية للظاهرة الزمانية، جاعلا وحدة اليوم تساوي خمسين ألف سنة، فهذه الكتلة الزمانية الخارقة معجزة يمكن للعلم أن يستوعبها باعتبارها ظاهرة يبحثها العلماء، أكثر مما يبحثها النقاد. وقد حاول بعض الباحثين في موضوع الإعجاز العلمي للقرآن، دراسة هذه الظاهرة، وفق الرؤية العلمية فقال: "إننا لا نملك الدقة الكافية لمعرفة عدد السنين المذكورة، إذا كانت بالتقويم الشمسي أو القمري"¹. ونحن إذ عرضنا هذه النتيجة للعملية الحسابية، فلكي نوضح بأن المجال النسبي للزمن، لا بد أن يفهم وفق النظرية العلمية، لأن اللغة هنا هي لغة الأرقام والحساب. يقول تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْأَحْسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" ²، وباستطاعة الباحث أن ينطلق في البحث من الفرضيات التي توافق العقل والواقع والعلم، لكن محاولته تبقى اجتهاداً فحسب، وقد اكتفى الباحث بمعدل سرعة الجواد، لحساب هذه العملية * . إلا أن القرآن الكريم لم يختص ببيئة الجواد، وإنما شمل كل بيئة قديمة أو حديثة، بسيطة أو متطورة. وإذا اتخذت سرعة الجواد كمعدل للقياس، فماذا ستكون عليه النتيجة أمام معدل سرعة وسائل النقل السريعة والمتطورة؟ " والنص القرآني دائما أبعد مدى من المناسبة الخاصة"³ . لهذا فلا ينبغي

¹ M KASSAB . GLOIRE A DIEU / Tome 1 Editions SALAMA ALGER Page 158

² سورة يونس : الآية 5 .

* قام الكاتب بعملية حسابية تتمثل في ضرب عدد أيام السنة الشمسية ، وكذا عدد السنة القمرية في العدد القرآني خمسين ألفا . ثم قسم المجموع على اثنين ليضرب النتيجة في عدد سرعة الجواد والمقدرة بستين كيلومترا في الساعة . باعتبارها أقصى سرعة لوسيلة نقل أرضية آنذاك . ثم حول النتيجة إلى قيمة السرعة بالثانية ، ليجد أن القيمة العددية تناسب سرعة الضوء . وكانت العملية بالعدد التقريبي كالاتي :
365 في 50000 = 18262500 و 354 في 50000 = 17718000 ويقرب القيمة ب: 18000000 في 60 = 1080000000 كيلومتر في الساعة ليحول القيمة بالثانية 180000000 مقسوم على 3600 = 300000 كيلومتر في الثانية ، وهذه القيمة هي سرعة الضوء في الثانية.

³ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء التاسع . ص 1404 .

أن نحصر النص القرآني في حدود عملية حسابية متغيرة، أو في حدود بيئة معينة ضيقة، والخطاب القرآني ممتد عبر زمن عصور البشرية السابقة واللاحقة .

لقد حض الوحي على التدبر في آية خلق الكون، مع التدبر في آية اختلاف الليل والنهار، أي المكان والزمان " إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٠ "1. أما الذي يهمننا في بحثنا هذا، هو أن النص القرآني قد لفت انتباهنا إلى الظاهرة الزمكانية، وقام بالربط بين المكان والزمان، ليجلي ظاهرة الإعجاز في قصصه، مع توظيف الزمن في مجالات النسبي والخرق والغيبى. أما الزمن الموضوعي والتاريخي فلم يتعرض لهما، إلا في حدود خدمة العقيدة، باعتبار أن القرآن الكريم كتاب عقيدة وإيمان بالدرجة الأولى. وإلا فكيف يصبح الوحي معجزة تتحدى الناس عبر الامتداد الزمني؟. هذه المجالات - النسبي، الغيبى والخرق - هي التي اهتم بها القرآن الكريم وأثارها، وتم توظيفها في قصصه، وهو حق، وقوله الحق " وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ "2. ولا مجال لأي خيال، أو خرافة أو أسطورة " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ "3. إن كلمة الحق التي جاءت هنا، تدلنا على أن هناك قصصا، ولكن بغير حق، والله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس، أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع، وتأتي بغير حق، وهناك قصص تُروى في الدنيا ولا واقع لها، بل هي من قبيل الخيال "4. والمشككون في ذلك، لا يتعاملون حقيقة مع منطوق النص القرآني، بقدر ما يريدون إخضاع النص لرأيهم وهواهم، مسبقين أحكامهم على نتائج تحليلاتهم، وهذا تعسف في حق النص، يرفضه النقد في مجال الأدب، فما بالناس إن كان التعامل به مع نصوص وحي الله .

لكن عدم استيعاب البعض للظاهرة الزمانية في القصص القرآني، وعدم إيمانهم بالقدرة الإلهية المطلقة، راح يحددها وفق مقاييس العقل البشري، الذي أدى به إلى الشك

1- سورة آل عمران : الآية 190

2 - سورة الكهف : الآية 29 .

3 - سورة الكهف : الآية 13 .

4 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص 235 .

في أن القصص القرآني، ما هو إلا أساطير الأولين. لأن المشكلة لا تكمن في النص القرآني، بقدر ما تكمن في نفسية هؤلاء. ومن " الوهم أن يقع في الأخلاق، أن الزمان قد يكون جزءا من الأبد، نمده أو نمطه من أوله، فإذا هو أزل، ونمده أو نمطه من آخره، فإذا هو سرمدى لا ينقضي على الدوام" ¹ وما ذكُرُ نسبية الزمن لليوم في القرآن الكريم، إلا ليوقف المتلقي على حقيقة الزمان، بأنه خلق من مخلوقات الله تعالى، وأن مشيئة الله وحكمته وإرادته هي التي تتحكم في الخلق، وأن صفات الذات العليا، أبعد من أن توصف بالنقص، لأن الحقيقة هي أن " الزمن غير الأبد، ننقصه كله فلا ينقص من الأبد شيء، ونزيده كله فلا يزيد على الأبد شيء لأنهما وجودان مختلفان في الكنه والجوهر، مختلفان في التصور والإدراك فالأبد وجود لا تتصور فيه الحركة، والزمان وجود لا تتصوره بغير الحركة" ². وهذه مسألة مهمة وخطيرة قد عمل النص القرآني على إثارتها، وبيانها للمتلقي، بداية من أول آية في الكتاب - أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - فرب العالمين، هو رب المكان والزمان، وهو المتفرد بصفات الكمال المطلق " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" ³ ويستحيل أن يكون شبيها بشيء، أو متمثلا بالمكان والزمان المخلوقين - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - .

إن نص العهد القديم وضع الله الخالق ضمن المكان والزمان بحدود مجسدة، جعلته شبيها بخلقه. وهذا ما ينزع صفة الألوهية الحقة عن إله أسفار العهد القديم المتجسد " ومرة أخرى نجد أن الإله التوراتي، كائن جسدي تماما، فهو يتنزه وقت البرود، ويتحدث كأبي إنسان آخر. إذن يقدم سفر التكوين، آلهة لنا كما تفعل الخرافات الوثنية، والحقيقة أن مختلف الشعوب القديمة كانت تملك تصورات مماثلة عن الآلهة ككائنات تشبه البشر" ⁴. كما أن العهد الجديد جعله يحل في رحم امرأة مخلوقة، وجعله يُحاكم ويُصلب ثم يموت. فإذا " كانت القدرة الكلية تتضمن القدرة على أن يصبح إنسانا، أو ينهي حياته، أو أن يكذب، أو أن يكون ظالما، فإن اسمه جل جلاله القدير سوف يكون عندئذ متعارضا مع

1 - عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص 111 .

2 المرجع نفسه . ص 111 .

3 سورة الشورى : الآية 11 .

4 السيد سلامة غنمي : المرجع السابق . ص 34 .

أسمائه الحسنى: الصمد والقيوم، والحق والحكيم" ¹. وهذا ما لا يستقيم له رأي، كما تأباه الفطرة والعقل السليم. لأن الله الخالق ليس كمثل شيء، وإذا أراد أمرا أن يقول له كن فيكون، فهو لا يعجزه مكان، ولا زمان " إن الله يريد فيفعل، فإذا في دنيانا محو وإثبات، ووجود وموات، وهزائم وانتصارات" ² وهذا في اعتقادنا ما قصد إليه القرآن الكريم في توظيف الزمان بمستويات الغيب والخارق، لتجليات طلاقة القدرة الإلهية، وإعجازية السرد القرآني، وللوقوف على أن الله ليس كمثل شيء، لتنتفي الشيبية عن ذاته العليا، وكل ما عداه شيء .

هكذا أراد الله عز وجل أن يجعل تلك المدة الزمنية المعلومة لدى الإنسان، وهي اليوم تتغير قيمتها بالنسبة لاختلاف المكان، فكانت عملية الخروج من المكان الأرضي المعروف إلى المكان الغيبي (سدرة المنتهى) خمسين ألف سنة، وهي تساوي يوما واحدا. لكن بالنسبة لله عز وجل، فلا زمن بين أمره تعالى كن، وتنفيذه فيكون. وإن مقدار عدد ألف سنة أو خمسين ألف سنة تتجاوز عمر الإنسان، الذي يخضع للموت والفناء، والذي لا يقدر على توقيف الزمن، أو إعادة تشكيله من جديد، أو تمديده وتقليصه. ذلك أن " الزمن لا يمكن أن يستنفد، فهو مباح في تناول اليد، وخارج نطاق قدرتي، على أن أمدده أو أن أنقصه" ³. فكل هذه الأفعال هي من اختصاص الله الخالق وحده. ولو أن " أحد التوائم مضى في رحلة طويلة في مركب فضاء بسرعة تقارب سرعة الضوء، فهو عندما يعود سيكون عمره أصغر كثيرا، عن التوأم الذي بقي على الأرض، ويُعرف هذا باسم مفارقة التوأم" ⁴. ولهذا فالمفهوم النسبي أكد هذا الاختلاف الزمني نتيجة اختلاف المكان، بين الأرض التي نعيش عليها، والفضاء الممتد الذي يحيط بنا، وكذا السرعة التي نتحرك بها. وهذا " المفهوم للزمن أدخله في العلم ألبرت آينشتين في القرن العشرين، وكان من نتائجه أن الزمان يتممط فيطول، أو يقصر فعلا" ⁵. ومن هنا تم الكشف عن النسبية الزمنية، وقد نجد إشارات في النص القرآني وقف عندها المفسرون كثيرا. فكانت نسبة

¹ د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 113 .

² الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 319 .

³ رالف بارتون : إنسانية الإنسان ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، مكتبة دار المعارف لبنان (ب ت) . ص 199 .

⁴ ستيفن هوكنج : المرجع السابق . ص 41 .

⁵ المرجع نفسه ، ص 34

اليوم تتراوح ما بين ليل ونهار وهو اليوم الأرضي، وبدأ يتمدد أو يتقلص بمشيئة الله تعالى إلى ما شاء الله له.

أما الذي يشرف على تلك العملية - امتدادا وانكماشاً - ويتصرف فيها بكل إرادة مطلقة، وقهر لا يُغلب، هو الله القادر الذي بيده كل شيء " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٧٢ " ¹. فديمومة الليل أو النهار إذا افترضناها، تدل على أن الظاهرة الزمانية، جديرة بعملية التأمل والتدبر، فهي تجلي قدرة الله وحكمته في هذا الكون - المكان - كما تعكس ضعف الإنسان وعجزه عن التحكم في الزمن. " لقد اكتشف العلماء أن الزمن نسبي لأنه يتوقف على المكان الذي يقاس فيه. فلكل كوكب يومه وعامه الخاصين به طبقاً لسرعة دورانه حول نفسه وحول الشمس. وبهذا يكون الزمن مرتبطاً بالحركة والمكان، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر " ². وهذا ما أراد الله أن يؤكد في وحيه، ليجعلنا نتدبر حقائق قصصه من خلال أبعاده الزمانية، بعيداً عن أي غموض أو إبهام لمسألة الزمن. فكان اليوم عند الله بألف سنة مما نعد، وكان العروج إلى سدرة المنتهى بخمسين ألف سنة. ومهما حاول التفسير أن يقول في هذه المسألة، فالجواب الشافي هو أن هذه المقاييس ليست مقاييس بشرية، بل هي مقاييس الذي خلق الزمن ويوظفه وفق مشيئته هو، ويرسم أحداث قصصه في النص والواقع وفق علمه الواسع وقدرته المطلقة، مقابل علمنا وقدرتنا المحدودين.

فالمسألة أبعد من أن تكون إبهاماً أو أسطورة، أو خرافة، أو خيالاً، بقدر ما هي دليل إعجازي يتناسب مع عظمة الوحي، وعظمة صاحبه. لأن التعامل وفق الزمن الموضوعي في الفعل والقول عمل بشري، يؤكد طبيعة صاحبه المحدودة، في حين أن التعامل مع الزمن في المجال النسبي، والغيبى والخارق، وتوظيفه بفاعلية مطلقة، يجلي بشكل أكيد وقاطع خالقية الله عز وجل، ويؤكد طلاقة قدرته، وسعة علمه اللامتناهي. كما يحيل بين وحي الله المعجز، وكلام البشر الخاضع للزمانية، وللطبيعة البشرية المحدودة.

¹ سورة القصص: الآياتان 71، 72.

² عبد الغني عبد الرحمن محمد: المرجع السابق. ص 20.

لقد احتوت عناوين بعض السور القرآنية أسماءً لأمكنة، كسورة - الكهف، الأحقاف، الطور، البلد - وبعض هذه السور كانت من ضمن القصص القرآني الذي ارتبط فيه المكان بالزمان، وفق المستوى الغيبي والخارق، مما يثير لدى المتلقي إشكالية الزمان، والتي هي محور دراستنا في هذا البحث. فتوظيف الزمن الغيبي والخارق، وارتباطه بالمكان الأرضي، منهج لم يُعرف إلا في القصص القرآني، وهو بهذا يؤسس للظاهرة الإعجازية التي تقربنا من استخلاص الحكم والعبر، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" ١١١¹. وهذا هو المبدأ القرآني الذي التزمنا به، وهو مبدأ الاعتبار .

إن القصة القرآنية بتوظيفها للزمن الغيبي والخارق، لا يخرج عن إطار العبر والحكم أما ما عدا ذلك فلا نراه، إلا خروجاً عن مقصد منهج الوحي، ومُراد الله عز وجل. وبالتالي فالذي أردنا بحثه، هو استبيان الظاهرة الزمكانية التي تؤسس لإعجازية القصص القرآني، مما يجلي تميز السرد القرآني، عن بقية الفضاءات السردية المختلفة. كما يؤكد أن مصدر الوحي لا يكون، إلا من رب المكان والزمان والإنسان، رب العالمين. وأن توظيف الزمن بالمستوى الخارق والغيبي، لا يتم إطلاقاً إلا من طرف الله سبحانه وتعالى، خالق الزمن. ووفق هذا المبدأ، كان علينا بحث ارتباط المكان بالزمان، في المجالين الخارق والغيبي وتوظيفه في القصص القرآني .

ب - ارتباط المكان بالزمان الخارق في القصص القرآني :

لابد أن نبين بأننا التزمنا بالنص القرآني وخاصة أن هذه الدراسة مرتبطة بتوظيف الخارق في القصص القرآني، كما هي مرتبطة بإيماننا بأن القرآن الكريم هو كلام الله، وأن قصصه حق لا شك فيه. وهذا لكي ترتسم معالم دراستنا لهذا الموضوع، وفق مبدأ الإيمان، دون أن نتجاوز النص القرآني، أو نحمله ما لا يحتمل، وخاصة أننا سنتناول الجوانب الغيبية والخارقة في منظورنا نحن كبشر أولاً، وكمؤمنين ثانياً، الأمر

1 - سورة يوسف : الآية 111 .

الذي يخالف معتقد الملحدين والعلمانيين. وهذا ما حتم علينا بيان نظرتنا تجاه هؤلاء، فيما عرضوه من آراء حول تلك المسائل الغيبية والخارقة، التي جاءت في القصص القرآني. حيث اعتبروه محض خيال خصب، أو أساطير اشتركت فيها البشرية منذ فجر التاريخ. وأمام كل هذه الادعاءات المستمرة، يكون الوحي مُتَهَمًا في قصصه، ومدافعاً عن ذاته بذاته، وعبر الامتداد الزمني. هذا هو المنهج الذي سلكه القصص القرآني من خلال توظيفه للزمن الغيبي والخارق، والذي ظل لغزاً محيراً أمام المستشرقين والعلمانيين والملحدين من جهة، وأمام المفسرين والعلماء والنقاد من جهة أخرى، لتظهر لنا أن إشكالية الزمانية، ليست لغزاً في القصص القرآني على الإطلاق، عكس ما يراه فريق الإستشراق والعلمانية. والسبب في ذلك، هو أن كلام خالق الزمن لا يُقارن أبداً بكلام المخلوق في موضوع الزمن، لاعتبارهما - الإنسان والزمن - مخلوقين يتساويان في الخلق. وهذا لن يستطيع أن ينكره أياً كان، حتى وإن اغتر بطبيعة فكره وعلمه المحدودة، لأنه لن يستطيع أن يضيف، أو ينقص لحظة زمنية واحدة من عمره. ولهذا أردنا أن نضع بداية لدراستنا لإشكالية الزمن في القصص القرآني، دون أن نخرج عن منطوق النص، أو نغوص في تفسيرات تعانق الغريب والشاذ، وتحسبه جزءاً من الإيمان والدين، أكثر مما تلامس الحق وتنشده .

نبدأ من سورة الكهف، وهي من بين سور القصص القرآني التي تضمنت عدة أمكنة بقصص مختلفة، كان بدايتها " الكهف " المكان الذي ارتبط بأصحابه، وبمدة نومهم. ومكان الجنتين "صاحب الجنتين"، كما رصدت لنا السورة ثلاثة أمكنة، توجه إليها ذو القرنين في رحلاته، جهة مغرب الشمس، ومطلعها، وما بين السدين. وكذلك سجلت لنا مكان - مجمع البحرين - الذي التقى فيه سيدنا موسى - عليه السلام - بالعيد الصالح. فسورة الكهف من خلال عنوانها، يوحي لنا أنه تم التركيز فيها على المكان، من خلال هذه القصص الثلاث . يقول الشيخ الشعراوي: " أحب أن أبين أن هذه السورة، ترينا من كهوف الحياة ما يجعلنا نفهم كثيراً فالفهم الأول، أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنه لا شيء يتم إلا بإرادته، لأن الذي يملك عناصر الفعل المستقبل، هو الله سبحانه وتعالى

1". هذا الكهف هو الذي سنحاول أن نبحث ارتباطه بالزمن في المجال الخارق، حيث نجد أن القرآن الكريم قد تجاوز الزمن الموضوعي، ليضيف على هذا المكان المدلول الإعجازي، وهو السمة التي يتفرد بها القصص القرآني على كل الفضاءات السردية الفنية، مهما تنوعت وتعددت. إن هذه الظاهرة الإعجازية هي التي تتجلى فيها قدرة الله عز وجل المطلقة، حيث تتجاوز كل مكان وكل زمان. بل هذه القدرة، هي التي أوجدت المكان والزمان، وهما عنصران أساسيان في عملية القص، ولا يخضعان إلا للمشيئة الإلهية وحدها، دون غيرها، وهذا ما أكده الوحي .

إن مهمة القصص القرآني، هي خدمة الحكمة التي تتجلى فيها هذه القدرة الإلهية ، حيث تربط المؤمن بربه، ارتباط يقين لا شك فيه، وتجعله مؤمنا بوحداية خالقه وبيوم البعث " وقصص القرآن ليست لقتل الوقت، ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الإيمانية "2. وهذا ما أكدته السورة في أعقاب قصة أصحاب الكهف. يقول تعالى: " وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ۲۱ "3. لقد تحول الكهف المكان العادي إلى معجزة، حين ارتبط بمدة زمن نوم الفتية الخارقة، يقول تعالى: " وَابْنُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاوُا تِسْعًا ۖ ۲۵ "4. فالمدة الزمنية قد أحصاها الله تعالى، وسجلها في وحيه الخالد، حتى أصبحت قصة أهل الكهف موضوعا مثيرا للجدل، وخاصة عند المستشرقين والمتأثرين بهم من العرب. هذه القصة جرت وقائعها على الأرض، وفي مكان معين هو الكهف، لم يحدد الوحي موقعه الجغرافي، بقدر ما أحصى مدة نوم الفتية الخارقة .

هذه المدة الزمنية الخارقة التي فاقت كل مدة طبيعة زمنية للنوم لدى البشر، يقف العقل متعجبا وحائرا أمامها. وأمام هذا الأمر المعجز، لا يمكن للمؤمن بالله إلا الإيمان بالقدرة الإلهية، وبأن هذه القصة حق، إيمانا بما جاء في قوله تعالى في بداية

1 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن ، دار الهدى ، الجزائر 2004 . ص 239 .

2 - الشيخ محمد متولي الشعراوي تفسير الشعراوي ، المجلد الأول ، ص 236 .

3 سورة الكهف : الآية 21

4 سورة الكهف : الآية 25

القصة " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ١٣ "1. فمصدر هذه القصة هو الله تعالى، وقوله هو الحق، وأخبار أهل الكهف التي سردها علينا الوحي، هي حقيقة لا مجال فيها لأي شك على الإطلاق، وكل ما خالف النص القرآني، فلا يمكن له أن يحظى بالاهتمام، ولا يساوي أي قيمة ، بل يعتبر ضرباً من الوهم والخيال، مردوداً على صاحبه، ولا يمس القصة القرآنية، لا من قريب ولا من بعيد .

لو عُرضت قصة أهل الكهف مثلاً، في سرد فني بتلك المدة الخارقة، لظل التصديق بها ضرباً من الوهم والجنون، ولرفضها العقل دون نقاش أو تردد، وصُنفت هذه القصة في باب الأساطير والخيال، ولحاول النقد أن يجد منفذاً للولوج بها إلى عالم الفن والإبداع، مُنوهاً بميزة الخيال الخصب للكاتب، وقدرة الإبداع في إيجاد عملية الصراع بين الإنسان والزمن ، وانتصار الإنسان عليه. لأنه - وظنا منه - أن شخوص القصة - الفتية - استطاعوا أن يبقوا داخل الكهف - المكان - كل هذه المدة الخيالية. وليكن ما يريده النقد والنقاد ليُحسم النقاش ، وتصبح هذه القصة من الأساطير التي تتوارثها الأجيال المتعاقبة، أو من الآداب العالمية .

لقد مهد النص القرآني للقصة، بأن مصدرها هو الله الخالق، وهذا ليتعامل المتلقي مع القصة على أساس إيماني، كون ساردها هو الله الخالق القدير العليم، وبالتالي فالقصة حق بمدتها الزمانية الخارقة، وبمكانها وشخوصها وأحداثها، ليجعل المتلقي يعيش لحظة تأمل في هذا المكان - الكهف - وبداخله فتية ناموا مدة ثلاثة قرون من الزمن، أحصاها القرآن الكريم إحصاءً دقيقاً - وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا - فهذه الظاهرة الإعجازية للتوظيف الزمني، هي التي أثارت الإشكال، وجعلت المتشككين يقدمون على تناول هذا النص بالدراسة والتحليل والنقد، ليصلوا إلى نقطة بداية الذين سبقوهم، زمن بداية نزول الوحي، مرددين قولهم الذي سجله النص القرآني، وكرره في أكثر من آية " حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولَىٰ ٢٥ "2. بل نجد أحد الباحثين المعاصرين يؤيد هذا الزعم، كما يؤيد زعم المستشرقين في القصص

1 سورة الكهف : الآية 13

2 سورة الأنعام : الآية 25 .

القرآني، فيقول: " فإذا ما قال المشركون إن في القرآن أساطير، قلنا ليس عليه في ذلك بأس ... وإذا ما قال المستشرقون : إن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف، أو قصة موسى - عليه السلام - في سورة الكهف، قد بُنيت على بعض الأساطير، قلنا ليس في ذلك على القرآن من بأس " 1 . فالباحث نراه متسامحا مع زعم المشركين والمستشرقين، مستسلما لذلك دون أن يبدي أي تحريك للقضية، تمهيدا لاتباعهم والأخذ بمقولاتهم، جاعلا قوله تعالى - نَحْنُ نُفَصِّلُ لَكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ - وراء ظهره، وهذا ضرب من اتباع الهوى الذي رفضه القرآن الكريم ، وحذر من عواقبه الوخيمة لصاحبه الذي يترك الحق عنادا واستكبارا، ليتبع الباطل.

إن الزمن الخارق هو الذي أضفى على المكان هذا البعد الإعجازي، ليتحول الكهف في هذه القصة، من مكان بسيط مهجور، إلى مكان معجز، تحاول عيون القارئ أن تترصده وتبحث عنه، وتراه وتحدده. الأمر الذي يستحيل أن نعثر عليه، في أي نص فني أيا كان نوعه أو عصره، حتى وإن حاول المؤلف أن يبدع أمكنة من نسج الخيال، فلن يستطيع أن يقدم أي مدلول إعجازي. بل سيبقى النص في حدود الطبيعة البشرية، والتي تؤكد بدورها ميزة الضعف والعجز والمحدودية. وحتى هذه المميزات للطبيعة البشرية لم تكن من وضع البشر أنفسهم. بل أودعها فيهم خالقهم العليم، ودون إرادتهم " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٨ " 2. وبالتالي فإن توظيف السارد لعنصر المكان في العمل الإبداعي، مع عجزه لخرق الزمن وتجاوزه، هو حجة دامغة للدلالة على تفرد القصص القرآني، بظاهرة الإعجاز في توظيف المكان وإسقاط الزمان عليه، وهذا ما نراه في قصيدة القرآن الكريم، وهو دليل تحد مطلق لا مثيل له .

لا يستطيع البشر التحرر من ذلك إطلاقا، وهم أمام الخوارق يثبتون عجزهم ويؤكدون طبيعتهم بأنهم خلق خاضعون للزمان والمكان، وبالتالي فهم خاضعون أيضا لإرادة خالق الزمان والمكان. وحين تحدى القرآن الكريم المشركين، بأن يأتوا بمثل القرآن، لم يحدد لهم نوع الموضوع، ولا شكل السورة، بل ترك لهم الاختيار حسب

1 محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق . ص 208 .

2 سورة الأنعام : الآية 18 .

إرادتهم واعتقادهم " لا سيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي، بأن يأتوا بسورة من مثله أقصر سورة "1. يقول تعالى: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣٨ "2. لكن النتيجة كانت الفشل، ونقل لنا الوحي فشلهم في قوله تعالى: " وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ٣١ "3. ولكنهم لم يشاءوا ولم يقولوا، ولم يتجرأ أي أحد منهم على ذلك. فالتحدي مفتوح وغير محصور، والرغبة في التحدي من قبل المشركين ماثلة بالقول بالمحاولة إذا شأوا، ولا شيء يحول بينهم وبين محاولتهم، إن رغبوا في ذلك. فهم يملكون ناصية العربية، والقدرة على التعبير، لكنهم لا يملكون القدرة على تخطي الزمن والغيب. إن طبيعتهم البشرية محدودة، وخاضعة للزمان والمكان، وعلمهم لا يتجاوز اللحظة الآنية، فوقفوا عند قولهم - لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا - وهو تأكيد واعتراف بالعجز والفشل المطلق .

في هذا المجال الخارق، يمكن لنا أن نرصد التباين الواضح بين إعجازية المكان، التي كرسها الزمن الخارق في القصة القرآنية، وانعدام هذه الميزة المطلق في أي فضاء سردي. لذا نعتقد أن ربط المكان بالزمن الخارق، مرده إلى قصد عقدي، للإيمان بقدرة الله المطلقة في الخالقية والفاعلية، أي في عملية الخلق : الخلق والوجود والحياة - المكان والزمان - وفي عملية الفعل والقول، المتمثلة في هذا الوحي المنزل من الله تعالى على نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. إن " دلالة الكون الصامتة تقابلها دلالة القرآن الناطقة، وأنها تتبادلان المواقف في تعريف الناس بربهم، واقتيادهم إليه "4. ولهذا فلا بد من تطابق الحقائق القرآنية مع الحقائق الكونية. إن هذا التوازن والتناسب والتطابق بين الآيات الكونية والآيات القرآنية، يجب على المتلقي للنص القرآني، أن يستكشف علاقته، ويستوعب حقيقته .

1 محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان ، الجزء الأول ، دار الكتاب العربي . الطبعة الأولى 1995 بيروت . ص 71 .

2 سورة يونس : الآية 38

3 سورة الأنفال : الآية 31 .

4 محمد الغزالي : المرجع السابق ، ص 208 .

وما دام " الله جل جلاله هو الخالق وهو القائل، فلا توجد حقيقة في الكون كله، تتصادم مع القرآن الكريم "1. بل على المتأمل ربط العلاقة الزمكانية، والتي أصبحت من اختصاص أولي الألباب. يقول الله جل جلاله: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ ۱۹۰ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ ۱۹۱ "2. فمتلقي النص القرآني يقف متأملاً هذه العلاقة بعقله لا بخياله، وبالحقيقة الكونية بزمكانيتها، لا بالأساطير والخرافات . لكن الباحث الذي يكابر ويعاند، يرى أن " الإعجاز في القرآن الكريم، قد وضع تقليداً جديداً في الحياة الأدبية العربية، وهو بناء القصص الديني على بعض الأساطير"3. فمتى كانت الأساطير أساساً للدين والإعجاز؟ وكيف يكون القصص الديني مبنياً على الأساطير، إلا إذا كان هذا الدين ضلالاً لا يحترم العقل، ولا يبحث على العلم. بل سيقدس الهوى والخرافة والجهل؟. إن الخطاب القرآني ينقل المتلقي في لحظة القراءة، وهو موجود بالمكان والزمان إلى مشهد واقعي حين تمر به اللحظات الزمانية، مع وجوده في المكان، فتجعل المتلقي المؤمن يقول بعد ربط تلك العلاقة - رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ - . ولهذا فالشاك في مصدر الوحي مرده إلى عجزه الفكري، وغروره بالجهل، وعدم استيعابه للتطابق التام، بين الآيات الكونية والقرآنية. وكما أن الكون يفرض دراسة علمية لفهم ظواهره، واستنباط قوانينه، ومعرفة سنن الله فيه، فكذلك الأمر بالنسبة لدراسة آيات الوحي، تتطلب تدبراً وتفكيراً - ليس للذين لا يكادون يفقهون حديثاً - وإنما لأولى الألباب، الذين لا يتعاملون إلا مع العقل والمنطق والحق. وبالتالي فلا مكان للقارئ الجاهل في النص القرآني، لأنه ألغى عقله، وأغلق حواسه، فتجرد من إنسانيته .

إن الله جل جلاله ربط خلق الكون بالحق، كما ربط تنزيل وحيه أيضاً بالحق، فقال في شأن تنزيل وحيه: " وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ ۱۰۵ "4، وقال في شأن الخلق " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

1 الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن ، ص 233 .

2 سورة آل عمران : الأيتان 190 ، 191 .

3 محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق . ص 208 .

سورة الإسراء : الآية 105

وَأَلْحَسَابٌ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ¹، وقال أيضا: " مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣ "2. ومن هنا يتضح بأن معالجة القرآن الكريم للظواهر الطبيعية أو الكونية، أو النفسية والاجتماعية، يستحيل أن تُعالج على أساس خيالي أو أسطوري، فهذا زعم باطل، لا يصمد أمام القرآن الحق. فاستراتيجية القرآن الكريم في توظيف المكان والزمان في قصة أهل الكهف، تؤسس للإيمان بيوم البعث، وهي حقيقة غيبية تتم في عالم الآخرة، والذي نوقن به نحن - المؤمنون - وهذا ما أكدته سورة البقرة، في قوله جل جلاله: " الْم ١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ "3. إن القضية التي نراها، هي أن هؤلاء إما أخطأوا فهم هذه العلاقة الثنائية، بين الحقائق الكونية والحقائق القرآنية، أو مرددون عن تقليد وجهل، لما قاله الكفار سابقا: " وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥ "4. وبالتالي فهم إما مقلدون تابعون، أو جاهلون للحقائق ومغرورون بجهلهم، فهم لم يضيفوا جديدا، ولم يكتشفوا مجهولا.

والغريب في الأمر، أن لفظة أساطير التي جاءت على لسان المشركين، تحولت إلى حجة على وجود أساطير في القرآن الكريم، لدى هذا الكاتب، فيقول: " إذا كان هذا ثابتا فإننا لا نتحرج من القول: بأن في القرآن أساطير، لأن في ذلك لا نقول قولا يعارض نصا من نصوص القرآن⁵، ولا نفهم بالضبط ما منطوق هذا التحليل والاستنتاج؟. إن كل الآيات التي وردت فيها لفظة (أساطير) جاء بها القرآن الكريم، على لسان المشركين والكفار. يقول الله جل جلاله " قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ "6، وكذلك " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤ "7 ويقول أيضا: " إِذَا تَنَلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٥ "8، وهذا زعم الكافرين جماعة وفرادى في آيات القرآن الكريم،

1 سورة يونس : الآية 5 .

2 سورة الأحقاف : الآية 3 .

3 سورة البقرة : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

4 سورة الفرقان : الآية 5 .

5 - محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق ، ص 207 .

6 سورة الأنفال : الآية 31 .

7 سورة النحل : الآية 24 .

8 سورة القلم : الآية 15 .

والزعم نفسه جاء على لسانهم في البعث " لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٦٨ "1. وقد عمل القرآن الكريم على دحض هذه المقولة الباطلة وتفنيدها. وهل من المعقول اتخاذ اعتقاد الكفار الباطل، دليلاً يعتقد به الباحث، الذي وصف بحثه بالمنهجي؟.

لقد اجتهد المستشرقون والمستغربون معا ليُحوّلوا وجهة حقيقية قصة أهل الكهف القرآنية إلى وجهة أسطورية، يقول محمد أركون: " هناك ثلاثة اتجاهات فيما يخص تفسير سورة الكهف، هناك أولاً التفسير النحوي والتاريخي الأسطوري الذي اتبعه المفسرون القدماء وهناك ثانياً التفسير التحليلي والسكوني الاستشراقي، وهناك ثالثاً التوسع الرمزي للموضوعات الروحية والنموذجية المثالية للسورة في المخيال الجماعي"2، وأين وجد الكاتب أنواع هذه التفسيرات، وخاصة التفسير الأسطوري؟ وأي قول في القرآن الكريم من غير علم، فهو مردود على صاحبه، وهنا فرق شاسع بين ما جاء كنص قرآني مدون، وما قاله المفسرون عن قصة أهل الكهف. لكن الكاتب يحاول أن يقنعنا أن هناك علاقة بين النص القرآني والأسطورة، فيقول: " إنه لصحيح القول بأنهم - المفسرون - يلجأون إلى الحكايات الأسطورية من أجل البرهنة على صحة كل كلمة، أو كل آية من آيات القرآن"3، وهل يحتاج قول الحق الكامل دعماً من الأساطير ليثبت حقيقته؟ إنها مفارقة عجيبة بعيدة كل البعد عن روح العلم والبحث الأكاديمي، الذي يدعيه الكاتب، ومنطقه يقول إن الشمس تحتاج إلى ضوء شمعة لتثبت حقيقة وجودها. كما ذهب اتجاه آخر للباحثين نحو وجهة، أن قصة أهل الكهف القرآنية منقولة عن التراث اليهودي والمسيحي، وتتابعت البحوث والدراسات في هذا الشأن، وسنفصل هذه المسألة في الفصل الثاني - إن شاء الله - .

علينا أن نقف على مواصفات الكهف (المكان) داخليا وخارجيا، لنقول أنها لم تكن لتتم طيلة الحقبة الزمنية التي تعد بالقرون، لولا كون سارد القصة، كان خارج المكان والزمان ظل مراقبا للأحداث، ومُسيراً لحركة الشمس شروقاً وغروباً، وتعاقب الليل

1 سورة النمل : الآية 68 .

محمد أركون : القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة للنشر، الطبعة الثانية 2005 ، بيروت . ص 150²

3 محمد أركون : المرجع السابق . ص 163 .

والنهار، محيطاً بالمكان والزمان إحاطة شاملة، ومشرفاً على عملية النوم إشرافاً تاماً، كإشرافه أيضاً على عملية الاستيقاظ والبعث، يقول الله جل جلاله: " فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ١٢ "1، وكل هذا تم داخل الكهف في زمن امتدت كتلته إلى قرون. ويأتي وصف المكان مناسباً لحركة الشمس، ليعكس هذه الظاهرة الإعجازية " وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ١٧ "2. فحتى الشمس مسخرة بأن تؤدي حركتها وفق أوامر الخالق، على مدار أيام السنة طلوعاً وغروباً .

يقول العلم " إن الشمس على بعد مائة وخمسين مليون كيلو، وأن شعاعها ينطلق منها ليصل إلينا في ثماني دقائق، وهاهو ضوءها يسقط على الكهف المعمور بأهله. إن الشعاع يميل عن فم الكهف في الصباح يمينا، وفي المساء شمالا، حتى لا يشعر مَرَّ بَأَن فِي الْكَهْفِ أَحَدًا "3. لكن تصريف أشعة الشمس عن داخل الكهف توحى أيضا بأن المكان بدأ يفقد عنصر الزمن بداخله، وأن أصحابه يغطون في نوم عميق، لا يدرون ماذا يحدث خارج الكهف، أو سيحدث لهم ؟ وماذا نرى في كل ما يحدث داخل الكهف المكان - وخارجه ؟ إننا نرى كل عناصر الكون - المكان العام - أصبحت مفعولا بها، ومنفصلة من طرف الفاعل السارد الذي أخضعها وفق إرادته ومشيئته، وعلمه لخدمة الفتية المؤمنين، وهم داخل الكهف وقد فقدوا كل اتصال بالمكان والزمان. فأى توظيف أسطوري في هذه القصة ؟ وأي تنويع رمزي ومخيال جماعي في هذا المشهد السردي ؟ ونحن نعيش ضمن هذا الكون، ونرصد حركة الشمس الدائبة شرقا وغربا، لا تتأخر عن موعدها، الذي قدره وحدده الخالق العليم . هذه الحركة الدائبة المتعاقبة للشمس التي لا نستطيع تغييرها، ولا نعلم بدايتها ومستقرها. فهل من المعقول أن نرى كل هذه الحركة المستمرة عبر الامتداد الزمني، وعبر الفضاء المكاني، ثم نقول عن كلام خالقها ومسيرها، والمشرف على حركتها، إنها الأسطورة والخرافة ؟ .

1 - سورة الكهف : الآيات 11 ، 12 .

2 سورة الكهف : الآية 17

3 - محمد الغزالي : المرجع السابق ، ص 231 .

كانت حركة الشمس حركة دقيقة على الكهف المكان، كما عبر النص القرآني، فهي تضمن للفتية الأمن من كل خطر على أجسادهم، وهم في غفلة من أمرهم، في حين أن خارج المكان في حركة زمانية طبيعية، ليتحول المكان شبيهاً بالقبر، ومن هم فيه بالموتى، وعملية النوم شبيهة بظاهرة الموت، ولهذا قال الله جل جلاله: "ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجَزْبِيِّنَ أَحْسَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۚ ۱۲" ¹. فكان الزمن أهم قضية للشخوص عند بعثهم من مرقدهم " وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ " ²، لتبقى قصة أهل الكهف سؤالاً محيراً، حول كم استغرقت مدة نوم الشخوص في هذا المكان؟ إلى أن يخبرنا الله تعالى بمدة لبثهم الخارقة، في نهاية القصة.

إن قصة أهل الكهف في القرآن الكريم، لم ينشئها سارد مبدع ذو خيال خصب، ولا مؤلف اطلع على تراث السابقين من يهود ونصارى، ليخرج لنا عملاً فنياً أسطورياً. فقصة أهل الكهف في القرآن الكريم قصتها الخالق الذي يقص الحق، وهو السميع العليم، خالق المكان والزمان والإنسان، وأنزل القصة وحياً من السماء، لم تطله يد أي بشر بالتغيير. وما علينا إلا أن نبحث القصة وفق هذا المبدأ، وأن نطرح السؤال المفتاح عن مدة نوم الفتية، وما المقصود من وراء ذلك، من إحصاء مدة النوم، وعرضها والتأكيد على كتلتها الزمانية الخارقة؟ إنها إشكالية زمكانية أثارها النص القرآني في آيات معدودات، رغم كتلة زمن الأحداث الممتدة إلى مئات السنين. لتتحول كل عناصر هذه القصة، إلى مجال الخارق والإعجاز - المكان والزمان والشخوص والأحداث - إنها فعلاً قصة تجعل العقل يقف حائراً متعجباً، بين أمرين لا ثالث لهما، إما الإيمان بوحى الله وقدرته، مصداقاً لقوله جل جلاله: " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۚ ۲ " ³، وقوله: " لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۚ ۴ " ⁴، أو الكفر بهذا الوحي، والتكذيب بقصصه جملة وتفصيلاً، وهذا لا ينقص إطلاقاً من أمر الوحي شيئاً .

¹ سورة الكهف : الآية 12 .

² سورة الكهف : الآية 19 . -

³ سورة البقرة : الآية 2 .

⁴ سورة فصلت : الآية 42 .

لقد نبهنا القرآن الكريم إلى ظاهرة النوم عند الإنسان، حيث يقول الله جل جلاله: " وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٠ "1. قد " خلق الله للعبد النوم، ليعلم به كيفية الانتقال من حال إلى حال، وصفة الخروج من دار إلى دار، فإنه موت أصغر. وقد يقال بنظر آخر إنه يقظة صغرى، فإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة، والحس والتصرف بالأفعال معه قلنا: هو موت لعدم ذلك كله به "2. وإذا كانت عملية النوم شبيهة بعملية الموت، فلا بد للقرآن الكريم أن ينقلنا إلى قصة أخرى، عالج فيها قضية البعث في مكان وزمان، شبيهة بقصة أهل الكهف وهذا ما جاء في سورة البقرة، في قصة الذي مر على قرية خربة، فاحتار متعجبا في كيفية بعث هؤلاء الموتى. يقول الله جل جلاله: " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ أَلَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٥٩ "3، ونجد الجواب نفسه يتكرر، حين يسأله الله عن مدة لبثه ميتا، فيجيبه الله مبينا له المدة الزمنية الحقيقية، والتي لم يشعر بها إطلاقا أثناء موته، لأنه فقد الإحساس بالزمن - بل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ - . ولكي يجعله يشعر بالقدرة الإلهية، يبين له كيف لقي الطعام والشراب محفوظا، وكيف يعيد أمامه الحياة إلى الحمار بعد أن تحول رميما. وهي قصة حقيقية لا مجال لأدنى شك فيها، ما دام قد جاء سردها في وحي الله .

إننا نجد في هذا المكان - القرية - أن الله تعالى قد أسقط عامل الزمن على الحمار حيث جعله رميما، في حين لم يسقطه على الطعام والشراب، على الرغم من وجود كل منهما - الحمار والطعام - في المكان نفسه، فقد تساوى المكان والزمان، واختلف أثر الزمن، ليبقى الطعام والشراب دون تغيير، على الرغم من مرور مائة عام. إلا أن الحمار قد خضع لقواعد وشروط الزمان، فمات واستحالت جثته رميما، لتعيد القدرة الإلهية تشكيل هيئة الحمار من جديد، وتثبت فيه الحياة بعد موته، في مشهد مرئي أمام عيني هذا المتسائل

1 سورة الأنعام : الآية 60 .

2 محمد ابن العربي : قانون التأويل ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، بيروت 1990 . ص 136 .

3 سورة البقرة : الآية 258

عن كيفية البعث . ولهذا ففي زمكانية واحدة تخضع أمور إلى أحكام الزمان، وتُستثنى أخرى " فالقضية إذن عجيبة، وكيف طوى الزمن في مسألة الطعام ؟ وكيف بسط الزمن في مسألة الحمار؟ إنه سبحانه وتعالى يظهر لنا أنه هو القابض الباسط، فهو الذي يقبض الزمن في حق شيء، ويبسط الزمن في حق شيء آخر، والشيطان متعاصران معا "1.

وهذا كله يجلي طلاقة القدرة الإلهية، التي تتصرف في عامل الزمن. وبعد سؤال هذا الشخص عن كيفية البعث - أُنَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا - يكون السؤال الأهم، كيف سيعالج القرآن الكريم هذه الإشكالية ؟ وخاصة أنها تمس أساس عقيدة الإيمان بالبعث. فما على القدرة الإلهية، إلا أن تتجلى أمام عيون هذا المؤمن المتسائل، ويسرد مشهدها الوحي في قصة موت وبعث، بفعل من الله تعالى، على أساس إيماننا بالبعث " وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ "2. كما أن صورة الموت والحياة تتكرر دائما في دنيانا، وأمام أعيننا .

إن استراتيجية القصص القرآني بعيدة كل البعد عن أي تعقيد وغموض، ف جاء الوحي بهذه القصة المعجزة، وكرستها القدرة الإلهية على أرض الواقع، بعيدا عن كل خيال، دون أن يحدد النص القرآني، من عناصر القص سوى عنصر الزمن - مائة عام - وقد تجاوز بقية العناصر الأخرى. وانتهى النص القرآني بتقرير يقيني للشخص المبعوث بقوله - أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - التقرير نفسه الذي يتقاطع معه المتلقي المؤمن، حين يقرأ هذه القصة القرآنية، مؤمناً بطلاقة القدرة الإلهية التي تجعل من عنصر الزمن أداة طيعة ، وتتصرف في الإماتة والإحياء، ولا اعتراض إطلاقاً على المشيئة الإلهية. وهنا تتجسد فاعلية الله المطلقة " فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ١٦ "3. لقد أمات عبده وبعثه بعد مائة عام، كما أنام الفتنية وبعثهم من مرقدهم بعد ثلاث مائة عام. وهو بهذا قادر على بعث كل الخلائق يوم يشاء " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ٢ "4. فالعبرة من القصتين، بإسقاط الزمن على المكان هي الإيمان بيوم البعث - وهو غيب - وكذلك

1 محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، ص المجلد الثاني . ص 1134 ، 1135 .

2 سورة الحج : الآية 7 .

3 سورة البروج : الآية 16 .

4 سورة الملك : الآية ، 2 .

الإيمان بطلاقة القدرة الإلهية. كما بينت لنا حكمة الله، أن هناك تشابها بين عملية النوم والاستيقاظ، وعملية الموت والبعث .

أما الاختلاف في القصتين، هو أن قصة أهل الكهف عرفها الناس، وعثر القوم على الفتية في مكان نومهم وبعثهم، بعد أن غاب الفتية زمنا طويلا. يقول الله جل جلاله: "وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ۲۱" 1، ولذلك تعجب القوم في أمر الفتية الخارق، وحاولوا تخليد المكان باتخاذ مسجد عليه. ليتحول المكان المعجز، إلى مسجد - مكان عبادة - بعد أن كان مكانا عاديا. أما قصة الذي مر على القرية الخربة، فعملية موته وبعثه، كانت بعيدة عن مشاهدة ومعاينة ومعرفة الغير. أنه " سبحانه أمات القائل في مكان بعيد عن العمران، على نحو لم يطع عليه أحد على جسده ، ولا على طعامه، ولا على حماره الذي تبدد لحمه وعظامه وعضلاته، عبر مائة سنة. وإلا فلو أماته داخل الأحياء والعمران، أو ممر القوافل، لعثروا عليه وواروه، ولم يبق على الحالة التي يذكرها القرآن " 2 وقد أجرى الله تعالى عملية عودة الحياة إلى الحمار، بعد أن كان رميما أمام مرأى أعين الشخص وحده. لهذا كانت قصة أهل الكهف أكثر حضورا في تراث أهل الكتاب، وأكثر بحثا ودراسة ونقدا من القصة الثانية. وكلتا القصتين بالنسبة لنا نحن المؤمنين، تكملان بعضهما البعض، وتفسران ظاهرة النوم والموت، بأنهما فقدان الشعور بالزمن، كما تؤكدان أن البعث، هو الوعد الحق الذي لا ريب فيه.

فالظاهرة الزمانية للمكان في قصة أهل الكهف، لها مدلولها الإعجازي الذي يؤكد الواقع والعلم والإيمان، ونقلها لنا الوحي بوقائعها الحقّة، مكانا وزمانا، وشخصا وأحداثا. إلا أن القرآن الكريم لم يتعرض لتحديد المكانين جغرافيا، وهذا شأن يستغني عنه القصص القرآني، وحتى مواصفات المكان جاءت تخدم الظاهرة الإعجازية للزمن. فالكهف المكان يحيط به الزمن الدنيوي المتعارف عليه من خلال تعاقب الليل والنهار،

1 سورة الكهف : الآية 21 .

2 آية الله جعفر السبحاني : العوالم الغيبية في القرآن ، دار جواد الأئمة ، الطبعة الأولى 2008 ، لبنان . ص 176 .

في حين أن داخله يخيم عليه السكون، وعدم الإحساس بمرور الزمن، وتتوالى السنون لتصبح قرونا. وكأن المكان يسير بزمانين، جعل كل فريق - الفتية والقوم - يحصي التقدير وفق وجوده ضمن الإطار المكاني المحدد له، فقوم الفتية عاشوا جيلا بعد جيل، في الزمن الموضوعي، وتوالت السنون حتى أصبحت قرونا .

أما الفتية فلم يشعروا بالمدة الزمانية الحقيقية التي مرت عليهم، منذ نومهم إلى وقت استيقاظهم، فجاءت إجابتهم - قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - وفق عادة كل شخص نام ثم استيقظ. وكذلك المكان في القصة الثانية، فكأنه سار بزمنين في الحيز نفسه، فتأثر الحمار بعد الموت، دون الطعام الذي بقي محفوظا، فأعاد الله تشكيل الحمار، وبعث فيه الحياة ثانية، فتبين للشخص السائل المؤمن، أن البعث أصبح يقينا، متحققا أمام أعينه، وفي عالم الواقع. وهنا تتجلى فاعلية تصريف الظاهرة الزمانية. وهذا ما تم التركيز عليه من خلال عرض مشاهد القصتين بارتباط المكان بالزمان، حيث تتجلى طلاقة فاعلية وقدرة الله تعالى، التي تُخضع عنصرَ الزمن خضوعا مطلقا، تجعله مؤثرا، وغير مؤثر في مكان واحد. وعلى هذا الأساس، صيغت الظاهرة الزمكانية في هاتين القصتين، لاستخلاص العبر منهما .

فالقرآن الكريم في هاتين القصتين، لم يتناول الظاهرة الزمانية بمنظور أسطوري، أو فلسفي، أو بمنظور بعيد عما يقره الواقع والعلم، على الرغم ما في الحادثتين من خارق، إلا أن إرادة الله عز وجل، هي التي قامت بالفعل في مكان أرضي محسوس محدود، وفي زمن أرضي محدود، وقص الله تعالى الوقائع، بمكانها وزمانها، كما أرادها. فكان الله هو السارد - نحن نقص - وكان هو الفاعل - فضربنا على آذانهم، بعثناهم - . لكن البعيد عن هذا المبدأ، لن يتوصل إطلاقا إلى الإيمان بتصريف القدرة الإلهية للزمن، وارتباطه بالمكان بذلك، ولا الإيمان بالله خالقه ، ولا بيوم البعث.

لهذا استمرت سورة الكهف تعرض علينا الظاهرة المكانية، حين ترتبط بالزمن الخارق، لكن هذه المرة بمدة زمنية غير ممتدة، بل هي أسرع مما يمكن، فيتغير المكان فجأة من حالة إلى أخرى " وقد يبرز هذا التدخل سافرا في الأحداث التي يراد فيها التحدي

بالخارق، فتأتي نتائجها سريعة لا تقبل التريث والإمهال¹. وتم هذا في قصة صاحب الجنتين الذي أنكر البعث مغترا بملكيته للمكان، أمام صاحبه المؤمن بالله، وبيوم البعث. ف جاء على لسانه " وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝ ٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۝ ٣٦ "2. قد " ظن أنها لا تبنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف"³. لكن ظنه لن يغني عنه من الحق شيئاً، ليتحول المكان (الجنتان) في ظرف وجيز لا نكاد نشعر به، مقارنة بما أنفق من مال، وما استهلكه من وقت، وما بذله من جهد، ليتحول إلى أرض قاحلة لا زرع بها ولا نبات. وفجأة تتدخل القدرة الإلهية بزمن خارق بسرعه ومفاجأته، ليحدث ما حدث. يقول الله جل جلاله: " وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ ٤٢ "4. إن الزمن الخارق في تغيير المكان من حالة عامرة إلى حالة فارغة، لا يمتد إلى عدد السنين، بل كان في لمح البصر، أو أدنى .

إن القدرة الإلهية تتصرف في مقاييس الزمن كيف شاءت، وتسقطها على واقع المكان محدثة ما تريد من فعل وعمل، وفي غفلة تامة من أصحاب هذه الأمكنة، ليبرز عنصر المفاجأة من جهة، وتبرز معالم الضعف لدى المخلوق المغرور، بملكه من جهة ثانية. لقد تشابه المصير نفسه في قصة أصحاب الجنة، التي جاءت في سورة القلم، حين اغتر أصحاب الجنة بملكيتهم للمكان الغني بالثمار، فجدوا نعمة الله عليهم، وظنوا أنهم قادرون على حرمان المساكين من منتوج الجنة. قال الله جل جلاله: " إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ ١٧ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ۝ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ ١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝ ٢٠ "5. لكن الزمن ليس بإرادتهم، والمكان ليس بملكهم، لتتحول جنتهم إلى مكان قاحل في لحظة زمنية وجيزة، وفي غفلة تامة منهم، حتى اعتقدوا

1 التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه ، الشركة التونسية للتوزيع ، جامعة الجزائر 1971 . ص 353 .

2 سورة الكهف : الآيتان 35 ، 36 .

3 ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء الثالث ، دار الفكر للنشر ، بيروت 2008 . ص 1130 .

4 سورة الكهف : الآية 42

سورة القلم : الآيات 17 ، 18 ، 19 ،

. 20⁵

أنهم ظلوا الطريق، وأخطأوا المكان " فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۚ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧¹. لما صارت عليه جنتهم ، من حال غير التي تركوها عليها .

إن عنصر المفاجأة هو نفسه في القصتين، فالخارق وسرعة الفعل في تحويل المكان من حال إلى أخرى، يثبت أن الشخص أصحاب المكان، لا حول ولا قوة لهم في حفظ حالته أو إعادة إعمارهم، أو الإبقاء عليه محفوظا بحالته والتحكم فيه. إن سورة الكهف قد تضمنت في بدايتها أن عملية إعمار وإخلاء المكان، هي بإرادة ومشئئة خالق المكان. يقول الله جل جلاله منبها إلى ذلك: " إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٨². إن هذه الحقيقة باقية ومستمرة حتى قيام الساعة، لتؤكد العجز البشري التام أمام القدرة الإلهية المطلقة. فالمكان والزمان والشخص جميعها في قبضة الخالق القادر، الذي يستحيل أن يفلت أي عنصر عن إرادته ومشئئته، أو يغيب عن علمه. فالاعتقاد المزعوم بملكية المكان والزمان لدى الإنسان المغتر، هو مجرد أوهام، لا تغني عن الحق شيئا، واغترار يؤدي بصاحبه إلى الجحود والهلاك، والخسران المبين .

فحين دقت ساعة الحق، وعرف أصحاب الجنة أن لا حيلة لهم ولا قوة، توجهوا إلى الله خالقهم ورازقهم مبرزين ضعفهم، ومعترفين بمكرهم وغرورهم، وأن القوة إلا لله تعالى ، وجاءت لحظة الإذعان والاستسلام " قَالُوا يُؤَيَّلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رُغُوبُونَ ٣٢³. إن العبرة التي استخلصها هؤلاء من انقلاب المكان فجأة، وفي غفلة منهم، هي الإقرار بقدرة الخالق المطلقة، وإحاطته الكلية بالمكان والزمان، وعلمه الواسع بما تكنه صدورهم وضمائرهم، ولهذا كان إعلان توبتهم لله بعد الاعتراف بظلم أنفسهم " قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ٢٩⁴ هذا التضرع يدل على أن شخص القص كانوا مؤمنين، لكن اعترتهم لحظة غرور، أدت بهم إلى تجاوز حقيقتهم كبشر مخلوقين، وتجاوز حقيقة المكان الذي امتلكوه، وقد عادوا إلى حقيقتهم، حين جردتهم

¹ سورة القلم : الأيتان 26 ، 27 .

² سورة الكهف : الأيتان 7 و 8

³ - سورة القلم : الأيتان 31 ، 32 .

⁴ سورة القلم : الآية 29 .

القدرة الإلهية في لحظة زمانية كانت أسرع مما يظنون. وهنا لم يملكوا إلا الإقرار بطبيعتهم البشرية الضعيفة أمام قدرة الله المطلقة، والرجوع إليه وحده سبحانه وتعالى، فكانت القصة درس اعتبار لشخصها وكذلك لقارئها .

لذلك نبهت سورة الواقعة المغترين بهذا المشهد الحي والواقعي " أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ٦٣ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَحْنُ ٦٤ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَّكُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُعَزِّمُونَ ٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٧ " 1 . إنها خلاصة لكل قصة مغتر بالمكان، الذي ظن أنه هو الذي جعل منه جنة خضراء. لكن عمله ينتهي عند فعل الحرث. إن " الفلاح يشق الأرض ويلقي البذر ولا يدري شيئاً بعد، إنه يشهد ما تصنع القدرة العليا، ويستقبل هدايا الله وهو مستسلم ... وقد يتصور الفلاح أن له عملاً فيما يتم، فبين الله أنه لو أراد دمر ما أنشأ، وأسلمه إلى أسراب الجراد "2. والفلاح لا يعلم كيف تعمل مخابر التربة، لتحول الحبوب الميتة، والماء العذب إلى زروع خضراء، وثمار متنوعة. وهل تعاقد هذا الفلاح مع المكان الجامد، على هذه العملية الزراعية هنا يعمل الإيمان عمله، ليقف الفلاح المؤمن من ربه عند حدود طبيعة مخلوقيته، متكلاً على الله خالقه بعد عملية الحرث، راجياً عطاءه وخيره وحده، دون أن يشرك به شيئاً، أو يغتر بملكية المكان والقوة. فما أبسطه من درس وما أعمقه، لكن وسيلة فهم الدرس واستيعابه هي الإيمان بالله، والإقرار بطلاقة قدرته - سبحانه وتعالى - على كل شيء قدير .

هذا الاعتراف والإقرار سجله الوحي على ألسنة شخوص القصص، بعد ما لمسوا حقيقة مخلوقيتهم، ليكشف لنا الطبيعة النفسية للشخصية من حيث العقيدة، فعدم التماذي في ظلم النفس، والرجوع إلى الله وحده، والاعتراف بالظلم والتسبيح لله جل جلاله، هو العبرة التي استخلصها الشخوص من حادثة الزمكانية، حين شعروا بأنهم أصبحوا محرومين، تساويًا مع كل مسكين أرادوا حرمانه، مما أنعم الله عليهم. وبعدما كانوا منعمين، سيطرت عليهم روح الأنانية ، فأعمت بصيرتهم، حتى استفاقوا على واقع ميداني، لم يكونوا يتوقعونه أبداً. إن الزمكانية في القصة القرآنية لا تدل إلا على أن حقيقة

1 سورة الواقعة : الآيات 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، 67 .
2 الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 428 ، 429 .

ملكية المكان هي لله وحده، وأن الفاعل الحقيقي هو الله وحده. كما أن المجال الواقعي والحقيقي، لا يقبل أبدا أسطورة ولا خيالا، ولا ادعاء باطلا فكل هذه الاعتقادات المزعومة تسقط أمام فاعلية الله المطلقة، وتنهزم أمام حقيقة الظاهرة الزمكانية، التي تمارسها القدرة الإلهية، ويستعرض مشاهدتها الوحي ضمن قصصه عبر واقع ميداني بالمكان والزمان والشخص. بهذه الاستراتيجية القرآنية التي تسقط الزمان الخارق على المكان، مؤكدة بطلان ادعاء ملكية المكان للبشر المخلوقين، قاهرة كل غرور بالقوة والعلم. بل يجب على الشخص المؤمن أن يقر بفضل الله عليه، وأن يتواضع لخالقه معترفا بمخلوقيته وعبوديته وضعفه، وأن لا حول له ولا قوة إلا بالله سبحانه وتعالى. وهذا في نظرنا هو ما تهدف إليه قصدية القصص القرآني، وهو أهم من أن يتجه البحث إلى دراسة الزمان دراسة فنية، تُبقي توظيف الزمن في النص القرآني، شبيها بتوظيفه في فضاء السرد الفني والتاريخي، مما ينحرف بالبحث عن المغزى الحقيقي، لحكم القصص القرآني، ويبتعد عن مبدأ التدبر والاعتبار الذي طالب به القرآن الكريم .

لذلك تناولت سورة الكهف قصة ذي القرنين، العبد المؤمن الذي مكن الله له في الأرض - المكان - والفرق واضح بين أن يملك الإنسان قطعة من الأرض، تحوله إلى متجبر ومنكر لخالقه الذي أوجده من عدم، ورزقه من دون حول له ولا قوة، فيطغى ويفقد الرحمة والشفقة على المساكين، وبين الذي يُمكن الله له في الأرض، فيجوب أقطارها ينشر الحق والعدل بين الناس، ويظل مؤمنا بربه، متواضعا له، شاكرا فضله عليه. يقول الله جل جلاله في شأن ذي القرنين: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ ٨٤" ¹. وقد رصدت لنا سورة الكهف ثلاثة أمكنة توجه إليها ذو القرنين ينشر التوحيد، ويحارب الشرك والظلم " فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۚ ٨٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۚ ٨٦ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۚ ٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقَوِّلُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۚ ٨٨ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۚ ٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِنْرًا ۚ ٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۚ ٩١ ثُمَّ

¹ سورة الكهف : الأيتان 83 ، 84 .

أَتَّبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣ قَالُوا يَا لَئِن لَّمْ يَكْفُرْنَا لَنَنبَأَنَّكَ إِذَا سَأَلْتَنَا بِرَبِّكَ مَا كَتَبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ دُونِ مَا أُتِيَ الْوَحْيَ أَنَّا نَكْفُرُ ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥ ءَأَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَأَلْتَهُ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ٩٦ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ٩٧ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨¹. وفي هذه الأمكنة دارت أحداث قصة ذي القرنين .

لقد جردت هذه الأمكنة من الزمن ومن الجغرافيا، وارتبطت بموقع مغرب الشمس ومطلعها وبين السدين. كما ذكرت بعض مواصفات تلك الأمكنة، فميزة مكان الغرب هي - عين حمئة -، واختلف المفسرون في معنى لفظة حمئة. وجاء في تفسير ابن كثير: "ولا منافاة بين معنيها إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس، وحمئة في ماء وطين"². فهذا المكان ارتبط بمواصفات، دون تحديد موقعه الجغرافي، فذو القرنين بلغ هذا المكان الذي يقع في غرب الأرض وبه تيار مائي حار. ونتعجب لمن حاولوا إخضاع منطوق النص الإلهي لهذه الآية إلى الطبيعة البشرية، حين عجزوا عن فهم عبارة - وَجَدَهَا تَعْرَبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ - محاولين أن يبدعوا في الرد عن ذلك، كأنهم يريدون مساعدة الله لإيصال معنى العبارة، متناسين أن العقل والمنطق والعلم لا يقول بغروب الشمس وسط عين من ماء. والذي وجد هذه الوضعية واعتقد ذلك هو ذو القرنين. إن " ذا القرنين لما بلغ موضعا في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة، وإن لم تكن في الحقيقة. كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر، إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر"³. وهذه رؤيته للغروب وفق اعتقاده هو. وما قام به النص القرآني، أنه نقل لنا رؤية ذي القرنين لمشهد غروب الشمس بهذا المكان. لقد انتبه الرازي لهذه القضية الفلكية، فقال " إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة، وأن الشمس محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك ... ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود، وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة. فكيف

¹ سورة الكهف: الآيات 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98 .

² - ابن كثير: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص 1146 .

³ - الإمام فخرالدين الرازي: المرجع السابق، الجزء الحادي والعشرون . ص 167، 168 .

يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ؟¹ . بل كان وضع هذا الغروب مفاجئاً لذي القرنين، حين وجد مقابل ذلك، أن الشمس تبقى دائمة الطلوع في المكان الثاني الذي توجه إليه، حيث لا ظلام، ولا ليل به. فمكان به تعاقب الليل والنهار، يقابله مكان آخر يندم به التعاقب، لأن الشمس تبقى طالعة لا تغيب عن القوم .

إلا أن أحمد خلف الله يعود لبحث هذه المسألة في قصة ذي القرنين فيقول: " إن تاريخ المسألة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وموقف المشركين واليهود منه وتوجيههم إليه الأسئلة على أن تكون الإجابة كما يعرفون، هو الذي يضطرنا إلى أن نذهب إليه من أن هذه القصة تصور المعارف التاريخية والكونية، عند أهل الكتاب، وعند المشركين من الذين يعاصرون النبي صلى الله عليه وسلم² . وماذا سيقول الباحث عن طلوع الشمس دون غروب بالمكان الثاني الذي توجه إليه ذو القرنين ؟ هل أن تصور المعارف التاريخية والجغرافية والكونية لأهل الكتاب والمشركين كانت تقول بذلك أيضا ؟ إن ضيق الرؤية التحليلية، والاعتراض بالإحاطة بفهم النص القرآني هو الذي يؤدي بالمدعي إلى الكشف عن التناقض في ادعائه، وبقاء النص القرآني دليلاً على ذلك. والسؤال هو من أي مصدر اعتمد النص القرآني على المعارف العلمية والفلكية والاجتماعية، والنفسية والعقائدية، التي أوردها ماثورة في سوره ؟ الجواب بالطبع نجده عند كل باحث في كل اختصاص. لقد " انفرد القرآن بنسق لم يعهد في غيره من الكتب، فكيف يزعم زاعم أنه مأخوذ من ما قيل من قبل ؟ إن الأقوى لا يأخذ من الضعيف، والمكثر لا يأخذ من المقل، وقارون لا يأخذ ماله من بائع خبز في دكان مهجور³ . وماذا يكون موقف كل جيل من المعارف المتنوعة التي احتواها النص القرآني، إن كان مصدرها أهل الكتاب والمشركين ؟ سيكون المصير نفسه الذي آلت إليه كتب اليهود والنصارى السابقة، والمصير نفسه الذي آلت إليه معارف المشركين التي حيدها العلم، وقذف بها في أغوار النسيان لتتضاف إلى ميدان الخرافة والأسطورة، إذ لا مكان لتلك

1 - المرجع نفسه ، ص 167 .

2 محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق ، ص 177 .

3 الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 214 .

التصورات في عالم العلم والواقع والحقيقة، وهل كان مصير كتاب الله وقصصه كذلك ؟

إن هذا التقابل للمكانين في القصة جعل ذا القرنين يصحح رؤيته لموقع الشمس من الأرض، حين وجد انعدام غروبها، وبقائها طالعة في المكان الثاني. فطريقة الوحي في صياغة الأدلة دقيقة، لا يمكن أن تهمل أي نقطة. ولذا فسمة التقابل في القرآن الكريم سمة بارزة للوقوف على الدلالات لأي القرآن الكريم. وجاء التقابل هنا ليبدل على الأماكن التي وصل إليها ذو القرنين، وليصحح سوء الفهم لموقع الشمس من الأرض، ولا يبق عليه في ذهن القارئ، وليلفتنا القرآن الكريم إلى الظاهرة الزمانية المعايينة عبر الأماكن، وأن وصف القرآن الكريم لم يكن للشخص في هذه القصة، بقدر ما كان للمكان، نظراً لأهميته ودوره في عملية القص للدلالة على القدرة الإلهية، وهذا ما يتناسب مع زمانية المكان. وإن عدم الالتفات إلى هذه الإشكالية الزمانية أثناء دراسة القصص القرآني، يؤدي إلى عدم استيعاب تعامل النص القرآني مع الظاهرة الزمانية. قد حاول بعض المفسرين الاهتمام بتحديد جغرافية المكان، والبحث عن مواقعها واجتهدوا في ذلك. إلا أننا نعتقد بأن محاولة تحديد أماكن القصص القرآني، والتي تجاوز الوحي ذكرها، لا تؤثر على عملية استيعاب القصص. كمحاولتهم معرفة اسم القرية الخاوية على عروشها، ومكان الكهف، وأماكن رحلات ذي القرنين .

كما حاول مالك بن نبي تحديد جغرافية مكان غروب الشمس، في قصة ذي القرنين ، فيقول : " لو أننا نظرنا إلى خط الطول الذي تقع عليه مكة، فإن مغرب الشمس سيكون على مدى تسعين درجة طولية إلى الغرب، وهذا الطول يمتد إلى نواحي خليج المكسيك، حيث يتفرع مجرى بحري، هذا التيار البحري الدافئ "1. أما ميزة المكان الثاني، أنه لا تغيب على ناسه الشمس، يقول الله جل جلاله : " حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْهَهَا تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سَبْتًا " ٩٠ 2، فالوصف هنا للمكان وليس للقوم، لأن التركيز على الظاهرة الزمانية للمكان أدل على الإعجاز من وصف القوم. هذا المكان الذي ينعدم فيه

1 مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين . دار الفكر الجزائر ص 290

2 سورة الكهف : الآية 90

الإحساس باليوم، لانعدام غروب الشمس به. إن " الأسكندر قد وصل إلى مناطق لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة ، أي أنه لا يتعاقب الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية، بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام"¹. وعلى الرغم من أن الكاتب حدد اسم الشخصية، وهذا ما نراه تجاوزاً في حق النص، وأمرًا غير ضروري. لكن الأهم في هذا المكان هو أن الشمس هي التي لا تستتر عن القوم، وأن الله هو الذي أراد ذلك، فالمكان لا يعرف تعاقب حركة الليل والنهار، وهذا الأمر هو أهم من البحث عن اسم الشخصية. فهذه ظاهرة إعجازية للزمكانية تجري أمام أعين القوم، وأمام أعين ذي القرنين الذي تصور أن الشمس تغيب في حد مكان - العين الحمئة - ليظهر له في مكان آخر، أنها تبقى طالعة لا تغيب، وبهذا التقابل يصح القرآن الكريم نظرة ذي القرنين إلى حركة الشمس خاصة، والكون عامة، كما يرد على كل من حاول اتهام حقائق القرآن الكريم حول الظاهرة الفلكية. بل سنجد القرآن الكريم قد كشف جهل هذا المدعي وعدم استيعابه للحقائق القرآنية، وهذا ما وقع فيه أحمد خلف الله وأمثاله .

إن هذا المكان - مطلع الشمس - يحوي ظاهرة زمانية عجيبة ومحسوسة، تتمثل في انعدام تعاقب حركة الليل والنهار. الحركة الطبيعية التي اعتدنا عليها لمعرفة الزمن، وهي لفظة النص القرآني دائماً للظواهر الزمنية الغريبة، والخارقة لتتبع القدرة الإلهية. ولعل هذه الظاهرة كانت مخفية على كثير. ففي المناطق الواقعة في أقصى الشمال لقارة أوروبا ، وبالتحديد في مناطق ما يسمى بالدول الإسكندنافية، المحاذية للمحيط المتجمد الشمالي، لا تغيب الشمس عن بعض مناطقها مدة تحسب بالشهور. إن " الجغرافيا هي الحقيقة الأولى التي تهيمن على أهالي فنلندا ... فهي أرض الصقيع والظلام، فنقضي أجزاء كبيرة من البلاد حوالي ستة أشهر في ظلام دامس ولا ترى الضياء ... وتعيش أجزاء أخرى ستة أشهر في نهار ساطع، وفي أقصى الشمال لا يوجد ظلام على الإطلاق"². وقبل هذا الوصف الذي كان في العصر الحديث، كانت رسالة ابن فضلان في وصف رحلته إلى بلاد الصقالبة، قد تعرضت لهذه الظاهرة الزمنية في القرن الرابع الهجري،

1 - محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص204 .

2 - مصطفى نبيل : فنلندا الألوان والأنغام ، مجلة العربي ، وزارة الإعلام بدولة الكويت ، العدد 318 مايو 1985 . ص 107 .

فيقول: " ورأيت النهار طويلا جدا وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة، ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار ... وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم - ويسو - الليل عندهم أقل من ساعة "1 وهناك أماكن، لا تغيب عنها الشمس شهورا، ولا يزول منها الظلام شهورا .

يقول أحد الكتاب الرحالة المعاصرين، عن منطقة زارها بروسيا عام 1991: "إنها بلاد الشمس، لا تغرب عنها في هذه الأيام طوال الليل والنهار، بل لا يكون فيها ليل ولا نهار متعاقبان، وإنما هي شمس مشرقة، والمراد بذلك أنها في الأفق ولا ترتفع في السماء "2 . وقد صادف المسلمون بهذه البلاد إشكالية زمانية في تحديد أوقات الصلاة " وهناك لا بد من الاجتهاد في أوقات الصلاة، لأنه ليس هناك غروب للشمس ولا طلوع، فقدرنا للصلاة تقديرا كما في الأحاديث التي وردت في أيام الساعة، يوم كشهر وشهر كسنة، أو ما هذا معناه ... وعملنا كما عمل الإخوة المسلمون أهل البلاد، الذين لا يبعدون كثيرا عن القطب "3 ، ويقول: " وهي بلاد مسكونة فيها مدن ... وقد زرت إحداها وهي مدينة مورمانسك الروسية وذلك في عام 1990، ولم تكن الشمس تغرب عنها أبدا عند زيارتي لها في العشرين من شهر يونيو، وقد عملت بالتقدير فصليت الظهر في الثانية عشر، والعصر في الثالثة، والمغرب في السادسة والعشاء في الثامنة، لأنه لا وجود لليل، ولا لغروب الشمس وشروقها "4. أما المشكلة العويصة بالنسبة للمسلمين هي " مشكلة الصيام في رمضان، فهي عويصة بالفعل حتى بالنسبة للبلدان الشمالية التي يقطنها مسلمون، ويكون فيها ليل ولكنه قصير في الصيف، وطويل جدا في الشتاء "5. إنها ظاهرة مكانية تحدث أمام كل من يوجد بهذه الأماكن ، وتجري على الأرض بأماكن معلومة محددة جغرافيا. كان نو القرنين قد وصل إليها من قبل، وكان ذلك في زمن الصيف،

1 أحمد بن فضلان : رسالة بن فضلان ، تحقيق د. سامي الدهان المطلعة الهامشية 1960 ، دمشق . ص 125 ، 126 .

2 محمد بن ناصر : الرحلة الروسية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الطبعة الأولى 1993 ، الرياض . ص 167 .

3 المرجع نفسه . ص 08 .

4 محمد بن ناصر : إلى شمال الشمال ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الطبعة الأولى 1993 ، الرياض . ص 173 .

5 محمد بن ناصر : الرحلة الروسية . ص 209 .

ومن بعده بقرون وصل الرحالة إلى تلك المناطق من العالم ، واطلعوا على الظاهرة الزمانية العجيبة بتلك الأمكنة .

لا يستطيع ذو القرنين أن يغير من الواقع الزماني لهذا المكان شيئاً، وهذا أمر يدركه ذو القرنين يقيناً. كما أن تعاقب الليل والنهار هو من اختصاص الخالق وحده. لن يستطيع البشر أن يضيفوا ولو ذرة من ظلام، أو ضوء لزمان هذا المكان. وبناء على هذا الأساس ينبغي أن نفهم الظاهرة الزمانية للمكان في القصص القرآني، للدلالة على مواطن الإعجاز . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التحدي الزماني المعجز في سورة القصص، في قوله تعالى " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٧٢ "1. ولهذا ففي هذه الأمكنة " لا تقتصر معاناة الناس فيها على البرد والثلج والرياح المؤذية، وإنما يصحب ذلك ما هو أثقل على النفس وأكثر سبباً للانقباض، وهو الظلام الطويل الذي يستمر مطبقاً لأيام عديدة "2. أفلا نسمع لقوله تعالى، ونبصر هذه الظاهرة الزمانية المعجزة ؟ وكيف يمكن للقصص القرآني أن يبيهم عامل الزمن ؟ والنص القرآني يعرض علينا هذه المشاهد بطواهرها الزمانية الخارقة. فهل في استطاعة أحد أن يغير موازين الزمن ؟ أو يغير معادلة الليل والنهار ؟ أو يضيف أو ينقص منهما أو يزيد عنهما ؟ .

لقد جاء في سورة البقرة، عرض قصة الملك المتجبر الذي حاج سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في قوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأنتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٢٥٨ "3. وعند هذا الحد لجأ إبراهيم - عليه السلام - إلى توظيف إعجازية الزمانية التي لا يستطيع أن يلتبس فيها الأمر، أو يزعم هذا الملك المغتر بملكه أي زعم وهذا دليل قاطع على أن الظاهرة الزمانية هي من اختصاص الله وحده، لهذا لم يستطع هذا المتجبر، أن يتفوه بأي كلمة بعد هذه الحجة الدامغة. " والعقل وإن أدرك مظاهر

1 سورة القصص : الآياتان 71 ، 72 .

2 محمد بن ناصر : المرجع السابق . ص 204 .

3 سورة البقرة : الآية 258 .

الحياة والموت في الأحياء والأموات، فهو عاجز عن إدراك حقيقة الموت والحياة. لذلك حابه إبراهيم - عليه السلام - بوجه آخر في سنة كونية ظاهرة، يشترك كل الناس في فهمها، وهي أن يصير طلوع الشمس من المغرب، إن كان ربا كما يزعم "1، بل لم يكن يظن أنه سيكون أمام هذا الموقف المباغت والمعجز، ولهذا - فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرًا - . ومهما حاول الكافرون إنكار الألوهية، إلا أنهم لن يقدرُوا على إضافة أي لحظة زمانية لوجودهم. بل من ذا الذي يستطيع أن يُحول مسار الشمس إلى اتجاه معاكس؟ أو يتحكم في حركتها الدائبة؟ أو يغير وجهة شروقها أو غروبها؟ إنها أسئلة بسيطة لقضية خطيرة، قريبة من كل واحد منا، ولا أحد يستطيع أن يمتلكه الغرور ليزعم ذلك على الإطلاق. لهذا كانت رحلة ذي القرنين لهذين الاتجاهين تمثل في اعتقادنا بلوغا لأقصى نقطتين في الأرض - المكان - لجهتي غروب ومطلع الشمس، دون أن يُفصل القرآن الكريم مدة زمن الرحلة، سوى تقديم الظاهرة الزمانية في بقاء الشمس طالعة على المكان دون أن تغيب، لا كما تعودنا حركة غروب وشروق الشمس لمعرفة اليوم .

إن قصة ذي القرنين ليست قصة بطل مغامر يقوم بالبحث عن كنوز الذهب والفضة ليقطع رؤوسا لأدبيين عزل، ويبيد قبائل بريئة للحصول على ثرواتها وأراضيها، وليس شخصية أسطورية صنعها خيال المبدعين الفنانين. إنه رجل صالح ومؤمن، مكن الله له في الأرض لينفع الناس، وينشر الحق ويبطل الباطل " فالقرآن الكريم كتاب واقعي، لا مكان فيه لأبطال الملاحم، والإسلام بدون إنسان يطبقه، يصعب فهمه، وقد لا يكون له وجود بالمعنى الصحيح "2. ولعل هذه الرحلات وهذا العمل الدعوي استغرق زمنا يعد بالسنوات، وخاصة في عصر ذي القرنين، حين كانت سرعة وسائل السفر بطيئة على ما هي عليه اليوم. فعجيب أمر تلك الأمكنة التي وصل إليها ذو القرنين، وعجيب أمر تلك الرحلات التي قام بها في أطراف الأرض المترامية، والتي كانت بتمكين من الله رب المكان والزمان .

1 التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 477 .

2 علي عزت بيغوفيتش : المرجع السابق . ص 280 .

إن الظاهرة الزمانية للمكان في سورة الكهف تضم المجالين الخارق والغيبى، وكل منهما يكرس تلك الإعجازية التي تميز القصص القرآني عن كل فضاء سردي، وهذا ما نراه أكثر أهمية من البحث عن شخصية ذي القرنين، ومن يكون؟ وقد تضاربت فيه الآراء والتناقضات، التي تضيع فيها كل قصدية للقصص القرآني، وتتحرف الدراسة عن المبدأ العقدي. كما أن هذا الاتجاه في التفسير الذي يبحث معرفة أسماء شخصيات القصص والأمكنة، فتح مجالاً خصباً أمام الطاعنين ليؤسسوا سنداً لادعاءاتهم الباطلة، وليختلفوا موضوع الشبهات في القصص القرآني، وكلا الفريقين بعيد عن الحقيقة. فلا هؤلاء المفسرون التزموا بمنطوق النص، ووقفوا عند حدوده ليستخلصوا الحكمة والعبرة منه، ولا هؤلاء المشككون تمنعوا فيما يقوله القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحاولوا تجنب الأقوال الواهية في تفسير كلام الله. وشتان بين كلام الله العليم الحكيم، المنزه المحكم، وكلام المخلوق الناقص والمتغير.

وتبقى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح الذي علمه الله علماً خاصاً " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ٦٥ "1. والتي سنتناولها في الفصل الثاني - إن شاء الله - لبحث أحداثها. أما ارتباط المكان بالزمن في هذه القصة، فيختلف عما سبق، ونعني به مكان اللقاء بين سيدنا موسى - عليه السلام - والعبد الصالح " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ٦١ "2. فالمكان هو - مجمع البحرين - لكن سيدنا موسى - عليه السلام - لا يعرفه، فحدد له مسبقاً، بنسيان الحوت المحمول معهما كزاد للسفر. فسيدنا موسى - عليه السلام - يتجه إلى مكان لا يعرفه، وسيلتقي فيه برجل لا يعرفه أيضاً، لتبدأ الرحلة. في هذه القصة يتم التركيز على الأحداث مرتبطة بالظاهرة الزمانية، لتنتقل ظاهرة الإعجاز من المكان إلى الأحداث التي تتضمنها الرحلة. هذا ما أدى بنا إلى بحثها في الفصل الثاني، الذي خصصناه لزمانية الأحداث. وجاء في تفسير ابن كثير لعبارة - فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا - " وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب وكان في مكثل ... وطفر من المكثل

1 سورة الكهف : الآية 64

2 سورة الكهف : الآية 59

إلى البحر"¹. وهذه ظاهرة إعجازية أوردها القصص القرآني، في إعادة الحياة للحوت، بعد أن كان مهياً للأكل .

وهكذا تم اللقاء بالمكان - مجمع البحرين - الذي يبقى مجهولاً، وتختلف التفسيرات حول تحديده، لأن تعدد هذا المعلم والتقاء بحرين في أكثر من جهة، جعل المفسرين يحددون مكانين متشابهين في الوصف، أحدهما بجزيرة العرب " مجمع البحرين هما بحر فارس مما يلي المشرق و بحر الروم مما يلي الغرب "²، والمكان الآخر ببلاد المغرب " مجمع البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب "³ . فالأول قريب من المنطقة التي كان يوجد بها سيدنا موسى - عليه السلام - وقومه، والمكان الثاني بعيد المسافة، ولا نملك أي دليل آخر للتحقق من مكان اللقاء. لا يهم معرفة المكان إذا تعذر على الدارس تحديده، كما أنه لا يغير من معالم هذه القصة شيئاً. ولكن العمل على استخلاص الحكم والعبر، هو أساس التدبر في القصص القرآني. لأن سمة الإعجاز التي أسقطت على المكان، تنتقل أيضاً لتشمل الأحداث، وإن مكن الله لذي القرنين في الأرض ليجوب أقطارها، فكذا مكن للعبد الصالح من العلم ما لم يستطع النبي موسى - عليه السلام - صبرا عليه، وإلا لاستغرقت الرحلة زمناً لا نعلم مدته، وهذا إعجاز في حد ذاته .

فسورة الكهف كان فيها للمكان من حيث علاقته بالزمان والشخوص والأحداث مما يتطلب دراسة لاستخراج الحكم والعبر التي أرادها لنا الله تعالى. فأهل الكهف لم يكن لهم مكان يأويهم للنجاة بعقيدتهم من قومهم، فأرشدهم الله إلى الكهف المكان دون قصد منهم. وذو القرنين مكن الله له أن يجوب أمكنة عدة في الأرض، حتى دار في خلدته مكان غروب الشمس وكأنه نهاية الأرض. بل وجد مكاناً آخر لا تستتر عنه الشمس ولا تغيب. وأما موسى - عليه السلام - فكان حرصه على أن يبلغ مكان مجمع البحرين رغبة في التعلم، مهما كلفه ذلك من زمن. وصاحب الجنيتين اغتر بملكية المكان، حتى اعتقد خلود المكان على حاله، وأنكر يوم البعث. ولهذا نعتقد بأن سورة الكهف ركزت على دور

¹ ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثالث . ص 1137

² المرجع نفسه . ص 1137 .

³ المرجع نفسه . ص 1137

عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي - كثير هم الذين ادعوا باطلا، واغتروا بما جمعه من الثروة قبل قارون، وكانوا - أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا - فلنسالن التاريخ عنهم، أين كانوا؟ وكيف أصبحوا؟ وما مصير قوتهم وكسبهم وجمعهم؟ يقول تعالى في سورة مريم: " وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۙ ٩٨ "1. ويقول في سورة الحج: " فَكَايِنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُ مِعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ ٤٥ "2. فالزمن لم يبق لهم أثرا، ولم ينفعهم الملك، ولم تبقيهم ثروتهم خالدين في الدنيا. لقد انتهوا وذهبوا، وتحول الكل إلى هيكلم معطل، أو رميم تذروه الرياح. وعلى الرغم من هذا فإن الغرور يؤدي إلى إجحاد النعمة والمنعم، ولا علاج لهذا الكفر والغرور، إلا بانتهاء النعمة ونزعها عن المنعم عليه فجأة. وتلك سنة الله الخالدة .

لكن اللحظة الزمنية الحاسمة تفاجئ قارون المغتر، حين يخسف الله به وبملكه الأرض، ويذهب كل ما جمعه من بناء و ثروة طائلة، ويغيب عنه علمه الذي تبجح به أمام القوم. وفي لحظة زمنية مفاجئة وسريعة، لم يتوقعها أحد، يتدخل عنصر المفاجأة ويغيب علم الشخصية المغتر، ولا نكاد نشعر بتلك اللحظة الخاطفة، فيتحول كل شيء من مال وبناء وأرض، إلى لاشيء، ويحدث هذا المشهد أمام مرأى قومه المغترين بثروته، وكذلك أمام المؤمنين بقدره الله تعالى الناصحين له. ليتفاعل الزمان والمكان لتقرير مصير الكفر والغرور والفساد. في هذا المشهد القرآني الحاسم، والسريع في الحركة والفعل، يقول الله جل جلاله: " فَحَسَنَّا بِهِ وَبَدَارُهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ٨١ "3. فكم بقي قارون يتحرك ويتبخر، ويتباهى بأمواله الطائلة على هذا المكان؟ " يقول الله جل جلاله مخبرا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينته وتجميل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه "4. لقد كان بالأمس القريب متبخرًا في زينته، وأصبح اليوم لاشيء. إن المدة الزمانية التي قضتها الشخصية في التمتع والغرور لا تهم، بقدر ما أصبح مخسوفًا بها، وبكل ما كانت تملك من ثروة وجاه.

1 سورة مريم : الآية 98 .

2 سورة الحج : الآية 45 .

3 سورة القصص : الآية 81 .

4 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثالث . ص 1427 .

فلا أثر الآن لشخص قارون، ولا أثر لكنوزه المتراكمة، بل لا أثر للمكان الذي احتوى الشخصية وما كسبت. ويتم إسقاط الزمن على المكان في لحظة لا تخطر ببال أي كان، لتفرض إرادة الله وطلاقة قدرته الحكم الفاصل وتقضي بالمصير المحتوم لقطع كل غرور، وزعم باطل بالملك والعلم، في اللحظة الحاسمة والمفاجئة، ودون سابق علم للشخصية المغترة بمالها وعلمها .

المصير نفسه تعرضه علينا السورة في قصة فرعون الذي ادعى الألوهية مغترا بملك مصر، قال الله جل جلاله: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهُنُّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَأِيرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠ "1. إن فرعون المغتر بملكية المكان، أصبح ينادي في قومه وأمام الملأ معلنا ادعائه الباطل، الذي سيكذبه الواقع، أمام قدرة الله القاهرة لكل قوة مزعومة " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٥١ "2. وأي ألوهية يدعيها فرعون؟ ، وأي ملكية تحت تصرفه؟ " وقصارى ما دعاه فرعون أنه إله هذا الشعب، وهذا الجزء من وادي النيل، وهو ملك صغير ضئيل كالذرة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما"3. إنها ألوهية مزعومة لملك محدود، يستحيل أن يقارن بعظمة خالق السموات والأرض. لكن النهاية تأتي بعد قليل، ودون علم من هذه الشخصية المتألهة المغترة. يقول الله جل جلاله: " فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ "4. فتحول المكان إلى عامل انتقام، ليؤدي وظيفته بإرادة الله تعالى، وتحول الإله المزعوم إلى مفعول به، وفي زمن وجيز، ليتضح ضعف فرعون، ويفتضح زعمه الكاذب أمام طلاقة قدرة الله وإرادته وحكمته. لتتلاشى المزاعم والأوهام حول ألوهية هزمتها فاعلية المكان التي فرضها رب المكان والزمان .

1 سورة القصص: الآيات 38 ، 39 ، 40 .

2 سورة الزخرف: الآية 51 .

3 سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع، الجزء التاسع عشر. ص 2582 .

4 سورة الفصص: الآيات 40 ، 41 .

فالقدره الإلهية التي أطبقت المكان على من كان مغترا بما يكسب، لن ينجو من قبضتها أياً كان، ومهما كان حظه من المُلْك والثروة والجاه والسلطان. ولقد تكررت مشاهد مصير فرعون في أكثر من سورة في القرآن الكريم. يقول الله جل جلاله في سورة طه: " فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتَهُمْ ۗ ٧٨ "1، ويقول في سورة الدخان: " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ كَانُوا مُعْرِضُونَ ۚ ٢٤ "2. واستخف قومه، وكفر بالله وكذب النبي موسى - عليه السلام - وتعددت مواقفهم، فكانت مع قومه ومع بني إسرائيل، ومع النبي موسى - عليه السلام - ومع السحرة حين عذبهم وصلبهم، بعد أن آمنوا بالله تعالى، فتحول فرعون إلى مثل في الكفر والطغيان، ليكون مصيره عبرة لكل متأله مزعوم. ولنتأمل كيف تم التتابع في صفات الله جل جلاله، وفعله في سورة آل عمران " قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُورِي الْمَلِكِ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٦ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢٧ "3. لقد بينت الآية الأولى طلاقة قدرة الله تعالى وإرادته ومشيبته، ثم جاءت الآية الثانية لتبين قدرة فاعلية الله في الظاهرة الزمانية، بتعاقب الليل والنهار، وفي عملية الوجود بالإحياء والإماتة. وكل هذا يتم بمشيئة الله تعالى وحده، ليتهاوى كل ملك كافر بخالقه، جاحد لفضله، أو كل معتز بملكه وسلطانه، أو معتز بقوته وجبروته .

إن هذا المشهد الذي حدث ضمن المكان الذي تحول مع أصحابه، وفي ظرف وجيز إلى الهلاك والفناء، يؤكد قصة العذاب التي تمارسها القدرة الإلهية على كل جاحد، فرداً كان أو جماعة على امتداد الزمن. فالمكان في القصة القرآنية يطيع الله جل جلاله، فيجعله يتحرك وفق مشيبته سبحانه وتعالى، ليساهم والزمن في رسم الأحداث وتخطيط مصير الشخص. هذه الخاصية لا نكاد نعثر عليها في فضاء السرد الفني والتاريخي. فالمكان عنصر جامد ضمن السرد الفني والتاريخي، لا يساهم في صناعة المصير، ويستحيل علينا أن نعثر على عملية إسقاط الزمان عليه، لأن السارد هو أيضاً عنصر داخل إطار الزمكانية منفعل بها، لا يقدر أن يتحرر منها إطلاقاً. وهذا يثبت تساوي السارد

1 سورة طه : الآية 78 .

2 سورة الدخان : الآية 24 .

3 سورة آل عمران : الآيتان 26 ، 27 .

في النص الفني مع عناصر السرد الأخرى، وكلاهما مفعول به ومنفعل، خاضع لإرادة الله وفاعليته القهرية. وكلاهما - السارد وعناصر السرد - تنطبق عليهما الأحكام نفسها، وتجري عليهما سنن الله تعالى، لتساويهما في المخلوقية. لن يستطيع أي بشر أن يتصرف في المكان والزمان، إلا بمشيئة الخالق - رب المكان. " ذلك أن القوانين المعروفة في عالم الخليقة قد استخرجت مما نعهده ونشاهده، وليست قوانين عقلية قامت البراهين على استحالة ما عداها "1. وقد أوحى الله تعالى لنبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه: " فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٣ "2. إن انفلاق البحر كان بإذن الخالق لنجاة بني إسرائيل من بطش فرعون المتجبر، وكان هذا الأمر في ظرف وجيز وأمام أعين القوم .

فالقدر الإلهية التي غيرت المكان ليكون نجاة لموسى - عليه السلام - وقومه، هي نفسها التي حولت المكان نفسه، هلاكاً لفرعون وجنوده. إن القدرة الإلهية الفاعلة حين تغير المكان من حالة لأخرى، وفي زمن خارق لا نكاد نشعر به، تجعل الظاهرة الإعجازية تتجلى في أسمى معانيها للمؤمنين الذين عايشوا الأحداث بالعين، أو المؤمنين الذين سيتتابعون على قراءة أحداث هذه القصة القرآنية المعجزة، موقنين بصدق الوحي مصداقاً لقوله تعالى: " أَلَمْ ۙ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ "3. وهذه الآية هي الحد الفاصل والمنطقي بين المؤمن والكافر، في التعامل مع النص القرآني عامة، والقصص القرآني خاصة الذي يجسد كل إعجازية للزمكانية. كما أن هذه الظاهرة الإعجازية التي أدت بغرق فرعون، جعلته يقف عند حقيقته البشرية، ويعترف بالرب الذي آمن به بنو إسرائيل " وَجُورَنَا بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ "4. فلن ينفذ هذا الإيمان نفساً، إذا جاء أجلها " هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَأَمَنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا

1 التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 355 .

2 سورة الشعراء : الآية 63 .

3 سورة البقرة : الآيتان 1 ، 2 .

4 سورة يونس : الآية 90 .

إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ١٥٨ " 1 فأسقط هذا المشهد زعم فرعون أمام قومه - مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي - استخفافا بقومه واغترارا بنفسه " فتوبة كهذه يقوم بها الإنسان في اللحظات الأخيرة من العمر، هي ليست فقط عبثية ... بل إنها لتزيد من جريمة العاصي، لأنها تثبت أن ذلك العاصي كان يدري دوما بوجود الله، أو على الأقل بإمكانية وجوده، ولكنه فضل العيش بحياة أنانية مدمرة بدلا من البحث عن علاقة مع الله " 2 لقد انتهى زمن الامتحان، وحن وقت الحساب " أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ٣٤ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ٣٥ " 3. فلا ينفع أي اعتراف في هذه اللحظة التي سبقها الإصرار على الكفر بالله تعالى، وجدد آياته .

فالظاهرة الزمانية التي تمارس على المكان تجعل من القصص القرآني نصا إعجازيا يفوق قدرة البشر العقلية والإبداعية، لتؤكد وفي كل موقف متشابه ومتكرر لتلك الظاهرة ، التي يعجز العقل البشري لاستيعابها، إلا بالإيمان بطلاقة القدرة الإلهية التي تتصرف في عناصر السرد تصرفها في عناصر الطبيعة بعامل القهر. لأن الله هو القادر، وهو فوق المكان والزمان " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٨ " 4. وإذا أراد أمرا أن يقول له كن فيكون " إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٠ " 5. فلا اعتراض إطلاقا على إرادته ومشيئته وقضائه وعلى هذا الأساس إرادته نافذة، وأمره بالغ " وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٢٢ " 6. لكن البعيد عن هذا المبدأ الإيماني لا يرى المعجزة في القدرة الإلهية، بل لا يراها حتى في نفسه المخلوقة، والقريبة منه

إن " أسطورة عبور الإسرائيليين البحر أثناء فرارهم من مصر ... ظلت هناك محاولات حسنة النية لإثبات أنه بالإمكان تفسير تلك القصة بحدوث تسونامي، أو فيضان خاطف الذي كان أمرا شائعا في تلك المنطقة. لكن تلك التفسيرات تغفل تماما عن الفحوى والهدف، لأن تلك القصة كانت قد كتبت عن عمد بصفقتها أسطورة. وكما نعلم جيدا تكثر

1 سورة الأنعام : الآية 158 .

2 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 104 .

3 سورة القيامة : الأيتان 34 ، 35 .

4 سورة الأنعام : الآية 18 .

5 سورة النحل : الآية 40 .

6 سورة العنكبوت : الآية 22 .

في الشرق الأوسط القديم القصص عن الآلهة التي تشق البحار لتخلق العالم، لكن في هذه الحالة فنحن لا نشهد مولد الكون، بل مولد شعب¹. يقول سفر خروج: " فأجرى الرب البحرَ بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء * فدخل بنو إسرائيل وسط البحر على اليابسة ... فرجع وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون"². لقد ربطت الكاتبة القصة بفكرة بني إسرائيل الأسطورية، التي أرادوا أن يجسدوها في أن الرب الإله، أراد أن يصنع منهم لنفسه شعبا. وبعيدا عن هذا التأويل، فلماذا لا يمكن للذي شق الأرض بحارا ويابسة، أن يشق مرة ثانية البحر يابسة. ولكن محاباة الرب الإله الخاصة لهذا الشعب، وإحلال اللعنة بالشعوب الأخرى تفرض السؤال التالي: لماذا يحظى شعب وحيد بالنعمة في عين الرب الإله وتحرم بقية الشعوب؟ لهذا كثيرا ما نجد أن القصة القرآنية عند نهايتها تذكر سبب العقوبة، كسنة ثابتة دون أن تحابي فردا أو جماعة. والذي يحدد المصير هو الموقف من الحق والباطل، من الكفر والإيمان، من العدل والظلم

إن الإيمان بالله رب العالمين، هو الذي يجعلنا نثق في طلاقة عدله وقدرته وحكمته، وهو الذي لا يعجزه أمر في الأرض ولا في السماء. فخضوع عناصر القصر من مكان وزمان لإرادته ومشينته سبحانه وتعالى، تجلي محدودية الشخص الذين يحيون في المكان والزمان. وإذا تجسدت إرادة الله تعالى المطلقة، في المجال الخارق للزمان وارتباطه بالمكان، من أجل إحقاق الحق، وإبطال الباطل، فما هو إلا تحقيق سنن الله الثابتة والعدالة في كونه وعباده. فخلقه للكون - المكان - قد تم بفعل أمره كن، كما أخبرنا هو في محكم تنزيله، فكذاك ممارسته للزمان الخارق على المكان قد تتم بفعل أمره كن، ولا غرابة في ذلك، إن عُرِضَ في محكم تنزيله، وقصصه الحق. فكذاك يتجسد علمه الواسع والمطلق في المجال الغيبي للزمان حين يرتبط بالمكان: " وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٧٥"³. فكل أمر غائب في الزمن الماضي، أو زمن المستقبل هو معلوم ومسجل في علم الله المطلق. وإن علمه الواسع والمطلق، لا تحده حدود الزمان والمكان.

¹ كارن أمسترونج: الله لماذا؟ ص 69.

² العهد القديم: سفر خروج، الإصحاح الرابع عشر، الفقرات 21، 22، 28.

³ سورة النمل: الآية 75.

هذا هو الذي يجب أن يقف عنده كل باحث أثناء دراسته للقصص القرآني. أما الجري وراء عناصر القص القرآني، وتتبع أسماء الأمكنة والشخوص، لن يفيد الدراسة بكثير أو قليل. والسؤال الذي يطرح نفسه المتضمن مسألة الزمن هو : ما المقصود من إثارة هذه الإشكالية الزمانية التي يقف عندها المتلقي محتارا ؟ سواء كانت في المجال النسبي، أو الخارق أو الغيبي. إنها إذن، مسألة جديرة بالبحث والدراسة. وهذا ما جعلنا نبحث مسألة الزمن الغيبي وارتباطه بالمكان في المبحث الآتي .

ج - ارتباط المكان بالزمن الغيبي في القصص القرآني :

ربما تبدو دراستنا تتجه نحو التعقيد، حين نتناول في هذا المبحث الزمن الغيبي، ولا سيما حين ينظر العقلانيون إلى الدين والإيمان كمسائل غيبية، تتصادم مع العقل والعلم والواقع. ولا بد أن نبين المسألة قبل أن نبدأ البحث في الموضوع. فمن السذاجة أن ينعت الملحدون، المؤمنين بكل صفة ناقصة، كالبلادة والسذاجة والاستسلام للخرافة. وردنا على هذا، إن الدين الحق لا يقبل الخرافة، كما لا يقبل البلادة، كما يرفض أيضا الغرور والتبجح بالعلم والمعرفة، شأن قارون الهالك. أما الغيب الذي يطالبنا به الدين، هو أن الله الخالق هو وحده عالم الغيب والشهادة، وهو وحده المالك لمفاتيح الغيب، وإن علم البشرية التي تحصلت عليه، طيلة وجودها على هذه الأرض، هو بفضل الله العليم الحكيم. فكل " من العقلانيين والماديين يعتقدون أن التاريخ يسير في خط مستقيم، وأن تطور العالم قد بدأ من الصفر ... ونستطيع أن نفهم هذا الموقف عندما نتذكر، أن التاريخ عند الماديين هو التطور المادي للحياة الإنسانية، فهم معنيون بتاريخ الأشياء، أو تاريخ المجتمع، لا بتاريخ الإنسان نفسه "1. فالعقلانيون الذين يؤلهون العقل، ويجهلون تحديد مكانه في جسم الإنسان، لا يستطيعون أن يعيدوا عسبا واحدا أتلّف في المخ. كما أن الإنسان لم يبدأ تاريخ تطوره من الصفر. لقد " دخل الإنسان التاريخ، برأس مال أخلاقي، مبدئي هائل، لم يرثه من آباءه المزعومين من الحيوانات "2. لقد جاء الإنسان إلى هذه الدنيا، وهو مزود بكل وسائل الحياة والتعلم،

1 علي عزت بيغوفيتش : المرجع السابق . 219 .

2 المرجع نفسه . ص 219 .

وحتى أن المكان كان مهياً له، قبل أن يأتي إليه، ولم يتعاقد هذا الإنسان أبداً مع هذا الكون أرضه وسماؤه، لتقدم له مؤسسات الكون، الهواء والماء والضوء وكل ما يحتاجه وسيحتاجه مستقبلاً لمواصلة حياته. كما تقدم المؤسسات التي يشرف عليها هذا الإنسان الخدمات الضرورية مقابل حقوق مالية تسدد لإدارة المؤسسات.

لكن هذا الإنسان لا يستطيع أن يتجاوز مكانه الأرضي المهيب له سلفاً للعيش فيه، كما أنه عاجز أن يتجاوز الزمن، أو أي لحظة مستقبلية، فلا يستطيع أن يتجاوز لحظة زمنية تتجاوز مكان وجوده، فنحن محصورون في الآنية، وبشكل ضيق جداً. كما أننا نحيا وفق طبيعتنا الإنسانية المحدودة التي خلقنا الله تعالى عليها. لهذا فالتعامل مع الزمن الغيبي، يجب أن يكون مؤسسا أيضاً، على الإيمان بطلاقة علم الله الواسع، الذي لا تحده حدود الزمان والمكان. فمن " الخطأ الافتراض أن كينونة الله، أو وجوده محصور بنقطة، أو فاصل زمني محدودين "¹. ولهذا فالزمن الغيبي الذي ارتبط بفضاء المكان في النص القرآني يدل على علم الله الواسع واللامحدود " عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُنْعَالِ ٩ "². كما يؤكد إحاطة الله عز وجل بكل شيء، دون استثناء " وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦١ "³. لهذا قال أحد علماء الفلك المعاصرين * : " إن هذا القرآن وما فيه من حقائق علمية يدل على أن المتكلم به يصف الكون من أعلى قمة في الوجود من خارج الكون، فهو يرى كل شيء في الوجود ... فكل شيء أمامه واضح. أما نحن العلماء فنبحث أبحاثاً جزئية ... بالكلام الذي جاء في هذا الكتاب (القرآن) هو كلام جاء ممن يصف ويعرف الكون من خارجه، وكل شيء لذلك يبدو عنده مفهوماً "⁴. وقد تأكد في بداية التنزيل، أن الخالقية والعلم هما الله جل جلاله

¹ د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 115 .

² سورة الرعد : الآية 9 .

³ سورة يونس : الآية 61 .

* يوشيدي كوزاي 1933 ، ؟ عالم فلكي ياباني ، تأثر بآيات القرآن الكريم الدالة على الكون ، وأعلن بأن هذا الخطاب الذي يصف صاحبه الكون من مكان خارج عن الكون لا ينبغي أن يكون إلا صاحب الكون وخالقه الذي هو فوق الكون – فوق السموات السبع -

⁴ أحمد عزت شيخ البساتنية : علماء الغرب ما الذي وجدوه في القرآن ، التكوين للطباعة والنشر ، دمشق 2004 ، ص 99 ، 100 .

" أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ "1. فالله الخالق العليم هو الذي خلق الإنسان وعلمه

إن علم الله تعالى الواسع، الذي يشمل المكان بمجاليه العلوي والسفلي، السماء والأرض، هو من اختصاص الذات العليا " حينما جاء القرآن الكريم تحدى في أشياء كثيرة . ثم هناك حاجز الزمن الماضي، وهو شيء حجب عني زمن مضى، فأنا لم أشهده. وحاجز المستقبل، وهو ما سيحدث غدا، لأن حاجز زمن المستقبل قد حُجب عني فلم أشهده "2. وقد ربط القرآن الكريم المكان بالزمن الغيبي، لتتحول هذه الظاهرة إلى أعجاز، يستحيل العثور عليها في فضاء السرد الفني والتاريخي، وتظهر لنا الإشكالية في المرحلة الماقبل والمبعد، أي ما قبل الوجود والحياة في الدنيا، وما بعد فنائها ونهايتها. وبالتالي يكون النص القرآني قد تناول قصة الوجود والحياة، وقصة الإنسان ومصيره من البداية إلى النهاية ، فبداية حياة الإنسان كانت في المكان الأول " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٥ "3 . كما أن مواصفات هذا المكان جاءت في قوله تعالى : " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَىٰ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ١١٩ "4. فهو مكان اختلفت في شأن تحديده التفسيرات، ما بين مكان أرضي، ومكان في الجنة لورود تسميته معرفة - الجنة - . لكن مهما حاول المفسرون تحديده، سيبقى هذا المكان غيبيا. ومن ثم " لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه، لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره. وكل جهد يُبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع، ذاهب سدى بلا ثمرة ولا جدوى "5. لكن هذا المكان غير المحدد قد تمظهر أيضا في مدة زمانية غيبية، لا يعلمها إلا الله الخالق العليم، حاول البعض أن يبحثها لكنه دون طائل

هذا المكان الذي خلا فيه عدم الإحساس بالجوع والعطش والتعب، ولم يرتبط بأي زمن معلن وصريح، فلا ندري زمن خلق آدم، ولا المكان الذي وجدت به الجنة، ولا مدة

1 سورة العلق : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 .

2 - محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 114 .

3 سورة البقرة : الآية 35 .

4 سورة طه : الآيات 117 ، 118 ، 119 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزر الأول . ص 59 .

بقائه في هذا المكان، قبل أن يهبط منه إلى الأرض. فهذه أمور غيبية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى . " فأين كان هذا الذي كان ؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ ... كيف قال تعالى لهم؟ وكيف أجابوه ؟ هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به "1. إلا أننا نجد الزمن يرتبط حين الهبوط إلى الأرض - المكان - بعد معصية آدم، والخروج منه مغادراً إلى الأرض يقول الله جل جلاله : " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ 36 "2. وهنا يرتبط مكان الأرض بالاستقرار، والتمتع ضمن زمن معين " أي قرار وأجال وأرزاق إلى حين، أي وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة "3 وبالتالي تبقى البشرية تحيا على الأرض - المكان - إلى أن يجيء زمن - إلى حين - " وكتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض، ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين. وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ثم يخرجوا منها، ويبعثوا ليعودوا إلى ربهم، فيدخلهم جنته أو ناره في نهاية الرحلة الكبرى "4. وهنا لا يمكن لأي كان أن يضيف لحظة واحدة، أو يؤجل إلى حين، فضلاً على أن يحيط علماً بوقته الذي هو في غيب علم الله تعالى. بل إن الإنسان لا يعلم أجله " نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ 60 "5. أما المنظومات السردية التي تناولت هذا المكان والزمن الغيبين، دون وحي من عالم الغيب، فمن الواجب أن يندد بها الوحي الإلهي، قبل أن يتكشف بطلانها للعقل الإنساني .

لقد أدى هذا بالغربيين أن يكفروا في حقيقة الأمر بالخرافة، التي ظن آباؤهم الأوائل أنها وحي من السماء، فما " تصوره القديس إنه من وحي الله، أعيد اكتشافه على أنه من وضع الإنسان، وقد أدى ذلك إلى تغيير مفهوم الوحي والنبوة "6. لكن الوحي

1 سيد قطب : المرجع السابق. ص 59 .

2 سورة البقرة : الآية 36 .

3 ابن كثير المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص 81 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزر الثامن . ص 1270 .

5 سورة الواقعة : الآية 60 .

6 د.حسن حنفي : حصار الزمن ، الجزء الأول ، مركز الكتاب للنشر ، الطبعة الأولى ، 2004 ، القاهرة . ص 9 .

الصادق يبقى وحيا ، والذي يتغير هو الخرافة والباطل. يقول اسبنوزا : " لهذه الأسباب إذن سمي الكتاب كلام الله ، أولا : لأنه يُعلم الدين الصحيح الذي وضعه الله أزليا. ثانيا : لأنه يتنبأ في صورة رواية بالمستقبل، بقدر ما قضى به الأمر الإلهي. ثالثا : لأن مؤلفيه الحقيقيين كانوا في معظم الأحيان يدعون إلى ما حصلوا عليه بنور خاص بهم، لا بالنور الفطري، وجعلوا الله نفسه هو الذي يتحدث "1. والكاتب قد أخطأ في السبب الثالث، وكان من الصواب أن يقول، إن الذي بلغنا كتابَ الله وكلامه، هم الأنبياء بلاغاً أميناً، لم يزيّدوا عنه، ولم ينقصوا منه، وهذه هي مهمة أنبياء الله ورسوله. وبناء على تلك الأسباب التي بنى عليها اسبينوزا ميزة كلام الله، وجد نفسه أمام الكتاب المقدس الذي درسه وبحثه، ليقول : " هذا فضلا عن أن الكتاب لا يعطي أي تعريف صحيح لله ... وإذن فليس هناك ما يدعو للدهشة، إذا كان الله قد تلاءم مع خيال الأنبياء وتصوراتهم المسبقة، أو تصور المؤمنون الله تصورات مختلفة كل الاختلاف "2. ويظهر على أن الكاتب وهو فيلسوف قد صدمته حقيقة ما تُنسب من صفات ناقصة للرب الإله، التي رسمتها أسفار الكتاب المقدس. " فكل خطاب من الله هو خطاب عن الله "3. ولا ينبغي أبدا أن ينزل الخطاب عن الله الخالق المنزه، إلى صورة ذلك الإله المجدد المحصور بالمكان والزمان، أو المتجسد بشرا والمصلوب من طرف الناس .

فمثلا " علينا ألا نقول حرفيا إن الله ينزل إلى الأرض، أو يمشي في الحديقة . وبالمقابل علينا ألا نصر أن الله كائن له ثلاثة أبعاد، وأنه يسافر من نقطة إلى أخرى في الفضاء "4. وكان على الفيلسوف اسبنوزا أن يعلن بأن الكتاب الذي لا يعطينا تعريفا صحيحا عن الله الخالق، فلا يكون أبدا من عند الله، ولا يستحق أن يكون نصه وحيا، وإلا لأصبح أنبياء الله يغشون الناس، وكيف يكون كذلك، والله هو الذي اختارهم وأرسلهم ؟ وبالتالي فالذي يعرفنا بالله تعريفا صحيحا، هو الله ذاته، وبكلامه الحق الذي أوحاه لأنبيائه، أو أنزله عليهم " الرّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

1 اسبينوزا : رسالة من اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفي، دار التنوير للطباعة، الطبعة الأولى 2005 بيروت. ص 332 .

2 المرجع نفسه . ص 343 .

3 د . حسن حنفي : المرجع السابق ، ص 9 .

4 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 114 .

صِرْطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١" 1. لكن الكاتب على الرغم من جدية بحثه عن الحقيقة، فلم يكلف نفسه أن يطلع على نص القرآن الكريم، ومع ذلك ذكره مرة واحدة في معرض حديثه، دون أن يبحث ما جاء به، أو على الأقل ماذا يقول هذا النبي على الله عز وجل؟! إنها فعلا صدمة الكتاب المقدس التي طالت حتى الفلاسفة المتشبعين بروح البحث عن الحقيقة، بأن يشكوا في الوحي والدين وفي المسائل الغيبية بدون استثناء، ودون تمييز أو مقارنة جادة .

جاء في الحديث الشريف، عن عمر- رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله "2. فعالم الغيب لن يستطيع أي مخلوق أن يلجبه، وكل ادعاء بذلك دون نبوة ووحي من الله تعالى، فهو مجرد رجم بالغيب. والمحور الغيبي الأساسي الذي دار عليه القصاص القرآني هو محور الألوهية والبعث. لقد شكل هذان الموضوعان تحديد الاتجاه القصصي في القرآن الكريم، وظلت الآيات تكرر صفات الله الكاملة التي تنزهه عن كل نقص كما ظل القصاص القرآني يجسد طلاقة قدرة الله تعالى، وسعة علمه المطلق. واقتحم القصاص القرآني الزمن الغيبي للماضي السحيق ليبدأ من اللحظة الغيبية مع الإنسان، منذ وجوده في الجنة، بل قبل خلقه، ثم الهبوط به إلى الأرض المكان. كما تنبأ بغييب المستقبل البعيد ليقيد الله كل ذلك في علم الغيب، محددًا هو لوحده تعالى، فترة بداية ونهاية إلى حين .

إن عبارة " إلى حين " القرآنية تدل على المدة الزمنية التي بدأت منها حياة الإنسان الدنيا على الأرض، وتمتد إلى نهايتها حين تقوم الساعة، وبالتالي فهي زمن غيبي، ارتبط ببداية حياة البشرية حتى نهايتها، وبمكان هو الأرض. فإذا " سلمنا بوجود الله فلا بد أن نسلم بقدرته على أن يكشف لنا بعض الحقائق الغيبية، التي لا نستطيع أن

1 سورة إبراهيم : الآية 1 .

2 الإمام البخاري : المرجع السابق . ص 1164 .

ندركها لقصورنا "1 . إن هذا الزمن الغيبي هو من هذه الحقائق التي تتكشف لنا، عبر الامتداد الزمني الدنيوي، قد أخذ من الماضي السحيق ما لا علم لنا بمدته، وهو مستمر إلى المستقبل البعيد الذي لا نعلم نهايته، حيث مرت عصور، وتوالت أمم وأجيال متلاحقة، منذ هبوط آدم إلى الأرض (المكان) والذي سيحيا عليه الإنسان مرتبطا بالزمن " فاستجابت له السماء قائلة اذهب أيها الرجل فإنني أعطيتك عقلا ويدا وأعطيتك ترابا وزمانا "2. فوجود الإنسان لا يتحقق إلا بالمكان والزمان وأن خلقهما والربط بينهما والإشراف عليهما، عمل لا يقدره إلا الله وحده سبحانه وتعالى .

إن مشيئة الله العليا، هي التي أهبطت هذا الإنسان بعد خلقه، إلى هذا المكان والزمان الذي هُيء من أجله في الغيب، والذي رصيدنا فيه نحن البشر، لا يتعدى الصفر، مما يعكس محدودية وضعف علم الإنسان المخلوق " وإذن فأدم مخلوق لهذه الأرض، منذ اللحظة الأولى "3. وقد كان هذا في علم الله، حتى قبل أن يخلق الله المكان والزمان والإنسان. لكن قصة آدم في العهد القديم تنزع عن الله سبحانه وتعالى صفة العلم بالغيب " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا للخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد * فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها "4. لقد فاجأت معصية آدم علم الرب، كما فاجأه اطلاع آدم إلى شجرة الحياة، وجعلت منه ربا خائفا من خلود هذا الإنسان المخلوق، فلا بد من إعادة الحسابات ومراجعتها، أمام هذا المأزق الجديد الذي ربما لم يخطر في علم هذا الرب، الذي سيشفق بخلق هذا الإنسان المشاكس. إذن لابد من اتخاذ قرار الطرد من الجنة، قبل أن يستفحل الأمر، وقبل أن ينتصر هذا الإنسان المخلوق على الرب الخالق، وعلى الموت والزمان " لقد فات جدينا أن يأكلا من شجرة الحياة التي لم تكن ثمارها حرمت عليهما - يا للأبلهين - فلو خطرت لهما فكرة أن يأكلا منهما، بينما يهوه يخيط لهما

1 نخبة من العلماء : الله يتجلى في عصر العلم ، ترجمة د . الدمرداش عبد المجيد ، دار القلم ، بيروت . ص 20 .

2 مالك بن نبي : شروط النهضة . ص 49 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

4 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرتان 23 ، 24 .

الملابس الجلدية، لحققا عليه انتصار الأزمنة كلها"¹. فأين كل هذا من طلاقة علم وإرادة الله عز وجل التي تتجلى في أسمى معانيها في قصة آدم القرآنية؟ .

إن قصة الحياة أو قصة الوجود والإنسان في القرآن الكريم، لا تتناول فترة من عمر الإنسان تعد بالشهور والأعوام. بل تتجاوز عمر الإنسان المحدود الذي يتناوله فضاء السرد القصصي أو السرد التاريخي، لأن مؤلفه خاضع للزمان والمكان. وإن حياته مهما طالت فهي لا تتجاوز إطلاقا بداية الدنيا إلى نهايتها. لقد " ظل الفكر يؤصل للزمن، مفاهيم مختلفة سعيا منه إلى إدراك ماهيته، فلعله أن يفلح يوما ما، في استكناه حقائق ما فوق العقل . وكانت التصنيفات من قبيل الزمن الميتافيزيقي والواقعي الوجودي ... تخريجات إجرائية ما فتئ العقل يستنبطها، محاولة منه لاستيعاب إشكالية الزمن ببعدها الغيبي"². وستبقى إشكالية الزمن أمام عقل الإنسان ظاهرة إعجازية تجلي القدرة الإلهية المطلقة في الخلق، وفي الوحي إننا " لنجد في الكتب السماوية كثيرا من المعلومات حول العالم الروحاني. وقد وصلت هذه المعلومات إلينا عن طريق بعض البشر من الرسل، الذين كشف الله لهم من عوالم الغيب ما لم يكشفه لغيرهم. ولا يمكن أن تكون هذه النبوءات خاضعة لقيود الزمان التي نعرفها"³. فالفضاءات السردية القصصية تتسم بالمحدودية، ويستحيل عليها أن تلج الزمن الغيبي، لعجز السارد بسبب محدوديته. وهي ميزة أساسية تجعل النص المقدس يهيمن على أي نص يفتقد هذه الميزة الحقيقية، والتي لا يكون مصدرها الأسطورة والخرافة. بل العلم الإلهي الحق والمطلق .

لقد " حققت العقلانية نتائج مذهلة بدرجة فقدت معها الأسطورة مصداقيتها وساءت سمعتها. ساد الاعتقاد بأن النهج العلمي هو الوسيلة الوحيدة الموثوقة للوصول إلى الحقيقة . أدى هذا إلى جعل المعتقد الديني التقليدي صعبا، إن لم يكن مستحيلا"⁴، لكن العلم سيزيل الخرافة، ويتماشي مع الحق، ولا ينبغي أن ننسب كل ما هو خرافي إلى الدين، فالخرافة تبقى خرافة حتى وإن لبست جبة القسيس وعمامة الإمام، أو صدرت من فمه

¹ السيد سلامة غمني : المرجع السابق . ص 140 .

² - د . سليمان عشارتي : المرجع السابق ، ص 95 .

³ نخبة من العلماء : الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، دار القلم، بيروت بدون تاريخ . ص 20

⁴ كارن أمسترونج : المرجع السابق . ص 17 .

الذهبي، أو حتى وإن كتبت يد الأحبار القديسين أن الإله تجسد ومشى على الأرض، وأكل وتأم ومات، فكيف يغدو هذا الكلام ديناً وحقاً؟ وغدت " المعرفة الدينية نظرية لا علمية، ضاع منا حتى تأويل الحكايا القديمة عن الآلهة وهم يمشون على الأرض، والموتى يبعثون من الأجداث والبحار تشق بمعجزة. بدأ إدراكنا لمفاهيم مثل - الإيمان، التنزيل، الأسرار، الأسطورة - يتبع أسلوباً كان بلا شك سيسبب الدهشة لأسلافنا"¹. لكن خرافة مشي الآلهة وتعددتها في كون واحد منظم، غير حقيقة بعث الموتى الذي بيد الله الخالق للحياة والموت " الَّذِي خَلَقَ أَمْوَاتٍ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَنُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ " 2² والذي قدر أن يخلق البحر، هو القادر على الذهاب به، والذي خلق الحياة، قادر على خلق الموت، وهنا لا مكان لتلك الآلهة إلا في الأسطورة والخيال، ولا وجود لها إطلاقاً في كلام الله ودينه الحق " إن عقيدة التوحيد الإسلامية لا تدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه، ولا عن كيفية أفعاله. فالله سبحانه ليس كمثل شيء، ومن ثم لا مجال للتصور البشري لينشئ صورة عن ذات الله "3. وأي كتاب حمل قصص الآلهة وصراعها وتجسدها، وميلادها ومشيتها وموتها، فهو كتاب دنسته الخرافة والأباطيل، ونسجه الضلال والشرك، ولن يتقدس خطابه على الإطلاق، ولن يتحول إلى وحي إلهي أبداً، حتى وإن وجد في دور المعابد، وترنمت به السنة رجال الدين وتابعيهم .

إن توظيف الزمن الغيبي في القصص القرآني، يثبت قدرة الله المطلقة وعلمه الواسع واللامتناهي الذي يعلم حركة أدق جزيء للذرة، كما يعلم حركة أكبر جرم في الكون في آن واحد " العلم الإلهي صفحة واحدة، يقترب فيها الأزل من الأبد، والأرض من السماء ، والدقيق من الجليل "4. فالله يتساوى علمه في الماضي والحاضر، يتساوى في المستقبل القريب والبعيد. علينا " ألا نلح بالقول أن الله له ماضٍ وحاضر ومستقبل، ذلك أن هذا يعني أن وجوده كوجودنا، هو ضمن حدود الزمان، وهذا يتعارض مع سموه المطلق "5. وحين يرتبط المكان بالزمن الغيبي، يضيف عليه تلك الإعجازية التي تُبقي

1 المرجع نفسه . ص 17 .

2 سورة الملك : الآية 2 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الثامن . ص 1296 .

4 الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 201 .

5 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 114 .

النص القرآني متفرداً عن أي نص بشري، وذلك خدمة للعقيدة، ودلالة على أن الوحي، هو من عند الله الخالق العليم . فعلمُ الله لا تحده نهايات، ولا توقفه حدود " إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ه " 1. إن صفة العلم الواسع، والإحاطة بكل شيء في المكان - الأرض والسماء - ظلت تتكرر في النص القرآني، وظل القصص القرآني يعكسها عبر عناصره، مكانا وزمانا وأحداثاً، وقد أعلن الملائكة عجزهم أمام علم الله، حين أمرهم بأن ينبئوه بأسماء هؤلاء " قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ ٣٢ " 2، ثم بين لهم صفة علمه المطلق واللامحدود " قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ ٣٣ " 3 . وأين هذا من كلام الرب الإله متسائلاً عن آدم في الجنة أين أنت ؟ وأين علمه الواسع، إن كان يعجز أن يعلم ما يجري حوله، وينادي باحثاً عن آدم في مكان محدود ؟ .

إن العلم المطلق يبقى صفة يتفرد بها الله عز وجل، ولا علم للخلائق إلا ما شاء هو أن يطلعهم عليه، أو يعلمهم هو من فضله. ليست " قصة جنة عدن سردا تاريخيا، الأخرى أنها وصف لتجربة طقوسية، تعبر كما يسميه الأكاديميون تناغم المتناقضات، حيث يحدث أثناء لقاء مفعم مع المقدس، أن تتناغم الأشياء التي من المعتاد أن تبدو متناقضة، وتكشف بهذا عن وحدة تحتية. لم يكن ثمة اغتراب في الجنة، بين المقدس والبشري، بل كانا في نفس المكان " 4. وليست هي تلاق بين المقدس والبشري أيضاً، فهي فقط تجربة الإنسان واختياره في أن يفعل أو لا يفعل " ولكن أين لهما أن يختبئا من وجه من يرى كل شيء ؟ فصوت يهوه يحيط بهما من كل صوب، كصوت سيد متسلط صارم يهيم بمعاقبة عبده المشاكس. وبما أنهما وقعا، إذن ينبغي عليهما الاعتراف " 5. فلا ينبغي أن نحشر تفكيرنا في حدود نعجز أن نجيب فيها، لأن طبيعة تفكيرنا تميل دائما إلى تمثل الشيء " فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل

1 سورة آل عمران : الآية 5 .

2 - سورة البقرة : الآية 32 .

3 سورة البقرة : الآية 33 .

4 كارن أمسترونج : المرجع السابق . ص 63 ، 64 .

5 السيد سلامة غنمي : المرجع السابق . ص 135 .

البشري مما حوله من أشياء، فإذا كان الله سبحانه ليس كمثله شيء - توقف التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى¹. إن الله جل جلاله أعلن لنا عن ذاته في قوله: " فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهَا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ١١ "2. وبهذا الأسلوب وحده يمكن لنا أن نفرق بين الله الخالق العليم، وبين ما نسخت يد البشر من خرافات باطلة في مجال الغيب، وتصويرها الخيالي للرب الإله المتجسد، والمحصور بالمكان والزمان، والغائب عن أمور خلقه، وشؤون كونه .

حين نتابع القصص القرآني، ولا سيما فيما يتعلق بقصص الأمم الماضية التي أخبرنا القرآن الكريم بمصيرها، وكيف آلت نهايتها بسبب الكفر والإجرام، وعلى الرغم من تشابه مصير الكفار مع اختلاف الزمن، وإهلاكهم بعذاب من الله. فإن هذه الأخبار بالنسبة لنا غيب تمت في الزمن الماضي، وقد حاولنا أن نجد بعض المميزات التي جعلتنا نتبين وجود الظاهرة الزمكانية ضمن قصص الأمم البائدة، حيث بحثنا عن ربط المكان بالزمن الغيبي. فكل أمة كذبت رسولها، إلا وأرسل الله عليها عذاباً بمكان وجودها، دون علم منها، وهذا يخص الأمم الماضية التي أبادها الله وأفناها. وفي هذا نجد قومين ارتبط المكان بالزمن الغيبي في إنزال العذاب عليهما، وهما قوما النبيين نوح ولوط - عليهما السلام - إننا نجد في قصة قوميهما تلك الظاهرة الزمكانية، حيث يرتبط المكان بالزمن الغيبي، فالنبي نوح - عليه السلام - وبعد تكذيب قومه له ومكابرتهم، يطلعه الله عز وجل بأمر غيبي، لا علم لأحد من قومه به. يقول الله جل جلاله: " وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝ ٣٧ "3. وينقلنا المشهد القرآني على حال القوم وهم في سخريتهم، لا يعلمون ماذا سيحل بهم، وبالمكان الذي هم عليه مطمئنون " وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالِ إِنَّ تَسْخَرُونَ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ ٣٨

¹ سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الثالث، الجزء الثامن. ص 1296.

² سورة الشورى: الآية 11.

³ سورة هود: الآية 37.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ٣٩ "1. إنهم لا يعلمون عاقبة أمرهم، ولا زالوا في عنادهم وغرورهم، بل تحولوا إلى ساخرين لكنهم غافلون.

صور لنا القرآن الكريم في سورة القمر ما حل بمكان القوم الغافلين، يقول تعالى مبينا حقيقة فاعليته في أمر عذاب الكفار، ونجاة المؤمنين: " فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِّ قُدِّرَ ١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَحٍ وَدُسُرَ ١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرَ ١٦ "2. ينقلنا المشهد القرآني إلى أن المكان قد تحول وبأمر من الله تعالى، سيولا منهمة من السماء، وعيونا متفجرة من الأرض، فاستحال طوفانا جارفا لا يبقي ولا يذر، ليلتقي الماء كما قدره الله تعالى، ويهلك القوم الكافرون، فلا نجاة من هذا العذاب، إلا من رحمه الله تعالى، رب المكان والزمان - فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِّ قُدِّرَ -. وهذا أيضا في علم الله. عندما لجأ نوح - عليه السلام - يدعو ربه أنه مغلوب " عندئذ أطلق الله، القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب ... وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاوّل عملها على هذا المستوى الكوني الرائع، كان الله سبحانه - بذاته العلية - مع عبده المغلوب "3. إنها الإحاطة المطلقة بأمر الكون، دون أن تفلت أية جزئية، حتى ولو كانت خلية مجهرية، تتخلق في أجسام هذه الكائنات المخلوقة التي لا يقدر على إحصائها إلا خالقها سبحانه وتعالى .

ثم يصدر الله عز وجل أمره للسماء وللأرض (المكان) بقوله: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيُسَمِّئِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤٤ "4. فينقضي أمر الله في زمن معلوم، ويكون مصير الكافرين الغرق في الدنيا والهلاك في الآخرة. " ويتم أمر الله، ويبلغ الأمر غايته، وهنا يصدر الأمر للكون "5. هذا ما قرره الله بإرادته وحكمته، وتم في علمه الغيبي. إن القوم ظلوا في عنادهم، يكذبون ويسخرون

¹ سورة هود : الأيتان 38 ، 39 .

² سورة القمر : الآيات 11 ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 16 .

³ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1893 .

⁴ سورة هود : الآية 44 .

⁵ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 75 .

من رسولهم، حتى فاجأهم المكان بعذاب من عند الله، ولو كانوا يعلمون الغيب ما سخروا. لكنهم مغرورون بعنادهم، جاهلون بمصيرهم المحتوم، ونهايتهم المأساوية. وتحول المكان من تحت أرجلهم، ومن فوق رؤوسهم إلى ما أراده الله سبحانه وتعالى، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، بعدما قامت الأرض والسماء - المكان - بتنفيذ العذاب على القوم، بأمر من الله تعالى .

أما القصة الثانية فتتمثل في مصير قوم لوط - عليه السلام - حين عاندوا وكابروا واشترك جميعهم في الفاحشة دون استثناء، فعم الفساد في هذا المكان الأرضي، الذي شهد أول جريمة أخلاقية في تاريخ البشرية " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ٨٠ "1. وكان الله أراد بعذاب قوم لوط، أن يغير هذا المكان الطبيعي الذي حوله القوم إلى مكان فاحشة، مسخت طبيعة الإنسان المكرم. إذن فليكن المكان عنصرا مساعدا في عقاب المجرمين، وليحل عليهم غضب الله وعذابه، دون أن يعلموا زمنه. قال تعالى : " فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ٨٢ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ٨٣ "2. فأطبق المكان على من فيه، وقلبه رأسا على عقب، في حين كان القوم لا يزالون في غيهم وسكرتهم، لا علم لهم بما سيحدث. فإنه " تعالى أمر جبريل - عليه السلام - فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبع بحجارة من سجيل منضود "3. إن المكان تحول إلى عنصر معاقب للمجرمين في زمن لم يعلمه أحد، إلا النبي لوط - عليه السلام - بعدما أطلعت الملائكة على ذلك " قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ٨١ "4. ليخلق طمأنة في نفس نبيه الكريم لوط - عليه السلام - ويفاجئ القوم الفاسقين حين يخلدون للراحة والنوم

1 سورة الأعراف : الآية 80 .

2 سورة هود : الأيتان 82 ، 83 .

3 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الرابع . ص 1804 .

4 سورة هود : الآية 81 .

إن المكان كان في قصة الطوفان، جندا من جنود الله " وَبِاللَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا ٧ "1، لقد اجتمعت السماء والأرض لإهلاك القوم الكافرين، وكان كذلك الحال في قصة إهلاك قوم لوط - عليه السلام - حيث اجتمع أعلى الأرض وأسفلها في الإطباق على القوم المجرمين. ويجيء " أمر الله بإهلاك المعذبين، وتقلب قراهم رأسا على عقب، ويمطر الله عليها حجارة من سجيل "2. ونجد أن عذاب الله لا يتأخر عن القوم الفاسقين، ولا يستقدم، حين يسطره الله تعالى عنده في علم الغيب، فلا راد لقضائه. يقول الله جل جلاله " يَا بَرِّهِمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ٧٦ "3 فأمر الله محسوم غيبيا بالمكان والزمان، ولن يستطيع أيا كان أن يمنع أمر الله أو يؤخره، حتى وإن كان نبيا مختارا. مما يؤكد يقينا أن إرادة الله المطلقة وعلمه الواسع فوق محدودية علم البشر، حتى وإن كانوا أنبياء. يجلي لنا القصاص القرآني ضعف الكفار وجهلهم، وعدم علمهم بمصيرهم، وبمصير المكان الذي يحيون فيه، يقول الله جل جلاله: " وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨ "4. وكل هذا يحدث بالمكان والزمان المعلومين عند الله وحده. وهكذا نجد أن المكان ارتبط بالزمن الغيبي، ليقضي الله تعالى أمرا كان مفعولا .

أما قصة ذي القرنين التي وردت في سورة الكهف، حين اتجه إلى المكان الثالث ، وقام ببناء السد ليدفع ضرر ياجوج وماجوج، وفق طلب القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً . لينتقل ارتباط المكان بالزمن الغيبي، حين تقترب نهاية هذا السد - المكان - ليصبح دكا. يقول الله جل جلاله: " ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ٩٢ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣ قَالُوا يَا قَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ٩٦ فَمَا اسطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسطَعُوا لَهُ نَقْبًا ٩٧ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي

1 سورة الفتح: الآية 7 .

2 - د . فضل حسن عباس : القصاص القرآني ، شركة الشهاب ، الجزائر 1989 . ص 196 .

3 سورة هود : الآية 76 .

4 سورة الإسراء : الآية 58 .

جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨¹. إن نهاية هذا السد - المكان - مرتبطة بزمن غيبي يتحقق مستقبلا، وقد حاول كثير من الدارسين والمفسرين أن يبحثوا هذه المسألة الغيبية. وقبل أن نتعرض لذلك، نوضح بأن المكان الثالث الذي توجه إليه ذو القرنين، قد احتوى وصفا طبيعيا، وهو وجوده بين سدين، كما يُضاف إلى وصف المكان، وصف القوم الذين يوجدون به - لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا - لكنهم لا يحبون الفساد في الأرض. إلا أنهم بجوار قوم آخرين، وردت تسميتهم وصفتهم على لسان القوم - إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ - وهنا يقوم ذو القرنين ببناء سد مانع، طالبا منهم مساعدته مستغنيا عن الأجر المادي - قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا - ولا بد أن نتذكر بأن ذي القرنين يستطيع أن يغير من واقع المكان المادي والطبيعي، إلا أنه عاجز عن تغيير الواقع الزماني لمكان مطلع الشمس. وعند إنجاز هذا العمل الضخم، ينسب الفضل إلى الله تعالى، وهذا شأن كل مؤمن بالله عن يقين. أما الوصف الثالث فكان لحالة السد بعد زمن غيبي حيث سيتحول دكا. فالسرد القرآني قد أحاط بهذه الجوانب الثلاثة، فكان أكثر مساحة وأكثر تفصيلا بخلاف المكانين الأولين - غروب ومطلع الشمس - .

إن التسمية العلمية ياجوج وماجوج للقوم المجاورين للمكان، وبناء السد فيه بالمواد الموصوفة أيضا - زبر الحديد والقطر المذاب - تزيد من تحديد وحصر الموقع الجغرافي للمكان. إلا أن المثير هنا، هو ارتباط نهايته بزمن غيبي - فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً - هنا يدخل الزمن المجال الغيبي ليتم إسقاطه على السد المكان. ويقول الإمام الرازي: " إن المراد من قوله يومئذ، يوم القيامة وكل ذلك محتمل، إلا أن الأقرب أن المراد الوقت الذي جعل الله ذلك السد دكا، فعنده ماج بعضهم في بعض، وبعده نفخ في الصور، وصار ذلك من آيات القيامة"². وقد يكون اتفاق المفسرين في هذه الآية حول الزمن الغيبي، فهذه الآية " وصفت انتشار ياجوج وماجوج وصفا بديعا، قبل خروجهم بخمسة قرون، فعدنا هذه الآية من معجزات القرآن العلمية والغيبية. ولعل تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات قرب الساعة، قصد منه مع التوقيت، إدماج الإنذار

¹ سورة الكهف: الآيات 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98 .

² فخر الدين الرازي: المرجع السابق، الجزء الحادي والعشرون. ص 174 .

للعرب المخاطبين، ليكون ذلك نصب أعينهم تحذيرا لذرياتهم¹. وقد اعتمد المفسرون ربط حادثة نهاية السد بما جاء في الحديث النبوي " لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج، وعقد بيديه عشرة²". وهذه إشارة إلى أمر خطير، سيحدث للعرب في غيب المستقبل .

لقد أصبح هذا الخطر مربوطا زمانيا، بحال السد الذي يصبح فيها دكا، ليترجم إلى هجوم المغول والتتار على دولة العرب. فقد " كان زوال ملك العرب العتيد وتدهور حضارتهم وقوتهم على أيدي ياجوج وماجوج، وهم المغول والتتار كما بين ذلك الإنذار النبوي ساعة من ساعات الوحي³. ارتبطت هذه الظاهرة الزمكانية باقتراب الوعد الحق، أي اقتراب الساعة، مما جعل الباحثين يبذلون قصارى جهدهم، للوصول إلى معرفة هذا الموعد الزمني ، وكذلك تحديد مكان السد. وجاء في معنى يموج بعضهم في بعض : أنهم " حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين في البلاد، يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون دوابه، ثم يأكلون لحوم الناس، ولا يفقدون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس. ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون⁴. وإذا كان هذا الأمر قد حدث مع المغول، عند هجومهم على دولة العرب، فلا نعرف أن التاريخ قد سجل ظاهرة خروج قوم شربوا ماء البحر، أو أكلوا لحوم البشر، أو ماتوا بسبب حشرات دخلت آذانهم .

إن المسائل الغيبية صعب أن تُعالج بهذا الشكل، ما لم يكن الاعتماد على نص قرآني صريح، أو حديث صحيح. والالتزام بالنص القرآني هو المخرج الوحيد، لاستيعاب الظاهرة القرآنية، ولا يمكن لنا أن ننزلق في متاهات الإسرائليات التي تبالغ في ذكر الأمور الغريبة ، والتي تخل بالحكمة المرادة من سرد القصص القرآني. وقد لا نوافق الشيخ ابن عاشور في قوله عن ذي القرنين هو : " تسي شي هوانك تي سلطان الصين، بنى هذا الردم بناء عجيبا في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة، فجعل طوله ثلاث آلاف وثلاثمائة كيلومتر⁵. فالسد قد حُددت مواد بنائه في النص

¹ الشيخ طاهر بن عاشور : التحرير والتنوير الجزء الخامس عشر ، دار التونسية للنشر ، تونس 1984 . ص 148 .

² ابن ماجة : سنن ابن ماجة ، المجلد الرابع ، باب الفتنة، دار المعرفة، الطبعة الأولى 1997 ، بيروت. ص 330 .

³ الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء السادس عشر . ص 148 .

⁴ الامام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الواحد والعشرون . ص 173 .

⁵ الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق . الجزء السادس عشر . ص 35 .

القرآني، مما يبعد كل بناء لا تتوفر فيه تلك المواد التي استعملها ذو القرنين في البناء. ولماذا نترك المصدر القرآني الذي يوجهنا الوجهة الصحيحة في البحث، ونتجه إلى وجهات تبعدنا أكثر مما تقربنا؟. ونسأل لماذا يتجه بعض المفسرين في بعض الأحيان، تلك الوجهات التي تؤثر على خط عملهم التفسيري؟

إن السرد القرآني لقصة ذي القرنين وما جاء فيها من أخبار السد وأخبار ياجوج وماجوج، أراد أن يثير فينا دافع البحث والتدبر، وما على الباحث إلا أن يكون جادا في بحثه للوصول إلى حقيقة الخبر، والحكمة منه، مستعينا بوسائل البحث، ومنطلقا من الميدان الموصوف، وفق النص القرآني. إن موسى - عليه السلام - وهو من الرسل أولي العزم، انطلق يبحث عن مكان اللقاء بمؤشر وصفي، وهو نسيان الحوت، وقبل هذا كان عازما بأن يظل يسير حتى بلوغ المكان المقصود، ولو تطلب منه حقا من الزمن. وهذا فيه حكمة بليغة لكل باحث ومتعلم. وأن العرض القرآني لأي حادثة أو خبر أو أمر، لا يكون إلا من أجل حكمة مقصودة. كما ينبغي أن يستغل كل ما جاء في النص القرآني، لتتم عملية استيعابه بشكل حكيم.

إننا نجد مقابل قصة السد في سورة الكهف، قصة فتح قوم ياجوج وماجوج في سورة الأنبياء، وعلاقتهم باقتراب الوعد الحق. يقول تعالى: " حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ٩٦ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شُخْصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْتِلْنَاهَا فَمَا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ٩٧ "1. تكرر اسم ياجوج وماجوج في القرآن الكريم مرتين مرتبطين بزمن اقتراب الوعد الحق، وهو بكل تأكيد يوم تقوم الساعة. فالعلاقة التي ينبغي أن نبينها هي علاقة بين خروج القوم، واقتراب ذلك اليوم، ليتحول اسم ياجوج وماجوج رمزا زمنيا دالا على غياب المستقبل. هذا المستقبل الذي سيتحقق يقينا على واقع المكان الأرضي، كما تحققت عدة نبوءات احتواها القصص القرآني، الذي لازال يتلى، ولم يسقط منه أي حرف، ولم يخالف مسروده أي حادثة وقعت، أو ستقع في غياب المستقبل. ولكن

¹ سورة الأنبياء : الآيتان 96 ، 97 .

السؤال الذي يبقى مطروحا هو ما هي الحكمة من عدم توجه ذي القرنين لمحاربة ياجوج وماجوج، ومنع فسادهم، مكتفيا ببناء السد لوقف حركة فسادهم ؟ .

لقد تكرر أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ١١٠ " فلا علاقة بين الوحي والنبى صلى الله عليه وسلم إلا أمر التبليغ، فهو يتساوى في البشرية مع الناس، ولا خلاف في ذلك، إلا أنه يتلقى الوحي ليبلغه للناس. فمسألة الغيب هي من اختصاص الله وحده، ولا أحد يستطيع ذلك، إلا إذا كان مؤيدا من الله علام الغيوب. " وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها، ولو كان هذا البشر محمدا رسول الله وحببيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشري، وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتحدد وظيفته "2. وهذا يجعلنا حريصين على الابتعاد عن كل رجم بالغيب، وأن لا يكون للهوى حظ في ذلك، وأن نقف عند حدودنا، وأن نعلن عدم علمنا بمسألة، إن لم نتوصل لإدراكها. والقصة القرآنية قد توظف مدلولات وشفرات، ومفاهيم وأسماء بدقة مُحكمة، حيث لا يتسرب أي سهو أو نسيان أو حذف أو زيادة، وهذا إعجاز لا يقدره إلا الله علام الغيوب. فكل لفظة تؤدي دورها ومدلولها المرسوم لها، كما تؤدي أعضاء الجسم وظائفها في توافق وانسجام. فجسم القصة القرآنية كيان دقيق التنظيم، لا يسمح لأي مشرح أن يستخدم شرطه، إلا إذا اطلع على حقائق القصة القرآنية. وليس كما يدعيه البعض من أنهم وصلوا إلى سر تلك الحقائق التي بثها الله عز وجل في محكم آياته، وفي أحسن القصص .

إن إسقاط الزمن الغيبي على المكان في القصص القرآني، ميزة فريدة لا يمكن أن نسلم بها في أي سرد، إلا إذا تيقنا من مصدره السماوي، وأن مسألة الغيب كانت أول المسائل التي يعلن المتلقي موقفه من النص القرآني إيمانا أو كفرا. " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ "3. هذا فيما يخص المؤمنين. أما فيما يخص الكافرين ، فيقول تعالى فيهم : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُم

1 سورة الكهف : الآية 110 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجز الحادي عشر . ص 1410 .

3 سورة البقرة : الآيتان 2 ، 3 .

أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ "1. إن ظاهرة الزمانية في القصص القرآني تبدأ من بداية سورة البقرة، لتزيل كل غموض أو لبس، وتكشف عن الإيمان أو الكفر. والمسألة لا كما يدعيه البعض بأن الإيمان بالغيب هي ميزة السذاجة التي يتحلى بها فريق الإيمان. إن هذا الادعاء لا يختلف عن ما ادعاه قوم نوح على الذين اتبعوه، وآمنوا بدعوته " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ٢٧ "2. فمتى تحولت قضية الإيمان بالله والبعث إلى بلادة وسذاجة؟ ومتى أصبح الكفر قضية حق وعلم وصواب رأي؟ .

إن هذا التفكير الاستكباري هو نزعة شيطانية، امتنعت عن تنفيذ أمر الله، كما أن الغرور بالجهل يجعل من الإيمان بالغيب سفاهة وأسطورة وخرافة، حتى زُج بالنقد في ميدان الأنثروبولوجية، وتحولت الخرافة والأسطورة إلى علم. " وقد مضى علماء الغرب في الطريق الصعب، وحاولوا فهم الأمور من منطلق الأسطورة وتراث الأنثروبولوجيا، فأخفقت معطياتهم جميعاً "3، ليحول بعدها قول الحق، ويجعل كل النصوص الدينية - ودون تمييز وتمحيص - أنها مجرد أساطير وفلكلور وثقافة شعبية. " ولا شك في أن الفكر الإسلامي بقي أبعد ما يكون من ممارسة الفكر الأنثروبولوجي بالمعنى الواسع الذي ندعو إليه، من العقل والثقافة والتفكير السائد في الغرب "4. بل أصبح الإلحاد سمة بارزة لتطور الفكر عند بعض المفكرين في الغرب، فقد " طور فويرباخ، ماركس، نيتشه، فرويد، الإلحاد الغربي الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، كانت إيديولوجياتهم في جوهرها رد فعل على المدرك اللاهوتي الذي تطور في أوروبا، والولايات المتحدة في العصر الحديث. بل ذلك المدرك هو الذي أصل تلك الإيديولوجيات "5. ليصبح في منظور كثير من العقلانيين العرب المقلدين، أن القصص القرآني هو مجرد أساطير الأولين، وخاصة حين يتعاملون مع مسألة الغيب. كما أدى ببعض المفسرين إلى عدم التفريق بين قول الحق، وقول الباطل، مما فتحوا باباً لا يكاد

1 سورة البقرة : الآية 6 .

2 سورة هود : الآية 27 .

3 أنور الجندي : سقوط الإيديولوجيات ، رابطة العالم الإسلامي ، السنة الثانية عشر ، العدد 139 ، 1414 هـ . ص 152 .

4 محمد أركون : المرجع السابق . ص 6 .

5 كارن أمسترونج : المرجع السابق . ص 18 .

يُوصد حتى يسرع المستشرقون إلى إعادة فتحه، وكأنهم يتعاملون على الفرق بين ما جاء في النص القرآني، وما جاء في متن التفسير، وشتان بين كلام الخالق المنزه، وكلام المخلوق الناقص .

لقد انفتح باب النقد الأعلى للنص المقدس في الغرب، حين واجه النص إشكالية الزمن الذي تجاوز نبوءات الكتاب المقدس، وظهر بأن الرب الإله قد فشل في تحقيق الوعد لشعبه المختار. وتقول كارين أمسترونج: " حاولتُ أن أوضح كيف كان الناس يفكرون عن الرب في العالم ما قبل الحديث بأسلوب، أمل أن يلقي الضوء على بعض القضايا التي يجدها الناس الآن إشكالية : - الكتب المقدسة، الإلهام، الخلق، المعجزات، التنزيل، الإيمان، العقيدة، الأسرار المقدسة - "1. لكن الإشكال لن يحل بتأليف كتاب، أو مقالة حول الإلهي والبشري ، والمؤمن لن يغير عقيدته، إلا إذا لامست حقيقة الإيمان عقله وضميره وقلبه، وكان صادقاً مع نفسه قبل صدقه مع غيره، يتحرى الحق ويتبعه أينما وجده. والذي يتبع إبراهيم النبي - عليه السلام - ينبغي أن يكون صادقاً في عقيدته، وأن لا يجعل مع الله أي شريك أو ند، وأن يعيش تاريخ العقيدة والأنبياء تاريخاً واحداً، بحقيقته الأزلية : لا إله إلا الله، وحده لا شريك له .

إن قصة إبراهيم - عليه السلام - الذي يعتبر أبا الأنبياء، وإماماً للناس، في قوله تعالى : " وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٤ "2، وقصة البيت الحرام " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩٦ "3. هما المحور الأساسي الذي رسمنا عليه بحثنا، في حل إشكالية الزمن في القصص القرآني، لاستيعاب الظاهرة الزمكانية التي سنفصل الحديث عنها بالتحليل والشرح - إن شاء الله - في الفصلين الثاني والثالث، ولابد أن يبقى أثر إبراهيم - عليه السلام - شاهداً على ذلك، عبر الامتداد الزمني وتلاحق الأجيال. وهذا بعد قصة صراعه مع قومه، ونبذ الشرك بكل ما أوتي من قوة وحجة. فكان له الفضل بأن يشرفه الله جل

1 كارين أمسترونج : المرجع السابق . ص 20 ، 21 .

2 سورة البقرة : الآية 124 .

3 سورة آل عمران : الآية 96 .

جلاله بإقامة قواعد أول بيت يوضع للناس، لتوحيد الله سبحانه وتعالى. يقول تعالى: " وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ " 1. إن إبراهيم - عليه السلام - سيقوم بتطهير البيت الذي سيأمه الناس من كل فج عميق. إنه استحق هذه المنة من الله تعالى، لأنه اهتم بتطهير الأرض من رجس الأوثان. فهو أول الأنبياء الذي قام بالفعل المتمثل في تحطيم الأوثان قولا وعملا. ووقف صامدا مؤمنا بالله وحده. كما أصبحت أبوته قاسما مشتركا بين أتباع الديانات الثلاثة - اليهود والنصارى والمسلمين - وهم حسب المعهود أصحاب كتب سماوية، وديانة توحيدية. وبإبراهيم - عليه السلام - بدأ المكان المقدس العالمي، والذي بدوره سيرتبط بالزمن المقدس، وبالكلام المقدس. وكل هذا كان في علم غيب الله تعالى مسطرا منذ الأزل .

إننا نعتقد أن إشكالية الزمن في القصص الديني، لا بد أن تعالج انطلاقا من عمل إبراهيم - عليه السلام - وخاصة أن الله تعالى قد أشار إلى هذه البداية " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ٩٦ " 2. إنها بداية تاريخية زمانية للمكان المقدس الذي سيكون وسيبقى مكانا شاملا وجامعا لكل الناس. لذا اعتبرنا مرحلة النبي إبراهيم - عليه السلام - هي انتقال من الرسالة القومية المحلية، إلى الرسالة العالمية الشاملة، حيث ستكون بعثة النبي بعثة عامة لكافة الناس، وعهدا ختاميا للنبوة والرسالة الإلهية. وقصة إبراهيم - عليه السلام - في التوحيد هي بارزة المعالم " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسَلْتُ قَالَ أَسَلْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣١ " 3. ويقص علينا القرآن الكريم قصته في تحطيم أوثان قومه " قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٥٦ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُدُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨ " 4. لقد تجرأ بقوة إيمانه بوحدانيه الله سبحانه، ليحطم الأوثان، متحديا القوم، ليثبت لهم بطلان عقيدة الشرك، وخرافة الآلهة المزعومة ، وهذا عمله الأول .

1 سورة الحج : الآية 26 .

2 سورة آل عمران : الآية 96 .

3 سورة البقرة : الآية 131

4 سورة الأنبياء : الآيات 56 ، 57 ، 58 .

أما العمل الثاني الذي سيقوم به، هو تشريفه وتكليف الله تعالى له بالقيام برفع القواعد من البيت العتيق. يقول تعالى: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۗ

إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩" ¹. وذلك بعد هجرته من بلد قومه إلى حيث أمره الله تعالى " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۗ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٩٧" ² لقد تحدد مكان البيت جغرافيا باسم علم هو - بكة - وتحدد اسم الذي رفع منه القواعد، فهو خليل الرحمن، سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء - عليه وعليهم السلام - . كما تحددت وظيفة هذا البيت، وهي توحيد الله عز وجل، وعدم الشرك به . وستظهر هذه الوظيفة الإيمانية فيما سيردده حجاج هذا البيت، المؤمنون الموحدون أثناء وجودهم بالبيت - المكان - . وستكون رحلة تاريخية عبر الزمن الغيبي الذي لا يقوى على تسطيره وضبطه وإنجازه، إلا رب المكان والزمان، ومشرع الدين والعبادات، وهو الله الحق المعبود لوحده - سبحانه وتعالى وعالم الغيب والشهادة - .

هذا المكان سيبقى ما شاء الله له أن يبقى، قائماً لتوحيد الله الذي لا شريك له، فيأمر الله نبيه إبراهيم - عليه السلام - بأن يؤذن في الناس بالحج: " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧" ³. سيبلغ الله النداء، ويبقى البيت - المكان - مرفوعاً تتجه إليه ذرية إبراهيم من بعده، وتبقى حركة الحج مستمرة إلى أن يحقق الله دعاء نبيه إبراهيم - عليه السلام - عند رفع القواعد من البيت " رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩" ⁴. إن النبي إبراهيم - عليه السلام - أراد أن تبقى دعوة التوحيد قائمة في الأجيال من ذريته التي ستخلفه، على امتداد الزمن " ليس بدعا أن يكون لأبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم

1 سورة البقرة : الآيات 127 ، 128 ، 129 .

2 - سورة آل عمران : الآيتان 96 ، 97 .

3 سورة الحج : الآية 27 .

4 سورة البقرة : الآية 129 .

- عليه السلام - أن يكون له في القرآن الحظ الأوفى والنصيب الأوفر، ونبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم دعوة من دعواته "1. وربما ستتنافس ذرية إبراهيم - عليه السلام - من بعده لتفتخر بهذا النسب الأبوي الكريم، وهذه الصلة الروحية، وسيكون محظوظا من سيفوز بهذا الإرث التاريخي لعقيدة التوحيد، وربما سيحتكر بعضهم لنفسه أبوة إبراهيم - عليه السلام - ليحظى بعهد الرب أبد الدهر، من دون بقية شعوب العالم .

يقول سفر التكوين: " وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له * ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب * ثم ارتحل أبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب "2 إن نص العهد القديم يجعل العهد محصورا في قطعة أرض، أما بيت الرب - بيت إيل - ومذبحه، لم يكن محدد المكان، وخاصة أن إبراهيم يمثل أبا لنسل سيكون مباركا، كما ستتبارك قبائل الأرض به - عليه السلام - " وأبارك مباركك ولا عنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض "3. لكن أبرام العهد القديم ظل ينتقل ويبنى للرب المذابح " فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون وبنى هناك مذبحا للرب "4. ونحن نتساءل على ما جاء في نص العهد القديم، أين هي أمكنة مذابح الرب التي أقامها إبراهيم ؟ ولماذا لا تحفظ من طرف الرب ؟ هل تخلى الرب عن نبيه وبيته ولماذا أمره ببناء هذه البيوت والمذابح ؟ وهل نحس لها من أثر ؟ .

إن الجواب على السؤال حول مكان بيت الله، لا بد أن نجده في النص المقدس باعتباره مكانا مركزيا وكونيا، فأول بيت للناس كما يقول الإمام الفخر الرازي: " لا يدل على أنه أول بيت خلقه الله تعالى، ولا أنه أول بيت ظهر في الأرض. بل ظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس، وكونه موضوعا للناس، يقتضي كونه مشتركا فيه بين جميع الناس . فأما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصا بواحد من الناس "5.

1 - د . فضل حسن عبان : المرجع السابق ، ص 130 .

2 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثاني عشر ، الفقرات 7 ، 8 ، 9 .

3 المرجع نفسه ، الفقرة 3 .

4 المرجع نفسه ، الفقرة 18 .

5 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، المجلد الحادي عشر ، الجزء الثامن . ص 184 .

والإشكال سيكون في تحديد جغرافية بيت الله، وربما ستختلف النصوص المقدسة، أو تتفق في رسم معالم بيت الله ، الذي سيكون للناس، وليس لفئة خاصة دون غيرها. فبيت الله لا ينبغي أن يختص إلا بالذي يعبد الله ويوحده " فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا¹ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٩٧ "1. سيتحول أيضا محيط البيت هذا إلى مكان مقدس، وربما إلى مدينة مقدسة (المدينة المركز والأمر)

إن " أورشلیم السماوية كانت خلقت من قبل الإله في ذات الوقت الذي خلقت فيه الجنة إذن فهي أزلية. ومدينة أورشلیم ليست سوى إعادة إنتاج تقريبي للنموذج المتصاعد، يمكن أن تدينس من قبل الإنسان، ولكن نموذجها غير قابل للفساد، أو غير مدخل في الزمان "2. ومدينة أورشلیم معلومة جغرافيا، لكن العثور على بيت الله الذي أقامه إبراهيم - عليه السلام - فيها، لا نكاد نجده، فهي محج للنصارى. أما اليهود فلا زالوا في انتظار إعادة بناء الهيكل الخاص بهم منذ ثلاثين قرنا. وأما المسلمون فأورشلیم ليست مكان حجهم، وإن كان الأقصى مكان إسراء ومعراج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ "3. أما فيما يخص نص العهد القديم، فأورشلیم لم تكن معروفة إلا في زمن سليمان - عليه السلام - وكان بين بناء المسجد الحرام، وبين بيت المقدس مدة أربعين سنة. فإن "باني بيت المقدس يعقوب - عليه السلام - كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال المسجد الحرام، قلت ثم أي ؟ قال بيت المقدس قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة "4. وهذا يدل على أن بناء بيت المقدس لم يكن من طرف سليمان، وربما كان من طرف يعقوب - عليهما السلام - .

1 سورة البقرة : الآية 97 .

2 مرسيا إلياد : المقدس والمدنس ، ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق للنشر ، الطبعة الأولى 1988 . ص 48 .

3 سورة الإسراء : الآية 1 .

4 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 175 .

نجد في نص العهد الجديد أن المسيح - عليه السلام - قد تنبأ بأن مكان السجود سيتغير " قال لها يسوع يا امرأة صديقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للأب "1. ويقول شارح هذه الفقرة: " ينتقل كل منهما - السامريون واليهود - من حيزه الضيق ليلتقيا معا في مكان مشترك، حيث يلتئم جميع أبناء الله في عبادة روحية تضمهما معا، ويلتقون في مكان لا يحده مكان "2. وأين سيكون هذا المكان المشترك؟. " قالت المرأة أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شيء * قال لها المسيح أنا الذي أكلمك هو * وعند ذلك جاء تلاميذه 3. لكن النص يبدو مبتورا، فالمسيح لم يخبر المرأة بمكان السجود الجديد، وهكذا يبقى مكان السجود مبهما دون تحديد في هذا النص. يقول المؤرخون: " إن السامريين لا يزالون ينتظرون إلى يومنا هذا مسيحا يسمونه أشيف : المثيب والمرجح والهادي. لكنهم أخطأوا كما أخطأ اليهود أيضا في انتظارهم ملكا أرضيا، يرد لهم مجدهم الأرضي الضائع "4. ونص العهد الجديد يشير إلى مكان السجود، أليس من حق الناس المؤمنين أن يعرفوا مكان السجود ؟ ولماذا لا يُحدد بيت الله، أو مكان السجود في النص المقدس ؟ وهنا يمكن أن نتبين حقيقة قصة بيت الله، عبر زمن غيب الماضي والمستقبل، وهل حددت معالمه ؟ ثم أي نبوءة تحققت ؟ وفي أي نص مقدس ؟ وما هي النبوءة التي تجاوزها الزمان، أو كذبها الواقع ؟ .

إن قصة بيت الله الحرام، قصة قد فرضت حقيقتها عبر الامتداد الزمني، وعبر المكان الذي أصبح قبلة وملتقى المسلمين من كل فج عميق. وجاء في سورة الحج " وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ "5. فاتضح بان الله أمر خليله - عليه السلام - بأن يطهر البيت من مظاهر الشرك ، ليصبح خالصا للتوحيد الصافي، وأن يكون خاصا لعباده الموحدين الطائفين، والقائمين والراكعين والساجدين. وهذه كلها دلائل على مميزات بيت الله، فأين موقع هذا المكان الذي يقوم فيه عباد الله بكل هذا ؟ وهل سيتترك مبهما دون تحديد ؟ إن تقاطع النصوص - التناص

1 العهد الجديد : إنجيل يوحنا ، الإصحاح الرابع ، الفقرة 24 .

2 د. القس إبراهيم سعيد : شرح بشارة يوحنا ، دار نوبار للطباعة ، الطبعة الرابعة 1988 ، القاهرة . ص 57 .

3 العهد الجديد : إنجيل يوحنا ، الإصحاح الرابع ، الفقرات 25 ، 26 ، 27 .

4 د. القس إبراهيم سعيد : المرجع المرجع . ص 160 .

5 سورة الحج : الآية 26 .

القصصي - في قصة بناء إبراهيم - عليه السلام - لبيت الله ثابت في العهد القديم، والقرآن الكريم، لكن الاختلاف في إبهام العهد القديم لمكان البيت، وتوضيحه وتحديد صفات قاصديه ثابت في النص القرآني، والذي كان هو آخر النصوص المقدسة المنزلة .

تبدأ قصة البيت في القرآن الكريم بتحديد معالمه الطبيعية، حين وقف إبراهيم - عليه السلام - يدعو ربه لذريته " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧ "1. لقد حددت معالم بيت الله، فهو في بيئة صحراوية قاحلة، لا يوجد بها زرع ، وهذا " من لطفه وكرمه ورحمته وبركته، أنه ليس في البلد الحرام مكة، شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل - عليه السلام "2. كما ذكر الله تعالى قريشا بنعمته عليها، حين جعلها قرب الحرم الآمن، لكي تعبد رب هذا البيت وتوحده " فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ٤ "3. وما قصة أصحاب الفيل إلا دليل على رعاية الله لبيته وحفظه، وحفظ ساكنيه " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ٥ "4. وجاءت هذه السورة كتمهيد لسورة قريش، التي تلتها في المصحف لتبين طلاقة قدرة الله وحكمته في ذلك، وكدليل قاطع على إرادة الله القاهرة في حفظ بيته، وحمايته منذ أن أمر خليله - عليه السلام - بإقامة قواعده، وكل ذلك تم وفق علمه ومشيتته. والذي يهمننا هنا هو ارتباط الزمن الغيبي بالبيت الذي أقامه إبراهيم - عليه السلام - . فهذا المكان سيكون بداية عهد جديد في الزمن الغيبي، وسيشهد حدثا جليلا بعد بنائه بقرون من الزمن، وستسجل النصوص المقدسة نبوءة العهد الأخير، وسيبشر الرسل السابقين بقدم النبي الخاتم، وبه يُختم وحي الله، وتُكتمل دائرة الزمن، ويُعرف مكان بيت الله .

ربما سيكون هناك تنافس على وراثة العهد مستقبلا، ومن يحظى بهذا الشرف الرسالي. لكن المسألة ليست كما يهوى البعض، ولكن كما يريد الله تعالى " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ

1 سورة إبراهيم : الآية 37 .

2 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثاني . ص 1008 .

3 سورة قريش : الأيتان 3 ، 4 .

4 سورة الفيل : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 .

يَجْعَلُ رَسُولَهُ¹ "1. فهي ليست نزعة قومية، ولا نسبا بين الله وشعب مختار، فهذه كلها سخافات وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان. بل هي منبت أرضي، حاول أصحابها أن يحتكروا الدين والإله لأنفسهم، لأنهم هكذا ظنوا بأن الله هو رب خاص بشعب - رب قومي - وليس رب العالمين. ليتحول الرب بدون مأوى، حين يخرب الوثنيون هيكله، ويتحول شعبه إلى سبايا وعبيد تحت سلطة الوثنيين. إن صنم الوثنيين انتصر على رب الهيكل وعلى رب إسرائيل، فتحول سكنه من الهيكل الثابت، إلى خيمة يرتحل بها مع شعبه الفاقد للعهد والأرض. ويظل المزمور يكرر هذه الترانيم " طوبى للساكنين في بيتك أبدا يسبحونك * طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم * عابرين في وادي بكة يصيرونه ينبوعا ببركات يغطون مورة "2. لأي بيت يغني المزمور هذه الترانيم الروحية ؟. يتبين ارتباط وأثر البيت بالزمن في المزمور، حيث يتحول اليوم فيه إلى أفضل من ألف يوم فيما سواه : " لأن يوما واحدا في ديارك خير من ألف اخترت الوقوف على العتبة في بيتي إلهي على السكن في خيام الأشرار "3 ، كما يصبح الوقوف في بيت الله أفضل من الإقامة في خيام الأشرار، فماذا تمثل الخيمة ؟ ومن هم الأشرار؟ إننا نحتاج إلى فك تلك الشفرات والرموز، وبحث التقاطعات مع مواصفات بيت الله الحرام، وأفضليته زمانيا وروحيا، هذه نبوءة جاء بها العهد القديم قبل تنزيل الوحي على خاتم النبيين والمرسلين صلى الله عليه وسلم بألاف السنين .

لقد جاء في قصة التوجه إلى القبلة، حين حولت من وجهة بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة قوله تعالى : " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤ "4. لقد تم تحويل القبلة، وقد " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باستقبال الصخرة بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة، وهو مستقبل صخرة بيت المقدس. فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما،

1 سورة الأنعام : الآية 124 .

2 العهد القديم : المزمور الرابع والثمانون ، الفقرات 4 ، 5 ، 6 .

3 المرجع نفسه ، الفقرة 10 .

4 سورة البقرة : الآية 144 .

فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس "1. لكن بعد زمن قصير، أمر بأن يصلي شطر المسجد الحرام " واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا، وكان يكثر من الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم - عليه السلام - فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق "2. حيث ترسم بتحول قبلة السجود إلى انتهاء ميراث الرسالة من بني إسرائيل. ولكن أهل الكتاب كانوا يعلمون تحول مملكة الله عنهم " إن المملكة والسلطان تحت كل السماء سوف تعطى لعباد الله تعالى وأوليائه وسيكون الملكوت أبديا يخدمه ويطيعه الجميع "3. هذه نبوءة جاءت في سفر دانيال، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل ، تتنبأ بأمر خطير مستقبلا، يتم فيه نقل الرسالة إلى عباد الله، وهذا على حسب النبوءة قد تقرر في علم الغيب، والأمر الوحيد لتصديقه هو ظهور عباد الله ، أي المؤمنون به

انطلاقا من نبوءة مملكة الله وبيت الله، نستطيع أن نستوعب هذا الارتباط بين المكان المقدس والزمن الغيبي، حين تتحقق النبوءة، فلا تترك مجالا لأي تكذيب من طرف أهل الكتاب، حتى وإن حرفوا النصوص، أو كذبوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فالبيت الحرام - المكان المقدس قد تحول إلى مكان كوني مركزي بعد فعل إقرأ، واستأنف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دعوة الأنبياء والرسل الذين سبقوه، دعوة التوحيد معلنا اتباع ملة إبراهيم - عليه السلام - وتسجل لنا كتب السيرة هذا الحدث التاريخي العظيم، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح " فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول - جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا - فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع "4. فتم تطهير البيت بصفة نهائية من جميع مظاهر الشرك على يد النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. فأصبح البيت خاصا بالمسلمين، ومحرمًا على المشركين والكفار .

1 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 178 .

2 المرجع نفسه . ص 179 .

3 العهد القديم : سفر دنيال ، الإصحاح السابع ، الفقرتان 22 ، 23 .

4 - ابن هشام : السيرة النبوية ، الجزء الرابع ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ص 59 .

يقول تعالى: " وَإِذْ أَيْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٤ "1. لقد تأكد عهد الرب العلي مع نبيه الكريم إبراهيم - عليه السلام - وإن " هذا الإرث الذي استحقه إسماعيل - عليه السلام - وذريته لكونه الابن البكر، لم يكن خيمة والده ولا مواشيه، وإنما كان إخضاع كل الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات وسكانها إلى الأبد. وبالفعل فإن تلك البلاد، لم تخضع قط لذرية إسحاق، ولكنها خضعت لذرية إسماعيل - عليهما السلام - مما يعتبر تحققاً حرفياً وفعلياً لأحد نقاط العهد "2. وهكذا يرتبط الزمن الغيبي بالمكان في قصة بيت الله الحرام، لتتحقق النبوءة دون أن يسقط منها حرف واحد، أو تأتي بعكس ما ورد في النص القرآني، لتبقى الإشكالية الزمانية لغزا محيرا لدى اليهود في انتظارهم تحقيق النبوءة منذ ثلاثين قرنا .

كما يبقى النصارى يرددون في صلاتهم " أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكون مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض "3. وبقي النصارى منذ عشرين قرنا بانتظار ملكوت الله، فالزمن الغيبي حين يرتبط بالمكان يبين قدسية النص، وذلك حين تتحقق النبوءة حرفياً، ولا ينفع مع هذا أي ادعاء مهما قدم له أصحابه من هالة التقديس والتعظيم، لأن الزمن هو الكفيل بالحكم عليه، حين يتجاوزه، وتصبح النبوءة باطلا لا حقيقة وكذبا لا صدقا. وقصة بيت الله - المكان - والحج إليه حقيقة ماثلة أمام الأعين، وصدقا لن يستطيع أهل الكتاب، ولا أهل أي ملة أخرى أن يكذبوا بها، وهي تتكرر منذ الفتح إلى يومنا هذا، وستبقى كذلك ما بقيت السماوات والأرض، وما بقي بيت الله قائما، يتوجه إليه المؤمنون من كل فج عميق، ليعلنوا وحدانية الله تعالى، وحده لا شريك له .

إن هذا البيت - المكان - الذي بدأت تهيئته في علم الغيب، ورُفعت قواعده أول مرة ، ولم يتغير مكانه، ولم تُهدم أركانه، ولم يُنقل إلى جهة أخرى، ولم يصبح مجهول الاتجاه والتحديد. بل بقي على امتداد الزمن بيت الله، يُوحَد الله فيه ويُعبد، ولم يتحول إلى

1 سورة البقرة : الآية 124 .

2 عبد الأحد داود: محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة محمد فاروق، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى 1997. الرياض. ص 45 .

3 العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح السادس 9 .

بيت خاص لنسل معين، بل بيتا للناس " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩٦ "1. ليتحول الحج إلى ظاهرة دينية بالمكان والزمان المعلومين، تثبت حقيقة عالمية الرسالة، وتعلن التوحيد وتنفي الشرك عبر الزمن الممتد، وتكشف صدق تحقق النبوءة التي سُطرت في علم غيب الله منذ الأزل، وحيا ومكانا وزمانا، لتتحقق بالمكان والزمان اللذين أرادهما الله العليم الحكيم، فتكتمل الدائرة الزمانية، ويعلن على اكتمال الدين وختام الرسالة بقوله تعالى: " أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا "2. لقد رد عمر بن الخطاب عن سؤال اليهودي عن هذه الآية بقوله: " إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم جمعة "3. لنجد أن المكان قد اتحد مع الزمان، وسجله التاريخ خطابا وحدثا ومشهدا في حجة الوداع. وأمام كل هذه المظاهر المستمرة عبر الدائرة الزمانية. وكيف يكون قول طه حسين عن الإسلام؟ " هو هذه الحنفية التي لم نستطع أن نتبين معناها الصحيح ... ولم يكن أحد احتكر ملة إبراهيم، ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها، لقد أخذ المسلمون يردون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم "4، وكأنه لم يقرأ قوله تعالى: " إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ١٩ "5. وأن دين كل الأنبياء والرسول هو الإسلام فالإسلام هو حقيقة قديمة جديدة. فهل عجز طه حسين أن يستوعب هذه الحقيقة، وهو حافظ لكتاب الله، منذ أن كان طفلا صغيرا؟.

لقد تحول المكان إلى قبلة للصلاة تقام يوميا وعلى مدار الزمن، وتعاقب الليل والنهار وكان لهذا الحدث شأن عظيم في نفوس أهل الكتاب، حين تحولت القبلة من وجهة بيت المقدس إلى وجهة البيت الحرام. يقول تعالى: " سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا

1- سورة آل عمران : الآية 96 .

2- سورة المائدة : الآية 3 .

3- الإمام مسلم : صحيح مسلم ، كتاب التفسير ، دار المعرفة ، الطبعة الثالثة 2010 ، بيروت . ص 1351

4- طه حسين : في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة العاشرة ، القاهرة 1975 ، ص 141 .

5- سورة آل عمران : الآية 19 .

لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفُلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١٤٥ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَشِيرُوا الْحَيْرَةَ أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٤٨¹. إن قصة القبلة ومسألة تحويلها معلومة مسبقا عند أهل الكتاب، إلا أن عناد القوم ومحاولة إخفاء المكان المركزي، الذي سيتحول وجهة للموحدين، سيشكل ضربة قاصمة لليهود والنصارى، ويكشف ما كانوا يخفونه في أسفارهم عن هذه الحقيقة المكانية والزمانية، التي أثارها الوحي أثناء نزوله، وكونت امتحانا عسيرا صدمت حقيقته ضعيفي الإيمان. لكن السؤال المطروح هو : أنى كان لأهل الكتاب علم بهذا الأمر ؟ والجواب البسيط هو أن أسفارهم تكون قد أعلنت مكان القبلة وتحويلها، كما أعلنت نبوءة ظهور النبي الخاتم، من بني إسماعيل .

فالمسألة تكمن في هذا المكان الذي سيرتبط بالزمن الغيبي، ولا بد أن يرتبط بالنبي خليل الرحمن، وأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ولا بد لأسفار أهل الكتاب أن تسرد قصة هذا البيت بالاسم، كما جاء في النص القرآني باسم بكة وليس مكة. كما أن اللفظ القرآني بكة يثير تساؤلات كثيرة، أبسطها هي لماذا ذكر هذا الاسم بكة ؟ إنه اسم مثير حقا، لمن يبحث عن الاستثناءات. لكن منهج القرآن الكريم لا يأتي بلفظة، إلا وكان من ورائها حكمة مقصودة إن " البيت الحرام الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبدا للناس، بناه إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما السلام - لأجل العبادة خاصة...فصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم على ملة إبراهيم، ويتوجه بعبادته حيث كان يتوجه إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما السلام -"². كما يوضح الكاتب خصوصية أولية هذا البيت : " والمتبادر أنها أولية الزمان بالنسبة إلى بيوت العبادة

¹ سورة البقرة : الآيات 142 ، 143 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ، 148 .

² محمد رشيد الرضا : تفسير المنار ، الجزء الرابع ، دار المنار ، الطبعة الثانية 1947 مصر . ص 6 .

الصحيحة التي بناها الأنبياء، فليس في الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يعرف من تاريخ، وما يؤثر عنهم. وهذا بيت يستلزم الأولوية في الشرف "1. ليبقى هذا الأثر باقيا عبر امتداد الزمن .

لم يبق عند أهل الكتاب من آثار الأنبياء مكان له من الأهمية، إلا الهيكل الذي بناه سليمان - عليه السلام - وقد هدمه الوثنيون، وانمحت آثاره، ومكانه معروف ومعلوم، وهو ببيت المقدس. يقول ابن عاشور: " والظاهر عندي أن بكة اسم بمعنى البلد وضعه إبراهيم علما على المكان الذي عينه لسكن ولده، بنية أن يكون بلدا. فيكون أصله من اللغة الكلدانية لغة إبراهيم. ألا ترى أنهم سموا مدينة بعلبك أي بلد بعل وهو معبود الكلدانيين، ومن إعجاز القرآن اختيار هذا اللفظ، عند ذكر كونه أول بيت "2. وبالتالي فتوظيف القرآن الكريم اللفظي يتطلب جهدا ذكيا واطلاعا واسعا، وربط لغويا، ويدفع بالمتلقي أن يلج ميدان البحث مرغما . لهذا نرى أن الإعجازية المكانية هي التي تطلبت هذا التوظيف، لترتبط بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. إن " الزمنية السردية لا تطرد قدما دائما، ولكنها تسجل ارتدادات إلى وراء وإلى أمام في انتقالها من تاريخية قصصية إلى أخرى أعرق وأحدث "3 وكان هذا التوظيف يرجع بنا إلى أسفار أهل الكتاب في قصة بيت الله والقبلة والعهد، وملة إبراهيم وبنيه - عليهم السلام - فهي مرحلة تمتد في جذور غيب الماضي، الذي لا يعلمه إلا الله، أو يكون أعلمه في وحيه لأنبياء بني إسرائيل، وعلمه علماءهم وأخبارهم على الخصوص. مما يصعب عملية البحث، والحفر في التراث اليهودي، وهو غير متاح للكل. وتتحول لفظة بكة إلى مفتاح يلج بها الباحث إلى ربط علاقتها بالمقدس وخاصة بالحج، وهو عبادة تمارس بمكان وزمان معينين .

لقد دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه في قوله تعالى: " رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٤٠ "4. وأصبح البيت وجهة يولي كل مسلم وجهه شطره أينما كان امتثالا لأمر الله تعالى هذا المكان المرتبط بالزمن الغيبي، الذي سبق في

1 المرجع نفسه. ص 6 .

2 الشيخ طاهر بن عاشور: المرجع السابق، الجزء الرابع. ص 12، 13 .

3 د. سليمان عشاري: المرجع السابق. ص 112 .

4 سورة إبراهيم: الآية 40 .

علم الله، ومنذ الأزل يجسد عقيدة التوحيد التي نادى بها كل نبي ورسول بعثه الله لقومه، ليختتم هذا النداء بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم. ولكنه لكل الناس، وعلى امتداد الزمن، ولكل العالمين. إن قصة الإيمان والتوحيد ماثلة في هذا المكان، الذي بقي قائماً منذ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلى ما يشاء الله له. هذه ليست قصة خيالية، ولا أسطورة وضعها مبتدعون أو ألفها مبدعون، فالدليل المادي يؤكد وحده ذلك. والحدث التاريخي لبعثة الإسلام يقطع الشك باليقين. فالحركة الدؤوبة والمستمرة شطر بيت الله الحرام صلاة وطوافاً، عمرة وحجاً للمسلمين على وجه الأرض - المكان - وعبر مدار أيام السنة - الزمان - دون انقطاع أو توقف، لدليل معجز يتقاطع فيه المكان مع الزمان والعقيدة مع التاريخ، ويتلاقى فيه جميع أنبياء الله ورسوله، حول عقيدة التوحيد. فهو شهادة صادقة لا تُرد، تثبت حقيقة وحدة الدين، وتقر الحقيقة الأزلية : لا إله إلا الله، وتنفي أسطورة الشرك وتدحضها ، كما تؤكد حقيقة قدسية النص القرآني وأزليته .

فالبيت الحرام الذي أضفى على المكان هذه الظاهرة الزمانية، في مجالها الغيبي الممتد بين الماضي والمستقبل، وحملت معه مكة اسم أم القرى. يقول تعالى : " وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩٢ "1، ويقول أيضاً : " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبِّبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٧ "2. إن مركزية المكان للبيت هو الذي جعل من مكة أم القرى، ورب المكان هو الذي حدد ذلك، ولا دخل لإبراهيم أو محمد - عليهما الصلاة والسلام - في ذلك أبداً. ولم يحاول أبداً لا كُتاب الوحي منذ أن نزل، ولا المؤرخون المسلمون أن يخفوا أو يحرفوا أي اسم لمكان - مكان عبادة مقدس - أو اسم لشخص - شخصية نبي أو رسول - حتى وإن جاءت مخالفة لما عهدوه من مسميات قبل نزول الوحي. ومع هذا فلم يضيفوا أو يحذفوا ليخفوا نبوءات، أو يقولوا بنبوءات لم يذكرها نص الوحي. فالوحي سرد قصة الإيمان والعقيدة بمكانها وزمانها

1 سورة الأنعام : الآية 92 .

2 سورة الشورى : الآية 7 .

وتاريخها، وشخصها وأحداثها، وبقي النص كما أنزل يوم بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابته - رضوان الله عليهم - .

إن مشهد الواقع المتكرر والدائم اتجاه هذا البيت العتيق - المكان المقدس - هو أحسن دليل وأقوى برهان، لن يصمد أمامه أي ادعاء باطل. ومن خلاله تستوعب قصة نبيي الله إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - وتحقق صدق النبوءة المسطرة منذ الأزل " وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١١٥ "1. فقد أكمل دين الله، وتمت كلمة الله، وأغلق النص المقدس، وحُفظ إلى الأبد، وسَلِمَ من التحريف والحذف والزيادة. ولم ولن يواجه الخطاب القرآني أي إشكالية زمانية على الإطلاق منذ بداية التنزيل. ولن يتجاوز الزمنُ الخطابَ القرآني أبداً، كتجاوزه نصوصَ العهد القديم والجديد، وجعلها عرضة للتناقض والاختلاف. ولن يستطيع أي من أهل الكتاب أن يجادل وهو معتمد على نصوص مترجمة من مصادر لا علم له بها. فحجة مصدرية النصوص والمحافظة عليها لا يملكها سوى النص القرآني من بين كل النصوص الدينية، وهذا ما يثبت صدقية قصصه، وأنها حق من عند الله علام الغيوب .

أما الذين يشككون في صدقية القصص القرآني، أو يعتقدون أن فيه من الخيال والأساطير، أو هو صناعة بشرية فجرتها عبقرية رجل أُمي، أو ابتكرها ذكأؤه الخارق ليجمع كل ما توزع في الكتب السابقة، التي بين أيدي اليهود والنصارى، ويولد كلاماً يدعيه وحياً إلهياً، ونصاً مقدساً. أسس من خلاله ديناً، وبنى بناءً ليكون ملتقى لمريديه، من مختلف الشعوب، زاعمين بهذه الرؤية النقدية، تقديم تحليل علمي وموضوعي للنص القرآني ، وللظاهرة الدينية، باعتبار الوحي سوى نص من الآداب العربية، وأن الدين ظاهرة اجتماعية . فحقيقة الأمر أن هذا الفكر لا يقوم على أي أساس علمي أو منهج صحيح، ولا على أي دليل عقلي أو مادي قاطع. لم يترك موسى - عليه السلام - وهو أعظم نبي لبني إسرائيل أي أثر مادي، ولم يترك المسيح عيسى - عليه السلام - أيضاً أي أثر مادي للنصارى، وحتى كنيسة القيامة، أو كاتدرائية بطرس في روما قبلة الكاثوليك،

¹ سورة الأنعام : الآية 115 .

شيدتا من بعده. لقد قبل الوحي بالتحدي وهو الكتاب الديني الوحيد الذي يطالب بتقديم البرهان " قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "1. فتقديم الدليل والبرهان هو مطلب الطرف القوي الذي يملك الدليل القاطع والحجة الدامغة .

إن ما يقوله هؤلاء المستشرقون والعقلانيون ومن دار في فلکهم، سوى تبعية لزعم مشرقي قريش السابقين. وقد وضح مالك بن نبي هذه القضية بقوله: " إن هناك تسلسلا تاريخيا يعبر عن التبعية الفكرية ... وأصدق مثال على ذلك بلا جدال، الفرض الذي وضعه المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) في الشعر الجاهلي، فقد نشر هذا الفرض في عام 1925 . . . وفي خلال عام 1926 نشر (طه حسين) كتابه المشهور في الشعر الجاهلي، فهذا التسلسل التاريخي معبر تماما على تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين "2. فالمسألة ليست سوى عملية اجترارية مستمرة، لا تخرج عما سبق من زعم في شأن الوحي وقصصه، ولن تتوقف أبدا. لقد قسم أحد الباحثين القصة القرآنية إلى تاريخية وتمثيلية وأسطورية، متعرضا للآية التي جاءت في سورة المطففين " الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۖ وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۗ ۱۳ "3. ليقول: " هذه هي الآيات التي عرض فيها القرآن لهذه المسألة فلننظر، لنرى ما فيها من دلالات على نظرية لهذه الأساطير "4. فإن كان هذا القول تنظيراً للأسطورة في النص القرآني على حد زعم الكاتب، فهو تنظير بشري، وليس للقرآن فيه، إلا نقل القول كما جاء على لسان المشركين. وهل قول اليهود والنصارى كما جاء في القرآن: " وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۗ ۳۰ "5، فهل هذا تنظير لإثبات البنية لله سبحانه وتعالى، والشرك به، وترسيخ التثليث، أم لدحضها والرد على فسادها، وإقرار التوحيد المطلق لله عز وجل ؟ .

1 سورة النمل : الآية 61 .

2 مالك بن نبي : المرجع السابق ص 56 .

3 سورة المطففين : الآيات 10 ، 11 ، 12 ، 13 .

4 محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق .. ص 202 .

5 سورة التوبة : الآية 30 .

وإذا كنا نحن البشر في منطق البحث والدراسة، لا يُقبل منا، أن نتناول أي مجال للخيال والخرافة في البحث العلمي، فما بالنا إذا تعلق الأمر بوحى الله الذي قال عنه: "لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلَ مَنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢" ¹. وهل يحتاج عالم الغيب والشهادة، أن يستعين بالأساطير والخيال، ليعلن لعباده عن الحقيقة؟ وكما هو غني عن عبادته، فكذلك هو غني عن أي أسلوب خرافي، أو منهج أسطوري لتبليغ كلامه الحق. إن النص القرآني عامة، والقصص القرآني خاصة يفوق المقاييس النقدية التي وُضعت لنقد النصوص الأدبية، فهي متغيرة ومختلفة. أما النص القرآني فهو ثابت وبقا على الامتداد الزمني، ويتجلى فيه الإعجاز كلما حاولنا بحث جانب من جوانب الظاهرة القرآنية. ولربما نتساءل كما تساءل الأستاذ منسي: "هل تنتفي فيه الأجناس والحدود، فلا نثر ولا شعر ولا قصة، ولكن جنسه أمر آخر لم تهتد إليه الحدائث الإبداعية بعد" ². إننا أمام هذا التساؤل لا نجد إجابة عند النقد، بقدر ما نجدها في النص القرآني نفسه "إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ٥" ³. ليبقى الوحي نصاً يتلى ومعجزة تتحقق وتتحدى على امتداد الزمن. إن الإعجاز يتحقق في المجالات الغيبية والخرافة، والتي لا حظ فيها للقدرة والعبقرية البشرية المحدودة "أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ٤١" ⁴. فهي عاجزة عن تجاوز حاضرها مهما ادعت من علم ومعرفة. ولهذا كثيرا ما تكررت الآيات التي تثبت بشرية النبي صلى الله عليه وسلم "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَجِدْتُ قَوْمًا لِقَاءَ رَبِّي فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّي أَحَدًا ١١٠" ⁵. وكذلك الآيات التي تنزع عنه صفة العلم بالغيب "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠" ⁶. فقصه إبراهيم - عليه السلام - هي قصة تأكيد عقيدة التوحيد التي دعا إليها جميع أنبياء الله ورسله من قبل إبراهيم - عليه السلام - ومن بعده، إلى خاتم الرسل محمد - عليه وعليهم الصلاة والسلام -. فقصه الإيمان والتوحيد التي يتجسد فيها تلاقي المكان بالزمن الغيبي،

¹ سورة فصلت : الآية 42 .

² - أ. د. حبيب منسي : المشهد السردى في القرآن الكريم ، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية ، الطبعة الأولى ، الجزائر 2009 . ص 2 .

³ سورة النجم : الأيتان 4 ، 5 .

⁴ سورة الطور : الآية 41 .

⁵ سورة الكهف : الآية 110 .

⁶ سورة الأنعام : الآية 50 .

ظاهرة إعجازية مؤيدة لكل مؤمن، وتتحدى كل كافر ومكذب بالدين والله والبعث .

ففي هذا المكان - البيت الحرام - الذي أمر الله نبيه إبراهيم - عليه السلام بأن يؤذن في الناس بالحج، لينزل وبعد مسافة زمانية تعد بالقرون أمر الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وفي المكان ذاته، وفي موسم الحج في قوله تعالى: " أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا " ¹. ل يتم عمل الأنبياء الذي أكده سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فتبقى قصة عقيدة الإيمان والتوحيد ماثلة عبر الامتداد الزمني، ليرتبط بهذا المكان، الزمن الغيبي بالزمن الطبيعي بالزمن التاريخي. ونجد المكان الذي ذكر في النص القرآني (بكة) يتقاطع مع اسم جاء في نص العهد القديم " طوبى لأناس بك عزهم الذين تتشوق قلوبهم إلى الحج يعبرون في وادي بكة " ². وتجتهد دائرة المعارف الكتابية لتفسير لفظة (بكا) فتقول: " وادي البكاء طريق يؤدي إلى أورشليم " ³. ولنا تفصيل في هذا في الفصل الثالث - إن شاء الله - لكن علاقة هذا الاسم ترتبط بعلاقة الحج - تتشوق قلوبهم إلى الحج - . كل ذلك يتم في واقع الأجيال، وعبر العصور وفي علم الله السابق. وهذا ليس بالخيال والخرافة والأسطورة، وإنما هو الحق المبين. وهكذا نستطيع أن نستوعب القصص القرآني ضمن إطار ارتباط الزمن الغيبي بالمكان، حين تتجلى حكمته تعالى في إكمال دينه، وختم رسالته السماوية. وكأن الزمان أيضا استدار ليكمل دورته، وبالتالي تكتمل دائرة الدين بالمكان والزمان .

وننتقل إلى عالم الساعة واليوم الآخر، وهو غيب ظل يكذب به كثير من الناس، وقد احتوت عناوين بعض السور أسماء لنهاية غيبية - الواقعة ، الحاقة ، الإنشقاق ، التكوير ، الزلزلة - . وقد سميت بالساعة وجاء تصويرها في سورة الحج " يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢ " ⁴. إن هذا المكان الذي عاشت عليه البشرية، سيحدث له انقلاب، يكون مفاجئا وغييبا لا يعلم أجله إلا خالقه. يقول

1 سورة المائدة : الآية 3

2 العهد القديم : المزامير الرابع والثمانون ، الفقرتان 5 ، 6 .

3 مجموعة من الباحثين : دائرة المعارف الكتابية ، المجلد الثاني . ص 130

4 سورة الحج : الآيتان 1 ، 2 .

تعالى: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ ١٠٤"¹. إن عملية الهدم تدل على عملية البناء، فكما بدأت عملية فتح المكان - السماوات والأرض - في الزمن الغيبي، فكذلك تأتي عملية طي المكان في الزمن الغيبي، وأنه " كان هناك في الماضي حالة من كثافة لا متناهية الانفجار الكبير الذي يكون بداية فعالة للزمان، والمثل فلو أن الكون كله تقلص ثانية، فإنه لا بد أن توجد في المستقبل حالة أخرى من كثافة لا متناهية، الانسحاق الكبير"². ومهما كانت من فرضيات لدى العلماء لمصير الكون، فنحن نؤمن بنهاية هذا الكون، مصداقا لما جاء في النص القرآني، من سرد لقيام الساعة، ونهاية المكان في الزمن الغيبي .

فبعد هذا الهدوء والنظام والاستقرار، سيحدث زلزال عنيف في كل أرجاء الكون (المكان) وتتلاشى أجزائه، وتتفكك عناصره المتماسكة، ولن يقدر الناس على هذا الأمر إطلاقا. فعنصر المفاجأة والغفلة يجعلان الناس، في حالة ذهول وخوف شديدين. فأمر الله واقع لا ريب فيه " أَتَىٰ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ١ "³. فكثيرا ما طالب الكفار رسلهم بذلك اليوم الموعود، وتعجلوا زمن العذاب في الدنيا والآخرة، وكيف كان حالهم حين حل العذاب بديارهم " فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَأَ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ٥ "⁴. إن المكان هنا أصبح هو العنصر المتحرك والفاعل بأمر من الله تعالى، والذي سيقبل موازين الحياة رأسا على عقب، ويتحول كل الشخص - الناس - إلى مفعول بهم ومنفعلين، لا حول لهم ولا قوة. فالنظام الذي كان يحكم حركة الكون، ويضبط حركة الحياة على الأرض - المكان - أراد صاحبه أن ينهيه، وفق مشيئته وعلمه هو وحده سبحانه وتعالى. لقد جاءت لحظة الزمن الغيبي، واضعة حدا للاستقرار على المكان الأرضي منذ هبوط آدم، إلى بلوغ البشر نهاية - إلى حين - .

لقد تكررت مشاهد المكان المتلاشي في الزمن الغيبي، في كثير من السور، لتقدم لنا وصفا مرعبا لمصير المكان الذي استقر الناس فيه زمنا معدودا، تمتعوا فيه إلى

¹ سورة الأنبياء : الآية 104 .

² سنتيفن هوكنج : المرجع السابق . ص 149 ، 150 .

³ سورة النحل : الآية 1 .

⁴ سورة الأعراف : الآية 5 .

الأجل المحدود والمعلوم (إلى حين). فقد انتهى الاستقرار على الأرض المكان، واستهلكت مدة إلى حين، واستوفت نهايتها، ليصل المكان إلى زمنه الغيبي الذي جعله الله وعدا حقا، وأجلا مسمى لا ينبغي تجاوزه " وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُوبِلُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ٩٧ " 1. وكما لكل منا أجل محدد بين الميلاد والممات، فكذلك المكان له بداية ونهاية. إن المكان يصبح عنصرا حيويا وفاعلا مؤثرا في قصة مصير البشرية، حين يتلاقى والزمن الغيبي الذي حدده الخالق العليم، ويكون في عصر يعتقد الناس أنهم قادرون على السيطرة على المكان. سيتعامل الناس مع المكان بفوقية، ووجود لرب المكان، كما ظن السابقون، حيث قالت قوم عاد نتيجة التكبر والاعتزاز بالقوة " فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥ " 2. فالأمر نفسه يتكرر مع اللاحقين، والزلازل الذي سيحدث سيزلزل المكان، كما يزلزل الاعتقاد السائد ويبيد الكفر والجهود. ولن يجد الناس أي قوة أو مقاومة، أمام هذا الأمر المذهل، إلا الوقوف على حقيقة الوجود والمصير الذي بدأ من الله وينتهي إليه سبحانه وتعالى .

يقول تعالى واصفا زلزلة المكان وحيرة الإنسان: " إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلَزَلَتْهَا ١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٥ " 3. وكما أمر الله تعالى، الكون بأن يأتي في بداية الخلق، فكذلك يأمر عناصره بأن تتلاشى حين تقوم الساعة " إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦ " 4. وتصور سورة القيامة المشهد النهائي للمكان، حيث السارد - وهو الله - هو المشرف على هذا المشهد الغيبي الذي لا يستطيع الناس فيه أن يمتلكوا استقرارهم، أو أمنهم " فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٢ " 5،

1 سورة الأنبياء : الآية 97 .

2 سورة فصلت : الآية 15 .

3 سورة الزلزلة : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 .

4 سورة التكويد : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 .

5 سورة القيامة : الآيات 7 ، 8 ، 9 ، 10 ، 11 ، 12 .

وجاء في سورة الانفطار " إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أُنْتَثَرَتْ ٢ وَإِذَا الْأَبْجَارُ فَجِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْآفُقُورُ بُعْثِرَتْ ٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ٥ "1. في هذه اللحظة الزمنية الغيبية ينتهي كل شيء، ليستقر الناس في دار الخلود. لقد انتهت قصة البشرية بمكانها وزمانها وشخصها وأحداثها. لقد جاء اليوم الموعد المسطر في علم غيب الله تعالى. لقد انتهت مدة - إلى حين - ولم تتقدم ولم تتأخر عن الوقت الذي أقره الله تعالى عنده في علم الغيب. لقد عرض علينا الوحي قصة حياة الإنسان، ومن الظاهرة الزمكانية إبتداء من هبوطه إلى الأرض، واستقراره إلى حين (إلى الوقت المعلوم). إن تغير المكان وتلاشيه في الزمن الغيبي، هو نهاية التمتع ونهاية الاستقرار، وماذا بعد هذا المصير؟ هذه النهاية التي ستبقى في علم الغيب، ولن يطلع عليها أحد حتى يحين وقتها في اللحظة الزمنية التي أرادها الله سبحانه وتعالى " يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسُورًا كَأَنَّكَ كَافٍ فِي عَمَلِكُمْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧ "2. ولا تأتي إلا فجأة، والناس يومئذ في غفلة عن أمرها. يقول تعالى " بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٤٠ "3 إن عنصر المفاجأة والمباغطة يجعل الناس يفقدون توازنهم الجسدي والنفسي، حيث أنهم في تلك اللحظة الحاسمة والخطيرة تنقطع بهم كل علاقة ربطوها بين الدنيا والمصير المجهول . يصبح في هذه النهاية الغيبية عنصر المكان، هو الفاعل بأمر من الله تعالى، أما الشخص (الناس) فقد خضعوا لممارسة فعل المكان عليهم، وعجزوا عن التحرر من قبضته والحيرة تعلو وجوههم. إن مفاجأة وضعية المكان التي تحولت في مدة لا نكاد نشعر بها زمانيا إلى هذا التلاشي المذهل لعناصر الكون، التي كانت مرتبطة بانتظام وإحكام، وبإشراف من الله خالق المكان والزمان " إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤١ "4. وعبر عنها القرآن الكريم بمدة زمانية مذهلة في قوله تعالى: " وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ

1 سورة الانفطار : الآيات 1، 2، 3، 4، 5 .

2 سورة الأعراف : الآية 187 .

3 سورة الأنبياء : الآية 40 .

4 سورة فاطر : الآية 41 .

أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٧٧¹. فكل هذه المشاهد العظيمة لا تغطي إلا مسافة زمانية، لا نكاد نحس بها، حيث تنكش إلى لحظة وجيزة تحسب بجزئيات الزمن الدقيقة، وكأن في هذه النهاية يقترن الزمان بمجاليه الغيبي والخارق ليرتبط بالمكان في صنع الحدث، ويصبح هذا الحدث رغم جسامته وخطورته، يمر أمام أعيننا في لحظة وجيزة لا زمانية، كما عرضها السرد القرآني .

إن القاص القرآني يظل مسائرا لهيأة المكان وحركته ضمن الزمان الغيبي، ويظل يرصد لنا سيرورة المكان وشخصه من البداية إلى النهاية، أي من بداية الخلق إلى نهايته، والفاعل المباشر هنا، هو الله الخالق الواحد الذي يشرف ويوجه هذه السيرورة المكانية والزمانية، كما سطرها في علمه الغيبي. لكن هذه ليست هي نهاية النهايات، والسؤال المطروح الذي يفرضه هذا الحدث هو : ماذا بعد ؟ . فالنص القرآني لن يتوقف عند هذا الحد بل سينتقل بنا إلى مرحلة (المابعد)، مرحلة ما بعد نهاية الوجود. تبدأ قصة ما بعد الموت، في مكان غيبي لا زمان فيه - البرزخ - ثم يبعث الله تعالى، جميع الناس من أولهم إلى آخرهم في المكان الغيبي، وهو مكان الآخرة " يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ^٢ وَبَرَزُوا^٣ لِلَّهِ الْوَاجِدِ^٤ الْفَهَّارِ ٤٨ "2، ليقوم الناس لرب العالمين، بعد أن يكونوا قد مكثوا بعد موتهم في البرزخ. " وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرَزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ^٥ "3. ويستمر النص القرآني مع المكان في عالم الغيب الذي يتحول إلى عالم يقين. فالوحي حين تناول المكان في قصص الأمم الماضية، أو قصة الإنسان بمختلف الأزمنة، فلكي يضع أمامنا هذا الفضاء المكاني الذي لم يكن فکان، ثم سينتهي لتنتهي معه قصة حياة البشرية، حين تستهلك مدة (إلى حين) لتبدأ قصة الخلود إلى الأبد، ويبقى النص القرآني يحمل هذا البعد الزمكاني الغيبي، بوصفه وأحداثه وشخصه وخطابه .

وعلى هذا الأساس يكون القاص القرآني قد ساير قصة الخلق والحياة، التي يعجز أي نص فني، أو مبدع بشري، أن يتناولها بفضائها المكاني، ومرحلتها أزممنتها

¹ سورة النحل : الآية 77 .

² سورة الأنبياء : الآية 48 .

³ سورة المؤمنون : الآية 100 .

المقابل و المابعد. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر "1. إن العقل المبدع للإنسان، حتى وإن لجأ إلى الخيال، كما فعل المعري في رسالة الغفران، فسيبقى هذا العمل الفني مجرد خيال، وحتى وإن أشاد النقاد بهذا العمل، وانكبوا على دراسته وتحليله، متجاوزين دراسة المصدر الأساسي الذي استمد منه المؤلف رسالته. وشأن النقاد في هذا الموقف، شأن الذي يقف أمام التمثال الجامد المنحوت باليد البشرية، مبرزا إعجابه، ومعدد آيات الجمال والإعجاب الفارغة من الحياة، دون أن يلتصق بآيات الجمال والإعجاز للأجساد البشرية الحية التي بها أرواح وحركة وحياة. إن القدرة العقلية تبقى عاجزة أمام هذا التحدي، لتتجلى القدرة الإلهية المطلقة، والعلم الإلهي الواسع بالمكان والزمان. وحين نتعاطى مع النص القرآني من خلال ربط العلاقة الزمانية بالمكان في القصص القرآني سواء في مجاله الخارق أو الغيبي، نتكشف لنا هذه الإعجازية التي لا مصدر لها إلا الله عز وجل، وهو الخالق العليم " الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۙ ۚ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۙ ۓ "2، إنه خلق سوي حكيم، وتقدير العليم الخبير الذي لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ينتقل النص القرآني إلى عالم الخلود، وهو مرحلة المابعد التي ليست في مقدور البشر أن يتناولوها، لا بالعقل ولا بالخيال. لكن النص القرآني استوعب هذه الظاهرة الغيبية ليضعها في إطارها العقائدي، وفق ما قصه علينا من حدثية ستتم في العالم الآخروي، حين يصبح ذلك الغيب يقيناً. إن المكان الذي سيفق فيه جميع الناس، وبمختلف عقائدهم وأفعالهم التي قاموا بها في دنياهم، هو مكان الخلود الغيبي الذي تتحقق فيه السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي - حسب الإيمان والعمل - . وعلى هذا يكون القصص القرآني من خلال تناوله للمكان بمجاله الغيبي ومرحلته المابعد، قد اجتاز كل أبعاد المكانية، لأي عملية سردية تنحصر ضمن حدود المكان والزمان الدنيويين، إلى ما بعد الدنيا التي يتوقف عندها أي سارد، معلنا نهاية نصه بنهاية موت شخصه، أو نهاية أحداث عمله. وتناولنا ارتباط المكان بالزمان في هذا الفصل هو محاولة الوصول إلى

1 الإمام البخاري : صحيح البخاري . ص 507 .
2 - سورة الأعلى : الآيات 2 ، 3 .

الظاهرة الزمانية، التي يمكن أن نلتمسها في القصص القرآني والتي لا تخضع إلى مقاييس النقد الأدبية، ولسبب بسيط هو أن القصص القرآني كما تناولناه من خلال بحث المكانية، نجده لا يتعرض للزمان الموضوعي أو التاريخي، فهذا كما ذكرنا سابقاً، أن الزمن الموضوعي والتاريخي هو من شأن السرد الفني والتاريخي .

قد " تحدث القرآن عن الطبيعة واستجلى دلالتها التوحيدية والاعتبارية ... كما تحدث إلى الطبيعة فشخصها واستنطقها، واستوثق عبوديتها له "1. وكل هذا ليصبح المكان عنصراً فاعلاً ومفعولاً به، يتجاوز طبيعته الجامدة، ويتحرك كتحرك الشخص. بل يصبح مقرر مصير الشخص، ولكن بإرادة من خالقه سبحانه وتعالى. ليتحول هذا المكان الذي كان مسرح الأحداث للشخص الذين تواجدوا عليه منذ خلقهم إلى نهاية البشرية، تحت رحمة وقوة وجبروت الله تعالى " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧ "2. إنها سيطرة تامة، وإشراف مطلق على الكون بأرضه وسماواته، ومجراته الضخمة الهائلة، وتنزيهه لله سبحانه وتعالى عن كل نقص، ألحق به، من أي خطاب سابق أو لاحق .

لقد " جاءت الحملة الصهيونية على نمط الحملة الصليبية وفي مواقعها الأولى دعت إلى استعادة قبر المسيح، والثانية إلى بناء هيكل سليمان - عليه السلام "3. وهذا ما جعل كل الحركات الفكرية والفلسفية تتجه نحو هدف واحد هو " تدمير الدين الإلهي الذي جاء به أنبياء الله تبارك وتعالى، والتشكيك فيه، وفتح الطريق أمام البشرية للعودة إلى الإباحية والوثنية "4. وعلى هذا الأساس تبين لنا أن استيعاب إشكالية الزمن وعلاقته بالمكان في القصص القرآني، لا يتم إلا من خلال الوقوف على تحديد المكان المقدس، الذي يجمع المؤمنين الموحدين. ولم يكن قول كرومر* عبثاً حين قال: " جئت إلى مصر لأمحو ثلاثاً : القرآن والكعبة والأزهر "5، وقول رئيس وزراء بريطانيا

1 - د. سليمان عشارتي : المرجع السابق ، ص 149 .

* كرومر إفلين 1841 ، 1917 عينه الاحتلال البريطاني حاكماً على مصر وهو واحد من الذين وضعوا مخطط السياسة الاستعمارية .

2 سورة الزمر : الآية 67 .

3 أنور الجندي : سقوط الإيديولوجيات ، رابطة العالم الإسلامي ، السنة الثانية عشر ، العدد 139 ، 1414 هـ . ص 106 .

4 المرجع نفسه . ص 26 .

5 محمد حامد الناصر : العصرانيون ، مكتبة الكوثر الرياض ، الطبعة الثانية 2001 . ص 29 .

غلاستون في مجلس العموم " ما دام هذا الكتاب باقيا في الأرض فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين "1. وهكذا فالقضية ليست حرية فكر وإبداع ونقد، بقدر ما هي حملة منظمة لمحاربة وحي الله تعالى، ودينه الحق " وبعد أن يقرأ القارئ الغربي عن آدم - عليه السلام - والذي تختلف قصته في القرآن في تفاصيل رئيسة، عما يوازيها في الكتاب المقدس، يتساءل في نفسه : أين يضع الإسلام نفسه بالضبط من التراث اليهودي المسيحي ؟ ولكن القرآن يضع هذا في المنظور أولا : في قصة بني إسرائيل، وثانيا في مناقشة مواقف وعقائد أهل الكتاب. ثم يتبع ذلك قصة بناء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - للكعبة، والتي تربط الإسلام بالأب الأكبر، لكل من هذه الديانات الثلاث "2. هذا بعدما حاول أحبار اليهود فاشلين تعمية المكان المقدس - بيت الله - الذي يمكن له أن يكون البوصلة الوحيدة لتحديد الدين الحق، والوحي الإلهي، ويحل إشكالية الزمن الغيبي

وختاما نجد أن القرآن الكريم قد قدم مسميات، كيوم القيامة ويوم التغابن، ويوم الدين ويوم التلاقي واليوم الآخر، وكلها كتل زمانية لا ندري عنها شيئا، إلا ما صرح به الوحي. فلماذا سمي بيوم الحساب ؟ " لنعلم أنه ليس له غد، وأن الحساب لن يتم جزء منه، ويؤجل الباقي إلى الغد. بل سيظل الحساب مستمرا، ومشاهد يوم القيامة تتم دون أن تكون هناك فترة للراحة، أو دون أن يكون هناك تأجيل، حتى يُقضى بين الناس، كل الناس منذ عهد آدم إلى الذين سيشهدون قيام الساعة "3. يقول تعالى : " فَكَيْفَ نُنْفِقُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ١٧ "4 صورة تملك بعدا زمانيا بكتلة رهيبية، حيث يغير من واقع الإنسان، فيصبح الولد حديث السن شيخا، فلا نكاد نحس بسرعة الحركة في التغيير، إلا إذا مررنا شريط العمر بحركة بطيئة. لكن المسألة أن كل هذا سيتم في زمكانية غيبية، لكنها ستحدث يقينا .

وارتباط المكان بالزمن الغيبي والخارق، يساهم في عملية استيعاب القصص القرآني الذي يتمحور حول حقيقة الألوهية والبعث، وبالمستويات الثلاثة تُفك إشكالية

1 أنور الجندي : المرجع السابق . ص 60 ، 61 .

2 جيفري لانغ : حتى الملائكة تسأل . ص 207 .

3 عبد الغني عبد الرحمن محمد : المرجع السابق . ص 7 .

4 سورة المزمل : الآية 17 .

الزمن والمكان. وأن كل ما دار حول إشكالية الزمن بغيبه وخرافته، يجسد هدفا عقديا واحدا، يتجه صوب حقيقة الألوهية والمكان المقدس - بيت الله الحرام - الذي أصبح قبلة كل المسلمين في العالم. كما أصبح مكانا مركزيا وكونيا، يلتقي فيه المسلمون من كل بقاع الأرض، ليشهدوا بأن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. أما بالنسبة لنسبية الزمن، فالقصص القرآني قد ساير ظاهرة الزمن، والتي هي من اختصاص الله وحده - سبحانه وتعالى - . ومن المكان وارتباطه بالزمن، إلى أحداث القصص القرآني وارتباطها بالزمن. وهذا ما سنتناوله في الفصل الثاني - إن شاء الله - .

الفصل الثاني

زمانية الأحداث في القصص القرآني

تمهيد

أ - سيرورة وحتمية أحداث القصص القرآني

ب - ارتباط الأحداث بالزمن الغيبي في القصص القرآني

ج - ارتباط الأحداث بالزمن الخارق في القصص القرآني

تمهيد

إن الأحداث التي تناولها القصص القرآني لم تكن تتجه في الأساس، إلى السرد التاريخي أو الفني، وذلك طبقاً لخط القرآن الكريم الحكيم، كما أن هذا الشأن هو من اختصاص التاريخ والأدب. أما منهج الوحي في السرد، هو معالجة العقيدة لإثبات وحدانية الله، ويوم البعث " القصص القرآني هو الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته، والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثم فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاقتراب من أنوار الأنبياء والصديقين "1. وعلى هذين المحورين الأساسيين الألوهية والبعث، بُنيت القصة القرآنية، حيث ابتعدت عن العرَض التاريخي أو الفني. إن " القرآن الكريم لم يعتمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساسي في ترتيب هذه القصص، كما عمدت التوراة. إن كل ذلك إنما يدل على الفارق الكبير بين قصص القرآن الكريم وبين قصص التوراة، وهو إنما قصدت إلى التاريخ، أما هو فلم يقصد إلا إلى العظة والعبرة، وإلى البشارة والإنذار، وإلى الهداية والإرشاد، وعلى مبادئ الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وإلى تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم "2. لكن هناك أموراً أخرى مقصودة ذكرها القرآن الكريم، لا يمكن أن نتجاوزها، كبيان اختلافات أهل الكتاب الكثيرة، وتصحيح أخطائهم، وعرض تناقضاتهم، وخاصة فيما زعموه عن الله تعالى، وأنبيائه المصطفين. يقول تعالى: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ "3. كما لا ينبغي أن نعمم الحكم على أن القرآن الكريم لم يعتمد إلى الزمن، بل قد أثار مسألة الزمن في قصصه كظاهرة إجازية، يمكن أن يتناولها الدارسون بالبحث والدراسة، شرط الالتزام بحدود النص .

على الرغم من ارتباط الأحداث بالزمن، شأنها في ذلك شأن المكان، وإن الحديثية في القصة لا بد لها من زمان يواكبها ليرسم حركيتها داخل الفضاء السردي. لكن الأمر الذي يثير انتباه المتتبع للقصص القرآني، هو عدم تعرضه لزمانية الأحداث، بالشكل الذي نلمسه في الفضاءات السردية الفنية، أو حتى في قصص أسفار العهد القديم. قد يسكت الوحي عن تفصيل زمن أحداث قصصه، بل يتخذ في غالب الأحيان طريق التكثيف والاقتصاد والتراكم حين تتتابع

¹ نخبة من المفسرين : التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، الجزء الرابع، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى 2010 . ص 428 .

² محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم . ص 254 .

³ سورة النمل : الآية 76 .

الأحداث، أو تتباعد، وحتى وإن كانت المسافة الزمانية بين هذه الأحداث تعد بالقرون لا بالسنين كقصص الأمم الماضية، وهو بهذه الطريقة لا يقصد من قصص الأنبياء مع أقوامهم مراحل تاريخية بدأت ثم انتهت، وإنما يريد بذلك دعوة للحق والإيمان بالله، وكيف تعمل سنن الله لرسم مصير أهل الكفر، وهذا الجانب هو الأخطر والأهم من ذكر الزمن أو تفصيله بالشكل الذي نعتز عليه في السرد الفني والتاريخي. " ويدور الإسلام حول هذه الفكرة المحورية فكرة التوحيد، ويؤكد القرآن هذا المعنى في كل حرف وكل كلمة وكل آية، ويكرره بمختلف الصور والقصص والأمثلة والحكم والعبر"¹. فمحور التوحيد هو المحور المركز الذي دار حوله القصص القرآني، وارتسمت عليه أحداثه، وذلك ليؤسس للإيمان بالبعث. لأن الإيمان بالله الواحد مؤداه إلى الإيمان بطلاقة قدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإيمان بالحياة والخلود بعد الموت .

إن الأحداث الدنيوية هي ليست كل القصة في حقيقتها، وإنما هناك فصولاً أخرى لا تنتهي بالموت والفناء " إن دنيانا هي فترة موضوعة بين قوسين، بالنسبة لما بعد، ولما قبل وهي ليست كل الحقيقة، ولا كل القصة، وإنما هي فصل صغير من رواية سوف تتعدد فصولها"². فأحداث القصص القرآني بزمانيته لا يبقى محصوراً في عالمنا الدنيوي شأنه في ذلك شأن القصص الفني، بل يشمل أحداث العالم الغيبي والذي هو ظن وخرافة عند كل كافر وملحد، وأنه حق ويقين لدى كل مؤمن. أما تناولنا لزمانية الأحداث في القصص القرآني، فلكي نقف على إعجازية التوظيف الزمني للأحداث حين ارتباطها بالزمن الخارق والغيبي. أما الزمن الموضوعي والتاريخي، فلم يتعرض لهما القرآن الكريم، إلا وفق ما يخدم به قضية العقيدة، أو استخلاص العبر والحكم. ورؤيتنا لعدم تعرض القرآن الكريم للزمن الموضوعي، هو أن صياغة السرد بزمنه الموضوعي أو التاريخي، لا يخرج عن إطار العمل البشري ومحدوديته، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن " القص فعل إنساني تعبيرى يسمح حدثاً واقعياً أو متخيلاً يجسم من خلاله وبواسطة القول (الملفوظ أو المكتوب) لواقعة من وقائع الحياة"³. وهذا التعريف لا ينطبق تماماً على القصص القرآني. كما بمقدور أي كان من المبدعين التأليف في أنواع السرد

¹ د. مصطفى محمود : رحلتي من الشك إلى الإيمان، دار المجدد للنشر، الجزائر 2016 . ص 104 .

² المرجع نفسه . ص 50 .

³ د . سليمان عشراي : الخطاب القرآني . ص 65 .

الفني بالزمن الموضوعي، إلا أنه لا يستطيع أن يلج إلى عالم الغيب، أو الخارق ، بحكم طبيعته البشرية المحدودة .

فلا غرو إذا ما وجدنا أن الوحي، قد تجاوز الإطار الطبيعي لزمانية الأحداث، معلنا التحدي في إطار الظاهرة الإعجازية. والأمر الملفت للانتباه، هو أن حقيقة الإشكال، تبدأ من خطية الأحداث للقص القرآني، إذ أنها ترسم حتمية المصير الذي سطر سابقا، في علم الله تعالى. وقد حاول الباحثون إثارة هذا الإشكال، حين تناولوا مصير الإنسان بجانب قضية الجبر والاختيار، والقضاء والقدر. " وهو أمر قد سبق إليه علم الله، علم الحصر، لا علم الإلزام، فالله لا يلزم أحدا بخطيئة، ولا يقهره على شر، وإنما كل واحد يتصرف على وفاق طبيعته الداخلية فعله هو ذاته، وليس في ذلك أي معنى من معاني الجبر"¹. لكن الحقيقة أن الباحثين ناقشوا أمرا يفوق طاقتهم العقلية المحدودة، وهو علم الله الواسع. يقول ابن القيم الجوزية: " إن الله سبحانه وتعالى فطر عباده حتى الحيوان البهيم على استحسان وضع الشيء في موضعه والإتيان به في وقته وحصوله على الوجه المطلوب منه ... وهذه فطرة لا يمكنهم الخروج عن موجبها، ومعلوم أن الذي فطرهم على ذلك وجعله فيهم أولى به منهم، فهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها التي لا يليق بها سواه "². ومهما حاولنا فعلم الله المطلق، لا يمكن أن يحيط به إدراكنا المحدود، ولا يمكن لنا أن نصل إلى كل ما أراه الله جل جلاله من كل ما خلق مما نعلم ومما لا نعلم .

لذا نرى أن بحث مسألة الغيب، يجب أن تركز على الحقيقة القرآنية الثابتة دون سواها، وهي بأن الله خلق الإنسان، وهداه النجدين، وأن الله حكيم في خلقه، عادل في حكمه . يقول تعالى: " وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٦٢ " ³. فالله الخالق لا ينبغي له أن يكون ظالما - سبحانه وتعالى عما يصفون - وهو أحكم الحاكمين " تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ١٠٨ " ⁴. ولذلك قال في محكم تنزيله حين يحكم على الظالمين: " ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢ " ⁵، ويقول أيضا لكل ظالم يوم القيامة: " ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ

¹ د. مصطفى محمود : المرجع السابق . ص 38 .

² - ابن القيم الجوزية : الصواعق المرسله ، الجزء الرابع ، دار العاصمة ، الرياض ، (ب ت) . ص 1565 ، 1566 .

³ سورة المؤمنون : الآية 62 .

⁴ سورة آل عمران : الآية 108 .

⁵ سورة آل عمران : الآية 182 .

يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ١٠ ١". فكل نفس تتحمل ما قدمت وما اكتسبت، وكل خروج عن الحقيقة القرآنية الثابتة، هو خروج عن إدراك حقيقة الذات الإلهية المنزهة عن كل نقص وظلم - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وهو أيضا خروج عن إدراك سنن الله الكونية، والبعد عن هذه الحقائق، لن يحل هذا الإشكال بقدر ما يبعدها عن الحق " فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ٣٢ ٢". وبهذا نكون قد التزمنا بخط الإيمان، ووقفنا عند حدود طبيعتنا البشرية أمام عظمة الخالق، الذي نعجز عن إدراك كنه ذاته العليا.

فأحداث القصاص القرآني تكشف عن طبيعتها حين تُعرض على سنن الله التي أودعها هذا الكون، لتتجلى قدرة الخالق، وإرادته العليا فوق خلقه، ولا أحد يستطيع تغيير هذه السنن على الإطلاق " سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣ ٣". وليس " فيما يوصم به الإسلام ما يزيد خطرا على ما رددنا عليه. وليس في أي القرآن ... من الجبر ما ليس في كتب الأديان الأخرى، كالتوراة مثلا. وهناك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون بأن مجرى الحوادث تابع لسنة لا تتبدل "٤. ونحن في هذا الفصل سنحاول عرض الأحداث بسيرورتها وزمانيتها، لنقف على الظاهرة الإعجازية، وهذا هو هدفنا الذي نريد أن نؤسس عليه بحثنا، لنتمكن في الفصل الرابع - إن شاء الله - من عرض زمانية القصة القرآنية، والتي دفعت ببعض الدارسين العرب، والمستشرقين إلى الاعتقاد بأن القرآن الكريم قد أهمل تفصيل زمان أحداث قصصه، دون أن يقفوا على حقيقة منهجيته السردية والقصصية. وعليه رأينا بأن نتناول في هذا الفصل سيرورة الأحداث، التي ترسم خطا من بداية القصة إلى نهايتها، متجاوزة الزمن. وهذا ما نراه أكثر أهمية من ذكر زمن الأحداث، الذي يتشابه مع المسرود الفني أو التاريخي. إن الحكمة من كل هذا تتوقف على قدرة الله المطلقة، وعلمه الواسع، أمام ضعف الإنسان وجهله ومحدوديته، إلا بما فتح الله له من علم ومعرفة، وبما قدر له من إمكانات، وبما أودع فيه من خصائص للطبيعة البشرية، جعلته مميذا على بقية الكائنات الأخرى بالعقل وحرية الاختيار والمسؤولية .

1 سورة الحج : الآية 10 .

2 سورة يونس : الآية 32 .

3 سورة الفتح : الآية 23 .

4 غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة 2013 . ص 135 .

إن استراتيجية القصة القرآنية ما جاءت في عرض أحداثها إلا لتجسيد عقيدة التوحيد وطلاقة القدرة الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون " إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٨٢ "1. فكما أن نظام الكون بتناسقه الدقيق، يدل على وجود منظم واحد مبدع ومشرف على كل حركة " وهو المبدع الذي عزف الإبداع هذه المعزوفة الكونية الرائعة، وهو العادل الذي أحكم قوانينها وأقامها على نواميس دقيقة لا تخطئ "2. وكذلك أحداث القصص القرآني تخضع لمشرف واحد، يسيرها ويوجهها بمكانها وزمانها وشخصها، لا يفلت أي أمر من دائرة علمه ومشيتته. لذا فكتاب الكون المنظور وكتاب الوحي المسطور يؤكدان وحدانية الله تعالى، ويدلان على عظمة هذا الخالق - الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى - فلا غرو إذا كانت أحداث القصص القرآني قد سُرد أغلبها دون تفصيل لزمان أحداثها، فلا يمكن لأي عاقل أن يتصور أن الله جل جلاله الذي أنشأ للإنسان أدوات الزمن، ليعرف الاختلاف ويقيس وحدات الزمن اليومية والشهرية والسنوية، يغيب الزمن في أحداث قصص وحيه الخالد. ولهذا يقول تعالى : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ "3. فكيف يتسنى لخالق الزمن ومفصله وضابطه في الكون، أن يهمله في أحداث قصص وحيه ؟.

والإشكال الذي نراه في حقيقة الأمر هو إشكال عقدي، فالإيمان بالله الخالق يحدد موقفنا من ظاهرة الزمن، كما أن إيماننا بالألوهية الحقّة، وصفات الله العليا، وتنزيهه عن كل نقص، هو الذي يوجهنا الوجهة السليمة، لفهم الحياة والوجود، وحقيقتنا كخلق خلقنا الله الخالق القادر " الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ "4. فخلقنا مسبق بخلقنا، ووجودنا مسبق بوجود الله سبحانه وتعالى. ولهذا فالبعيد عن الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد لن يصل إلى استيعاب حقيقة نفسه، وحقيقة الوجود، الذي يبقى لغزا يحيره مدى الحياة. يقول مصطفى محمود : "فها نحن أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق في الزمن، ينصرم مع الزمن ويكبر ويشيخ معه ويهرم معه (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن الزمن يلاحظه من عتبة السكون ويدركه دون

1 سورة يس : الآية 82 .

2 د. مصطفى محمود : المرجع السابق . ص 18 .

3 سورة يونس : الآية 5 . .

4 سورة الرحمن : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

أن يتورط فيه ... ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية، ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذي أطلقته الأديان وهو الروح¹. فإدراك الإنسان لحقيقته الإنسانية المتميزة عن المخلوقات الأخرى والموجودة معه كالجماذ والحيوان والنبات، يجعله يدرك حقيقة الخالق الأزلي، وأن يستوعب وحيه الذي أنزله ليذكر حقيقة قصة الوجود والخلق والإنسان، لا كأحداث تاريخية وزمانية بدأت ثم انتهت ، وإنما يوقن بالهدف السامي من الحياة، وإن لم يكن له كذلك، أصبح يحيا في حيرة تقذف به إلى بحر يأس لا شيطان نجاة وأمان له.

وقد اعترف تولستوي بهذه الحيرة والشقاء قائلا: " غير أن الشقاء كُتب لي في ذلك الوقت، فعاودتني حيرتي في الوجود، فبت أنشد راحتني، ولا أجد أمام عيني سوى شبح قائم يردد علي بصوته الرابع قائلا: لماذا تعيش؟ وما هي الغاية من الحياة؟"². فزمانية أحداث القصة القرآني وفي سردها بالنهج القرآني ليست سلسلة تراتبية بالمعنى الزمني والتاريخي الحرفي، رغم ما أكده الخطاب القرآني في الاستخلاف والتتابع " ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلْفًا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۚ ١٤"³. إلا أن أحداث القصة القرآني هي حادثة واحدة تتكرر فصولها عبر وحدات الزمن ومراحل التاريخ، فهي حادثة واحدة في قصص متكررة للأفراد والأمم. لكن العامل الأهم والأساسي في حياة الأفراد والأمم، هو نوع العمل الذي ركزت عليه نهاية الآية - كَيْفَ تَعْمَلُونَ - ولهذا فسيكون عنصر الزمن لأحداث القصص تاليا العمل، باعتبار العمل مقياس حقيقة الإنسان، ومحدد مصيره في عالم الآخرة. كما لا يُقبل العمل إلا بالإيمان بالله الواحد، هذه الخاصية في حياة الإنسان هي التي تجعله يختلف على بقية المخلوقات من حيوان ونبات وجماد، ويكون هذا الاختلاف في ميزة حرية واختيار العقيدة وتحمل المسؤولية في تقرير المصير. " وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"⁴. وليس في هذا الخطاب ما يدعو إلى أي ذرة من الشك في قهر الإنسان وجبره .

1 . مصطفى محمود : المرجع السابق . ص 31 .

2 شمندریت أنطوس : اعترافات تولستوي ، تعريب الشيخ يوسف البستاني ، مطبعة العرب للبستاني ، 1930 بيروت . ص 23 .

3 سورة يونس : الآية 14 .

4 سورة الكهف : الآية 29 .

لهذا رأينا بأن نبدأ هذا الفصل بمعالجة سيرورة وحتمية أحداث القصص القرآني، وستعترض سبيلنا مسألة الجبر والاختيار، والتي سنعالجها وفق النص القرآني، وسنكون ملتزمين بمنطوقه وحدوده، بحكم إيماننا الثابت من أنه كلام الله تعالى " تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦ " 1. كما سنحاول أن نبين حقيقة هذه الإشكالية، من خلال ما جاء به وحي الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولنبين كيف تسير الأحداث في علم الله جل جلاله. هذا العلم الذي وسع كل شيء، والمخلوق الزمني المحدود لن يفدر أن يصل إلى معرفة هذا العلم المطلق، ولا أن يحيط بالذات العليا، بل عليه أن يلتزم حده المرسوم له سلفاً، وأن يعمل ويبحث في المجال المحدود له بحريته واختياره. أما الأمور التي لا نملك فيها اختياراً ولا إرادة حرة، فنحن معفون من المسؤولية عنها. ومنهج عرض القرآن الكريم لقصصه يفصح لنا عن الحكمة من ذلك، للدلالة على طلاقة مشيئة وعلم الله تعالى، وهذا ما حاولنا أن نبينه من خلال مبحث سيرورة وحتمية الأحداث في القصص القرآني .

ترتكز الأحداث في القصص القرآني على الواقعية والحقائق التي وقعت في الزمن الماضي والحاضر، والتي ستقع حتماً في المستقبل وبشكل يقيني، لا مجال فيه لشك أو خيال، وهذا ما أكده الوحي في بداية سورة البقرة " ذَلِكَ لَكُنْتُ لَا رَبِّبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ " 2. كما تم التأكيد على حقيقة القصص القرآني بأنه حق، حيث يقول تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " 3. ويقول أيضاً: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١ " 4. ويقول أيضاً " إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٢ " 5. وهذا كله للرد على المشركين والكفار والمكذابين، الذين اعتقدوا في السابق - ولا زالوا يعتقدون - أن الوحي هو مجرد خرافات وأساطير الأولين، ظنا منهم أن الوحي هو صناعة بشرية، و أحداث ووقائع من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم . وهي تهمة ظلت تتكرر على ألسنة المشركين والملحدين منذ زمن إقرأ،

1 - سورة الجاثية : الآية 6 .

2 - سورة البقرة : الآية 2 .

3 - سورة الكهف : الآية 13 .

4 - سورة يوسف : الآية 111 .

5 - سورة آل عمران : الآية 62 .

ولا زالت كذلك، في حين أن القرآن الكلام قد حسم الإجابة منذ البداية، ليقطع أي شك يساور القارئ، كما حدد موقفه من كل متلق عبر الامتداد الزمني .

القرآن الكريم هو كلام الله الحق " الحق هو لب إعجاز القرآن ومادته، لا تقرأ في القرآن إلا حقا، ولا تجد فيه إلا الحق، أخبر عنه، أو أنبأ به، ما كان وما يكون، إنه الصادق المصدق في كل حال. والحق المطلق يقتضي العلم المحيط، علم المبتدأ والمنتهى، علم من لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، علم من هو بكل خلق عليم، وليس إلا الحق جل جلاله بكل شيء عليم "1. والمتتبع لحركة القرآن والإسلام، يجد أن عملية التهم الموجهة للوحي لا تكاد تتوقف، حتى تعاود الظهور من جديد، مخفية روح الحقد والتعصب الأعمى من جهة، ومدعية روح البحث والعلم من جهة أخرى. وهذا كله " لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي، ولكن الهوى السياسي والديني كشف عن نفسه أحيانا بكل أسف في تأليف هؤلاء المتخصصين الأروبيين في الدراسات الإسلامية "2. كما نجد من يدافع عن تأليفات هؤلاء الناكرين حقيقة الوحي، والتابعين للمستشرقين المتعصبين ، ممجدا أعمالهم، ومادحا شخصهم .

يقول أحدهم : " إن ما يؤسف، أن العاصفة التي واكبتها والزوابع التي قابلت كتابي طه حسين، وعلي عبد الرزاق، أرعبت من جاء بعد ذلك من الباحثين. وبذلك افتقدت جامعاتنا حرية البحث العلمي، العمود الفقري لأي جامعة، كما خسرت مصر باحثا واعدا كان ينتظر منه الكثير من العطاء العميق "3. وفي الحقيقة ما هي إلا عملية اجترارية مستمرة، لا زال يلوكها الملحدون منذ بداية التنزيل، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لقد تكفل الوحي الخالد بالرد على تلك الادعاءات والأباطيل، وبالحجة الدامغة التي لا تقبل مجالا للشك. بل طالبهم بتقديم البرهان، في قوله تعالى : " قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "4. ولربما نجد القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد، الذي يطالب خصومه بتقديم البرهان، كما يتحدى الجميع، وعلى مر الأزمنة والعصور، إن وجدوا فيه أي اختلاف أو تناقض .

1 - رؤوف أبو سعادة : العلم الأعجمي مفسرا بالقرآن ، الجزء الأول ، دار الهلال . ص 36

2 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص 56 .

3 خليل عبد الرحمن : تحليل الفن القصصي في القرآن الكريم، الجزء الثاني ، سينا للنشر ، الطبعة الأولى بيروت 1999 . ص 381 .

4 سورة البقرة : الآية 111 .

يقول موريس بوكاي* : " صحة القرآن لا تقبل الجدل، تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة، لا العهد القديم ولا العهد الجديد" ¹ ويقول أحدهم* " فيا محمد إنني متأثر جدا من أنني لم أكن معاصرا لك، إن الكتاب الذي أتيت به ليس من قريحتك، وإنكار ألوهية مُنْزِلِهِ هراء، إنني أعظمك بكل احترام راکعا في حضورك المعنوي" ². إن هذا القرآن بكل ما يحتويه، ليس نتاج عقل بشري، إن " كتابات المفكرين الغربيين الأعلام الذين درسوا الإسلام في الغرب، وآمنوا به تكشف تماما عن حاجة البشرية إلى نور جديد، وليس غير القرآن. إلى منهج جديد، وليس غير الإسلام منهج الله، المنهج الباقي الخالد الذي يستطيع أن يعطيها على مدد العصور وفي مختلف البيئات" ³. إن هذه الشهادات لا تزيد القرآن الكريم شيئا، لأن البرهان القاطع والحجة الدامغة لا بد أن تكون من القرآن الكريم من داخل نصه وأسلوبه وحقائقه وعلمه وقصصه .

إن القصص القرآني بأحداثه ووقائعه، ليس مجرد أخبار سُردت ثم انتهى بها الزمان حيث انتهى، ليحكم على موت النص، أو موت مؤلفه، كما يقول به النقد في مجال الأدب " والقرآن الكريم عندما يقص ينفخ الحياة في القرون الماضية ... إن شريط الأحداث يتحرك ليعيد علينا مراحل مضت من تاريخ الدنيا" ⁴. فهو يبعث الحياة في كل عناصر القص الماضية والميتة ليثبت فيها الحركة والحياة، وينفخ فيها الروح ليجعلها فاعلة، دون اللجوء إلى الخيال أو الأسطورة، رابطا النتائج بالأسباب، والواقع بالماضي ليجلي سنن الله الثابتة والخالدة، ويؤكد صدق الوحي ومصدره. ولهذا نجد بداية بعض القصص القرآني في الأحداث الخطيرة تبدأ بقوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ۱ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ۚ ۲ " 5 ، وكذلك قوله تعالى مخبرا عن عاد : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ ۶ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۗ ۷ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۗ ۸ " 6 . وكان

¹ موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم ، ترجمة مجموعة من الأساتذة ، دار الفتح ، القاهرة 1997 . ص 131 .

* الدكتور موريس بوكاي ترأس لجنة علمية لإجراء عملية ترميم لمومياء فرعون ، وقد قارن بين ما توصل إليه البحث في المخبر على الحثة ، وما وجده في القرآن الكريم في قصة غرق فرعون . مما أدى به إلى إجراء مقارنة علمية بين نصوص الكتاب المقدس والقرآن الكريم والعلم ، حيث تيقن بأن النص القرآني دقيق في تقديم المعلومة والخبر ، نتيجة ما قدمه النص القرآني من حقائق علمية مذهلة ، يستحيل أن يكون مصدرها محمد صلى الله عليه وسلم بل هي وحي من عند الله تعالى .

² - احمد عزت شيخ البساتنة : علماء الغرب ما الذي وجدوه في القرآن ، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق 2004 ، ص 95 .

* صاحب المقالة هو ببسمارك الذي تأثر بالقرآن الكريم ، وأعلن اعترافه بأنه كتاب سماوي ، وأن الادعاء عكس ذلك فما هو إلا كذب وكلام عار عن الصحة وبعيد عن الحق

³ أنور الجندي : سقوط الإيديولوجيات . ص 14 .

⁴ الشيخ محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الهدى للطباعة والنشر ، الجزائر ، (ب ت) . ص 108 .

⁵ - سورة الفيل : الأيتان 1 ، 2 .

⁶ سورة الفجر : الآيات 6 ، 7 ، 8 .

القصة تقع أحداثها أمام أعيننا وسمعنا " فإن رؤية هذه المساكن وهي خاوية على عروشها تذكر بمن كانوا فيها، وتذكر بالله الذي أبادهم رغم ما كانت لهم من قوة وصولاً¹. إن عملية تحليل قصص الأمم الماضية، يوصلنا إلى معرفة أسباب فنائها وهلاكها، وكيف تعمل سنن الله في الخلق والكون، كما أنها تجلي لنا الظاهرة الإعجازية للوحي، مع طلاقة القدرة الإلهية .

أما الافتراءات المستمرة ضد الوحي، فهي لا تنقص من حقيقة النص القرآني، ولا من قصصه شيئاً، لأن الرد على تلك التخرصات لا تبطلها إلا حقائق القرآن الخالدة والتي لازالت تشهد وتفحم كل مشكك ومكذب وملحد، والقول الفصل سيكون من النص القرآني ومن أحداث قصصه الحق. فنترك الرد عليها يتضح من خلال ما سنعرضه في هذا الفصل من زمانية الأحداث. ونستهل هذا الفصل بمبحث سيرورة وحتمية أحداث القصص القرآني، لنستبين منهج القرآن الكريم في عرض استراتيجية السرد، ومحاولة استيعاب القصص القرآني، وكيفية توظيف الزمن ضمن إطار الأحداث، مجليا طلاقة القدرة الإلهية التي تقف عندها الطبيعة البشرية المحدودة محتارة تارة ومؤمنة تارة أخرى، بل منكراً أحيانا نتيجة عناد وكفر سببه الاستكبار والغرور والجهل .

أ - سيرورة وحتمية أحداث القصص القرآني :

إن ارتباط الأحداث بالزمان في القصص القرآني - وكما هو واضح - هو عدم تعرض الوحي لتفصيل زمن الأحداث الطبيعي، أو التاريخي إلا في الحد الأدنى. ودراستنا لزمانية الأحداث تقتضي منا فهم هذه السنن والقوانين، التي أودعها الله تعالى لتنظم حياة البشر، وتحدد مختلف المصائر. وكما أن الطبيب يلجأ إلى تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة، فكذلك دراسة القصص القرآني تشرح لنا طبائع الأمم، ليتكشف لنا سبب فنائها وهلاكها. وهذا ما جعل عنصر الزمن بالنسبة للأحداث يأتي بعد الموقف والمصير، خدمة للحكمة المرادة، لتتجلى الظاهرة الإعجازية. بل يصبح هذا الزمان متوقفاً رغم تغير القوم وتغير الأمكنة والأزمنة، حيث تنضغط الأحداث في بوتقة واحدة، وفي مشاهد متتابعة ومتراكمة لتنتهي بمصير متشابه. فالعبرة بالمصير الواحد المتكرر، وفقاً لتشابه الأحداث والمواقف من مسألة العقيدة، حين

¹ التهامي نقرة سيكولوجية القصة في القرآن . ص 466 .

يكفر القوم بالله تعالى، ويظلمون أنفسهم. يقول تعالى مبينا سبب هلاك الأمم السابقة: " وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١٣ "1. مما يخضع الأحداث إلى عامل سنة الله، التي لا تبديل لها ولا تغيير: " أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكَّرَ السِّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السِّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ تَحْوِيلًا "2. وهذه السنن هي بمثابة القانون الذي ترسم على معالمه خطية القصص القرآني

لهذا نعتقد بأن الإشكال في القصص القرآني، يبدأ من عنصر الأحداث التي سُطرت في علم الغيب، وفي تثبيت المصير وتسطيره، وهذه مسألة لا ينبغي الوقوف عندها دون حديث أو تحليل من طرف المؤمنين أو اتهام من طرف المكذابين. فقصص الأمم الماضية التي وردت مثلا في سورة الأعراف، لم تكن لتعرض علينا تاريخ الأقسام، وزمن أحداثها، بقدر ما كانت تتغلغل إلى طبيعتهم المتجبرة والجاحدة للألوهية الحقّة وليوم البعث، والناكرة لأنعم الله تعالى، التي أسبغها عليهم، فكان مصير القوم الهلاك والخسران، كنتيجة حتمية لكفرهم وجحودهم، وهذه هي سنة الله في خلقه. هذه هي المقدمة القانونية الثابتة والعادلة التي جاءت في بداية سورة الأعراف " وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤ "3. ولهذه الحكمة لم يكن القرآن الكريم ليلتفت إلى تفاصيل الزمان التاريخي والموضوعي، بقدر ما اهتم بدورات تاريخ الأمم، وموقفها من عقيدة التوحيد، الذي يتوقف عليه المصير المحتوم للقوم الجاحدين. فزمن هلاك القوم يبقى مجهولا (بيئات، قائلون) وهذه سنة الله ماضية في الخلق، مهما اختلفت الأزمنة، وتباعدت الأجيال. فالوحي ليس استعراض الأحداث التاريخية المنتهية، بل استعراض القدرة الإلهية المطلقة عبر التاريخ، في ميدان العلم، كما في ميدان التشريع، كما في ميدان القصص، كما في ميدان الخلق، لتتجلى عظمة الخالق وحكمته البالغة، حين يجري سننه العادلة والأزلية على خلقه، فتفسير الأحداث وفق ما سُطر لها، دون أن تحيد على مسارها الحتمي .

إن هذه الحتمية التي تطابق سنن الله الثابتة، هي التي توجه الوقائع والشخص إلى المصير الذي تريده الإرادة الإلهية، متجاوزة الزمن بكل مراحلها " وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا

1 - سورة يونس : الآية 13 .

2 سورة فاطر : الآية 43 .

3 - سورة الأعراف : الآية 3 .

قَبْلَ يَوْمِ آلِ قِيَمَةٍ أَوْ مَعْدِبُوهَا غَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨ "1. ولهذا كانت نظرتنا إلى أن بداية الإشكال تبدأ من حدثية القصة، إذ كيف يتسنى للبشر أن يكونوا أحراراً، وهم مجبرون على لقاء مصير مسطر لهم مستقبلاً؟ ولربما امتد البحث في فلسفة موضوع الجبر والاختيار واحتدم الجدل في مسألة القضاء والقدر، وقد لاحظ محمد أركون أن "كلمتي ضرورة ولزوم، تتكرران لدى فلاسفة العرب المسلمين بشكل كثيف ومتوازن"2، ويصل أركون إلى طرح السؤال التالي: "هل نؤمن بالاحتمية التي لا يمكن تجاوزها، بمعنى أننا خلقنا هكذا مرة واحدة وإلى الأبد، أم نؤمن باللدانة والمرونة التي تفتح الباب على كل المصائر والاحتمالات؟"3. والكاتب بحث فيما قاله الفلاسفة العرب، ولم يبحث فيما جاء به النص القرآني. لكن غوستاف لوبون يقول: "الجبرية الشرقية التي قامت عليها فلسفة العرب، ويستند إليها كثير من مفكري العصر الحاضر، هي نوع من التسليم الهادئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضع لحكم القدر من غير تبرم وملاومة. وتسليم مثل هذا، هو وليد مزاج أكثر من أن يكون وليد عقيدة"4. ولا نملك أدنى شك في أننا نشعر بحرية الاختيار في عدة مجالات، كالمعتقد والرأي والاختيار، والفعل والتقدير. أما الكيفية التي تسير بها حرية الإنسان في الاختيار، فذاك ما لا نستطيع إدراكه.

يقول الفيلسوف المعاصر أنتوني فلو*: "صرت الآن أميز بين نوعين من الأسباب، أسباب فيزيائية تتبعها حتمية فيزيائية، لا يمارس الإنسان معها حرية إرادة، وأسباب إنسانية نملك تجاهها حرية اختيار. فرغبتنا ليست ملزمة، أو لا يمكن مقاومتها، بل يملك معظمنا القدرة على كبح رغبتنا في أن يقوم بفعل ما يتمناه"5. والقرآن الكريم قد حسم هذا الإشكال بطريقة واضحة وصریحة، حين تعرض لقصة خلق الإنسان. يقول تعالى في سورة الإنسان "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣"6. فحرية المعتقد أقرها القرآن الكريم قبل أن يناقش الفلاسفة مسألة الجبر والاختيار، حيث جعل الخطاب القرآني الإنسان عاقلاً حراً مختاراً ليحمله مسؤولية

1 - سورة الإسراء : الآية 58 .

2 - محمد أركون : نزعة الأنسنة في الفكر العربي ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، الطبعة الثانية بيروت 2006 . ص 469 .

3 - المرجع نفسه . ص 469 هـ .

4 غوستاف لوبون : المرجع السابق . ص 135 ، 136 .

* أنتوني فلو (1923 ، 2010) فيلسوف بريطاني اشتهر بكتاباتة في فلسفة الأديان ، وبعد مدة من الإلحاد ألف كتابه هناك إله .

5 - د . عمرو شريف : رحلة عقل . ص 61 ، 62 .

6 سورة الإنسان : الآية 3 .

اختياره " أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ١٠ "1، فلم يترك النص القرآني أي شك يحيط بقضية اختيار الإنسان مصيره بنفسه " إن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس، بل هي أعلى منها في الاعتبار، لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان، أي المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته، والتي بإهدارها تهدر آدميته "2. إذن فلا معنى لمسؤولية بلا حرية، ولا معنى لجزاء وعقوبة بلا اختيار. بل نذهب أبعد من ذلك لنقول فلا فرق إذن بين الإنسانية والبهيمية، إن سلب الإنسان حرية اختياره، وغطت وظيفة العقل فيه، بل كيف سيصبح الكائن إنسانا، إلا بميزة نشاط العقل، وحرية الاختيار؟. والحقيقة هي أن بعض الدارسين للنص القرآني، حاولوا مناقشة أمر يفوق طاقتهم العقلية المحدودة، ألا وهو علم الله الواسع، متجاوزين بذلك وظيفة العقل.

يقول العقاد: " لو كان المعتزلة ينكرون وجود الله، لجاز أن يبطلوا الحكمة في الخلق كله، وأن يبطلوا العدل والرحمة فيما هو ظاهر لنا، وما هو محجوب عنا، ولكنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بوجود الاختلاف بين الأشياء والأحياء. فلماذا تضيق قدرة الله عندهم، عما يوافق الحكمة فيما يجهلون؟ "3. كما أنهم بدأوا النقاش دون الارتكاز على قاعدة علمية ثابتة ويقينية والتي تقول - إن الله خلق الإنسان وهداه النجدين - يقول تعالى: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ١٠٨ "4. الله حكيم في خلقه، عادل في حكمه، مطلق في علمه " تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ١٠٨ "5. كما أن الله حرم الظلم على نفسه، لذلك لا يمكن أبدا أن نتصور أي تصور يناقض صفات الله العليا " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٤ "6. بل إن صفة الخالق لله جل جلاله تتنافى مع كل عبثية، أو فوضى لعملية الخلق والفعل. يقول تعالى منبها على ذلك " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ١١٦ "7. وأحداث

1 سورة البلد : الآيات 8 ، 9 ، 10 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء الرابع عشر . ص 2144 .

3 العقاد : الإسلام دعوة عالمية . ص 195 .

4 - سورة يونس : الآية 108 .

5 - سورة آل عمران : الآية 108

6 - سورة يونس : الآية 44 .

7 - سورة المؤمنون : الآيات 115 ، 116 .

القصص القرآني تكشف ذلك جليا حين يسردها الوحي، وفق سنن الله التي أرادها هو، ولن يستطيع أيا كان تغييرها أو ردها .

لقد قصت علينا سورة الأعراف المصير المشترك للأمم الماضية التي ظلمت نفسها بالكفر والإشراك بخالقها، بداية من قوم نوح - عليه السلام - في قوله تعالى: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩ "1. إلى قوم شعيب - عليه السلام - في قوله تعالى: " وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ لِقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٨٥"2، ونتيجة كفر القوم وظلمهم لأنفسهم، جاء هلاكهم بعذاب من الله عز وجل. لتعود السورة تكرر على مسامعنا، إن المصير المشترك لا يحتم زمانا مشتركا. بل يكون بتشابه الموقف من دعوة الرسل. فالقصص القرآني يتجاوز عنصر الزمان، ليؤكد أن عذاب الله واقع على كل قرية اختارت الكفر، وعتت عن أمر ربها، واتخذت طريق الشرك والضلال، حتى أن زمن العذاب يبقى مجهولا لدى القوم، ليتكسر عنصر المفاجأة، مع تجلي قدرة وعلم الخالق وحده تعالى " أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ٩٧ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ٩٨ "3. وكأن النص القرآني في هاتين الآيتين قد ضرب صفحا عن عنصر الزمن، سواء على مستوى الأحداث - الزمن التاريخي - أو على مستوى زمن العذاب والهلاك. يقول سيد قطب عن سورة الأعراف: " وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان يواجهون البشرية مجتمعة في جاهليتها، حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها، وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان "4 . وهذا هو منهج القرآن الكريم، حين يستعرض أخبار الأمم الماضية ، فالأهم من كل هذا هو الجانب العقدي، وحتمية الخضوع إلى المصير نفسه، ما دامت كل أمة كفرت بخالقها، وكذبت رسله، فتسير خطية القص من بداية الأحداث إلى نهايتها، متشابهة في الموقف والمصير. فحتمية المصير قد رسمتها سنن الله الثابتة، وهذا ما يؤكد بشكل واضح وأكيد، أن نظام الكون وحياة الإنسان، لا يخرجان عن إرادة الله تعالى ومشيبته سبحانه. أما الجدل

1 - سورة الأعراف : الآية 59 .

2 - سورة الأعراف : الآية 85 .

3 - سورة الأعراف : الآيتان 97 ، 98 .

4 سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث عشر . ص 2090 .

في ذلك، فهو لا يتعدى أن يكون دليل غرور الإنسان الجاحد وجهله بنواميس الحياة، والسنن الكونية، بداية بإحياء الكائن، ثم إمامته وفنائه، وهل استطاع هذا المجادل أن ينتصر على الموت، أو أن يتحرر من شروط الزمن، وآثاره عليه ؟ .

والقصص القرآني سواء في مكانيته أو زمانيته، فهو يجسد دائما الظاهرة الإعجازية التي تتجلى في طلاقة القدرة، والعلم الواسع لله تعالى، ليتبين لكل قارئ أن مصدر الوحي هو من عند الله الخالق القدير العليم " تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ "1، وأن المتلقي الأول للوحي هو رسول من عند الله. إلا أن المشركين حاولوا في بداية الدعوة، الإعلان على أن هذا القرآن هو مجرد أساطير الأولين. وسجل الوحي مقولتهم صراحة دون إحراج أو تلميح " وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَّبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥ "2. لقد سار هذا الاعتقاد منذ عصر نزول الوحي - زمن إقرأ - مع مشركي قريش، ويهود المدينة، ليمتد عبر العصور المتتالية، مع الملحدون والمستشرقين المتعصبين، والعلمانيين والحدائين، فأصبحت هذه المقولة عملية اجترارية يُعاد عرضها ونسخها وطبعها وهضمها، منذ زمن إقرأ. وهذا ما تثبته في الحاضر كتابات هؤلاء المكذبين المشككين، وما يقومون به في ملتقياتهم ومؤتمراتهم، لتكرار عبارة المشركين السابقين - أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ - .

فحكمة الله البالغة تتحقق في حتمية مسار الأحداث، وأن مصدرها لا يكون إلا من عند خالق الكون والإنسان، الخالق العليم بكل شيء. " وهكذا فإن القدر الذي يسيطر على أحداث القصص القرآني يثير الدهشة والروعة بخوارق تدخله السريع أحيانا، ويبعث التأمل والاعتبار بحكمة تدبيره للأمر، وتصريف للأحداث والانتهاج بها إلى نتيجة حاسمة تتجلى فيها قوة الحق وعدل السماء "3. إن هذه العملية هي التي تقربنا من فهم ظاهرة أحداث القصص القرآني، واستيعابها ضمن إطارها العقدي، وكذا إطارها الفني، دون أن نخلق لأنفسنا مزاعم باطلة، يمكن لها أن تقوض أسس الإيمان لدينا " ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ

1 - سورة الجاثية : الآية 2

2 سورة الفرقان : الآية 5 .

3 التهامي نفرة : المرجع السابق . ص 444 .

٢٨٥ "1. وهذا ما يفرض علينا التمسك بمبدأ الأيمان، وأن نلتزم بما جاء به القرآن الكريم، وأن يكون الرد من النص القرآني، حين يصادفنا أي إشكال أو إعراض. فسورة البقرة بدأت بأن الكتاب لا ريب فيه، وجاء في أواخرها، تأكيد إيمان الرسول والمؤمنين بما نزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الكريم. " وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُوَسَّوْا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقًا "٢٩"2. ولهذا ونحن نبحت قصص القرآن، فمؤمنون بما جاء فيه من أحداث، إيماننا لا يزعه أدنى شك، لأنه وحي الله عز وجل. أما الذي هو خارج الدائرة الإيمانية، فهو حر في اختياره، وسيقول عن القرآن الكريم - حتما - عكس ما نؤمن به نحن - المؤمنين - فالإنسان حر في اختيار عقيدته، وهذا ما أكدته هذه الآية الكريمة .

فأحداث القص القرآني تسير وفق مخطط ممنهج ومسطر، يستحيل أن تخضع فيه عناصر القص للخيال أو الخرافة أو الأسطورة. بل تخضع لسنن الله التي أودعها الله هذا الكون بعلمه وحكمته، ولا مكان لمصادفة أو خيال على الإطلاق. هذه الحكمة التي كثيرا ما تغيب عن كثير، لكن بدل أن يعلن الجاهلون عجزهم عن ذلك، يحاولون إظهار التحدي في شكل عناد واستكبار، زاعمين أنهم توصلوا إلى النتائج التي تمكنهم من معرفة الحقيقة، وإدراكها الكلي . والرأي الذي يقول بوجود عنصر الخيال في القصص القرآني، مبررا الحاجة إليه بقوله: " إن الحاجة إلى الخيال في القصص القرآني، أو في التمثيل القرآني، لم يأت لحاجة المولى سبحانه وتعالى إلى الخيال في التعبير عن المراد، وحاشا لله أن يحتاج إلى الخيال، وإنما جاءت لحاجة البشرية لهذا الخيال "3. إن الله تعالى لا ينزل عند رغبة البشر، ولكن البشر هم الذين يخضعون لإرادة الله خالقهم. ومادام الله غني عن الخيال للتعبير، فما السبب في استعماله إذن؟ وهذا التعبير لا يتناسب مع تنزيه الذات الإلهية، ولا مع كلامه الحق، وهل يحتاج الكلام الحق إلى خيال؟ لينتهي الكاتب إلى القول بوجود الأسطورة في القصص القرآني، مستشهدا بآية من سورة الفرقان " وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ "

1 سورة البقرة : الآية 285 .

2 سورة الكهف : الآية 29 .

3 - محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق . ص 188 .

إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ٦ "1. ليطرح السؤال التالي: " فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد، يكتبها وتُملَى عليه ويثبت أنها من عند الله "2. وعبقرية الإبداع في هذا القول، هي تحويل مصدر الأسطورة من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله - تعالى عما يصفون - دون أن يفهم الكاتب أن مقولة - أساطير الأولين - جاء بها القرآن الكريم على لسان المشركين " فأساطير الأولين ذكرت هذه المادة في القرآن الكريم تسع مرات. ويلاحظ أنها جميعا وردت في القسم المكي، في القرآن الكريم، وعلى السنة المشركين "3. وما على القرآن إلا أنه نقل موقف المشركين من الوحي، واتهامهم له بأنه أساطير الأمم السابقة .

ولسنا ندري كيف يتم استيعاب القصص القرآني بهذا الشكل ؟ دون أن نملك قدرة التمييز بين دلالة الضمائر، فضلا عن دلالة التعبير. وقليل من الانتباه الذي لا يتطلب جهدا في التمييز بين ضمير الغائب الذي يعود على الوحي (قل أنزله) وبين ضمير الغائب الذي يعود على الأساطير (اكتتبها) والتي وردت على لسان الكفار. ثم نجد أن الله قد وصف نفسه في هذا الرد بقوله - قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - فالله الذي يتصف بطلاقة هذا العلم الواسع، هل يعجزه أن يعرض الحق على خلقه، أو يقص القصص، إلا من خلال الأساطير والخيال ؟ ولو انتبه الكاتب قليلا إلى بداية السورة، التي تضمنت هذه الآية، لوجد الرد المقنع جليا، إذ يقول الله تعالى في بداية السورة: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ١ "4، فالقرآن يجيب عن نفسه، قبل أي ادعاء باطل عليه، ويؤكد على مصدره السماوي

إن كل شك ينتهي بنا إلى عدم الإيمان بقوله تعالى: " لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٍ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢ "5، أو قوله تعالى: " وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٧ "6. وإذا انتبهنا إلى عملية التناسق العددي في القرآن الكريم، فنجد حتى أن تكرار كلمة - قالوا- في القرآن الكريم يكون مساويا لكلمة - قل

1- سورة الفرقان : الآيتان 5، 6 .

2 - محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق ، ص 205 .

3 نخبة من العلماء : الموسوعة القرآنية المنحصصة ، مطابع الأهرام التجارية قليوب ، مصر (ب ت) . ص 726 .

4 - سورة الفرقان : الآية 1 .

5 - سورة فصلت : الآية 42 .

6 - سورة يونس : الآية 37 .

- " فمثلا لفظ - قالوا - وهو يجمع كل ما قاله الخلق جميعا قد تكرر 332 مرة في القرآن الكريم ... ومن أعجب أن يتساوى هذا اللفظ بلفظ قل "1. وهذا لم يأت مصادفة، وكأن كل مقولة للزاعمين، يقابلها رد من الله تعالى، فأيات القرآن الكريم محكمة " أَلَمْ يَكْتُبْ أَكْثَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ 2. فلا وجود لأي خلل إلا في عقول المعاندين والمكابرين. لقد انتبه الشيخ محمد الغزالي إلى ظاهرة تكرار لفظة - قل - وأحصاها في سورة الأنعام فيقول: " رأيت كلمة قل يسعف بها الله نبيه ليرد على مخالفيه؟ لقد تكررت هذه الكلمة في سورة الأنعام أربعاً وأربعين مرة .. وظاهر أن السورة الكريمة نزلت في ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل، والمشهور من أقوال العلماء أنها نزلت - على طولها جملة واحدة "3. فكل سؤال محير يخطر بالبال، يقابله رد قاطع وثابت في النص القرآني، وكل زعم باطل، يدحضه حق مبين، وكل كلام هزل، يزيله قول فصل، وكل أسطورة أنتجها المخيال البشري، يفندها القصص القرآني الحق " قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِمَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِئِنَّ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۝ 4. إن الله لا يقص إلا الحق سبحانه وتعالى عما يصفون. وقوله الحق الذي لا يشوبه باطل. ٥٧ "4.

يذهب الجابري ليعرف القصص القرآني فيقول: " القصص القرآني هو نوع من ضرب المثل، والمثل لا يُضرب لذاته ولا من أجل ذاته ... لأن المقصود بالمثل ليس أشخاصه بل مغزاه، فكذلك القصص القرآني في نظرنا، والصدق في هذا المثل، سواء تعلق الأمر بالمثل أو القصة، لا يلتبس في مطابقة، أو عدم مطابقة شخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي "5. والحقيقة لا يمكن أن يُدمج قصص القرآن في نوع واحد هو ضرب من المثل. ثم يُبنى الحكم على هذا الافتراض الخاطئ والنظرة الضيقة، ليصل إلى أن القصص القرآني ليس قصصاً واقعية، ولا عرف التاريخ أحداثه. ولسنا ندري كيف يمكن لكاتب يقوم بتحليل النصوص، أن يستوعب سياق النص القرآني بهذا الشكل الافتراضي؟. ونحن هنا لا نحاول الرد على كل الادعاءات، وإنما نريد أن نقف على كيفية معالجة القصص القرآني من خلال عرض الأحداث، والتعامل معها بالشكل الممنهج السليم، الذي يوصلنا إلى نتائج منطقية، تتماشى مع منطوق النص

1 عبد الرزاق نوفل: الإعجاز العددي في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، الطبعة الخامسة 1987 بيروت. ص 168، 169

2 سورة هود: الآية 1.

3 الشيخ محمد الغزالي: المرجع السابق. ص 92.

4 سورة الأنعام: الآية 47.

5 د. محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، مركز الدراسات العربية، الطبعة الأولى بيروت 2006. ص 257.

القرآني، والذي نوقن بأنه كلام الله ووحيه الخالد، وذلك لاستيعاب النص القرآني عامة، والقصص القرآني خاصة، بالشكل الذي يتناسب مع طلاقة صفات الذات العليا، دون أن نتجاهل طبيعتنا البشرية المحدودة، وقصورنا العقلي أمام الظاهرة القرآنية المعجزة. فكثيرا ما حاول البعض أن يُخضع النص القرآني، إلى ما توصل إليه التنظير البشري، الذي يبقى ناقصا يتطلب تكملة على مدار الامتداد الزمني " فإخضاع كلامه (الله) لمقاييس الفن التي اصطلح على وضعها البشر ضرب من العنت، لأنه سبحانه لا ينظر إلى الأشياء نظرة الإنسان، ولا تقوده العواطف فتدفعه إلى القول. ولكنه ابتدع في هذا القول الحكيم منطقته، كما ابتدع منه ¹. متناسين أن مصدر النص هو خالق هذا العقل والعليم بكل شيء علما مطلقا، مخفين عجزهم لاستيعاب الظاهرة الإعجازية للوحي .

إن خطية الأحداث ببدايتها ونهايتها، مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم الله الواسع والمطلق كما أنها مرتبطة أيضا بطلاقة قدرته وحكمته، فلا مجال إذن لمصادفة أو خيال، أو زيغ حدث وخروجه، عن أمر الله وإرادته العليا " وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ١٠٩ ². فبهذه الخاصية يتضح تفرد القصص القرآني ، وبالتالي يتحول السرد الفني دليلا قاطعا، يثبت إعجازية القصص القرآني أمام الطبيعة البشرية. لأن الصفات العليا للذات الإلهية تمتاز بالكمال المطلق، والتي تتجسد لطلاقتها حقا وواقعا على مسرح أحداث القصص " فَأَقْصُصْ لِّقَصَصٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ³. وفي ماذا يتفكرون ؟ التفكير في سنن الله الثابتة، في كلام الله المعجز، في حتمية مصير الظالمين، وعاقبتهم المخزية، في التمكين للمؤمنين وانتصارهم، وخذل المشركين والمتجبرين وإهلاكهم، التفكير في عظمة الله العليم الحكيم، وسعة علمه المطلق، التفكير في الحقيقة الأزلية - لا إله إلا الله - والتي أقيم عليها الكون والوجود، وخلق لها الإنسان في أحسن صورة. وعلى هذا الأساس كان بناء القصص القرآني مركزا على الفاعلية والخالقية اللتين يتفرد بهما رب المكان والزمان والإنسان، لتتجلى طلاقة قدرته وعلمه ومشيبته - سبحانه وتعالى - في أحداث قصص وحيه .

¹ التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 500 .

² - سورة آل عمران : الآية 109 .

³ - سورة الأعراف : الآية 176 .

فعملية سرد الأحداث بزمنها الموضوعي، تؤكد محدودية ساردها، والتي لا تضيء على الفضاء السردي إلا الميزة البشرية، التي يكون بإمكانها القيام بذلك، وضمن إطار الحدود الطبيعية لها، وهذا ما وقع فيه طه حسين، حين تناول قصة سبأ، فتساءل عن عدم تفصيل القرآن الكريم للأحداث فقال: " وذكر القرآن هذا السيل قد تمزقت له سبأ كل ممزق، ولم يزد القرآن على هذا، فلم يحدد تاريخ سيل العرم، ولم يقل كيف مزقت سبأ كل ممزق ... ولم يبين لنا المواطن التي هاجرت إليها "1، فيظهر ظن الكاتب، وكأن الوحي سرد تاريخي ناقص، دون أن يميز بين القصص القرآني والسرد التاريخي. ويرد الرافي عليه: " إن القرآن نزل بشريعة تنسخ الشرائع، ودين يتم الأديان، وعبادة تمحو العبادات. فكان لا بد من ذكر كل ذلك فيه بإجمال حين يجمل، وتفصيل حين يفصل، وخصص حين يقص ... وأنه ما هو عاطفة شاعر، ولا وصف كاتب، ولا حكاية مؤرخ، ولا حيلة قاص روائي، ولا هو بعلم على قياس فكر طه حسين "2. ولو تناول طه حسين قصة سبأ وفق القانون الحتمي، الذي يجسد سنن الله تعالى، وانتبه لما جاء في النص القرآني، والتزم بمنطوق النص، قبل أن يدلي برأيه، لعرف سبب العذاب الذي كان نتيجة حتمية للكفر بالله وجدد نعمه .

يقول تعالى في شأن سبأ: " فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۖ ١٦ "3، وهذا قضاء الله وعدله " ذَلِكَ جَزِيَّتُهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۗ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ۗ ١٧ "4. فالاعتقاد الذي قال به طه حسين يبعده تماما عن عملية استيعاب أحداث القصص القرآني، فضلا على الزج به في دائرة الشك والانتهاه به إلى الكفر. على الرغم من أنه صرح باقتناعه بنتائج البحث، لنشره دون تردد أو خوف، قائلا: " وهذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث، ونشره في هذه الفصول، غير حافل بسخط الساخط، ولا مكترث بازورار المزور "5. فهو يريد أن يثير قضية سبقه إليها المستشرقون، يمكن أن تجلب عليه سخط المؤمنين، وبالتالي فهو لا يريد من وراء مقولته إلا التحدي. وحقيقة الأمر فإن إخضاع النص القرآني للرأي

1 - طه حسين : في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة العاشرة ، القاهرة 1975 . ص 91 .

2 - مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربي ، الطبعة السابعة ، بيروت 1974 . ص 158 .

3 - سورة سبأ : الآية 16 .

4 - سورة سبأ : الآية 17 .

5 - طه حسين : المرجع السابق ، ص 61 .

والهوى، هو نزعة شيطانية وشطحات تمردية، وغرور فكري، يريد صاحبه التناول بمحدوديته ونقصه وغروره على علم ومشينة خالقه المنتزه عن كل نقص .

إن عملية استيعاب أحداث القصص القرآني، وفق الظن الذاتي، والهوى النفسي عمل لا يلامس أدنى تفكير، مهما ادعى الباحث لعمله من منهج علمي، أو زعم تجرده من الذاتية وانتهاجه الموضوعية. فالقرآن الكريم رد عن كل ظن أو زعم أو شك، بل جعل القاعدة الأساسية للكتاب في ثاني سورة له هي اليقين " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ "1. وهذا يدل دلالة واضحة على تحديد نوعية علاقة المتلقي للنص القرآني، في بداية القراءة، والتعامل معه. لأن الرد المنطقي على كل شك يوجد ضمن النص نفسه، ولهذا علينا أن نستوعب أحداث القصص القرآني، كما احتواها النص، وفق المنهج القرآني الحكيم لعملية القص، وليس وفق هوانا، ورغبتنا البشرية القاصرة. إن التعامل مع منطوق النص، والالتزام به، مبدأ استقرائي يوصلنا إلى معرفة ميزة القصص القرآني، وكيفية تعرضه لزمنية الأحداث وتفصيلها. سواء في بيانها أو إبهامها. في تفصيلها أو إجمالها، في ذكرها أو تجاوزها. أما إذا أعيدت عملية اجترار مقولة المشركين، مع الزعم بأنها عملية بحث علمي، توصل إلى نتائج جديدة، فهذا تجن على الحق أولاً، وعلى منطوق البحث العلمي ثانياً. بل إنه جهل بحقيقة العلم والإيمان، لأنه يستحيل التناقض بينهما، لا اعتبار مصدرهما مصدراً واحداً، هو الخالق العليم .

فالله هو الذي خلق الكون، ووضع له نواميسه وسننه " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢ "2، إنه هو الخالق لهذا الكون والمنظم له، والمشرف عليه " إن الكون لا يملك أن يخلق ذاته، ثم يخلق في الوقت نفسه قوانينه التي تصرف وجوده . كما أن نشأة الحياة لا يفسرها وجود الكون الخالي من الحياة، وتفسير نشأة الحياة بدون وجود خالق مدبر، تفسير متعسف ترفضه الفطرة، كما يرفضه العقل أيضاً، كما أخذ يرفضه العلم المادي نفسه أخيراً "3 والله هو الذي خلق الإنسان " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَةٍ مِّن طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ

1 - سورة البقرة : الآية 2 .

2 - سورة الرعد : الآية 2 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، الجزء الرابع عشر . ص 2130 .

اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ٤ ١١¹. والله هو الذي شرع الدين للناس " شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ 2". والله هو الذي بعث رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٣٣ 3" وهو الذي أنزل الكتاب على نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: " الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١ 4". إن كل ما ذكره الوحي لا نجد له جواباً قاطعاً، إلا من عند خالق الكون، خالق المكان والزمان والإنسان " مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ٤٣ 5". فالحق لا يتغير ولن يتغير، مهما طال به الزمن " إنه وحي واحد ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة "6. فلا أحد يستطيع أن يجراً على القول بالعلم القطعي في هذه القضايا الخطيرة التي جاء بها الوحي، ومهما وصل به العلم، إلا أن يكون قد علمه الله سبحانه و تعالى " ولا أملك ما أقوله في القرآن الكريم، إلا أنه جامعة كبرى لهذا الوجود، لو درسه العالم دراسة مستفيضة، لوجدوه لم يترك صغيرة ولا كبيرة، إلا وله فيها من الحديث ما لا ينقطع "7، فالاعتراف بالقرآن الكريم بهذا المستوى، لا ينقص ولا يزيد من صدق كلام الله بقدر ما يدل على النتائج المنطقية لدراسة النص القرآني .

يجب أن تكون دراسة النص القرآني عامة، والقصص القرآني خاصة وفق الروح العلمية التي لا تجامل إلا الحق. كما أن " القرآن لا يحتاج لبيانات من خارجه تدل على أنه الحق من رب العالمين. شهادته تتأتى من كلماته نفسها حيث كلها إعجاز، وبما أن القرآن الكريم كلام الله، وقوله وحديثه، وبلاغته ونبأه العظيم، فإن واقع صدقه يتأتى من كل هذا ، مقاصده وأحكامه، ومنهجه وطريقته في الفكر والجدل، وقصصه الذي هو أحسن القصص ... ووصفه لمشاهد الكون ومشاهد القيامة وحكمته وكل حروفه، وكل مبانيه وكل معانيه "8. فالقرآن الكريم هو

1 - سورة المؤمنون : الآيات 12 ، 13 ، 14 .

2 سورة الشورى ك الآية 13 .

3 سورة التوبة : الآية 33 .

4 - سورة إبراهيم : الآية 1 .

5 سورة فصلت : : الآية 43 .

6 سيد قطب : المرجع السابق . ص 2127 .

7 أحمد عزت شيخ البساتنة : علماء الغرب ما الذي وجدوه في القرآن . ص 188

8 - المرجع نفسه . ص 6

الدليل ذاته على أنه الحق. وبالتالي فقصصه هو القصص الحق بلا ريب ، مصداقا لقوله تعالى : " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَظِيمِينَ ٣ " 1. ليست هذه الآية " تصديرا لقصة يوسف - عليه السلام - إنما نجد فيها ما يشبه التأكيد الاستهلاكي، مؤيدا بالنقد التاريخي، على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهل تماما القصة المذكورة قبل نزول الوحي " 2. كما يدل هذا على أن هناك قصصا، ليست بهذا المستوى من الحسن والدقة والجمال والحق، لأنها من مصدر بشري يعتريه الجهل والخطأ والنسيان، ويتخلله الضعف والنقص والهوى، ولهذا فالمقارنة واجبة لإظهار مميزات المنظومات القصصية الفنية والدينية ومنظومة القصص القرآني .

لقد أكد القرآن الكريم حقيقة ذلك في أكثر من آية. لهذا أصبحت الحديثية للقصة القرآنية تخضع لهذه السنة أو تلك، وأن هذه السنن الثابتة، هي التي تجلي أو تخفي أهمية الزمانية الموضوعية أو التاريخية لأحداث القصص، ولا يكون توظيف الزمن في القصة القرآنية إلا بقدر ما يخدم الحكمة، لاستبيان الظاهرة الإعجازية. فإذا سرنا مع سورة الأعراف، نجد أنها أكدت ميزة الكافرين، والتي بسببها طُبع الكفر في نفوسهم، يقول تعالى : " تِلْكَ الْأَفْرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلَ كَذَلِكَ يَطَّبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ١٠١ " 3. فطبيعة الكافرين هي العناد والمكابرة، حتى وإن تمت عملية إنذارهم فهم سواء " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧ " 4. ومادامت هذه هي ميزة الكافرين، فلا غرابة إذن، أن تبقى سنة الله تجري بالفعل نفسه على كل قوم كافرين، دون تغيير أو تبديل " كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ١٣ " 5. فيتشابه المصير في زمن الدنيا الفاني، وكذلك في دار الخلود الأبدي. ولا يتم ذلك إلا بعلم الله عز وجل : " وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ٤ مَا نَسْفِقُ مِنْ

1 - سورة يوسف : الآية 3 .
2 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص 271 .
3 - سورة الأعراف : الآية 101 .
4 - سورة البقرة : الأيتان 5 و 6 .
5 سورة الحجر : الأيتان 12 ، 13 .

أُمَّةً أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ هـ "1. إن أحداث إهلاك القوم الكافرين، نتيجة حتمية لاختيارهم الكفر والعصيان، وهذا عدل الله تعالى وحكمه، يتم بالزمن المعلوم عنده .

إن الله لم يغفل أجل الزمن المعلوم لكل أمة ظالمة، أراد أن يهلكها. والآيتان رد صريح ومعجز على كل من خاض في قضية تفصيل زمن أحداث القصص القرآني، وفق رغبة تفكيره البشري، وعلمه المحدود. إن هاتين الآيتين تكشفان عن مستوى تفكير البشر المربوط باللحظة الآنية، في حين أن علم الله الواسع، قد أحاط بمصير كل إنسان، وكل أمة بداية ونهاية " وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦١ "2. فهذا العلم الواسع، عبر الفضاء المكاني، والامتداد الزمني، بكل مستوياته الماضي والحاضر والآتي. والذي لا حظ للبشر فيه، إلا بتوفيق من الله عز وجل. والخالق العليم لن تقوته لحظة زمانية في كونه، ولا تغيب عن علمه المطلق والمحيط، حتى وإن لم يذكرها في قصص وحيه الخالد. إن سنة الله الثابتة لن تتحول ولن تتغير، وحكم الله ماض في خلقه، وكل عناصر القص من مكان وزمان وأحداث وشخصيات تصبح منفعة ومفعولا بها، وخاضعة لإرادة الله وعلمه وفاعليته، و" الأدبية القرآنية وهي تتفاعل مع عناصر القصة الزمانية المكانية، ظلت صارمة في قصديتها، وفي اقتصادها الأدائي، فهي ترجع في كيانها الفني بعدي الزمان والمكان بالقدر الذي يستلزمه تشكيل الحدث، والوصول به إلى مغزاه التربوي الاعتباري "3. فعملية استيعاب القصص القرآني لا يمكن أن تتم إلا باستخلاص الحكم والعبر منه، مصداقا لقوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١ "4. ولا يتم ذلك إلا بالتدبر في هذا القصص. واعلم " أن الاعتبار عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، والمراد منه التأمل والتفكير "5. فاستخلاص العبر هو أولوية الأولويات، لبحث القصص القرآني ودراسته، وهذا يقرب لنا فهم الظاهرة الإعجازية للقصص القرآني، على أساس ارتباط الزمان بالأحداث خدمة للعقيدة .

1 - سورة الحجر : الآيتان 4 ، 5 .

2 - سورة يونس : الآية 61 .

3 - د . سليمان عشراي : المرجع السابق ، ص 164 .

4 - سورة يوسف : الآية 111 .

5 - الإمام فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، الجزء الثامن عشر ، ص 232 .

وحين نستعرض أحداث قصة موسى - عليه السلام - والتي تكرر ذكرها عبر كثير من السور، نجد أن آية واحدة قد حددت مصير فرعون وجنوده، كما جاء في سورة القصص " وَثُرِي فِرْعَوْنَ وَهُمَّنْ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦ "1، تليها آية واحدة أيضا ، حددت مصير موسى - عليه السلام - " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧ "2. كما أن آية واحدة ستقرر مصير بني إسرائيل المستضعفين، في قوله تعالى : " وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ "3. لقد رسمت إرادة الله القاهرة، حتمية مصير هلاك فرعون، وهو في زمن قوة سلطانه وحكمه وجبروته، كما حددت في الوقت نفسه ، مصير موسى - عليه السلام - وهو في زمن ولادته وضعفه، وخطر الموت يحدق به من كل حذب وصوب " إذ يتم بتدبيره بالإهام أمه أن تضع وليدها في التابوت، وتقذف به في البحر ، ليفعل الله به ما يشاء. ولن تمتد إليه يد فرعون الذي كان يأمر أتباعه، بأن يذبحوا أطفال بني إسرائيل. لكن قد هيا الله له الحياة في بيت فرعون، وقد كان الموت ينتظره فيه "4. فتقررت عودته إلى أمه، قبل أن يُلقى في اليم، ليعود إليها حيا سالما، ويكون من المرسلين مستقبلا .

إن ترتيب أحداث القصة، لا يخضع إلى عامل الزمن الأفقي والتراتبي، بقدر ما يخضع لعلم الله المطلق والشامل، لكل مراحل الزمن. إن " ما نعنيه بالترتيب الخطي، هو التتابع الحاصل بين الأحداث على أساس مواقعها الزمنية، بحيث يأتي الماضي أولا ثم الحاضر ثم المستقبل، وهو ما يمكن أن يظهر بصورته تلك في السرد، على هذا النحو الثابت المتصاعد وهو الأمر الذي يحدث عندما يتوافق التتابع الزمني مع التتابع السببي "5. ولكن هذا ينطبق على السرد الفني، الذي هو نتاج الإبداع البشري، وفيه يكون السارد خاضعا للزمن خضوع الأحداث. لكن في القصص القرآني فكل عناصره خاضعة لفاعلية وعلم السارد الخالق العليم ، وهو يوجهها وفق مشيئته في النص، توجيهه الأحداث في الواقع، إنه قضاء الله وقدره. وبهذا تجري سننه

1 - سورة القصص : الآية 6 .

2 - سورة القصص : الآية 7 .

3 - سورة القصص : الآية 5 .

4 التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 559 ، 560 .

5 - هيثم الحاج علي : الزمن النوعي وإشكالية السرد النوعي ، الانتشار العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت 2008 . ص

الحقة، ليهلك الله تعالى الكافرين المتجبرين ويعذبهم، وينجي عباده المؤمنين الصالحين ويكرمهم

إن الإرادة الإلهية ستحمي موسى الصبي من القتل، الذي كان يمارسه فرعون على ذرية بني إسرائيل " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤ " 1. بل سيعيش في قصر فرعون - المكان الخطر - معززا محبوبا " وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكِّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩ " 2. ليتكرر مشهد ثانٍ ينجو فيه موسى - عليه السلام - من القتل. وهذا حين يدخل المدينة. " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْعَثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥ " 3. ويعلم قوم فرعون بحادثة قتل القبطي ويصبح موسى - عليه السلام - خائفا يترقب " فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يُمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن نَقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ١٩ " 4. لقد أذيع السر، وأصبح موسى - عليه السلام - في خطر، لا يكاد يأمن على حياته مرة ثانية، وكان الموت الذي نجا منه وهو رضيع، يلاحقه الآن وهو شاب في فتوته

وفي اللحظة الزمنية التي يبدأ الملائكة بقتل موسى - عليه السلام - وفي غفلة منه يتصل به أحدهم، لينصحه بالخروج للنجاة " وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يُمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١ " 5. ويغادر المدينة هاربا بنفسه، طالبا من الله النجاة، متوكلا عليه سبحانه وتعالى " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ٢٢ " 6. وبعد مدة من الزمن، يأتي المشهد الثالث، وينجو فيه موسى - عليه السلام - أيضا وقومه من القتل المحتم، وهذا بعد أن يعود من مدين إلى مصر، ويصبح رسولا، لينجي الله به بني إسرائيل. لكن فرعون وجنوده يلحقون بهم

1 - سورة القصص : الآية 4 .

2 - سورة القصص : الآية 9 .

3 - سورة القصص : الآية 15 .

4 - سورة القصص : الأيتان 18 ، 19 .

5 - سورة القصص : الآية 20 ، 21 . .

6 - سورة القصص : الأيتان 22 .

ويتأكد القوم من نهايتهم الحتمية " فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ٦١ ليرد موسى - عليه السلام - على قومه رد المؤمن الواثق بالله تعالى: " قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٣ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ ٦٤ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ٦٦ "2. وهكذا ينجو موسى - عليه السلام - من الموت المحقق للمرة الثالثة، وينجو معه قومه، بل سيكون الهلاك لعدوهم فرعون وهامان وجنودهما، نتيجة حتمية للتجبر والكفر والفساد في الأرض. وهكذا أنجى الله تعالى نبيه والمستضعفين معه، وقد تم ذلك بطلاقة قدرة الله تعالى وحده، دون أي مقاومة من أي واحد من بني إسرائيل. إنها حتمية سير الأحداث التي سطر خطها بداية ونهاية، دون أي زحزحة، وكان قد سطر منذ ميلاد موسى - عليه السلام - .

إن حتمية سير الأحداث، كما قررتها المشيئة الإلهية هي التي أبقت موسى - عليه السلام - حيا حتى اللحظة، التي أصبح فيها رسولا، كما نصت الآية التي رسمت هذا المصير مستقبلا، وقد تم وفق إرادة الله تعالى، وعلمه السابق لزمن الأحداث. لكن كل هذه الأحداث التي مرت وسردها الوحي، من طفولة موسى - عليه السلام - حتى خروجه مع قومه من مصر لم نجد فيها إلا مدة زمنية واحدة مفصلة، وهي مدة الرعي، حين استأجره الشيخ أبو البناتين " قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى أَبْنَتَيَّ هُنَيْنَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجْجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٢٨ "3. فكانت المدة الزمنية عشر سنين، حيث أتم موسى - عليه السلام - الوعد، وبعدها تكون عودته إلى قومه، مصداقا لقوله تعالى - إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ - وبالتالي عاد موسى - عليه السلام - إلى مصر، واختاره ربه رسولا كما أعلنها في وحيه، زمن خوف الأم عليه من الذبح، لتتذف به في اليم، وهو صبي رضيع ضعيف، لا يقوى حتى على الحركة .

أما الموقف المقابل هو مصير فرعون، الذي تحدد حين أُلقت الأم برضيعها الضعيف في اليم. فسيكتب لهذا الرضيع الحياة والرسالة، ويكتب لفرعون وهامان وجنودهما الهلاك

1 - سورة الشعراء : الأيتان 60 ، 61 .

2 - سورة الشعراء : الآية 62 ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 .

3 - سورة القصص : الأيتان 27 ، 28 .

والعذاب، وهي مفارقة عجيبة " وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ٦٦ " 1. وهكذا ارتسم مصير فرعون الطاغية، ليسوقه القدر لدخول البحر لملاحقة موسى - عليه السلام ومن معه، إلا أن قدرة الله كانت أكبر وأقوى مما زعم فرعون. فحتمية الأحداث التي خطتها مشيئة الله تعالى في علمه السابق، هي التي أنهت مصير فرعون وقواته بالغرق، وأنجت موسى وقومه المستضعفين، إنها إرادة الله الفوقية. إن الإرادة الفوقية حين تقرر أمرا ، فكل عناصر القصة تخضع متفاعلة منسجمة ومنفعلة، ليرتسم المصير المحتوم، ولن يحيد أي عنصر عن خطه المسطر له، أو يتأخر عن دوره المحدد له. وكما تجري الحتمية على أحداث السرد، كذلك تجري الحتمية على أحداث الواقع، وفرعون لن يؤمن حتى يرى العذاب، ولن ينفعه ذلك " وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشدَّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨ " 2. وبالفعل يغرق فرعون المتجبر في البحر، بعد كفره وعناده " وَأَسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠ " 3. هذه هي حتمية الظلم والطغيان، ومصير الظالم وعاقبته. كما ينقل لنا القرآن الكريم مشهد الإله المزعوم وهو غريق يصرع الموت. " وَجُورَنَا بِنِيِّ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ " 4. فنتهاوى صورة الألوهية المزعومة، ويغرق الإله المتجبر في اليم، ويعجز عن النجاة من قبضة هذا اليم الذي اجتازه موسى - عليه السلام - وقومه بسلام عند انفلاقه لهم بأمر الله تعالى. لتبقى صورة الإرادة الفوقية هي التي تفرض ذاتها، أكثر من تفصيل زمن الأحداث، مخالفة قصص العهد القديم، أو السرد القصصي الفني، أو التاريخي .

تتجلى طلاقة القدرة الإلهية أمام عيون بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين ومقهورين تحت جبروت فرعون، الذي ادعى الألوهية بقوله: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطعُ إِلَىٰ إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لِأظنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ٣٨ " 5.

1 - سورة الشعراء : الأيتان 65 . 66 .

2 - سورة يونس : الآية 88 .

3 - سورة القصص : الأيتان 39 . 40 .

4 - سورة يونس : الآية 90 .

5 - سورة القصص : الآية 38 .

تجبر وطغيان وتكذيب " فَكَذَّبَ وَعَصَى ۚ ۲١ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ۚ ۲٢ فَحَشَرَ فَنَادَى ۚ ۲٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۚ ۲٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَجْرَةِ وَالْأُولَى ۚ ۲٥ " 1. هذا الإله المزعوم أصبح غريقا يصرع الموت، ليتحول جثة هامدة تتقاذفها الأمواج " ءَأَلَّنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۚ ۹١ فَأَلْيَوْمَ نُنجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ ۚ ۹٢ " 2. ليكون عبرة لمثله من المتجبرين الذين كفروا برب العالمين، رب السماوات والأرض وما بينهما، رب المكان والزمان. وأي أمر يكون أولى بالذكر في قصة فرعون هذه ؟ هل سيكون زمن الأحداث، أم حتمية مصير وعاقبة الكفر، والطغيان والظلم ؟ .

فالأهم في هذا القصص، هو رسم عاقبة الطغيان الحتمية، ومصير الكافر المتجبر، وتفصيل الحدث فيه، وما تلفظ به فرعون ساعة الغرق والاحتضار. إن هذا المشهد بكل جزئياته وغيبياته، ينقله لنا الوحي بكل حق وعلم، ولا أحد في استطاعته سرد مشهد نهاية فرعون، إلا الذي مارس فاعلية الغرق، وأشرف عليها بإرادته وعلمه، ولا يكون إلا الله العزيز العليم. فالمشهد يعرض الألوهية الحققة، أمام كل زعم باطل. فطلاقة قدرة الله، لا تقف أمامها حدود المكان والزمان والشخص، ولن تعجزها أية قوة في الوجود، مهما ادعى صاحبها أو زعم ذلك. لقد خضع مصير فرعون لحتمية سنة الله الثابتة، والماضية في الخلق. فهي لا تحابي أيا كان حين يتخذ سبيل الكفر والتجبر " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۚ ١٣٣ " 3. فلا نجاة لمن يكفر بآيات الله، ولا خلاص له، إلا طريق الهلاك في الدنيا، والعذاب المقيم في الآخرة " وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ۚ ٤٢ " 4. إن قصة فرعون لن تنتهي بموت البطل المغرور، كما تنتهي الأحداث في معهود الفضاءات السردية، فالحقيقة لا تنتهي بزمن موت الشخص. بل يواصل السرد القرآني ليلج إلى عالم الخلود، الذي يتوقف عنده علم البشر، والسرد الفني والتاريخي. وهذا ما سنتناوله في الفصول القادمة - إن شاء الله - .

1 سورة النازعات الآيات 21 ، 22 ، 23 ، 24 .

2 - سورة يونس : الآيات 91 . 92 .

3 - سورة الأعراف : الآية 133 .

4 - سورة القصص : الآية 42 .

أما أحداث قصة بني إسرائيل مع رسولهم موسى - عليه السلام - فقد حددت معالم حتميتها آية واحدة، وذلك بعد أن يخبرهم الله تعالى في الزمن المستقبل، بأنه سيهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض لينظر أعمالهم، وهذا بعد أن اشتكوا لنبيهم موسى - عليه السلام - من بطش وأذى فرعون لهم " قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝ ١٢٩ "1، وبالفعل تتم نجاة القوم، ويهلك عدوهم. إلا أن بني إسرائيل لا يكاد يمر عليهم زمن وجيز، حتى يطلبوا من نبيهم، أن يجعل لهم إلها يعبدونه، تقليدا للوثنيين الذين مروا بهم " وَجُورْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّوَأ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يُمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ١٣٨ "2، لقد كان من " المتوقع من بني إسرائيل أن يطلبوا من موسى - عليه السلام - أن يأذن لهم بمحاربة هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، أو على الأقل أن يرشدوهم ويعظوهم، ولكن لم يكن هذا ولا ذلك "3. بل لمن العجب أن ينتقل بنو إسرائيل من عبادة الخالق الذي نجاهم، إلى مقلدين لوثنيين ضالين، إنه سلوك لا يرفع من أصحابه، بقدر ما ينزل بهم إلى الحضيض الأسفل. هذا الموقف الغريب يكشف عن طبيعة بني إسرائيل النفسية، وعلاقتهم المتذبذبة بالله عز وجل ، كما يؤسس لموقفهم مستقبلا من رسالة الله ورسوله، ووحيه .

يتابع القرآن الكريم سرد الأحداث، حين يذهب موسى - عليه السلام - لميقات ربه ، فيتحول بنو إسرائيل إلى عبدة أوثان، يعبدون عجلا مصنوعا من الحلي " وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝ ٥١ "4. إن هذه المدة تضمنت حدثين تلازما في الزمان، وتناقضا في الموقف، أحدهما لموسى النبي مع ربه أثناء الميقات، وهو يمثل موقف الإيمان والطهر والتبتل " قَالَ يُمُوسَىٰ إِنَّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ ١٤٤ "5. والموقف الآخر لقومه بني إسرائيل، ويمثل الكفر بالله تعالى، عصيانهم لهارون (النبي المستخلف) " وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝ ١٤٢ "6. لكنهم تمردوا على النبي هارون - عليه

1 - سورة الأعراف : الآية 129 .

2 - سورة الأعراف : الآية 138 .

3 - د . فضل حسن عباس : القصص القرآني . ص 275 .

4 - سورة البقرة : الآية 51 .

5 - سورة الأعراف : الآية 144 .

6 - سورة الأعراف : الآية 142 .

السلام - " وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سَفِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ١٤٩ "1. فترك القوم عبادة الله الواحد، الذي أنجاهم من البطش والمذلة ، وداروا بقلوبهم ووجوههم إلى صنم نحتته يد مضل من القوم، وقد تم هذا الانقلاب في غياب موسى - عليه السلام - مدة أربعين يوما، لتلقي الشريعة. وقد استشراف الوحي سلوك بني إسرائيل الشركي، قبل نجاتهم حين من عليهم الله تعالى برسول كريم. لكن عدل الله الذي عاقب عدوهم، لن يتسامح معهم أمام هذا العصيان والشرك بالله، والسلوك المشين مع رسوله ونبيه المستخلف. فعاقبة الكفر الوخيمة التي عاينوها في مصير الكافرين لن تخطئهم ابدا .

إن غياب موسى - عليه السلام - هذه المدة القصيرة (أربعون يوما) كشف عن طبيعة شخصية بني إسرائيل المادية، ففضية الإيمان عندهم أصبحت متذبذبة لا تستقر على حال . فزمانية الأحداث تؤسس لظاهرة تكون أخطر بكثير في غياب المستقبل، وهي استحالة دوام المحافظة على عقيدة التوحيد، والإلتزام على وحي الله وعهده، لدى هؤلاء القوم. كما تكشف عن المواقف المتقابلة لشخص هذا القصص، حيث تتبلور شخصية السحرة فيتحولون من الكفر إلى الإيمان القوي بالله تعالى، في ظرف وجيز من الزمن " فَأَقْبَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ٤٦ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ٤٨ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأُلْصِقَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ٤٩ "2 متحدين جبروت فرعون وبطشه، بعدما كانوا تحت سطوته، طامعين في جزائه المادي لهم، فانتقلوا من الكفر إلى الإيمان، حين تيقنوا من المعجزة التي أجراها الله على يد رسوله موسى - عليه السلام - وأمام أعينهم، فاتخذوا كل تهديد وراء ظهورهم، فثبتوا على " إيمانهم رغم تهديد فرعون بالعذاب وبالقتل والتصليب، مع أنه كان يمكن أن يكون لهم شأن، ولم يؤمنوا إذا لم يكونوا كذلك مستضعفين، لأنهم لم يكونوا إسرائيليين، ومن هنا كانت الرسالات دائما لا يحملها إلا ذوو النفوس القوية "3. لقد آمنوا وتحذوا جبروت فرعون، بفضل يقينهم الثابت بالله .

1 سورة العراف : الآياتان 148 ، 149 .

2 - سورة الشعراء : الآيات 46 ، 47 ، 48 ، 49 .

3 - د . فضل حسن عباس : المرجع السابق ، ص 275 .

هذا الموقف الإيماني للسحرة، قابله موقف بني إسرائيل المتذبذب والمتحول من الإيمان إلى الكفر بالله، وعبادة العجل المنحوت، بل قد أعلن بنو إسرائيل تمردهم الصريح، رافضين أمر ربهم دخول الأرض المقدسة مع نبيهم موسى - عليه السلام - وجاء في القرآن على لسانهم " قَالُوا يُمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٢٤ "1. إنه موقف غريب اتخذه بنو إسرائيل من الله ونبيه - عليه السلام - وكأنهم صمموا على مخالفة أوامر الله تعالى، وهم يعلمون ذلك. إن سنن الله قد جرت على القوم المتمردين، وفق قاعدة عدل الله المطلق، وحتمية الأحداث. إننا نرى بأن سير الأحداث بدأ يتجه نحو الموقف المكابر والمعاند، وإن المصير نفسه سيكون مسطرا للقوم حتما، إذا استمروا في عنادهم وكفرهم، إن هم لم يحفظوا ميثاق الله وعهده. لكن بني إسرائيل وعبر تاريخهم، خالفوا الوعد، وكذبوا الأنبياء وقتلوا بعضهم، وانتهجوا الاعتداء وحرّفوا كلام الله " وَإِذْ قُلْتُمْ يُمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِ وَجَدٍ فَادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۗ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ٦١ "2. بل وصل بهم التمرد ليعلنوها مكابرة في قوله تعالى: " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۗ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۗ فَلَّ بَسَمًا يَا مَرْكُم بِهِ إِمْبُتُّكُمْ ۗ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٩٣ "3. إذن فاستخلفهم الله في الأرض، لتتضح صورة عملهم، ويقيم عليهم الحجة. وقد اعترفوا بذلك علانية وتبجحا. فحتمية الإرادة الفوقية ستمارس مصير العاقبة الوخيمة على المتمردين، والتمرد نزعة شيطانية، ووعد الله لا يخلف، وعذابه لن يخطئ فردا أو قوما .

فالموقف المكابر لا يبدو مصيره مفاجئا، أو مغايرا للكفار المعاندين السابقين، بل هي حتمية تُبقي سنة الله الثابتة جارية، تحقق قضاء الله العادل " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ٤٦ "4. وبالتالي فإن الإنسان هو الذي يختار مصيره وعاقبته بنفسه وهو المسؤول على ما ارتكبت يده، واكتسبت نفسه. إن طريقة عرض الوحي لأحداث القص ذات ميزة متفردة، يعلن القرآن فيها عن القاعدة القانونية التي تسيّر خطية الأحداث كسيرورة حتمية لمصير مسطر،

1 - سورة المائدة : الآية 26 .

2 - سورة البقرة : الآية 61 .

3 - سورة البقرة : الآية 93 .

4 - سورة فصلت : الآية 46 .

لن يحيد عن مساره أبداً، وذلك قبل عرض الأحداث وتفصيلها، وتحقيقها على أرض الواقع. هذه الحتمية المتعلقة بالمشيئة الإلهية، لن يحيد عنها أي فعل لشخص القص، ليتكشف لنا هذا الكم التراكمي الكثيف للأحداث، متفاعلاً مع كل عناصر القص في خط واحد بداية ونهاية، لا يخرج أي فعل عن خطه المحدد له، ولا يتجاوز مدة زمانه التي سُطرت له، ولا يخطئ المصير المرسوم له .

وفي قصة يوسف - عليه السلام - نجد أحداثها قد تمت بين آيتين، تناولت الأولى عرض خبر الرؤيا على الأب " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤ "1. والثانية أكدت تحقق الرؤيا من طرف الله تعالى، وهو مع أبيه وأمه وإخوته، بعد أن دخلوا مصر آمنين " وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٠٠ "2. وقد سارت الأحداث بين الآيتين دون تغيير ولا تبديل، فالقاعدة القانونية التي خضعت لها الحديثة كحتمية، سطرت الخط المصيري من بداية القصة إلى نهايتها. إن " إخوة يوسف - عليه السلام - بالغوا في إبطال أمره، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر، كان الأمر كما قدره الله تعالى، لا كما سعى فيه الأعداء "3. إلا أن الله غالب على أمره " وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "4 ويوسف - عليه السلام - " يكيد له إخوته، ولكن القدر يسير بالأحداث في اتجاه معاكس، فتحفظه العناية من الترددي في الجب، ومن الفتنة بالإغراء، ومن الهلاك في السجن، لتبوءه عرش الملك، وتكشف نوايا إخوته، وغلبة القدر فيما كادوا له "5. وكذلك بالنسبة ليعقوب - عليه السلام - فما استطاع أن يمنع مكر الأبناء، بل سلم أمره لله محتسباً ومتوكلاً لما جاء الإخوة بقميص يوسف " وَجَاءُوا عَلَى فَمِيصَةٍ بِذِمِّ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبَّرْ جَمِيلاً وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ١٨ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا

1 - سورة يوسف : الآية 4 .

2 - سورة يوسف : الآية 100 .

3 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن عشر ، ص 94 .

4 سورة يوسف : الآية 21 .

5 التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 440 .

وَأَرَادَهُمْ فَأَذَلَّي دَلْوَةً قَالَ يُبَشِّرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ ١٩ "١. إنه التسليم التام لأمر الله تعالى، ولمشيئته العليا التي وجهت الأحداث.

إن الأب يعقوب - عليه السلام - ومع الفاجعة التي أحلت به، سيرسل بابن آخر ليتحتم بقاؤه في مصر بعيدا عن الأب، الذي أنهكه الحزن الشديد، لكنه - عليه السلام - بقي صابرا محتسبا. " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤ "٢. حيث تضاعفت المصيبة عليه، ولا يزيد فوق ذلك، إلا التسليم لأمر الله القدير العليم، دون يأس أو ملل، قائلاً لهم: " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦ "٣. ليصدق قوله حين يأتي البشير بقميص يوسف - عليه السلام - فيعيد قوله مؤكدا علمه من الله تعالى " فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٩٦ "٤. بمعنى " أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون، وهو أنه تعالى يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب، فهو إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف - عليه السلام - إليه "٥. إن الإشراف الإلهي على الأحداث لن يترك تصرف الإخوة دون رقيب ولا حسيب، وإنما المشيئة الإلهية هي التي توجه هذه الأحداث، في غياب علم الشخوص .

ولكن بعد زمن وفراق، وبعد معانات قاسية، وصبر جميل، وتوكل على الله وحده، يجتمع الأب مع إبنه يوسف وأخيه، وتصدق الرؤيا وتتحقق، بعد أن سارت الأحداث كما أَرَادَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. " وَرَفَعَ أَبُوتَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا بَنِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٠٠ "٦. لينتهي مسار القصة خاضعا لما سطره الله سبحانه وتعالى في علمه، وكما اقتضت مشيئته العليا. لنقف أمام هذه القصة مستوعبين قوله " وَهُوَ أَلْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادَةٍ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٨ "٧. فنقف على مشهد الرؤيا العام - أحد عشر كوكبا

1 - سورة يوسف : الآية 18 .

2 - سورة يوسف : الأيتان 83 ، 84 .

3 - سورة يوسف : الآية 86 .

4 - سورة يوسف : الآية 96 .

5 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن عشر ، ص 202 .

6 - سورة يوسف : الآية 100 .

7 سورة الأنعام : الآية 18 .

والشمس والقمر ساجدين ليوسف - ثم تحقيق هذا المشهد على مسرح الواقع بمكانه وزمانه وشخصه، ونسأل من الذي كان يتحكم في توجيه الأحداث، لتتحول عبارة القرآن الكريم - وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ مجسدة تلك الحتمية لأحداث القصة؟ إنها الإرادة الفوقية والمشينة العليا والعلم الواسع والحكمة البالغة، فكل هذه الصفات الإلهية هي التي تتحكم في سير الأحداث وسيرها من البداية إلى النهاية، ليكون أمر الله تعالى هو الغالب، وفوق كل أمر بشري. ومن ثم يأتي عنصر الزمن كعامل تال .

لقد تحققت الرؤيا التي عرضها يوسف على أبيه - عليهما السلام - وفق إرادة الله ومشينته، لا كما أرادها الأب الذي طالما خاف عن الابن الضعيف، وسط إخوته المتأمرين عليه. لكنه في آخر المطاف استسلم لأمر الواقع، ولإرادة الله تعالى. والمعنى " إن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه - عليهما السلام - وإخوته، مع الألفة والمحبة، وطيب العيش وفراغ البال، في غاية البعد عن العقول، إلا أن الله تعالى لطيف، فإذا أراد حصول شيء ، سهل أسبابه فحصل، وإن كان في غاية البعد عن الحصول "1. وذلك لنستوعب أخيرا قوله تعالى - وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - فلا تقيده حدود المكان والزمان، وأنى يكون ذلك؟ وهو سبحانه الخالق " أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ "2. فكل العناصر من مكان وزمان وشخص خاضعة لحتمية الإرادة الإلهية الفوقية، ولهذا المبدأ وحده يمكن لنا استيعاب أحداث القصص القرآني، وتوظيف الزمن فيه .

فبناء الأحداث وفق الهندسة الحتمية التي تنشئها الإرادة الإلهية الفوقية للقصص القرآني يجعل الأحداث تتجاوز الزمن الموضوعي والتاريخي، وهي ظاهرة جديرة بالدرس والتحليل ، ذلك أننا " حين نطل على المشهد المعروض علينا، لا يترك لنا التكتيف والاقتصاد فرصة التعرف على المكان أو الزمان. بل يهيمن الحوار على المشهد هيمنة كلية تجعلنا نلتمس المكان وراء اللغة الساردة، كلما نلتمس الزمان، وتلك تقنية خاصة بالسرد القرآني، وإن وجدنا لها في السرد القصصي آثارا محدودة "3. وهذه الخاصية هي في الحقيقة ظاهرة إعجازية، أثارها الوحي

1 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن عشر ، ص 220 .

2 - سورة النحل : الآية 17 .

3 - أ د . مونسى حبيب : المشهد السردى في القرآن الكريم ، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية ، الطبعة الأولى 2009 . ص 189

لحكمة التدبر. فكلما تعاملت الدراسة للقصص القرآني وفق ارتباط الزمن بالأحداث ، إلا وتكشفت لنا معالم جديدة للظاهرة الإعجازية. وهذا ما أدى بالخط القصصي للقرآن، أن يربط عناصر القص من مكان وأحداث وخطاب بمستويات الزمن المختلفة، وخاصة الغيبي والخارق، لينتهي كل عالم عند قوله تعالى: " وَالرُّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ "1. وإذا كانت هذه نقطة الوقوف، وعدم التجاوز عند الراسخين في العلم، أمام النص القرآني، فإنه يدل حتما على أن التعامل مع الوحي، لا ينبغي أن يكون إلا بصفة التواضع والإيمان .

أما تفصيل زمن الأحداث الذي تعرضت له القصة القرآنية، فجاء في تأويل رؤيا الملك من طرف يوسف - عليه السلام - " قَالَ تَزَرَّغُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ٤٩ "2. جاءت المدة مفصلة سنين معدودة بزمن غيبي، حول ما سيكون عليه حال البلاد مستقبلا. والمحاولات التي أرادت أن تضع لكل أحداث القصة زمنا محصيا بعدد السنين، دون التقيد بمنطوق النص، هو عمل يبعد صاحبه، عما جاء في قوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١ "3. والأهم أننا وجدنا بأن القرآن الكريم يهتم بالزمن الغيبي أكثر من الزمن الموضوعي للأحداث، وهذا استثناء لابد أن تقف عنده الدراسة لاستخلاص الحكمة والعبرة من هذا التوظيف، وفيه تتجلى طلاقة علم الله تعالى. لهذا كان الوقوف عند المدة الغيبية التي عجزت حاشية الملك من تأويلها، لولا تأويل يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك، واستشرافه الزمن المستقبلي الذي ينذر بحالة الجفاف، التي ستلي حالة الرخاء، ولكن مصدر هذا العلم هو الله تعالى. وسيكون لنا تفصيل في الفصل الرابع في زمانية القصة القرآنية - إن شاء الله - .

وفي قصة آدم التي تمثل قصة الإنسانية وتاريخها، وبعد التمهيد للقصة في قوله تعالى " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْنَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩ "4 أخبر الله جل جلاله ملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة، وذلك قبل خلق آدم، وإقامته

1 - سورة آل عمران: الآية 7 .

2 - سورة يوسف : الآيات 47 ، 48 ، 49 .

3 - سورة يوسف : الآية 111 .

4 سورة البقرة : الآية 29 .

في الجنة، وخروجه منها، وهبوطه إلى الأرض، قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ "1. وقد ذهب أهل التفسير إلى تحديد مفهوم الخلافة، والبحث عن الذي خلفه آدم، إلا أن العبرة من عرض قصة آدم، هو علم الله المطلق، لهذا ترددت لفظة العلم ومشتقاتها في قصة آدم التي جاءت في سورة البقرة. يقول الله تعالى: " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ "2. فالوقوف عند علم الله المحيط بكل شيء، والمشرف على كل لحظة زمانية في السر والعلن، هو أولى وأهم من محاولة البحث في معرفة من خلفه آدم، أو ما هي الأسماء التي علمها الله لآدم، أو أين مكان الجنة التي وضع فيها؟. إن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وما يبدي ملائكته وما يسرون، وقد علم آدم ما يشاء من العلم، الذي عجزت عليه الملائكة، وحسبنا ما قصه علينا الله تعالى في وحيه، لتدبره .

إنه قد تقرر في علم الله السابق، أن آدم سيحيا على الأرض، ولا اعتراض على مشيئة الله سبحانه وتعالى، إذن " فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى، ففيم إذن كانت تلك الشجرة، وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن الهبوط إلى الأرض، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى؟ "3. وكذلك في قصة السجود لآدم، كان الحديث عنها قبل خلق آدم. قال تعالى في سورة ص: " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٧٢ "4. فمشيئة الله تعالى اقتضت ذلك، ولا اعتراض على ذلك إطلاقاً. هذا هو القصاص القرآني بعرضه المحكم الذي يجلي طلاقة القدرة والعلم لله عز وجل فلا أحد يعلم إلا إذا أراد الله أن يعلمه مما يشاء، فهو العليم الحكيم. فأين هذا من قصة آدم التي جاءت في العهد القديم، تحكي خروج آدم من الجنة، وهبوطه إلى الأرض؟ " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد * فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها * فطرد الإنسان وأقام

1 - سورة البقرة : الآية 30 .

2 - سورة البقرة : الآيات 31 ، 32 ، 33 .

3 - سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

4 - سورة ص : الآيتان 71 ، 72 .

شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة "1. فأين علم الله ومشيبته، وهو الخالق العليم الذي علم آدم، فكيف يتحول العلم إلى خطيئة ومعصية؟ .

إن سرد العهد القديم قد ساوى بين الخالق والمخلوق، وجعل العلم خطيئة، بل جعل " إن الكنيسة قالت لكم إن العلم هو خطيئة آدم الأولى، عندما أكل من شجرة المعرفة، وازداد بصيرة فغضب الله عليه، وطرده من الجنة، وكانت المعصية الأولى. ومن أراد علما فإنما يريد معصية ويريد نارا "2. ولهذا فقصه آدم القرآنية تزيل كل لبس حول صفات الله العليا، بل جاءت لتنزّه الله عن كل ادعاء باطل، لا يليق بالذات العليا، وهذا أهم وأولى، من تفصيل زمن أحداث القصة " فأين كان الذي كان؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم، وزوجه حينما من الزمن؟ ... هذا وأمثاله في القرآن غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر من أمره، وكل جهد في معرفة كنهه وطبيعته. فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به "3. ولا بد أن يقف المتلقي للنص القرآني عند معالمه البارزة التي جاءت صريحة بينة، ليتعامل مع النص، بعيدا عن كل تأويل، أو قصد مريب، وتوفير الجهد للدراسة المفيدة والمثمرة، المتماشية مع مبدأ التدبر والاعتبار. فالله الخالق العليم هو الذي أرادت مشيبته العليا بأن يخلق آدم في الجنة، ثم يهبه إلى الأرض ليعيش حياته ويؤدي وظيفته التي خلق من أجلها " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ "4. كما حدد الله جل جلاله بداية ونهاية وجود آدم ومن بعده ذريته على هذه الأرض، ولن تستطيع أية قوة أن تغير أو تقدم أو تؤخر نهاية هذه المدة .

وفي قصة أهل الكهف، والتي سنتعرض لها في المبحث القادم من هذا الفصل، نجد أن معالم القصة قد تحددت في بدايتها، في قوله تعالى: " فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ١٢ "5. إن " الطريقة التي اتبعت في عرض هذه القصة من الناحية الفنية، هي طريقة التلخيص الإجمالي أولا، ثم العرض التفصيلي أخيرا. وهي تعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يعرف ما فيها من السياق "6. فالمقدمة التي يبدأ

1 - العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرات 23 ، 24 ، 25 .

2 أحمد عزت شيخ البساتنة : المرجع السابق . ص 101 .

3 - سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

4 سورة الذاريات : الآية 56 .

5 - سورة الكهف : الآيتان 11 ، 12 .

6 - سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الخامس عشر . ص 2261 .

بها القصة القرآني، قبل العرض التفصيلي للأحداث تجلي لنا بشكل قاطع ، أن السارد خارج عن الخط الأفقي للزمان، بل خارج عن كل الأزمنة، عكس ما عليه الشأن في السرد الفني، وهذه الميزة هي التي تدلنا على أن السارد في القصة القرآني، يعلم سيرورة الأحداث بداية ونهاية، بل هو الذي يشرف عليها ويوجهها، ولن يخرج أي فعل عن إرادته القاهرة، ومشينته العليا .

إن ميزة السارد العليم لا يمكن أن نعثر عليها، إلا في النص القرآني وقصصه، وهذا ما جعل الآيات التي تصف الله بعلام الغيوب، تتكرر ضمن السور، سواء العلم بالمكان : " أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم "1، أو العلم بالسر والعلن " وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون " 2، وحتى في الحوار والمناجاة " ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيمة إن الله بكل شيء عليم " 3، والعلم بنهاية الزمن ومكان وزمان أجل النفوس " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير " 4. فالله تعالى يقول عن نفسه : " علم الغيب والشهادة الكبير المتعال " 5. ومادام الله هو الخالق، فهو يعلم شؤون خلقه " ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " 6. ويقول الشيخ الشنقيطي : " والآيات المبينة لهذا كثيرة جداً... ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم، إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى " 7. هذا الحضور الدائم والمستمر، وهذا الإشراف والإحاطة المطلقة بعلم المكان والزمان، والأحداث الشخوص، والذي انعدم في قصة العهد القديم، يستحيل أن يتوفر أيضاً في أي فضاء سردي مهما كان منتجه أو زمنه، وذلك بسبب خضوع السارد للمكانية .

إن انعدام وجود أثر واضح من هذا العلم بالغيب، لصفات الرب الإله في نصوص العهد القديم لا يدل، إلا على أن هذه النصوص قد تساوت مع غيرها، ولا فرق بينها، وبين أي نص بشري " فإن صح أن هذه الكتب من السماء ، وأن كتاب محمد صلى الله عليه وسلم من الأرض،

1 - سورة المائدة : الآية 97 .

2 - سورة الأنعام : الآية 3 .

3 - سورة المجادلة : الآية 7 .

4 سورة لقمان : الآية 34 .

5 سورة الرعد : الآية 9 .

6 سورة ق : الآية 16 .

7 الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان ، دار الفضيلة ، الرياض 2005 . ص 240 .

فمعنى هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أقدر على صنع الدين من رب الدين، وأنه أفصح في الثناء على الله من الله، عندما يتحدث عن نفسه "1. ورغم ما في هذا الكلام من حق، وتقديرنا لعلم وإيمان صاحبه، إلا أننا نعترض عن عبارة - كتاب محمد - بل علينا أن نقول كتاب الله، تفاديا لأي شك في حقيقة كتاب الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فلا بد من تفسير الظاهرة القرآنية تفسيراً يحكم العقل والمنطق، ليصل إلى أن النص القرآني من ألفه إلى يائه، هو كلام الله عالم الغيب والشهادة. كما أن دراسة أحداث القصص القرآني وفق هذه الحتمية، تبرهن على أن مصدره، لا يكون إلا من عند الله الخالق العليم .

لقد أصبحت الظاهرة القرآنية للقصص تكشف عن نفسها، ضمن عرض الأحداث بالخط العمودي أو الرأسي، وصعوبة الكشف عن الزمن المستقبلي، جعل أحد الباحثين يتساءل " لماذا نتذكر الماضي ، ولا نتذكر المستقبل ؟ "2. أي لا نستطيع أن نرى مثلاً صورة فتات لكأس تكسر قد سقطت من الطاولة قبل سقوطه، وهذا لا يحدث إلا عندما نعيد شريط التصوير معكوساً، فنرى نهاية صورة الكأس ليعاد جمعه، ثم صعوده على الطاولة، عكس حركة السقوط. فهذه إشكالية زمانية تناولها هذا الفيلسوف في هذا العصر. فالنقطة القصوى التي تهيمن على زمانية الأحداث، وتشرف على هذا الخط العمودي، هي التي تسمح بعرض سيرورة الأحداث بمصير محسوم ومحتوم قبل بداية الحدث. أما الخط التراتبي فهو سمة السرد الصادر عن البشر المحدودين، لأنه هو " ذلك التتابع الحاصل بين الأحداث على أساس مواقعها الزمنية ، بحيث يأتي الماضي أولاً، ثم الحاضر، ثم المستقبل، وهو ما يمكن أن يظهر بصورته تلك في السرد على هذا النحو الثابت المتصاعد، وهو الأمر الذي يحدث، عندما يتوافق التتابع الزمني مع التتابع السببي "3. وبالتالي فالسارد البشري لن يستطيع أن يتجاوز أي مرحلة لاحقة في عملية السرد، حتى ينتهي من مرحلة سابقة، ولا أن يجعل الأحداث تخضع لحتمية سابقة. فالبشر مربوطون بالزمن ، وخاضعون له، كأبي عنصر من عناصر عملية السرد .

1 الشيخ محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، ص 16 .

2 ستيفن هوكنغ : تاريخ موجز للزمان . ص 12 .

3 هيثم الحاج علي : المرجع السابق . ص 27 .

إن البناء الهندسي للأحداث في القصص القرآني قد تجاوز الزمن الطبيعي والتاريخي للأحداث، كما جعل الأحداث ترتبط بالزمن الغيبي والخارق، لتتكسر الظاهرة الإعجازية. أما الرأي الذي يحاول أن يلقي الأحكام جزافا على زمانية الأحداث في القصص القرآني، فأصحابه لم يدرسوا الزمن كظاهرة في النص القرآني، ولم يحاولوا أن يتساءلوا لماذا اهتم النص القرآني بعرض مدة زمن خلق السماوات والأرض - وهي مسألة خطيرة - وأهمل زمن كثير من الأحداث؟ ولا أحد يستطيع أن يحسم زمن مدة خلق الكون، إلا من كان موجودا وحاضرا أثناء عملية الخلق. قال تعالى منبها إلى ذلك: "مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخَذِينَ عِزْدًا" ٥١¹. فمن ذا الذي كان قبل المكان والزمان؟ ومن ذا الذي كان قبل خلق الإنسان؟ فلا يكون قبل الوجود إلا خالق الوجود، ولا يكون قبل الإنسان إلا رب الإنسان.

فإن قصد الآية " هو رد على أصحاب النظريات الخاطئة في نشأة الكون، مثل نظرية داروين وغيرها من نظريات الملاحظة الذين لا قيمة لهم، ولا وزن لهم عند الله "2 فعدم العلم بغيب المستقبل، يتساوى مع عدم العلم بغيب الماضي، وإعراض القرآن الكريم عن تفصيل زمانية أحداث قصصه، من موضوعية وتاريخية، هي في حد ذاتها ظاهرة إعجازية، لا بد أن تحظى بالدراسة والبحث والتحليل. ولعل البحث في توظيف الزمن في القصص القرآني يمهد لوضع نظرية للزمن في النقد الأدبي. والأهم من ذلك هو بحث ارتباط الأحداث بالزمن الغيبي والخارق وعليه كانت دراستنا في هذا الفصل، الذي مهدنا لها بحتمية سيرورة أحداث القصص القرآني، ليتجلى لنا علم الله الواسع، والمحيط بكل شيء، ولهذه الحكمة الجليلة، تم ارتباط الأحداث بالزمن الغيبي، فارتسمت بدايتها ونهايتها في علم الله المطلق، ليأتي قصص الوحي مطابقا تطابقا تاما مع الأحداث التي وقعت، والتي ستقع مستقبلا. جاعلا فرقا شاسعا بين كل النظريات التي تألفت، ولا زالت تتألف بمختلف أنماطها ومواضيعها عبر الامتداد الزمني. ولهذا يقف البشر أمام الغيب عاجزين على تخط أي لحظة زمانية غيبية، فهم يعيشون اللحظة الأنية ويسجلون اللحظة الماضية التي عايشوها، أما ما يكون مستقبلا فلا طاقة لأي منهم في ذلك، ولهذا نجد أن أحداث

¹ سورة الكهف : الآية 51 .

² نخبة من المفسرين : التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، المجلد الرابع . ص 350 ، 351 .

القصص القرآني ارتبطت بالزمن الغيبي لتجلي لنا حكما وعبرا يستشفها كل دارس من خلال عملية التدبر التي أمر بها منهج القرآن الكريم. وهذا ما نحاوله في هذا المبحث .

ب - ارتباط الأحداث بالزمن الغيبي في القصص القرآني :

ما دام القرآن الكريم يعرض أحداث قصصه وفق القاعدة القانونية التي تحدد خطية الحدثية، وترسم من البداية نهاية القصة ومصير الشخص، مما يستدعي إسقاط الزمن الغيبي على الأحداث. لن يتوارى القصص القرآني إلى الوراء، أمام هذه الأنماط السردية قديمها وحديثها. بل يقف على الاطلاق متحديا بخطابه الزمن وبمجرد مقارنة بسيطة تكشف تلك المميزات، التي جعلت رسم أحداث القصص القرآني قبل أن تبدأ، وأن تتحقق في الواقع كما رُسم لها. وهذا هو التحدي الذي ينبغي أن نقف عنده، والذي يجلي لنا معجزة الوحي أولا، ومصدر هذا القصص القرآني ثانيا. وفي اعتقادنا بهذا النهج ، يمكن أن نستوعب حقيقة القصص القرآني، وأن نستخلص ما أعلن عنه الوحي، من حكم وعبر بعد عملية التدبر. أما مخالفة صريح الخطاب القرآني ومنطوق نصه، فهو ابتعاد عن الحق ، وضياح للجهد، وخروج بنتيجة أقل ما يقال عنها، أنها كانت عكس مقصد القرآن الكريم ، وبالتالي فهي مجازفة خطيرة، لا تتعلق بدراسة القصص القرآني وتدبره وفق منهاج رباني ، بقدر ما يكون القصد منها الطعن في مصدر الوحي عامة، وقصصه خاصة. ولا نراها إلا عملية اجترارية لما قاله المشركون السابقون - أساطير الأولين - وذلك منذ بداية زمن إقرأ .

سنحاول أن نستعرض بعضا من القصص التي تضمنت أحداثا غيبية، لكنها لا علاقة لها بالخيال ولا بالأساطير، ولا هي صناعة خرافة بشر " والغيب في الاصطلاح ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداءة العقول، وإنما يُعلم بخبر الأنبياء - عليهم السلام - وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد، وذلك كأمر البعث والحشر والحساب، والجنة والنار والملائكة "1 فالجواب الشافي والكافي الذي يحل هذا الإشكال، هو تأكيد القرآن الكريم بأنه من عند الله " وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٧ "2 وما محمد إلا رسول اختاره الله لتلقي الوحي " قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ

1 نخبة من العلماء : موسوعة البيان الإسلامي، المجلد الأول، دلة نهضة مصر، الطبعة الأولى 2012 مصر . ص 755 ، 756 .
2 - سورة يونس : الآية 37 .

فِيكُمْ عُمْرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦ "1. ولا يملك محمد صلى الله عليه وسلم رفضاً لذلك ولا خياراً له، إنه رسول الله ، أمره ربه أن يقول للناس " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمُنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨ "2. فهو مكلف بالتبليغ بأمر من الله تعالى مالك الكون، ورب المكان والزمان، ورب الناس، وما عليه إلا البلاغ " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَاتِي وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٦٧ "3. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان دائماً ينفى عن نفسه العلم بالغيب، وجاء تأكيد ذلك في الوحي " قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ "4. كما بين الله جل جلاله أن النبي لم يكن يدري ما هو الوحي. يقول الله جل جلاله " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢ "5. ولا قرأ قبله كتاباً، أو خط بيده حرفاً من حروفه " وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ٤٨ "6. فهذه التصريحات القرآنية البينة والجلية، تنفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم كل شبهة باطلة، وكل أسباب العبقرية، لتؤكد صدق نبوته، والرسالة الإلهية التي خصه بها الله تعالى .

فكل هذه الآيات " تدحض فرض هؤلاء الذين يرون في محمد صلى الله عليه وسلم مؤلفاً للقرآن، كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمياً، ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي، لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة "7. وهذا في حد ذاته معجزة تؤكد نبوته صلى الله عليه وسلم وتثبت صدق رسالته " فعظمة المعجزة القرآنية هذه التي تحدثت لعرب الجاهلية فأعجزتهم، تقف اليوم للتحدث للعقول الإلكترونية ولعلوم الفضاء والفلك والفيزياء

1 - سورة يونس : الآية 16 .

2 - سورة الأعراف : الآية 158

3 سورة المائدة : الآية 67 .

4 سورة الأنعام : الآية 50 .

5 سورة الشورى : الآية 52 .

6 سورة العنكبوت : الآية 48 .

7 - موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 130 .

النووية والكونية والهندسة الوراثية والحيوية وعلم التاريخ ... بل لكل العلوم وبلغة تعجزهم بنفس قوة الإعجاز البلاغي للعرب الفصحاء¹. ولربما اعتقد المشركون والكفار وارتابوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم . لكن القرآن الكريم بقي ينزل واستمر، حتى اكتمل نزوله من أول آية " أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ ١ "2. مُعلنًا بعد سنوات من تنزيله، اقتراب اكتماله " أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا "3. ولكن الأمر الملفت للانتباه، هو هذا التنبأ بالغيب، والاستشراق لزمن الأحداث مستقبلا التي احتواها القصص القرآني .

فحين نتصفح القرآن الكريم، نجد أن الله يؤكد أن هذه الأنبياء، لم يكن للنبي علم بها، ولا لقومه، فهي وحي من الله علام الغيوب " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُنْتَقِينَ ٤٩ "4. فلا مصدر لدى الرسول صلى الله عليه وسلم يستقي منه هذه الأخبار الغيبية، ولا كان قومه يعلمونها " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْسُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ١٠٠ "5 وكل ادعاء على الوحي، ليخرجه عن مصدره الإلهي فهو باطل، يسقط عند أول آية من الذكر الحكيم - اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - . وافتراء فاضح مردود على كل مفتر. فهذه الآية الأولى من فاتحة الكتاب، تدل على صاحبه، وهو رب العالمين. كما تدل أول آية من السورة الثانية عن صدق الكتاب " اَلَمْ ۙ ذَلِكَ اَلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ "6. ومن هنا نحن نؤمن إيمانا راسخا بأن القرآن الكريم هو كلام الله، وأن قصصه حق " اِنَّ هٰذَا لَهٗوَ اَلْقَصَصُ اَلْحَقُّ وَمَا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا اَللّٰهُ وَاِنَّ اَللّٰهَ لَهٗوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيْمُ ٦٢ "7. أما الذي لا يرى في القرآن الكريم هذا الحق، ويحاول أن يتخذ سبيلا مخالفا للإيمان بالوحي، وأن يقول بوجود الخيال والأسطورة، وآثار البيئنة في النص القرآني، كالقول بأن: " مذهب القرآن فيما يتضح من الطواهر السابقة، هو بناء القصة القرآنية على عناصر يستمدّها من البيئنة، أو من العقلية العربية، وليس ذلك إلا ليكون القصص أشد تأثيرا وأقوى سلطانا، وإلا ليمضي القص بين المؤلف العادي من الأحاديث والأشخاص، والغريب النادر من الأفكار والآراء "8. فلا يكون هذا القول، إلا محاولة لإبعاد القصص القرآني عن

1 أحمد عزت شيخ البساتنة : المرجع السابق . ص 97 ، 98 .

2 - سورة العلق : الآية 1 .

3 سورة المائدة : الآية 3 .

4 - سورة هود : الآية 49 .

5 - سورة هود : الآية 100 .

6 سورة البقرة : الأبيتان 1 ، 2 .

7 سورة آل عمران : الآية 62 .

8 - محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق ، ص 257 .

مصدره الإلهي، وربطه بالبيئة العربية الضيقة. وإن كان كذلك، فلماذا صمد النص القرآني عبر الامتداد الزمني فراضاً ذاته؟ ولا زال يُحدث الأثر تلو الأثر في نفوس وقلوب وعقول الأجيال المتعاقبة .

إن القرآن الكريم لا يبني قصصه على العقلية العربية، فهو ليس نزعة قومية، ولا عاطفة عربية جاهلية، فهو وحي الله الحق، الذي جاء ليعيد الفطرة الإنسانية إلى منبعها الصافي، بعد أن شوشها الشرك والكفر والضلال، وما نطن أن العقلية العربية الجاهلية كانت مبنية على الدين الحق، والعلم الصحيح. ولو كان القرآن الكريم كما زعم الكاتب، لما استطاع النص القرآني أن يصمد عبر كل هذا الامتداد الزمني، منذ النزول إلى يومنا هذا. ولعل من " الواجب أن نقرر مجازة لسذاجة النقاد المحدثين، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل بطريقة عالم فقيه ، يكشف عن كثير من الوثائق ويتأملها، ثم يرتبها وينسقها، كيما يستمد منها الرواية القرآنية "1 وفي أي مركز للتوثيق كان يتم ذلك؟. إن القصص القرآني لم يستمد عناصره من بيئة إقليمية أو قبلية، ولا من مركز التراث والأرشيف للوثائق التاريخية، في مجتمع مكة الأمي البسيط ، الذي انعدمت فيه حتى وسائل الكتابة، أو كانت جد نادرة .

إن القصة القرآنية قصة كونية البيئة، خالدة الخطاب، إلهية المصدر. تجاوزت حدود المكان والزمان، واشتملت أحداثها على العالم الدنيوي منذ خلق الكون. كما اشتملت على أحداث عالم الخلود الأخروي الغيبي. وهي لم ترتبط بأي عقلية، قدرار تباطها بالحق الأزلي ، وكان مصدرها هو الله تعالى، الخالق العليم، وكان الإنسان المخلوق، هو محورها الذي تدور حوله. فأين عقلية البيئة القرشية؟ وكيف كانت هذه العقلية القبلية تتصور العالم آنذاك؟ وكيف كانت ترى بداية الخلق ونهايته؟ وما هو حظ علمها من قصص الأمم الماضية، والتاريخ والعقائد والحياة والموت والمصير؟ ومن أي مصدر أخذت قريش هذه المعارف الغيبية التي أكد القرآن الكريم على جهل قوم النبي صلى الله عليه وسلم بها؟ وهل كانت تملك تراث تاريخ الإنسانية منذ خلق آدم، بل منذ أن كانت السماوات والأرض رتقاً؟ وهل كانت قريش تعي قول القرآن الكريم: " أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا

1 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص 266 .

يُؤْمِنُونَ ٣٠ " 1. فقريش القبيلة لم تعرف إلا أفق القبيلة الضيق، وعقلية العشيرة والقومية والعصبية، لا أفق الإنسانية. ولم تكن تعرف طريقا سوى طريق رحلتي الشتاء والصيف، فمن أي اتصال جاءت بتكريم بني آدم في البر والبحر ؟ " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠ " 2. فأين هذا من قريش، وهي القبيلة والعصبية ؟ وأين قريش من قوله تعالى ؟ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١ " 3. وهي القبيلة المنغلقة في حدود صحرائها، تتعامل في سوق النخاسة مع بشر عبيد، حطمت عنصرية السادة آدميتهم، وحولتهم بضاعة ثباع وتشتري وتضطهد ؟. فهل من هذا المصدر العنصري القبلي الضيق، بنى النص القرآني مفهوم الأخوة الإنسانية ، ووحدة الأصل، وحقيقة العبودية لله وحده ؟ .

لقد قص علينا الوحي قصة قريش في سورة قريش القصيرة. يقول تعالى : " لِأَيُّ قُرَيْشٍ ١ أَلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ٤ " 4. فقريش بواقعها الفكري والأدبي والاقتصادي، وبيئتها الصحراوية الضيقة، لم تتطلع لجغرافية المكان، ووصف الفضاء، إلا لجغرافية مكان وطريق رحلة الشتاء والصيف التي كانت مورد رزقها وعيشها. ولم تعكس عقليتها صورة الكون بسبع سماوات طباقا، ولا صورة الفضاء المتوسع، والسنين الضوئية المفصلة بالآف السنين، وانتهاء بسدرة المنتهى. وهل كشفت بحساباتها العلمية الدقيقة، غيب قصة خلق الكون ؟ ومدته الزمنية المحصية بستة أيام ؟ ومدة زمن العروج إلى سدرة المنتهى بنسبية يومية، حُدِدَت بخمسين ألف سنة ؟ وهل قريش وصلت بعلمها الصحراوي لمعرفة ما كان يجري في قاع المحيطات والبحار ؟ " أَوْ كَظَلُمْتَ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْتَسِلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرِلْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ٤٠ " 5. فهذا المجاز " يترجم على عكس سابقه عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي في القرآن، بل لا علاقة لها بالمستوى العقلي، أو المعارف البحرية في

1 سورة الأنبياء : الآية 30 .

2 سورة الإسراء : الآية 70 .

3 سورة النساء : الآية 1 .

4 - سورة قريش : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

5 سورة النور : الآية 40 .

العصر الجاهلي" ¹. فهل نقبت قريش على أحداث الماضي الغابر التي اندرست منذ آلاف السنين ؟ فأين كل هذا من مستوى قريش العلمي والفلسفي، والتاريخي والفني الذي يعكسه أدبها الجاهلي شعراً وخطابة وأمثالاً ؟ . والدراسة المقارنة وحدها هي الكفيل الوحيد الذي يدحض تلك الادعاءات والمزاعم الباطلة، وسيتبين لنا جلياً حين ندرس الخطاب القرآني وارتباطه بالتاريخ، ليظهر لنا أن دراسة القصص القرآني لا يمكن أن تُستوعب حقيقتها إلا من خلال موسوعة معرفية متنوعة، لأن القصة القرآنية لامست تاريخ الإنسانية وليس تاريخ القبيلة ، وتناولت قصة خلق الكون والإنسان، وليس قصة الجزيرة العربية والفرد العربي .

لابد أن يكون البحث جدياً مع الالتزام بالنص القرآني. ولهذا نجد أن المسألة الغيبية التي أثارها القصص القرآني، ستفتح باباً من الجدل والتحامل على القصص، وإدخاله ضمن المنظومة الأسطورية، أو منظومة الكتاب المقدس. فالزعم بأن القصص القرآني ما هو إلا انعكاس للبيئة العربية، شأنه شأن السرد القصصي، فهذه مقولة وليدة نظرية نقدية تخص المنظومة السردية، باعتبار أثر البيئة والثقافة بالأدب أثراً متبادلاً. أما القصص القرآني فمصدره ومنهجه ومقصده، لا علاقة له بالبشري إطلاقاً. وهذا هو الفارق الجوهرى بين السرد القرآني والسرد البشري، أو بين الوحي الإلهي، وكلام البشر. وعلى هذا الأساس يجب علينا أن نتعامل مع النص القرآني، لدراسة قصصه، وضمن المستويات المختلفة كالتاريخي والخرق. أما معالجة النص القرآني وقصصه بهذه السذاجة الفكرية، مع تجاهل ما كان عليه وضع قوم النبي صلى الله عليه وسلم من بساطة فكرية، وعصبية قبلية ضيقة، هي في اعتقادنا محاولة إضفاء على القوم، ميزات لم تكن لديهم إطلاقاً، وجعلهم محظوظين بنبوغ علمي وفكري، سبقوا به حضارة الأمم التي عاصرتهم، والتي ستأتي بعدهم. وعلى ذلك " فما كان لنا أن ننسب هذا المجاز إلى عبقرية صنعتها الصحراء، ولا إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية " ². كما يحاول هؤلاء في الوقت نفسه، أن ينزعوا عن الوحي وقصصه كل مميزات التفرد والإعجاز، وهذا يدل على أن البحث بهذا الاتجاه لا يبحث الحقيقة المجردة، ولا يريد أن يعترف بالحق، ولا أن يؤمن بالخالق ووحيه .

1 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية . ص 296 .

2 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية . ص 296 .

إن كل ما جاء به نص الوحي، وما سجله التاريخ، وكتب السيرة، وما ألفه المفكرون والدارسون، ووصل إليه العلماء من نتائج علمية، وما بناه المسلمون من نهضة أرست أسس الحضارة على كل اجتهاد فكري وعلمي. فكل هذا يتجاهله هؤلاء المدعون، ويتخذونه ظهريا ليقولوا بكل بساطة وسذاجة إن القصص القرآني تأليف بشري، مستمد من البيئة والعقلية العربية، وحين وقفوا على توظيف الزمن الغيبي في القصص القرآني، كان اتجاههم منصبا على الأسطورة والخيال، ليجدوا مخرجا لهم عبر ذلك. إن الدراسة المقارنة التي قام بها موريس بوكاي أوصلته للإقرار بحقائق القرآن الكريم، حيث يقول: " وهكذا يتقرر لدينا من جديد، أن حقائق القرآن العلمية ... تدل جميعها على أن نصوص القرآن، لا دخل ليد البشر فيها، وأنها وحي لا شك فيه، وذلك خلافا للأحاديث الظنية من أخبار الآحاد، التي يمكن أن ترتفع في الثبوت إلى درجة الوحي المنزل المتواتر المكتوب"¹. بل لم يصلوا للبحث وراء هذه الإثارة في طرح النسبية الزمانية، بهذا القدر العجيب، والغريب والمعجز، التي ساقها الوحي في قوله تعالى: " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۚ"². فماذا قالت قريش؟ وماذا قال المشككون؟ وماذا قالت الأسطورة؟ وماذا تقول الدراسة المقارنة العصرية؟.

فحين يستوقفنا الغيب مرتبطا بالأحداث في القصص القرآني، يتبين لنا بأن السارد هو المشرف على الأحداث، وهو المتصرف فيها، والموجه لها بداية ونهاية. وهذا يؤسس للظاهرة الإعجازية التي تتجلى في علم الله الواسع، وحكمته البالغة، وإرادته القاهرة التي تجسد الفوقية في تسيير الأحداث، وترسم حتمية المصير بكل تفاصيله. وبخلاف أسفار العهد القديم والجديد، فإننا نجد غياب إشراف الله ضمن أحداث النص، وأن إشرافه غير مستمر، يمتاز بالتقطع، حتى نكاد لا نعثر إلا على فعل الشخص، وهم يتحركون بدون الإشراف والإحاطة الكلية لله. هذا فضلا على ما في العهدين من تناقضات، مما " يثير الدهشة حقا تنوع ردود الأفعال لدى المعلقين المسيحيين إزاء هذا الكم المتراكم من الأخطاء والتناقضات، والأمور غير المعقولة"³. مما يدل على حقيقة ميزة محتوى نص العهد القديم والجديد وخصائصه، وأن هناك تناوبا بين البشري والإلهي على العملية السردية. كما أن الزمن قد تجاوز نصوصهما، ليظهر بأن الأحداث

1 - موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم ، ص 243 .

2 - سورة المعارج : الآية 4 .

3 - موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 47 .

التي سُطرت في الغيب، جاءت على عكس ما تم تسطيره، وهذا ما يجعل النص الديني عند أهل الكتاب عرضة للشك والتناقضات. أما في النص السردي للقرآن، فكل حركة أو فعل أو عمل تقوم به العناصر الفاعلة، إلا بعلم الله المحيط. كما أن القدرة الإلهية هي التي تمكن الشخصية المؤمنة في القصة من الفعل، هي القدرة الإلهية ذاتها التي تقوم بسلب الشخصية الكافرة الطاغية قدرة الفعل أيضا " وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ "1. وهذا ما يجلي القدرة المطلقة، والإحاطة الشاملة لله عز وجل بالمكان والزمان والشخوص .

إن هذه الفوقية هي التي سطرت الأحداث، على أرض الواقع، بالمدة الزمانية التي قدر بدايتها ونهايتها الخالق العليم، لتتضح معالم حدود القدرة البشرية، أمام القدرة الإلهية المطلقة، كما تبرز شساعة التباين بين النص القرآني، وأنواع النصوص السردية المختلفة والمتنوعة، على الرغم من التقاسم اللغوي المشترك بينهما. فحين يسرد علينا الوحي قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح في سورة الكهف، عبر المشاهد الثلاثة التي تضمنت أحداثا غيبية، يقوم بها العبد الصالح عن علم، وبوحي من الله عز وجل. يقول تعالى: " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا نَدُّنَا عَلْمًا ٦٥ "2. وموسى - عليه السلام - لن يستطيع صبرا على ذلك. وهذا تنبيه من العبد الصالح، قبل بداية الرحلة " قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧ "3. يقوم العبد الصالح بأعمال ثلاثة، سردها النص القرآني وهي: خرق السفينة التي أوصلتهما " فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٧٢ "4، وقتل الغلام " فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَتَنَّهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ٧٤ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٧٥ "5، وإقامة جدار يكاد أن ينقض " فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧ "6. مما تطلب تدخلا

1 - سورة الفتح: الآية 7 .

2 - سورة الكهف: الآية 64 .

3 - سورة الكهف: الآية 66 ، 67 .

4 - سورة الكهف: الآية 70 ، 71 .

5 - سورة الكهف: الآية 74 ، 75 .

6 - سورة الكهف: الآية 77 .

من طرف موسى - عليه السلام - ولا سيما في العملين الأولين، لأنه لم يطق صبرا رغم تنبيه العبد الصالح له قبل ذلك .

إن حيرة موسى - عليه السلام - كانت بسبب حكم علمه على الظاهر، في الزمن الحاضر وعدم اطلاعه على الغيب، لأن " العبد الصالح حكم بعلمه الذي علمه الله له، وموسى - عليه السلام - حكم بما يعلمه، ومن هنا اصطدم الحكمان. فالعبد الصالح كان يقوم بعمل خير مستور في كهف ظاهره الشر، وموسى - عليه السلام - كان يرى في هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط ويحكم به، لأنه لا يعلم باطن الأمور"¹ . لم يكن فعل العبد الصالح مبنياً على الرؤية الأفقية لزمن الأحداث، وإنما على الرؤية الرأسية، مما يجعله يتجاوز زمن الحاضر إلى المستقبل في أفعاله التي قام بها، لأن " تخريق السفينة تنقيص لملك الإنسان، من غير سبب ظاهر. وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة، من غير سبب ظاهر. والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل في المسألة الثالثة تحمل التعب والمشقة، من غير سبب ظاهر"². وهذا موقف يتقاسمه كل قارئ للقصة مع موسى - عليه السلام - . لكن العبد الصالح خص بميزة الاستشراف الفعلي بنتائج العمل قبل الفعل، وأن هذه الميزة المتفردة في التنبأ بالغيب، لن يتوفر عليها أي بشر، إلا بإرادة وتمكين من الله جل جلاله .

نقول إن العبد الصالح قد خصه الله بتذكر المستقبل، الذي أصبح إشكالية أمام علماء العصر المتقدمين في دراسة الزمن، ويتساءل ستيفن هوكينغ: " لماذا نتذكر الماضي، ولا نتذكر المستقبل"³ . هنا يتوقف النقد الأدبي، ويتوقف معه العلم المادي، ليفتح مجالاً للغيب تظهر معه محدودية قدرة البشر، ووقوفها عند طبيعتها التي خلقها الله تعالى عليها، دون أن تتجاوز لحظة مستقبلية واحدة، إلا إذا خصها الخالق العليم بذلك. لكن الوحي يبين لنا الحكمة من تلك الأحداث على لسان العبد الصالح، وهو يفسر لموسى - عليه السلام - الدافع من وراء ذلك " أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝ ٧٩"⁴ . في هذا المشهد يتضح علم الشخصية، الذي يحيط بوضع أصحاب السفينة، كما يحيط بطبيعة

1 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 218 .

2 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الواحد والعشرون . ص 160 .

3 ستيفن هوكينغ : المرجع السابق . ص 12 .

4 - سورة الكهف : الآية 79 .

الملك المستبد الظالم، ويعلم أيضا سلوك الملك مستقبلا، فهو لن يقدم على أخذ هذه السفينة، فكانت إعايتها رحمة بالمساكين. إن " الركوب فيها كان لأجل خرقها، لأن الشيء المقصود يبادر به قاصده، لأنه يكون قد دبره وارتآه من قبل ... لأن في تقديم الظرف اهتماما به، فيدل على أن وقت الركوب مقصود لإيقاع الفعل فيه "1 . لهذا يمكن ربط عملية ركوب السفينة بخرقها، كعملية غيبية اطلع عليها العبد الصالح، وبوحي من الله علام الغيوب.

أما المشهد الثاني فسيكون أخطر من الأول، لأن فيه إزهاقا لروح غلام بريء، فيأتي تفسير سبب الفعل لوضع غيبي " وَأَمَّا الْعُلْمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٨٠ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨١ "2. يستمر علم الفاعل ليتغلغل إلى طبيعة النفوس والقلوب، وهي مواطن الكتمان، ليمزق حاجب الغيب، فتتكشف له عقيدة الأبوين الحالية، وعقيدة الغلام المستقبلية عند البلوغ، فيحقق بفعل عملية القتل أمنية الوالدين ، ليتحول فعل القتل إلى رحمة لهما، ويجنبهما شقاوة من طرف الغلام المقتول، إن بقي حيا . وأما " تصرفه في قتل الغلام فتصرف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله ، وأعلم به الخضر بالوحي "3. ولهذا فنحن لن نتقبل قتل غلام بريء، ونرفضه إطلاقا، إلا إذا آمنا بالوحي، وأن العبد الصالح يتصرف بوحي من الله تعالى، وأنه يعلم المستقبل ويتذكره . والذي هو إشكالية زمانية لا يقدرها إلا من كان مؤيدا من الله تعالى .

أما في المشهد الثالث، فيقوم العبد الصالح بترميم جدار دون مقابل، في قرية بخلاء أهلها " وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٨٢ "4. إنه العلم بالغيب الذي يوجه الفاعل للقيام بتلك الأحداث في زمنها المناسب، متنبئا بما سيحدث حقا، فهو يعلم شخصية الوالد المؤمنة الصالحة، ويعلم وضعية الغلامين الاجتماعية، كما يعلم ما يوجد بمكان الجدار المنقوض فيحفظ بهذا العمل كنز اليتيمين، حتى يبلغا رشدهما ليستخرجاه. ولعله - الأب - " سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما، أن يبحثا عن مدفن الكنز

1 - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الخامس عشر . ص 375 .

2 - سورة الكهف : الأيتان 80 ، 81 .

3 - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء السادس عشر . ص 13 .

4 - سورة الكهف : الآية 82 .

تحت الجدار، بقصد أو بمصادفة. فلو سقط الجدار قبل بلوغهما، لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه، فعثر عليه عاثر "1. فحالة الجدار الموصوفة كانت لا تنتظر زمنا ولا تأجيلا، لأن سقوطه كان وشيكا، والجدار يريد أن ينقض. وهذا يبين أن العملية كانت تحتاج إلى سرعة الإصلاح والمعالجة، دون انتظار أو تأجيل، لأنه يقال " انقض إذا أسرع سقوطه، من انقضاء الطائر "2. ليقوم العبد الصالح بالتدخل في اللحظة المناسبة، حفظا للكنز إلى زمن البلوغ .

فكل تلك المشاهد والأفعال كانت تجعل موسى النبي - عليه السلام - لا يطيق صبرا ، وفي " هذه المسائل الثلاث، ليس حكم ذلك العالم فيها مبنيا عن الأسباب الظاهرة المعلومة. بل كان ذلك الحكم مبنيا على أسباب معتبرة في نفس الأمر، وهذا يدل على أن ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور، ويطلع بها على حقائق الأشياء "3. وموسى - عليه السلام - لن يكمل الرحلة، وهذا ما تنبأ به العبد الصالح قبل زمن بداية الرحلة، واستحالت مواصلة الرحلة. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن: " وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما "4. وتختتم القصة بقول العبد الصالح بتأويل العبد الصالح للأعمال التي قام بها وم ذكر الأسباب. إن العبد الصالح محيط مستقبلا بنتائج الأفعال التي سيقوم بها صحبة موسى - عليه السلام - وهذا بتمكين من الله تعالى لعباده الصالحين .

فالحاصل " أن ذلك العالم كان مخصوصا بالوقوف على بواطن الأشياء، وبالاطلاع على حقائقها، كما هي عليها في أنفسها، وكان مخصوصا ببناء الأحكام الحقيقية على تلك الأحوال الباطنية، وأما موسى - عليه السلام - فما كان كذلك، بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور، فلا جرم ظهر التفاوت بينهما في العلم "5. وهذا يؤكد علم الله وإحاطته الشاملة ، بكل ما سيقوم به العبد الصالح من حركة وعمل. كما أن فعل العبد الصالح ، ما هو إلا تنفيذ لإرادة الله القاهرة، ولا مكان لأي نزوة ذاتية للشخصية، فيما قامت به من أعمال، ظاهرها شر وباطنها خير، جعلت النبي موسى - عليه السلام - لا يطيق صبرا. ولهذا قال الله تعالى واصفا العبد الصالح بصفة العلم والرحمة في بداية القصة: " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا

1 - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق، الجزء السادس عشر . ص 14 .

2 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الحادي والعشرون . ص 158 .

3 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق، الجزء الأول . ص 160 .

4 الإمام البخاري : المرجع السابق . ص 758 .

5 - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق . ص 160 .

وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ٦٥ " 1. إن الله هو الذي من على هذا العبد الصالح بنعمتي الرحمة والعلم، ليقوم بهذا السلوك وفق ما قصه علينا الوحي، وما ألهم به الله تعالى عبده الصالح .

هذا التمهيد الذي جاء في القصة، يضع جوابا مبررا لأفعال العبد الصالح، ليتأكد الرد على لسان الشخصية الفاعلة، عند نقطة الفراق بتأويل ما حدث. فهو يمثل تنفيذ أمر الله الحكيم فإنه العبد المأمور المؤيد بعلم من لدن الله عز وجل. وعلى هذا الأساس يتم التقابل بين شخصية موسى - عليه السلام - الذي يتوقف علمه عند اللحظة الأنبية، وشخصية العبد الصالح الذي يملك علما خاصا يتجاوز به الحاضر إلى المستقبل. " الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن هذا الذي ترونه أمامكم هو الكهوف الظاهرية للحقائق التي أسترها، والتي يصل إليها علمي، وعلم من أعلمه " 2. وبالتالي فإن الله تعالى يمكن لمن يشاء من عباده بعلم من لدنه، ليمارسه على أرض الواقع، فيجلي لنا إرادته الفوقية، وعلمه الواسع. وإذا كان هذا هو فعل العبد الذي مكنه الله العليم الخبير. فكيف نقف نحن من سعة علم الخالق اللامحدود ؟ ومن طلاقة قدرته في أفعاله الحكيمة وتدبير الأمور وتصريف الشؤون ؟ لكن الإيمان بالله يجعلنا نردد مع ملائكته ، قوله تعالى : " قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٢ " 3. ولا علم لهذا العبد الصالح، إلا ما شاء الله له .

أما الجدل الذي كثر حول شخصية العبد الصالح، وظل يقدم تخمينات لم يهتم بها الوحي، ولم ترد ضمن النص القرآني. كالقول بأن " تصرفه (العبد الصالح) في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا، ليكون مرجعا لتلقي العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء، فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه " 4. فإن موسى - عليه السلام - وهو من الرسل أولي العزم، ومع هذا لم يطق صبرا ، أثناء مصاحبته له، فما بالناس بالأشخاص العاديين. فلا ينبغي أن نحصر قصص القرآن الكريم في نزوات أشخاص، أو أن نحصر سنن الله تعالى في رغبات أناس، لا يهمهم سوى أن يكونوا متميزين عن بقية

1 - سورة الكهف : الآية 65 .

2 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 219 .

3 - سورة البقرة : الآية 32 .

4 - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 14 .

الخلق. وقد نجد أسلوب العهد القديم، يُخضع إرادة الإله الرب، إلى نزوات شعبه المختار، وهذا الاعتقاد والعبث لا يليقان بوحى الله تعالى، ولا بذاته العليا - تعالى الله عما يصفون - .

ربما وظف بعض الصوفية قصة العبد الصالح، لصالح أفكارهم واتصالهم بعالم الغيب ، فأبقوا عليه حيا بسبب أنه شرب من عين الحياة، حين بعثه " أمير الجيش يرتاد لهم ماء ، وكانوا قد فقدوا الماء، فوقع بعين الحياة فشرب منه، فعاش إلى الآن "1. ففي العهد القديم شجرة الحياة، وفي التراث الإسلامي عين الحياة، وكل من توصل إليهما اكتسب الخلود وانتصر على الموت والزمن. كما يخبرنا ابن العربي بلقائه بالخضر، فيقول: " فلقيني شخص لا أعرفه، فسلم علي ابتداء، سلام محب مشفق، وقال لي : يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك فلان ... ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرفه بما جرى، فعندما دخلت عليه، قال لي : يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة، يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك : صدق فلانا فيما ذكره لك "2. إن فئة من الناس تتعامل بالغيب، لكي يصدق بعضها بعضا في طرح مسائل عادية. وهل يحتاج تصديق مسألة، بقاء الخضر حيا ؟ أو ربما لرؤية الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، ثم يخرج علينا الرائي، بقول منسوب للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وكأن المسألة ارتداد زمني أظهرت سهواً ربما وقع، استدركه هذا بتلك الرؤيا النبوية، شبيهة بما زعمه بولس في طريقه لدمشق، حين استعطفه الرب قائلاً له لماذا تضطهدني، ليتحول بولس بعد هذه الرؤية شريكا مع المسيح، دون أن يكون حتى من تلامذته الذين لازموا وحدثوا عنه، لتصبح رسائله أسفارا يعتد بها المسيحيون في بناء عقيدتهم وإيمانهم بالخلاص .

إن الإيمان بكتاب الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم الخاتم، يمنعنا من أن نصدق هذه المزاعم، لأن الوحي اكتمل نزوله، وختم الدين ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم . " إن إثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، لا يعني أيضا تركيز على فضائل شخص، أو على مزايا فردية لأحد. بل يعني الوحي قد أكتمل ... وأن آخرهم يعني أن النبوة قد انتهت "3 . والدين الحق ليس صناعة بشرية، يضيف لها كل من زعم جزءا ليعوض النقص، شأن

1 محي الدين ابن العربي : رحمة من الرحمن ، الجزء الثالث ، مطبعة نضر ، دمشق 1989 . ص 19 .

2 محي الدين بن العربي : الفتوحات المكية ، السفر الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 . ص 181 .

3 د. حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة ، دار التنوير للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى 1988 بيروت . ص 17 .

العقيدة المسيحية، وما قام به بولس من تأليف رسائل أضيفت إلى ما تركه كُتاب العهد الجديد. كان كل هذا نتيجة البحث وراء قضايا لم يذكرها الوحي، وخاض فيها البعض رجماً بالغيب، وأضاعوا الحكمة والعبرة من تدبر قصص القرآن الكريم، لأنهم لم يقفوا عند حدود النص القرآني، ولم يلتزموا به. وهذا ضرب من الادعاء بغير علم ولا دليل. ولماذا لا نكتفي بدراسة الحكمة من وراء الفعل الذي أورده النص القرآني في إطاره الغيبي، دون أي تجاوز، وكما أراد الله تعالى. لهذا قلنا سابقاً أن توظيف الغيب في القصص القرآني، سيفتح للبعض الخوض في مسائل غريبة، ظنا منهم أن لها علاقة بالدين والإيمان بالخوارق، وأن البعض سيتجه إلى التشكيك في تلك القصص، وينسبها إلى الخيال والأسطورة. كما يوظفها البعض لحسابه وزعمه، بأنه متصل بالعلم اللدني

إن توظيف الغيب وارتباطه بالأحداث في القصص القرآني، وفق المنهج القرآني، يدل على أن علم الله أوسع، وأن علم المخلوق لا يمثل إلا شيئاً تافهاً، مقابل علم الخالق المطلق الذي لا تحده حدود. فالقرآن الكريم تجاوز ذكر الزمن الموضوعي وتفصيله لأن الحكمة هي في تمكين الله العليم، عباده مما شاء من العلم. لقد تكرر ذكر زمن خلق السماوات والأرض في سور القصص القرآني، وهو أمر غيبي ومعجز " إِنْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْطِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٥٤ "1. يقول الشيخ الغزالي: " ونحن مع اختلاف الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر، نظن أن ذلك الواقع ضربة لازب، وأنه لا مصرف له، كأنما يقع من تلقاء نفسه، فاحتاج الأمر الوحي الإلهي يذكر الناس أن الله فاعل ذلك كله "2. إن القدرة الإلهية تتجلى دائماً أمام كتاب هذا الكون المنظور في تعاقب الليل والنهار الدائم. ومن " أبداع الاستدلال أن اختيار للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر، كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كل مميز، والذي هو أجلى مظاهر التغير في العالم، فهو دليل الحدوث، وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم، حتى الأصنام، فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل، وتشرق وتضيء بضياء النهار"3. إن كل الموجودات خاضعة لتغير الزمن، نتيجة تعاقب

1 سورة الأعراف: الآية 54 .

2 الشيخ محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم . ص 117 .

3 الشيخ الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، الجزء العشرون، ص 129 .

حركة الليل والنهار عليها، وهذا يدل أن هناك فاعلية تمارس إرادتها الفوقية على كل عناصر الوجود، وأن صاحبها فوق الزمان والمكان، تتساوى في علمه المطلق كل مراحل الزمن، من ماضٍ وحاضر ومستقبل، وشهادة وغيب، وهذا ما يجسده القصاص القرآني في أحداثه .

إن هذا العرض الغيبي يكشف عن رؤية راسية للزمن، التي تجمع الأحداث محيطة بأولها وتاليها، فهي تتساوى في إدراك نهاية الأحداث قبل بدايتها. فقصة العبد الصالح مع موسى - عليه السلام - في سورة الكهف، قد جمعت البداية والنهاية معاً، في الحدث عبر المشاهد الثلاثة، وهذا النوع من القصاص يستحيل علينا أن نجد في أي مشهد سردي. لأن السرد الفني وبكل تقنياته القديمة والحديثة، لا يعرض الأحداث إلا متتالية متتابعة. ويمكن " لنا النظر إلى الترتيب الخطي للأحداث زمانياً في السرد، بوصفه مُقوماً من مقومات السرد الحديث، لاسيما القصة القصيرة، ومنتجا للعديد من الآليات، والرؤى في النصوص القصصية المعاصرة"¹. هذه ميزة الطبيعة البشرية الخاضعة لعامل الزمن. وإذا كان هذا الترتيب الزمني من مقومات السرد الحديث، فماذا سيقول النقد في توظيف القصاص القرآني للزمن الغيبي، متجاوزاً تذكر الماضي إلى تذكر المستقبل. إنها فعلاً إشكالية زمانية للنقد، وليست للقرآن الكريم، ولا لقصاصه .

إن هذه المقارنة هي التي تسمح لنا بالكشف عن الظاهرة الزمانية لأحداث القصاص القرآني، وقد أشرنا سابقاً بأن القصة القرآنية ليست أحداثاً سردت ثم انتهت، وليست خيال مبدع أراد أن يتفنن في سكب مشاعره الجياشة، ليصبها في قالب قصصي، ليتحدى طبيعته المحدودة إن أحداث القصاص القرآني في مجال الزمن الغيبي، تجلي صفة السارد الخالق العليم الذي تتساوى إحاطة علمه بدقائق الأمور، تساويها بجلال الأمور، ويتساوى علمه بالغيب والشهادة في آن واحد. ورحمة منه لعباده المؤمنين الصالحين، أن يمكنهم بمشيئته ووفق إرادته هو وحده وكما مكن عبده الصالح ذي القرنين في الأرض - المكان - كذلك مكن لعبده الصالح من التنبأ بالغيب - الزمن - ولهذا جمعت سورة الكهف بين تمكين الله لعباده الصالحين في مسألة الزمكانية .

¹ هيثم الحاج علي : المرجع السابق . ص 99 ، 100 .

لا يكتفي القرآن الكريم بعرض قصة، أو قصتين في مجال الغيبي، بل إننا نجد تقريبا في كل القصص القرآني ارتباط أحداثه بالغيبي، فقصة الإنسانية تشمل أحداث بداية خلق الإنسان، وأحداث الأمم السالفة واللاحقة، ومصير البشرية بعد فناء المكان، وما بعد الموت . إن الزمانية لهذه الأحداث حوت زمن الماضي السحيق، وزمن المستقبل البعيد إلى نهايته " كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۚ ٢٧ "1. أما زمانية السرد الفني، فهي لا تمثل سوى جزء ضئيل من الزمن الدنيوي، وكذا زمن حياة السارد، لا تدوم إلا مدة محدودة ، لا تتعدى الأجل المحدد لها " وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرَدُّ ثَوَابٌ أَلَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرَدُّ ثَوَابٌ أَلَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشُّكْرِيْنَ ۚ ١٤٥ "2 كما أن السارد يجهل زمان ومكان أجله " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "3. فطبيعة السارد البشرية تفرض على فضاء السرد استحالة الولوج إلى عالم الغيب، أو تجاوز أي لحظة زمانية مستقبلية. وحتى وإن حاول ادعاء ذلك. فالزمن الآتي حتما سيكشف زيف الادعاء وبطلانه، ولن يستقر الأمر على الثبات والدوام، ولا تستطيع الأحداث أن تثبت خطيتها، وفق ما جاء به التنبأ بالغيبي. وهذا ما جعل أسفار أهل الكتاب أمام إشكالية زمانية خطيرة لا يمكن حلها، إلا بالتسليم بأن هناك خطأ، أو سهوا من كتاب الأسفار - وهم مؤيدون بالروح القدس - على حد زعمهم. لكن هذا التبرير البعيد عن كل حق ومنطق ، لا يزيد الزمن إلا تحديا للنص. ولن نصل إلى هذه الحقيقة، إلا إذا وضعت مقارنة جادة بين القصص القرآني، وقصص العهدين القديم والجديد، تؤدي إلى صدق النبوءة القرآنية، وتجسدها عبر الامتداد الزمني، وعدم صدق نبوءة العهد القديم والجديد التي غاب عنها علم الغيب، سواء في الماضي السحيق، أو المستقبل البعيد. والحكم الذي نخرج به حتما من تلك المقارنة هي : إن الطبيعة البشرية وعلمها القاصر، ماثلة في هذا السرد للعهدين القديم والجديد، والتي لا يستطيع أي باحث جاد أن يخفيها، أو يدعي عكس ذلك .

إن مؤلف النص السرد يظل منذ اللحظة الأولى للكتابة يكتب ويمحو إلى أن يستقيم خط النص، وهذا يثبت جليا أن توليد النص، وتأليف العملية السردية تخضع لطبيعة النفس البشرية الزنبقية، فهي تحتاج إلى عملية محو وإثبات لاستدراك ما نسي، أو تصحيح ما يبدو أنه لا ينسجم

1 - سورة الرحمن : الآيتان 26 ، 27 .

2 - سورة آل عمران : الآية 145 .

3 - سورة لقمان : الآية 34 .

وخطية النص، حتى تكتمل عملية إخراج النص النهائي. إن " السارد يكتب في المساء ما حدث اليوم مثلا، أو يكتب بعد شهر "1. ولهذا يستحيل عليه أن يسبق الأحداث، بل هي التي تسبقه، بحكم فاعلية الزمن. هذه الفاعلية التي يمارسها الزمان، تجعل السارد محصورا في اللحظة الآنية ليعرض مسروده بأحداث منتهية في الفعل والزمن، وبهذا تكون قد ارتسمت الأحداث وانتهت، ولا دخل للسارد أو شخوص القصة. حيث يتساوى جهل السارد مع جهل شخوصه، أمام حاجز الغيب الذي يفرضه عامل الزمن، حتى ولو حاول السارد عبثا أن يستشرف نهاية المسرود قبل بداية الأحداث. فالمسألة ليست عملية ادعاء، أو مسألة عمل فني. لكن المسألة في القصة القرآني أكبر من سرد أحداث، أو عرض مشاهد سردية وحسب. إن القصة القرآني حق لا يساوره أدنى شك، سواء كانت أحداثه في غيب الماضي، أو غيب المستقبل، وسواء كانت في المكان الدنيوي، أو المكان الأخروي. لهذا فالذين أسقطوا العامل الأسطوري والخيالي على القصة القرآني، لم يتوصلوا إلى الإيمان بالوحي، ولم يحاولوا على الأقل أن يبحثوا عن السر من وراء عرض القرآن الكريم لأحداث قصصه مرتبطة بالغيب

إن قصة النبي يوسف - عليه السلام - جسدت مظاهر الزمانية على المستوى الغيبي منذ طفولته، إلى أن أصبح نبيا، آتاه الله الحكمة والملك. وظلت الأحداث تتابع زمانيا لتتحقق الرؤية التي ذكرها يوسف لأبيه يعقوب - عليهما السلام - قبل زمن بداية الأحداث، وعلى الرغم من كيد الإخوة له، محاولين القضاء عليه، ليخلو لهم وجه أبيهم كما زعموا، فأوحى الله تعالى إلى يوسف - عليه السلام - وهو في غياهب الجب بين الموت والحياة، أنه ناج، وسيأتي الزمن الذي يذكرهم فيه بمكرهم هذا " فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهَا وَاجْتَمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥ "2. والمراد أن " الله تعالى أوحى إلى يوسف - عليه السلام - إنك لتخبرن إخوانك بصنيعهم بعد هذا اليوم، وهم لا يشعرون في ذلك الوقت إنك يوسف، والمقصود تقوية قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم، ويصيرون تحت قهره وقدرته "3. لقد تحدد مصير يوسف - عليه السلام - بأن يبقى حيا، ويفشل كيد الإخوة، دون أن يشعروا بذلك، بل تأكد في ظنهم أنهم تخلصوا منه، وحققوا إرادتهم. لكنهم لن يستطيعوا أن

¹ تزيفتيان تودوروف : مفاهيم سردية ، ترجمة عبد الرحمن مزبان ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى 2005 ، الجزائر . ص 112 .

² - سورة يوسف : الآية 15 .

³ - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن عشر ، ص 102 .

يتجاوزوا لحظة زمانية آتية، فالإنسان عن الغيب معزول. ويُخَرَج يوسف - عليه السلام - من الجب، ليُبَاع كعبد في بلد بعيد عن أبيه المفجوع، ثم يتحول إلى متهم، ليدخل السجن، وهو البريء. لكن زمن الخروج من السجن يبقى مجهولاً، حين يتوق يوسف - عليه السلام - إلى الحرية، ويوصي الذي يظنه أنه ناج، بأن يذكر قضيته عند الملك . لكن الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وأن لا أحد من شخوص القصة يستطيع أن يغير من مشيئة الله تعالى، فلا الفتى الناجي خطرت بباله الوصية، ولا الملك ينظر في قضايا المسجونين ظلماً، ولا التي اتهمته صحا ضميرها بعد .

وعندما يأتي الوقت الذي تحين فيه مدة الخروج، التي سطرها الله تعالى في علمه ، برؤيا يراها الملك، وتعجز حاشية الملك عن تأويلها، ليأتي ذكر يوسف - عليه السلام - على لسان الفتى، فيسمع الملك بسجين يؤول الرؤيا. ويسرع الفتى ليقص الرؤيا على يوسف السجين " يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ٤٦ " ¹. ويكون تأويل يوسف - عليه السلام - تأويلاً في زمن الغيب، لما تكون عليه حالة البلاد مستقبلاً، وما سيحل بها من خصب وقحط سنين معدودة " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ٤٩ " ². لقد قرب زمن الحرية والإفراج، كما قدره الله في علمه، بعد أن قام السجين بتأويل الرؤيا للملك المتوتر.

هذه حكمته تعالى جعلت " تلك الرؤيا سبباً لخلص يوسف - عليه السلام - من السجن وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه، لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل الأقوى، فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد، وأنه منذر بنوع من أنواع الشر " ³. وبهذا التأويل الصادق الذي تُفصل فيه المدة الزمنية مستقبلاً بسبع سنين زراعة وعملاً متواصلاً ، تليها سبع جدبا وقحطاً، ليبشرهم بعدها بعام تدر فيه الأرض خيراً كثيراً، فهو عام غيث وبركة. لقد حاول الملك أن يجد تفسيراً لرؤياه، عارضاً ذلك على كل من يتوسم فيه علماً بالتأويل، ولكن دون

¹ - سورة يوسف : الآية 46 .

² - سورة يوسف : الآيات 47 ، 48 ، 49 .

³ - الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن عشر ، ص 151 .

جدوى، إلا " أنه ما عرف كيفية الحال فيه، والشيء إذا صار معلوما من وجه ، وبقي مجهولا من وجه آخر عظم تشوق الناس إلى تكميل تلك المعرفة، وقويت الرغبة في إتمام الناقص، ولا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة "1. وبهذه الرؤيا وبتأويلها من يوسف الصديق - عليه السلام - تنفرج أزمة السجن، ويُفك أسره، ليتحول إلى شخص مكرم ومعزز، عرف كيف يصون كرامته، ويحفظ نفسه، ويثبت براءته باعتراف الشهود، ليكبر في عين الملك، بأخلاقه النبيلة، وأمانته وصدقه، ليستخلصه الملك لنفسه. " وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهٖ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٤٥ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ ٥٥ "2. وتظهر براءته وطهره وعفته كما تظهر مروءته وإخلاصه وأمانته، لتصبح له مكانة في هذا البلد. وهكذا ترتبط الأحداث بالغيب في قصص القرآن، لتجلي الحكمة والعبرة والإعجاز .

فإذا بحثنا مسألة الزمن، فإننا نجد الوحي قد فصل المدة الزمنية وأحساها عددا ، لتشمل نبوءة يوسف - عليه السلام - سنين معدودة ومعلومة، لكنها وردت غيبا، مما يتعذر على أي كان أن يتنبأ بحقيقة مدة الزمن الغيبية، إلا من فتح الله له هذا الباب، وعلمه تأويل الأحاديث. لأن الوقوف عند تأويل الرؤية وحسب، لن يفيد البلاد، ولن يجنبها الخطر القادم . فاجتمع في هذا المشهد علم بالغيب مستقبلا، بزمن مفصل، وحسن اطلاع وتدبير للتعامل مع الأزمة المستقبلية الخانقة، والتصرف بحكمة للمحافظة على خزائن الأرض، وتبشير بالرخاء بعد الشدة. وهنا يتحول يوسف - عليه السلام - من سجين متهم، إلى بريء أمين، يتصرف في خزائن البلاد. ولكن كل ما حدث، كان بتوجيه وإشراف من الله العالم الحكيم، ليقترب زمن تحقيق الرؤيا الأولى، فيلتمتم شمل الأسرة بعد تعرف إخوته عليه، واعترافهم بالذنب أمامه، وطلب العفو منه. وكما أعلمه الله تعالى وهو في الحب زمن المكر، تحقق هذا المشهد الغيبي أمام أعين يوسف - عليه السلام - وهو يذكر لهم ما قاموا به في اللحظة التي ظنوا بأن لا أحد سيطلعهم عليها، لقد اجتمع الضحية والمتهمون بعد المكر، وما عليهم إلا الاعتراف وطلب العفو، وأن الله غالب على أمره .

1 - الإمام فخر الدين الرازي: المرجع السابق . ص 151 .

2 سورة يوسف : الأيتان 54 ، 55 .

لقد تحققت الرؤيا التي قصها على أبيه منذ أن كان طفلاً " وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " ١٠٠¹. وتنتهي القصة بحقيقة ما جاء في الرؤيا، وبتدبير الله الحكيم الخبير. " ونجد في هذه السورة عنصراً آخر يتصل بعالم النفس والغيب، فقد تضمنت أربع رؤى وهي : ما قصه يوسف على أبيه وهو صبي، وكان القصة تأويل لهذه الرؤيا، ولما تنبأ به يعقوب من ورائها. وما قصه الفتيان من رؤياهما على يوسف في السجن، وما قصه الملك من رؤياه على حاشيته. وكانت تنبؤات يوسف فيما عبره من هذه الرؤى كلها صادقة، لما علمه الله من التأويل "2. وقد تم كل هذا بإرادة من الله العليم، ليسن قانوناً كنتيجة حتمية، وسنة قرآنية " قَالُوا أءَنتَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٩٠ "3. هذه سنة الله الثابتة، إن الله يحب المحسنين، ويجازيهم في الدنيا، وفي الآخرة. هذا ما نستنتجه من قصة يوسف - عليه السلام وإخوته، وإن الله غالب على أمره، إلا أن جهل الناس بذلك، هو الذي يؤدي باتجاه عكس ما يريده لنا الله عز وجل من سرد وقائع هذه القصة. وما على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا الصبر والاتكال على الله وحده، الذي يُسير الأمور لعباده المحسنين، ولن يخذلهم أبداً. إنها إرادة الله الفوقية، وعلمه المطلق، وحكمته البالغة، وسننه الثابتة، في تصريف الأمور، والتمكين لعباده الصالحين .

إن عرض القرآن الكريم لقصة يوسف - عليه السلام - يختلف عن العرض الذي صاغه العهد القديم، وقد أجرى مالك بن نبي مقارنة بين القصتين فقال : " فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف و كلام الشخصيات ... فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب، ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أبا "4 ولهذا فالإشراف الإلهي في قصة القرآن بارز ومؤكد، وهذا ما يكاد ينعدم في قصة العهد القديم . كما أن " حل عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية ... أما في القرآن فإن الحل يدور حول الطابع

1 - سورة يوسف : الآية 100 .
2 التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 518 .
3 - سورة يوسف : الآية 90 .
4 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص 252 .

المميز للشخصية المحورية يوسف¹. وهذا يدل على عبث اليد البشرية بالقصة الكتابية التي تكشف التباين الصارخ بين ميزة القصص القرآني وبين قصص العهد القديم .

وتوضح الكاتبة كارن أمسترونج ، صورة الرب في العهد القديم فتقول : " وفي النهاية يضمحل حضور الرب الذي كان طاغيا في الإصحاح الأول، ولا يعود للظهور حتى أنه كان على يوسف وإخوته في آخر الإصحاح، الاعتماد على أحلامهم وصورهم الخاصة، دونما مساعدة من الرب - تماما كما نفعل نحن الآن -"². فميزة قصص العهد القديم، والمقارنة بين النصوص السردية هي العامل الوحيد، الذي يظهر استحالة التشابه بينهما، أو أخذ القرآن من قصص العهد القديم كما يزعمون. فهذا القول قد تسقطه المقارنة الجادة .

يعرض علينا القرآن الكريم قصة عيسى - عليه السلام - الذي كان ميلاده ظاهرة إعجازية، فتناول الوحي الجانب الغيبي لا من بداية ولادة عيسى، بل من ميلاد أمه مريم - عليهما السلام - وذلك في سورة آل عمران، والقاعدة التمهيدية للقصة عبرت عنها السورة " إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ "3. إن الإرادة الإلهية أرادت أن تجسد هذه القاعدة على أرض الواقع، فتصوير الأجنة في الأرحام يخضع للمشيئة الإلهية فحسب، ولا دخل للوالدين في ذلك على الإطلاق، كما أن امرأة عمران لم تكن تعلم ما جنس المولود الذي ستضعه، بعد أن دعت الله، ونذرت مولودها الذكر لخدمته " إِذْ قَالَتْ أَمْرًا تُعِزُّنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ "4 ومرت فترة الحمل لتلد بنتا، كما أراد الله تعالى، لا كما تمنى الأم. وهذا كله تمهيد لميلاد عيسى - عليه السلام - ويمر الزمن، ويتكفل النبي زكريا - عليه السلام - بتربية البنت تربية زكية ، ويحسن رعايتها " فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ

1 - مالك بن نبي : المرجع السابق ، ص 253 .

2 كارين أمسترونج : الله لماذا ؟ ، ترجمة د. فاطمة ناصر ، مكتبة الأسرة ، 2010 ، مصر . ص 74 ، 75 .

3 - سورة آل عمران : الأيتان 5 ، 6 .

4 - سورة آل عمران : الأيتان 35 ، 36 . .

أَتَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرَزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧¹ . فالمشيئة الإلهية هي التي جعلت النبي زكريا - عليه السلام - يتكفل بها .

إن القصص القرآني لا ينسى هذا الجانب الغيبي المهم في حياة مريم - عليها السلام فيقول تعالى : " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤ " 2 . وهذا يدل على أن هذا القصص مصدره الله العالم بالغيبي، ولم يستقه الرسول صلى الله عليه وسلم لا من كتب اليهود، ولا من كتب النصارى. وحتى أسفار العهد الجديد لم تتناول بالتفصيل قصة ميلاد المسيح - عليه السلام - كما فصلها القرآن الكريم، وحتى قساوسة النصارى يجدون حرجا أمام القصص القرآني، الذي تعرض لميلاد مخلصهم ومعبودهم الذي ألهوه، في حين أن أنجيلهم القانونية الأربعة أهملت تفصيل معجزة الميلاد، لكنها تعرضت بالتفصيل لقضية الصلب المزعومة. فكيف " ندهش إذن لتشويه المبشرين لبعض أحداث حياة المسيح، هؤلاء الذين كانوا يهدفون إلى الدفاع عن وجهات نظر شخصية ؟ كيف ندهش لحذف بعض الأحداث ؟ كيف ندهش للطابع الروائي في بعض الأحداث الأخرى ؟ " 3 . ولهذا فالإتهام ينبغي أن يتجه لتلك النصوص الكتابية التي تدخلت يد البشر فيها، وأن الزمن قد صار مخالفا لواقع الأحداث ، وهذا في حد ذاته تناقض واضح في القصة الكتابية .

لقد جاء في إنجيل متى الإصحاح الأول " كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم " 4 . وبعد أن تتابع النسب حتى آدم، جاءت قصة الميلاد " أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبل من الروح القدس " 5 . وهذا كتمهيد لقضية الحمل المعجزة، ثم يقول النص " ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذ ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلا يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من روح القدس * فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم * وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا * فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب

1 - سورة آل عمران ، الآية 37 .

2 - سورة آل عمران : الآية 44 .

3 - موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 114 .

4 - العهد الجديد : انجيل متى ، الإصحاح الأول ، الفقرة 1 .

5 - المرجع نفسه ، الفقرة 18 .

وأخذ امرأته * ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعي اسمه يسوع "1. فالنص الكتابي قد تجنب التفاصيل التي صحبت الولادة، وما مصير هذا المولود المعجزة ؟ أما إنجيل مرقس فقد بدأ بداية متأخرة، ليذكر المسيح مبتدئا مهمته، كشخصية جاهزة، يقدمها لنا السارد في حين يضرب صفحا عن ذكر أمه مريم، وقصة الحبل وال ميلاد " وفي تلك الأيام جاء يسوع ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن * وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلا عليه * وكان صوت من السماوات أنت الحبيب الذي به سررت "2. فالنص لا يتجاوز الزمن الماضي الذي فيه تسرد الأحداث، بالإضافة إلى المساحات الفارغة " فخيالات - متى - والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل والأمور غير المعقولة، يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني "3. وهذا ما يؤكد صحة القرآن الكريم في كل ما جاء به. يقول تعالى: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَوَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ٨٢ "4. هذا هو المنهج السديد الذي يسمح لنا بالتحقق من مصدر أي كلام، إن كان إلهيا، أو بشريا، والمقارنة بين النصوص هي وحدها الكفيل بذلك .

إن العناية الإلهية هي التي تعهدت مريم، لتعدها لمهمة جليلة في المستقبل، لتصبح أما لنبي سيأتي من دون أب، وتطرح مريم السؤال الطبيعي والمنطقي " قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ ٤ "5. وتكون الإجابة أن الله يخلق ما يشاء، والأمر عنده لا يتعدى قوله - كن فيكون - . إن المشيئة الإلهية لا بد أن تتجسد في قوله تعالى " فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ١٦ "6. بعد أن كانت أمرا غيبيا بالنسبة لمريم. لكن الأمر لا يصدق، لأنه خارق للعادة، ولا يتم إلا بالتزاوج بين الذكر والأنثى. وفي هذا المشهد الذي يمتزج فيه الزمن الغيبي، بالحدث الخارق، يذكر الوحي لمريم ماذا سيكون مصير ابنها الذي ستحمل به، وقبل أن تضعه. يقول تعالى: " إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ ٤٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ٤٦ "

1 - العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح الأول ، الفقرات 21 ، 22 ، 23 ، 24 ، 25 .

2 - العهد الجديد : إنجيل مرقس ، الإصحاح الأول ، الفقرات 9 ، 10 ، 11 .

3 - موريس بوكاي : المرجع السابق ، ص 114 .

4 - سورة النساء : الآية 82 .

5 - سورة آل عمران : الآية 47 .

6 - سورة البروج : الآية 16 .

1". وها هي النبوءة تتحقق كما أرادتها مشيئة الله عز وجل، لتندثر الأم صوما عن الكلام، حين يسألها الناس عن هذا الأمر، فيتولى الرضيع الرد عن ذلك : " قَالَ إِيَّيْ عِبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ "2. نجد زمانية أحداث قصة عيسى - عليه السلام - في مدة الحمل به كانت طبيعية، لكن المعجزة في الغيب في الزمن، والخارق في الفعل المتمثل في ميلاده بدون أب، ونطقه وهو في المهد صبيًا رضيعًا. أما في الغيبي فيتمثل في المستقبل، حين يعلن الله تعالى للأُم بأن مولودها، سيصطفيه رسولا لبني إسرائيل، وهذا الأمر قد تقرر وقُضي فيه، في سابق علم الله تعالى " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٤٩ "3. لقد قص الله تعالى قصة عيسى - عليه السلام - قبل زمن تكونه نطفة، وعرضها من البداية، وكيفية الميلاد، ثم الرسالة والدعوة. ولن يحيد أي أمر عن مشيئة وعلم الله تعالى الذي سطره عنده في علم الغيب. كما أن عيسى - عليه السلام - قص قصة ميلاده، وهو لم يزل في المهد صبيًا، وقبل زمن الكلام .

لقد أشارت الأم للولد، وتركت الرد على لسان الصبي ليبرئ أمه العفيفة الطاهرة أمام المتهمين، فبدأ الصبي - المعجزة - يقص الحقيقة الغيبية " فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩ قَالَ إِيَّيْ عِبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣ "4. ويفهم من السياق، علم الله تعالى السابق من أن النصارى ستأخذ من عيسى - عليه السلام - إلها أو ابن إله، لذا كانت بداية النطق أمام القوم، بتأكيد بشريته وعبوديته لله - إني عبدُ الله - ثم أكد نبوته، حيث باركه الله عز وجل، كما أعلم الناس بأنه سيعيش في سلام، وكذلك أنه سيموت في سلام، ليبطل عقيدة الصلب والقتل التي سيرتكز عليها إيمان النصارى من بعد رفعه، فأنهاى الله عز وجل هذه القصة بظهور الخلاف بين النصارى في طبيعة نبيه عيسى ابن

1 - سورة آل عمران : الأيتان 45 ، 46 .

2 - سورة مريم : الآية 30 .

3 سورة آل عمران : الأيتان 48 ، 49 .

4 سورة مريم : الآيات 29 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 . .

مريم - عليه السلام - " ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٤ " 1. فتصبح القصة القرآنية ميزان قياس لكل دعوة للنصارى في أمر عيسى - عليه السلام - الذي حولوه إلى أقنوم ثان شريك مع الله سبحانه وتعالى عما يشركون، وإلى إله مصلوب ومعبود .

إن علم الغيب الذي سطر في هذه القصة، سيجعل كل ادعاء باطل عن عيسى - عليه السلام - يظهر في سياق هذه الآية التي ذكرناها، وستبقى كذلك ترد على كل ادعاء باطل ، وتبقى الآية متحديّة كل النصارى المشركين القائلين بتأليه عيسى - عليه السلام - . لذا عرضت القصة القرآنية بعد ذلك مشهداً غيبياً سيتم يقينا في الآخرة، حين يقف الناس جميعاً أمام الله الواحد القهار، وتظهر الحقيقة الأزلية : لا إله إلا الله، ويتبين للنصارى المشركين والمثلثين حقيقة عيسى - عليه السلام - يقول تعالى واصفاً ذلك اليوم العظيم : " فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٣٨ " 2. إن القصة قد سارت كلها في علم الغيب، منذ أن بشر جبريل - عليه السلام - مريم بأمر الحمل والميلاد، وسارت أحداث القصة كما أنبأ بها عيسى - عليه السلام - منذ أن كان صبياً في المهد، وقد تحققت النبوءة كما سطرت في علم الغيب، وانكشف اختلاف النصارى في حقيقة عيسى - عليه السلام - إن " الخلاف ظل وسوف يظل محتدماً إلى أن يجمعنا الله يوم المشهد العظيم، عندئذ يعلم الرؤساء والأتباع أن الله واحد، وأنه ليس له أولاد لا بنون ولا بنات، وأن ما عداه من مخلوقاته عبد له، وأنه هو الذي يدين العباد يوم الدين " 3 وهنا فقط ينتهي الجدل، ويذعن الجميع إلى الحقيقة الأزلية : لا إله إلا الله، التي جاء بها كل الأنبياء والرسل، منذ آدم إلى خاتم النبيين - على جميعهم الصلاة والسلام - .

وفي الاتجاه نفسه نجد مشهداً آخر يتحقق مع النبي زكريا - عليه السلام - الذي يتمنى الذرية، فيستجيب الله له، ويجعل له آية " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالِ أَأَيُّكَ أَلا تَكُلمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمَزاً وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ٤١ " 4. لكن القرآن الكريم قد أعرض عن تفصيل زمن أحداث قصة مريم وعيسى وزكرياء ويحيى - عليهم السلام - وتحمل القصة مشهدين متقابلين،

1 سورة مريم : الآية 34 .

2 سورة مريم : الأيتان 37 ، 38 .

3 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 43 .

4 - سورة آل عمران : الآية 41 .

مشهد عيسى الصبي يتكلم في المهد، ومشهد زكريا النبي الذي سينقطع كلامه مع الناس، مدة معلومة - باستثناء التسييح لله تعالى- فصلها الوحي بثلاثة أيام، وهذا التفصيل جاء لينزع كل لبس يدور في ذهن القارئ من جهة، وليصحح ما جاء في قصص كتب العهد الجديد. يقول إنجيل لوقا: " فطلب لوجا وكتب قائلاً اسمه يوحنا فتعجب الجميع . وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله "1. وحسب هذا، فزكرياء - عليه السلام - لم ينطق منذ البشارة، حتى عملية وضع زوجته لمولودها، وبعد ختنه بنمانية أيام. ومرة أخرى يقدم القرآن الكريم دليلاً على أنه يختلف عما جاء في العهد الجديد، وخاصة في قصة عيسى ويحي - عليهما السلام - والتي هي من اهتمام النصارى .

يقول تعالى: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ "2 و " نضع التوراة والإنجيل والقرآن أمامنا، ونبحث في وجوه التشابه بينهما ... إن عبداً من الملائكة هو جبريل سمي الإله، روح القدس، وعبداً من الأنبياء هو عيسى بن مريم سمي الإله الابن. أما الخالق الباقي فسمي الإله : الأب، ثم قيل إن الكل واحد، وأن الإله مثلث الذات، ولا مانع أن يكون الإله الابن رب البشر. هل تعلم محمد صلى الله عليه وسلم حرفاً من هذا وأودعه كتابه؟ "3. وإذا وجدنا اختلافاً بين القصة القرآنية في عدة الأيام، فالأمر أكثر حزمًا وشدة في مسألة الألوهية، ويكفي دليلاً قاطعاً عن نص سورة الإخلاص، التي تعلن بكل وضوح وحدانية الله تعالى " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ۱ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ۲ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ۳ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ۴ "4. فهل وحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص أخذها القرآن الكريم من أسفار الكتاب المقدس، فضلاً عن القصص في مجال الغيب؟. ولا جواب إلا بمقارنة نصية لما بين يد القوم مع النص القرآني، لنترك الجواب لما تسفر عنه هذه المقارنة الجادة .

يقول تعالى: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَّهُمْ فِي خَوَاصِمِهِمْ يَلْعَبُونَ ۗ "5. قصة تحريف الكتاب المقدس وإخفاء النصوص

1 العهد الجديد : إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ، الفقرتان 63 ، 64 .

2 - سورة النمل : الآية 76 .

3 الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 213 .

4 سورة الاخلاص : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

5 - سورة الأنعام : الآية 91 .

فنحن - المسلمين - لا نعلم عن هذه القضايا الخاصة بتراث أهل الكتاب شيئا، ولا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم ما اصطلح عليه أهل الكتاب عندهم ب (الأبوكريفا) - أي الأسفار المخفية. وجاء في إنجيل الطفولة المنحول " أن يسوع تكلم حين كان موضوعا في مزوده وقال لإمه السيدة مريم أنا الذي ولدته أنا يسوع ابن الله الكلمة كما أعلن لك الملاك جبريل وأن أبي أرسلني لخلاص العالم "1 إن هذا الإنجيل كان مخفيا حتى على النصارى أنفسهم، فلماذا أخفيت قصة معجزة الميلاد، والنطق في المهد التي أشارت إليها القصة القرآنية .

إن عرض القصص القرآني لزمن الأحداث بالمستوى الغيبي، وبهذه الكيفية يدل على أن السارد لا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة، إلا ذكرها وأحصاها، وهذا لا يؤكد أن السارد لا تغيب عنه أحداث القصة فحسب، وإنما هو محيط بنفسية شخوص القصة، ونفسية القارئ إحاطة تامة، ليجعل القارئ أو الدارس يستوعب الحدث استيعاب حكمة وتدبر. إننا نجد في هذه القصة مشهد مريم الممتعة عن الكلام مع البشر، لتفتح المجال أمام الصبي معلنا عن نفسه : أنه سيكون رسولا في المستقبل، ويأتيه الله الكتاب. كما أن جانبا آخر تكشفه هذه القصة وهو مرحلة الصبا التي تكون زمنا مشتركا بين عيسى الذي ينطق فيها، ويحي الذي يُوتى الحكم في طفولته " يِيْحَيِّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢ "2. فلا مجال لحدود قدرة الله وإرادته، وكما أنطق الله تعالى عيسى في المهد صبيا، أعطى الحكم ليحي صبيا أيضا - عليهما السلام -

إن حقيقة - لا يعزب عنه مثقال ذرة - لا بد أن يحتويها الواقع، وحقيقة - هو القاهر فوق عباده - لا بد أن تتجلى مظاهرها على مصائر شخوص القصة، وحكمة - فعال لما يريد - لا بد أن تنفذ تنفيذا مطلقا، لا اعتراض عليها، وقدرة الخالقية بالأمر كن فيكون، لا بد أن يمضي قضاؤها في كون الله وعباده " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٥٩ "3. وهذا ما عمل عليه القصص القرآني ليظهره جليا أمام كل متدبر " فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدها حدود، ولا تقيدتها قيود. ومن خلق آدم من غير أم ولا أب، وخلق حواء من آدم، قادر على خلق عيسى من أم دون أب "4. وهذا الذي

1 العهد الجديد : إنجيل الطفولة المنحول : الفصل الأول .

2 - سورة مريم : الآية 12 .

3 - سورة آل عمران : الآية 59 .

4 نخبة من المفسرين : التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، المجلد الرابع . ص 431 .

نراه أولى بالدراسة والبحث والتدبر " إن التفكير خاصة العقل الحي، وسمة الإنسان الراشد، وكل تدين ينبو عن منطق العقل، ويرفض حقيقة الفطرة، فهو لغو من عند الناس، وليس وحيا من عند الله سبحانه "1. وهذا التدبر أفضل بكثير من الجري وراء أسماء الشخصيات، والأمكنة التي أخفي ذكرها. فالالتزام بمنطوق النص، والوقوف عند حدوده، يسهل لنا عملية استيعاب القصص القرآني، واستخلاص حكمه، والوصول إلى معرفة الظاهرة الزمانية لعملية القص، حين تتجلى طلاقة القدرة الإلهية، ويتجلى علم الله بالغيب، مصداقا لقوله تعالى: " وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا "2. وهذا التصريح كان قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - ليكون بعد ذلك " دلالة وعلامة وحجة وبرهاناً على قدرة الله عز وجل ... - وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا - أمرا مقدورا من الله عز وجل، وناظرا فلا رجوع فيه "3. وحقاً تحول عيسى بن مريم - عليه السلام - آية معجزة للناس .

لقد ساد الاختلاف بين طوائف النصارى، واستمر على امتداد الزمن والتاريخ، كما تبين كفر اليهود به وتكذيبهم له. وقد آمن به المسلمون نبيا وعبدا لله، ورسولا مبعوثا لبني إسرائيل، ومبشرا بقدم النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦ "4. لقد جسدت هذه الآية حقيقة النبوة التي أعلنها عيسى - عليه السلام - أمام بني إسرائيل الذين حاولوا قتله، كما حاولوا إخفاء النبوة التي ستتحقق بعده، بمدة زمنية سجلها التاريخ، وشهدتها الناس، وآمنوا بالنبي الأمي المبشر به صلى الله عليه وسلم. ولا زالت حركة الإيمان مستمرة، كما لا زالت حركة التكذيب والكفر به متواصلة، وخاصة من أهل الكتاب، وبالأخص من اليهود .

لن يستطيع أهل الكتاب أن يتجرأوا بتكذيب النبوة التي جاءت على لسان عيسى بن مريم - عليه السلام - أو يقوموا بتعطيلها وتأخير موعدها الزمني، حتى وإن كان ردهم عليها أثناء التبشير بقولهم - هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ - إن هذا الرد لا يوقف تحقق النبوة التي سطرها الله في

1 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 210 .

2 سورة مريم : الآية 21 .

3 التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، المجلد الرابع . ص 431 .

4 سورة الصف : الآية 6 .

الغيب، قبل ذلك بقرون من الزمن، ظهر خلالها أنبياء كذبة ومدعون كثير، كشف الزمن كذبهم حتى حان موعد المعجزة الخالدة، لتتحقق في الزمن الذي أراده الله سبحانه وتعالى، وفي المكان الذي هياه في سابق علمه. إن قضية الزمكانية لن يستطيع أي أحد أن يتصرف فيها، إلا سبحانه وتعالى رب المكان والزمان والناس. وعلى أساس هذه الحكمة البالغة، والمبدأ الجليل بُنيت حقيقة القصص القرآني في المجال الغيبي. ويعكس القرآن الكريم هذه المعجزة الغيبية، ليعرضها في غيبيات قصة عيسى - عليه السلام - بعد أن قام أهل الكتاب بما قاموا به من تحريف وتزوير، ظانين أن باستطاعتهم تحريف الرسالة عن وجهتها الحقّة، كما حرفوا كلام الله .

إن النبوة والرسالة ليست قرصنة يقوم بها قراصنة الجو ليحرفوا خط رحلة طائرة عن وجهتها المبرمجة، وإن كان هذا يحدث في عالم الناس، ففوق الناس جميعا إرادة الله القاهرة، التي تخضع الزمان والمكان والأشخاص، وتوجه الأحداث بفوقية القاهرة وعلم مطلق، لا مجال لأي انحراف أو خطأ. لذا قال الله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" ٩ "١. هناك عملية كره تُمارس من طرف المشركين أمام دعوة الحق بدأت منذ زمن الخليقة، كان بطلها إبليس - الشخصية المحورية في التمرد والعصيان - ثم زرعها في نفسية المشركين الذين أطاعوه، منذ عهد إرسال نوح، إلى بعثة خاتم النبيين - عليهم الصلاة والسلام - لكن إرادة الله سبحانه وتعالى فوق رغبة المشركين، ودعوة الحق المبين، فوق كل دعوة المبطلين والمكذابين .

هكذا يسير القصص القرآني في أحداثه للغيب، التي تحققت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد تنبأ الوحي بمصير أمة في سورة الروم، وأعلن أن الروم المنهزمين، سينتصرون في الجولة القادمة " ألم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصِرُ مَنِ يَشَاءُ ٥ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ "٢، إنه لأمر خطير أن يتناول الوحي هذه القضية الخطيرة، وهو في بداية النزول، وكل أعدائه ينتهزون أي فرصة ليتحدوه، أو يتمكنوا منه على أساس عدم تحقق تنبؤاته. إنها اللحظة الحاسمة بالنسبة لأمر الوحي، ورسالة النبي المبعوث،

1 سورة الصف : الآية 9 .

2 - سورة الروم : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 . .

الذي لا زال الكفار يتصدون له بالتكذيب والسخرية، وامتحان للمؤمنين الذين آمنوا بوحي الله، وبنبيه الأمي. لكن الفاصل هو الزمان والواقع حين يتطابقان مع وحي الله، فبذلك تتم معجزة الله تعالى، التي تخرص السنة الملحدين المكذبين. وتمر المدة، وتندلع الحرب بين الروم والفرس، لتأتي النتائج وفق ما أعلنه القرآن الكريم من قبل ذلك، فهل سيتحول المشركون إلى تصديق الوحي، والإيمان بالرسول؟. سيبقى موقف المشركين مقدارا ثابتا، ولن يتزحزح عن العناد والتكبر، على الرغم من تحقق انتصار الروم، مصداقا لما أنبأ به الوحي. ولنسأل ونحن أمام هذه الظاهرة الزمانية الغيبية : ماذا كان سيحصل لو اتفق الطرفان المتحاربان على عقد الصلح، وأصبح خبر الحرب حدثا ماضيا؟ فأين سيكون محل سورة الروم وقصتها القرآنية؟ بل أين سيكون مستقبل الدعوة بأكملها، والقرآن الكريم في بداية نزوله؟ لكنه علم الله المطلق، إنه علام الغيوب .

لا بد أن نعالج قصة الروم، وفق هذا المنهج الزمني الغيبي، الذي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بمستقبله. فكيف تملك القصة القرآنية كل هذا التحدي في الزمن الغيبي؟ وكيف تتحدى المشركين المكذبين قبل زمن الحدث، وتستفزهم أمام الواقع والتاريخ، وأمام أنفسهم، وأمام المسلمين خصومهم؟ فهي تجعلهم يدخلون الجدل رغما عنهم، وتدفع بهم ليكذبوا النبا الغيبي، ويجادلوا فيه بحكم عنادهم وتكبرهم. ثم تتحقق هذه الأحداث على المشهد الواقعي، ليتم فضحهم بعد انتظار. ولننظر كيف وظف القرآن الكريم الزمن الغيبي، ليتحدى به المشركين زمن النزول، كما يتحدى به الملحدين في كل زمن، وهم يكررون قول المشركين - هذا سحر مبین أو أساطير الأولين -. وهل سيزيل هذا الاتهام صدقية القرآن الكريم، أو يمنع تحقق أحداث الغيب التي تنبأ بها الوحي الإلهي؟ لن يقف أمام إرادة الله الفوقية أي مانع كان، ولن يعجز الله سبحانه وتعالى أي شيء، فالكل خلقه، والجميع عبده ومربوبون له " وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۗ ٩٥ " . وهو لوحده رب العالمين، وهو لوحده علام الغيوب، وهو لوحده القادر على كل شيء، سبحانه وتعالى، وإرادته وحدها هي النافذة فوق أي إرادة أخرى، وعلمه الواسع هو السابق لكل علم .

¹ سورة مريم : الآية 95 .

إن سلوك المشركين، هو التكذيب والعناد لا أكثر، ولا يصدر هذا إلا على كبر في النفس. كما صدر التمرد عن إبليس بسبب التكبر، وحتى وإن جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمعجزة مادية فلن يؤمنوا له أبداً، حتى يروا العذاب، سنة الله التي خلت من قبل. لكن الوحي سيظل ينزل متحديا الكفار بهذه المعجزة، على امتداد الزمن والأجيال المتعاقبة. لينتظر الفريقان ويختبر المشركون صدق الوحي، وصدق الذي ينتزل عليه. فالآية تثير مسألة خطيرة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم في غنى عنها، لو كان متقولا، كما زعم كفار قريش. وانتهت القصة وفق ما جاء به القرآن الكريم، لا كما توهمها المشركون المكذبون .

ولنتقل من عصر بداية التنزيل، إلى العصر الحديث الذي يتحدث فيه طه حسين من جديد في شأن سورة الروم وقصتها، ليتكلف أمرا لم يقل به الوحي إطلاقاً، فيقول متسائلاً " أليس القرآن يحدثنا عن الروم، وما كان بينهم وبين الفرس من حرب، انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين ؟ "1 . ليقول بعد ذلك : " فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم "2. وقد يتعجب المتتبع لهذا القول، والذي لم يشر إليه القرآن الكريم، لا من قريب ولا من بعيد. وإنما كل ما في الأمر، أن الوحي تناول قضية غيبية، تؤسس للظاهرة الإعجازية، وتثبت تحدياً منقطع النظير لصدق النبوة. وليس الأمر كما زعم الكاتب، وإذا " زعم الأستاذ (طه حسين) أن وجود سورة في القرآن تسمى الروم، دليل على أن العرب لم يكونوا في عزلة سياسية، بل هم أصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة. كأنه يعني أن هذا التاريخ، كان معروفاً في أهل السياسة من العرب، وفي وزارة خارجية قريش، فأخذ القرآن عنهم "3. فالخروج عن منطوق النص يتنافى أساساً مع روح البحث الموضوعي، وقريش لم تكن لتهم بأمر الروم، بقدر اهتمامها بقوافل تجارتها، وضمان سلامة حركة مرورها، لولا نزول سورة الروم، التي تناولت حدثاً غيبياً سيتحقق في بضع سنين. واستفزت المشركين الذين يحاولون أن يتصيدوا - أي هفوة - تصدر ضد النبي صلى الله عليه وسلم فهذا ليس سرداً تاريخياً، ولا فنياً، وإنما معجزة للوحي، تمثل تنبأً بالغيب .

1 - طه حسين : المرجع السابق ، ص 75 .

2 - المرجع نفسه . ص 75 .

3 - مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن . ص 161 .

يقول الرافعي ردا على طه حسين: " فلم يدر أن هذا إنباء بالغيب، يدخل في باب المعجزة لا في باب التاريخ، ولا في باب السياسة. فذكر الروم في القرآن وما يجري مجراها في قصص الأمم، إعجاز من النبي الأمي صلى الله عليه وسلم في هذه الأمة الأمية "1 . فالكيفية التي تعامل بها طه حسين - عميد الأدب العربي - مع النص القرآني، شبيهة بالكيفية التي تعامل بها صاحب كتاب الفن القصصي في القرآن، وكلتا المعالجتين نسخة مطابقة الأصل للطرح الإستشراقي المشكك في الوحي. والعجيب أن " مذهب الرفض هو بعينه، مذهب الفئة من المستشرقين، فإن أكبر شأنهم جحد الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالقرآن، ورد ما أجمعت عليه الأمة "2. والشبيه أيضا بما ظل يردده المشركون منذ بداية نزول الوحي، إنها عملية اجترارية، لا يملون من ترديدها وإعادة إخراجها، ولا جديد يذكر عندهم على الإطلاق، سوى العناد والتكذيب والتقليد .

إن الدولة المنهزمة في حرب، يصعب عليها أن تطمع في نصر لجولة قادمة، لأن الشعور بالهزيمة يظل مهيمنا على النفوس، والإحساس بالخوف يبقى في قلوب أفرادها. ربما ساد الظن بأن شمس الروم قد غابت، وفي هذا الطرف الشديد، يقلب القرآن الكريم موازين القوى، على العكس تماما. إن " هذه الآيات في سنوات تحدث واقعا عالميا ، ذل فيه النصرى وعز فيه المجوس، ما شك فيه أحد. ومع ذلك فإن الوحي ينزل جازما، بأن هذا الواقع الصارخ سيزول في سنين تعد على الأصابع، وصدقت الأيام النبوءة "3. هكذا تسيّر أحداث القص ، وفق التنبأ بالغيب، لتأتي متطابقة مع الواقع الحق بعيدا عن كل خيال " ولو أردنا أن نبين الفارق بين القصة الحقيقية والخيالية، لقلنا إن الأولى تكون بالنسبة لأسباب الوقائع التي تقصها غامضة، محفوفة بالشكوك والألغاز. في حين أن من واجب الكاتب في الثانية، أن يقدم تفاصيل مقنعة لأسباب الوقائع التي يسجلها، أي عليه أن يعلل كل شيء "4. ولكن هذا الأمر يحدث فقط في سرد الأمور الحقيقية أو الخيالية، فإذا كان السرد تنبأ بالغيب، وأمامه كل التحديات لتكذيبه، ثم يتحدى السرد القرآني بهذا الغيب الذي تحقق واقعا، فهذا هو التحدي المعجز. بل كيف يتسنى للنقد أن

1 - المرجع نفسه . ص 161 .

2 - مصطفى صادق الرافعي : المرجع السابق . ص 184 .

3 - الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص 312.

4 أ مندولا : الزمن والرواية . ص 58 ، 59 .

يتناول هذا النمط المختلف، عن بقية المنظومة السردية من فنية وتاريخية ليبقى السرد القرآني يوظف الزمن الغيبي في سرد أحداثه بتحد معجز لن يستطيعه البشر .

إن منهج القصص القرآني المتفرد في المجال الغيبي، لا يترك أي مجال للشك أو الخيال، ولا يُبقي أي ثغرة للمشككين. وهو بهذا التفرد يبطل كل ادعاء يرى بنظرة غير تدبرية على عكس ما أمر الوحي به، فتصبح وجهها لوجه أمام إعجازية الوحي، في حقيقة قصصه وتنبئه بالغيب سواء بالماضي البعيد، أو المستقبل. فالسرد الذي عرضته سورة الروم، ليس سردا تاريخيا، يعرض أحداثا مضت وانتهت، بل هو إسقاط الزمن الغيبي على أحداث ستقع ، وحتى إذا جننا لما عرضه القرآن الكريم لماضي الروم - غلبت الروم في أدنى الأرض - فالسياق يدل على أن حالة التنبأ بالانتصار ضرب من المستحيل، ولا أحد يستطيع أن يفترض انتصارا لأمة مهزومة، إلا إذا كان محيطا بنفسية هذه الأمة المهزومة ، إحاطة شاملة تماما، كإحاطته بنفسية الأمة المنتصرة. وأنى يكون ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟. فهل كل هذا مصدره العبقورية البشرية ؟ وأي مصدر لتلك العبقورية التي نشأت في نقطة من الصحراء المترامية الأطراف، ذات الثقافة المصبوغة بالنظرة القبلية، والعصبية العربية التي لا شأن لها بأمم العجم، ولا بسياسة بني الأصفر؟ .

وكما تنبأ الوحي بمصير الأمم، تنبأ أيضا بمصير الأفراد، حيث نزلت سورة تحسم مصير أحد الكفار المحاربين للدين، والحاقدين على نبيه. ولم يكن هذا الجاحد المكذب إلا أبا لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم. وعلى الرغم من هذه الرابطة الأسرية، التي تربط بينهما، نزل الوحي معلنا بكل تحد وتأكيد، أن أبا لهب سيموت كافرا، ومصيره سيكون حتما إلى النار. إن العقل يقف عاجزا أمام ارتباط نزول الوحي بالأحداث، لتظهر معالم الإعجاز جلية في سورة قصيرة تتضمن آياتها تنبأ بالغيب. يقول تعالى: " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَأَمْرًا تُهَمَّالَةً ٤ خَمَّالَةً ٥ الْحَطْبُ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥ "، فماذا يكون موقف هذا المتعنت ؟ هل يتحدى بعناده الوحي، ويعلن أمام قريش، وبكلمة واحدة لا تزيد ولا تنقص على أنه آمن ؟ وفي هذه الحالة كيف سيصبح مصير الإسلام ككل ؟ . إن الوحي قد حسم القضية

1 - سورة المسد : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 .

بشكل يقيني، ولا تبديل لكلمات الله، ولن يستطيع أبو لهب مع كل ما أوتي من عناد وشدة حقد على النبي والإسلام، أن يكذب هذا التنبأ، وهو الذي ظل يلاحق النبي صلى الله عليه وسلم في كل مكان ليكذبه. لكننا نراه أمام هذا النص القرآني، لم يجراً على الإطلاق، بأن يخالف ما جاء به وحي الله، أو أن يتفوه بكلمة واحدة. بل ازداد غضبا، وهاجت زوجته - حمالة الحطب - وكان سلوكهما في هذا الاتجاه الجنوني، دليل قاطع على إقرارهما بصدقية الوحي والموحى إليه. فهل كان أمرا صعبا على أبي لهب، أن يتظاهر بالإيمان، ليقول لمن حوله لقد أخطأ الوحي هذه المرة ؟ .

لكن الأمر حين يتضمن الإعجاز، فأبو لهب سيبقى حتما ينتظر مصيره المحتوم، وقد عاش بقية حياته مدعنا لسلطة النص القرآني وغيبه، وعاش وفق ما سرده القصص القرآني، ليموت الرجل وتزهق روحه، وهو على ملة الكفر. وقد " نزلت - تثبت يدا أبي لهب وتب - في الأيام الأولى للإسلام، وكان الرجل يستطيع تكذيبها بالدخول في الإسلام بعد ذلك، ولكنه بقي إلى أن مات عدوا للدين ومعتقيه، فصدقت فيه - سيصلى نارا ذات لهب - "1. كان أبو لهب بمقدوره أن يقلب الكفة لصالحه بمجرد كلمة واحدة، ويتغير كل ما جاء به الوحي. لكن عملية الغيب في هذه القصة، تقف حاجزا مانعا لكل محاولة لأبي لهب، وينتهي مصير هذا المشرك، وتتحدد نهايته كما تنبأ بها القرآن الكريم، لا كما أرادها هو. ولو " أسلم أبو لهب مثلا لما كان لقوله تعالى - سيصلى نارا ذات لهب - منصرف ولا واقع، ولأصبحت هذه الآية في واد، والواقع في واد آخر "2. لن يستطيع الجاحد أن يتحدى سلطة النص. فأمام إعجازية الغيب وصدقية الوحي، لا أحد بمقدوره أن يتحدى إرادة الله القاهرة. وهنا لم يسع أبا لهب، وهو من كبار المكذبين المعاندين، أن يتجراً ولو بكلمة واحدة يهدم بها صدقية الوحي. لكن عظمة الوحي وإعجازه، وتحدي القصص القرآني بالتنبأ بالغيب، وصُمت أبي لهب بقية المدة حتى موته كافرا، كانت أدلة دامغة لإعجاز الوحي الذي لا دخل للرسول صلى الله عليه وسلم ولا علم له بمواطن الكتمان، ولا بمصير الأمم والأفراد، إلا ما تلقاه وحيا من ربه العليم، وبقي دائما ينفي على نفسه علمه بالغيب، ويثبت بأنه عبد الله ورسوله، يتلقى الوحي من رب العالمين .

1 - الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 547 .

2 - أ.د. مصطفى مسلم : مباحث في إعجاز القرآن الكريم ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ، دمشق 2005 ، ص 278 .

إن هذه التجربة خطيرة لا تؤمن عواقبها، ولن يقدر السارد أن يتحكم في مصير الشخص
إطلاقاً، بل هو ذاته أعجز على أن يعلم مصيره، أو يحدده وفق ما يرسمه ويخطه . إذن فالغيب
في القصص القرآني، ليس خواطر بشر جاد بها الخيال، أو هو حركة تطور وتبلور للنص على
حد زعم البعض، ومحاولة إخضاعه لنظرية نقدية. يقول أركون: " ينبغي القيام بتحليل بنيوي
لنتبين كيف أن القرآن يتبلور بنفس طريقة الفكر الأسطوري "1. إن السرد القرآني
لأحداث الغيب حقيقة تتجسد على أرض الواقع، بالمكان والزمان والأحداث والشخص، وتبقى
تتجسد على الامتداد الزمني، لتتحدى الكفار والجاحدين، والمكذبين والعلمانيين، وتفضح كذبهم
وتظهر حقيقتهم، وتتحدى كل شاك أن يدعي عكس ذلك، حتى وإن تطلب الأمر منه لفظ كلمة
واحدة. لكنه الإعجاز الإلهي الذي يتغلغل إلى عمق نفسية الشخص ويمزق الحجب الزمانية
والمكانية التي تتوارى عن كل سارد، مهما كانت عبقريته في الإبداع أو الادعاء " أفلا يدل هذا
جلياً أن القرآن من عند خالق الحياة والممات، الذي مصير كل شيء بيده، ومآل كل أمر إليه "2.
إنها معجزة الغيب من علام الغيوب، رب المكان والزمان والعباد. لذلك رد الله على القائلين
بالأسطورة " قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ٦ "3. فلا وجود لأي
خرافة أو أسطورة إلا في ذهن مدعيها. " فأين علم حفاظ الأساطير، ورواتها من ذلك العلم الشامل
؟ وأين أساطير الأولين من السر في السماوات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة، من الخضم
الذي لا ساحل له ولا قرار ؟ "4. إن توظيف الزمن الغيبي في القصص القرآني عملية استفزازية،
تجعل زعم المكذبين للوحي يتهاوى متتابعاً، الواحد تلو الآخر، ليبقى القصص القرآني متحدياً
كل ادعاء لأي مكذب بقصصه في الأحداث الغيبية، سواء في مجالها السرد التاريخي أو العلمي

وكما كان التحدي الشامل في الإتيان بسورة من القرآن الكريم، في أي موضوع ، كذلك
كان التحدي بوجود أي اختلاف فيه، وفي كل أنواع المعارف والعلوم، على مر العصور
والأجيال. لا بد أن نستوعب الظاهرة الزمانية الغيبية للقرآن الكريم، بأنها أوسع من أن يقدم فيها

1 محمد أركون : الفكر الإسلامي، ترجمة هاشم صالح ، مركز الإنماء العربي ، الطبعة الثانية 1996 بيروت . ص 203 .

2 - أ د . مصطفى مسلم : المرجع السابق ، ص 278 .

3 سورة الفرقان : الآية 6 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء التاسع عشر . ص 2552 .

مستشرق أو علماني أو ملحد، وجهة رأيه الخاصة، دون أن يبحث أو يعرض رأي أصحاب التخصص. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يساير هذا الاتجاه، روح البحث العلمي، حتى وإن ادعى صاحبه ذلك. فالمسألة ليست ادعاء بقدر ما هي بحث واستقصاء، وليست عملاً بسيطاً، بقدر ما هي عمل جاد عميق، يعرض كل ما يراه أصحاب الاختصاص في كل ميدان . وهذا في حد ذاته معجزة، يتحدى بها كتاب الله البشر مجتمعين، ويبقى القصص القرآني متفرداً بزمنه الغيبي الذي لا ينتهي بانتهاء الأحداث وموت الأشخاص. لا بد للنقد الأدبي أن يعترف بحدوده التي يعمل ضمنها، ويجب على النقاد الإقرار بمحدوديتهم، أمام ميادين القرآن الكريم المتنوعة والمختلفة والمتخصصة، وأن الميدان الذي يتجاوزنا، لا بد أن نعلن أمامه عجزنا ، بكل صدق وتواضع، معترفين بطبيعة بشريتنا المحدودة، أمام عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، وأمام عظمة وحيه المنزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

أما إذا انتقلنا إلى قصة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي نزل عليه الوحي، فنجد أحداثها قد توزعت عبر سور الوحي، من بداية النزول إلى نهايته، أي مدة ثلاثة وعشرين سنة، وقد نفى الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم العلم بالغيب، أمراً إياه بأن يعلن للناس ذلك " قُلْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ " 1. وظل الوحي ينزل منبأ الرسول صلى الله عليه وسلم عن أحداث تخص شخصه، لم يكن له أي علم مسبق بها. فأتثناء هجرته إلى المدينة المنورة - والموت يتربص به من كل جانب، نزل الوحي يخبره، بأن الله تعالى، الذي أمره بالهجرة، وأخرجه من قبضة قريش التي حاولت قتله، وأبقت فتيانها بسيوفهم أمام باب بيته، يرقبون خروجه، سيرده الله إلى مكة بمشيئته وإرادته سبحانه وتعالى " إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادًا قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٨٥ " 2. وهذا قبل أن يصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، ويأمن شر قريش ومكرها .

1 - سورة الأنعام : الآية 50 .

2 - سورة القصص : الآية 85 .

كما أنبأه عن طريق الرؤيا، بدخول المسلمين المسجد الحرام آمنين، دون خوف أو حزن " والحق سبحانه حينما يتكلم في هذه المسألة، يتكلم على أنها رؤيا سبقت واقع القصة والرؤيا كما تعلمون ما يراه النائم من أشياء، قد يكون لها واقع، وقد لا يكون "1. لقد جاءت الرؤيا للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: " لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ ٢٧ "2. وهذا كله كان في زمن لم يتأكد أحد من المستقبل. إن " الحق سبحانه وتعالى يقص علينا قصة شوق المسلمين البيت، بعد أن اغتربوا عن مكة مدة طويلة، واشتاقوا لأداء العمرة والطواف بالبيت، ولكن حمية الجاهلية وطيشها، وغرورها بقوتها الكاذبة، حالت دونهم ودون ما يريدون "3. وقد صدت قريش النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته عن المسجد الحرام، وظنت قريش أنها ستقضي على دعوة الإسلام والمسلمين " فالحق سبحانه أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بالرؤيا وصدقها في الواقع، لكن لم يحدث بعد، لأن الله يعلم من واقع الأمر ما لا تعلمون، لذلك أجل العمرة هذا العام، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يعقد معاهدة الصلح بينه وبين كفار مكة، على أن يؤدوا العمرة العام المقبل "4. وقد حدث هذا قبل زمن دخول المسلمين المسجد الحرام مع نبيهم صلى الله عليه وسلم وبعد محاولة قريش منعهم من تأدية العمرة .

لقد قص النبي صلى الله عليه وسلم " هذه الرؤيا على أصحابه فاطمأنوا إلى دخولهم مكة وأداء العمرة، وكذلك لما منعهم سفهاء قريش من دخول مكة، تعجبوا واعترضوا على منعهم من الدخول "5. لقد كان في هذه الواقعة، امتحان عسير للنفوس المؤمنة بالله ورسوله، لأن إرادة الله هي فوق كل إرادة، وأن يد الله فوق كل يد، وأن الله منجز وعده لنبيه صلى الله عليه وسلم . لكن زمن تحقيق هذا الوعد يبقى في علم الله، والوقوف عند قوله سبحانه وتعالى ولما جاء في وحيه. فلا بد أن تتجلى قدرة الله وحكمته، في قوله تعالى - لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله - " فالدخول واقع حتم، لأن الله أخبر به، ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة، لا يقيدتها شيء، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي

1 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد الثالث والعشرون ، ص 14108 .

2 - سورة الفتح : الآية 27 .

3 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، ص 14408 .

4 - المرجع نفسه ، ص 14410 .

5 - المرجع نفسه ، ص 14409 .

قاعدة التصور للمشينة الإلهية¹. ولن يستطيع المشركون أن يفعلوا شيئا أمام مشيئة الله رب العالمين، رب المكان والزمان، ورب البيت الحرام الذي أمن فيه قريشا من الجوع والخوف، وحفظ بيته من كيد جيش أبرهة عام الفيل.

إن الذي هزم أبرهة وجيشه، وبدد قوتهم وجعلهم كعصف مأكول هو الذي سيمكن نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، بأن يدخلوا بيت الله الحرام، وفق مشيئته هو وحده سبحانه وتعالى. ولا يكون الفتح منسوبا لأي واحد كان، إلا لله وحده سبحانه وتعالى. فقصه رؤيا دخول المسجد والفتح، وحي تحدى بها الله تعالى، عناد قريش، وكفرها في عقر دارها. وكان على قريش حين سمعت بنزول هذه الآيات من سورة الفتح، بأن تبقى على عادتها التي تكذب بها وحي الله المنزل، وأن تعقد العزم على أن تمنع الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته - رضوان الله عليهم - أن يقربوا البيت الحرام، وأن تقاتلهم على ذلك، فإن انتصرت في هذه المعركة الفاصلة، كان لها ما تريد، وظهر أمر هذا الدين، وحقيقة محمد صلى الله عليه وسلم وحقيقة رب البيت الحرام. لكن قريشا جاءت لتعقد معاهدة صلح بينها وبين عدوها اللدود، وتشتترط شروطا مجحفة تريد أن تذل بها المسلمين مستقبلا، زينها لها غرورها وعنادها، في صياغة نص الوثيقة.

لقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم بكل بنود المعاهدة المجحفة، والصحابة في حيرة من أمرهم، وهم على ما هم عليه من أمل وحذر. أما عمر بن الخطاب، فقد تأثر كثيرا وتقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم متسائلا: "يا رسول الله أأست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني"². كان الشرط الذي وضعته قريش - كما جاء في المعاهدة - شرطا قاسيا. مما أثار حفيظة المسلمين. بل تزامن دخول المعاهدة حيز التطبيق، مع إقبال مسلم جديد جاء من مكة معلنا إسلامه، لتزداد الأمور تعقيدا وتوترا، وليزداد الواثقون بالله إيماننا على إيمانهم. ثم "انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه

1 - سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع، الجزء التاسع عشر. ص 330.

2 ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الثالث. ص 331.

ذلك قافلا، حتى إذا كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح "1. أليس كل مجريات هذه الأحداث قد تمت بإشراف العزيز الحكيم العليم؟ وما كاد زمن المعاهدة يمضي على توقيعها، حتى جاءت قريش مذعنة لتتنازل على شرطها الذي وضعته هي بنفسها، لما وجدت أن قوافل تجارتها أصبحت مهددة بهؤلاء الجدد الذين أسلموا، ولم تكن لتسمح لهم بالالتحاق بمجتمع المدينة المنورة؟ هل قريش الأرستقراطية العنيدة أصبح لا يهتما إلا بحركة تجارتها، أمام خطورة وضع كهذا؟ ظلت تحارب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه، منذ أن بدأ زمن إقرأ، لماذا خضعت قريش لسلطة النص، خضوع أبي لهب من قبل؟ إنه الإعجاز بالغيب من عند علام الغيوب، الذي حول تلك الآيات التي نزلت في سورة الفتح، بعد الرؤيا التي أراها نبيه صلى الله عليه وسلم لتتجسد مشيئة الله تعالى واقعا صادقا، أمام المؤمنين ليزدادوا إيمانا. لقد ندم ابن الخطاب على ما قاله، كما حدث هو عن نفسه: "ما زلت أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا"2. أما المشركون فازدادوا غيظا إلى غيظهم، ولكنهم استسلموا لأمر الواقع الحق، خاضعين لمشيئة الله تعالى ومذعنين لسلطة الوحي.

فقصة الفتح هي تحد صارخ عبر الامتداد الزمني، لكل كافر ومشرك ومكذب بالوحي ورسالة الإسلام، وبالقصص القرآني. وماذا سيقول المكذبون عن هذا الفتح المبين؟ إنهم سيتجهون إلى اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعنف بعد هذا الفتح المبين. لقد حاول المشككون في البحث عن التحول المفاجئ - حسب رأيهم - لاستعمال العنف، وطرده المشركين من محيط مكة، والبيت الحرام، دون أن يلتفتوا إلى تضيق الخناق على المسلمين في مكة، خلال بداية الدعوة ومقاطعة المؤمنين وحصارهم بشعاب مكة، مع تعذيب المستضعفين منهم، وأخيرا محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم حتى اضطر إلى الهجرة، بعد ما هاجر صحابته. وقد صادرت قريش كل أملاك المسلمين التي تركوها بمكة من مال وعقار. وربما اعتقد المستشرقون بقول المثل "إذا قتل الأدمي النمر فهذه رياضة، وإذا قتل النمر الإنسان فهذه وحشية

1 المرجع نفسه . ص 334 .

2 بن هشام : المرجع السابق . ص 331 .

"1. فعنف قريش ضد المسلمين فله ما يببره، أما دفاع المسلمين عن أنفسهم ، فجريمة لا تغتفر

وظل محمد أركون منشغلا بسورة التوبة على حد قوله : " وذلك لأني منشغل الآن بتخصيص كتاب كامل للمسألة، وهو كتاب مركز كله على دراسة سورة التوبة أو براءة ، وأمل أن أقدم دراسة تطبيقية متكاملة، عن الموضوع من خلال دراسة هذه السورة القرآنية ، التي ذكر فيها العنف كثيرا. أمل في التوصل إلى بلورة نظرية انتربولوجية، لا اختزالية عن العامل الديني "2. إذن وربما قد فاجأته دعوة الإسلام في الظهور، حين فتحت مكة ، وانتصر الإسلام الحق، على الكفر والباطل. لقد كان الأمل أن لا يسطع نور الحق والإسلام أبدا، وأن يبقى الشرك والضلال يسودان الإنسانية. وهذا منهج تفكير المشركين والملحدين ، وكذلك العلمانيين والمستشرقين المتعصبين. فحقيقة الإسلام في نظرهم، وهم وخرافة، ووحيه أساطير، ودفاعه اعتداء، وعدله ظلم. ولكنهم لن يستطيعوا أن ينكروا انتصاره وظهوره ، وانتشاره على امتداد الزمن، وعلى الرقعة الجغرافية. لهذا يقول طوماس أرنولد* : " وأخيرا صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن محمد الذي ينشد أتباعه المحاربون اللذة في القتال، والذي لا يخدع قضاته ضمائرهم "3. بعد أن بدأ محمد صلى الله عليه وسلم دعوته من مكان صحراوي قفر، كان بعيدا ومجهولا، وبقلة من الرجال كانوا مستضعفين ومطاردين ومهجرين

لم يستوعب هؤلاء جيدا المسألة الغيبية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن سكوتهم عن فعل قريش العدوانى ضد المسلمين في بداية الدعوة، هو في حقيقة الأمر مشاركة صريحة وضمنية في تأييد الكفر والباطل على الحق، وقبول الاعتداء على معسكر الإسلام. لأن انشغالهم بالواقع المفاجئ، وانتصار الإسلام على الشرك، أظهر جليا عنادهم بأن هذا الفتح المبين، لم يكن إلا تسلطا من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته لإحكام قبضته على الجزيرة العربية، ثم القضاء على الإمبراطوريتين العظيمتين الرومانية والفارسية. وأي عربي كان يحلم بهذا المشروع الخيالي الضخم والمستحيل، وهو يحمل سيفا ورمحا، يلاقي به جيشا جرارا يملك

¹ أحمد منير : موسوعة الأمثال والحكم ، ترجمة د. أحمد حطام، شركة المطبوعات للتوزيع، الطبعة الخامسة 2010 بيروت . ص 20 .

² محمد أركون : نزعة الأنسنة . ص 35 .

³ طوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، 1971 . ص 173 .

* طوماس أرنولد (1864 - 1930) مستشرق بريطاني وعضو في هيئة تحرير دائرة المعارف افسلامية ..

من المقاتلين الأشداء ما يرهب به كل الجزيرة العربية؟. لكن الواقع والتاريخ والحقيقة التي أثبتتها القصص القرآني بالغيب، وعنصر المفاجأة الذي أحدثه في نفوس المشركين المعاندين، وأهل الكتاب الحاقدين والكارهين للدين الجديد، وكذلك المتعصبين والعلمانيين، قد أربك الجميع، وجعلهم يعلنون حقدهم للحق، ولا زالوا كذلك .

يقول طوماس كارليل* وقد عرف حقيقة الدين الجديد: " حاول كثيرون أن يجعلوا الحكومة لله، بان يسير الناس جميعا على كتاب الله، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذي ليس فوقه قانون، وذلك المبدأ هو ما لا نزال نحاول ونرجو، وما جاءت الأنبياء والرسول إلا لتحقيقه. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي بلغها على الكمال "1. إن رؤيته هذه لم تكن لولا مقارنته لحقائق الأديان ، ودراسته لآثار الإسلام بعد زمن إقرأ. أما معسكر الشرك والإلحاد والعلمنة، فتحول إلى إنساني ومشفق على الضحايا، حين بدا لهؤلاء ضعف المشركين، الذي أخفي عنهم بحاجز الاستقواء ، فلما تساوى الطرفان، بل لما تغلب الطرف الذي كان مقهورا ومستضعفا، بفضل إيمانه بالله والغيب، ضنوا عليه بهذا النصر المستحق، وحاولوا سلبه واتهامه بالعنف، وهذا كل ما في الأمر. لأنهم لم يدركوا سنة الله التي خلت، وقوله تعالى الحق: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٣٣ "2. وهاهي الآية تجيب كل واحد منهم، حين يدرس السورة بنظرية انتربولوجية، ولم يدرك هؤلاء بأن الله الأمر من قبل ومن بعد، وكيف يستطيع هذا النبي صلى الله عليه وسلم مع هذه الفئة التي كانت مضطهدة، أن يتحولوا إلى قوة مستعصية، لا على قريش القبيلة فحسب، وإنما على دولتي الروم والفرس، وهما إمبراطوريتان عظيمتان آنذاك؟ .

لم يكن الوحي ليسرد علينا قصة الرسول صلى الله عليه وسلم على شكل سيرة ذاتية للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما نجد ذلك في كتب العهد القديم والجديد، فالتوراة بأسفارها هي سير ذاتية بالميلاد، والنسب والأحداث. فالقرآن الكريم " لا يعنيه أن يذكر في تاريخه، زمانا أو مكانا، ليس سجلا للوفيات و المواليد "3. والأناجيل هي سيرة ذاتية للمسيح - عليه السلام - ولهذا

1 طوماس كارليل : محمد المثل الأعلى ، ترجمة محمد السبعي ، دار طيبة للطباعة ، الطبعة الأولى 2008 مصر . ص 40 .

*طوماس كارليل (1795 - 1881) كاتب اسكتلندي وناقد ومؤرخ .

2 سورة التوبة : الآية 33 .

3 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 40 .

فالوحي حين يتحدث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو المنزل عليه، تناول الجانب المستقبلي والغيبى من حياته، الذي تحقق في الواقع، وهذا ما كان ليكون، لولا أن علام الغيوب، هو مصدر هذا الوحي. وحتى سورة محمد ، لم تتناول سيرته، بقدر ما ذكرت الأثر الذي تركه، والذي سيتركه في العالم. أما سيرته الذاتية فقد اجتهد كتاب السيرة المسلمون في تدوينها. فالوحي ليس نقلا، أو تقليدا لما احتوت عليه أسفار العهد القديم والجديد ، حسب الادعاء الباطل .

إن " القصص القرآني قوانين إلهية دقيقة، يجب أن نعرفها وأن ندرسها وأن نطبقها وليست روايات جيب للتسلية، وليست قصصا غرامية، أو بوليسية. إنها الأمم والحضارات ذكرت لنا لنتعظ ونعتبر"¹. لكنها المقارنة وحدها هي التي تكشف ذلك جليا، ليتضح أن النتيجة المنطقية، هي التي تبطل كل ادعاء باطل ضد القصص القرآني. وإلا فنبوءات من التي صدقها الواقع عبر الامتداد الزمني ؟ هل هي نبوءات العهد القديم والجديد، وما أخفاه أهل الكتاب ؟ أم نبوءات القرآن الكريم التي لا زالت تتلى وتتحقق بالأحداث في المكان والزمان ؟ فسورة الفتح استهلته بقوله تعالى : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۖ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۗ " ² . إن فاعلية الفتح وإدارة الأمور، لا دخل لمحمد صلى الله عليه وسلم فيها، فالله سبحانه وتعالى، هو الذي أتم الفتح على يد نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الأطهار .

لقد افتتحت سورة الفتح بهذا " الفيض الإلهي على رسوله صلى الله عليه وسلم فتح مبين ومغفرة شاملة ونعمة تامة وهداية ثابتة، ونصر عزيز. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه "³. هذا الفتح لم يكن للبشر يد فيه، بل فتح من الله العزيز، حققه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام . ليعلن الوحي تحديه لكل كافر ومشرِك، تحديا يتجاوز الزمكانية " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۗ " ⁴. وحين " يشهد الله، فهي شهادة العلم المحيط إحاطة تامة، ولا يوجد من يغيرها "⁵. فرسول من الله، وفتح من الله ، وشهادة من الله العزيز العليم الحكيم. وتبقى قصة الفتح معجزة خالدة، تتلى آيات سورتها،

1 - الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 53 .

2 - سورة الفتح : الآيات 1 ، 2 ، 3 .

3 - سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء التاسع عشر . ص 3312 .

4 - سورة الفتح : الآية 28 .

5 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، ص 14416 .

وتشاهد وقائع أحداثها عبر امتداد الزمان، وفي المكان الذي يتجه إليه المسلمون، بوجوههم يومياً في كل صلاة، وبأجسادهم وأرواحهم لأداء العمرة والحج. إنها قصة تحققت بعد أن كانت رؤيا مسطرة في غيب علم الله عزوجل، وتحولت إلى قصة حقيقية وواقعية، نصها يتلى، وأحداثها تتكرر دون توقف، ودون انقطاع. وهل هناك مكان مقدس في الأرض يشهد تلك الظاهرة الزمكانية، كالمكان الذي فتحه الله على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ونزل فيه الوحي الخالد، ومن قبل رفع فيه إبراهيم - عليه السلام - القواعد من البيت؟ لكن المستشرق جولد تسيهر يقول: "الحج إلى المعبد الوطني العربي القديم في مكة، أي الكعبة بيت الله الحرام، وهذا الركن الأخير احتفظ به محمد صلى الله عليه وسلم عن الوثنية، لكنه جعله متفقا والتوحيد، وعُد معناه مسترشداً في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية"¹. إن المكذب بهذا الواقع الحق والمشهود بالزمان والمكان، لا يستطيع أبداً أن يدعن لحقيقة الوحي والنبوة والرسالة، لأنه لا يستطيع أن يتخلص من عناده وتكبره وغروره، وهو يرى بأن الكعبة قبلة المسلمين في كل العالم، ومكان حجهم، يتوافدون عليها من كل فج عميق. فإذا كانت هذه هي الأسطورة، فكيف تكون الحقيقة؟

بهذا الفتح الإلهي العظيم، تكتمل دعوة الإسلام، لتعود للبيت مكانته التي أسس من أجلها، وهي توحيد الله وعبادته، لتتجدد دعوة خليل الرحمن إبراهيم على يد خاتم النبيين والرسول - عليهم الصلاة والسلام - وتنزل سورة النصر " إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ٣ "2. معلنة دنو أجل الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يفهم هذا إلا من خلال تفسير زمني لها، كما فهمه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - وقد أجاب ابن عباس، عمر - رضي الله عنهما - لما سأله رأيه في السورة، فقال ابن عباس مخالفاً رأي من قالوا: "أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا... فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول"³. وهذا يؤسس أيضاً إلى اقتراب انقطاع الوحي الذي نزل بإرادة الله وعلمه، وسينتهي نزوله أيضاً بها. يقول الشيخ محمد الغزالي "هذه السورة نزلت في أواخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم وقد

¹ إجناس جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة د. علي حسن، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثالثة مصر. ص 24

² - سورة النصر : الآيات 1 ، 2 ، 3 .

³ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء الرابع ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت 2008 . ص 2085 .

فهم منها - كما فهم حذاق الصحابة منها - أنها تنعى إليه نفسه، وتشعره بقرب الرحيل عن هذه الدنيا، فليستعد لذلك بطول التسبيح والاستغفار "1 لقد قربت سورة النصر زمن أجل الرسول صلى الله عليه وسلم . إنه حقا التفسير الزمني الذي يستوعب الظاهرة الإعجازية الغيبية

لقد أعلنت السورة القصيرة مصير الإسلام الذي سينتصر حتما، ويشهد دخول الناس فيه أفواجا. وفي قوله تعالى - إذا جاء نصر الله - هو " نصر الله يجيء به الله، في الوقت الذي يقدر في الصورة التي يريدتها، للغاية التي يرسمها، وليس للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد، وليس لأشخاصهم فيه كسب، وليس لذواتهم منه نصيب ... إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ... هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح، ومن دخول الناس في دين الله أفواجا "2. وبهذا النصر ستنتهي مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم التي خلق من أجلها " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَزَلُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهُ فَازْرَهُ فَاسْتَعْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقَةٍ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَّغْفُورَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا 3٢٩ . فإن اكتملت الرسالة، انتهت المهمة وحن أجله. ولا نظنه إلا لهذا الأمر الجليل، قد خلقه الله تعالى، وهياًه لاستقبال وحيه الخالد، وتبليغه للناس كما أنزل عليه بالروح الأمين. فماذا كان لمحمد صلى الله عليه وسلم من طموح في الملك والجاه والسلطان - حسب زعم المكذبين - إلا تشريفه بتبليغ رسالة ربه ووحيه للناس؟ فهو لهذه المهمة الإلهية خلق، وبها عُرف وعُظم، وفي سبيلها عاش، وسالم وخاصم وجاهد، حتى لقي ربه الذي اصطفاه رسولا ونبيا خاتما .

ولما فتحت مكة المكرمة، ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم البيت، قام يحطم تلك الأوثان التي انتصبت في ساحة أول بيت وضع للناس، ليلتقي هذا الفعل التاريخي، بالفعل التاريخي الذي قام به أبو الأنبياء - عليه السلام - أول مرة بجعل أوثان قومه جذاذا، فأكرمه الله

1 - الشيخ محمد الغزالي ، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص 547 .

2 - سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص 3996 .

3 - سورة الفتح : الآية 29 .

تعالى برفع قواعد بيته الحرام، ليقوم الرسول الخاتم - وهو من ذريته - بتطهير البيت من هذه الأوثان التي جلبتها قريش، وانحرفت عن الملة الحنيفية. " أدخل العرب على أعمال الحج من مظاهر التوحيد - التي قام من أجلها البيت الحرام - أعمالا من الشرك، وضروبا من عبادة غير الله. حتى كان فوق الكعبة نفسها أكثر من ثلاثمائة صنم، وكانت تلبيتهم ... تتأرجح بين صفاء التوحيد ، وكدور الإشراف بالله العلي الكبير"¹. فاكتملت دائرة قصة الإيمان والتوحيد. وما على قريش إلا أن تتذكر جيدا عملية البناء والهدم، حين رفع إبراهيم قواعد البيت، مع ابنه إسماعيل - عليهما السلام - والتي تتفخر بالانتساب إليهما. كما تذكرت قريش مجيء ملك الحبشة وجيشه الجرار لهدم بيت الله، لكنه سُحق، لا بقوة قريش، ولا بسيف فرسانها الشجعان، بل بقوة الجبار رب البيت. ويسجل الوحي هذه القصة في سورة قصيرة هي سورة الفيل " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ۝ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ٥"². يحدث هذا - على أغلب الترجيح - زمن ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسمى بعام الفيل .

وقبل هذا بقرون، حدث في بلاد الشام خراب هيكل بني إسرائيل على يد الوثنيين ، ولم تحصل أي حماية له من طرف الإله الرب. بل حصل تخريب ثان للهيكل، سنة سبعين من الميلاد. إلا أننا نجد النصارى قد فرحوا لذلك، لأن نبوءة المسيح - عليه السلام - قد تحققت أما اليهود فقد ظلوا حتى الآن - وعلى امتداد ثلاثين قرنا، ولا زالوا منتظرين مخلصهم ومنقذهم الذي سيعيد لهم بناء هيكل الرب، ويعيد لهم مجدهم الضائع. لقد " ثبت تاريخيا أن فرسان الهيكل عرفوا بحفرهم تحت المسجد الأقصى لأغراض اختلف حولها المؤرخون ، ولكن استعادة بيت المقدس وبناء هيكل سليمان، عقيدة ارتبطت بهؤلاء الفرسان أكثر من ارتباطها باليهود"³. لكن الامتداد الزمني كشف خطأ النبوءة وفشلها، ونسي الرب هيكله الخرب، وفشل في فرض إرادته، وعجز عن تحقيق مشيئته، لتتم عملية البناء. فمن السهل جدا أن نتنبأ وندعي ذلك، لكن من الصعب أن تتحول النبوءة إلى حقيقة وواقع، إلا إذا كانت وحيا من رب المكان والزمان، ومن عالم الغيب والشهادة .

¹ حسن البنا : نظرات في القرآن الكريم ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة 2002 . ص 253 .

² سورة الفيل : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

³ فيصل بن علي : اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد، مكتبة الملك فهد، الطبعة الأولى 2010 السعودية . ص 342 .

لقد اكتملت الدائرة الزمانية، والتي كانت مسافتها قرونا، وتبدأ مرحلة الهدم، لكن هذه المرة تكون على يد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي مرحلة تطهير البيت من رجس الأوثان، ليبقى مرفوعا وطاهرا كما أراده رب البيت. ويعلن الوحي بعدها - أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا - وهذا بعد قوله تعالى بأكثر من عشرين سنة " أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ ١ " وقوله " يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ۝ ١ فَمُ قَانِزِرَ ۝ ٢ " 2 . تلك الخطوط العريضة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم التي عرضها الوحي. وأخيرا جاءت حجة الوداع، وقد اقترنت بهذا الاسم لأن خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت وصية مودع لصحابته - رضوان الله عليهم - الذين شهدوا هذا الموقف الجلل، وكانوا شاهدين على نبيهم صلى الله عليه وسلم ، كما أشهدهم هو على نفسه، بأنه بلغ الرسالة، وعليهم أن يبلغوا الدين للناس، ولا يحتكرونها لأنفسهم. فكان الوقوف يوم الحج الأكبر في موقف خشوع وابتهال لرب البيت، معلنين وحدانيته سبحانه وتعالى، وتلبية للنداء الذي أذاعه أبو الأنبياء ، و خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك - ومنذ ذلك الزمن لم تتوقف التلبية، ولم تتوقف مواكب الحجيج والمعتمرين المتدفقة نحو بيت الله الحرام ، ولم ينقطع صوت أذان الصلاة مدويا في سماء الكون، بتكبير الله وتوحيده، ومناديا للصلاة والفلاح. وقد روى الإمام أحمد : " عن عائشة - رضي الله عنها - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني اليهود : إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وأضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وأضلوا عنها، وقولنا خلف الإمام أمين "3. فكل هذه المشاهد الزمانية والمكانية، بشخصها وحركتها الدائبة المستمرة منذ الفتح، تتحدى بكل جلاء وصدق وحق، ادعاء كل مكذب بالوحي، أو بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول توماس كارليل لما لمس حقيقة الوحي والنبوة : " الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب، فهو إذ لم يكن عليما بخصائص الجير والتراب، وما شاكل ذلك. فما ذلك الذي يبنيه ببيت، وإنما هو تل من الأنقاض، وكثير من أخلاط المواد. نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنا، يسكنه مائتا مليون من الأنفس. ولكنه جدير أن تنهار أركانه ، فينهدم

1 - سورة العلق : الآية 1 .

2 - سورة المدثر : الأيتان 1 ، 2 .

3 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 179 .

فكأنه لم يكن "1. والآن يسكنه ألف مليون ونصف، وهم في تزايد مستمر. فهل جاءت نبوءة القرآن الكريم مخالفة للواقع؟ وهل كان القصص القرآني بتوظيفه الزمن الغيبي، جديراً بأن يُعالج من هذا الجانب في مجال النقد الأدبي؟ وهل يستطيع النقد أن يقول كلمته في مجال الغيب، دون أن يعرف تاريخ العقيدة، أو يفحص تراث أهل الكتاب، وأسفارهم القانونية منها والمخفية - الأبوكريفا - ودون أن يعرف خصائص الفكر الأسطوري، وملحمة التكوين البابلية وسفر التكوين للعهد القديم، وما قاله العلماء مجتمعين في قصة الخلق والكون، والوجود والزمن ليقارنوا ذلك بما جاء به النص القرآني، وبصريح الآيات في تلك المسائل العويصة، ثم يمكن لهم بعد ذلك، أن يقولوا ما بدا لهم من رأي وصواب، في النص القرآني عامة، وقصصه خاصة؟. وهذا في اعتقادنا هو العمل الجاد الذي يستطيع به كل باحث ملتزم بالروح العلمية والموضوعية، أن يخطو فيه، لتتم له عملية استيعاب الإشكالية الزمانية التي عالجه النص القرآني، دون خيال أو أسطورة، ودون تحريف أو تزييف. فهذا كله يحتاج إلى الموسوعية المعرفية، كما يدل على ذلك التحليل المعاصر للخطاب .

فالقصاص القرآني حين تجاوز بحدثيته الزمان، ومزق حجب الغيب التي لا يعلمها إلا العليم الحكيم، مالك يوم الدين، لم يكن ذلك إلا ليعلن عن خالقية الله سبحانه وتعالى، والتي أعلنها في بداية تنزيل وحيه. كما تبين سورة العلق أن العلم مصدره هو الله تعالى، وأن الإنسان لم يبدأ حياته من الصفر. يقول تعالى: " الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۚ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ "2. وآدم هو " الشخص الوحيد الذي لم يقلد أحدا "3. فالله الخالق العليم، هو الذي خلق الإنسان وعلمه، قبل أن يهبطه إلى الأرض - المكان - ليمارس حياته ويؤدي رسالته على سطحها - إلى حين -، وقد وجدها مهياً له، ولم يبذل أي جهد في صناعة الهواء أو الماء " الهواء طعام تقدمه السماء مجاناً لكل الفقراء "4. لكن التحدي الذي يواجهه المشرك والملحد العنيد، هو إشكالية الزمن، فلن يستطيع بكل ما أوتي من شدة الإنكار، أن ينتصر على أي لحظة زمانية، ولن يستطيع هذا المعاند أن يحفظ خلوده على هذه الأرض، بل قد يغيب عنه زمان حضور أجله، كما غاب عنه زمان مجيئه للدنيا.

1 توماس كارليل : المرجع السابق . ص 38 .

2 سورة العلق : الأيتان 4 ، 5 .

3 أحمد منير : موسوعة الأمثال والحكم . ص 14 .

4 المرجع نفسه . ص 11 .

بل جاء لهذه الدنيا، وهو لا يعلم شيئاً، ولو ترك لوحده ما استطاع أن ينتصر على الحياة والبقاء. والإنسان في زمن ميلاده، يكون أضعف من أي حيوان مخلوق، يقوم على قوائمه. أن اليرقة التافهة تكون أقوى بكثير على مقاومة البقاء، من هذا الإنسان العاقل الضعيف .

فماذا يقول السارد، وهو محكوم بشروط الزمان كباقي عناصر السرد؟ لهذا كان توظيف القصص القرآني للزمن الغيبي، كتحد وإعجاز، لن يستطيع أي مبدع أن يوظفه في سرده، فضلاً عن حياته ومصيره. وعلى المؤمن أن يتدبر هذا التوظيف للزمن الغيبي، ليقف على طلاقة القدرة الإلهية، ويدرك الفرق الشاسع بين كلام الله الخالق الواهب للحياة، وبين كلام البشر المخلوق المتزمن، المحصورة حياته بين بداية ونهاية مجهولتين. إن الوحي لا يتوقف أبداً عند هذا الحد النهائي شأن عالم الفن والإبداع، بل يعرض أحداثاً تتجاوز زمانيتها كل حياة البشرية منذ أن وجدت، إلى أن تنتهي، إلى مرحلة (المابعد)، وكما رأينا في زمانية المكان، حيث انتهى المكان الأرضي، لينتقل الوحي إلى عالم الخلود، وتجري أحداث القص فيما بعد الموت وفناء الكون، لتجتمع كل الخلائق وتقف في خضوع وخشوع واستسلام، أمام ربها الواحد القهار، ليحاسبها على ما قدمت وما أخرت.

إن مرحلة المابعد لن يستطيع أن يتناولها أي فضاء سردي، فالموت هو الحد الفاصل الذي يستحيل أن يتجاوزه الإنسان، ولن يعرف حقيقة الموت وما بعده، إلا من مات ورحل عن هذه الدنيا. لقد عرض علينا القرآن الكريم مشاهد يوم القيامة، وتناولت عناوين بعض سورته أسماء لتلك الأحداث كسورة - القارعة والقيامة والغاشية والزلزلة والزمر - وهي مشاهد لأحداث ستقع يقيناً، وكما نرى فهي تتناول أحداثاً ستتم في عالم وزمن غيبين يوقن بها المؤمن. لكن الأمر الملفت للانتباه، هو أن هذه المشاهد تكون فيها الفاعلية المطلقة لله عز وجل، وخضوع الناس التام لربهم. لأن هذه المشاهد هي بمثابة محكمة إلهية يفصل فيها الله عز وجل وحده، دون أن يشرك معه أي مخلوق، حين يقوم الناس لرب العالمين، مسلوبي الإرادة والحرية التي امتازوا بها زمناً في حياتهم الدنيوية. والسؤال الذي جاء به الوحي هو " يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ

مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنْ أَمْلَأَ اللَّهُ الْيَوْمَ الْفَهَّارَ ١٦" 1. ويكون الكافرون قد انتقلوا إلى يوم البعث، الذي طالما أنكروه وكذبوا به، وكفروا بالله الخالق ، في زمن الدنيا الفاني .

لهذا فضلنا أن نتناول هذا الجانب في الفصل الثالث - إن شاء الله - في زمانية الخطاب، والذي يؤسس لامتداد النص القرآني عبر الفضاء الزماني الممتد إلى مرحلة المابعد، لأن النص القرآني يبقى مستمراً حتى بعد موت شخوص القص، سواء كانوا فرادى أو جماعات، ويعرض علينا القرآن الكريم، كيف يكون المشهد الخالد بعد ذلك، حين يُعرض الكافرون على النار كآل فرعون " النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦" 2. تظل الأحداث مستمرة ما بعد نهاية الدنيا، لأن الموت ما هو إلا انتقال من عالم الدنيا الفاني، إلى عالم الآخرة الباقي. وكما ترتبط الأحداث بالزمن الغيبي، كذلك ترتبط بالزمن الخارق الذي يؤكد إعجازية الوحي لدى المؤمن بالله، ويولد شكاً وتكذيباً لدى الكافر الجاحد للخالق والبعث، على الرغم من أنه يعيش في الكون الذي وجده مهياً له .

ج - ارتباط الأحداث بالزمن الخارق في القصص القرآني :

إن ارتباط الأحداث بالزمن الخارق ، يجعلها تتجاوز المدة الطبيعية للزمن، إما بتمديدها أو بتقليصها إلى سرعة فائقة لا نكاد نشعر بها. وهذا ما يؤسس في نظرنا لإشكالية، كان الوحي قد تناولها عبر محوره القصصي، ليلفت انتباه المتلقي إلى قضية جوهرية، تتمثل في قدرة الله المطلقة، التي تتجلى لنا في خالقيته للزمن وفاعليته عليه، حيث يُخضعه لإرادته ومشيئته لوحده تمديداً وتقليصاً. وهذا بعد ما عرض علينا الوحي نسبية الزمن، التي لا زالت قيد دراسة العلماء والفلاسفة. إن عملية تمديد الزمن وتقليصه تناولها القصص القرآني، ليجسدها على أرض الواقع، كأحداث حقيقية بالمكان والزمان، لا مجال للخيال أو الأسطورة حظ فيها. بل إن ظاهرة تقليص الظل وامتداده تثير فينا الانتباه الذي عرضه الله تعالى في كلامه عز وجل، ليدفع العقل لاستيعاب هذه الظاهرة الزمانية، التي جعل الشمس دليلاً عليها " أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ

1 - سورة غافر : الآية 16 .

2 - سورة غافر : الآية 46 .

إِنِّيْنَا قَبَضْنَا يَسِيرًا ٤٦ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ٤٧¹. فرؤية حركة الظل، وهي مشهد يتكرر يوميًا، تقدم لنا مشهدًا حقيقيًا في ظاهرة النسبية. لكن الذي يسترعي انتباهنا في الآية، هو أن الفاعلية التي تمارس هذا الفعل على الظل، ليست هي الشمس، بل إن الفاعلية التي حركت الظل بهذه النسبية هي التي تشرف على حركة الشمس البعيدة عنا، والمسخرة لنا. وبالتالي فإن صاحب هذه الفاعلية، هو الذي خلق الليل، وجعله راحة لنا في نومنا، كما خلق لنا النهار، وجعله لنا للسعي والنشور. فهو المشرف على كل عناصر الكون والمحيط به، ولا يكون إلا الله سبحانه وتعالى .

إن حركة الزمن ليست بيد أحد من العالمين، بل هي بيد الله تعالى، رب العالمين ، يمددها ويفصلها كيف شاء، وفق علمه وحكمته " في الحقيقة يعتبر القرآن هذا الإيقاع والنبض العجيب المنتظم للكون، وهذه السباحة الصامتة للزمن الذي يتبدى لنا نحن البشر في حركة الليل والنهار، يعتبرها القرآن من آيات الله الكبرى² . ويقول تعالى في حركة الليل والنهار وتعاقبهما "خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ه"³. وهذا ردا على كل اعتقاد باطل لمصدر الظاهرة الزمانية اليومية، وحركة الليل والنهار، والتي كانت تنسبه الشعوب إلى الآلهة الأسطورية. فمن معتقدات شعب المايا " أن الآلهة لها دور في تحريك عجلة الزمن ... إن الآلهة يتناوبون في تحريك الزمن، بحيث يمارس كل منهم سلطته خلال قيامه بنوبته"⁴. فالوحي لا يتسامح مع هذه المعتقدات الباطلة، فهو يدحضها ويكشف زيفها بالتحدي بخطابه المعجز. فالحركة الزمانية هذه تعكسها أيضا قدرة الله في قصصه الحق، الذي بثه في وحيه الخالد، وأظهره في الواقع مكانا وأحداثا وشخوصا، وما علينا إلا أن نتابع هذا القصص ، لنستخلص الحكمة والعبر منه، حين تتجلى طلاقته تعالى في خلقه سبحانه، وكأننا دائما - نحن المسلمين - مرتبطين بما يردده آذان الصلاة على مسامعنا يوميا، بين الليل والنهار : الله أكبر ، ولا إله إلا الله. وهنا كأن كل شيء يتوقف، أمام جلال هذه الكلمات التي تمثل الحقيقة الأزلية . فلا غرو أن تناول القصص القرآني المجال

1 سورة الفرقان : الآيات 45 ، 46 ، 47 .

2 محمد إقبال : المرجع السابق . ص 29 .

3 سورة الزمر : الآية 5 .

4 . عبد اللطيف الصديقي .: التفسير الصوفي للشيخ الثعالبي . ص 25 .

الخارق، بجانب المجال الغيبي، وكلا المجالين تحدّ لقدرة الإنسان وعلمه المحدودين، ودليل قاطع على ضعف هذا المخلوق المحدود المحكوم بالزمان والمكان والأجل. يقول تعالى مؤكدا هذه الحقيقة لكل الناس: "يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ هـ" ¹. فحتى أعمار الناس تختلف بنسب مقدرة في علم الله ومشيتته، ولا يملك الإنسان من هذا الأمر شيئا. والمشرف الوحيد الذي يعود له الأمر والفاعلية، هو الله وحده سبحانه وتعالى .

يمكن لنا أن نستعرض مجال الخارق في القصص القرآني، بعد أن ننبه بأن الخارق من جهة، يلامس النسبية التي لا يمكن للنقد أن يعالجها، كما يعالجها العلم، كما أنه يلامس السرعة التي تحسب فيزيائيا بوسائلها المادية الخاصة، ولا تحسب في النقد إلا من خلال التعبير اللغوي والألفاظ، والصيغ النحوية للزمن. فالزمن في عرفنا البشري هو الشعور بتعاقب الليل والنهار، فإذا ما انعدم أحدهما، فلا نستطيع أن ندرك حقيقة هذه الزمانية التي قدرها الله تعالى في عالم دنيانا، متمثلة في وحدة اليوم. وهذا ما نلاحظه بين طول وقصر الليل والنهار، حسب اختلاف فصول السنة " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٦١ " ². إلا أن اليوم يبقى مقدارا ثابتا، لكن امتداده، أو تقليصه هو بمشيئة الله وحده، فإنه " يجعل الليل قصيرا ويجعل ذلك القدر الزائد داخلا في النهار، وتارة على العكس. وإنما فعل سبحانه وتعالى ذلك، لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك " ³. وهذه الظاهرة الزمانية لا تخفى على أحد، حتى وإن خفي مدبرها ومسيرها، كما أم جميع الخلق خاضع لهذا التعاقب .

لقد تناول القصص القرآني الظاهرة الزمنية بنسبيتها وخرافتها، ضمن الواقع والحقيقة بعيدا عن الأسطورة والخرافة والخيال، وبعيدا أيضا عن الفرضيات الفلسفية. فعرض علينا الوحي كتلا زمانية مثل - إلى حين، ولمح البصر، الساعة، اليوم الأمد - وهذا بالنسبة لخالق الزمان شيء واحد. وكما عرضنا في الفصل السابق ارتباط المكان بالزمن الخارق، فكذلك

¹ سورة الحج : الآية 5 .

² سورة الحج : الآية 61 .

³ الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن . ص 9 .

نعرض ربط الأحداث بالزمن الخارق، وهذا دائما لتأكيد طلاقة القدرة الإلهية. لأن الإنسان لا يقف متسائلا أو متعجبا، إلا أمام الخوارق، والخوارق هي التي تخرق سنن الكون التي ألفها الناس واعتادوا عليها، لكن قدرة الله تعمل فوق هذه السنن، لأن الله هو خالقها ومنشئها " إن أكبر التعقيدات تنشأ عندما ننسب في تعاملنا مع الزمن بعض القيود الإنسانية إلى الله "1. لكن في حقيقة الأمر، حتى الذي اعتدنا عليه يُعتبر خارقا، كظاهرة شروق الشمس وغروبها، لأن الله وحده هو القادر على فعل ذلك، فالخارق بالنسبة لنا، هو إحساسنا الدائم بالضعف أمام تجلي قدرة الله سبحانه وتعالى. وأن سقوط الأجسام إلى الأرض يبدو عادة مألوفة للجميع، لكن العالم نيوتن اعتبر سقوط التفاح إلى الأسفل أمرا محيرا، يحتاج إلى بحث وحل وجواب. ونسبية النظرية إلى الأشياء والأحداث، هي التي تجعل الفرق متفاوتا في الحكم عليها، فالذي يتربص الكون بفكر الباحث المتدبر، غير الذي لم يرفع نظره، ولو مرة إلى هذا السقف المشيد فوق رأسه، ليرى عظمة بانيه، ويهتدي إلى الإقرار بوجود خالقه ومنشئه .

إن المتدبر في آيات الكون، كالمُتدبر في آيات الوحي، والربط بينهما لدى المسلم هو الحكمة المقصودة التي تزيد المؤمن إيمانا، وتقربنا من استيعاب النص القرآني عامة ، وقصصه خاصة، حين تتجلى طلاقة قدرة الله تعالى. ولا سيما حين يسرد علينا القرآن الكريم أحداث قصصه بتوظيف الخارق الذي يتعامل معه البعض بإهمال الحكمة منه. إن ارتكاز " القصة في الغالب على فنية سردية تسلسلية، أو خطية تتعاقب صيرورتها بمنطق عرضي ، لا يصدم البدهة، إلا عندما يتعلق الحدث بالخارق من أفعال الله المعجزات "2. ولهذا لا بد من طرح السؤال : ما المقصود بهذه القصة، وتلك الحادثة الخارقة ؟ ولم تكن هذه القصة بمجالها الخارق، إلا استفزازا آخر أمام هؤلاء المكذبين والملحدين، ليكرروا مقولة المشركين السابقين - أساطير الأولين - في حين أننا نجد العلم يبحث تلك المجالات الزمانية، ليعلن على أن الزمن نسبي، وأنه يتمدد كما أنه يتقلص، والسؤال الذي نبخته هو : من الذي يشرف على هذه العملية، باعتبار أن الزمن مفعول به، وليس فاعلا حقيقيا ؟ والذي يجيبنا على هذا السؤال هو وحي الله وكلامه ، وضمن قصصه الحق .

1 د . جيفري لانغ : حتى الملائكة تسأل . ص 114 .
2 د . سليمان عشارتي : المرجع السابق . ص 05 .

فسورة الحج التي تناولت ظاهرة الظل، تناولت أيضا نسبية زمن اليوم " وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧ "1. أي عند الله الخالق. ومرة أخرى يجد المفسرون أنفسهم أمام إشكالية زمانية، أراد بعضهم أن يبحثها وفق معرفته المحدودة، في حين أن السياق يوضح، أن هذا العدد - ألف سنة - هو وحدة اليوم عند الله تعالى، وليس عند البشر. ثم إن اليوم، إن تمدد إلى هذا المدة، لن يتوقف عند ألف سنة، بل يتمدد إلى خمسين ألف سنة أثناء العروج " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤ "2 إن " فكرتنا عن الزمان زائفة، ويظهر هذا أكثر إذا قارنا بين ما يمكن أن نسميه أيام الله، وأيام الدنيا، حيث يظهر لنا أن يوما عند الله كان مقداره ألف سنة مما تعدون، وكان مقداره خمسين ألف سنة "3، ليقول الكاتب بعد ذلك: " لن أحاول هنا أن أقدم نموذجا أو تفسيراً للعلاقة الدقيقة بين الله والزمن، بل علي أن أقترح أن أي محاولة من هذا القبيل، سوف تكون عقيمة، لأن تصوراتنا عن الزمن ليست حقيقية بشكل موضوعي"4. إن هذا التوظيف القرآني لهذه الأعداد الهائلة في وحدة اليوم، هي التي تستوقفنا لنعلن أمامها علمنا المحدود، كما تجعلنا نقارن زمن أعمارنا القليل، بهذه المدة الزمانية الممتدة إلى حقب متلاحقة، لا يستطيع أي إنسان أن يستهلك في حياته إلا جزءا قليلا من الزمن. والمسألة معقدة لا يستطيع نقاد الأدب، أن يقدموا فيها رأيا، فهي عملية تتعامل مع لغة الأعداد والأرقام، وتستلزم دراسة متأنية، توصلنا إلى الوقوف على قدرة الله تعالى، وكيفية استيعابنا لإشكالية الزمانية التي بسطها القصص القرآني، دون أن يعقدها أو يبهمها، أو ينجح بها إلى الخيال والأسطورة .

لقد عرض علينا الوحي أنباء الأمم الماضية، دون أن يتعرض إلى تفاصيل مدة زمن بقاء رسلها وسط أقوامهم، باستثناء مدة مكوث النبي نوح - عليه السلام - بين قومه. وقد أحصى الوحي هذه المدة التي لبثها في قومه، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد " وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٤ "5. إن هذه المدة التي ذكرها الله عز وجل، تجعل العقل يقف أمام قوة صبر النبي نوح - عليه السلام - وتحمله المستميت في سبيل

1 سورة الحج : الآية 47 .

2 سورة المعارج : الآية 4 .

3 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 116 .

4 المرجع نفسه . ص 116 .

5 - سورة العنكبوت : الآية 14 .

الدعوة إلى الله، لأن هذه المدة الزمانية الخارقة، تمر عليها أجيال متتالية ، فهي لا تعد بالشهور والسنوات، وإنما بالقرون. وهو " عمر طويل مديد، يبدو لنا غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد، ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود، وهذا وحده برهان صدقه "1 فتوظيف عنصر الخارق ظاهر بقوة في المجال الزمني. وهذا في نظرنا هو الذي أدى إلى ذكر الزمن بالتفصيل، دون زمن مكوث أنبياء الأقسام الآخرين. فمنهج القرآن الكريم يركز على هذه الجوانب من الغيبي والخارق، حتى تتجلى الظاهرة الإعجازية ، أمام أعين الدارسين. ثم أن هذه المدة الممتدة، جعلت الأحداث تختزل في أمر الدعوة لا غير، وعلى الرغم من طول المدة، إلا أن عدد المؤمنين كان قليلا. فلم " تثمر ألف سنة إلا خمسين عاما، غير العدد القليل الذي آمنوا لنوح - عليه السلام - وجرف الطوفان الكثرة العظمى، وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة، ونجا العدد القليل من المؤمنين ، وهم أصحاب السفينة، ومضت قصة الطوفان والسفينة آية للعالمين تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون "2. وقد توزعت مشاهد قصة نوح - عليه السلام في بعض سور الوحي. ومنها سورة نوح التي حملت اسمه " إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ "3. واستمر - عليه السلام - في تبليغ رسالة ربه، مفوضا أمره لله عز وجل، صابرا على أذى قومه له، حتى جاء أمر الله تعالى، فنجى الله تعالى، نوحا ومن آمن معه، وأهلك القوم الذين كفروا غرقا بالطوفان .

لقد استعمل نوح - عليه السلام - كل السبل في هداية القوم، كما أخبرنا الله تعالى بذلك " قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ٦ "4. ومن خلال السياق، فإن دعوته شغلت الحيز الزمني باستمراريتها، مع تعاقب الليل والنهار، ثم كانت الوسيلة الأخرى " ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩ "5. إنه يلح على مواصلة الدعوة بكل الوسائل المتاحة في السر، كما في العلن. فهذا هو يجهر بدعوته تارة، ثم ينفرد بهم تارة أخرى، والسنون تمر، وتتراكم لتصبح قرونا. وجاء في تفسير ابن كثير، أن نوحا - عليه السلام " اشتكى إلى ربه عز وجل، ما لقي من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة هي : ألف سنة إلا

1 - سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الجزء العشرون . ص 2727 .

2 - المرجع نفسه . ص 2728 .

3 - سورة نوح : الآية 1 .

4 - سورة نوح : الآيتان 5 ، 6 .

5 - سورة نوح : الآيتان 8 ، 9 .

خمسين عاما، وما بين لقومه ووضح لهم، ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ... أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك" ¹. لكن الأمر الملفت للانتباه، هو أن الأحداث قد ارتكزت على عملية تبليغ الدعوة وموقف القوم منها. فكتلة السرد كانت أصغر حجماً، من الكتلة الزمنية المعدودة " ورغم تكرار قصة نوح - عليه السلام - في القرآن نحو عشر مرات، فإنها في جميعها ألغت ذكر تفاصيل وجزئيات قد تحول الشعور إلى غير الاتجاه المقصود، لأنه لم يتعلق غرض ديني بذكرها " ² وهذا ما ينتهجه القرآن الكريم في عرض الأحداث، الذي يجعل التركيز على الموقف من العقيدة وما يتعلق بها من مصير. كما أن هذه المدة، تدل على أن السارد، كان خارج الإطار الزمني، كونه موجوداً قبل المدة، وبقايا بعدها، ومشرفاً على كل مراحلها بداية ونهاية .

لن يستطيع السرد الفني أن يتجاوز حدوده الطبيعية، التي تعد بأيام أو بضع سنوات في أقصى تقدير، ولنرى ما تكون عليه سعة المسرود لعرض أحداث سنوات من الزمان، فما بالنا بقرون متعاقبة؟. لكننا نجد أن إحصاء المدة الزمانية لمكوث نوح - عليه السلام - في قومه، دون سائر الأنبياء يدل على أن عنصر الزمن، حتى وإن امتد طويلاً مصحوباً بدعوة الرسل، فلن يجدي شيئاً مع إصرار القوم على المكابرة والعناد، ولن ينتهي إلى إيمان القوم، حتى وإن استنفد الرسل جميع أساليب الدعوة. تلك قصة النبي نوح - عليه السلام - مع قومه الذين لم يؤمنوا إلا قليل منهم " وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " ³. وهي معجزة في حد ذاتها " هكذا أوحى الله إلى نوح - عليه السلام - وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والامتنع، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد، ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب، وتحذ واستهزاء " ⁴. ليتوقف عدد المؤمنين، ويحسم الوحي المسألة، ويتقرر مصير القوم الذين كفروا. " حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ " ⁵. لقد حان أجل القوم، وأغلقت قائمة المؤمنين، وجاء العذاب الذي كانوا به يستعجلون. إن هذا يدل على أن قضية الإيمان، تعود إلى مشيئة الله

1 - ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الرابع ، ص 1948 .

2 التهامي نقرة : المرجع السابق . ص 507 .

3 - سورة هود : الآية 36 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1876 .

5 - سورة هود : الآية 40 .

تعالى وحده، وما على الرسل إلا البلاغ. وهذا ما كرره الخطاب القرآني، وأثبتته الواقع عبر امتداد الزمن. ولربما استخلص النبي نوح - عليه السلام - من دعوة التبليغ وطول المدة الزمانية، أن الكافر لا يلد إلا كافرا، لذلك ربما كان دعاؤه عليهم بالدمار والفناء " وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكُفْرِينَ دَيَّارًا ۖ ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۖ ٢٧ "1. لكن مهمة الرسل والأنبياء تتوقف عند حد التبليغ " مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَأَلَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ٩٩ "2. أما الإيمان فهو مسألة اختيارية للإنسان لا جبرية، وبمشيئة الله وعلمه .

ومرة أخرى يكشف القرآن الكريم، تناقض نصوص العهد القديم، وهذا بعد أن جاء فيه بأن الإنسان سيعيش بعد ذلك عمرا لا يتجاوز المئة والعشرين سنة، كما جاء في سفر التكوين " فقال الرب : لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة "3. إلا أننا نجد أن نوحا - عليه السلام - قد تجاوز هذا العمر المحدد " فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات "4. وهذا ما ذكره سفر التكوين في عمر نوح الذي يتفق مع النص القرآني. لكن كان هذا بعد ما اتخذ الرب الإله قرار تحديد عمر الإنسان، حسب ما نص عليه العهد القديم " إن يهوه بقراره تقليص عمر الإنسان، لم يكن صادقا في وعده، ولا حازما في قراره بشكل مطلق، وذلك بالنظر للموضع الترتيبي للقصة، حيث أن نوحا - عليه السلام - والذي تأتي قصته بعد هذه القصة مباشرة، قد عاش لتسعمائة وخمسين سنة، وهذا يبرز تناقضا آخر بين هذه القصة، وبين المواضع الأخرى في العهد القديم "5. وربما كما ندم الرب على خلق الإنسان، وكثرة شره، كذلك تراجع عن قرار تحديد عمر الإنسان - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - .

لا يكفي القرآن الكريم بهذه القصة، وإنما يعرض علينا قصة أخرى، تناولنا جانبا منها في الفصل السابق، وهي قصة أهل الكهف الذين دامت مدة نومهم ثلاثة قرون، حيث تجاوزت المدة الطبيعية للنوم " وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ ٢٥ "6. قد يجد البعض في طول هذه المدة، أمرا لا يصدقه العقل، فكيف يمكن لمدة النوم التي لا تتجاوز الساعات، أن تمتد إلى

1 سورة نوح : الآيتان 26 ، 27 .

2 - سورة آل عمران : الآية 20 .

3 العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح السادس : الفقرة 3 .

4 المرجع نفسه ، الإصحاح التاسع : الفقرة 29 .

5 .د. كارم محمد عزيز : الأسطورة والحكاية الشعبية في العهد القديم ، عين الدراسات والبحوث الإنسانية ، الطبعة الأولى 2001، مصر. ص 65 .

6 - سورة الكهف : الآية 25 .

قرون ؟ وقد ذكرنا أن الوحي يرد بنفسه على كل ادعاء، وخاصة إذا كان الأمر خارقا. ولذا وضحت سورة الكهف في البداية، أن المدة كانت سنوات معدودة. " فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١ "1. كما ذكرت السورة مصدر القصة، إذ يقول تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرُدُّنَّهُمْ هُدًى ١٣ "2. والمنهج المتبع في عرض السور، هو تطابق نهايتها مع بدايتها، فهذا الخط الهندسي، هو الذي يؤسس للرد على كل شك، كما يجعل تعدد مواضع السورة ترتبط بخيوط مشتركة، يستطيع الباحث أن يتوصل إليها. ويقول الشيخ محمد الغزالي عن المنهج القرآني إنه " يتناول السورة كلها يحاول رسم (صورة شمسية) لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها "3. وهذا ما أدى به لتأليف كتابه: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، يريد أن يبين أن لكل سورة موضوعا موحدًا تدور حوله .

لكن الذي يهمننا في هذه الدراسة، هو توظيف الخارق في القصص القرآني، والذي يدل على القدرة الإلهية، التي جعلنا نستوعب الظاهرة القرآنية، دون أن نجهد أنفسنا في إثارة مشكلة الخلاف، في أمور لم يفصل فيها الوحي، وعلينا أن نتمسك بمنطوق النص، ولا نخضعه لما نريد. وعيب الباحثين في بحث قصص القرآن الكريم، هو محاولتهم لي النص، أو الابتعاد عن منطوقه. فالله تعالى يقول في سورة العنكبوت: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٤ "4. وقال في سورة الكهف: " وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ٢٥ "5. والاختلافات حول مسائل محسومة لن تغير من حقيقة الواقع، ولن توصل إلى الفائدة المرجوة. ومادام الله تعالى يبقي إنسانا حيا يتحرك، ويدعو الناس على مدى قرون ، فليس من الصعب عليه، أن يسكن حركة آخر، ويجعله نائما لمدة قرون. ووفق هذه الهندسة التقابلية ينبغي أن يفهم توظيف زمانية الأحداث للقصص القرآني. فالله عز وجل حين يمدد الزمن أو يقلصه، فكذاك يقدر على تمدد الحدث أو تقليصه، فسرعة الفعل وحركته، أو تمدد الزمن وتقلصه، كلها أفعال تتم بمشيئة الله سبحانه وتعالى. وقد عمل القصص القرآني على

1 - سورة الكهف : الآية 11 .

2 - سورة الكهف : الآية 13 .

3 - الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص 5 .

4 - سورة العنكبوت : الآية 14 .

5 - سورة الكهف : الآية 25 .

توظيف هذه الظاهرة، ليجلي لنا طلاقة قدرته تعالى، وبالتالي فالإشكالية الزمانية تبقى في القصص القرآني عرضا إعجازيا، يقف عندها المتدبر لقصة أصحاب الكهف، أمام قوله تعالى - نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ - مؤمنا بها إيمانا راسخا، لا يشوبه أدنى شك .

لكن هذه القصة كانت استفزازا قويا، بالنسبة للمشركين والملحدين، والعلمانيين والمستشرقين، ورفعت الأقاليم لتساهم في استمرار عملية التشكيك والتكذيب، ووقف هؤلاء كالعادة أمام الإشكالية الزمانية من جديد، ليقولوا بكل بساطة إن هذا صنيع أسطوري. بل نجد قصة أهل الكهف قد أخذت حضا كبيرا في الكتابة والنقد، لوضعها في المجال الأسطوري ، باعتبار أن أحداثها خيالية. يقول أركون : " إن أساطير غلغاميش والاسكندر الكبير والسبعة النائمين في الكهف، تجد لها أصداء واضحة في القرآن "1. وكما ذكرنا سابقا أن التوظيف الزمني الخارق هو الذي كان السبب الرئيسي في هذا الزعم. والسؤال الذي نطرحه هو : لماذا كان كل هذا الزعم المتواصل حول القصة القرآنية لأصحاب الكهف ؟ إن الإجابة على هذا السؤال، كما سيظهر لنا من خلال ما سيأتي في الفصل الثالث - إن شاء الله - يجعلنا نبحت في تراث أهل الكتاب، حول ما جاء في هذه القصة. أما هنا فسيكون حديثنا حول معجزة الحدث ، وعلاقته بالزمن، أي كثافة السرد مع الكتلة الزمانية للأحداث، وهي منهجية القرآن الكريم ، الذي انفرد بها عن كل فضاءات السرد المختلفة، وهي دليل معجز أيضا حول تقنية زمن السرد وكتلته، والتي لا زال النقد الأدبي يقوم بالتنظير لها .

فقصة أهل الكهف القرآنية تشكل ظاهرة إعجازية، لن يستطيع أي سارد أن يؤلف مثلها. وماذا كان سيقول السرد الفني في أحداث قصة ناس ناموا ثم استيقظوا ؟ مع العلم أن عملية النوم سكون، وليست حركة. وصمت، وليست حوارا أو حديثا. وإذا كان توفيق الحكيم قد ألف مسرحيته - أهل الكهف - في أربعة فصول، فإننا نجده قد تعرض لمشهد الحوار قبل وبعد النوم، فشخص مسرحيته تحدثوا أكثر من أنهم ناموا، وجعلهم يتفلسفون في حقيقة مفهوم الزمان وأثره. لكن الحقيقة هي أن الكاتب نقل لنا فلسفته على ألسنتهم " فيقول أحدهم ... الكهف كل ما نملك، من مقر في هذا الوجود، الكهف هو الحقيقة التي تصلنا بعالمنا المفقود "2

1 محمد أركون : الفكر الإسلامي . ص 84 .

2 - توفيق الحكيم : أهل الكهف ، دار الهدى للطباعة والنشر ، الجزائر 2006 . ص 11 .

ويقول آخر : " ... إننا لسنا حلما ... لا ... بل الزمان هو الحلم ... أما نحن فحقيقة ... هو الظل الزائل، ونحن الباقون، بل هو حلمنا ... هو وليد خيالنا وقريحتنا، ولا وجود له بدوننا . إن تلك القوة المركبة فينا وهي العقل، آلة المقاييس والأبعاد المحدودة ... هو الذي اخترع مقياس الزمن ¹. لقد نقل الكاتب لنا على السنة شخصياته، محاضرة في فلسفة مفهوم الزمن وظل الحوار هو السائد في هذا العمل الفني، في حين أن الحدث هو نومهم، وليس يقظتهم وحركتهم، وهو صمتهم وسكونهم، وليس حركتهم وحديثهم وحوارهم مع بعضهم البعض ، فمن السارد الذي بمقدوره أن ينتج عرضا سرديا لهذا الحدث المعجز؟ يلتزم فيه الشخص صمتا، وتأخذ الأحداث سكونا على امتداد قرون من الزمن ؟ . إننا في الحقيقة لا نستطيع حتى وصف سكون، أو صمت، فضلا عن امتداد المدة الزمانية الخارقة. إنه الإعجاز المضاعف الذي لا نملك له أي قدرة سردية. لتصبح المشكلة مع الزمن ومع الأحداث، وربما لا يستطيع النقد أن يحل هذا الإشكال. بل إن قوة الإبداع تصبح مشلولة أمام تمديد زمن النوم إلى قرون.

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم، نجده قد نقل حوار الفتية زمن استيقاظهم متسائلين عن مدة النوم " وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩ " ². ثم حُسم النقاش بإرجاع العلم كله لله وحده، وهذا شأن المؤمنين عند الجهل بالأمر، لأن النقاش العقيم لا يؤدي إلى نتيجة مفيدة، لذا ردوا العلم لله وحده، وانتقلوا إلى طلب الطعام. كما أن قصة أهل الكهف هي قصة فنية مؤمنين تمسكوا بعقيدتهم، وخافوا الفتنة والشرك، فاعتزلوا قومهم، داعين الله تعالى أن يهديهم، ويجعل لهم مخرجا. وليست كما تخيلها الكاتب قصة امتزج فيها الحب بالأحلام والتفلسف، فهذه عاطفة الكاتب نقلها في قالب مسرحي، لا علاقة لها بحقيقة الفتية، ومبدئهم العقدي. أما ما سرده القرآن الكريم عن الأحداث، فكان إجمالا في بداية القصة، ثم تفصيلا بعد ذلك، وقد دامت الأحداث بين النوم والاستيقاظ، وركزت القصة على عملية النوم، ووصف حركتهم وهم نائمون " وَتَحَسَّبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقُلُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَأَوتَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ١٨ " ³. والمشهد يدل على أن

1 - المرجع نفسه . ص 110 ، 111.

2 - سورة الكهف : الآية 19 .

3 سورة الكهف : الآية 18 .

السارد هو الذي كان يشرف على عملية حركة الجسد للفتية النائمين، إشرافه على حركة الشمس شرقاً وغروباً .

لكن القصة التي وردت في التراث المسيحي، نصت في البداية على ذكر التاريخ " في مثل هذا اليوم من سنة 252 ميلادية، استشهد الفتيان السبعة القديسون الذين من أفسس "1. وتنتهي القصة بعثور الملك عليهم " وأراد الله أن يكرمهم كعبيده الأمناء، فأوحى إلى أسقف تلك المدينة عن مكانهم، فذهب وفتح باب الكهف، فوجد أجسادهم سليمة، وعرف من اللوح النحاسي أنه قد مضى عليهم نحو مائتي سنة، وكان ذلك في عهد الملك ثاودوسيوس الصغير "2. والقصة قد حددت الزمن التاريخي للحادثة، مع ذكر اسم الملك، ومدة نومهم . لكن الأمر العجيب، لم يتجرأ الأسقف بأن يقيد مكان الأحداث، ويخلد الذكرى لتلك الحادثة الخارقة، على الرغم من أن هذا، يزيد الكنيسة قوة وتأييدا ومصداقية أكثر. بل نرى عكس ذلك نرى بأن القصة لم تحظ بهذا القدر لدى أسقف المدينة، ولم يتحول الكهف - المكان - إلى مكان مقدس، وهو مكان المعجزة، بل لم نجد له أثرا على الإطلاق، رغم تحديد المدينة التي تم فيها الحدث، وهي مدينة أفسس .

وإذا كان القرآن الكريم، قد تناول أحداثا بالزمن الممتد إلى درجة الخارق، فكذلك تناول أحداثا وقعت بمدة زمانية لا تكاد نشعر بها، يتحول فيها الزمن إلى لازمن، وقد تمت هذه الأحداث في الواقع، وفي عالمنا الدنيوي الذي يخضع فيه الزمن إلى المقاييس المعروفة لدينا ويستحيل الخروج عنها، إلا إذا كان من ورائه تأييد قوة خالق الزمن. ولهذا يكون انتقالنا إلى الجانب الآخر للزمن الخارق، المتمثل في تقليص المدة الزمنية، وربطه بالأحداث وهذا كله يؤكد لنا، أن السارد للوحي يتصرف في صياغة الزمن تمديدا وتقليصا وفق مشيئته هو ، وبعلمه هو. لينقل لنا القرآن الكريم قصة النبي سليمان - عليه السلام - حين يريد أن يستخدم العلم الذي وهبه الله له في هداية قوم كافرين، كانوا يسجدون للشمس من دون الله تعالى، وهذا ما نقله الهدهد، فيريد إحضار عرش ملكة سبأ في أقصر مدة زمنية، على الرغم من بعد المسافة بين مكان سليمان - عليه السلام - (فلسطين) ومكان الملكة (اليمن) . وأحب " أن يري الملكة معجزة تشهد له بالصدق "3،

1 كتاب السنكسار القبطي : 20 مسرى مكتبة الكتب القبطية .

2 المرجع نفسه

3 - الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص 292 .

فيعرض عليه أحد جنوده إحضار العرش " قَالَ عَفْرَيْتَ مِنَ الْجِنَّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ ٣٩¹ . لكن الذي عنده علم من الكتاب، يقلص المدة الزمنية بين المكانين قبل ارتداد الطرف " قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝ ٤٠² . وبالفعل أصبح عرش الملكة حاضراً في لمح البصر، وفي مدة زمنية وجيزة لا تكاد نشعر بها، شبيهة بسرعة الضوء على حد القياس الفزيائي، أو أسرع من ذلك بكثير .

إننا نتعجب لهذا الحدث الخارق المعجز الذي تم في ظرف زمني قياسي، يعجز العقل على فهمه، إلا إذا وقفنا عند قوله تعالى - قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ - " نعم ربما يستغرب البعض نقل جسم كبير من مكان إلى آخر - بينهما مسافة بعيدة - ويحسبه من المحالات، إذ كيف انتقل ذلك الجسم الكبير بعد إخراجه من الحراسة المشددة حوله، وإدخاله بلاط سليمان - عليه السلام - بدون أن يحتاج إلى ثغرة في الجدران والسقوف. ولكن كذلك أمام قدرة الله شيء ضئيل، فالذي سن القوانين الطبيعية، قادر على خرقها³ . فالعمل قد تم بتأييد من الله العليم القادر الذي وهب هذا العلم لأحد عباده. فجاء " العرش بقدرة الله إلى بيت المقدس، من اليمن في لمح البصر⁴ . كما نتعجب لما يراه بعض المفسرين لحادثة عرش الملكة " وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر ... فكرة أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودمائهم⁵ . والوحي يخبرنا أن سليمان النبي - عليه السلام - رفض هدية الملكة قائلاً: " فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝ ٣٦⁶ . وأن هدية الملكة كانت اختبار حقيقة سليمان - عليه السلام - إن كان ملكاً أو رسولاً. وهذا ليقطع أي تأويل لا يتناسب وشخصية الأنبياء المصطفين، ولا سيما أن الله قد وهب نبيه سليمان - عليه السلام - ملكاً عظيماً " قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْتَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ ٣٥⁷ . فكون أن سليمان - عليه السلام - أراد أن يستولي على عرش الملكة قبل إسلام القوم،

1 - سورة النمل : الآية 39 .

2 - سورة النمل : الآية 40 .

3 آية الله جعفر السبحاني: العلوم الغيبية في القرآن . ص 197 .

4 - الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 292 .

5 - ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثالث . ص 1376 .

6 - سورة النمل : الآية 36 .

7 سورة ص : الآية 35 .

هو تصوير بعيد عن حقيقة النبوة، وربما شبيهه بالإسرائيليات التي عشتت في فكر البعض. أما رسل الله وأنبياءه المختارون فهم دعاة حق، ونماذج للإيمان والصدق والنبيل، وأبعد من أن يفكروا بعقلية اللصوص والقراصنة، وقطاع الطرق، مما يتنافى مع خلق النبوة، وسلوك أنبياء الله المصطفين .

ومرة أخرى تقوم إشكالية الزمن أمام عملية التوظيف الخارق، وأن التفسيرات لا تتعامل مع منطوق النص، وصفات أنبياء الله المصطفين. وكان بالإمكان تجنب كل قول أو حكم يزري بأخلاق أنبياء الله ورسله، ويبتعد بعيدا عما لم يصرح به النص القرآني. أما توظيف العلم لإحضار العرش، كان من أجل هداية الملكة للإيمان برب العالمين، ووقوفها أمام قدرة رب سليمان، والذي آتاه كل هذا الفضل العظيم. وهذا هو هدف النبي سليمان - عليه السلام - ودعوته لعبادة الله وحده، من تلك العملية الخارقة. وقد قرر القيام بحملة عسكرية إن امتنعت الملكة وشعبها عن الحضور إليه " أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ٣٧ " 1. وبالفعل حضرت الملكة، ووجدت عرشها ماثلا أمامها، وشاهدت بأعينها عظمة ملك سليمان - عليه السلام - فأسلمت لرب العالمين، وتحولت هي وقومها من عبادة الشمس المخلوقة، إلى عبادة رب الشمس الخالق لها .

إن القدرة الإلهية حين تتجلى في هذا الحدث، الذي يتطلب زمنا أطول حين تمارسه الطبيعة البشرية المحدودة، فيحتاج إلى شهور، لتتقلص المدة، بل يصبح الزمن لازما، وهنا يقوم سليمان النبي - عليه السلام - المتواضع لربه شاكرا له على تلك النعم، ناسبا فضل إحضار العرش بتلك السرعة الخارقة إلى الله تعالى. فالنبي سليمان - عليه السلام - قد وظف عنصر الزمن، لا تطاولاً على عباد الله، ولا طمعاً في حطام عرش مادي لا يساوي شيئاً، مقابل ملك عظيم، موهوب له من الله تعالى. لكنه أراد أن يوقف الملكة وقومها على حقيقة عظمة الخالق المعبود، فأيقنت حقيقة نبوة سليمان، وأمنت برب العالمين " قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٤ " 2. وانتهت القصة بإيمان الملكة وقومها، وهذا هو المغزى العقدي من القصة ،

1 سورة النمل : الآية 37 .

2 - سورة النمل : الآية 44 .

وبلوغها الهدف الأسمى، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. وهذا ما يبعد كل ادعاء يمس شخص سليمان - عليه السلام - الذي تواضع لله شاكرًا فضله عليه، وليس كما وصفت أسفار العهد القديم أنبياء الله، أنهم سارقوا البركات، ومحترفوا المكر والخداع، إضافة إلى كونهم زناة وسكارى معردين. فإذا كانت هذه صفات المصطفين الأخيار، فما تكون إذن عليه صفات الأشرار؟ وهذا ما يحتم علينا أن نفهم الحكمة من توظيف الزمن في القصص القرآني، للوصول إلى استخلاص الحكمة والعبرة .

أما القصة الثانية في توظيف الخارق، هي حادثة الإسراء للرسول صلى الله عليه وسلم وقد سُميت السورة بسورة الإسراء. قال تعالى: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بُرُكْنَا حَوْلَهُ لِلرَّيَّةِ مِنَ الْإِنبِيَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ "1. فالآية تذكر لنا حدثًا عظيمًا سيجعل قريشا تزداد حيرة في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم. فحادثة الإسراء التي تمت في ظرف زمني خارق سيبيهر العقول، لأن المسافة بين المسجد الحرام - مكة - والمسجد الأقصى - الشام - تدوم رحلتها شهرًا ذهابًا وشهرا إيابًا. لكن القدرة الإلهية المطلقة، هي التي تم بها إسراء النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كانت بداية السورة - سبحان الذي أسرى عبده - فلا طاقة للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر الخارق، ولا حول له ولا قوة. بل هي معجزة إلهية، تمت بطلاقة القدرة الإلهية وبمشيئته، وقد سجلها في وحيه الخالد. لكن قريشا ماذا ستقول في هذا الأمر؟ وماذا سيكون موقفها من المعجزة؟ إن قريشا المشركة لن تصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، وسيكون من السذاجة أن نطمع في تصديقها الخبر الخارق. لكن هذه المعجزة الزمانية، والتي لم يرها أحد ، هي استفزاز قوي لقريش العنيدة والمكذبة، لتصل إلى مرحلة - حد الجنون - لأنها لم تصدق أمر الوحي، والآن سيضاف تحد آخر، هو حادثة الإسراء الخارقة، المعجزة الزمانية ، فسيتضاعف تكذيبها مع ازدياد حيرتها وعنادها .

إن " القرآن الكريم ذكر قصة الإسراء في آية واحدة، ولم يفصل، غير أن التفصيل جاء في الروايات، ولكنها ليست على نمط واحد، ولا على درجة واحدة من الاعتبار... فيؤخذ بالصحيح، ويترك علم من سواه إلى من رواه "2. وتروي لنا كتب السيرة أن النبي صلى

1 سورة الإسراء : الآية 1 .

2 آية الله جعفر السبحاني : المرجع السابق . ص 249 .

الله عليه وسلم لما أصبح " غدا على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس هذا والله الأمر البين "1. فالخبر لم يخفه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل قد تعمد إذاعته، في صباح اليوم التالي. وحجة قريش التي اعتمدها في التكذيب هذه المرة حجة مادية، إنها بدأت توازن الأمور وتقيسها ، فقااست المسافة المكانية بالمسافة الزمانية، بين مكة والشام، فقالت : " والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة، ويرجع مكة "2. فمستوى فكر قريش - كما أسلفنا - لا يتعدى رحلة تجارتها في الصيف والشتاء. وبهذا المستوى تم قياس حادثة الإسراء، ليتبين لقريش صدقه من كذبه. بل ظن المشركون أنهم سيخرجون صاحبه أبا بكر - رضي الله عنه - بهذا الخبر الغريب، لعلهم يجدون دليلا منه ، ضد النبي صلى الله عليه وسلم فما كان جوابه، إلا كما قال : " والله لئن كان قاله، لقد صدق. فما يعجبكم من ذلك فو الله إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه "3. وهذا ما يبين ثبات إيمان أبي بكر، الذي سمح له بأن يستوعب هذه المعجزة في إطار الظاهرة الزمانية التي تتصرف فيها طلاقة القدرة الإلهية .

إن تصديق أبي بكر للوحي، هو الذي ألهمه هذا اليقين الراسخ، الذي لا يتزعزع . ثم " اختلف أهل العلم في صفة إسراء الله تبارك وتعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم ... فقال بعضهم أسرى الله بجسده ... وقال آخرون بل أسرى بروحه ولم يسر بجسده "4 . والذين حاولوا تفسير حادثة الإسراء والمعراج، بأنها تمت بالروح دون الجسد، فهم في حقيقة الأمر بعيدون كل البعد، عن معرفة الذات الإلهية، ولا يفهمون حقيقة قدرة الخالق المطلقة، محاولين إخضاعها للمقاييس البشرية. ومن هنا " إذا حاولنا فأننا نضع قيودا لمعجزة الإسراء والمعراج، ونقول إنها أقرب إلى العقل، أن تتم بالروح، بدلا من الجسد إلى آخر ما نقول في هذا الشأن. فإننا بذلك نضع قيودا على قدرة الله سبحانه وتعالى، في أن يفعل ما يشاء، وهنا الخطأ "5. وهذا ما وضحه الطبري مفندا زعم هؤلاء معتمدا على النص القرآني : " فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبد، ولم

1 - ابن هشام : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 439

2 المرجع نفسه . ص 439

3 المرجع نفسه . ص 439 . -

4 ابن جرير الطبري : جامع البيان، المجلد الخامس ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1994 بيروت . ص 6 .

5 الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 264 . -

يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره¹. وربما سيجهد هؤلاء المعاصرون اجتهاد قريش المكذبة، ليجدوا مبررا يبررون به هذه المعجزة، وهم يخضعون لشروط الزمن، ويعلمون أن العقل الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، استطاع أن يبتكر وسائل نقل أسرع مما كانت عليه. بل ماذا سيكون موقفهم من عملية إحضار العرش من اليمن إلى فلسطين، قبل ارتداد الطرف؟ وقد جاء الخبر في وحي الله تعالى. ستبقى إذن إشكالية الزمن في القصص القرآني تؤرق مضجعهم دائما، وتستفزهم ليبرهنوا على أن طبيعتهم النفسية، لن تخضع للإيمان بالله ووحيه، وأنهم لن يخرجوا من دائرة اعتقاد المشركين الذين سبقوهم بتكذيب الوحي ومسائل الغيب والخارق. إننا نرى هذا المجال تحديا واستفزازا لهؤلاء المكذبين والعلمانيين على حد سواء، وعبر الامتداد الزمني .

إننا نجد نوعا من التوازي الهندسي الذي يرد كل شك، ويجلي لنا استيعاب الظاهرة الزمانية بشكل منطقي، فعملية إحضار عرش ملكة سبأ، يتمثل في نقل المادة من مسافة بعيدة في مدة وجيزة أو هي لازمن، والقدرة الفاعلة لهذا، لا يعجزها مطلقا أن تنقل شخصا يجمع بالتوازي روحا ومادة، دون أن تخضع للقوانين الزمانية الأرضية، والتي هي من صنع الخالق القادر العليم. وهذا المبدأ يبطل أي شك يسيء الظن في قدرة الله ومشيبته المطلقتين " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧

"². يقول الجابري: " الإسراء والمعراج إذا حدث على صورة منامية ذلك هو الرأي الذي نختاره من آراء العلماء السابقين، ونحن لا نناقش ما يتم للأنبياء أثناء الرؤيا، إذ هو لهم وحي، كما سبق القول، وهو خاص بهم، وليس خرقا لنظام الكون، ولا مسا بسننه"³. لقد جعل الباحث معجزة الإسراء والمعراج حادثة منامية، وأغلق النقاش في مسألة الرؤى. ولكن لم يسأل نفسه عن سبب تكذيب قريش لها؟ فهل كذبت الرؤيا، أم كذبت رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى؟. وتبقى حادثة الإسراء معجزة تمهد لمعجزة أخرى أكبر من ذلك، وهي حادثة المعراج، وهي عملية انتقال من المكان الفاني - الأرض - إلى المكان الغيبي - سدرة المنتهى - ومن الزمن إلى اللازم .

¹ ابن جرير الطبري: المرجع السابق، المجلد الخامس. ص 7.

² سورة الزمر: الآية 67.

³ د. محمد عابد الجابري: المرجع السابق. ص 191.

إذن فأي نص سردي يقوى على احتواء هذا الفضاء المكاني والزمني، وأي شخص يقدر أن ينتقل في هذه الأبعاد المترامية، بهذه الكيفية الخارقة مكانا وزمانا وحدثا، وأي سارد يمكن له أن يكون عارضا لأحداث الإسراء والمعراج، ومشرفا عليها؟ فبكل بساطة فالفاعل - المسري - هو الله سبحانه وتعالى، الذي أسرى بعبده، والمُسرى به، هو رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وفكر القبيلة المحصور بين تجارة الصيف والشتاء، أو الفكر العلماني المادي الخاضع لشروط الزمكانية، والناكر لخالقها ومسيرها، لا يمكن لهما الوصول إلى حقيقة الزمن، كخلق خلقه الله تعالى، والذي خلق هذا الكون بفضائه الممتد إلى ما نعلم وما لا نعلم. إن حادثة الإسراء والمعراج ستبقى معجزة زمانية ومكانية، تتحدى العقل البشري والزمن الأرضي، حتى وإن تطورت وسائل المواصلات، ومهما بلغت سرعتها، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسري بواسطة قدرة الله المطلقة. وهذا رد يفحم كل شاك، أو مؤول للحادثة بنظرة مادية بحتة .

إذن " فالمعجزة تمت، وتمت بقدرة الله، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى في السماء "1، وقال الله تعالى: " وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۚ ۱٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۚ ١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ ١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۚ ١٨ "2. إن القرآن الكريم حين يتناول الفضاء الزمني بمجاليه الغيبي والخارق، لا يسعى إلى تطبيق تلك المظاهر الإعجازية بعيدا عن الواقع أو المنطق، بل ينتجها على مسرح الأحداث والشخص، ليجعلنا أمام الظاهرة الزمانية التي لا تعتمد على التفسير الأسطوري، أو الخرافي المبتور عن الحق. وإنما كظاهرة إعجازية لهذا القصص القرآني الحق، تتجلى من خلالها طلاقة القدرة الإلهية، على عناصر الكون المفعول بها والمنفعله. كما تجعلنا نقف عند حقيقة بشریتنا وخلقنا من طرف الله الخالق، الذي أخضع كل خلقه لطلاقة حكمته وقدرته، ومشیئته وعلمه .

يقوم الوحي بعرض تلك المشاهد ضمن إطاره القصصي، ليضفي عليه الظاهرة الإعجازية، ويجلي ميزة الخطاب الإلهي الذي لا يعرف حدودا زمانية ولا مكانية. وفي رأينا أن عملية استيعاب هذه الظاهرة، وحل إشكالية الزمن، يجب أن تبقينا داخل إطار منطوق النص ومضمونه، وأن نتعامل مع حدود النص، دون أن نتجاوز محتواه، كما نبه إلى ذلك الإمام الطبري.

1 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 272 .

2 - سورة النجم : الآيات 13 ، 14 ، 15 ، 16 ، 17 ، 18 .

فعلينا أن نلتزم بما قاله تعالى، وقوله الحق، وبما نؤمن به من صفاته الحسنی، وتنزيهه عن كل نقص، معترفين بقصورنا البشري. أما العكس من ذلك، فهو ما حذر منه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وأن لا نقوم بتحليل الظاهرة الإعجازية، بطريقة ساذجة لا تتناسب مع تدبر آي القرآن الكريم، ولا سيما أن الله تعالى، قد أكد على تيسير القرآن للذكر " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۙ ١٧ "1. وهي آية محورية في سورة القمر، تكررت خمس مرات، للتأكيد على أن القرآن الكريم، ميسر لكل من قام فيه بعملية التذكر والتدبر والاعتبار، دون أن يحيد عن الهدف الأسمى للذكر الحكيم .

إن تحليل توظيف الزمن في عنصر المكان والأحداث في القصص القرآني، يقربنا من معرفة سبب تعامل القرآن الكريم مع الغيبي والخارق، وكلاهما معجز في حد ذاته يفرض علينا أن نقرب هذه الإعجازية للقصص القرآني، دون أن نقابل الخارق والغيبي بالأسطورة والخيال. بل يفرض علينا أن نبقي في إطار حدود بشريتنا، دون أن نتجاوز طبيعتنا التي خلقنا عليها. لقد حاول الجابري أن يجد حلا لهذه المعجزة، من خلال فهمه لأي القرآن الكريم، فيقول " فكان جواب القرآن : قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا. بمعنى أن طبيعتي البشرية لا تسمح لي بالرقى إلى السماء "2. ومتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بشرا ؟. بل إن ربه أمره بذلك " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۙ ١١٠ "3. والمشركون يدركون جيدا طبيعة النبي البشرية .

إن تبرير الباحث بهذه الآية، في غير محله، لأن هذه الآية جاءت كرد على ما طالب به المشركون النبي صلى الله عليه وسلم وهي مطالب مادية لكي يؤمنوا برسالته " وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ۖ ٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلْفَهَا تَفَجِيرًا ۙ ٩١ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالَ حَبِّ خَيْلٍ أَوْ تُنَادِيَ بِأَلْسِنَةٍ أُوْحَىٰ ۙ ٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفْرِكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۙ ٩٣ "4. وبعد كل تلك

1 سورة القمر : الآية 17 . وتكررت في السورة في الآيات 22 ، 32 ، 40 ، 51 .

2 محمد عابد الجابري : المرجع السابق . ص 190 .

3 سورة الكهف : الآية 110 .

4 سورة الإسراء : الآيات 90 ، 91 ، 92 ، 93 ، .

المطالب المادية التي تقدم بها المشركون، مقابل إيمانهم، كان الرد عليها بأمر من الله تعالى بقوله - قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولٌ - لكن الباحث تناسى مقدمة السورة " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ "1. والمسألة لا تتطلب إلا ذكر عناصر الخطاب التي استجمعت في هذه الآية وهي - سبحان الذي/ المسري وهو الفاعل - بعبد/ المُسرى به، وهو المفعول به، المسجد الحرام والمسجد الأقصى/ مكانا الرحلة من وإلى، ثم الفعل أسرى. وبالتالي يتضح بأن الله سبحانه وتعالى، هو الذي أسرى بعبد روحاً وجسداً، ولا جهد للرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك إطلاقاً، كما أنه لم يدع ذلك أبداً. ويقول سيد قطب: " وتذكر صفة العبودية - أسرى بعبد - لتقريرها وتوكيدها في نظام الإسرائء والمعراج إلى الدرجات التي لم يبلغها البشر، وذلك لكي لا تُنسى هذه الصفة، ولا يُلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية. كما التبس في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام - بسبب ما لابس مولده ووفاته "2. إذن فلفظة عبد جاءت لتبقي بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ملازمة له، حتى وإن بلغ هذه المرحلة من سمو الروحي والعلو المادي في هذا المقام عند ربه سبحانه وتعالى .

إنها ليست جرأة فكرية، ولا شجاعة أدبية، أن يظهر العلمانيون اتهامهم لوعي الله وقصصه، بأنها مجرد أساطير، على حد قول أركون: " ينبغي القيام بتحليل بنيوي لنتبين كيف أن القرآن ينجز ويتبلور بنفس طريقة الفكر الأسطوري، الذي يشتغل على أساطير قديمة متبعثرة "3. والذي نراه قد بذل جهودا كبيرة فيما ألفه من كتب، ولم نعرف له تأليفا أظهر فيه دراسة مقارنة بين الأساطير، والقصص القرآني. بل لم يسائل الكاتب نفسه يوما، كيف استطاع القرآن الكريم - على حد زعمه - أن يجمع كل الأساطير المبعثرة ليصنع ديناً، ظل ولا زال متصارعا مع الخرافة والأسطورة والشرك والكفر؟. أما القول بالأسطورة، فقد سبق المشركون إليه العلمانيين، ولم يتحرج القرآن الكريم من ذكر تهمة المشركين له " وَإِذَا تُلْتَمَسُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ٣١ "4. لهذا نرى إن الخارق في القصص القرآني،

1 سورة الإسراء : الآية 1 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الخامس عشر . ص 2211 .

3 محمد أركون : الفكر الإسلامي . ص 203 .

4 سورة الأنفال : الآية 31 .

هو الإيمان بطلاقة قدرة الله، ومعرفة حقيقية للألوهية. أما الذي لا يقدر أن يرى طلاقة قدرة الله في الخلق، فهو كذلك يعجز عن استيعاب قصص الوحي. فالمنطق لا يلوم هؤلاء الملاحدة، على اعتقادهم الإرادي، بقدر ما ينكر عليهم روح العناد والمكابرة لدين الله ووحيه " وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۚ ٢٩ "1. تاركا لهم حرية الإيمان أو الكفر، وموقف القرآن الكريم مع المتلقي واضح وصريح .

فالقرآن الكريم لم يجبر أحداً على الإيمان به، بل طالب باستعمال العقل للوصول إلى إعجازية نصه، على أنه من عند الله الخالق، ولا حظ للنبي صلى الله عليه وسلم فيه، وهذا اعتقاد كل مؤمن. أما الذي لا يؤمن بالله ووحيه، فلا ينبغي له الخوض في مسألة الألوهية والوحي، لئبذل جهودا مضنية، ثم ينتهي إلى ما انتهى سابقوه في الكفر بالله ووحيه، منذ بداية التنزيل. إن دراستنا لعناصر القص القرآني ضمن الإعجازية الزمانية، هي التي تجعلنا نواصل البحث والدراسة في كل ميادين القص القرآني، وعند عرضنا للفصلين السابقين، تبين لنا أن نتناول في الفصل اللاحق، زمانية الخطاب. لهذا كان توظيف القرآن الكريم للخارق في أحداث قصصه، للوقوف على طلاقة القدرة الإلهية، لندرك الفرق بين اللامتناهي والمنتاهي، بين النسبي والمطلق، بين الإلهي والبشري، وهذه هي قصيدة القصص القرآني في عرضه للحدث الخارق والغيبى . ومن زمانية الأحداث إلى زمانية الخطاب القرآني في الفصل التالي - إن شاء الله تعالى - .

¹ سورة الكهف : الآية 29 .

الفصل الثالث

زمانية الخطاب القرآني

تمهيد

أ - ارتباط الخطاب القرآني بالزمن

ب - الخطاب القرآني والتاريخ

ج - الخطاب القرآني والخلود

تمهيد

تحدى الوحي الأنس والجن بأن يأتوا بمثله " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨ "1. ويقول الباقلاني: " أما دلالة القرآن فهي معجزة عامة، عمت الثقليين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد "2. إلا أن محاولة التشكيك والتكذيب بقيت مستمرة حول مصدر النص القرآني وإعجازيته. وقد " حذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام في موقفهم من القرآن، حذو مشركي مكة، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن الكريم ليس من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، ورددوا أحيانا الاعتراضات التي قال بها الوثنيون قديماً، رغم دحض القرآن الكريم لها "3. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا (وحي محمد) - على حد زعمهم - بقي يرتل ويؤثر في المتلقي على امتداد الزمن، في حين أن مقولات التشكيك فيه ونقده، يعترتها النسيان بمجرد تدوينها ونشرها ؟ .

لقد أصبحت ظاهرة الوحي تقلق البعض " إن ما يقلقني عند المتدينين اطمئناتهم الكلي إلى ما يتصورون، وارتياحهم السعيد إلى ما يعرفون، واسترخاؤهم التام إلى ما يملكون من ملفات جاهزة للحقائق المنزلة "4. وبسبب هذا الأرق، يضيف الكاتب قائلاً: " رحلت أبحث في الله وفي الوحي، والتنزيل والنبوة، وفي الحقيقة والشريعة وكلام الأنبياء... فرأيت القس وراء النبي، والإنجيل العبراني، وراء الإنجيل العربي، والنصرانية وراء الإسلام "5. هذه هي نتيجة البحث والأرق، والجهد المبذول للوصول إلى ما بدأ به المشركون زمن بداية التنزيل. هذا كل ما توصل إليه صاحب العمل الموسوم ببحث في نشأة الإسلام. إنها عملية اجترارية وتقليد عقيم أكثر من أنها عملية فكرية ابتكارية. وهل توحيد الله وتنزيهه، كان وراء تجسيد الرب وتعدد ألقابيه؟ وهل رب العالمين المنزه، كان وراء رب إسرائيل القومي والمتجسد؟. وهل الله الحي القيوم كان وراء الرب المقتول صلباً؟. فأين هذا من ذلك ؟ .

¹سورة الإسراء : الآية 88 .

² الباقلاني : إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، (مصدر د ت) . ص 8 .

³ محمد حمدي زقزوق : الإستشراق . ص 87 .

⁴⁴ أبو موسى الحريري : قس ونبي ، بحث في نشأة الإسلام ، سلسلة الحقيقة الصحية ، 2005 . ص 151 .

⁵ المرجع نفسه . ص 151 .

يقول تعالى: "الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۱ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۲" 1 ويقول أيضا: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۱۹۲ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۱۹۳ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۱۹۴ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۱۹۵" 2. ولا نريد أن نتناول موضوع الإعجاز، إلا من خلال ما سنعرضه على صفحات هذا البحث، وما سنقوم به من مقارنة للوقوف على ميزة الخطاب المقدس، وسبب خلوده. نرى بأن الإشكالية تبدأ من عنصر الأحداث في القصاص القرآني، حيث تطرح أمام الدارس عدة تحديات، من حيث كونها أحداثاً وقعت في زمن معلوم ومحدد، وكان علم الله بها محيطاً ولها موجهاً. كما أن الوحي قد سطر هذه القصاص قبل زمن حدوثها، وأن قصص القرآن قد شملت الحيز الزمني منذ خلق آدم، ووجوده على الأرض إلى نهاية الكون. بل يستمر القصاص القرآني إلى مرحلة المابعد، أي في عالم الآخرة والخلود. من هنا اكتسب الخطاب القرآني هذه الامتدادية، تماشياً مع الامتداد الزمني، مما جعل النص القرآني فرضاً ذاته على مر العصور، دون أن يتعرض إلى حذف أو تعديل، أو زيادة أو نقصان .

فثبت النص القرآني أبقى استمرارية الخطاب، وجعل من قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ۹" 3 معجزة زمانية مستمرة، فاق بها نصوص العهد القديم والجديد. بل تعدى الخطاب القرآني المرحلة الزمانية للإنسانية، كون الوحي مُسطراً منذ الأزل في اللوح المحفوظ. وقد أثارت هذه القضية تساؤل البعض "ماذا عن اللوح المحفوظ الذي ذهبت بعض التصورات إلى أن القرآن مدون فيه؟ هل هذا اللوح المحفوظ قديم أزلي، أم محدث مخلوق؟ كيف يكون القرآن المسطور عليه قديماً أزلياً؟ ألا يدخلنا ذلك في سلسلة من التناقضات المنطقية تجعل المحتوى قديماً، بينما أن اللوح الذي يتضمن هذا المحتوى محدث مخلوق؟" 4. إن الخطاب القرآني بهذه الأزلية يستفز المتلقي، الذي يريد أن يواصل البحث متسائلاً، عن حقيقة اللوح وعلاقته بالأزلية، على الرغم من أن مسألة اللوح، هي من المسائل الغيبية التي نؤمن بها دون معرفة الكنه والكيف. أما مسألة الوحي وميزته الإعجازية فهي تتجاوز مبلغ علمنا، ونقف عند أن وحي الله محفوظ في اللوح وفق ما نص عليه القرآن الكريم. بل الله تعالى كتب الشريعة في الألواح لموسى - عليه

1 سورة يوسف : الأيتان 1 ، 2 .

2 سورة الشعراء : الآيات 192 ، 193 ، 194 ، 195 .

3 سورة الحجر : الآية 9 .

4 ناصر أحمد أبو زيد : النص السلطة الحقيقة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 1995 ، دار البيضاء . ص 72 .

السلام - " وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِأَلْحُسَيْنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْآلَفِيِّينَ ١٤٥ "1. رغم أن الشريعة كوشي كانت سابقة لتلك الألواح، والله سبحانه أخرج الشريعة من علمه الغيبي إلى الشهادة، كما حفظ وحيه في اللوح، والفرق شاسع بين الوحي الأزلي واللوح، وعند هذا الحد يجب أن يقف المؤمن .

فإذا كانت أحداث القص قد طرحت بداية الإشكالية، فالخطاب القرآني يزيد من حدتها، ولربما خاض الدارسون في الظاهرة اللغوية لإعجاز القرآن الكريم، واجتهدوا للوصول إلى كنه الإعجاز الذي استخلصوه من أسلوب القرآن الكريم، وبلاغة تعبيراته، ووقفوا على الجوانب البيانية والجمالية عند تحليل آياته. إن وحي الله هو معجزة المعجزات من كل الوجوه. " فالقرآن الكريم وهو يخاطب الأجيال كلها والأجناس كلها العرب والعجم، والبيض والسود، والأحمر والأصفر، فليس ما فيه من إعجاز خاصا بالعرب. وإنما إعجازه يعم الجنس البشري كله، لأنه يخاطب الجميع، ويطالب الناس قاطبة بأحكامه، وفيه البيّنات المثبتة لكل جنس "2. فالخطاب الذي يتوجه إلى كل الناس عبر كل العصور، يستحيل أن يُقارن بخطاب محدود بالمكان والزمان. فالأصل " في الخطاب الرباني ولو بعد نزول القرآن، أنه فوق الزمن، فهو خارج عن حدوده، وهو قائم بلا تجدد. والمخلوقون الزمانيون متى وجدوا في أزمانهم بأحوال، يكونون فيها مؤهلين لتلقي الخطاب الرباني، تعلق بهم الخطاب كأنه منزل عليهم منذ صاروا مؤهلين للخطاب، ويستمر التعلق ما داموا مؤهلين له "3. وهذه الميزة الإعجازية هي التي تجعل من القرآن الكريم معجزة المعجزات، يكون فيها التحدي مطلقا، من حيث اللغة والتركيب، والخطاب والسرود، والعلم والإحاطة، والإحكام والترتيب، والتفصيل والإجمال. " الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ "4. ويقول سيد قطب في عبارة أحكمت آياته " فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة وكل معنى فيها، وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم "5. كما يقول في عبارة - ثُمَّ فَصَّلْتُ - " فهي مقسمة وفق أغراضها، مبوبة وفق موضوعاتها، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه. أما مَنْ أَحْكَمَهَا، وَمَنْ فَصَّلَهَا عَلَى هَذَا النِّحْوِ؟ فهو الله سبحانه، وليس هو

1 سورة الأعراف: الآية 145 .

2 د . محمد أبو زهرة: القرآن المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، مصر، (د ت) . ص 96 .

3 عبد الرحمن حسن الميداني: قواعد التدبر الأمثل، دار القلم، الطبعة الرابعة، 2009، دمشق . ص 618 .

4 سورة هود: الآية 1 .

5 سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، الجزء الثاني عشر . ص 1851 .

الرسول صلى الله عليه وسلم "1. وقد شمل الخطاب القرآني هذا الكم الهائل من ميادين الحياة الإنسانية، سواء توصلنا لمعرفة واستيعابها، أم لم نتوصل إليها بعد .

والقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي تبقى بقاء الزمن، تتحدى الكل " فعظمة المعجزة القرآنية هي التي تحدثت لعرب الجاهلية فأعجزتهم، تقف اليوم للتحدث للعقول الإلكترونية ولعلوم الفضاء والفلك، والفيزياء النووية والكونية ... بل لكل العلوم، وبلغة تعجزهم بنفس قوة الإعجاز البلاغي للعرب الفصحاء "2. لقد أشار الله تعالى إلى ميزة وحيه وأثاره على المتلقي حين يسمعه أو يقرأه، وهذا يدل دلالة قوية على ظاهرة الإعجاز للخطاب. بل تعدت آثار هذه الظاهرة إلى تأثر الجماد " لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ "3. إن الجبل الجامد لا يملك ثباته، ويهوي ويتصدع على الرغم من صلابته. أما بالنسبة للمؤمنين فتقشعر له جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودٌ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهٖ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِّلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ٢٣ "4. وعلى هذا الأساس، ينبغي أن توضع منهجية لتقنية التعامل مع الخطاب القرآني. ينقل لنا ابن فضلان أثناء رحلته إلى بلاد الصقالبة فيقول: " وسمعتي بعضهم أقرأ قرآنا، فاستحسن القرآن، وأقبل يقول للترجمان، قل له لا تسكت "5. وهذا الموقف يثير إعجابنا لأثر القرآن الكريم حتى على سمع الأعجمي البعيد عن لغة القرآن. وهنا نسأل ما هو السر من وراء ذلك كله ؟ فهل هناك علاقة خفية بين ميزة الوحي، وخصائص الفطرة، والنفس الإنسانية ؟

لا شك أن هناك علاقة متكاملة بين آيات القرآن والآيات الكونية. إن " الخلق قصروا في فهم كلام الله قصورهم عن فهم معرفة ذاته، فإن ذاته وصفاته مقدسة عن أن تتال بؤهم أو تعلم بغير واسطة، مع ما هم - الخلق - عليه من القصور، فنصب المخلوقات دليلا عليه، كما وضع الحروف والأصوات دليلا على كلامه. وكما أن ذاته العلية مخبوءة تحت أستار العبارات فلا ينال

1 المرجع نفسه . ص 1851 .

2 أحمد عزت شيخ البساتنة : علماء الغرب ما الذي وجدوه في القرآن . ص 97 ، 98 .

3- سورة الحشر : الآية 21 .

4 - سورة الزمر : الآية 23 .

5 أحمد بن فضلان : رسالة بن فضلان . ص 93 .

بالعبارة من كلامه، إلا ما ينال بالدلائل من ذاته "1. وهذا يدل على أن فهم الآيات الكونية، له علاقة وطيدة بفهم الآيات القرآنية. " وإن توزيع الألوان في زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين في جميع العصور، وكذلك صنع الله في القرآن، وصنع البشر فيما يصوغون من هذه الحروف من كلام "2. وإلا فكيف يستطيع البعيد عن التدبر في خلق الكون، أن يستوعب الخطاب القرآني الذي يطلب منه النظر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار؟ ففي قوله تعالى: " وَبِاللَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِمُ ۝ ١١٥ "3، وقوله: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ ١٩٠ "4، تتضح علاقة حقيقية بين دلالة الكون، ووحداية الله، ولهذا " أصبحت هذه العلاقة مع الطبيعة، كما يطالب بها القرآن الكريم المؤمنين في الآيتين السابقتين ... هي الركن الأساسي الذي يقوم عليه تعاطف جوته - الشاعر الألماني - مع الإسلام، وشعوره بأواصر القربى التي تجمعهم به. وقد كان هو نفسه مقتنعا اقتناعا راسخا بأن الله يتجلى في الطبيعة "5. وفي الحقيقة أن قدرة الله هي التي تتجلى وليس الله. وهذا ما أكد عليه الخطاب القرآني في ربط علاقة الآيات الكونية بالآيات القرآنية. لكن البعيد عن هذا المبدأ لن يستطيع أن يستوعب الظاهرة القرآنية .

إن الدراسات النقدية للأدب قد تطورت وتتنوع مناهجها، كما أن الدراسات اللغوية في الغرب قد قطعت شوطا بعيدا. لكن الدراسات العربية الحديثة في النقد واللغة - وفي حقيقة الأمر- ما هي إلا عملية إعادة ما أبدعته عبقرية السلف، أو هي عملية تطفلية على ما أنتجه الإبداع الغربي، فحتى البحوث العربية في النقد ضئيلة الإنتاج. إن " تحليل الأسلوب البنيوي والسيمائي للخطاب السردي العربي محدود النماذج، ونستطيع القول إن حجم الدراسات لا يتجاوز متن الدراسات التي أنجزت وفق المنهج الاجتماعي أو التاريخي أو النفسي"6. كما أن هذه البحوث قد تُحشى بعدة مصطلحات ومفاهيم تتجه في معظمها، إلى التعقيد والغموض، أكثر مما تتجه إلى التبسيط والوضوح. إلا أن العبرة ليست بكثرة المصطلحات الجديدة المترجمة، وإنما بوضع عمل

1 ابن عبد الله بن العربي : قانون التأويل ، تحقيق محمد السليمانى ، مؤسسة علم القرآن ، الطبعة الأولى 1986 دمشق . ص 535 ، 536 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الحادي والعشرون . ص 2804 .

3 سورة البقرة : الآية 115 .

4 سورة آل عمران : الآية 190

5 كاتارينا مومزن : جوته والعالم العربي ، ترجمة د. عدنان عباس علي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978 الكويت. ص 154 .

6 - د . نور الدين السد : الأسلوبية وتحليل الخطاب ، الجزء الثاني ، دار هومه للطباعة ، الجزائر 2010 ، ص 175 .

نقدي ممنهج ومفيد. لأن تكديس المصطلحات في العمل النقدي لا ينتج نقدا، ولا يصنع ناقدا، كما أن تكديس مواد البناء لا يقيم عمارة، ولا يصنع مهندسا معماريا. أما في الدراسات القرآنية للحدائين، فحتى " وإن سلمنا بأن هذه القراءات تتضمن عناصر من الابتكار، فلا نسلم بأن هذا الابتكار إبداع حقيقي ... إذ قطع صلته بترائه تقليدا للغير، لا اجتهادا من الذات" ¹. ولهذا فالقراءات الحدائية بهذا المفهوم هي تقليد لا ابتكار، وجمود لا تطور .

إن عنصر الخطاب في القصص القرآني هو أكثر الإشكاليات تعقيدا، لهذا الأمر يتطلب منا لتحليله ودراسته، أن نبقي ضمن منطوق النص. لأن " عملية النطق تترك بصماتها على المنطوق" ². ودون مغامرة الخروج عن النص، أو الابتعاد عن روحه. فمحاولة " الخوض في أدبية الخطاب القرآني مغامرة تكتنفها المزالق من كل صوب، بالنظر لما يطبع أدبية الإعجاز من خصائص إضافية تتلامس مع الخارق" ³. لكن الخارق يُفهم بالنسبة للمؤمن على أساس الإعجاز، وطلاقة القدرة الإلهية. أما غير المؤمن فيتجه دوما صوب الأسطورة والخرافة، وصولا إلى التكذيب والإنكار. " فالقراءة الحدائية لا تريد أن تحصل اعتقادا من الآيات القرآنية، وإنما تريد أن تمارس نقدها على هذه الآيات" ⁴. لأن الحدائي يبقى مرددا ما قاله الجاحدون منذ بداية زمن إقرأ " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤" ⁵. ومقولة أركون: " إن أساطير غلغماش والإسكندر الكبير والسبعة النائمين في الكهف، تجد لها أصداء واضحة في القرآن" ⁶. ما هي إلا ترديد لمقولة المشركين زمن البعثة - أساطير الأولين - فهي لا زالت تتكرر عبر كل عصر، وعلى لسان كل مشرك وكافر بالله ووحيه. بل حتى أن أركون نفسه يصرح بنقد الغربيين له قائلا: " يقولون لي - بشكل انتقادي ومعاكس - ما الذي تفعله أنت ؟ أنت تردد بشكل ناقص الأفكار والمواضع والانتقادات نفسها، التي كنا نحن الغربيين قد بلورناها تجاه تراثنا الديني منذ زمن طويل، أنت لم تأت بشيء جديد" ⁷. وهذا ما يعمل عليه المتأثرون بهم ، ثم يعدونه دراسة وابتكارا، وفكرا ونقدا، باعتراف أساتذتهم الغربيين .

¹ د . طه عبد الرحمن : روح الحداثة . ص 175 .

² تزيفتيان تودوروف : الأدب والدلالة ، ترجمة نديم خشفة ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب 1996 . ص 10 .

³ د. سليمان عشراي : الخطال القرآني . ص 3 .

⁴ د . طه عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 176 .

⁵ - سورة النحل : الآية 24 .

⁶ محمد أركون : الفكر الإسلامي . ص 84 .

⁷ محمد أركون : قضايا نقد العقل الديني . ص 23 .

وإذا كانت " غاية تحليل الخطاب السردى العربى، هى تحديد المميزات اللسانية والأسلوبية والسيمائية، وذلك بدراسة وحداته الخارجية المشكلة لعلاميتها منذ العنوان إلى آخر فقرة فى الخطاب "1. فالأمر يلزمننا أكثر من ذلك فى دراسة خطاب السرد القرآنى، ولا سيما أننا نؤمن بظاهرتة الإعجازية. " فإن اللسانيات إذ تتوقف عند حدود الجملة، فإننا نجد أن تحليل القصة يتوقف عند حدود الخطاب، ولذا يجب أن نتجاوز بعد ذلك إلى علم آخر للإشارة "2. أما دراستنا للخطاب القرآنى فى هذا الفصل، فتناسب ودراستنا لعنصرى المكان والأحداث، وارتباطهما بالزمن. إلا أن الخطاب فى القصص القرآنى زاد عن ذلك، بحيث أصبح شاملاً متنوعاً، لا يعرف حدود الزمان ولا المكان. لذا فالخارق فى خطاب السرد القرآنى، قد تجاوز المنطوق للمخاطب العاقل، إلى المخاطب غير العاقل، وكل هذه الظواهر فتحت عدة أبواب، لاتهام الوحي وقصصه، من خلال إخضاعه لمقاييس النقد الأدبية والتاريخية. " ويؤدي تطبيق هذه العمليات التعقيلية إلى جعل القرآن نصاً دينياً، مثله مثل أي نص ديني آخر، توحيدياً كان أو وثنياً "3. ليصل أصحاب هذه الدراسات إلى نزع روح القداسة عن الوحي، واعتبار قصصه نوعاً من الخيال والخرافة، وفق مفهومهم للقصة الفنية، بأحكامهم الجاهزة التي أعلنوها مسبقاً ليسقطوها على القصص القرآنى .

لقد "حاول خلف الله تناول القصص القرآنى بمنهج التحليل الأدبي، وذلك على أساس أن تلك القصص انساق من السرد الموظف توظيفاً دينياً، وليست حقائق تاريخية "4. مما يتبين لنا أن كل ما هو ديني في نظر هؤلاء الدارسين، يدخل ضمن دائرة الخيال والأسطورة، وليس الحقيقة. إن " المنظومة القصصية القرآنية فى صورتها السردية الاطرادية المجملة، إنما هى تقريرات تصدر عن مرجعية تاريخية ثابتة. لكنها ضمن سياقها المتسلسل تتجرد من إحالتها الضيقة لتعدو ذات قيمة إطلاقية. فقصص المنظومة القرآنية تصدر عن أدبية سردية تقرر المطلق وتتجاوز التاريخ "5. ولهذا فلا ينبغي أن نحصر القصص القرآنى فى مجال ضيق، فكونية القصة القرآنية يستحيل أن تستوعب بوجهة نظر نقدية ضيقة، أو بنظرة علمانية ترى الغيبي والديني عكس الحقيقة

1 - د. نور الدين السد : الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ص 175 .

2 رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة ، ترجمة منذر عياشي ، مركز النماء الحضاري ، الطبعة الأولى 1993 . ص 73 .

3 د . طه عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 183 .

4 المرجع نفسه . ص 10 .

5 د . سليمان عشرلتي : المرجع السابق . ص 123 .

والعلم، دون أي مقارنة تُذكر. إن " إسقاط أية وسيلة على أي موضوع يحتاج إلى مشروعية، ومشروعيته تقوم في التحقق من وجود المناسبة بين الوسيلة والموضوع، ولا مناسبة بينهما، إلا إذا حافظت الوسيلة على إجرائيتها بعد نقلها من مصدرها، وحافظ الموضوع على خصوصيته بعد إنزالها عليه "1 . كما أن دراسة هؤلاء لا تقوم على أي مقارنة جدية تفرق بين ما هو حقيقي، وما هو خيالي. بل تكون أبعد على فقه سنن الكون التي لا تعقل إلا بالفكر والبحث والتدبر، وهو مبدأ قرآني ملزم لتحليل قصصه .

إن محاولة نقد النص المقدس وفق ما يقول به أركون : " ينبغي القيام بتحليل بنيوي لتبيين كيف أن القرآن ينجز أو يتبلور بنفس طريقة الفكر الأسطوري، الذي يشتغل على أساطير قديمة متبعثرة "2 هي محاولة بعيدة كل البعد عن أي عمل موضوعي وممنهج. بل هي محاولة قديمة جديدة متكررة، تحاول جعل محتوى النص القرآني، مساويا للفكر الأسطوري، وترديدا لما قاله مشركو قريش - أساطير الأولين - منذ زمن إقرأ، على الرغم من أن القرآن الكريم ظل ينفي عنه تهمة الأساطير. إن " كل الشبهات التي تحاك حول القرآن لم تخرج عما ذكره القرآن نفسه، وفنده بكلمات موجزة بليغة، والمؤمن يكتفي بهذا الذي ذكره القرآن، دون حاجة إلى مزيد بيان "3. كما أن القرآن الكريم رسالة سماوية، و " هذه الرسالة الخالدة هي رسالة أبدية ليست بعدها رسالة، وأن صلاحيتها باقية إلى يوم الدين، جاءت لتستوعب الزمان والمكان والإنسان "4. إن ارتباط الزمن بعملية التنزيل جعلت هؤلاء الباحثين في حيرة من أمرهم، بين ترتيب النص وفق التنزيل، وترتيبه وفق المصحف، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في الظاهرة الزمانية للوحي. يذهب الجابري ليجعل تفسيراً معاصراً وفق ترتيب النزول، فيقول في مقدمة كتابه فهم القرآن : " إن القرآن ليس هو مجرد كم من الصفحات، ينتظمها غلاف المصحف، بل هو نص اجتاز مسار الكون والتكوين، خلال مسيرة تجاوزت عشرين سنة "5. ليقر بعد ذلك معترفاً بعجزه، قائلاً : " وعلي أن أعترف الآن، أن هناك سراً لم يستطع عقلي اكتناه حقيقته "6. ويتضح من خلال

1 د . طه عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 190 .

2 - محمد أركون : نزعة الأنسنة في الفكر العربي . ص 203 .

3 د . أحمد إدريس الطعان : القرآن والعلمانيون ، دار بن حزم للنشر ، 1428 هـ ، الرياض . ص 20 .

4 د . لطفي فكري محمد الجودي : جمالية الخطاب في النص القرآني ، مؤسسة المختار ، الطبعة الأولى 2014 ، القاهرة . ص 93

5 محمد عابد الجابري : فهم القرآن ، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول ، دار النشر المغربية ، الطبعة الأولى 2008 ، المغرب . ص 7 .

6 المرجع نفسه . ص 15 .

اعترافه هذا، كأنه حاول أن يتصارع مع موضوع الوحي، ولمن تكون له الغلبة، دون أن يحاول فهم الظاهرة الزمانية للقرآن الكريم، معترفاً في الأخير بهذا العجز الذاتي أمام هذا السر المعجز. أما المشكلة لدى هؤلاء الحدائين والعلمانيين، هي شعورهم بالتسامي أمام النص القرآني المعجز، مع إنكار وتجاهل للحقائق التاريخية، وعدم فقه مسيرة الخطاب القرآني الزمانية، من فعل - أقرأ بِأَسْمِ رَبِّكَ - إلى فعل - أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ - أي حقيقة الواقع قبل زمن إقرأ وبعده، وهذا يتطلب فقه سنن الكون والتاريخ والوجود، وحقيقة العقيدة والإيمان، واستيعاب قصة بداية ونهاية النزول، ومدى أثر الوحي في تاريخ الإنسانية .

كما أن بعض المستشرقين رأى أن يكون ترتيب المصحف، وفق حجم السور. يقول نودلكره: " فترتيب مقاطع كتاب حسب حجمها، يسمح بالقدر نفسه من العقلانية بالبداية بأطولها أو بأقصرها على السواء ... ما أود فقط أن أذكر به، هو أن مقالات المشنا اليهودية، مرتبة بحسب عدد فصولها"¹. وهذا الفكر الإستشراقي ونظرتة لترتيب سور القرآن، المراد منه، إثبات للنبي صلى الله عليه وسلم معرفة الكتابة والقراءة، والزمع بالنقل من الكتب السابقة، والتأثر بها. لكن نزول الوحي كان وفق مشيئة الله تعالى مكانا وزمانا. كما كان نزوله أيضا منجما، عكس ما أراده المشركون " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ٣٢ "2. فجاء مطابقاً للأحداث التي وقعت، وهو يتطابق أيضا مع الأحداث التي ستقع مستقبلاً. وإرادة الله تعالى لا تخضع لأي هوى أو تنظير مشرك أو مستشرق، وفي هذا حكم بليغة لمن تدبر الظاهرة القرآنية، خطاباً وأسلوباً، تنزيلًا وترتيباً .

إن ارتباط الخطاب القرآني بالزمن وتوظيفه، يجعل حدا فاصلا بين الوحي، وهو كلام الله، وبين كل كلام أنتجته العبقرية البشرية التي لن تقدر أن تسبق الزمن، أو تنتصر على أية لحظة غيبية، بالإضافة إلى فهم البعد الفني للخطاب " وأيا ما كان الأمر فإن القرآن - وهو كتاب العربية الأوحى، ونسق بلاغتها الأسمى - لا يمكن أن يتجاوب مع معانيه وأهدافه، إلا رجل أديب شاعر الفؤاد، وإن لم يقل شعرا طلي العبارة ... يتذوق الجمال الأدبي، ويقول مثل ما قال صاحب

¹ تيودر نودلكره : تاريخ القرآن ، ترجمة د. جورج تامر، مؤسسة كونراد ، الطبعة الأولى 2004 بيروت. ص 293 .
² سورة الفرقان : الآية 32 .

الرسالة : إن من البيان لسحرا "1. إن البيان يولد أثرا لا تملك أمامه النفس، إلا أن تدعن لسحره وجماله. وقد فعل بيان الوحي في نفوس المشركين ما فعله، على الرغم من حاجز الشرك والتعصب، إلا أنهم غلبوا على ذلك، وكانوا يأتون خلسة أمام بيت الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع تلاوة القرآن الكريم، بعدما تعاهدوا على أن لا يعودوا .

إن العقل يعلن محدوديته أمام هذه الظاهرة القرآنية، لتتحول إلى إشكالية زمانية أمام الدارسين، تتجلى في ميزة هذا الخطاب وعلاقته بالزمن " وهو أن هذا الكتاب الكريم كان في علم الله قبل كل الأزمنة، فهو يحويها كلها، وكأنه يوجد معها كلها. وبذلك يتعين أنه هداية إلهية في أسلوب إنساني، يحمل في نفسه دليل إعجازه "2. وهذا ما يدفعنا للحديث عن عمق الإشكالية التي تجلت لنا بدايتها، من عنصر أحداث القصص القرآني، لتزداد عمقا مع عنصر الخطاب حين يُبحث ارتباطه بالزمن. لكن السؤال الذي يجب أن يُطرح هو : لماذا أثار الوحي قضية حفظ القرآن الكريم - النص - ؟ أليس هذا يحيلنا على أن هناك نصوصا دينية سابقة لم تُحفظ، ولم تُسلم من الضياع والتحريف، والزيادة والنقص والحذف ؟. وهذا بدوره يحتم علينا أن نبحت الفرق بين ميزة الخطاب المقدس أو الإلهي المنزل، وبين الخطاب البشري أو المحرف، مما نراه مدخلا رئيسيا لتحليل القصص القرآني، للوصول إلى استيعاب الظاهرة الزمانية لخطاب السرد القرآني. ولهذا حاولنا أن نقرب من فهم ميزة الخطاب القرآني من خلال بحث ارتباطه بالزمن ، ضمن حدود النص ومنطوقه .

أ- ارتباط الخطاب القرآني بالزمان :

لقد ارتبط القرآن الكريم بالزمن عند نزوله، وأشار الوحي إلى ذلك في سورة القدر : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ٣ " إن " الله أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة من السماء، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم "4. فنزول الوحي إلى عالم الدنيا، أجرى تغييرا تفضيليا على معادلة الزمن اليومية، حيث أصبحت ليلة

1 محمد الغزالي : معركة المصحف ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، (ب ت) . ص 126

2 الرافي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . ص 12

3- سورة القدر : الآيات 1 ، 2 ، 3 ،

4 - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء الرابع ، ص 2051 .

النزول تفضل قيمتها مدة ألف شهر. يقول محمد إقبال: " والزمان باعتباره قدرا، يشكل جوهر الأشياء "1 مستشهدا بآية " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩ "2. إن هذه المعادلة الزمانية في القيمة والفضل، والتي أثارها الوحي، لدليل قاطع على مدى الأثر الخطير الذي يمارسه وحي الله على الزمان، ممارسته على المكان، وكذلك على الإنسان. كما أن الله تعالى اختار شهرا لتنزيل وحيه " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۗ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥ "3. فتحول شهر رمضان إلى شهر القرآن والعبادة لدى المسلمين، ولا زال كذلك عبر الامتداد الزمني. وهذا ما جعل الشاعر الألماني جوته يحتفل بعيد ميلاده السبعين في ليلة القدر " وحينما بلغ السبعين من عمره، أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع، بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم "4. لقد اهتم الوحي بزمن النزول، كما اهتم المفسرون به أيضا للوصول إلى فهم معاني الآيات، فكان التقسيم زمانيا، وليس مكانيا " فما نزل بعد الهجرة سمي مدنيا، وما نزل قبل الهجرة سمي مكيا، فالتقسيم زمني، وليس العبرة بمكان النزول، وإنما العبرة فيه بزمانه "5. ولهذا كان الاهتمام بزمن النزول، أكثر من الاهتمام بالمكان، فهو عامل من عوامل التفسير .

فالمسألة لا تكون إلا بدراسة مقارنة جادة، تكشف عن حقيقة الظاهرة القرآنية " فمن بين كتب الأديان الموجودة في العالم، فالقرآن الكريم هو فريد في نوعه تماما، فتدوينه وحفظه معجزة، لأنه يبرز مميزات عن النظام الإنساني العادي في القصص، فالمشاهد القصيرة والأقوال المتكررة غير متضاربة، والتصميم كان بلا ريب مختلفا. فهو فريد في نوعه وهو معجزة "6. هذه المعجزة التي ستجعل من الخطاب القرآني خطابا خالدا، لا يحده عنصر الزمان " والقرآن الكريم معجزة عقلية معنوية، باقية لا يهون من جلالها مرور الزمان، وتقدم الأيام. بل إن الزمان كلما تقدم زاد هذا القرآن جدة وقوة وإعجازا، فالزمان عنصر من الإعجاز في القرآن "7. هذا الزمان

1 محمد إقبال : تجديد الفكر الديني . ص 88 .

2 سورة القمر : الآية 49 .

3 سورة البقرة : الآية 185 .

4 كاتارينا مومزن : المرجع السابق . ص 139 .

5 د . محمد أبو زهرة : القرآن المعجزة الكبرى . ص 24 .

6 أحمد ديدات : النصرانية والإسلام . ص 231 .

7 المؤسسة العامة للإدارات والبحوث العلمية : مناظرة بين الإسلام والنصرانية ، دار الحرمين، الطبعة الثانية 1992 . القاهرة. ص 328 .

الذي سيظل إشكالية أمام كل سارد، عند لحظة الإبداع ولحظة الكتابة ، ولحظة السرد، لا يعرف كيف يتخلص من سيرورته. إن " دراستنا للزمن السردى تعني أساسا دراسة العلاقات القائمة بين المدلول، وزمن الدال، بين زمن القصة التي وقعت بالفعل، وزمن السرد الذي يعيد صياغتها لا كما وقعت، وإنما كما يريد السارد، تركيزا على أحداث، وتركيا لأحداث "1. ورغم إرادة السارد، فهو يتساوى في خضوعه للزمن، مثل أي عنصر من عناصر السرد .

إن " كل الكتب الدينية الأخرى محددة في التصميم - في قديم الزمان ، في البدء - (في قديم الزمان) خلق الله السماوات والأرض، في البدء (في قديم الزمان) كان الكلمة، والكلمة كان عند الله "2. كما " كان المنشد في الملاحم العتيقة جدا ما قبل هوميروس، يبدأ سرده قائلا حسب عبارة طقوسية : من هنا أبدأ القصة "3. فكل كتابة تدل على بدايتها الزمانية. يقول رولان بارت : " ولقد يبلغ هذا الأمر درجة يصبح معها من الصعب أن نتصور حكاية لا تقوم على إشارات منظمة للقصة - كان يا ما كان "4. كما أن المؤلف يحتاج إلى زمن المراجعة والتصحيح، لأن ميزة النقص، هي التي تفرض المراجعة وإتمام النقص، واستدراك ما فات. وتبقى عملية المحو والإثبات مصاحبة لعملية الإبداع. فميزة النقص والتناقض والأخطاء والمراجعة، هي من مميزات الخطاب البشري، وهي دليل على خضوع كل من البشر والخطاب إلى عامل الزمن. " لقد رأى عدد كبير من المعلقين المسيحيين، أنه من اللياقة أن يشرحوا الاعتذار الذي يقول: إن كتاب التوراة كانوا معذورين في تقديم تصريحات ترتبط بعوامل اجتماعية لثقافة أو لعقلية مختلفتين "5. لكن لا اعتذار في الأمور المقدسة التي سطرت وانتهى تدوينها، ولا يمكن أن تقبل مراجعتها إطلاقا. لأن الكتاب المقدس في اعتقاد النصارى هو " مجموع الأسفار الإلهية التي كتبها رجال الله القديسون، مسوقين من روح القدس، وتحت إرشاده وبإلهامه في أزمنة مختلفة "6. فكيف يقبل بتصحيح بشري لخطاب مقدس ؟ إلا إذا تحول إلى خطاب تجاوزه الزمن، وأصبح عرضة للتناقض والاختلاف والمراجعة والتصحيح. إن " النص المقدس لا يمكن أن يمتلك القدسية دون امتلاكه

1 محمد مشرف خضر : بلاغة السرد في القرآن الكريم ، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه ، جامعة طنطا مصر . ص 76 .

2 أحمد ديدات : المرجع السابق . ص 235 .

3 رولان بارت : التحليل النصي ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار التكوين ، دمشق 2009 . ص 37 .

4 رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوي ، ترجمة د. منذر عياشي، مركز الإنماء العربي، لطبعة الأولى 1993 سوريا . ص 78 .

5 حبيب جرجس : الأنفس في ملخص الكتاب المقدس ، مكتبة الهلال بالفجالة ، مصر الطبعة الثانية . ص 1 .

6 المرجع نفسه . ص 1 .

الصحة والسلامة من الخطأ"¹. وفي حالة الخطأ والتصحيح يفقد هذا الخطاب قدسيته، ليخضع إلى عامل الزمن، والهوى البشري .

لهذا أثار القرآن الكريم إشكالية ميزة الاختلاف والتناقض في النص، كمقياس لبشرية النص المتزمن " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ٨٢ " . فلا يمكن أبدا أن يسد الاعتذار مكان التناقضات التي تشكك في مصدرية الخطاب. فتنزيل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم منجما وبالتفصيل، وهو يسرد وقائع قصصه بأحداثها وشخصياتها ومكانها وزمانها، يجلي لنا بشكل مثير للدهشة والإعجاب، أنه محكم البنية والتركيب، لن يفلت أي أمر مهما كان حجمه في بناء الأحداث. وهذا " الاستباق خاص بالقصة القرآنية - وهذا راجع أولا - لذات صاحب الخطاب عز وجل، عالم الغيب والشهادة - وثانيا - لطبيعة القصة القرآنية التي هي وسيلة رئيسية من وسائل الدعوة"³. فالإشراف الإلهي على كل مستويات الخطاب الزمانية جعل الزمن وحدة خاضعة لعلم الله المطلق، والذي تتساوى فيه كل مراحل الزمن، من ماضٍ وحاضر ومستقبل، وعالمي الغيب والشهادة. " والقصة بسياقها الزمني الموضوعي الذي باشر به السرد المتعلق بالإنسانية، تكون قد انفتحت على الزمن الغيبي والميتافيزيقي، وهذا من خلال عرض حادثة الخلق والسقوط، رابطة بذلك حبل تلك الزمنية اللامحسوسة الغيبية بالزمن الأرضي المدشن بهبوط إبليس"⁴. فالشعور بالزمن بدأ منذ الهبوط إلى الأرض، وما قبل الهبوط كان غيبا خارجا عن طبيعتنا البشرية وإدراكنا. وهذا ما يولد لدينا إقرارا بعجز أي خطاب سردي يمكن له أن يحمل، أو يوظف جميع مستويات الزمن ضمن بنيته السردية ، فضلا على أن طبيعة صاحبه محدودة .

إن الزمانية في الخطاب القرآني قد تأسست سواء في بداية نزول الوحي - سورة العلق أو في بداية المصحف - سورة الفاتحة - مما يبين لنا جليا الفرق بين ما جاء في أول المصحف، وما جاء في أول أسفار العهد القديم والجديد. ففي التنزيل كانت البداية " أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ " 5 فالبداية هي من الخالق، وعند الخالق تتوقف، والزمن يبدأ بالنسبة لنا نحن البشر، بعد عملية

1 أد . حمزة فاضل يوسف : سلطة النص ، مجلة القادسية والأداب والعلوم التربوية ، جامعة القادسية 2008 العراق . ص 16 .

2 سورة النساء : الآية 82 .

3 محمد مشرف خضر : المرجع السابق . ص 208 .

4 د. سليمان عشراطي : المرجع السابق . ص 130 .

5 سورة العلق : الآية 1 .

الخلق، إذ بدون خلق عناصر الكون وحركته، لا نشعر بالزمن. إن هذه العملية تؤسس للزمانية التي أصبحت إشكالية تطرح على امتداد العصور. أما في بداية سفر التكوين فجاء " في البدء خلق الله السماوات والأرض"¹. وهذه العبارة تطرح أيضا إشكالية البداية، والتي تحيلنا على مرحلة الماقبل أي : قبل الخلق - المكان والزمان - وهي إشكالية زمانية. كما جاء في إنجيل يوحنا " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله "². فسياق الخطاب هنا لا يؤسس لشيء واضح، بقدر ما يقدم أمراً مُبهماً كان موجوداً في البداية " لا يقتصر معناه على أن المسيح هو الكلمة التي نطق بها الله بلسان أنبيائه، بل يراد به أن المسيح هو ذات الله المتكلم. فإذا كان الله قد تكلم بواسطة أنبيائه، لكنه كلمنا في المسيح "³. وماذا يعني كلمنا الله في المسيح ؟ إلا أن يكون المسيح واسطة لتبليغ كلام الله، وبهذا تسقط الأزلية عن المسيح. لكن إذا كانت الكلمة في البداية، فمن المتكلم ؟ وهل تسبق الكلمة المتكلم ؟. فالإشكالية التي وقع فيها خطاب الكتاب المقدس، هي إشكالية زمانية من الأساس. أما إذا عملنا بموجب أن الكلمة هو الله وفق منطوق نص العهد الجديد، فيكون التعبير بالصيغة الغريبة والمبهمة التالية : في البدء كان الله (الكلمة)، وكان الله (الكلمة) عند الله، وكان الله (الكلمة) هو الله. فهل يستطيع أي محلل أن يفهم فحوى هذا الخطاب المقدس ويحل الإشكال ؟ .

إن الافتتاحية الزمانية تجد لها مكانا في بداية نصوص الكتاب المقدس، كما هي في نصوص قصص الخلق في أدب الأسطورة. وربما " نصادف في بولونيزيا أوسع تطبيق للأسطورة النشكونية، فالكلمات التي كان إيو(10) تلفظ بها : في بداية الزمن من أجل خلق العالم "⁴. كما نجد أيضا في قصة الخلق في الديانة المصرية القديمة هذه الافتتاحية " في البدء لم يكن إلا الإله الواحد أدوم، الذي كون نفسه في المياه الأبدية نون، قبل أن تكون السماء والأرض "⁵. إن التصور الأسطوري لخلق العالم وبدايته، يجد صعوبة في فجائية بداية الوجود الزمني، ليعلن عن ذاته في مسألة الزمانية بين الوجود ومسبب الوجود، أي بين ما هو مخلوق مبتدئ بزمن، وبين الخالق الأزلي الذي خلق الزمن. وتثير " كل الطقوس تقريبا البداية والزمن الأسطوري، حيث لم يكن

1 - الكتاب المقدس : العهد القديم ، التوراة ، سفر تكوين ، الإصحاح الأول ، الفقرة 1 .

2 - الكتاب المقدس : إنجيل يوحنا ، الإصحاح الأول الفقرة 1 .

3 د. القس إبراهيم سعيد : شرح بشارة يوحنا ، دار نوبار للطباعة والنشر ، الطبعة الرابعة 1988 ، القاهرة . ص 7 ، 28 .

4 مرسيا إلياد : المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق للنشر والطباعة ، الطبعة الأولى 1988 . ص 66 .

5 د. عمرو شريف : كيف بدأ الخلق ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2011 مصر . ص 10 .

العالم قد وجد بعد - في البدء في الزمن، حيث السماوات والقمر والنجوم والكواكب والأرض لم تكن قد ظهرت بعد حينئذ حيث لم يكن شيء¹. فأشكالية الزمن تبقى عسيرة الفهم والمعالجة، ولم تجد لها الأسطورة حلا أو تفسيراً، بقدر ما زادت في تعقيدها وإبهامها، الأمر الذي نسيه نقاد الوحي، والقائلون بالأسطورة في القرآن الكريم، ولم يجرأ أي أحد منهم أن يجري مقارنة بين كل النصوص الدينية، والنصوص الأسطورية في قصة خلق الكون والإنسان، ليتبينوا مميزات الخطاب الأسطوري، والخطاب البشري، والخطاب الإلهي، وذلك لحسم الإشكال، ورسم معالم كل خطاب .

لقد جاء الخطاب في القرآن الكريم بفعل الأمر - كن - في مسألة الخلق، والأمر الفاعل هو المكون - الله - الذي لم يسبقه أي شيء على الإطلاق، هذا الفعل هو المفتاح لعملية الخلق الذي ينسجم مع البداية الزمنية، ويعطي مرحلة سابقة على الزمن، هي اللزمن² فعند الأشاعرة أن وجود العالم حصل بخطاب كن، وقالت الحنفية: التكوين أزلي قديم بذات البارئ سبحانه، وهو تكوين لكل جزء من أجزاء العالم عند وجوده، لا أنه بوجود عند كاف ونون³ وجاء في فاتحة الكتاب قوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤" 3. إن " أم القرآن لما كانت أول سورة، ومطلع آياته وهو المبين لكل شيء، والمعروف بوحدانيته سبحانه، وانفراده بالخلق والاختراع وملك الدارين، فتناسب ذلك من أوصافه والعلية ما يشير إلى ذلك كله، من أنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه مالك يوم الدين، حتى تنقطع الدعاوي وتظهر الحقائق، ويبرز ما كان خبرا إلى العيان⁴. وبالتالي فالخطاب في أم الكتاب يدل على صفات صاحب الخطاب، الذي لم يكن شيء قبله. كما لن يكون شيء بعده، فهو الموجد لكل الخلق، وما عداه فمربوب له، مخلوق بقدرته، مبتدئ بزمن. " فإن الزمان الذي تعيش فيه الذات الفاعلة، هو الزمان الذي نصفه بالطول والقصر، وهو لا يكاد يتميز عن المكان ولا ندركه، إلا كخط مستقيم يتألف من نقاط مكانية منفصلة عن بعضها البعض، كأنها مراحل لا حصر لها في رحلة واحدة⁵. فالله تعالى لم " يذكر لحمده ظرفا مكانيا ولا زمانيا، وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية،

¹ مارسيا إلباد : المرجع السابق . ص 66 .

² الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، دار الحديث ، القاهرة ، سنة الطبع 2006 . ص 473 .

³ سورة الفاتحة : الآيات 2 ، 3 ، 4 ..

⁴ أحمد بن إبراهيم الغرناطي : ملك التأويل ، الجزء الأول ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى 1983 . ص 158 .

⁵ محمد إقبال : تجديد الفكر الديني . ص 84 .

السموات والأرض في قوله - وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة في قوله - وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ¹ - فحمده تعالى لا بد أن يكون شاملا لمكان الوجود في الشهادة والغيب، وشاملا للزمن بمرحلتيه الفانية والأبدية .

ومن هنا تتبين لنا علاقة المخاطب بالمخاطبين، حيث ينظر " محلل الخطاب في الشروط التي تجعل الخطاب ذا حجة، أي الإبانة في السياق الذي يجعل الخطاب مشروعاً فعالاً، منزلة المشاركين في التخاطب، وطبيعة الإطار المكاني والزمني² . فعلاقة المخاطب بالمخاطبين في سورة الفاتحة، هي علاقة سمو وعلو، علاقة رب بمربوبين، ولا يكون كذلك ، إلا إذا كان حقا ربا للعالمين. وينظر تحليل الخطاب إلى سمة التعالي بإعلاء " المرسل لذاته على حساب الآخرين، وإضفاء التفوق ... لأن التفوق حالة فردية ومنزعة إنسانية. ويمكن التلميح به عند التعرض بهؤلاء الناس واحتقارهم. بل وبتصنيفهم في طبقة أدنى من خلال مفهوم الخطاب³ . وهذا ما يراه النقد في علاقة المخاطب مع المخاطبين، رغم تساوي الجميع في الطبيعة البشرية. لكننا في الخطاب القرآني نجد السمو والتعالي لذات الخالق العليا، وتفردتها بذلك لوحدها، وعلاقتها مع البشر المخلوقين، فهي علاقة خاصة ومتفردة لا يمكن العثور عليها إلا في الخطاب المقدس المستهل - بيسم الله الرحمن الرحيم - وهي دمغة إلهية لكلام الله جل جلاله. كما بدأ تنزيله بأمر القراءة باسمه تعالى - أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - الذي كان بداية لتنزيله الكريم .

إن قصة الخلق القرآنية تضع بداية، يكون مبدؤها هو الله الخالق الخالد اللزامي واللامتناهي، الذي لا أول له ولا آخر. والخطاب الصادر عنه يتميز بميزة تتجاوز الزمكانية للدلالة على الذات العليا " فكل خطاب من الله، هو خطاب عن الله⁴ . فصاحب الوحي قد بدأ بنفسه في بداية الكتاب - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - فالوجود مسبق بالذي أوجده، فلا بداية زمانية أو مكانية تسبق خالق المكان والزمان. إن " القرآن لا يتعامل مع مشكلة أصل العالم والزمان بطريقة فلسفية، كما أنه لا يفصل أو يعطي انتباها للمشاكل الفلسفية... وبالنتيجة فلا تبدو أن هناك مشكلة أيا تكن⁵ .

1 الشيخ الشنقيطي : تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان ، دار الفضيلة ، الطبعة الأولى 2005 الرياض . ص 32 .

2 دومينيك مانغوز: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى 2008 الجزائر. ص 13

3 عبد الهادي الشهري : استراتيجية الخطاب ، دار الكتاب المتحدة ، الطبعة الأولى 2004، ليبيا . ص 372 .

4 . حسن حنفي : حصار الزمن، مركز الكتاب للنشر ، الطلعة الأولى 2004 القاهرة . ص 9

5 - حسام الألوسي : الزمن في الفكر الديني . ص 49 .

فالقرآن الكريم لا يقدم الوجود على أساس أنه مشكلة صدرت عن فرضية مفكر أو تأمل فيلسوف، أو في لحظة زمانية فجائية أملتها مصادفة عشوائية، أو حالة عبثية. " فالإسلام في مفهومه الجامع، ومنهجه الرباني الأصيل المستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة، لا يقر : أولاً - التصور الفلسفي الوافد من الفكر اليوناني والفارسي والهندي كله وهو تصور وثني، أريدَ به وضع صورة للألوهية والكون، وعلاقة الناس بربهم وبأحداث الحياة، كالمطر والرعد والبرق، وجعل آلهة متخصصة لكل هذه الأمور "1. وهذا فكر وثني أبطله الإسلام وأنكره، ويضيف الكاتب ثانياً : " فالإسلام لا يقر منهج أصول الدين المشتغل على علم الكلام والاعتزال، ويراه مناقضاً لمفهوم التوحيد الخالص "2. ولهذا سيتبين لنا أن ارتباط الخطاب القرآني بالزمن، كان مركزاً على حقيقة أن الخالق والفاعلية هما لله وحده .

وإذا كانت " هناك معادلات تشير إلى احتمالية نشأة شيء من لا شيء، فستظل هذه المعادلة دائماً في حاجة إلى من ينفخ فيها القدرة على الفعل، فالمعادلات لا تخلق، لكنها تصف الفعل "3. وبالتالي فلا إشكال على الإطلاق، إذا عُولج الخطاب القرآني طبقاً لقوله تعالى : " هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ٣ "4. لقد احتار أغسطيين في إشكالية خطاب الكتاب المقدس، فقال : " اللهم حين أسمع كلمات كتابك - في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وعلى وجه الغمر ظلام - ... إني أعرف أن تلك هي حال الأرض الخربة الخلوية غير الخاضعة لسنن الزمن التي تستطيع وحدها أن تقدم مرة هذا وأخرى ذلك، حيث لا شكل ولا صورة، لا يمكن التحدث عن هذا وذاك "5. لكن هذا الخطاب له بداية زمنية هي - في البدء - وهذه دمغة بشرية تطبع أي خطاب ببداية زمنية، تتجاهل المرحلة اللازمية التي سبقت مرحلة البدء. فلا فرق إذن بين ما جاء في خطاب العهد القديم - في البدء - وبين بداية أي نص سردي، فصفة صاحبه تبتعد عن الذات العليا التي تتجلى فيها الخالق، والتي تأمر فيأتي التنفيذ - كن فيكون - لهذا السبب وجدنا أن ارتباط الزمان بالخطاب القرآني يطرح أعقد إشكالية، تبدأ في حقيقة الأمر من إشكالية المكان، وهذا ما عرضه الوحي لينهي جدالاً بدأ وسيبقى حول زمنية الوجود بكينونة

1 أنور الجندي : سقوط الإيديولوجيات، رابطة العالم الإسلامي، السنة الثانية عشرة، العدد 139، 1414 هـ . ص 123 .

2 أنور الجندي : المرجع السابق . ص 123 .

3 د. عمرو شريف : رحلة عقل . ص 82 .

4 سورة الحديد : الآية 3 .

5 اغسطيين : اعترافات القديس أوغسطين . ص 74 .

- كن فيكون - " وقد عجبوا كيف يخاطب الله عز وجل الشيء الذي خلقه في قوله : أن يقول له كن فيكون، وهو غير موجود البتة ؟ ... ومهما يكن من تفسير، فإن فعل الخلق يكتسب قدسيته من الإبداع على غير شاكلة ولا منوال فهو اقتدار تتجلى فيه منتهى القدرة "1. فالله خالق قبل أن يخلق أي شيء، ويبقى خالقا بعد فناء كل شيء. إن صفة الخالقية ثابتة لذات الله العليا أزليا وأبديا .

يقول ابن العربي عن اسم سورة الفاتحة : " من حيث أنها أول ما افتتح به كتاب الوجود، وجعلها الله مفتاحا له، وهي أم القرآن. لأن الأم محل الإيجاد، والموجود فيها هو القرآن، وهي أم الكتاب الذي عنده في قوله : وعنده أم الكتاب. لأن الأم هي الجامعة، ومنها أم القرى، وكانت الفاتحة أمًا لجميع الكتب "2. فلهذا كانت فاتحة الكتاب السورة الأولى في تأسيس الظاهرة الزمانية، ويكون صاحب الخطاب فيها خارج الزمكانية، ولا يكون إلا رب العالمين. لكن الإنسان هذا المخلوق الزمني، لا يستطيع أن يحيط بما قبل الخلق، فضلا على أن يحيط بذات الخالق. فالزمني لا يمكن له أن يدرك حقيقة الأزل والأبد، ولا يستطيع أن يحيط بذات الله العليا، التي هي خارج الزمان والمكان. لقد حاول الخطاب القرآني أن يستفز ويتحدى كل مشكك ومنكر للألوهية، حول مسألة الزمانية، من خلال سرد قصصه في توظيفه للغبيبي والخارق والنسبي. ليكرر كل جاحد المقولة التي ردها المشركون على امتداد الزمن - أساطير الأولين - وبالتالي يضعنا القصاص القرآني أمام افتتاحية الخطاب الأسطوري، وافتتاحية الخطاب القرآني. إن " تصور الزمن داخل الخطاب القرآني يتطلب أن نميز : أ- الزمن التاريخي أو الفترة الزمنية المتناولة . ب - الزمن السردى المرتبط بحدث الجملة القرآنية ضمن سياقها الدلالي "3. وهذا ما يوضح لنا أن ارتباط الخطاب القرآني بالزمن، كان تقنية ممنهجة للدلالة على الفرق بين الوحي الإلهي، وبين كل كلام البشر المبتدئ بزمن، فلا حيلة للبشر إلا التعامل مع الزمن وفق طبيعتهم المخلوقة والمحدودة .

فكل " نمط خطابي يستدعي مقاربة تخصصه دون غيره، إلا أن لكل نمط خطابي نظريته القائمة بالذات. اعتمادا لهذه الأطروحة، وضعت للخطاب الأدبي نظرية سيميائية ونظرية شعرية،

1 أ د . حبيب مونسي : فلسفة القراءة وإشكالية المعنى ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران 2002 ، ص 250 .
2 محي الدين بن العربي : رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن ، الجزء الأول ، مطبعة نضر 1989 ، دمشق . ص 17 .
3 د . سليمان عشراطي: المرجع السابق . ص 96 .

وللخطاب السردى نظرية سردية، أو سرديات. كما وضعت للخطاب الحجاجى نظرية حجاجية¹. فكان من الأجدر أيضا، أن يجتهد الباحثون في الوقوف على خصائص الخطاب القرآنى، لاستخلاص منهجية الخطاب المقدس ومميزاته، لمعرفة الفرق بين كلام الله المقدس الخالد، وكلام البشر المتزمن، ولن يتم هذا إلا بالمقارنة بين كل الخطابات الدينية، لأن إعجازية الوحي هي التي تفرض هذه الطريقة في البحث والمقارنة. وسنحاول أن نتبع ارتباط الخطاب بالزمن ضمن القصص، لنقف أمام الإشكالية المطروحة، حيث أن الجانب السردى للوقائع، كان قد سطر في اللوح المحفوظ. إلا أن الوقائع كأحداث وشخوص ومكان وزمان، لم تخلق بعد، ووفق هذه القاعدة التي نص عليها القرآن الكريم " وَإِنَّ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيْمَةٍ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨ "2. يتبين لنا أن عدم التفات الوحي لتفاصيل زمن الأحداث، كان مقصودا. كما جعل عددا من الدارسين يقفون أمام القصص القرآنى، سواء متهمين هذه الميزة المعجزة، أو مدافعين عنها، لاعتبارات عقديّة. فالوحي كخطاب سماوي قد سجل صفة الأزلية والخلود. وما مشكلة خلق القرآن التي ظهرت في العصر العباسي، إلا بداية لطرح إشكالية الزمانية والنص. ويقول محمد إقبال: " وربما كانت نظرة الأشاعرة عن الزمن، هي أول محاولة في الفكر الإسلامى لفهم الزمن فهما فلسفيا³ وبدلا من أن يعلن أصحاب هذه الاتجاهات عجزهم عن ذلك، أو يبحثوها وفق الأسس الإيمانية والعلمية، أدخلوا الإشكال إلى مجلس الخليفة، لدحض الخصم المخالف بالقهر والقوة، لا بالحجة والبرهان

لقد " تبنى المعتزلة خلق القرآن وحدثه، واستعدوا الدولة في عهد المأمون على مخالفيهم، وأنكر الحنابلة وصف القرآن بأنه مخلوق، وكانت فتنة بين المسلمين، ومحنة للحنابلة⁴. يقول ابن تيمية: " إن النصارى الحلوية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة. فقالت النصارى القرآن كلام الله غير مخلوق، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق. وقالت الجهمية: المسيح كلمة الله وهو المخلوق، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقا⁵. لينقل لنا رد الإمام أحمد في قوله: " بأن المسيح نفسه ليس هو كلاما، فإن المسيح إنسان بشر مولود من امرأة. ولكن المسيح

1 أحمد المتوكل: الخطاب وخصائص اللغة العربية، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى 2010 الجزائر. ص 27.

2 - سورة الإسراء: الآية 58.

3 محمد إقبال: المرجع السابق. ص 125.

4 د. أحمد محمد صبحي: في علم الكلام، دار النهضة العربية للطباعة، الطبعة الخامسة، بيروت 1985، ص 57.

5 ابن تيمية: التفسير الكبير، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية، بيروت. ص 213.

خلق بالكلام، وأما القرآن فهو كلام الله، فأين هذا من هذا؟¹ . وهذا ما أدى بالنصارى إلى الاعتقاد بألوهية المسيح، كما أدى بالمعتزلة إلى القول بخلق القرآن. والإشكالية في اعتقادنا هي عدم استيعاب كل من الظاهرة الزمانية، وميزة تنزيل القرآن الكريم وحيا، وصفات الله الحسنى " وعندما نرتفع إلى أعلى فأعلى في سلم الكائنات غير المادية فإننا نصل إلى الزمن الإلهي، ذلك الزمن الذي يخلو تماما من صفة المرور، وبالتالي لا يقبل الانقسام ولا التتابع أو التغيير، إنه فوق القدم وفوق الأبدية، ليس له بداية ولا نهاية"². وفي ذلك أشار الرسول صلى الله عليه وسلم منبها إلى سر المعجزة: " ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"³. وبالتالي كانت معجزة الوحي معجزة زمانية، بقيت تتحدى على امتداد الزمن والأجيال .

إن البحث في مقدمة القصص القرآني، يجلي لنا القوانين الإلهية التي يسير عليها خط القصة من ألفها إلى يائها، وهذا يدل على تسطير الأمور في الكتاب من قبل أن يبرأها، ويفرض علينا الإيمان دون أن يكون لنا أي أدنى شك، فنقف عند قوله تعالى: " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ "4. لأن المسألة لا تحتل أي زعزعة للعقيدة. ونعلن بأن فعل - اقرأ - هو مفتاح بداية التنزيل، من السماء إلى الأرض، كما أن فعل - كن - هو مفتاح بداية الخلق والزمن. والأمر - الفاعل - في الحالتين هو الله الخالق الذي تولى أمر القراءة والتنزيل، كما تولى أمر الكينونة والوجود. " الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ "5. فالعلاقة شديدة الترابط بين القرآن وبين الوجود، فالوجود يعبر عن حقيقة كلام الله الأزلي، والقرآن يعبر عن حقيقة بداية الوجود الزمني. يقول أحد الفلاسفة: " حينما يتهيأ لنا الوصول إلى نظرية قوية واثمينة في الكون، نجد فيها اعتقادا قويا واثمينا، هنالك فقط يكون في وسعنا إيجاد حضارة جديدة"⁶. وهذا ما جعل منهج القرآن الكريم يبعد أي تصور فلسفي أو أسطوري للكون والحياة، مؤكدا خالقية الله تعالى للكون والإنسان. " والمتدبر في النص القرآني يجد أن ما يرد فيه من خطابات إقناعية قد

¹ المرجع نفسه . ص 213 .

² محمد إقبال : المرجع السابق . ص 128 ، 129 .

³ الإمام البخاري : صحيح البخاري ، ص 821 .

⁴ - سورة البقرة : الآية 2 .

⁵ سورة الرحمن : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

⁶ د . مصطفى السباعي : من أروع حضارتنا ، دار الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1999. السعودية . ص 38 .

بُنيت على أصول الواقع الكوني والإنساني، وهو ما يبدو في استخدام الآيات الكونية مقدمات في الاستدلال على حقائق العقيدة¹. وبهذا المنهج القرآني تُستوعب حقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وتتضح مهمته السامية التي خلق من أجلها .

فإذا تناولنا القصص القرآني، والذي احتوى قصة الخلق، وقصة الحياة والموت، وقصة الإنسان والوجود والمصير، حيث " يشكل الخطاب القرآني من حيث هو رسالة سماوية توجت سلسلة الرسائل، التي سبقتها ظاهرة تواصل مفتوح على شؤون الإنسان في تجدها ، واسترسال تطورها. ذلك التطور الذي هو أساس الحياة، ومبدأ الوجود². نجد الخطاب القرآني قد اشتمل على كل مراحل الزمن، بل تجاوز ذلك إلى مرحلتي الماقبل والمابعد، وعلى الرغم من ذلك، فإننا نجد كتلة وكثافة السرد، أقل من الحجم الزمني. ولو أتيح لأي سارد أن يتناول في سرده هذا الفضاء الممتد حقبا من الزمن، لامتدت كتلة السرد تواريا مع كتلة الزمن. إلا أن الخطاب القرآني اعتمد على تقنية التكتيف التي تدل على أن السارد محيط ومشرف على البناء الزمني قولاً وفعلاً.

" إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ٣٦ "3. فالمدة الزمنية للعام لن تتغير " إن عدد شهور السنة القمرية في حكم الله وتقديره منذ أن خلق السماوات والأرض اثنا عشر شهرا، لا ثلاثة عشر شهرا، كما كان يفعل ذلك المشركون حسبما يوافق أهواءهم⁴. والإنسان خاضع للزمن كارها أو طائعا، كما أن أي خطاب سردي للبشر، لن يتجاوز المدة الزمنية للعام المسطرة منذ الأزل. والسؤال المطروح هو من حدد عدة الشهور؟ ومن حدد عدد أيام الأسبوع؟ " فبالنسبة لمعظم الشعوب البدائية لم يكن هناك ما يدعو إلى وجود هذا الشيء المسمى بالأسبوع ... وهكذا استخدمت الأسابيع بكل أطوالها المتباينة في مكان ما وزمان ما، تراوحت ما بين أربعة أيام (في غرب إفريقيا) إلى عشرة أيام (عند قبائل الإنكاس في بيرو) وقد اتبع اليهود من أقدم العصور، وكذلك الرومان منذ ظهور تقويم جوليان الأسبوع ذا الأيام السبعة⁵، ولم يصل اليهود لذلك، إلا من خلال رسل الله وأنبيائه، مما يؤكد أن

¹ د . لطفي فكري محمد الجودي : جمالية الخطال في النص القرآني . ص 106

² - د . سليمان عشراي : المرجع السابق . ص 181 .

³ - سورة التوبة : الآية 36 .

⁴ عبد الغني عبد الرحمن محمد : الزمن بين الدنيا والآخرة . ص 75 .

⁵ روي بروتر : تاريخ الزمن، كتاب فكرة الزمان عبر التاريخ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1978. ص92 .

المشرف على عملية حركة الشمس والقمر الدائبة، وتعاقب الليل والنهار المستمر، هو الذي حدد مدة الزمن بعامه ويومه وليله ونهاره. " وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ ۳۳ " 1. وحقيقة أيام الأسبوع التي اختلف فيها الناس، ثم انفقوا على سبعة أيام، فما حقيقتها، لو لم يكن هناك وحي من السماء؟ ليتفق عدد أيام الأسبوع مع عدد أيام خلق الكون في ستة أيام، واختلف في تحديد وطبيعة اليوم السابع، بيوم السبت - وهو يوم الراحة - عند اليهود، والأحد - وهو يوم الشمس - عند الوثنيين والنصارى. أما المسلمون فكان يوم الجمعة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۙ ۹ " 2. وهذا ما جاء في سورة سميت بسورة الجمعة، فتحول يوم الجمعة يوماً مميزاً عند المسلمين دون سائر أيام الأسبوع لإقامة الصلاة في المسجد جماعة، وسميت هذه الصلاة بصلاة الجمعة، مرتبطة بالزمان والمكان، ولا زالت مستمرة إلى أن يشاء الله رب العالمين .

لقد بدأت قصة تنزيل الوحي بفعل الأمر - إقرأ - وهو يحيلنا على بداية الخطاب مع المنزل عليه، الذي ظل يردد - ما أقرأ - نافياً عن نفسه العلم بالقراءة، كما أخبر هو عن نفسه فقال صلى الله عليه وسلم: " فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من كتاب فيه ديباج فقال أقرأ فقلت ما أقرأ " 3. وبعد تكرار الأمر عليه، بدأ جبريل - عليه السلام - قراءة بداية سورة العلق " أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۙ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ ٢ أَقْرَأْ ۚ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۙ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۚ ٤ " 4. لكن كيف يفهم العلمانيون موقف الاتصال هذا، وبداية تلقي الوحي؟ يقول حامد أبو زيد: " كان موقف الاتصال الأول موقفاً معقداً، فبينما محمد يتأمل، فاجأه الملك أمراً بالقراءة، وكانت الاستجابة الأولى من جانب محمد هي الرفض- ما أنا بقارئ - الذي تكرر ثلاث مرات " 5. فالكاتب يخلط بين عملية النفي والرفض، ولو كان رفضاً ما كانت عملية القراءة لتتم، وبالنفي تتأكد صفة الأمية، وقد صرح بها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه. لكن الكاتب لم يبحث ميزة الاختلاف بين القصة القرآنية لنزول الوحي، وبين القصة كما رواها الرسول صلى الله عليه وسلم. فالخطاب القرآني يبدأ بفعل أمر، فاعله هو الله تعالى. أما الحديث الذي جاء رواية عنه صلى الله عليه وسلم فهو يتعاطى مع

1 سورة إبراهيم : الآية 33 .

2 سورة الجمعة : الآية 9 .

3 - ابن هشام : السيرة النبوية ، الجزء الأول ، ص 252 .

4 - سورة العلق : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

5 - د . ناصر حامد ابو زيد : مفهوم النص ، ص 66 .

المكان والزمان، والحالة النفسية للرسول صلى الله عليه وسلم. فالفرق واضح بين رواية الرسول صلى الله عليه وسلم وبين رواية القرآن في التعامل مع الزمانية، لكن عملية استيعابها ضمن قصة التنزيل بعيد عن الفكر العلماني .

إن " كل الكتب الدينية الأخرى محددة بالزمن في التصميم - في البدء - في قديم الزمان - كان الكلمة، والكلمة كان عند الله "1. وهذا ما نلاحظه في بداية نصوص أسفار العهد الجديد، ففي إنجيل متى، وبعد عرض نسب المسيح جاء " أما ولادة المسيح فكانت هكذا لما كانت مريم أمه ... "2، وجاء في بداية إنجيل مرقس " بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله ... كان يوحنا يعمد في البرية "3. وفي إنجيل لوقا، وبعد ذكر سبب كتابة هذا الإنجيل، جاء فيه " كان في أيام هيرودس ملك اليهودية "4. فكل هذه الأنجيل تبدأ ببداية زمانية، فالبشر لا حيلة لهم في التعامل مع الزمن أثناء الخطاب. لكن ما هي علاقة بداية التنزيل - أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - وعلاقتها بالمخاطب الأمي، وإعلان المخاطب عن صفته صراحة بتأكيدهما وتكرارها؟! إن لحظة تنزيل الوحي هذه تجعلنا نعود إلى نقطة تقاطع مع خطاب سابق، جاء قبل قرون من الزمن في سفر أشعيا " أو يُدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له إقرأ هذا : فيقول لا أعرف الكتابة "5 وقد كشف أحمد ديدات كيف تلاعبت الترجمة بالمعنى، فيقول: " إن الكلمات -I pray thee- أتوسل إليك، أرجوك - ليست في النسخة العبرية الأصلية، وكذلك مع النسخة القياسية، فيقول : إنني لا أعرف الكتابة. إنها الترجمة المضبوطة - ما أنا بقارئ - تلك الكلمات التي فاه بها محمد صلى الله عليه وسلم مرتين للملاك جبريل عند الطلب منه قائلًا إقرأ "6. ولا زالت النسخة اليسوعية للعهد القديم تحمل نص هذه الفقرة من سفر أشعيا " ثم يناول الكتاب لمن لا يعرف القراءة ويقال له إقرأ هذا فيقول : لا أعرف القراءة "7. ولهذا ظل كثير من المستشرقين والباحثين والعلمانيين في حيرة من أمرهم، بين أول ما نزل من الوحي، وأول ما جاء في المصحف. فالتقاطع الخطابي مع سفر أشعيا في شفرات الخطاب - إقرأ هذا، لا أعرف القراءة - كان يؤسس لزمن غيبي ينزل فيه نص إلهي يتلقاه

1 أحمد ديدات : النصرانية أم الإسلام . ص 235 .

2 العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح الأول ، الفقرة 18 .

3 العهد الجديد : إنجيل مرقس ، الإصحاح الأول ، الفقرتان 1 ، 4 .

4 العهد الجديد : إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ، الفقرة 5 .

5 العهد القديم : سفر أشعيا ، الإصحاح التاسع والعشرون : الفقرة 12 .

6 أحمد ديدات : ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم . ترجمة إبراهيم خليل أحمد ، دار المنار 1988 . ص 40 .

7 العهد القديم : سفر أشعيا ، الإصحاح التاسع والعشرون ، الفقرة 12 ، النسخة اليسوعية .

نبي أمي، لا يعرف القراءة والكتابة، فيكسر فعل إقرأ بأمر من الله عملية جبرية ومفروضة على الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم. وبعملية إقرأ المفروضة، تبدأ قصة نزول الوحي في الزمان والمكان الذي أرادهما الله تعالى، وسطرهما في علمه الغيبي منذ الأزل. وبهذا التقاطع (التناص) تستوعب قصة نزول الوحي ببداية - أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - لتظهر حقيقة المنزل عليه، وتبقى مقروؤية النص القرآني تتحدى مقروؤية أي نص سابق، أو لاحق على الإطلاق، وعلى مر الزمان والتاريخ. وبهذا تستوعب معجزة الوحي بداية من فعل إقرأ، كما تستوعب قصة نزوله، وحقيقة المنزل عليه .

فقصة نزول الوحي التي ارتبطت بالزمن الدنيوي، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم استمرت أكثر من عشرين عاما، لينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، وفي يوم الحج الأكبر، وهو الوقوف بعرفة " أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا "1. فضمير المتكلم والفاعل للفعلين - أَقْرَأَ . أَكْمَلْتُ - هو الله تعالى والشوط الزمني الذي قطعه الوحي، يرسم لنا تسطير الله العليم، لمدة نزول وحيه بداية ونهاية وكذلك لقصة عقيدة التوحيد وتاريخها، والتي دعا إليها كل أنبياء الله ورسله السابقين، وأكدها إمام الناس، سيدنا إبراهيم، وختمت بالرسول محمد - على جميعهم الصلاة والسلام - " يبدو أن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم يقف ما بين العالم القديم وبين العالم الحديث، فهو من ناحية مصدر رسالته، يُعتبر منتما للعالم القديم. أما من ناحية روح رسالته، فيُعتبر منتما إلى العالم الحديث "2. يقول تعالى " وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧ "3. إن هذا الخطاب مستمر عبر كل المراحل التي قطعها أنبياء الله مع أقوامهم، من أولهم إلى خاتمهم، فالحضور المستمر والدائم والمشرف لصاحب الخطاب، على امتداد زمن الأنبياء المتعاقبين على فترات زمانية متتالية ومتباعدة، هو الذي ينطق بميزة استمرارية الخطاب، باعتبار كل مرحلة انتهت وستنتهي " وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٨ "4. ويبقى صاحب هذا الخطاب مشرفا على كل مراحل الزمن، التي مرت بها البشرية

1 - سورة المائدة : الآية 3

2 محمد إقبال : المرجع السابق . ص 207 .

3 - سورة الأحزاب: الآية 7 .

4 - سورة القصص : الآية 88 .

مع الرسل، والممتدة إلى قرون، ولا طاقة لأي سارد بشري أن ينشئ خطابا بهذه الميزة المعجزة زمانيا.

إن قصة معصية آدم في العهد القديم، تدل على غياب علم ساردها. تقول القصة " فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت * فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاخبتأت * فقال من أعلمك إنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها "1 فجائية الخطيئة، واختفاء آدم، وبحث الرب الإله عن مكان آدم، كلها أكدت غياب الرب الإله عما يدور في مكان ضيق، كان قد حدده هو بذاته لآدم المخلوق. إن الرب الإله قد تجاوزه المكان والزمان اللذان خلقهما بإرادته وعلمه. فكيف يكون وضع هذا الرب بما يحدث وسيحدث مستقبلا، على امتداد شساعة السماوات والأرض، وعلى امتداد الزمان في حياة البشرية وتكاثرها ؟ إنها فعلا إشكالية زمانية خطاب العهد القديم في قصة آدم - الإنسان الأول - أما قصة معصية آدم القرآنية، فنجدها تختلف تماما عن رواية العهد القديم، وذلك في قوله تعالى " فَذَلَّلْنَاهَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ٢٢ "2. إن صاحب الخطاب يتابع العملية بعلمه وتحت إشرافه، ولم ينتظر من آدم وزوجه أن يمداه بأي خبر عما حدث. فالخطاب في هذه القصة يتجاوز الزمن، أما سياق الحوار في قصة العهد القديم، فلا يفرق بين خطاب الرب الإله وبين آدم المخلوق، فكلاهما متساويان. وبالتالي فمن كان السارد في قصة العهد القديم، مع العلم أنه لم يوجد إلا متخاطبان: الرب الإله، وآدم المربوب ؟ .

فلا غرو إذا وجدنا قصص العهد القديم بخطاب محدود الزمن والعلم، ليتحول الرب الإله، كأبي واحد من البشر بوجود زمني، يخشى على نفسه من منافسة الإنسان المخلوق له " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد "3. بدأ الخطاب الكتابي يجسد الصراع بين الإلهي والبشري، شأنه في ذلك شأن الأساطير والخرافات، فيتحول صراع الرب مع آدم المخلوق حول

1 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرات 9 ، 10 ، 11 .

2 سورة الأعراف : الآية 22 .

3 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرة 22 .

الألوهية والخلود " أيتوهم عاقل أن الإلهية تكتسب، فضلا عن أنها تكتسب بالأكل أيضا ؟ "1. ربما يفتك آدم صفة الخلود، ويتحول إلى إله شرس ومنافس، وهو العبد المخلوق. هل " يُصدّق ذو عقل أن الله غار من آدم بعدما أكل من شجرة المعرفة، وخاف أن يأكل من شجرة الخلد وينازعه السلطان ؟ "2. إن صراع الآلهة مع البشر، هو وليد الخطاب الأسطوري، ونتاج الفكر الخرافي الذي يجهل حقيقة الألوهية والخلق، وحقيقة الوجود والإنسان. لأن قصة الوجود لا يمكن أن تُعرض بخطاب يتكافأ فيه الإلهي مع البشري، ولكن بخطاب يسمو فيه الله المخاطب، على كل مخلوقاته " وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ ١٨ "3. ولا ينازعه في صفات الكمال المطلقة أحد على الإطلاق. ف - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - تحصر كل العالمين داخل دائرة المربوبية لله وحده دون سواه، فموقع كل مربوب يأتي في الأسفل، ليكون موقع الرب في الأعلى إطلاقا .

إن النقد ينظر إلى أن " صفة العالي والسفلي لهذا الموقع، تقرها طبيعة نوع الخطاب "4. والسبب في ذلك هو دراسة النقد لميزة التفاعل التكميلي بين المشاركين، وهم متساوون في الطبيعة من حيث أنهم كلهم مخلوقون وهذه ميزة الخطاب البشري. لكن الحقيقة في الخطاب القرآني، هي أن تقرها طبيعة صاحب الخطاب التي تتجاوز المشاركين إلى الفاعل الحقيقي، وهو رب العالمين. ولهذا يستحيل أن يساوي الخطاب الإلهي بين الخالق والمخلوق، فلا بد أن تُبحث هذه الفوقية والتعالي والكبرياء والخالقية ، التي تتفرد بها الذات العليا، لتتجلى هيمنة الله تعالى المطلقة على كل شيء. فلا عجب إذن أن " النعيم الذي كان يسعى إليه المتصوفة المسيحيون، هو محو الزمن الأرضي. ويقول المتصوف مايستر إلهارت* : ليست هناك عقبة في سبيل الاتحاد بالله، أكبر من الزمان "5. فتعدد الآلهة، وأنصاف الآلهة، وتجسد الإله، واتحاد اللاهوت بالاناسوت، وميلاد الإله وموته، والصراع بين الآلهة والبشر، وقصة مصارعة يعقوب لله في الكتاب المقدس، كل هذا نتاج أسطوري، وضلال بعيد عن الحق. يقول رولان بارت في مصارعة يعقوب للإله - تعالى الله عما يقولون - : " إذا صح القول من استدلال استرجاعي ذي نمط قياسي، أنت غلبت الله،

1 الإمام علاء الدين الباجي : الرد على اليهود ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى 2007 ، بيروت . ص 38 .

2 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 319 .

3 سورة الأنعام : الآية 18 .

4 دومينيك غانز : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، دار العربية للعلوم، الطبعة الأولى 2008 الجزائر . ص 24 .

*مايستر إلهارت (1260 ، 1328) فيسوف مسيحي .

5 روي بروتز : المرجع السابق . ص 19 .

والذي يكلمك هو من غلبته، إذن الذي يكلمك هو الله "1. وهذا لا يمكن أن نعثر عليه إلا في الخطاب الأسطوري الذي صنعه خيال البشر وضلالهم عن الحق، حيث وقف حائرا أمام ظاهرة الزمن، والوجود والحياة، ولم ينجح حتى الآن في الوصول إلى ماهية الوجود، إلا إذا كان الخطاب من صاحب الوجود ذاته.

إننا نجد الرب الإله، في العهد القديم يفاجئه أيضا شر الإنسان الذي خلقه، كما فاجأته الخطيئة، فيندم على خلقه لهذا الإنسان، الذي ظهر شره المفاجئ على الأرض، وكأن عملية الخلق تمت دون قصد أو حكمة، ودون سابق علم من الله الخالق، العليم الحكيم، وعليه كان سبب الطوفان عملا انتقاميا، وليس عدلا إلهيا، فيندم الرب الإله على ذلك. " وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان "2. وأين كان - الله المحبة - في زمن الطوفان، ولماذا لم يبعث الابن الوحيد، أو الرب المخلص، لينفذ البشرية؟ وكيف كانت نظرتة للبشرية آنذاك؟. " نظر الله للبشرية نظرة ظلماء، وقرر باستثناء عائلة واحدة، أن يغرقهم جميعا ومن ضمنهم الأطفال "3. لكن قصة آدم القرآنية جعلت حدا فارقا بين رب العهد القديم، والله الخالق العليم، رب العالمين .

لقد أراد الله تعالى أن يجلي علمه وحكمته وإرادته لملائكته، في قصة آدم قبل أن يخلقه، فقال: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ "4. لقد صحح الخطاب القرآني ظن الملائكة وتقديرهم الخاطئ. كما صحح قصة خلق الإنسان المسرودة في العهد القديم، وبين بطلانها وضلالها. لذا تجلت قدرته في أن يكرم آدم بعلم يغيب عن الملائكة مما جعلهم عاجزين معترفيين بمحدودية علمهم، أمام مشيئة الله وعلمه: " قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٢ "5. وهذا المشهد دليل على طلاقة علم الله المحيط، بكل ما سيحدث في ملكه قبل خلق الإنسان. إن هذا السمو والتعالي والعلم، لا يخضع لشروط الزمان، بل يتجاوز حدوده في صفحة واحدة بغيبتها وشهادتها. فالشر الذي غاب عن علم الرب الإله في قصة آدم الكتابية، كشفه علم الله الواسع في قصة آدم القرآنية. ولكن ماذا عن العداوة التي ذكرها الله عز وجل أثناء الهبوط مستقبلا؟. "

1 رولان بارت : التحليل النصي . ص 62

2 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثامن ، الفقرة 21 .

3 ريتشارد دوكنز : وهم الإله ، ترجمة بسام البغدادي ، مؤسسة البغدادي ، الطبعة العربية الثانية ، 2009 ، ستوكهولم . ص 238 .

4 سورة البقرة : الآية 30 .

5 سورة البقرة : الآية 32 .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦¹. إذن قد سبق علم الله الزمن الذي يتولد فيه الشر على الأرض، نتيجة العداوة التي ستولد بين إبليس، و آدم وذريته .

إن الإله الذي يتجاوزه الزمن، لا يمكن أن يكون ربا للعالمين. وبمعنى آخر يفقد الرب ألوهيته في العهد القديم، متحولاً إلى إله شخصي، كفر به ألبرت آينشتاين قائلاً: " أنا لا أومن بالإله الشخصي، ولم أنكر ذلك أبداً على العكس، فقد عبرت عن الموضوع بشكل واضح "2. وكلما بحثنا في سياق الخطاب الصادر عن هذا الرب الإله، وجدنا إشرافه على الأحداث مغيباً، أو تجاوزه لحظة زمانية، أو أفلت من علمه فعل الشخص، وأحداث القص. وهذا لا يتماشى إطلاقاً مع خصائص الخطاب المقدس، ولا مع صفات الله العليا المنزهة عن كل نقص. فالله الخالق والمهيمن على الزمان والمكان والشخص والأحداث، يستحيل أن يخرج أي أمر، مهماً عظم شأنه أو صغر، عن إرادته وعلمه. يعرض علينا الخطاب القرآني تمهيداً لقصة خلق آدم، المعصية التي أوقع فيها إبليس اللعين - فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ - فيتم الهبوط إلى الأرض فأية " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨³ تعرض قصة البشرية، قصة آدم وذريته من بعده، قصة حياتها الدنيوية وموتها ورجوعها إلى خالقها. وهكذا " في آية واحدة قصيرة يُفتح سجل الحياة كلها ويُطوى، وتُعرض في ومضة صورة البشرية في قبضة البارئ، ينشرها من خمود الموت أول مرة، ثم يقبضها بيد الموت في الأولى ثم يحييها مرة أخرى، وإليه مرجعها في الآخرة "4. وبنظرة تقابلية يمكننا أن نستشف من خلال الظاهرة الزمانية التي يمارسها الفاعل بفعله وأمره، نمط الخطاب، ونحدد صفته السماوية أو الأرضية، الإلهية أو البشرية، الحق أو الباطلة. وهذه العملية لا تتطلب جهداً مستحيلاً، بقدر ما تتطلب إجراء مقارنة علمية جادة، بين الخطابات المقدسة السابقة واللاحقة، وبين الخطاب القرآني، لتضع كل خطاب على المحك الحقيقي، وتقر له صفته الخاصة به، وفق ارتباطه بالزمانية، وكيف وظفها وتعامل معها صاحب الخطاب .

¹ سورة البقرة : الآية 36 .

² ريتشارد دوكنز : المرجع السابق . ص 17 .

³ سورة القرة : الآية 28

⁴ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 53 .

وفي قصة الطوفان للعهد القديم، ماذا يفعل الرب الإله بعد هذا الحدث الخطير إذا تكرر ثانية في زمن المستقبل المجهول؟ يجيب العهد القديم أن الرب الإله اتخذ احتياطا، خوفا من النسيان ومفاجأة نزول المطر ثانية. فيقول: " وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض * فيكون متى أنشر سحابا على الأرض * أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا تكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد "1. وهل الله ينسى؟ يجيب أحد شارحي الأناجيل: " أليس زكريا أعظم برهان على أن الله لا ينسى أليس زكريا معناه: الله يذكر؟ "2. ونسي المفسر للعهد الجديد أن الرب في العهد القديم قد انحصر علمه في حدود قوس قزح كعلامة ضد النسيان. " وبما أن العجوز يهوه التزم بعدم إغراق البشر بعد ذلك، فإن الاتفاق يتطلب توقيعا، وتوقيعه هو قوس قزح "3. وذلك ليستعيد الإله ذكريات الكارثة، ويجنب البشرية الخطر مرة ثانية. إذن لم يكن الطوفان أمرا إلهيا، ولا عقابا عادلا مرتبطا بحكمته تعالى، بقدر ما كان نزوة غضب طارئة، في لحظة زمنية مجهولة، ثم ما لبثت أن تلاشت وزالت، واستعاد الرب توازنه النفسي والعصبي ثانية، ليعلن ندمه على ما صدر منه. إن أي سلوك للبشر نتيجة الانفعال والغضب، غير مبرر وغير مقبول، فما بالنا إذا كان صادرا عن الله الخالق الحكيم العليم؟ .

وتقول أسطورة الطوفان: " ففضى الطوفان على الجنس البشري ... وقد ندمت الآلهة على فعلتها بسبب جوعها وعطشها وحاجتها لقرايين الإنسان... وأثناء ذلك قدم أنكي - أحد الآلهة - حلا دائما للمشكلة، فجعل العالم بعد الطوفان يختلف بأن استدعى نيتو إلى الولادة، وخلقت خلقا جديدا، فتأكد أن المشكلة لن تتكرر "4. وهاهي أوجه التشابه في ندم الرب والآلهة ماثلة بين النصين، والسؤال المطروح هو: لماذا انتظر الرب الإله كل تلك المدة الزمنية الممتدة بقرون لإصدار أمره بالطوفان؟ لا يستطيع الخطاب الكتابي ولا الخطاب الأسطوري الصمود أمام الزمن، ولا أن يجسدا سمو وتعالى صاحبه، الذي عجز أن يفرض إرادته القاهرة على الخلق والكون. فهذا الرب لن يقدر أن يتحكم في نزول المطر ثانية، لأنه معرض للنسيان، وانفلتت الأمور من يده. وهكذا يصبح مصير الكون والبشرية بيد إله ينسى، عاجز على ضبط أمور الكون. كما يصبح

1 العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الفقرات 13، 14، 15 .

2 د القس إبراهيم سعيد: شرح بشارة لوقا، دار الثقافة المصرية، الطبعة الرابعة 1986 القاهرة. ص 11 .

3 السيد سلامة غنمي: التوراة والأناجيل بين التناقض والأساطير، دار الأحمدي للنشر، الطبعة الأولى 2000 . ص 97 .

4 جودت سعد: أوامم التاريخ اليهودي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1998، الأردن. ص 193 .

علمُ هذا الإله محصوراً في ظاهرة جوية، وجد لها العلم تفسيراً، بعد أن تخلص الفكر من الأسطورة والخرافة، ومن قيود الكنيسة والكهنوت. فأين هي حقيقة - والله بكل شيء عليم - ؟ والجواب القاطع والحق هو لا وجود لهذه العبارة، إلا في الخطاب القرآني الذي يجسد حقيقة صاحبه سبحانه وتعالى

إن قصة الطوفان القرآنية قد لامست الزمن الذي ذكر مدته الوحي بعدد السنين، حيث لبث النبي نوح - عليه السلام - في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم لعبادة الله وحده وينذرهم عذاب يوم عظيم " إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ "1. وبعد مئات السنين من الإمهال والإنذار، تقرر فيها العقاب بالطوفان. فالمسألة ليست لحظة فجائية، ولا نزوة طائشة. بل هو أمر الله وقضاؤه وحكمته، وعدله وعلمه. وهذا ما يؤكد الخطاب القرآني، كلما ترددت قصة نوح - عليه السلام - في سور القرآن. فالوحي يتتبع كل خطاب باطل يستشف منه الاعتقاد بالعبثية في الخلق ليحضه ويبطله. فلا خلق آدم كان عبثاً، ولا طرده من الجنة إلى الأرض كان خوفاً، ولا الطوفان كان نزوة، فهذا ليس بالعمل الإلهي الحكيم. ومصدر خطاب بهذا الشكل والميزة، ليس بالإلهي إطلاقاً، ويستحيل أن يكون مقدساً. يقول تعالى: " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩ "2. إنه الله وحده هو الذي خلق الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وهياً للبشر قبل خلق آدم وزوجه وذريتهما، ولا أمر يغيب عن علمه سبحانه وتعالى .

إننا لا نجد في خطاب العهد القديم، ما نجده في الخطاب القرآني، من صفات الكمال والتنزيه للذات العليا. بل لا نجد هذا التنزيه في أي خطاب ديني آخر ف- الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - مفتاح الخطاب الإلهي، كما كانت فاتحة لكتابه الخالد. فهي تغطي المكان والزمان المخلوقين وتعطي قبلية لازمانية سبقت الوجود الزمني لخلق العالمين. فلا غرو إذا ما وجدنا أن الوحي ، قد تناول سرد تلك الوقائع في قصصه، دون أن يفصل مدة الزمن، ومرآحها التي قطعها الأنبياء مع أقوامهم، إلا ما كانت استثناءً، بقدر ما يركز الخطاب على خضوع الموقف والمصير لسنن الله الثابتة، وإرادته المطلقة وعلمه الواسع، لأن ذلك هو الذي يلامس العقيدة، ويعطي نموذج الوعي

1 سورة نوح : الآية 1 .

2 سورة البقرة : الآية 29 .

والإدراك لكل متعامل مع الوحي. وهذا ما نجده في سورة إبراهيم التي عرضت علينا موقف ومصير الأمم السابفة، دون أن تذكر أي مرحلة زمنية معينة. " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ١٠ "1. لقد توحد حوار الأقسام في خطاب واحد ومتشابه، وكذلك الشأن في حوار الأنبياء، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان والأقسام، لتنبثق الوحدة من هذه السورة في كل الجوانب والمشاهد، وحدة الدعوة ووحدة الجواب ووحدة الموقف والمصير .

يسوق " المنحى القصصي القرآني أحيانا القصة، وقد وحدت حديثها بين مجموعة من الفاعلين، فهم جميعا يواجهون في آن واحد، إشكالا شرکيا، ويحاجون بمنطق توحيدي واحد ، ويتعرضون لمدافعات واحدة. فالأدبية السردية في هذا المنزع القصصي القرآني تنمط الحديثة فتجعل الأبعاد فيها (الزمانية والمكانية) تتطابق، أو تتحد "2. فتنصهر تلك الأقسام في شخصية واحدة، ويتحد الأنبياء أيضا في شخصية نبي واحد. " ونبصر فنشهد أمة الرسل وأمة الجاهلية في صعيد واحد، على تباعد الزمان والمكان. فالزمان والمكان عرضان زائلان. أما الحقيقة الكبرى في هذا الكون - حقيقة الإيمان والكفر - فهي أضخم من عرضي الزمان والمكان "3. فقضية العقيدة هي القضية المحورية والأساسية، والخطاب القرآني يؤكد حقيقة التوحيد الأزلية لا إله إلا الله. " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٢٥ "4. إن عبادة الله وتوحيده نزلت مع آدم يوم هبط إلى الأرض، وقام هو بتوصيلها لذريته من بعده، ولم تكن أبدا اختراعاً أرضياً، أو تطوراً بعد مرحلة تعدد وشرك. بل عقيدة الشرك والوثنية هي التي كانت صناعة أرضية بشرية، بعد أن أزاع الشيطان الكثيرين من بني آدم عن الصراط المستقيم، وأغراهم باتباعه وعبادته، والكفر برب العالمين، والتكذيب بيوم الدين .

1 - سورة إبراهيم : الآيتان 9 ، 10 .

2 د . سليمان عشارتي : المرجع السابق . ص 89 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، ص 2079 .

4 سورة الأنبياء : الآية 25 .

إن الخطاب في سورة إبراهيم، قد كرس مبدأ التوحيد على كل المستويات، لتتبين لنا سنن الله الثابتة، والتي لن تتغير أبدا. مما جعل قصة العقيدة والبعث تتساوى فيها كل العناصر تحت وحدة الخطاب، لينتقل بعد ذلك إلى عالم الخلود، حيث تصبح وحدة الناس مجسدة " يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨ "1. ويصل المنكرون إلى اليقين بالبعث الذي طالما أنكروه في الدنيا وجادلوا رسلهم في حقيقته. فالقصة القرآنية لا تنتهي بانتهاء الزمن الدنيوي، وفناء الكون - المكان - بل يستمر الخطاب إلى المابعد، وتتأكد مرحلة اليقين لكل البشرية دون استثناء، وهم في صعيد واحد، وأمام إله واحد هو الله لا إله إلا هو. ينتقل الحوار بسرعة لا نكاد نشعر بها، بين الكفار أنفسهم - المستكبرين والضعفاء " وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرًا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ٢١ "2. في هذه اللحظة اليقينية يجمع الله تعالى كل الخلائق : من آدم إلى آخر خلق في صعيد واحد، وفي ساعة واحدة، ويوم واحد، ليقف الكل بأولهم وآخرهم، بمؤمنهم وكافرهم، أمام الله الواحد القهار.

فهنا " تتجمع الأجيال من لدن نوح، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان والمكان، وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهي واحدة ... وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة، وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي واحدة، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهي واحدة، وحقيقة العذاب الذي ينتظرهم هناك وهي واحدة "3. إن هذا الخطاب حين ينقل هذا المشهد الغيبي، الجامع لكل الخلق وفي زمن واحد، يستحيل أن يصدر عن مخلوق خاضع للزمكانية. بل يكون مصدره هو الله الخالق للمكان والزمان والبشر، خالق الموت والحياة، وهو بحق رب العالمين. تلك المشاهد الأخروية التي افتقدها الخطاب الكتابي، والتصق بجغرافية المكان كعهد أبدي وقعه الرب بينه، وبين شعبه المختار، مهملًا بقية الشعوب الأخرى، ومتناسيا الزمن الغيبي، وما يخبئه أمام تحقق النبوءات، فيحرف الخطاب ويُنقص منه ويُزاد عليه، حتى اختلط الإلهي بالبشري، وتجسد الإله وتشخص، فوُلد ومشى وجاع وأكل، ثم صُلب ومات، ليتوحد الناسوت باللاهوت. فالفرق شاسع

1- سورة إبراهيم : الآية 48 .

2 - سورة إبراهيم : الآية 21 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع . ص 2079 .

بين خطاب صاحبه خالق المكان والزمان والإنسان، وخطاب صاحبه خاضع للزمكانية، وهذا لا يُدرك إلا بعرض الخطابات ومقارنتها وإظهار الفروق والمميزات لكل منهما

إننا نجد خطاب العهد القديم، يتناسى بقية البشر، وينحصر في عقيدة قومية دينية ونزعة جنسية وعرقية خاصة، ومرحلة تاريخية ضيقة ومحدودة، تختص ببني إسرائيل. وهذا دون أن يتناول الخطاب الظاهرة الزمانية، كعملية تمارسها الإرادة الإلهية في الأرض، كما في السماء، وفي عالم الشهادة، كما في عالم الغيب، ومع البشر مفردهم وجميعهم دون استثناء ودون تمييز، ولن يكون خطاب بتلك المواصفات والمميزات خطابا مقدسا على الإطلاق. " الرب هو الله في اللغة العربية، عبده الناس قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بقرون طويلة، وهو ليس اسم علم مثل يهوه، فالله هو الرب "1. الله الذي أمر كل الناس بعبادته وحده سبحانه وتعالى هو القائل: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٢١ "2. فهو رب الناس ومعبودهم الواحد الأحد. " فالله في الإسلام كائن سرمدى منزه عن شوائب المادة، يدين المسلم بأنه هو رب العالمين أجمعين، وليس برب لهذه القبيلة أو تلك يختارها وتختاره لغير سبب بين الأمم كافة. وليس الإله كذلك ربا لطائفة من الناس، يرتبط خلاصها بحادث من حوادث التاريخ في بقعة من الأرض التي تبتعد أو تقترب فيما يلحق من الأزمنة "3. إن الله خلق الجميع بإرادته وعلمه ومشيتته من أصل واحد " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ١ "4. فميزة التفاعل التكميلي في تحليل الخطاب تفرض طابعها بين المخاطب في سموه وتعالیه، وبين تساوي كل المخاطبين عنده " إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝ ٩٢ "5. فهم متساوون جميعاً في وحدة الأصل والخلق والعبودية، أمام الرب الواحد الخالق والمعبود - سبحانه وتعالى عما يشركون - . وصفة سمو رب العالمين على العباد تبقى من بداية النص إلى آخره .

1 زيغريد هونكه : ليس كمثل شيء ، ترجمة محمد عوني عبد الرؤوف، المركز القومي للترجمة .، الطبعة الأولى 2010 . ص 75 .

2 سورة البقرة : الآية 21 .

3 العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، دار نهضة مصر للطباعة ، مصر 1999 . ص 71 .

4 سورة النساء : الآية 1 .

5 سورة الأنبياء : الآية 92 .

يقول تعالى: " وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ " ٢٣¹. أما الذين كفروا فمصيرهم الخلود في نار جهنم. فالخطاب في سورة إبراهيم أصبح شاملا للمرحلة الزمانية الفانية - الدنيوية - والمرحلة الخالدة - الأخروية - دون تفصيل لجزيئات الزمن. بل نجد أن المشاهد قد توحدت في الدنيا، كتوحد الخلق في الآخرة. فسورة إبراهيم تمثل قمة التوحيد وذروته بجميع مكوناتها، فعنوان السورة هو اسم لأبي الأنبياء، وإمام للناس، قاوم الشرك قولا وفعلا، وأسلم وجهه لله وحده لا شريك له. " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ " ١٣١². وقد وحدَ سياق السورة خطابَ الرسل لأقوامهم، كتوحدهم في الرسالة والعقيدة، وتوحد جمعُ كل الخلائق في يوم واحد أمام الرب الواحد، لتعلن الحقيقة الأزلية، وحدانية رب العالمين - لا إله إلا الله - .

يحصر المستشرقون المتعصبون والعلمانيون والحداثيون دراستهم للقصص القرآني في زاوية الأسطورة والخرافة والخيال، والادعاء على أن القرآن الكريم ناقل من تلك الأباطيل وهم مع ذلك لا يبذلون أي جهد بإجراء مقارنة جادة، بين الخطاب الأسطوري أو الكتابي للعهدين، وبين الخطاب القرآني " فكما أن طبيعة الخطاب القرآني تأتي بوصفها كلاما دالا على ذاته، تأتي أيضا كلاما دالا على مبدعه "³. وفي الخطاب القرآني أن كلمة الله " هي الكلمة المركز في النظام القرآني التي لا تفوقها كلمة أخرى في المكانة والأهمية "⁴. وهي الكلمة الأكثر تكررا من باقي كلمات القرآن. كما أن خطاب القرآن يجلى عظمة صاحبه في توظيف ضمير العظمة. انظر إلى " ضمير العظمة - نحن - في ابتداء هذه الآية - نحن نقص - تستشعر عظمة قائلها، وتعلم أن الذي يبتدئ القول بهذه العظمة من غير أن يذكر اسمه، هو العظيم الذي لا عظيم سواه. فقد محقت - نحن - هنا عظمة العظماء، فصاروا أمامها كالهباء. فلا يستطيع واحد أن يقول : نحن نقص - نحن نزلنا ، نحن أعلم - من غير أن يذكر اسما من أسمائه أو صفة من صفاته، إلا العظيم الحق "⁵. لذا قد اتضحت في سياق الخطاب معالم صفات السارد المتعالى والعليم المطلق، لتتأكد مصدرية

1 - سورة إبراهيم : الآية 23 .

2 سورة البقرة : الآية 131 .

3 د . لطفي فكري محمد الجودي : المرجع السابق . ص 96 .

4 توشيكو إيز وتسو : الله والإنسان في القرآن ، ترجمة هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 2007 بيروت . ص 157 .

5 الشيخ خليل سليمان : الفروقات بين التوراة والقرآن ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى بيروت 1999 . ص 14 .

الخطاب، ويُزرع كل شك من ذهن المتلقي، ويضع بين يديه الفرق بين - نحن نقص - ، وبين - كان ذات يوم ، أو في البدء - .

لقد أخبر موسى - عليه السلام - بني إسرائيل بما قاله له الرب حسب العهد القديم " قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به "1. وقد جاء أيضا " ولم يظهر بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى الذي خاطبه الرب وجها لوجه * وأقامه ليجري جميع الآيات والمعجزات في ديار مصر على فرعون وعلى جميع عبيده "2. لقد طال انتظار بني إسرائيل لتحقيق هذه النبوءة، واعتبر النصارى أنها تنطبق على المسيح، وهم متناقضون في ذلك، بحكم اعتقادهم بالوهية المسيح وبأنه ليس نبيا رسولا. إن الخطاب بهذه النبوءة جعل الأحداث التي ستأتي كلها على محك زمن المستقبل (الغيب)، فتنحى بظهور نبي يتقاسم نقاطا مشتركة مع موسى - عليهما الصلاة والسلام. إن " القرآن الكريم هو في الحقيقة إنجاز لنبوءة موسى - عليه السلام - واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، لأنه الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وضع جبريل الملاك - عليه السلام - القرآن الكريم في فمه باللفظ والمعنى "3. وهكذا يتضح تحقيق النبوءة بالنبي المبشر به الذي سيتكلم باسم الله، وتكون القراءة باسم الله أيضا، بداية من إقرأ باسم ربك .

كما أن التقاطع الزماني الذي ذكرناه، يدل على أن " اليهود كانوا ينتظرون إنجاز تحقيق النبوءات الثلاث : واحدة بشأن مجيء المسيح، والثانية بشأن مجيء إيليا، والثالثة بشأن مجيء ذلك النبي "4. وحقا أن الزمن قد عرى تناقض خطاب الكتاب المقدس مع الواقع. إن " ما نقوله هو ما جاء في سفر التثنية - أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك - لا يشير إطلاقا إلى يسوع المسيح - عليه السلام - ولكنها نبوءة صريحة وواضحة عن النبي محمد رسول الله، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم "5. حيث انتظر اليهود كثيرا حتى يئسوا وملوا قائلين في هذيان : " انتبه لم تنام يا رب استيقظ من رقدتك ؟ وهؤلاء - اليهود - إنما نطقوا بهذه الهذيان والكفريات، من شدة

1 العهد القديم : سفر التثنية ، الإصحاح الثامن عشر ، الفقرة 15 .

2 المرجع نفسه : الإصحاح الرابع والثلاثون ، الفقرتان 10 ، 11 .

3 أحمد ديدات : ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم . ص 39 .

4 . المرجع نفسه ص 49 .

5 . المرجع نفسه . ص 49 .

الضجر من الذل والعبودية والصغار، وانتظار فرج يزداد منهم إلا بعدا¹. لكن تعامل الخطاب القرآني مع الزمن بتلك الكيفية التي جاءت في قصص آدم والطوفان، وموسى وإبراهيم، وفي النبوة والغيب، تثبت بأنه من عند الله العليم الحكيم، ولا تنقض صدقيته أحداث المستقبل والغيب أبدا " فالزمن القرآني إذن زمن بدئي، فواقعة الخلق تتحدد به وتتشكل ضمنه، وهو صيروري تتبلور في إطاره أطوار الخلائق والكون، وهو ميتافيزيقي تخرج معيارته من نطاق الإدراك البشري، حين تغدو الزمنية مظهرا تجسيدا لخرافة الخلق الإلهي وتجلياتها المعجزة، وهو تاريخي وضعي يلبس الحياة ويتكيف معها². وهو أيضا فعل إعجازي غيبي لا يقدر على تحقيقه وتوظيفه، إلا الذي خلقه سبحانه وتعالى .

يقول تعالى: " فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيْمَا وَفُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۙ ۱۰۳ " ³. ويقول أيضا: " فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامَ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۙ ٩٧ " ⁴ حيث يلبي حجاج بيت الله النداء، معلنين وحدانية الله تعالى " ذَلِكَ ۖ وَمَنْ يُعْظَمِ شَعْرًا ۖ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ۚ ٣٢ " ⁵. فصلاة المسلمين وحجهم عبادتان زمانيتان مكانيتان مشهودتان، يستحيل أن ينكرهما أي مكذب أو جاحد. والحج إلى بيت الله الحرام " هو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة، كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة⁶. إن العهد الأبدي الذي يجب أن تبقى عليه ذرية إبراهيم - عليه السلام - من بعده، هو تمسكها بعقيدة التوحيد، وعبادة الله وحده " رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۙ ١٢٨ " ⁷. لقد أصبحت أمة التوحيد تلتقي في بيت الله، والذي منه رفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - ثم كان تطهيره من رجس الأوثان أثناء الفتح العظيم، بقيادة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مشهدا زمانيا وتاريخيا عظيما، زرع كل العقائد الباطلة، وعرى كل الخرافات التي أُلصقت بالدين الحق، وأعادته إلى منبعه الصافي. يقول مارسيا إلياد: " فإن رسالة محمد كما صيغت

1 السموعل بن يحيى: بذل المجهود في إفحام اليهود، مطبعة الفجالة الجديدة، مصر، (ب ت). ص 40.

2 د. سليمان عشارتي: المرجع السابق. ص 97.

3 سورة النساء: الآية 103.

4 سورة آل عمران: 97.

5-سورة الحج: الآية 32.

6 سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع، الجزء السابع عشر. ص 2418، 2419.

7 سورة البقرة: الآية 128.

في القرآن، تمثل التعبير الأكثر نقاء للتوحيد المطلق¹. وهذا بعد تخطب البشرية قرونا بين الكفر والشرك والضلال قبل زمن إقرأ، وظهور نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم .

وكما كسر خليل الرحمن - عليه السلام - أصنام قومه، كذلك قام محمد صلى الله عليه وسلم بتحطيم الأوثان داخل الحرم أثناء الفتح، مصداقا لقوله تعالى: " وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١ "2. لقد صدق الواقع والزمن الخطاب القرآني، كما صدق القرآن الكريم نبوءة موسى وعيسى - عليهما السلام - " إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَأْمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ٦٨ "3. فلا زال البيت - المكان المقدس - قائما، ولا زال القرآن الكريم - الخطاب المقدس - يحمل آذان إبراهيم للناس بالحج، كما لازالت كلمات آذان الصلاة مرردة ومتواصلة ، دون انقطاع عبر امتداد الزمن وسعة المكان. وبهذا كله تحقق دعاء إبراهيم - عليه السلام - بعد قرون من الزمن: " رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩ "4. وحتى لو حرف أهل الكتاب خبر النبوءة الصادق، أو تنكروا لرسالة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم . بل حتى ولو اجتمعوا واجتهدوا على الادعاء بأن وحي الله، ما هو إلا أساطير الأولين، فلن يقدرُوا أن يقولوا أن مشهد حج المسلمين بيت الله الحرام، وطوافهم به وصلاتهم فيه، هو عملية أسطورية. إن عملية الحج لبيت الله، هي مشهد حقيقي يزيل كل شك وإنكار، ويفضح ادعاء كل مكذب وملحد ومشرك ومعاند. إنها الحقيقة التي تجلت وتجلت عبر كل مراحل التاريخ منذ عهد إبراهيم، بالمكان والزمان المشهودين .

يقول تعالى في سورة الفتح: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ٢٨ "5. وشهادة الله أحق الشهادات وأعدلها، وصدق الزمن النبوءة والكتاب، ليكذب قصة وراثته العهد لبني الحرة دون أبناء الجارية " أطرده هذه الجارية وابنها فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق "6. فالقرار العنصري الأرضي نتيجة غيرة نسوية، لا يمثل أبدا عقيدة صحيحة، وعالمية لكل الناس، بقدر ما هو نزعة عنصرية استعلائية على عباد الله المتساوين في

1 مرسيا إلياد : تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، الجزء الثالث. ص 88 .

2 سورة الإسراء : الآية 81 .

3 - سورة آل عمران : الآية 68 .

4 سورة البقرة : الآية 129 .

5 سورة الفتح : الآية 28 .

6 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الواحد والعشرون ، الفقرة 10 .

الخلق والإنسانية. وسيبقى غير نسوية لا أكثر ولا أقل، جسدها خطاب العهد القديم في صورة إله شخصي متجسد ومتحزب، منحاز وخاضع لهوى شعبه المختار. لكن الدين الحق أسقط كل خطاب للعقيدة العنصرية، والتفرقة الجنسية وكذبه وأنكره. وأن مشيئة الله تعالى هي التي حققت وعده، ونفذت أمره، وأظهرت دينه، وبعثت رسوله المختار. فدراسة إشكالية الزمن في القصص القرآني، لا بد أن تتجه في هذا المنحى، حيث كانت " الديانات السماوية تنظر دائما إلى الزمن على أنه المجال الحسي الذي تتجسد فيه قدرة الله، ومشيئته في الكون، بمشمولاته المدركة والمغيبية. ولعل القرآن يكون قد أثار موضوع الزمانية في أوائل ما نزل منه من السور "1. وظاهرة نزول القرآن وحيا تثير السؤال المحير : كيف استطاع النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أن يتلو الوحي أمام صحابته فيدونونه في لمح البصر، ويحفظونه عن ظهر قلب، وأن تمتد تلاوته وحفظه على مدار الزمن، وأن ينشر على أوسع نطاق، فتلتقي على قراءته والتعبد بتلاوته مختلف الجنسيات والقوميات، والمستويات والأعمار والطبقات، على امتداد الزمن وتعاقب الأجيال ؟ .

إن " في الثلاثة والعشرين سنة من حياته النبوية نزل جبريل - عليه السلام - بالقرآن الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين. أليس هذا تصديق لنبوة موسى عليه السلام ؟ "2 وما هي هذه النبوءة ؟ والجواب هو : " واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. لقد كان لنزول الوحي أثر في الفؤاد والعقل لا يمحي، ولا يزول، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الأوفياء أن يكتبوا عنه القرآن الكريم فور نزوله منجما، فضلا عن حفظه في الصدور واستظهاره "3. فأني نص قديم أو حديث، يكون له هذا الشأن، في هذا العصر كشأن النص القرآني ؟ فالدراسة العلمية والإحصاء الدقيق، هما الكفيلان بالجواب الصحيح على هذا السؤال . إن النص القرآني وسياق خطابه، تحدٍ معجز لزمان النص. إن " القرآن معجزة باقية على امتداد العصور، وأثره النفسي والاجتماعي عميق "4. حيث أحدث تغييرا جذريا في البيئة التي نزل بها، وما لبث أثره يتسع، رغم ما جوبه به من صراعات عديدة، فانهزمت كلها زمانيا أمام تحقق نبوءات موسى وعيسى - عليهما السلام - وأمام علم غيب الله العليم، وقوله المعجز .

1 د . سليمان عشراي : المرجع السابق . ص 96 .

2 أحمد ديدات : المرجع السابق . ص 38 .

3 المرجع نفسه . ص 38 ، 39 .

4 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 308 .

لهذا كان كل شيء في الكتاب مسطوراً. لقد تحقق أغلب ما سُطر في اللوح المحفوظ، ولا زال يتحقق حتى قيام الساعة، فتحققت نبوءاته التي كذبت كل من ادعى عكس ذلك، وليس أكثر صدقا من عظمة هذا الوحي، أن بقيت معجزاته تتحقق على مدار الزمن والتاريخ، لتخلد كحقائق مشهودة زمانا ومكانا وأحداثا، عكس ما تناولته قصص العهد القديم، ونصوص الأساطير التي تجاوزها الزمن، وكذبها الواقع والعلم، وهجرها المتدينون قبل القراء .

جاء في سورة الفتح " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَّرَعٍ أُخْرِجَ شَطْهُ فَازْرَهُ فَاسْتَعْظَمَ فَأَسْوَى عَلَى سَوْقَةٍ يُعَجِبُ الزَّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَّعْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢٩ "1. فما محمد إلا رسول الله، أما صفات صحابته فقد رُسمت في التوراة والإنجيل، قبل المجيء الزمني للصحابة، وهما كتابان لا علاقة للعرب الأميين بهما. ليتحدى الخطاب القرآني أهل الكتاب حتى في بيئتهم الدينية، وتراثهم العقدي، ويؤكد الوحي على أن صفات صحابته صلى الله عليه وسلم موجودة ومدونة في كتابي اليهود والنصارى - التوراة والإنجيل - اللذين سبقا زمن نزول القرآن بقرون عدة. ومرة أخرى يضعنا الخطاب القرآني أمام إشكالية زمانية أعلنها بكل تحد وإعجاز. إنها إشكالية زمانية غيبية خطيرة، تجعل تعامله مع الزمن تعاملًا إعجازيًا. ومرة أخرى يستفز الخطاب أهل الكتاب بما في أيديهم، ليدلل على صفة الصحابة التي احتوتها نصوصهم التي يقدسونها " وسيف ذو حدين في يدهم ليضعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب لأسر ملوكهم بقيود... ليجروا بهم الحكم المكتوب كرامة هذا لجميع أتقيائه "2. وجاء في رسالة يهوذا " هو ذا جاء الرب في ربوات قديسية ليضع دينونة على الجميع * ويعاقب جميع فجارهم على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بها وعلى جميع الكلمات الصعبة التي تكلم بها عليه خطاة فجار "3. فالخطاب الكتابي هذا يحمل دلالة زمانية مستقبلية تكون قاسية على الكافرين والفجرة والخطاة .

كما يهدد هذا الخطاب الكتابي عرش الملوك والأمم الظالمة الكافرة. لكن من هم هؤلاء الذين يمثلون صفة القوة والسيف؟ لم يسجل لنا التاريخ أن اليهود قاموا بتأديب الشعوب الكافرة،

1 سورة الفتح : الآية 29 .

2 العهد القديم : المزامير ، الإصحاح 149 ، الفقرة 95 .

3 العهد القديم : رسالة يهوذا ، الإصحاح الأول ، الفقرتان 14 ، 15 .

أو هزوا عروش الملوك. أما النصارى فلم يكن المسيح حامل سيف، ولم يكن الحواريون رجالاً محاربين، بل كانت صورتهم في العهد الجديد تنتعهم بالخراف، ويبقى التساؤل الملح لمن هذه الصورة؟. فبنو إسرائيل قد أبعدوا من هذه الدائرة الزمانية والتاريخية، وكذلك النصارى، مما جعل " راصدي الحضارة يعجزون حتى يوم الناس هذا عن تفسير هذا التحرك الإسلامي الهائل ... ويعجزون أيضاً عن العثور على إجابة للسؤال القائل : كيف استطاع محمد صلى الله عليه وسلم في ثمانية أعوام أن يفتح مليون كيلومتر مربع؟ "1. فهذا هو التحدي المعجز الذي ظهر فيه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بعد فتح مكة، فاتحين العالم، وبسط سلطة النص، مع سقوط الإمبراطوريات، ودك عرش ملوكها. وهذا ما صدقه الواقع، وسجله التاريخ، وشهد به المؤرخون. لكنهم لم يصلوا إلى سر صدق نبوءة الخطاب القرآني، بل تنكروا لمصدر الوحي، ورموه بكل الاتهامات، وكل هذا سوى لنزع صفة الخطاب الإلهي عن الوحي، ونزع النبوة عن محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا فالمستشرقون والعلمانيون لم يفهموا لحد الآن، ما البعد الدلالي للخطاب في سورة التوبة؟ وما حقيقة قصة الفتح؟. والعجيب من هذا كله، لم يسألوا أنفسهم: كيف تحول هذا الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من أقلية مضطهدة، إلى آلاف الأشداء على الكافرين؟. فالزمن هو الذي يجيب على هذه النبوءة. فكان لفعل إقرأ الأثر الأكثر فجائية وحيرة بالنسبة للباحثين والمؤرخين، الذين لم يستطيعوا أن يستوعبوا هذه الظاهرة المعجزة، وتقاطعها مع نبوءات العهد القديم والجديد. ونجد خط الخطاب القرآني بقي ملازماً مبدأ الحق عبر الامتداد الزمني. " إن بعض الناس جاء إلى الوحي النازل، وشرع يتعسف في تفسيره، فهو يقسم الجملة إلى قسمين يأخذ بأولها، وينسى آخرها، مثل قوله: بأن السورة شنت حرباً هجومية على الكفار جميعاً، مستندلاً بقوله تعالى - قاتلوا المشركين كافة - وناسياً بقيتها - كما يقاتلونكم كافة "2. ولم يكلف هؤلاء أنفسهم ليجيبوا على السؤال: كيف تحول صحابة محمد صلى الله عليه وسلم فجأة إلى مقاتلين أشداء هزموا قريش المشركة، وطرادوا اليهود المنافقين، وقارعوا الإمبراطوريتين الرومانية النصرانية، والفارسية المجوسية فهزموهما معا؟. لأنهم تناسوا مباركة الرب لإسماعيل منذ عهد التوراة " وأما إسماعيل

1 المؤسسة العامة للإدارات والبحوث العلمية: مناظرة بين الإسلام والنصرانية. ص 286 .
2 الشيخ محمد الغزالي: المرجع السابق. ص 141 .

فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا "1. وتناسوا أيضا النبوءة القائلة " وسوف أزلزل كل الأمم وسوف يأتي (حمده) لكل الأمم... وأن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول هكذا قال رب الجموع "2. يتابع عبد الأحد داود* فيقول: " وقد ترجمت هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الكتاب المقدس التي كانت تحت تصرفي باللغة المحلية "3. والنص كما نقله الكاتب مع ترجمته، فيقول: " (في يافو حمده كول ها جوييم) مما يعني حرفيا : سوف يأتي حمده لكل الأمم "4. وتناسوا أيضا " وحي من جهة بلاد العرب يا سكان الأرض "5. فظهور الوحي في بلاد العرب، وبروز نجم العرب وزلزلة الأمم لم يكن إلا بظهور بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

يبقى الجانب الثاني لصفة الصحابة، أثناء مشهد الصلاة والسجود - تراهم ركعا سجدا " وصفة صلاة المسلمين مميزة، فهم يصلون صفوفًا جنبًا إلى جنب، والكثف بالكثف. " ليدعوا كلهم باسم الرب ليعبدوه بكثف "6. ولقد بقيت الصلاة مشهداً متكرراً، وخاصة حين تقام بالبيت الحرام. " لأن بيتي سيدعى بيت الصلاة لجميع الأمم "7. قد كشف الخطاب الكتابي عن هذه العبادة قبل زمن حدوثها، وظهور الصحابة. وبالتالي يمكن لنا أن نستوعب هذه الزمانية والإعجاز، حين نعرض النصوص المقدسة للمساءلة والمقارنة والتحليل، ونعرضها على الزمن والتاريخ والواقع، والحقيقة والنبوءات، لنرى في أي خطاب تحققت هذه النبوءة، وفي أي مكان تجسدت نبوءة مشهد المصلين في صفوف بالكثف، وهم يقومون كذلك في صف بجهاد الكفار ومقاتلتهم. فحين يلامس الخطاب الزمن في القصص القرآني، يجعل منه ظاهرة إعجازية تجسد بعدا عقديا و تاريخيا. فالإشكالية التي تطرح على مستوى الخطاب القرآني ضمن القصص، هي أن الخطاب قد وجد قبل أحداث القصص، والتي تحققت على أرض الواقع والتاريخ. إذ كيف يمكن أن تتم تلك العملية

1 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح السابع عشر ، الفقرة 20 .

2 عبد الأحد داود : محمدصلى الله عليه وسلم كما في كتاب اليهود، ترجمة محمد فاروق، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 1997 الرياض . ص 36 ، 37 .

3

* كان اسمه دافيد بنجامين كلداني ، استاذ اللاهوت ويعرف اللغات السامية والأوروبية ، ولد بإيران عام 1867 ، وبعد مراجعته للكتب المقدسة ومناظرته مع جمال الدين الأفغاني اعتنق الإسلام وسمي بعبد الأحد داود .

3 عبد الأحد داود : المرجع نفسه . ص 37 . .

4. المرجع نفسه . ص 37 .

5 العهد القديم : سفر أشعيا ، الإصحاح الواحد والعشرون ، الفقرة 13 .

6 المرجع نفسه ، الإصحاح الثالث ، الفقرة 8 .

7 المرجع نفسه ، الإصحاح السادس والخمسون ، الفقرة 7 .

التي يستحيل حدوثها في أي سرد على الإطلاق؟. فلا يتحقق ذلك إلا في النص القرآني الذي مصدره الخالق العليم .

فلا بد أن يحتوي الخطاب القرآني دلالات زمانية تجلي صفة الخالقية لصاحبه، فالبداية في فاتحة الكتاب " أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ "1. هي حديث عن الذات العليا، عن رب العالمين، وهو مالك يوم الدين، الذي يكون فيه الأمر له وحده، ولن يستطيع أي خطاب أن يتخطى زمانية الخطاب القرآني ونبوءته. ومن هنا نستطيع أن نصل إلى لب الإشكالية التي جعلت الكثير من المتعصبين يتجاوزون الحقائق التاريخية، التي حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فراحوا يبرزون قوته صلى الله عليه وسلم وبطشه، ليبرروا ما تم من فتوحات وانتصارات. وهذا شبيه بما أنسبوه له صلى الله عليه وسلم من قوة إبداع أدبي في تأليف النص القرآني على حد زعمهم. وهكذا ينحرف بحثهم عن مساره الحقيقي العلمي والموضوعي، أمام الحجج المقنعة، والحدث التاريخي البارز، الذي تم زمن - إقرأ - منطلقاً من بيئة صحراوية محدودة، كانت مهملة ومنسية، لتتحول فجأة مكاناً كونياً مركزياً - بيت الصلاة لجميع الأمم - إنها حقا الظاهرة الزمكانية التي ينبغي أن تؤسس لكلام الله ووحيه، والذي لم يهمل أبدا قصة بيت الله - المكان المركز المقدس - الذي بقي إلى الآن، وسيبقى إلى أن يشاء الله رب المكان والزمان .

لقد تعامل الخطاب القرآني مع الزمن، وفق تلك المستويات التي يستلزم علينا أن نعيها ونتدبرها. فعبر " الخطاب القرآني عن العالم الغيبي بالحسي، وعرض مشاهد اللامرئي بصورة المرئي، فيه أبعاد المكان والزمان، بمعانيها الموضوعية القريبة من الإدراك الإنساني "2، فحقيقة بيت الله كانت غيباً، في علم الله الواسع، وأرادت مشيئته أن تتحقق في الزمن الذي أراده هو وحده. ولن يستطيع أي بشر منع تحقيق تلك النبوءة أو تأخيرها، حتى وإن أخفيت النصوص أو حُرِّفت. فالواقع سيثبتها، وستجلى طلاقة القدرة الإلهية في صدق النبوءة بتحققها مصداقاً لما جاء به وحي الله، لا كما أراد أهل الكتاب، والمشركون والمكذبون. فإن "

موسى حق، وعيسى حق، لكن أين ما نزل عليهم، وأمروا بتبليغه؟ لقد ألف القوم أحاديث من عند أنفسهم ونسبوها إلى الله ... إن أهل الكتاب يتدارسون أقاويل من عند أنفسهم، ثم يزعمون أنها

1 - سورة الفاتحة : الآيات 2، 3، 4 .

2 - د . سليمان عشراطي : المرجع السابق . ص 153 .

وحي من السماء¹. لقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله: "قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ٤٩². إن التحدي لا يكون إلا بمقارنة النصوص الكتابية بالنص القرآني، حينها فقط، تستوعب ظاهرة تنزيل الوحي، وحقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم

إن تحليل الخطاب القرآني، حين يتوقف عند باب الدراسات النقدية للزمن والنظريات المستخلصة من منظومات السرد، ففي اعتقادنا أنه لا فائدة مرجوة من ذلك، لأنه من غير الممكن إخضاع النص القرآني لتنظير النقد الأدبي. وبناء على هذا الأساس يمكن للتفسير الزماني للخطاب القرآني، أن يجلي لنا الجوانب الخفية لإشكالية الزمانية في القصص. لذلك حاولنا دائما القول: بأن سير خط القصص القرآني يخضع لقواعد ثابتة لا تتغير بضرورة الزمن. وكما حمل القرآن قواعد تشريعية ثابتة، وقوانين كونية أيضا ثابتة، فكذلك يكون قد حمل ثوابت لأدبية خطابه. فالخطاب القرآني يدل على صاحبه العليم، الذي أوجد تلك القواعد والقوانين بعلمه وحكمته. أما النقد الأدبي فهو عاجز على فك الإعجاز، ولا يعقل أبدا، أن يرتبط الخطاب الإلهي بالسيرورة الزمنية المبتدئة والمنتهية، لأنه يمثل حياة الإنسانية ومصير الوجود، فهو لا يرتبط بزمن مؤقت معين، ولا برقعة جغرافية معينة محدودة، ولا بجنس خاص، ولا بإله خاضع للزمكانية، ولا بإله قومي متجسد في بشر مخلوق، يخضع لقواعد الميلاد والمات. فالخطاب القرآني بزمانيته وقصصه، يسمو عن كل خطاب يحصر رب الوجود والكون في تلك الصفات البشرية المحدودة، داخل لحظات الزمن المنتهية، وعبر المساحات المكانية المحدودة، والتشكيلات المتجسدة والمتغيرة، والأفانيم المتعددة. فكيف يكون كذلك، وهو رب العالمين؟ .

فخطاب العهد القديم لم يعد مستمرا عبر الامتداد الزمني، بل هجره المتدينون، وكفر به العلماء والمفكرون، وقلت مقروئية نصوصه، في انخفاض متزايد. لأن فعل الزمن يعمل عمله على النص والخطاب. ولهذا أشار الله تعالى إلى ميزة كلامه، في قوله تعالى: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" ١٠٩³. فهذا "ضرب من تعذر

¹ الشيخ محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن. ص 209.

² سورة القصص: الآية 49.

³ سورة الكهف: الآية 109.

القياس بين المداد ذي الكمية الهائلة، بل اللامتناهية من وجهة نظر الإنسان، وبين كلمات الله. ولانهاية هذه الأقلام، وهذا المداد تصبح كمية متناهية أمام لانهاية الكلمات الإلهية¹. إن الأزلية واللانهاية لكلمات الله تعالى تؤكدان على الميزة المتفردة للخطاب القرآني " كان سهل بن عبد الله - رضي الله عنه - يقول : لو أعطي العبد بكل حرف من حروف القرآن لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذا لا نهاية لفهم كلامه². فروح التولد مستمرة في كلمات الله المثبتة. " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمُنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢³. فالقرآن الكريم حين يلامس الشيء يبيث فيه الحياة، ويُجري فيه الحركة، ويجعل المتلقي المتدبر يقف مشدوها أمام حقيقة الفرق بين الخالد والفاني، والإلهي والبشري، والزمني واللازمي .

إن حقائق الخطاب المقدس لا يستطيع عامل الزمان والتاريخ أن يؤثر فيها، أو يزيل أمرًا منها، إلا إذا كانت عكس ذلك تمامًا. ينظر " محلل الخطاب في الشروط التي تجعل الخطاب ذا حجية، أي : الإبانة عن السياق الذي يجعل الخطاب مشروعًا فعليًا⁴. لكن الخطاب الكتابي سيبقى مسألة عويصة على الفهم، ولن يحلها أي مُنظر لتحليل الخطاب، لأن زمانية الكلمة سبقت زمن وجود المتكلم، والحقيقة يستحيل أن يسبق الوجود، ربّ الوجود. لكن بداية الخطاب القرآني ب - الحمد لله رب العالمين - هي التي تكشف عن الفرق بين افتتاحية الخطاب الإلهي، وافتتاحية خطاب موسى ويوحنا، أو عيسى ومحمد عليهما - الصلاة والسلام - أو أي بشر آخر. فلا زالت الظاهرة الزمانية تؤكد قدسية الخطاب أو تفضحها. ومن ارتباط الخطاب بالزمن إلى البحث عن ارتباطه بالتاريخ، والذي نراه أعقد إشكالية، لأنها تتطلب تخصصات عديدة، وموسوعية معرفية متنوعة تتجاوز ميدان النقد الأدبي .

¹ جاك لانغاد : من القرآن إلى الفلسفة ، ترجمة وجيه أسعر ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 2000 . ص 54 .

² الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، دار الحديث ، القاهرة 2006 . ص 18 .

³ سورة الشورى : الآية 52 .

⁴ دومينيك ماتغوز : المرجع السابق . ص 13

ب - الخطاب القرآني والتاريخ :

لم يسجل الخطاب القرآني تفاصيل تاريخ الأحداث، خلافا لما جاء في أسفار العهد القديم والجديد " وفرق جوهرى آخر بين جميع روايات القرآن والسرد في الكتاب المقدس، هو أن هذا الأخير غالبا ما يقدم في إطار تاريخي. في حين أن روايات القرآن تتحدى كل محاولة لوضعها في مثل هذا الإطار، ما لم يتم الرجوع إلى مصادر خارجية "1 أو كما هو معهود في السرد التاريخي. " فالخطاب التاريخي تمثيل أثير لقدرة الإنسان على ضخ المعنى في تجربة الزمن، لأن المرجع المباشر لهذا الخطاب هو الأحداث الواقعية، لا الأحداث المتخيلة. يمكن للروائي أن يبتكر الأحداث التي تنطوي عليها قصصه، بمعنى أنه ينتجها خياليا استجابة لمقتضيات بناء الحكمة، أو تفكيك الحكمة. أما المؤرخ فلا يستطيع بهذا المعنى ابتكار أحداث قصصه، بل يجب عليه - بمعنى الكلمة التقليدي الآخر للابتكار - أن يعثر عليها أو يكتشفها "2. ولهذا فالأديب مبدع مبتكر، والخيال من أدوات الإبداع، أما المؤرخ فباحث ومحقق، والحقيقة والواقع من أدوات البحث، ولهذا يتطلب من المؤرخ البحث عن الوقائع والأحداث، وأن يبذل جهدا لا مكان فيه للخيال .

إن " التاريخ عندما يحكي بشكل غير صحيح، يصبح رواية تاريخية، وهذا ما يقبله الكل. لكن التاريخ هنا لا يخضع للقواعد المتعارف عليها، والتي تتبع من مفاهيمنا. إن المعلق على التوراة يرفض أي فحص قد تقوم به علوم البيولوجيا والإحاثة والمعطيات الخاصة، بما قبل التاريخ على روايات التوراة "3. فنص العهد القديم لا يقدر على الصمود أمام البحوث التاريخية، وخاصة في عرضه لتفاصيل أحداث مسجلة بالتاريخ، ومفصلة بالزمن. وقد يجد إحراجا كبيرا حين مقارنتها مع الواقع التاريخي الصحيح، وهذا ما جعل نصوصه عرضة للنقد والتناقض والشك والاختلاف. " تختلف القصص التاريخية عن القصص الخيالية بكونها تشير إلى وقائع حقيقية، لا إلى وقائع متخيلة. لكن القصص التاريخية الحقيقية لم تكن لتختلف عن الوقائع التاريخية من حيث ملامحها الشكلية، لأن التاريخ نفسه كان كتلة من القصص المعيشية التي لا تنتظر سوى المؤرخ

1 جيفري لانغ : حتى الملائكة تسأل . ص 38 .

2 هيدن وايت : الزمن والرمز في فلسفة التاريخ عند ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي، الطبعة الأولى 1999، المغرب. ص 192

3 موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 49 .

الذي يحولها إلى نظائر بشرية "1. وبالتالي فالوقائع التاريخية الحقيقية هي التي يمكن لها، أن تكشف صدقية أي خطاب مقدس لامس الزمن الغيبي، وإلا تجاوزه الزمن وتجلت التناقضات التي تبعده عن المصدر الذي يعلم الغيب، وحصرته في لحظة زمنية محدودة وضيقة، غالباً ما يكون موسوماً بالتناقض. " ثابت في حيز القصة الفنية، ويفرض على الروائي أن يبرز بعناية فنية الفترات والمقاسم الزمنية التي تستعرض أحداثاً هامة "2. فالطابع الزمني هو الذي يدمج الخطاب بصفة صاحبه .

إن " القصة القرآنية خالية تماماً من أي إشارات تاريخية بحيث لا يكون من الواضح دوماً إن كانت رواية ما يقصد بها، أن تؤخذ على أنها تاريخ أو حكاية رمزية، ذات مغزى أخلاقي، أو أنها مجاز "3. ولكن هذا الحكم ليس عاماً، فقصص الأمم الماضية التي سردها القرآن الكريم هي تاريخ تشترك فيه الإنسانية، إلا أنها لا تؤخذ بالمقام الأول كتاريخ منفصل عن الوجود والعقيدة والإنسان وسنن الكون. ولهذا " يكون القرآن منفرداً في التاريخ، بأنه منذ أنزل لا يبرح في كل عصر يظهر من ناحيتين صادقتين: ناحية الماضي، وناحية الحاضر "4. إن " المحور الذي تدور حوله سورة الأعراف هو عقيدة التوحيد عبر رحلة البشرية، منذ وجودها الأول ومسيرها الطويل، إلى نهاية دعوتها ورجوعها إلى الدار الآخرة "5. إلا أننا نجد السورة التفتت إلى مصير الأقبام المكذبين، دون تفصيل مراحل التاريخ، وهنا نقطة الاختلاف بين السرد التاريخي، والقصص القرآني. كما " يشير القرآن إشارات محددة إلى عدد من الأحداث التاريخية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ومعاصريه، ولكنه لا يحدد التواريخ، ولا يشير أي إشارة محددة إلى الوقت الذي وقعت فيه "6. وهذا ما يجعلنا دائماً نتجه إلى البحث في المصادر التاريخية الصحيحة " إن روايات القرآن تتحدى كل محاولة لوضعها في هذا الإطار، ما لم يتم الرجوع إلى مصادر خارجية، وبمعنى آخر إذا اقتصر اعتمادنا على القرآن لفهم هذه الروايات، فإنه يستحيل

1 هيدن وايت : المرجع السابق . ص 186 .

2 د . خالد أحمد أبو حمدي : المرجع السابق . ص 219 .

3 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 38 .

4 مصطفى الرفاعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . ص 12

5 التفسير الموضوعي ، الجزء الثالث . ص 4 .

6 موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة نخبة من الأساتذة ، مركز الشارقة للإبداع ، الطبعة الأولى 1998 . ص 8206 .

أن نكون قادرين على وضعها في التاريخ "1. وهذا ما يستدعي الموسوعة المعرفية لاستيعاب القصص التاريخي للقرآن الكريم .

ففي سورة الروم، لم يلتفت القرآن الكريم إلى التاريخ، بقدر ما التفت إلى التنبأ بانتصار الروم مستقبلا. وقد أشرنا في الفصل الأول لعدم استيعاب بعض الدارسين المجال الغيبي في قصة الروم، الذي تناولته السورة. هذا هو منهج الوحي في عرضه للأحداث التاريخية، سواء الماضية منها أو المستقبلية. وهذا ما يورق كثيرا الدارسين للقصص القرآني، حيث تكتنفهم الحيرة في تموقع السرد القرآني، بين ما هو قصصي أو تاريخي. غير أن " التاريخ والأدب يتحدثان بطريقة غير مباشرة عن التجارب المنفلتة للزمانية من خلال وبواسطة دوال، تنتمي إلى أنظمة وجود مختلفة، وتكشف عن أحداث واقعية من جهة، وأحداث متخيلة من جهة أخرى "2. فالقرآن الكريم انفرد بخطابه، ليس على السرد القصصي والتاريخي فحسب، بل حتى على الكتب الدينية، ومنها أسفار أهل الكتاب. وعلى الرغم من ذلك، كان الادعاء أن القصص القرآني منقول عن العهد القديم والجديد، وهذه مغالطة كبيرة تتضح معالمها بمجرد المقارنة بين قصص القرآن، وقصص العهد القديم والجديد .

إن " مهمة التحليل التاريخي لا تتركز في الكشف عن المؤثرات التي أتت من مصدر موثوق وصحيح وهو التوراة، وبالتالي إدانة الأخطاء والتشويهات والإلغاءات التي يمكن أن توجد في النسخة القرآنية، بالقياس إلى النسخة التوراتية "3. والحقيقة أن حتى في الدراسة الأدبية المقارنة، فإنه يستوجب على الباحث المقارنة بين النصين، قبل أن يصدر أحكاما مسبقة لكن حقيقة الأمر أن عقيدة التوحيد وتنزيه الله الخالق التي جاء بها القرآن الكريم، تخالف مخالفة تامة عما جاءت به أسفار العهد القديم من تجسيد، وما جاءت به إصحاحات العهد الجديد من تعديد. فالتاريخية التي سيطرت على الخطاب التوراتي محدودة المدى وضيقة الأفق، فهي تعرض تاريخ بني إسرائيل، لا تاريخ الإنسانية. " لأنهم (العبرانيون) لم يسجلوا في العهد القديم إلا شؤونهم الخاصة، حتى جعلوه تاريخا وطنيا لهم "4. كما أن الرب الإله هو رب إسرائيل، وليس رب العالمين. وهذا

1 جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 38 .

2 هيد وايت : المرجع السابق . ص 196 .

3 - محمد أركون : المرجع السابق ، ص 130 .

4 أ سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة . ص 15

وحده يكفي بأن يجعل نصوص العهد القديم تاريخاً قومياً، لا تتعدى دائرته بني إسرائيل، حيث لا كونية ولا عالمية ولا إنسانية، وإنما هي القبيلة والقومية والفردية .

فقصص عاد وثمرود لم يشر إليها العهد القديم، لا من قريب ولا من بعيد، بل جاء ذكرها في النص القرآني. " وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩ "1. وتم ذكرها في النص القرآني، ضمن إطار العقيدة ومصير الكافرين، وفق سنن الله الكونية. " وقصة عاد هذه - شأنها في ذلك شأن قصة ثمود - لم ترد في التوراة، وإنما هي قرآنية صرفة... وهذا هو السبب في أن كثيراً من المستشرقين قد تعجلوا الأمر، فأنكروا عاداً وثمروداً، وأنكروا الكوارث التي أصابتهم بغير حجة... فما لبثوا طويلاً، حتى تبين لهم أن عاداً Odiat، وثمروداً Thamudida مذكوران في تاريخ بطليموس، وأن اسم عاد مقرون باسم إرم، وكتب اليونان، فهم يكتبونها أدراميت Adramitae "2. فمنظومة القصص القرآني لا تعرض أحداث الأمم، كسرد تاريخي في المقام الأول، وإنما تعرض العقيدة والمصير " فقصص المنظومة القرآنية تصدر في أدبية سردية تقرر المطلق وتتجاوز التاريخ، فهي من خلال فنية الإسقاط التي تستوعب بمقتضاها الزمن السردى الراهن، أزمنة غابرة تضي على فاعلية الزمن القصصي بعداً مطلقاً، يتجاوز حدود التاريخ "3. فأين نجد رب العالمين، إلا في قوله تعالى - أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - " فإله في الإسلام كائن سرمدى منزه عن شوائب المادة، يدين المسلم بأنه هو رب العالمين أجمعين، وليس برب لهذه القبيلة أو تلك، يختارها وتختاره لغير سبب بين الأمم كافة، وليس الإله كذلك ربا لطائفة من الناس يرتبط خلاصها بحادث من حوادث التاريخ في بقعة من الأرض "4. وأين نجد مخاطبة الناس، كل الناس، إلا في خطاب الله لخلقه المتكرر - يا أيها الناس - ؟.

إن علاقة الخطاب القرآني بالتاريخ، تجعله يلامس روح الكونية والإنسانية، وبيتعد عن ميزة السرد التاريخي بالمعنى الحرفي. فسفر التكوين قد أرخ لقصة الطوفان باليوم والشهر " في سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت

1 سورة هود : الآية 59 .

2 د. محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية 1988 بيروت. ص 243

3 د . سليمان عشراي : المرجع السابق ، ص 121

4 العقاد : الإسلام دعوة عالمية . ص 71 .

كل ينابيع الغمر العظيم"¹. كما أرخ لنهاية الطوفان أيضا " وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض"². أما قصة الطوفان القرآنية لم تشر إلى هذه التواريخ، عدا ذكر مدة مكوث نوح - عليه السلام - في قومه. فالقرآن الكريم كتاب عقيدة وإيمان، وليس كتاب أدب وتاريخ، أو أي فن من فنون الإنتاج البشري. هذا الإنتاج الذي يصطبغ بالنزعة الذاتية والثقافية للمؤلف، ضمن المجال الزمني المحدود والضيق. إن القرآن " يروي الأحداث بطريقة يتم التركيز فيها على المغزى، في حين تحذف التفاصيل التي تربط هذه الأحداث. على القارئ الغربي الذي لا يعرف شيئا عن قبيلتي عاد وثمود العربيتين، سرعان ما يفهم المغزى الأخلاقي من وراء ذكر حكايتهما. إن هذا الحذف للتفاصيل التاريخي، يضيف إلى قوة السرد في تحريك المشاعر لجعلها عالمية، وتتجاوز كل الحدود، وذلك لأنها تساعد القارئ على التركيز على معنى القصة غير المحدود زمانيا"³. أما السرد القصصي أو التاريخي، فهو يأخذ جزءا زمنيا من هذا الحيز الحيني، ولن يستطيع تجاوزه أبدا، لأن حياة وعلم السارد محدودان " يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ٧"⁴. فالعلم الذي يكتسبه الإنسان محدود بعمره، ومتطور بتجربته في الحياة عبر الامتداد الزمني. و" أكثر القصص التي وردت في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في جهادهم لتبليغ رسالتهم، ونشر دعوتهم، ومقاومة خصومهم من ذوي السلطان الذين أنكروهم، وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم، وأكثر ما جاء فيه من أخبار الدول والملوك، فإنما جاء في سياق أخبار الدعوة مع سائر أخبارها"⁵. ولهذا لا بد أن نضع في المقام الأول مسألة الدعوة والعقيدة وخطها التوحيدي، وبيان مصير هلاك الأمم نتيجة الكفر والطغيان، وهذا هو الجانب الأساسي من التاريخ الذي يهتم به الخطاب القرآني، ويؤكد عليه. دون أن يتجه إلى ذكر تاريخ الأحداث وتفصيلها، على عكس ما جاء في نصوص أهل الكتاب .

يقول موريس بوكاي عن أسفار أهل الكتاب: " كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على تسعة قرون وبلغت مختلفة، واعتمادا على التراث المنقول شفويا، وقد صحت وأكملت بسبب

¹ العهد القديم ، سفر التكوين : الإصحاح السابع ، الفقرة 11 .

² المرجع نفسه : الإصحاح الثامن ، الفقرة 13 .

³ د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 38 .

⁴ - سورة الروم . الآية 7

⁵ العقاد : الإسلام دعوة عالمية . ص 163 .

أحداث حدثت، أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحيانا¹. فمن هذا المنطلق تتجلى لنا ميزة التفرد في الخطاب القرآني، التي تضع قصصه في خانة خاصة به، لا يمكن إطلاقاً أن نسأله بأي سرد قصصي، أو تاريخ يتناوله العهد القديم أو الجديد، فضلاً عما أنتجه البشر سابقاً، أو ما سينتجونه لاحقاً. " وما من شيء أكثر واقعية بالنسبة إلى الإنسان من تجربة الزمانية، وما من شك أكثر قدرية سواء بالنسبة إلى الأفراد، أو إلى الحضارات ككل. وهكذا فإن أي تمثيل سردي للأحداث الإنسانية، هو مغامرة فلسفية جديدة وعميقة، بل يمكن القول انثروبولوجية، لا يهم. هل تعد الأحداث التي تقوم بوظيفة المراجع المباشرة للسرد واقعية أو متخيلة؟ ما يهم هو هل يمكن اعتبارها إنسانية بصورة نموذجية؟². لكن سرد الأحداث في القرآن الكريم، هو حقيقة وواقع، لم يتسرب إليه أي شك أو خيال، والسبب في ذلك هو مصدره الإلهي، فرب العالمين، وخالق السماوات والأرض، ورب المكان والزمان، يستحيل أن يصدر عنه أي فعل اعتباطي، ف" الإله لا يلعب النرد"³. لذا " ظل السرد التاريخي الكلاسيكي ذا فتنة وسحر بوصفه نتاج الحاجة الإنسانية الشاملة للتأمل في لغز الزمن الذي لا يحل"⁴. كما ظل الفكر والنقد في حيرة أمام إعجازية الخطاب القرآني وعلاقته بالتاريخ، وبحث مكونات الظاهرة القرآنية التي يتعذر بحثها وفق مقاييس النقد المتغيرة .

فالوقائع التاريخية لا تُسرد إلا إذا اجتازها الزمن، وانفلتت منه " فالمؤرخ رجل يسير إلى الوراء"⁵. أما الوقائع المستقبلية، فلا قدرة بشرية تستطيع تجاوز جدار الغيب، أو تمزيق حجبته " والزمن هو حاجب المستقبل، فنحن لا ندري ماذا سيحدث غداً، أو بعد غد، أو في الأعوام القادمة. وكل ما ندريه هو حاضر نعيشه، وماض عشناه فنعرفه، ومستقبل لا ندري ما هو قضاء الله فيه"⁶. وإيماناً منا بذات السارد العليا (الله) تنفرج الرؤية، وتحل العقدة. إن الله تعالى يوظف الزمن في خطابه، توظيفه في كونه، ويمارسه في وحيه، ممارسته على حياة البشر. وفهم هذه المعادلة الوظيفية الحقّة، هو الذي يحدد لنا طبيعتنا البشرية المحدودة، ويمنحنا إيماناً ثابتاً بالله

1 - موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 20 .

2 هيدن وايت : المرجع السابق . ص 203 .

3 ريتشارد دوكنز : المرجع السابق . ص 20 .

4 هيدن وايت : المرجع السابق . ص 204 .

5 أحمد منير : موسوعة الأمثال والحكم . ص 21 .

6 عبد الغني عبد الرحمن : الزمن بين الدنيا والآخرة ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى 1994 القاهرة . ص 9 .

الخالق القادر، ووحيه الخالد. " وما التاريخ إلا تدبير الله يتحقق على مدى الزمان، أو قل مشيئة الله في العالم. ويقول جون دن: نحن ننظر إلى الله في التاريخ، أو ننظر في الواقع إلى الأشياء التي صُنعت ووضعت تحت أعيننا ¹. إن دورات التاريخ خاضعة للنص القرآني، وليس العكس. وخط الخطاب القرآني يكشف لنا وقوف البشر أمام سلطة الزمن وقهره، بحيث لا يسمح لنا الظرف الزمني، إلا ضمن اللحظة الآنية والحاضر، دون أن يكون لنا سابق علم بما سيأتي به غد المستقبل، من أحداث ووقائع، بداية ونهاية. كما لا يمكن لنا أن نُحَيِّن زمن نهايتنا، وأيضا لا نملك سابق علم لاختيار لحظة زمن ميلادنا وبداية حياتنا. فكل هذه التعاملات مع الزمن وأحداث التاريخ تؤكد أن الزمن يملكنا ولا نملكه، ونحن خاضعون له دائما، نحيا ضمن دائرته، ولا نتحرر منها .

يقول تعالى: " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " ². وتتكرر آيات النظر في عواقب الأمم تكررا ملحوظا في النظر في عاقبة المفسدين والظالمين. فالتاريخ لا يسير بخط مستقيم، بدايته من الصفر، واستمراريته إلى ما لا نهاية، فهذا اعتقاد الماديين، لأن " كل من العقلانيين والماديين يعتقدون أن التاريخ يسير في خط مستقيم قد بدأ من الصفر ³. والسؤال هو : من حول الأفراد والأمم - وهم شخوص القص - إلى مفعولات بهم ومنفعلين ؟ ومن هو الفاعل الرئيسي الذي يبقى فاعلا مهيمنا هيمنة مطلقة على الشخوص والأحداث، وعلى الزمان والمكان ؟ ومن سطر عاقبة الظالمين المفسدين المكذبين ؟. يقول تعالى " كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَلَهُمْ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ١١ " ⁴. ويقول أيضا في عذاب وإهلاك الأمم الماضية: " فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مِمَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مِمَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مِمَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مِمَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ٤٠ " ⁵. ولهذا لم يستوعب المستشرق مونتجمري الحركة التاريخية للأمم والشعوب السابقة، وحقيقة الفاعل الرئيسي، فيقول: " وهذه الأفكار وردت جميعا في المفهوم القرآني عن العملية التاريخية، أو الأقل في بعض جوانبها. فالبنسبة للتاريخ البدوي العربي ليس أكثر من ارتفاع وسقوط أو ظهور وتلاشي

¹ روى بورتر : تاريخ الزمان . ص 16 .

² سورة آل عمران : الآية 137 .

³ علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب . ص 219 .

⁴ سورة آل عمران : الآية 11 .

⁵ سورة العنكبوت : الآية 40 .

العديد من القبائل، وليس هناك وعي بأي خط مستمر لتطور يجري خلاله هذا التاريخ¹. والكاتب يهتم بالجانب المادي ويريد أن يفسر التاريخ تفسيراً مادياً، وهذا نتيجة الفكر المادي الذي يرى لا إله، ولا بعث، والحياة مادة .

إلا أن الخطاب القرآني يركز على محور العقيدة والجانب الروحي للأمم والشعوب والقبائل والأفراد. تقول كارين أمسترونج: " محمد صلى الله عليه وسلم لم يستخدم لفظ الجاهلية ليشير إلى زمن تاريخي، وإنما إلى حالة من العقل"². لهذا تستطيع قبيلة أن تعيش بحقيقة التوحيد، ولا تهم الفترة التاريخية التي عاشتها، مهما كانت بعيدة في التاريخ، وتستطيع أمة حدثت أن تعيش في ضلال الشرك والكفر، فرؤية القرآن الكريم لتلك القبيلة تكون رؤية حضارية إنسانية. أما بالنسبة للأمم الحداثية فهي أمة متوحشة جاهلية، لا فرق بينها وبين الأنعام " أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤ " ³. لهذا تضيف الكاتبة فتقول: " إنني أحاجج أن هناك دليلاً كبيراً على أن الجاهلية تعيش في الغرب"⁴. هذا هو المنهج القرآني للسرد التاريخي، فهو سنن وقوانين إلهية ثابتة وخالدة، سارية المفعولية، قبل أن يكون سرد أحداث ماضية ومنتهاية لمراحل التاريخ البشري من حيث التطور المادي لوسائل الحياة، التي تسهل لنا ظروف الحياة، ولكنها لا تغير من حقيقة وجودنا ولا من مبادئنا وحقيقة إيماننا. وإلا تحولت هذه الأمم إلى المادية والحيوانية، وتشوهت حقيقتها الإنسانية، وفسدت فطرتها، فلن تستطيع أن تهتدي إلى سبيل الحق. فالعبرة بالإيمان الحق والعمل الصالح، وليس بوسائل الإنتاج وتطبيقات التكنولوجيا مع الفراغ الروحي والكفر والشرك بالله .

لا بد أن يكون استيعابنا للتاريخ وأحداثه في الخطاب القرآني، وفق تلك الأسس والمبادئ التي آمنا بها، والتي أثارها الوحي. يقول عزت بيجوفيتش: " نستطيع أن نفهم هذا الموقف، عندما نتذكر أن التاريخ عند الماديين هو التطور المادي للحياة الإنسانية، فهم معنيون بتاريخ الأشياء أو تاريخ المجتمع، لا بتاريخ الإنسان نفسه"⁵. وهنا يكمن الفرق بين التفسير الإسلامي للتاريخ، وبين

¹ مونجمري وت : المرجع السابق . ص 79 .

² كارين أمسترونج : محمد نبي زماننا، ترجمة فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2008 القاهرة . ص 26 .

³ سورة الفرقان : الآية 44 .

⁴ كارين أمسترونج : المرجع السابق . ص 26 .

⁵ علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب . 219 .

التفسير المادي " ولغة التنزيل القرآني ليست تاريخية فحسب، بل رمزية "1. فمن خلال الخطاب القرآني نستطيع أن نستوعب البعد الديني والبعد الإنساني. كما يبقى الخطاب القرآني دائما يجلي الظاهرة الإعجازية المطلقة. يقول جيفري لانغ: " وأود أن أذفع عكس المحاولات التي تهدف إلى أن تقرر، أو ترغما بقبول تاريخية كل من هذه القصص، وذلك لأن القرآن يتحاشى المعالم التاريخية. وما دام أن نصوصا محددة في بعض السرد، لا يمكن الأخذ بها بشكل حرفي، فإنه لا يوجد مسوغ لمثل هذا الإصرار على تاريخية النص "2. إن الخطاب القرآني لم يلتفت للزمن التاريخي للأحداث، إلا بالشكل الذي أراده الله أن يجلي حكمة من وراء ذلك، وبالشكل الذي يمكن لنا أن نستشفه من خلال شفرات ودوال وإشارات زمانية تتحول إلى أبعاد تاريخية، يمكن استيعابها من خلال التحليل والدراسة وفق مبدأ التدبر. وهذا العمل لا يعطينا أبدا الأولوية، بأن نحصر الوحي في التاريخية، بقدر ما نستوعب سنن الله في نظام الحياة والوجود، والمصير والعقيدة، كما نستوعبها في نظام الكون والخلق والوجود " عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُنْعَالِ ٩ "3. فالسرد القرآني ينأى عن التاريخية التي هي عملية بشرية تعكس محدودية الخطاب وصاحبه .

تناول الوحي حركة التدمير والتعمير للأمم، كنتيجة حتمية خاضعة لسنن الله الثابتة ، على أساس الموقف من الحق والباطل، ومن الكفر والإيمان، وعلى أساس العدل والظلم للنفس أو للغير. " وَتِلْكَ آيَاتُ الْكُرْآنِ الَّتِي أَنْزَلْنَا لِقَوْمٍ كَافِرِينَ، كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَكَانُوا لَهَا كَاذِبِينَ "4. فالظالم لن يتجاوز زمن مصيره المحدد، حتى وإن امتد ظلمه، وطال عمره . إن " هذا القرآن يجعل من مآلوفات البشر وحوادثهم المكررة، قضايا كونية كبيرة يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة، وتصورا كاملاً لهذا الوجود. إنه لا يبعد لهم في فلسفات معقدة، أو مشكلات عقلية عويصة، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد .. لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة "5. واستيعاب التاريخ ضمن الخطاب القرآني هو استرجاع تاريخ الإنسانية ووعيه، ومقارنة العمل بالنتيجة، والموقف بالمصير، والنص بالواقع، والأحداث بالتاريخ. ويعود مونتجمري ليقول: " فالتاريخ كان - بشكل أساسي - مجرد تكرار لموضوعات

1 - روجي جارودي : الإسلام ، ترجمة وجيه أسعد ، دار الفرابي ، الطبعة الثانية الجزائر 2001 . ص 117 .

2 د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 39 .

3 سورة الرعد : الآية 9 .

4 سورة الكهف : الآية 59 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد السادس . ص 3466 .

بعينها. وفي القرآن نجد أن فكرة التوحيد قد أثرت في هذا البناء، فنجد أن قبيلة ما قد ارتفعت وحققت رخاء وازدهارا، فلما أتاه رسول من الله عصوه، فعاقبهم الله بإبادتهم إبادة كاملة، وتكرر روايات على هذا النحو¹. لكن الازدهار المادي لا يُقاس عليه تحضر الأمم في المبدأ القرآني، بل يُقاس التحضر الإنساني بمقدار الإيمان الحق، وعبادة الله الواحد وطاعة الرسل، واتباع الفطرة السليمة، ليتم الوقوف على الظاهرة الإعجازية لقِصص القرآن، بوعي سنن الله التي لا تبدل فيها ولا تغيير ، وبهذا يتحقق مبدأ التدبر والاعتبار .

إن دراسة القِصص القرآني من منظور تاريخ العقيدة والإنسان، لا يمكن أن نستوعبه إلا إذا وقفنا على السرد التاريخي في أسفار أهل الكتاب، وذلك لمعرفة مميزات الخطاب القرآني. يتساءل جيفري لانغ عن قصة الإنسان، قائلا: " لماذا لم يوضع الإنسان بطبيعته في الجنة من البداية ؟ لم نكد ننهي جملة واحدة من القرآن حول قصة الإنسان، إلا وقد واجهنا شكوانا الرئيسة - نحن الملحدين - وهذه الشكوى قد تم التعبير عنها بلسان الملائكة، ولا تنتهي الآية بالشرح، بل بتذكير القرآن بأن الله يعلم ما لا نعلم - ومن ثم المعنى الضمني، أن حياة الإنسان على الأرض، هي جزء من هدف عظيم². فلا علم إلا علم الله عز وجل لحل لغز الحياة والوجود " إن لغز الإنسانية قد بدأ في لحظة الخلق، تلك المقدمة السماوية أو الفعل الذي سبق تاريخ الإنسانية كله، وليس في مقدور العقل أو العلم أو الخبرة في حد ذاتها، أن تساعدنا في الاقتراب أو الفهم الأفضل لهذه الأمور³. لهذا جاء الخطاب القرآني ليعبر عن عظمة الهدف من الوجود من جهة، ويدحض كل خطاب أسطوري لقضية الخلق والوجود، والإنسان والمصير من جهة ثانية.

" تستشهد المسيحية بالعهد القديم (التوراة) لبيان البشارة وإعلان مولد المسيح، وتستشهد بالعهد الجديد (الإنجيل) للإعلان عن الملكوت الرباني، وبتفسير بولس وتبشيريه بالخلاص بموت المسيح. أما الإسلام فيرفع خلافا لذلك شعارا بأن الإسلام دين الفطرة وأنه الدين الموجود منذ بدء الخليقة، وأنه في كل العصور، وحي خالص من الرب، بعث به رسله ليبشروا به كافة شعوب الأرض⁴. فالإسلام حقيقة قديمة جديدة نزلت مع الإنسان، وبقيت دائما تركز على عبادة الله

¹ مونتجمري وت : المرجع السابق . ص 79 ، 80 .

² د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 42 ، 47 .

³ علي عزت بيجوفيتش : المرجع السابق . ص 32 .

⁴ زيغريد يونكه : ليس كمثلته شيء . ص 75 .

ووجدانيته، وهذا ما دعا إليه جميع الرسل، وشمله الخطاب القرآني " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤ "1. وهذا ما جعل قصة تاريخ العقيدة تبدأ مع آدم، وتبقى مع الرسل إلى خاتمهم محمد - على جميعهم الصلاة والسلام - ولهذا عرض السرد القرآني الأحداث خارج الدائرة القومية الضيقة. أما السرد الفني والتاريخي فهو مرتبط بالحيز الزمكاني، المتأثر بالنزعات والأهواء والاعتقادات الأسطورية، بالإضافة إلى ما يحويه من نقص ظاهر، ومن مسحة خيالية وخرافية تؤدي إلى تقويض أسس الحق والإيمان، يستحيل أن تقربنا أبدا من الحقيقة، بقدر ما تبعدنا عنها .

إن " الإصحاحين الأول والثاني من أخبار الأيام وكتب عزرا ونحميا تنتمي إلى كاتب واحد واسمه القصاص، الذي عاش في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وهو يتناول من جديد التاريخ برمته، منذ الخلق وحتى ذلك العصر "2. وهذه الإصحاحات لا تخرج عن إطار السرد التاريخي الحرفي والقومي. لكن " كيف استطاع هذا المجموع المتنافر بمضمونه الذي يتكون من أسفار كتبت على مدى سبعة قرون، وأنت من مصادر شديدة التنوع، ثم تجمعت بعد ذلك داخل مؤلف واحد. كيف استطاع عبر القرون، أن يكون كلا لا ينفصم، وأن يصبح مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية- كتاب الوحي اليهودي والمسيحي؟ "3. ليجد التاريخ المقدس نفسه أمام إشكالية زمانية انحرفت به، وجعلته عرضة لكل الاختلافات والتناقضات، والشك والتكذيب. " يَا هَلْ أَلْكُتِبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩ "4. ماذا يبين لهم بأن عقيدة التوحيد هي الحق، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين والمرسلين. جاء ليبين لهم ما كانوا يخفونه " يَا هَلْ أَلْكُتِبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكُتُبِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٥ "5. إن تقاطع النصوص الكتابية مع النص القرآني في سرد الأحداث التاريخية لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وذريته، تدفعنا أن نبحث أسباب الاختلافات والصراعات بين بني إسرائيل وبني

1 سورة إبراهيم : الآية 4 .

2 موريس بوكاي : المرجع السابق ، ص 32 .

3 المرجع نفسه ، ص 32 .

4 سورة المائدة : الآية 19 .

5 سورة المائدة : الآية 15 .

إسماعيل، لنفهم لماذا ظل الفريقان يتبادلان التهم، ويشكك كل منهما في قدسية نص الآخر؟. وهنا يصبح الخطاب المقدس لأصحاب هذه الديانات على محك التاريخ والحقيقة والواقع .

لقد تعود الناس نسبة المقدس لله، فالزمن المقدس هو زمن الله، أو أيام الله، والمكان المقدس هو بيت الله، والكلام المقدس هو وحي الله. كما أن هناك علاقة بين الزمن والمعبود، وتلك " هي ميزة هرمان أوسينر، لأنه كان أول من فسر الاشتقاقات بين المعبد temple - templum - والزمن tempus - temps، ويشرح هذين المصطلحين بالتقاطع "1. لا بد لهذه المسميات أن تجد لها سنداً في النص المقدس، أو كلام الله ووحيه. لهذا فالمسألة تحتاج حفرأ في الذاكرة التاريخية للعقيدة التي جاء بها النبي إبراهيم - عليه السلام - والذي تعترز للانتساب إليه الأمم الثلاث : اليهود والنصارى والمسلمون. يقول العقاد عن قصة إسماعيل - عليه السلام - " ثم يُكتب لهذا الغلام الطريد الوحيد، أن ينمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل، تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام "2. لهذا نجد أن محور الصراع الرئيسي الذي تشكل عبر تاريخ العقيدة، ولا زال مستمرا حتى الساعة، هو بين هذه الطوائف الثلاث، على افتكاك أحقية العهد، وسمه شعب الله من جهة، وطرد البقية ولعنها من جهة ثانية، لا لشيء سوى أن الرب الإله أراد أن يخص شعباً لنفسه دون الآخرين. أو أن يصلب ابنه الوحيد ليفتدي المؤمنين بالخلص، وتذهب البقية إلى الهاوية والجحيم، ويحظى النصارى بالحياة الأبدية. " وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 111 "3. وهكذا " يبلغ الإيمان المسيحي في أوروبا شأوا عظيما في العصر الوسيط وعصر النهضة، وكان من نتيجة ذلك التعصب والإعلان عن أن جميع الديانات ما عدا المسيحية ذات أصل شيطاني، ولذا فإنها عقائد زائفة كاذبة "4. أما عقيدة أن الله الخالق الواحد، يتساوى عنده كل الناس، ولا امتياز لأحد عن الآخر، إلا بالإيمان والعمل الصالح، فقد أهملته النصوص الدينية السابقة، وتناسه أحرار اليهود وقساوسة النصارى، ولم تذكر حقيقته، ويُسرّد تاريخه إلا مع زمن - إقرأ -.

1 مرسيا إلياد: المقدس والعادي . ص 61 .

2 العقاد : الإسلام دعوة عالمية . ص 166 .

3 سورة البقرة : الآية 111 .

4 مرسيا إلياد : المقدس والمدنس . ص 17 .

إن " تاريخ الأديان ومن أكثرها بدائية إلى أحسنها إعداداً، إنما هو مشكل بتراكم مقدسات وبمظاهر وقائع مقدسة، ومن أكثر التجليات بدائية على سبيل المثال إظهار المقدس في موضوع ما حجر أو شجر "1. وشعوب العالم وقبائله لديها من النصوص والأماكن المقدسة على حد قوة اعتقادها، ما يجعلها ترفض مقدسات الآخر واعتقاداته. بل تعتقد أن ما يخالف عقيدتها هو الباطل والأساطير، وأن ما تتمسك به هي، هو الحق المقدس الوحيد. إنها أخطر إشكالية لدى البشرية على مر التاريخ والعصور، أن تكون منقسمة ومتصارعة حول حقيقة الألوهية والوحي والنبوة، في حين أن لهذا الكون رباً واحداً، ونظماً واحداً. فلماذا لا يحسم الإله - وعبر تاريخ البشرية - هذا الخلاف بنص مقدس واحد؟ بل لماذا اختار شعباً وقربه إليه، وأهمل بقية الشعوب الأخرى؟ بل لماذا جعل هذا العالم كله مخلوقاً من أجل فئة مميزة، ليقوم العهد معها، ويحكم العالم من الهيكل المقدس، الذي تم خرابه؟ بل لماذا ترك هيكله يُخربه الوثنيون المنبذون، وعجز عن حمايته، ولم يمنعهم ويسحقهم حين تجاوزوا عتبة المقدس وحدوده؟ إنها إشكالية زمانية تاريخية لا يستطيع أي خطاب مقدس أن يفك لغزها، ويقرر حقيقتها، إلا إذا كان هذا الخطاب صادراً عن ذات الله الخالق، والذي هو رب العالمين، وفوق المكان والزمان والتاريخ والإنسان .

يقول التاريخ: " بعد تدمير أورشليم على يد تيتوس الروماني في عام 70 ميلادي، ثم على يد الإمبراطور هدریان (117م - 138م) حيث مر اليهود واليهودية بأقصى المحن وأشدّها، وحيث تم القضاء على اليهود ككيان سياسي في فلسطين. ثم تغيير اسم المدينة المقدسة إلى إيليا كابيتولينا، وتحويل المعبد اليهودي، إلى معبد لإله الرومان جوبيتر"2. لقد هزم التاريخ الوثني، التاريخ المقدس، واستبعد الوثنيون شعب الله المختار، واحتلت آلهة الرومان الوثنية، معبد الرب الإله وطردته من هيكله، ليتحول تائهاً بلا مأوى، كما تحول شعبه تائهاً بلا أرض. ولم تتحقق نبوءة إعادة بناء الهيكل لشعب الله المختار إلى حد الساعة، منذ تاريخ تخريبه. " لقد خلق الله القدس السماوية عندما خلق الفردوس، وإذن إلى الأبد"3. لكن اليهود لا زالوا في انتظار تحقق النبوءة منذ زمن الخراب. فالهيكل مكان مقدس منذ أن بناه سليمان - عليه السلام - وفق زعم اليهود، وهم شعب مقدس، لأنهم شعب الله المختار - الذرية المباركة - إنها حقا إشكالية زمانية

1 المرجع نفسه . ص 16 ، 17 .

2 د. محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الأول . ص 378 .

3 مرسيا إلياد : المقدس والعادي . ص 98 .

تاريخية تجعل النص المقدس لأهل الكتاب محل شك وتناقض عبر التاريخ، فلم يجد حلا زمانيا ولا تاريخيا لتحقيق هذه النبوءة حتى الآن. وسيبقى الهيكل مكاناً يُطعن في قدسيته، لأن الرب لم يحم بيته ويدفع عنه. فماذا جرى لرب الهيكل؟ وماذا جرى لشعبه المختار؟. إنها أزمة خطاب العهد القديم مع المقدس والتاريخ، وعبر التاريخ.

لقد بين الخطاب القرآني في سورة إبراهيم الجانب التاريخي للعقيدة، حيث يصبح النبي إبراهيم - عليه السلام - مؤكدا عقيدة التوحيد، كما أقام قواعد بيت التوحيد - المكان المقدس لكن دوره التوحيدي قد غُيب في أسفار العهد القديم، وأزيل دوره ووجوده بمكان الجزيرة العربية - أرض الجنوب - في مؤلفات وبحوث المستشرقين والتابعين لهم. " ولا أدري كيف أثبت المستشرقون علميا وجود ورقة بن نوفل هذا في مختبرات البحث العلمي، وعجزوا عن إثبات إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وهجرتهما إلى مكة؟ "1. هنا فقط يصبح تغييب المكان والزمان ضرورة ملحة، بل مطلباً مسكوتاً عنه في البحث التاريخي وخطابه. ولم يحدد بيت إيل، دون أن يتوجه الاتهام للنص المقدس لإهماله مكان بيت إيل - بيت الله - " وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له * ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته وله بيت إيل من المغرب "2. وهكذا يضرب النص المقدس صفحا عن مكان بيت الله المقدس، وبكل بساطة وسذاجة يُغيب مكان بيت الله، وتضيع معالمه، ويتعذر الاهتداء إليه.

لم يعجز إبراهيم - عليه السلام - عن تنفيذ أمر الله تعالى، حين أمره بذبح ابنه الوحيد " خذ ابنك وحيدك الذي تحب إسحاق "3، ويجازيه الرب بسبب قوة إيمانه طبقاً لما جاء به نص العهد القديم بقوله: " من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء "4. هذه نبوءة خاصة بنسل إبراهيم - عليه السلام - ولا نعرف ما معنى عبارة - ابنك وحيدك - إلا أن يكون له ابن وحيد زمن هذه التضحية. كما لا نعرف نسل إبراهيم من إسحاق - وهم بنو إسرائيل - أصبحوا بأعداد كثيرة، وفق وعد الرب الإله، وعبر مراحل

1 د . خالد أحمد أبو جندي : الجانب الفني في القصة القرآنية ، دار الشهاب للطباعة والنشر ، باتنة الجزائر . ص 21 .

2 العهد القديم : سفر التكوين ، الأصحاح الثاني عشر ، الفقرتان 7 - 8 .

3 المرجع نفسه ، الأصحاح الثاني والعشرون ، الفقرة 2 .

4 المرجع نفسه ، الفقرة 16 .

التاريخ. بل كانوا ولا زالوا إلى الآن القلة القليلة من بين نسل إبراهيم - عليه السلام - ومرة أخرى يواجه النص المقدس إشكالية، أمام تاريخ وواقع بني إسرائيل الوجودي. يقول التفسير المسيحي: "وبتقديمه إسحاق ابنه تحققت الكنيسة أن ابن الله المتجسد يُقدم على ذلك الجبل عينه ذبيحة إلهية ضرورية، لمغفرة الخطايا وبركة إبراهيم" ¹. إلا أن التضحية لم تتم وأن اليهود لا يؤمنون بالمسيح، كما أن النصارى لا يتوافقون مع شعب الله المختار في العقيدة، فاليهود يعبدون رب إسرائيل وإسحاق، والنصارى يعبدون ابن الله، الرب يسوع المصلوب بتأمر من اليهود، ومقر قداسة البابا هي روما دولة الفاتيكان، وليس القدس أرض المسيح. لكن المسيح كان يعظ الشعب في الهيكل بالقدس، ولم تطأ قدماء أرض روما أبداً. وبالتالي فإبناء إسحاق هم قتلة يسوع رب النصارى المعبود - حسب قانون الإيمان المسيحي - وبهذا استحق بنو إسرائيل - ذرية إبراهيم - اللعنة الأبدية، لا المباركة الموعودة والمعلنة في النص المقدس، كنبوءة زمانية تاريخية .

إن أحداث الوقائع التاريخية كذبت تحقيق الوعد لشعب الله المختار، ووقفت حداً فاصلاً بين النبوءة وتحققها. ومرة أخرى يجد النص المقدس إشكالية عويصة أمام أحداث التاريخ المتحققة، يصعب فهمها وحل لغزها، لأنها تشكك في قدسية خطابه، حيث جاء على عكس ما وعد الرب خليله إبراهيم - عليه السلام - على الرغم من تصريح العهد القديم " ليس الله إنسانا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم هل يقول ولا يفعل ؟ أو يتكلم ولا يفي ؟ " ². فهل مات إبراهيم - عليه السلام - وهو مطمئن على تحقيق وعد الرب لمباركة ذريته ؟. " وقد برزت بين قصص الأنبياء قصتان مسهبتان في أجزاء الكتاب، لأنهما ترويان لنا نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية وهما : أمة وادي النهرين، وأمة وادي النيل " ³. إن أي اعتقاد يشرك بالله الواحد، هو اعتقاد باطل، يرد عليه النص القرآني بكل وضوح : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ۱ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ۲ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ۳ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ۴ " ⁴. فكل الرسل والأنبياء حاربوا الشرك بالله، ودعوا لعبادة الله الواحد " إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ ١٤ " ⁵. وفي سفر أشعياء " أنا الأول والآخر ولا إله غيري " ⁶. وفي الوصية "

1 القس وليم مارش : سذن القويم في تفسير العهد القديم ، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ، بيروت 1973 . ص 114 .

2 العهد القديم : سفر العدد : الإصحاح الثالث والعشرون ، الفقرة 19 .

3 العقاد : الإسلام دعوة عالمية . ص 165 .

4 سورة الإخلاص : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

5 سورة طه : الآية 14 .

6 سفر أشعياء : الإصحاح السادس والأربعون الفقرة 9 .

اسمع يا إسرائيل إلهنا رب واحد ". فعقيدة التوحيد هي أساس دعوة الأنبياء والرسل، ولا تظهر هذه العلاقة جلية، إلا إذا استوعبت حقيقة الخطاب المقدس، وعلاقته بالمكان المقدس بيت الله، وكيف تم عرضها عبر مراحل التاريخ .

يطلق " اسم مقدس وإلهي، على كل ما يؤدي على التقوى وإلى الدين، ولا يظل الشيء مقدسا إلا إذا استمر الناس في استخدامه على نحو ديني، فإذا لم يعودوا أتقياء ضاعت قدسية ما كان مقدسا من قبل "1. فالمقدس - نسا كان أم مكانا - إذا ما مارس الزمن عليه نوعا من التغيير والتبديل، فَقَدْ حتماً قدسيته، وأصبح نسياً منسياً. وقد اهتم العهد القديم برحلات إبراهيم - عليه السلام - " فلا يوجد في الواقع تفصيل لمسار الرحلة، وذكر المواقع التي مر بها أو توقف فيها إلا في العهد القديم، الذي اهتم كثيرا بهذه الشخصية. وأفردت فيه مساحات كبيرة لسرد القصص المنسوبة إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيمته في التاريخ الديني والبشري "2. وكذلك " انتقل إبراهيم هناك إلى أرض الجنوب وسكن قادش وشور وتغرب في جيرار "3. ولابد للبيت الذي يقيمه إبراهيم - عليه السلام - بأمر من الله تعالى، أن يصبح بيتا لله، معلوم الوجهة، محدود المكان والمعالم، لأنه مكان مقدس، تتجه إليه ذريته من بعده، لتجدد العهد مع الله الواحد الأحد، دون أن تشرك به شيئا. فهل سيدلنا الكتاب المقدس حقا على مكان البيت المقدس ؟

يعتقد اليهود في المكان المقدس، أن " ذلك المكان كان جبل موريا وأن الحجر الذي وضعه يعقوب تحت رأسه، كان أحد حجارة المذبح الذي قُدم عليه إسحاق، وقالوا المقصود ببيت إيل، الهيكل ... والمرجح كل الترجيح، أن بيت إيل اسم مدينة هناك "4. وهذا الذي كان قد ذكر مع النبي إبراهيم، كما ذكر مع يعقوب - عليهما السلام - " وأخذ من حجارة المكان ودعا ذلك المكان بيت إيل "5. وجاء في دائرة المعارف الكتابية عن معنى ومكان جبل المريا " والاسم مشتق من عبارتين نطق بهما إبراهيم، الأولى هي : الله يرى، ثم الثانية هي : يهوه يراه، في صيغة المبني للمجهول الله يُرى ... ولم يحدد سفر التكوين موقع المريا، سوى أنه كان على مسيرة ثلاثة أيام

1 اسبنوزا : المرجع السابق . ص 328 .

2 أ . د . فالح شبيب العجمي : صحف إبراهيم، الدار العربية للموسوعات ، الطبعة الأولى 2006 ، المملكة السعودية . ص 42 .

3 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح العشرون ، الفقرة 1 .

4 القس وليم مارش : المرجع السابق . ص 137 .

5 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثاني والعشرون ، الفقرة 16 .

من بئر سبع. ويزعم السامريون أن الجبل المقصود هو جبل جرزيم¹. ونجد في التقليد اليهودي أن المكان المقدس هو " جبل جيريزيم في فلسطين الذي كان يسمى كذلك صرة الأرض"². وهذا الاعتقاد جعل " فلسطين وأورشليم ومعبد أورشليم يمثل كل منهما في آن واحد صورة الكوني ومركز العالم"³. إن " جبل موريا سمي جبل الله، ولم يحمل هذا الاسم إلا بعد الشروع في بناء المعبد، وهذا الاختيار متأخر عن موسى في الزمان والواقع. إن موسى - عليه السلام - لا يشير إلى أي مكان اختاره الله، بل إنه تنبأ بأن الله سيختار بعد ذلك مكانا سيطلق عليه اسم الله"⁴. ومرة أخرى يبقى الإبهام يلف المكان المقدس - بيت الله - في خطاب العهد القديم، وهذا رغم قداسته وأهميته .

أما بيت إيل (بيت الله) الذي ظهر مع إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - فلم نعرف له تحديدا جغرافيا، إنها إشكالية مكانية وتاريخية خطيرة " أطلق البطريق يعقوب على مكان ما اسم مسكن الله - بيت الله - لأنه عبَدَ الله الذي أوحى إليه في هذا المكان. أما الأنبياء فقد أطلقوا على المكان نفسه : مسكن الشياطين، لأن الإسرائيليين اعتادوا تنفيذا لمشئته باربعم على التضحية فيه للأوثان"⁵. فلماذا حول اليهود التضحية في بيت الله للأوثان، بعد أن كانت لله ؟ فهل فُقدت قدسية المكان ؟. لكن حركة التاريخ نحو بيت الله يستحيل أن تُطمس، أو تتغير بهذا الشكل الساذج " يقول إرميا أن يهود زمانه قد أطلقوا بطلانا على معبد سليمان اسم معبد الله ، ثم يعلل ذلك في الإصحاح نفسه بقوله : إن اسم الله لا يمكن أن يرتبط بهذا المعبد، إلا إذا كان الناس الذين يؤمنون، يمجدون الله ويدافعون عن العدالة، فإذا أمة القتلة واللصوص وعبداء الأوثان وسائر المجرمين يصبح حينئذ مأوى للأشرار"⁶. لقد تغيرت مكانة البيت من المقدس إلى المدنس، وتحول المكان المقدس إلى مأوى للشيطان، وهكذا تضيع حرمة المقدس .

هنا يمكن لنا أن نستوعب خطاب القرآن في قصة بيت الله وتاريخه، يقول تعالى : " وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ " . هذه هي

¹ دائرة المعارف الكتابية ، المجلد الثالث ، ص 492 .

² مرسيا إلياد : المقدس والعادي . ص 36 .

³ المرجع نفسه . ص 9 .

⁴ اسبنوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة . ص 259 .

⁵ اسبنوزا : المرجع السابق . ص 328 .

⁶ المرجع نفسه . ص 330 .

⁷ سورة الحج : الآية 26 .

علاقة الخطاب القرآني بتاريخ المكان المقدس، حين تتجسد إلى حقيقة وواقع، فلا بد أن يبقى هذا البيت - بيت الله - قائماً، وأن لا يلحق به أي تغيير، منذ زمن إقامته، ولا بد للمؤمنين أن يتوافقوا إليه، من كل نقطة في العالم، ليتحول إلى مصلى للأمم، كما جاء في نبوءة العهد القديم " لأن بيتي سيدعى بيت الصلاة لجميع الأمم"¹. فلم يعد بيتاً قومياً خاصاً بقبيلة أو قوم معينين، شأن المعتقدات القبلية والثنية. بل سيكون بيت الله، مصلى لكل الأمم التي خلقها الله تعالى، لتعبده وتوحده، ولا تشرك به شيئاً. لتبقى هذه العبادة مستمرة تجاه هذا المكان المقدس عبر مراحل التاريخ، لتتسع الدائرة فتشمل كل نقاط الأرض، حيث يصبح هذا المكان يمثل نقطة لقاء زمني وتاريخي، يشهد بإمامة إبراهيم - عليه السلام - للناس. لكن الإشكالية التاريخية هي : هل ستبقى النبوة والرسالة في بني إسرائيل؟. إن سنن الله لا تحابي أحداً ولا قوماً، ولا شعبا بعينه دون آخر، لأن الله هو رب العالمين، وليس رب إسرائيل. فالله لا يتحيز لأحد " إن الله القدير ليس متحيزاً مع مخلوقاته فيما يتصل بالنعم المادية (التي ينصلح بها حال الجسد) ... فلماذا يكون متحيزاً معهم فيما يتصل بالنعم الروحية (هدى الله)؟"². فكل الناس خلقه، وكل الناس سواسية عنده، لا يعاملهم إلا وفق إيمانهم أو كفرهم، وحسب عملهم. " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٌ لِلْعَبِيدِ ٤٦ "³. هذه هي سنة الله في خلقه، لا بد أن يتحقق قوله تعالى لنبيه إبراهيم - عليه السلام - : " وَإِذْ أَنْبَأْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٤ "⁴. وبهذا يصبح سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إماماً للناس عبر الامتداد التاريخي للبشرية، كما يبقى إماماً للناس، ويبقى المؤمنون على الملة الحنفية، ويبقى البيت مكان لقاء المسلمين يشهد به التاريخ والواقع والنص .

قد صرح القرآن الكريم بالتاريخ الديني لبني إسرائيل " وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ٢٧ "⁵. إلا أننا لا نكاد نعثر على سرد قصة مباركة الرب لإسماعيل - عليه السلام - رغم ما جاء في سفر التكوين " وأما إسماعيل

¹ العهد القديم : سفر أشعياء ، الإصحاح السادس والخمسون ، الفقرة 7 .

² أحمد ديدات : الله في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة محمد مختار، المختار الإسلامية للطبع والنشر ، القاهرة . ص 16 .

³ سورة فصلت : الآية 46 .

⁴ سورة البقرة : الآية 124 .

⁵ سورة العنكبوت : الآية 27 .

فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا "1. ومن الغرابة أن الباحثة كاترين أمسترونج تقول: " كما تعلم محمد من يهود المدينة الودودين قصة إسماعيل الابن البكر لإبراهيم "2. ونحن لا نكاد نعثر في العهد القديم على تفصيل مباركة الرب لإسماعيل. ويقول مؤلف الرسالة السبعينية وكان يهوديا ثم أسلم: " فمن جملة ما ذكرت التوراة في سفر التكوين المسمى باراشيب بأن لسيدنا إسحاق جد الأنبياء بركة واحدة، وذكرت لسيدنا إسماعيل جملة بركات، وعليكم يا أحبائي بمراجعتها "3. ويقول العهد القديم متنبئا بمصير بني إسرائيل: " أعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم وليذلونهم أربع مئة سنة "4. والسؤال الذي نوجهه هو: لماذا يُستعبد أبناء الحرة بهذا الشكل، وتلحق بهم المذلة مستقبلا؟.

إن المكان المقدس الذي هاجر إليه سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقال عنه داعياً ربه " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧ "5. هذا المكان ليس أرضا تدر لبناً وعسلاً، بل هو مكان صحراوي لا زرع فيه، ولا يغري أحداً بامتلاكه، أو الاستقرار فيه. ولكن سيرفع إبراهيم - عليه السلام - منه قواعد البيت " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ "6. فهل سيكون هذا المكان هو بيت الله الذي تدل عليه الكونية والمركزية؟. إن مكان البيت الذي رفع إبراهيم منه القواعد، لم يكن ليُجهل موقعه، لولا وجوده بأرض (تيماء)، وهي أرض بني إسماعيل. ولهذا لم يتجرأ العهد القديم على ذكر رحلة إبراهيم - عليه السلام - التاريخية إلى أرض العرب، ولا تحديد المكان الذي أقامت فيه الأم هاجر(أمة سارة) مع وحيدها، وهو يصارع العطش والموت في الصحراء .

وإذا استرجعنا التاريخ، ووقفنا على قصة بابل في العهد القديم، يقول سفر التكوين " فبدهم الرب من هناك على وجه كل الأرض فكفوا عن بنيان المدينة * ولذلك دعي اسمها بابل

1 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح السابع عشر ، الفقرة 20 .

2 كارين أمسترونج : الله والإنسان، ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد للنشر الطبعة الأولى 1996 ، دمشق . ص 163 .

3 السموال بن يحيى المغربي : المرجع السابق . ص 71 .

4 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الخامس عشر، الفقرة 13 .

5 - سورة إبراهيم : الآية 37 .

6 - سورة البقرة : الآيتان 127 ، 128 .

لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض "1. وهل خاف الرب من توحيد البشر وتفاهمهم " فمن أكثر الأمور المدهشة عن نوعنا، هو ما تبينه قصة بابل التي كاد فيها بنو الإنسان المتكلمون بلغة واحدة يصلون إلى السماء، حتى أن الإله نفسه شعر بأنه مهدد "2. إنها أزمة خطيرة أمام هذا الإله المُهدد بسبب توحيد بني الإنسان. وجاء في دائرة المعارف الكتابية أن " بابل بمعنى باب الله أو باب الآلهة "3. كما قدم اسم مدينة بابل " باسم مركز الحياة والمدينة الفاضلة أو الفردوس، على اعتبار أن بابل هي جنة عدن "4. لكن العهد القديم حاول وبكل سذاجة أن يبعد ارتباط كلمة (إيل) العبرية ومعناها الله بأي شيء، سوى ليحتفظ بنو إسرائيل باسم إيل، أو الله خالصاً لهم من دون بقية الناس. السبب الذي أدى بأسفار العهد القديم ونصوصها إلى إهمال مكان بيت الله، لأنه تجاوز قبيلة شعب الله، وتجاوز مكان وأرض الميعاد. كما تجاوزت النبوة نسبهم النقي كأبناء الحرة، لتكون النبوة والرسالة من نصيب أبناء هاجر الأمة. ولم يصبح المكان بيتاً لرب إسرائيل، بل بيتاً لرب العالمين. لهذا سردت سورة البقرة قصة بابل مرتبطة بإشارات وشفرات تتعلق ببني إسرائيل وتاريخهم، لتفصح ما زعمه القوم من أساطير، مزجوها بنصوص كتبهم وتاريخهم، وهذا أثناء فترة سببهم ببابل .

لقد جاء ذكر بابل في القرآن الكريم كمكان مرتبط باسم ملكين. " وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُرُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٢ "5. جاء في كتاب الطبري " وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملا، فتكون متبعته بالعمل ودراسته بالرواية فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك وعملت به وروته "6. أما منهج القرآن الكريم فهو يستفز المتلقي لهذه الألفاظ والمسميات، ليدفعه إلى عملية بحث وحفر في تاريخ وتراث الشعوب. إن " كتابات المؤرخين الإغريق وكتاب التوراة، مصادر معلوماتنا الوحيدة عنها - بابل - حتى منتصف

1 العهد القديم : سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر الفقرتان 8 9 .

2 ستيفن بنكر : الغريزة اللغوية، ترجمة د. حمزة بن قبان، دار المريخ، الرياض 2000 . ص 22 .

3 دائرة المعارف الكتابية ، المجلد الثاني . ص 6 .

4 المرجع نفسه . ص 6 .

5 سورة البقرة : الآية 102 .

6 ابن جرير الطبري : جامع البيان ، المجلد الأول . ص 316 .

القرن التاسع عشر. فمنذ تلك الفترة وسع حل رموز الكتابة المسمارية، والتقنيات الأثرية معلوماتنا وجددها. وهذه الوثائق البابلية بالذات هي التي تقص علينا مجد بابل. وعلى هذا النحو خرجت هذه الحاضرة من الأسطورة، ومن كفن الأرض الذي طمرها آلاف السنين¹. وهذا ما يجعل نصوص العهد القديم محل مساءلة ومراجعة وشك. كما اعتمد بعض المفسرين المسلمين على الإسرائيليات في عرض قصة بابل، مبتعدين عن النص القرآني وقصده. ويبدو أنه " كانت هناك قصة معروفة عنها، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما يعرفان السحر ويعلمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما، فنفى القرآن الكريم هذه الفرية، فرية تنزيل السحر على الملكين. ثم بين الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس، لحكمة مغيبة، وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء إليهما طالبا منهما أن يعلماه السحر: وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر"². و لا بد أن تُبحث العلاقة بين بابل وبني إسرائيل، لبيان علاقة كل هذا بالسحر .

تقول ملحمة التكوين البابلية: " في البدء يوم لم يكن للأشياء أسماء، ولدت الحياة الأولية التي كانت مبهمة في بادئ الأمر، بمعية عنصرين : هما الماء العذب، والماء المالح اللذين يمثلهما أبسو وتيمات، وفقا لميزاتها المجموعة العليا والمجموعة السفلى"³. وهنا نلاحظ تقاطعا مع النص المقدس في التسمية - سفر التكوين وملحمة التكوين، وفي افتتاحية النصين بعبارة - في البدء - كما يتقاطع لفظ الهيكل مع لفظ بابل " لأن المدينة - بابل - كانت مبنية على باب أبسو، وكلمة أبسو تدل على مياه الاختلاط في ما قبل الخلق، وهذا التقليد ذاته يوجد لدى العبرانيين أن صخرة الهيكل في القدس راسخة الأعماق حتى يتوم، وهو المعادل العبري أبسو"⁴. وتقول الأسطورة أيضا: " ولما انتهى مردوخ من عمله الخلاق بقي عليه أن ينظم أسس العبادة ، فبنى عندئذ هيكلًا شاءه أن يكون مقامه الإلهي، فكان ذلك المقام ال أي - سا - جيل سماوي"⁵. وهذا ما يوضح لنا أن فكرة الهيكل عند بني إسرائيل مستوحاة من الأساطير البابلية، لأن بني إسرائيل عرفوا البيت والمسجد، ولم يعرفوا الهيكل. فبنو إسرائيل " نسبوا ما أضافه الله جل شأنه إلى

¹ مارغرين روتن : تاريخ بابل ، ترجمة زينة عازار ، منشورات عويدات ، الطبعة الثانية 1984، بيروت . ص 9، 10 .

² سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 95 .

³ مارغريت رويتن : المرجع السابق . ص 126 .

⁴ مرسيا إلياد : المقدس والعادي . ص 79 .

⁵ لبن جريير الطبري : المرجع السابق . ص 128 .

الشياطين من ذلك إلى سليمان ابن داود - عليهما السلام - وزعموا أن ذلك كان علمه وروايته، وأنه إنما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسحر¹. وهنا نتضح لنا تبرئة النص القرآني لسليمان - عليه السلام - من تلك المزاعم الباطلة التي احتوتها الأساطير البابلية، وما جاء في أسفار العهد القديم .

أما " هاروت وماروت فهما بَدَلٌ من الملكين، وهما اسمان كلدانيان دخلهما تعبير التحريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية ، والظاهر أن هاروت معرب هاروك، وهو اسم القمر عند الكلدانيين. وأن ماروت معرب ماردوخ، وهو اسم المشتري عندهم، وكانوا يعدون الكواكب السيارة من المعبودات المقدسة التي هي دون الآلهة². وقد جاء ذكر مردوخ في الوثائق البابلية، مع زعمهم بأنه " ترسخ سلطانه أيضا بفضل السحر³. وهذه هي الشفرات التي وردت في الخطاب القرآني : - هاروت ، ماروت ، والسحر- وأن سلطان سليمان - عليه السلام - في تسخير الشياطين والجن، كان بتأييد وفضل من الله تعالى " قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧ وَأَخْرَيْنَ مُفْرَّينَ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨ "4. كما أن معجزة إحضار عرش ملكة سبأ تمت من طرف الذي عنده علم من الكتاب، وليس الذي عنده معرفة من السحر، فهي معجزة ربانية، وليست عملا سحريا. وهنا تقوم القصة القرآنية لتصحح الزعم الخاطيء حول ما أثير من باطل، في قصة سليمان - عليه السلام - .

لقد " أصبحت مفاهيم المستشرقين حول العقيدة، وحول الأنبياء وحول التراث تركض في الحقل الثقافي كما يحلو لها. واقتحمت محراب الرهبة والتقديس في نفس المسلم، فأصابت القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم ... وادعى المستشرقون أن تعاليم محمد مستقاة من أحبار اليهود وقساوسة الكنيسة، والرحلة التي كان يقوم بها هنا وهناك⁵. في حين يسكتون عن التقاطع بين الأساطير، ونصوصهم المقدسة، كما يسكتون عن رحلات إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - . إن " القرآن الكريم اتهم اتباع التوراة والإنجيل بتحريفهما، لذلك اتهم المستشرقون

¹ المرجع نفسه . ص 317 .

² الشيخ الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 642 .

³ مارغريت رويتن : المرجع نفسه . ص 163 .

⁴ سورة ص : الآيات 35 ، 36 ، 37 ، 38 .

⁵ د . خالد أحمد أبو الجندي : المرجع السابق . ص 20 .

محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه استمد في إنشاء القرآن من هذين الكتابين قصصًا وأخبارًا وأحكامًا¹. لكن الخطاب القرآني المتفرد ينتزع صدقيته من نبوءاته التي تتجسد حقائق على أرض الواقع عبر الامتداد الزمني والتاريخي، والتي لا يمكن أن تُحرف أو تُخفى. إن " الخطاب التاريخي تمثيل أثير لقدرة الإنسان على ضخ المعنى في تجربة الزمن، لأن المرجع المباشر لهذا الخطاب هو الأحداث الواقعية، لا الأحداث المتخيلة"². وبالتالي فإن النص حينما نعرضه على الزمن والواقع، والحقيقة والتاريخ، والنقد العلمي والموضوعي، لن يفلت من أن يكون قد تجاوز هو الزمن، أو تجاوزه الزمن، ولن تفيد الخطاب أي دعوة مزعومة للتقديس، لأن التاريخ سيعمل في الاتجاه الذي سيعزز صدقية الخطاب، أو يعمل عكس ذلك .

لقد أشار الخطاب القرآني لقصة - أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ - وهذا أمر مهم في تاريخ العقيدة، محددًا مكانه تاريخيًا وجغرافيًا بكل وضوح " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَرَبُّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ آلْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٩٧"³. إن هناك شفرات ودوال يمكن لها أن تتقاطع مع ما جاء في النص الكتابي. ولا بد أن نشير إلى أن النقد الأدبي يصبح محدود الدور في تحليل الخطاب التاريخي، لأن " المعارف اللغوية المتبحرة لا تكفي وحدها لفهم هذه الآيات القرآنية، بل يجب بالإضافة إليها امتلاك معارف علمية شديدة التنوع"⁴. إن فهم الخطاب يستلزم الموسوعية. ونعود إلى شفرات الخطاب، وهي : - أول بيت، بكة، الناس، هدى للعالمين، مقام إبراهيم، حج البيت - ليصبح البيت مرتبطًا باسم بكة، ومرتبًا بإبراهيم - عليه السلام - ومرتبًا بالحج وبالناس. لقد حاول المفسرون أن يجدوا حلاً للإشكالية اللغوية للفظه - بكة - " ومن الناس من فرق بين بكة ومكة، فقال بعضهم إن بكة اسم للمسجد، أما مكة فهو اسم لكل البلد ... وقال الأكثرون: مكة اسم للمسجد والطواف، وبكة اسم البلد. والدليل عليه أن قوله تعالى - لِلَّذِي بِبَكَّةَ - يدل على أن البيت حاصل في بكة، ومظروف في بكة. فلو كان بكة اسماً للبيت، لبطل كون بكة ظرفاً للبيت. أما إذا جعلنا بكة اسماً للبلد استقام هذا الكلام"⁵. لكن الإشكال يبقى قائماً، ولو ورد الاسم بمكة لانتهى الإشكال. وهذا ما

¹ محمد حمدي زقزوق : الاستشراق . ص 55 .

² بول ريكور : الوجود والزمن والسرد ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 999 الدار البيضاء . ص 192 .

³ سورة آل عمران : الأيتان 96 ، 97 .

⁴ موريس بوكاي : المرجع السابق . ص 126 .

⁵ الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثامن . ص 161 .

يجعل كل لفظة في الخطاب القرآني تؤدي وظيفة نوعية مميزة، لا تعتمد على المهارة اللغوية فحسب، بل تعتمد أيضا على الموسوعية المكتسبة في المعارف الأخرى، والقيام بعملية حفر في نصوص أسفار أهل الكتاب، مما يتطلب معالجة متأنية وحذرة من جهة، وتحد للمتلقي، واستفزازا من جهة أخرى. إننا نجد في العهد القديم هذه الفقرة " طوبى لأناس بك عزهم طرق بيتك في قلوبهم * عابرين في وادي البكاء(بكة) يصيرونه ينبوعا ببركات "1. وقد جاء في نسخة الملك جيمس " through the valley of Baca" 2. فجاء اسم بكة Baca اسما علماً، مكتوبا بحرف (B) الكبير، الدال على أنه اسم علم. فالتحريف يُطال حتى أسماء العلم أثناء الترجمة، وهذا عمل بعيد عن الموضوعية في ترجمة النصوص، وبعيد عن الأمانة العلمية، ولا سيما إن كانت ترجمة لنصوص مقدسة .

ومرة أخرى نلاحظ التلاعب والتحريف، حيث استبدلت لفظة - بكة - بلفظة البكاء في النسخة العربية، ومبدأ الترجمة يفرض الإبقاء على لفظ أسماء العلم، ولا يسمح بتحريفها أو تبديلها، أو ترجمتها. وفي فقرة العهد القديم - المزامير - نجد هذه الشفرات : وادي بكة - طوبى لأناس، بيتك - حيث يرتبط اسم - بكة - بالناس والبيت. ولهذا فلفظة واحدة في الخطاب القرآني تتحدى موسوعتنا النقدية والتاريخية والمعرفية، وتدفعنا للقيام بعملية حفر مضنية وعميقة في ما حوته النصوص السابقة لأهل الكتاب. كما نجد عدة شفرات في الخطاب الكتابي مع لفظة بكة، يمكن للموسوعة الدينية المقارنة أن تفكها، وهي " لأن يوما واحدا في ديارك خير من ألف اخترت الوقوف على العتبة في بيتي إلهي "3. فعبارة - يوما واحدا خير من ألف - هي شفرة زمانية دينية ترتبط بهذا المكان، وتعود بنا إلى معنى الحديث الشريف " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام "4. وهي شفرات كما نرى لها مدلولات دينية ، لا نجد لها تفسيراً واضحاً، إلا في المعتقد الإسلامي .

إن السبيل الوحيد هو أن يقوم الدارسون بالبحث والمقارنة والدراسات التاريخية والأدبية قبل إصدار الأحكام المسبقة والجاهزة. " وكوننا بشراً فإنه لا يمكننا على الإطلاق أن نقرر

1 العهد القديم : المزامير ، الإصحاح الرابع والثمانون ، الفقرتان 5 ، 6 .

2 Bible ; psalm 84/6 , king James version .

3 العهد القديم : المزمور الثامن والأربعون ، الفقرة 10 .

4 الإمام البخاري : صحيح البخاري . ص 184 .

الشخصية التاريخية، أو الرمزية لكل قصة قرآنية أو نعرفها، إذ لا أحد لديه المستوى اللازم من المعرفة بالتاريخ، والتراث الشفهي للعرب من شأنه أن يقدم زعماً كهذا. يجب علينا أن نعترف بالجهل الشخصي، ولكن يجب ألا نسمح لهذا الجهل، أن يضع حدوداً وقيوداً على طرائق ووسائل فهم التنزيل¹. فالباحثون الغرب المتعصبون يحرصون دائماً على تحريف اسم مكة وبكة، لتحبيدهما عن مكانهما التاريخي والجغرافي الحالي، وإبعادهما عن إطارهما الروحي، ومكانتهما المقدسة. يقول بعضهم: "مع ذلك فثمة مصدر غير مؤكد للتاريخ، ألا وهو النص الآرامي السامري المعروف باسم الأساطير، والذي يوحي بأن اسم بكة، قد يكون بقية مرحلة مهجورة من البحث عن حرم هاجري. وبحسب هذا النص فإن أبناء نبايوت بنوا مكة كما هو مكتوب: وأنت أت بكة نحو أشور وكان قد نزل قبالة جميع إخوته"². والحقيقة البارزة هي أن المعبد المهجور هو الهيكل اليهودي، الذي تحول إلى خراب منذ آلاف السنين، أما بكة فلا زالت قائمة منذ آلاف السنين بيتاً لله، ومقصداً للمؤمنين من كل مكان، حجا وعمرة، وقبلية للصلاة.

إن هذه الحقيقة التاريخية الواقعية المشهودة، هي التي فرضت نفسها على مؤلفي كتاب - الهاجريون - ليقولوا: "التشابه مدهش فكل طرف يقدم البيان الثنائي الجانب لمدينة مقدسة مرتبطة بقوة مع جبل مقدس قريب منها، وفي الحالتين نجد أن الطقس الأساسي يتمثل في حج من المدينة إلى الجبل، وفي الحالتين الحرم هو موضع أسسه إبراهيم - عليه السلام - فالدعامة التي قدم عليها إبراهيم - عليه السلام - قربانه في شكيم، نجد ما يقابلها في ركن الحرم المكي"³. ولكن الفرق بين الحرمين - المكانين المقدسين - هو عالمية المكان وقوميته، فالبيت الذي يقصده كل الناس هو الذي ببكة، وليس بشكيم الذي هو مكان لطائفة واحدة من اليهود، دون الأخرى. وهذا يشكل مأزقاً حقيقياً حتى لليهود أنفسهم - أصحاب الملة الواحدة - حول حقيقة مكان تضحية إبراهيم - عليه السلام - . ولن نجد النص الكتابي ما يقوله في إشكالية المكانية هذه، فإن كذب أهل الكتاب النص القرآني، فلن يستطيعوا أن ينكروا حقيقة حج مسلمي العالم إلى بيت الله، وطوافهم وصلاتهم فيه، عبر الامتداد التاريخي .

¹ د . جيفري لانغ : المرجع السابق . ص 40 .

² باتريسيا كرون ، مايكل كوك : الهاجريون ، ترجمة نبيل فياض، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى، ص 41 .

³ المرجع نفسه . ص 41

إن مساءلة التاريخ الديني واجبة في ذلك، وعملية فحص النصوص المقدسة وتحليلها ضرورة حتمية لمعرفة حقيقة قصة تاريخ العقيدة، التي أنزلها الله تعالى من السماء، منذ هبوط آدم. فمن السهل جدا أن ننبي معبداً باسم الرب، وأن نجلب إليه جمعا من الناس. لكن من الصعب، بل من المستحيل أن نجتمع الناس من كل قطر في الأرض، مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، ومكاناتهم وأعمارهم، وفي زمن واحد، حيث يقفون في مكان واحد، يهتفون باسم الرب الواحد : لا إله إلا الله. أليس هذه الظاهرة التاريخية الدينية الطقسية المتكررة ، تفرض نفسها على دراسة وبحث حقيقة المكان المقدس، والخطاب المقدس، والزمان المقدس ؟ إننا سنجد المعالم البارزة والدلالات البينة، والأسرار المعجزة في المكان الكوني والمركزي. فالعقيدة الحقة ليست فكرة عنصرية صادرة عن إله قومي، أو إله لا يتعامل إلا بقانون التحديد الديمغرافي الصارم الذي يفرض فكرة الابن الواحد، ليحرم بموجبه وجود أخوة لبنوة وحيدة. أو إله يتعامل بالقانون العنصري الذي شرع الطبقة بين السادة والعبيد والمنبوذين، فيزعم بعضهم " أنهم خلقوا من رأس الإله براهما، ولذلك كانوا أعلى الناس وخالصة الجنس البشري وعقله المفكر ورأسه المدبر "1. وبالتالي فلن تصلح هذه العقائد العنصرية أبدا أن تكون أصلا نصا مقدسا لعقيدة سماوية، فضلا أن تكون وحيا إلهيا، أو خطابا مقدسا .

يوصل الباحثان قولهم بأن " الحرم المرتبط بإحدى المدن يرتبط بقوة أيضا مع قبر أحد الأباء إبراهيم وسلالته المناسبين - يوسف مقابل يهوذا - في الحالة السامرية، وإسماعيل مقابل إسحاق في الحالة المكية. هذه المتوازيات هي الأكثر لفتا للنظر في أن الحرم المكي هو بوضوح ليس سوى نهاية لتطور معقد "2. إن النظرة القومية الضيقة هي المسيطرة على روح الباحثين، فالحرم المكي هو بيت الله للناس، وليس حرما قوميا خاصا ببني إسماعيل، كشأن السامرية وحرمة الخاص بها دون طائفة يهوذا. والفرق شاسع وواضح بين العالمية والقومية الضيقة، حتى بين أبناء الملة الواحدة. أما النص القرآني بمنطقه السليم، وعرضه البين يصل بنا إلى استيعاب المكان الكوني المركزي، الذي يجعل كل الأمكنة المقدسة الأخرى دون مكانته تلك. والتقاء الناس حول مكان مركزي، يعلنون فيه عبادتهم لله الواحد، كشهادة على أن العقيدة واحدة لم تتغير أبدا، هو

1 د. محمد أبو زهرة : الديانات القديمة ، دار الفكر العربي ، القاهرة (د ت) . ص 49 .

2 باتريسيا كرون ، مايكل كوك : المرجع السابق . ص 41 .

ليس أمرا معقدا أو غامضا. بل إن الناس من آدم إلى هؤلاء المؤمنين ما عبدوا وما يعبدون إلا إلهها واحدا. فهم يجددون العهد كل موسم على تمسكهم بوحداية رب العالمين، وليس ربا خاصا بإسرائيل. إلا أن الخصوصية القبلية الضيقة للإله المنحوت، أو الإله الشخصي المتجسد، والإله المؤتمن هي الأمر الغامض والغريب والمعقد حقا، الذي لم يُعرف عبر تاريخ العقيدة السماوية أبدا. لا زالت مكة بيت الله تفضح ادعاء قدسية أي مكان سواها. ولولا وجود لفظتي - مكة وبكة - في الخطاب القرآني، في سرده لتاريخ قصة المكان المقدس والمركزي، وهو أول بيت وضع للناس، ما التفت الباحثون إلى هذه الكلمات المفتاحية، وتتبعوا أثرها في النصوص القديمة الدينية والتاريخية، وبذل أهل الكتاب جهوداً مضنية لتعمية المكان المقدس، وتحريف الأسماء لإبعادها عن محيطها الجغرافي، ومدلولها التاريخي والديني. وهذا ما يجلي بوضوح قصد ارتباط الخطاب القرآني بالتاريخ، للوقوف على حقيقة قصة المكان المقدس .

تقول باتريسيا كرون في اسم مكة: " ذكرها بطليموس تحت كلمة ماكورابا Macoraba وهذا الاسم الذي ينطبق على جدة، كما ذكر أميانوس ماركيليوس هو الآخر تحت اسم المدينة المقدسة Hilopolis. والواقع أنه ينبغي غض النظر نهائياً عن هذه الآراء التي سبق تقديمها¹. لقد تحول التحريف إلى التاريخ، لإبعاد هذا الاسم حتى من الدائرة التاريخية، لتقول الباحثة عن أصل الكلمة: " لذلك فإن ماكورابا يشتق منها مكة رابا أي : مكة العظيمة. ولكن هذه البنية اللغوية خطأ على طول الخط، ففيها تم استبدال الاسم بكلمة ماكرابا أو ميكراب، وهي المعبد. كما أن الجذر اللغوي كرب - krb - ليس له معنى القداسة في اللغة العربية². وعكس ما تدعيه الباحثة، ففكرة المكربية " تمثل الكهانة في دورتها العليا، حيث كان المعينون والسبئيون والقبتانيون والحضرموتيون في البدء يتلقبون بلقب مكرب، الذي كان فيه معنى الرئاسة الدينية، والوسيلة التقريبية بين الآلهة والناس³. إن الخطاب القرآني يفتح ميدان التاريخ بكل تحد معجز ، متحديا الباحثين المتخصصين في التاريخ وعلم الآثار واللغة. ومنهج القرآن الكريم فريد في تعامله مع المادة التاريخية، فهو يجرد الحدث من سياقه التاريخي التفصيلي، ويتجاوز عنصري

¹ باتريسيا كرون : تجارة مكة ، ترجمة أمال محمد الروبي ، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى 2005 ، القاهرة . ص 235 .

² المرجع نفسه . ص 235 .

³ الشيخ أحمد مغنية : تاريخ العرب القديم ، دار الصفاة ، الطبعة الأولى 1994 ، بيروت . ص 129 .

الزمان والمكان اللذين يهتم بهما السرد التاريخي، والذي يفسر الأحداث بالشكل المباشر بعد انتهائها.

فالقرآن الكريم هو اطلاع على غيب الماضي والمستقبل، وهذا يتطلب منا دراسة عميقة واعية، وثقافة واسعة وثرية، تظهرنا دائما أمام الخطاب القرآني أننا دون المستوى، ويعلن بكل إعجاز اسم المكان الأول - بكة - حتى وإن تناسه سكان المكان. وبالتالي يضعنا الخطاب القرآني أمام التاريخ بمجرد شفرة واحدة، تحيلنا على تاريخ المكان وحقيقته الدينية والتاريخية واضحة كاملة. لقد اهتم الخطاب القرآني أكثر بالمكان المقدس - بيت الله - وركز على مكانته التاريخية منذ بداية إقامته، في حين أهمله الخطاب الكتابي، وحاول اللاهوتيون والباحثون تعمية المكان المقدس بمحاولات متتالية مستمرة. ليأتي القرآن الكريم، وبعد إبراهيم - عليه السلام - بقرون من الزمن، ليقول: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٣٣ "1. ويقول صاحب الحسام الممدود في ترجمته لفقرة من النص المقدس " وفي غفلة يأتي مكة السيد الذي أنتم طالبون، محمد الذي يأمر بالخمس صلوات الذي أنتم له محبون هاهو ذا يأتي قال رب الجيوش "2. ها نحن أمام الأحداث التاريخية ووقائعها، وأمام النص القرآني وخطابه، ولما " كان تحليل الخطاب يقف في مفترق طرق العلوم الإنسانية، فهو عرضة لعدم استقرار جم، ذلك أنه يوجد محللون للخطاب هم بالأحرى علماء اجتماع، وآخرون هم بالأحرى لسانيون، والبعض الآخر علماء نفس، بالإضافة إلى هذه التقسيمات، هناك خلافات بين تيارات متعددة "3. وهنا لا يمكن للنقد الأدبي أن يبحث المسألة المكانية، دون الاستعانة بالتحليل التاريخي والمقارن ليستكشف أبعاد الخطاب المقدس وارتباطه بالتاريخ، تاريخ العقيدة وتاريخ البشرية .

لقد تكررت قصة موسى - عليه السلام - لتحتل الجزء الأكبر من القصص القرآني، وهذا التكرار سببه مكانة رسالته - عليه السلام - في تاريخ العقيدة، والتي تمهد للرسالة الخاتمة " قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩

1 سورة التوبة : الآية 33 .

2 عبد الحق الإسلامي المغربي : الحسام الممدود في الرد على اليهود، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى 2001 بيروت. ص 205 .

3 دومنيك مانغوز : المرجع السابق . ص 10 ، 11 .

"1. فدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست أمراً مبتدعاً مستحدثاً، بل قد سبقه في التاريخ والزمن إلى ذلك عدد من الأنبياء والرسل - من نوح إلى عيسى - على جميعهم السلام - فكان " كل نبي يمر وهو يقول كلمته الهادية، وتكذبه هذه الإنسانية الضالة، ثم يمضي ويجيء تاليه، فيقول الكلمة ذاتها ويمضي وهكذا "2. فدعوة الرسل عبر مختلف مراحل تاريخ البشرية، تبقى مؤكدة عبادة الله وحده. فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي امتداد طبيعي لرسالة التوحيد التي نزل بها آدم حين أهبط إلى الأرض، ثم تبعته ذريته من الرسل والأنبياء يبلغون رسالات ربهم. " مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ٤٣ "3. فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان تالياً للرسل السابقين وخاتماً لهم .

إن عقيدة التوحيد هي حقيقة أزلية نزلت من السماء مع آدم - عليه السلام - ودعا إليها كل أنبياء الله ورسله " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٢٥ "4. فدعوة الرسل واحدة " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥ "5. ولهذا يقول عزت بيجوفيتش: " وضع مرسيا إلياد، النبي محمداً صلى الله عليه وسلم على مفترق طريق التحول من المرحلة الثانية، إلى المرحلة الثالثة (والأخيرة) من مراحل التحول الروحي للجنس البشري ... وبهذه الرؤية يقف محمد صلى الله عليه وسلم على حافة سيادة المسيحية وبداية العصر العلماني الحديث، بمعنى أنه يقف في النقطة البؤرية للتوازن التاريخي "6. كما قام الخطاب القرآني بعرض تاريخ العقيدة عند أهل الكتاب، وما أحدثوا فيها من تغيير " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١ "7. وفي تحليل الخطاب دائماً يوجد " مهيمنون ومهيمن عليهم، وتموقعات مركزية وأخرى هامشية تقع على الأطراف ... بيد أن كل تموقع هامشي هو مهيمن عليه "8. لكن

1 سورة الأحقاف : الآية 9 .

2 سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم . ص 71 .

3 سورة فصلت : الآية 43 .

4 سورة الأنبياء : الآية 25 .

5 سورة البينة : الآية 5 .

6 علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب . ص 278 .

7 سورة التوبة : الآية 31 .

8 دومنيك مانغوز : المرجع نفسه . ص 15 .

في الخطاب القرآني كل الخلق مُهيمن عليهم بصفة مطلقة، فالكل خاضع لله تعالى - الذات العليا صاحبة الخطاب والإرادة الفوقية.

أما الموحدون فهم وحدهم المستجيبون لهذه الحقيقة الأزلية - لا إله إلا الله - وهم وحدهم الذين تربطهم العلاقة الروحية بإبراهيم - عليه السلام - وهم وحدهم الذين ارتبطوا بالمكان المقدس - بيت الله - يولون وجوههم شطره، في صلاتهم الدائمة والمتكررة يوميا دون انقطاع. " وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَّيْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠ "1. ويتوجهون حاجين إليه كل عام، وهم يطوفون بالبيت - لا تنقطع حركتهم - حوله ليلا نهارا. وهذا مشهد ديني، زمني وتاريخي قاطع يتحدى كل باحث، أو مكذب معاند يحاول أن يلغي وجود هذا المكان - بيت الله - أو يحول موقعه ووجهته من حيث الجغرافيا والتاريخ والعقيدة. إلا أن هذا الأمر مستحيل، لأن مشيئة الله هي العليا، وحكمته هي البالغة، وأمره هو النافذ، ودينه هو الحق، وهو رب العالمين بيده كل شيء .

قال تعالى في قصة إبراهيم - عليه السلام - : " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٢٩ "2. إنها أيضا إشكالية زمانية تاريخية لا يقدر عليها إبراهيم - عليه السلام - الذي سيعيش مرحلة زمنية محدودة، لكنها ستبقى ممتدة تاريخيا عبر الأجيال التي ستأتي بعده. وهذا الواقع المشهود يصبح معياراً للخطاب المقدس. وهكذا يتقاطع كلام الله مع بيت الله، ليلتقي فيه الناس من كل فج عميق، تلبية لنداء الحج ونداء الفطرة " لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك "3. فأين سُمع وسيُسمع هذا النداء؟ إنها إشكالية زمانية اعترضت المفسرين، ونحن نسمع كل يوم - وعلى خمسة أوقات متتابعة بين الليل والنهار - نداء الأذان المرفوع للصلاة في نقاط الأرض الأربع. تقول إحدى الفرنسيات بعد إسلامها : " لقد استجبت لنداء الإسلام لأول مرة عند زيارتي لمصر عند سماعي الأذان في موعد صلاة الظهر، لقد شعرت حينئذ بأنه يناديني

1 سورة البقرة : الآية 150 .

2 سورة الحج : الآيات 27 ، 28 ، 29 .

3 الإمام البخاري : صحيح البخاري . ص 240 .

1" . لقد تقاطع نداء أذان الصلاة مع نداء الفطرة عند هذه الفرنسية، التي لم تكن لتعرف حتى اللغة العربية، وتدرك معاني خطاب أذان صلاة الإسلام، إلا أنها كانت سليمة الفطرة فتجاوبت مع قوله تعالى: " رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ ١٩٣ "2. فهل سيكون صوت الأذان في الدول الغربية والعلمانية مستقبلاً، أكثر إزعاجاً من دقات أجراس كنائس النصارى وأصوات أبواق بيع اليهود؟. وهل نستطيع أن نعرف دوافع طلب الكاتب جوستاف فلوبير * : " إنني أطلب باسم الإنسانية أن يُسحق الحجر الأسود، ويُلقى رماده في الريح، وأن تُهدم الكعبة، وأن يُدنس قبر محمد "3 . وهذا المطلب الإنساني لدى هذا الكاتب يقتصر دائماً فقط على معبد واحد دون بقية معابد العالم، وعلى نبي واحد دون سائر الأنبياء السابقين .

يقول هنري برجسون : " لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة "4. ويقول ديكرت : " إن فكرة الله قد عُرسَتْ في الإنسان عند خلقه "5. كما يقول غوستاف لوبون : " والناس شادوا القصور للآلهة قبل أن يقيموها للملوك "6. يمكن أن لا نلمس تدينا في المجتمعات المتطورة المادية والملحدة، لكن إله السوق عندهم هو المعبود، وهذا ما أوجد " إيديولوجية السوق التي لا يدين رجل الدولة في واشنطن بدين غيرها، ولا يعبد رباً سواها، ولا يعرف حقوق إنسان إلا من خلالها "7. هذه الإيديولوجية المادية هي التي أوجدت شوارع البورصات، ومعابد العملات، لتلاوة نشرات الأسهم صباحاً مساءً، إنها عبادة المادة التي انحرفت عن الفطرة السليمة. " لقد أدى ازدهار جديد إلى نشوء طبقة تجارية، فكانت السلطة تنتقل من الملوك والكهنة، ومن المعبد والقصر إلى السوق "8. وصورة الناس للإله المعبود هي التي تغيرت عند هؤلاء الماديين والعقلانيين. ولو مُس إله السوق والمال، لاندلعت حرب طاحنة، تُزهق فيها آلاف الأرواح، كما تُزهق الأرواح حين تُمس المعابد والطقوس

1 د. عبد الودود شلبي : إجابات حاسمة ، مؤسسة الخليج العربي ، الطبعة الأولى 1987 القاهرة . ص 19 .

2 سورة آل عمران : الآية 193 .

3 أ.د. زينب عبد العزيز : موقف الغرب من الإسلام ، دار القيس للطباعة ، الطبعة الأولى 2004 مصر . ص 29 .
* هو كاتب وروائي فرنسي (1821 ، 1880) وصاحب رواية مدام بوفاري .

4 عامر الكفيسي : حركة التاريخ في القرآن الكريم ، دار الهدى ، الطبعة الأولى لبنان 2003 . ص 296 ، 297 .

5 المرجع نفسه . ص 297 .

6 غوستاف لوبون: حياة الحقائق، ترجمة عادل زعيتير، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، مصر 2012 . ص 25 .

7 منير العكش : تلمود العم سام ، رياض الرئيس للكتاب ، الطبعة الأولى 2004 بيروت . ص 311 .

8 كارين أمسترونج : الله والإنسان . ص 40 .

الدينية. " الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوْمِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ " 1 - وفي رواية - ولولا دفاع الله - هذا الصراع الخطير هو الذي يبرز معالم تاريخ العقيدة، وخطابها المقدس الذي يلامس الفؤاد والعقل والضمير والوجدان. كما يدل على فطرة التدين والعبادة، والحاجة الماسة إلى الإله والبحث عنه، فإن لم يجده الباحثون عنه كخالق مربوبون له، صنعوه هم لأنفسهم ونحتوه على هيئة ما تصوره وتخيّلوه.

وإذا كان الصراع على امتلاك الثروة واحتكارها يجري بين الناس، فهناك أيضا صراع حول احتكار الإله والدين، لحرمان بقية الخلق من بركة الرب الإله " وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا فَلَمَّ يَعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٨ " 2. إنه الخطاب الإلهي المتحدي، الذي يردع المدعين على الله، ويضعهم مع كل البشر المخلوقين دون امتياز. " من يكون حتى يحدثني بهذه الطريقة ؟. إن تحليل الخطاب يجب أن يجلي العلاقات المركبة بين هذه المنازل، وهذه التشكيلات المتخيلة. لا وجود لكلام غير صادر عن منزلة، ولا تنزل المخاطب في منزلة مماثلة " 3. ففوقية الذات العليا المخاطبية هي التي تتحدث، ولا ربا سواه. لهذا ففكرة الإله المنحوت، والإله الشخصي القومي، والعنصري والمتأنس والمصلوب، لا نظنها تكون مُصدّقة بهذه السهولة والسداجة عبر العصور وعند الآخرين المحرومين. تقول كارين أمسترونج: " إنهم فسروا عقيدة أن اليهود هم شعب الله المختار، على أنها تعني عدم خضوعهم للقوانين التي تسري على الأمم الآخرين، لأنهم متفردون " 4. لقد طغت تلك الصراعات عبر التاريخ، وخاصة بعد عهدي موسى وعيسى - عليهما السلام - لتزداد حدتها مع زمن إقرأ حتى الآن. وهذا ما جعل كرومر يقول: " جئت إلى مصر لأمحو ثلاثا: القرآن والكعبة والأزهر " 5. وها نحن نجد صورة أبرهة تتكرر مرة أخرى في شخص الإنجليزي كرومر " وكان اللورد كرومر نموذجا صادقا لرجل الاستعمار " 6. وإلى هذا

1 سورة الحج : الآية 40 .

2 سورة المائدة : الآية 18 .

3 دومنيك مانغوز : المرجع السابق . ص 97 .

4 كارين أمسترونج : معارك في سبيل الإله، ترجمة د. فاطمة نمر، دار نشر ألفري نيويورك، الطبعة الأولى 2000 . ص 508 .

5 محمد حامد الناصر : العصرانيون ، مكتبة الكوثر الرياض ، الطبعة الثانية 2001 . ص 29 .

6 كارين أمسترونج : معارك في سبيل الإله . ص 260 .

الحد يصبح الوحي والكعبة مزعجين. فكيف سيقف الخطاب القرآني من هذا الصراع الديني التاريخي المستمر؟ وكيف ستنمسك كل أمة بما تعتقده وتقدسه؟ وكيف يتم الفصل فيه؟ " هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۚ ۳۸ "1. سيكون يوم الفصل أمام رب الناس، وفي اليوم الآخر. إنه خطاب لا يكتنفه أي غموض أو تعقيد، أو التباس أو تحيز، يحكم فيه الله وحده بين جميع عبادته، ألا له الحكم والأمر .

إن الأذان بالحج كان أمراً إلهياً موجهاً إلى إبراهيم - عليه السلام - " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۚ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَفَعًا لَّهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ ۚ ٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۚ ٢٩ "2. ويأتي بعده الجواب مباشرة - يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ - " فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة عرف الله مكانه لإبراهيم - عليه السلام - ... ثم أمر الله إبراهيم - عليه السلام - باني البيت - إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به - أن يؤذن في الناس بالحج - وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام. ووعده بأن يلبي الناس دعوته، فيتقاطرون على البيت من كل فج، يسعون على أقدامهم، وركوبا على كل ضامر. وما زال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم - عليه السلام - إلى اليوم والغد "3. الحج هو قصة تاريخ العقيدة والإيمان والبيت، فيها يرتبط الخطاب المقدس بالمكان المقدس، وبالزمن المقدس. لكن الباحثة كارين أمسترونج تحيد عن النظرة العالمية للحج فنقول: " وفي عام 632 ميلادية أي قبل وفاته - الرسول صلى الله عليه وسلم - بوقت قصير قام بحجة الوداع، فأبقى على الشعائر الوثنية العربية القديمة كالحج الذي كان عزيزاً جداً على العرب، وجعله الركن الخامس من أركان دينه "4. وتناست الكاتبة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر حين حج بالناس، أن يعلن في الناس " ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان "5. إيذاناً بمنع المشركين من الاقتراب من البيت نهائياً. فلا الحج شعيرة وثنية، ولا الدين دين محمد، بل الحج شعيرة إسلامية، والإسلام دين الله. ولن تستطيع نصوص أسفار أهل الكتاب، ولا نصوص السرد التاريخي للمستشرقين المتعصبين، طمس حقيقة عناصر هذه القصة الخالدة. كما

1 سورة المرسلات : الآية 38 .

2 سورة الحج : الآيات 27 ، 28 ، 29 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 2418 .

4 كارين أمسترونج : الله والإنسان . ص 164 .

5 صحيح البخاري . ص 250 .

لا تستطيع خطابات العلمانيين المنكرين للوحي والنبوة، ولا دعوة الأبارهة المتجددة لهدم البيت أو تحويل وجهته .

تلك هي " قصة تاريخ بناء البيت الحرام، وذلك أساسه الذي قام عليه. بيت أمر الله خليله إبراهيم - عليه السلام - بإقامته على التوحيد وتطهيره من الشرك، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه ليذكروا اسم الله، لا أسماء الآلهة المدعاة "1. إن تاريخ عقيدة التوحيد هو الذي يجب أن يُبحث في كل خطاب يوسم بالقداسة، وعلى هذا الأساس تكونت معالم الخطاب القرآني، فلا إله إلا الله : هي الحقيقة الأزلية التي لن يتسامح السرد القرآني، مع أي سرد أو اعتقاد يجعل منها مسألة قومية، أو خطاباً أسطورياً، أو مسألة فلسفية غامضة، ولن يسكت عن تحريفها، أو إنكار الإله أو تعديده، أو تجسيده وصلبه. فقصة الحج المشهودة رد حاسم وقاطع على كل عقيدة تخالف ملة إبراهيم - عليه السلام - وعبادة الله الواحد لا شريك له " وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢ "2. إلا أن اليهود حولوا الله رب العالمين، إلى إله قومي خاص بهم، والنصارى عددوا الإله الواحد إلى ثلاثة أقانيم. فتحولت عقيدتهم من التوحيد إلى الشرك على مر التاريخ ، فمرة اعتقدوا أن المسيح بن الإله، ومرة جعلوه مساويا لله، ويبين الوحي كفر النصارى " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧ "3. وكانت الكنيسة في كل مرة تتدخل لتضيف زيادة في ما يسمى بقانون الإيمان. ليأتي الخطاب القرآني بعد ذلك، ويفند كل هذه المزاعم الباطلة في حق العقيدة والألوهية. " مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ٧٥ "4. وقام النصارى المثلثون باضطهاد النصارى الموحدين، ثم استعانوا عليهم بالسلطة الرومانية الوثنية ليتم سحقهم وإبادتهم، وإخماد جذوة التوحيد، وإخفاء كل خطاب يدل على توحيد الله وبشرية عيسى - عليه السلام - .

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 2420 .

2 سورة البقرة : الآية 132 .

3 سورة المائدة : الآية 73 .

4 سورة المائدة : الآية 75 .

إن أول بيت وضع للناس، يدل على عالمية رسالة الإسلام، وختام النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم ليصبح مكان بيت الله مكاناً مركزياً، تحيط به كل الأمكنة. ومرة أخرى نجد الوحي يرتبط بالمكان عبر التاريخ " وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩٢ "1. فأم القرى هي مكة " واتفقوا على أن أم القرى هي مكة "2. وقد سميت مكة أم القرى لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس وللأحياء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض، ولم تكن دعوة عامة من قبل. وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة، ليعودوا إلى البيت الذي خرجت منه الدعوة "3. إن الوحي يضع الناس أمام الحقيقة التاريخية والمكانية والدينية، ليؤكد على أن قدسية المكان لا ينبغي أن تكون ادعاءً باطلاً، ولا رغبة شخصية، ولا نزعة قومية، " وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ١٢٤ "4. فهي اختيار إلهي سابق في علم الله الأزلي، وهو الذي يعلم حيث تكون رسالته، وذلك قبل أن يُبنى أي بيت أو هيكل، وقبل أن تسطر البشرية تاريخ معتقداتها .

إن المكان الكوني الذي ظلت شعوب العالم وقبائله تتصوره وتقده في مواطنها وبلدانها، قد أسقطته حقيقة قصة تاريخ بيت الله الحرام، وأبطله حج المسلمين إليه. فقصة - بيت إيل - أو الهيكل كما وردت في العهد القديم، أو كنيسة الرب التي بنيت على عظام بطرس " أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب جهنم لن تقوى عليها "5. ما هي إلا محاولة ضالة لتعمية المكان المركزي للناس، وإبعاد الناس عن عبادة الله وتوحيده، والذي طالما يحاول بنو إسرائيل احتكاره لوحدهم دون بقية خلق الله. كما حاولت الإمبراطورية الرومانية الوثنية أن تنتزع مكان البيت، من أرض المسيح التي عاش عليها، لتحوله إلى روما التي لم يطأ أرضها إطلاقاً. ويبقى الصراع حول المكان المركزي، أو المدينة المقدسة عبر التاريخ، وهذا لا يحتاج إلا لواقع مشهود، وحركة دائبة لا تنقطع حول هذا البيت العتيق. فخالق الكون ومهندسه هو الذي حدد مكان بيته في

1 سورة الأنعام : الآية 92 .

2 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء السادس المجلد الثالث عشر . ص 86 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء السابع . ص 1142 .

4 سورة الأنعام : الآية 124 .

5 العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح السادس عشر ، الفقرة 18 .

سابق علمه " جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْدَةَ ذَلِكَ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٩٧ "1. فالله هو الذي جعل بيته الحرام مصلًى لكل الأمم، وهذا البيت لا يوجد إلا بهذا المكان المسمى مكة أو بكة، وبه البيت المسمى الكعبة أو البيت الحرام أو البيت العتيق أو بيت الله .

هذه هي الآية الربانية المعجزة - بالمكان والزمان والتاريخ والحدث - التي ينبغي أن تستوعبها عقول هؤلاء الذين يكذبون بالوحي وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويكفرون بالله، وبيوم البعث. فلا نرى تحدياً عبر كل تاريخ الخطابات الدينية والمقدسة المزعومة، أكبر من هذا التحدي التاريخي المعجز، الذي يبقى فيه الخطاب القرآني يلامس روح البقاء والخلود، متناولاً التاريخ كحركة صراع مع أهل الكتاب والملل الأخرى، بعرض تاريخ العقيدة التي يتساوي فيها كل الناس المخلوقين، أمام الله الخالق الواحد الأحد، كتساويهم أمامه يوم الحج، ووقوفهم بعرفة في كل عام، بداية من زمن - وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ - إلى زمن - أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - وانتهاء بزمن - أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ - وهذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها " ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم "2. فأين مكان جبل بيت الرب ؟ وأين هذا الجبل الذي تأتي إليه كل الأمم ؟ إنه المكان الأوحى الذي تتجسد فيه حقيقة تاريخ العقيدة الأزلية، ليسجل الخطاب القرآني خلوده، حقيقة وواقعاً وتاريخاً وأحداثاً، وعبر امتداد زمن حياة البشرية، ومراحل تاريخها من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى، وختاماً بمحمد - على جميعهم الصلاة والسلام - .

أما حين يُعرض تاريخ قصة المسيح - عليه السلام - يضعنا الخطابُ القرآني أمام إشكالية زمانية وتاريخية تتعلق بعقيدة النصارى " لقد جاءت معجزة ميلاد عيسى - عليه السلام في أزمة إيمانية لتَهْزِمَ العالم المادي الذي كان يعيش فيه بنو إسرائيل ... حتى أنهم قتلوا أنبياء الله الذين جاؤواهم يدعون إلى منهج غيبي، ويطلبون نبذ الإيمان المطلق بماديات الحياة "3. وجاء في نص إنجيل توما " وفي اليوم الثالث من رحلتهم حدث أن أنهكت حرارة الشمس مريم الصديقة في

1 سورة المائدة : الآية 97 .

2 العهد القديم : سفر أشعيا ، الإصحاح الثاني ، الفقرة 2 .

3 الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 364 .

الصحراء فرأت نخلة فقالت ليوسف : يجب علي أن أستريح تحت هذه النخلة لأستمتع بظلها ... وعندئذ اعتدل يسوع المسيح وملاح وجهه تتم بالسعادة في حضن أمه وقال للنخلة فلتتحنني أفرعك أيتها الشجرة ولتصلبي قوام أمي بثمارك، وعلى الفور انحنى النخلة بهذا الأمر إلى أقدام مريم الصديقة فجمعوا الثمار"¹. هذا النص يشير إلى أمرين أهملتهما الأناجيل الأربعة، وهما نطق المسيح لحظة ميلاده، وأن زمن ميلاده كان في موسم الصيف. وبالتالي يكون توظيف الخطاب القرآني للزمن في ميلاد المسيح - عليه السلام - أيضا توظيفا إعجازيا، يكشف الخطأ التاريخي والعقدي للنصارى، وهذا بعد ما رسمته الكنيسة، واعتقد به النصارى، ولا زالوا حتى الساعة .

يقول القرآن في قصة تاريخ ميلاد المسيح - عليه السلام - " فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ۚ ۲۳ فَادَّأَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۚ ۲۴ وَهَزَيْ إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۚ ۲۵"². والإشارة الزمانية التي جاءت في النص القرآني هي لفظة - رُطْبًا جَنِيًّا - حيث تدل على زمن الصيف، على الرغم من ذهاب المفسرين إلى ذكر فوائد التمر للنفساء: " ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب"³. وهذا عكس زعم النصارى بأن ميلاد المسيح كان في الشتاء. أما " ولادة المسيح فقد تعددت الأساطير التي أضافت على الحقيقة التاريخية مسحة من الغرابة. إننا نجد بعض الكتاب المسيحيين مثل القديس جيروم يقول : بأن المسيح وُلد في المكان الذي وُلد فيه أدونيس ... بل إن المسيح وُلد في المغارة التي وُلد فيها أدونيس ... واختيار هذه المغارة بالذات، دليل آخر على تحويل المعابد وأماكن العبادة الوثنية إلى شعائر وعبادات مسيحية"⁴. إن تعامل نصوص العهد الجديد مع الزمكانية والتاريخية، جعل الزمن يتجاوز خطابها، ويكشف التناقضات في القصة والعقيدة، حيث امتزجت المسيحية بالوثنية.

والأمر الغريب أن نصوص العهد الجديد لم تعن بقصة تاريخ ميلاد المسيح - عليه السلام - فلم " يعن مؤرخو المسيحية في البداية بتاريخ ميلاد المسيح ... ولم يعلن تاريخ ميلاد المسيح، إلا في عام 130 ميلادية تقريبا، على لسان البابا تيليسفور"⁵. إن النص القرآني أعلن زمن الميلاد، وهو تحد للكنيسة وللمؤرخين النصارى خاصة، بعد أن ترسم الاحتفال وأصبح ديناً، لا

¹ د . أحمد حجازي السقا : إنجيل توما ، سلسلة الأناجيل المرفوضة ، مكتبة الإيمان بالمنصورة . ص 54 ، 55 .

² سورة مريم : الآيات 23 ، 24 ، 25 .

³ ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثالث . ص 1160 .

⁴ أندريه ناتيون - إدغار ويند : الأصول الوثنية في المسيحية، ترجمة سميرة عزمي، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية . ص 52 .

⁵ المرجع نفسه . ص 33 .

يمكن الطعن فيه. وكان علينا أن نلاحظ في قصة مريم وابنها - عليهما السلام - ميزة التعميم في الرزق - وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا - دون أن يُحدد نوعه وقد فُسر زمانياً. " وجد (زكرياء) عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف "1. وأهمل التفسير الدلالة الزمانية للفظ - رُطْبًا جَنِيًّا - على الرغم من وضوح دلالتها الزمانية. كما أن دلالة وجود الرزق عند مريم - عليها السلام - هي دلالة إعجازية لعملية الرزق التي تجاوزت المكلف بها، حيث كان يأتيها رزقها وهي عاكفة في المسجد. فاستوعب النبي زكرياء - عليه اسلام - طلاقة القدرة الإلهية - يرزق من يشاء وكيف يشاء - فدعا ربه ليرزقه الولد. وهذا ما يوضح لنا التقابل في تعميم الرزق لمريم وهي عاكفة ، وتفصيله لحظة المخاض والولادة. تلك هي الهندسة القرآنية التقابلية في سرد القصص، لاستيعاب الظاهرة الزمانية .

لقد " جعلوا من عيد الرومان واليونان الذي يُسمّى عيد ميلاد الزمان عيد الميلاد المسيح ذلك عند رجوع الشمس في كانون (ديسمبر) "2. لكن القرآن الكريم تعمد ذكر نوع الغذاء كدلالة زمانية واضحة تمت في الصيف، وليس في الشتاء، ليلفتنا إلى حقيقة العقيدة المسيحية وتاريخها. لكن الكنيسة " التي كانت تعرف أن الاحتفال بالعيد الشمسي الكبير في 25 كانون الأول، وهو ما درج عليه الوثنيون، فهو تاريخ الانقلاب الشمسي الشتائي في التقويم الروماني القديم، والذي يوافق ميلاد الإله الوثني - ميتر - إله الشمس القهار. وقد اضطرت الكنيسة تحت ضغوط قوية، وبسبب استمرار الاحتفالات الشعبية الوثنية بميتر أن تختار هذا النهار، أيضاً للاحتفال بميلاد المسيح "3. الأمر الذي يجعل عيد الميلاد عند النصارى خطأ تاريخياً. وحدث أن " أرادت الكنيسة تحديد يوم الاحتفال بعيد الميلاد في القرن الأول الميلادي، وتم اختيار عيد رسمي كانت جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط، وشعوب المشرق تحتفل به، وهو عيد الشمس، أو عيد النور، وكان يوافق 23 كانون الأول - ديسمبر - "4. لترتمي المسيحية في أحضان الوثنية والضلال، ويظهر تناقض خطاب العهد الجديد حين يرتبط بالتاريخ، ويُعرض على بساط المقارنة والبحث. وهنا لا يمكن أن نوجه للقرآن الكريم أي اتهام، بل على هؤلاء أن يبحثوا منهجية الوحي في التعامل مع الزمانية.

1 ابن كثير : المرجع السليق ، الجزء الأول . ص 328 .

2 د . محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، شركة الشهاب ، الجزائر 1989 . ص 26 .

3 أندريه ناتيون - إدغار ويند: المرجع السابق . ص 25 .

4 الأب هنري يولاد اليسوعي : الإنسان والكون والتطور ، دار المشرق بيروت ، الطبعة الأولى 2000 بيروت . ص 18 .

وهذا ما جعلنا نرى بأن دراسة الزمن في القصص القرآني، وفق مقاييس النقد الأدبي لن تفيدنا في قليل أو كثير، بقدر ما تبعدنا عن استخلاص الحكم والعبر، والوقوف على الظاهرة الإعجازية .

والمسألة الأهم هي : كيف سيتعامل الخطاب القرآني، مع تاريخ الكنيسة وعقيدة التثليث وتأليه المسيح ؟ " وكل دعوة بألوهية أحد مع الله، فهي دعوى ليس معها برهان، لا من الدلائل الكونية، ولا من منطق الفطرة، ولا من حجة العقل "1. وفي اعتقادنا أن الجواب سنجدّه في قصة أصحاب الكهف القرآنية، التي وقعت أحداثها بعد زمن عيسى - عليه السلام - وأما الذي عليه أهل الإسلام فعلى أن أمرهم - أهل الكهف - كان بعد المسيح "2. لهذا نرى في مقدمة سورة الكهف إشارة إلى نسبة النصارى الولد إلى الله " وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ "3 فمقدمة السورة ترتبط بموضوع القصة، وهو التوحيد الذي جعلته الكنيسة بدعة وهرطقة، واضطهدت رجاله الموحدين. فمدة النوم قد فصلها النص القرآني وأحصاها " وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ "4. وهذه المدة نعتبرها مرحلة تاريخية، قبل أن تكون تعبيراً عن مدة نوم الفتية. وبهذا المنهج تكون القصة القرآنية قد فرضت علينا بحث تاريخ النصرانية، وبالتحديد متى حولت الكنيسة التوحيد إلى الشرك والتثليث؟. فلما " رأى أساقفة آسيا هذه الأضاليل تفشوا في كنيسة الله استعانوا بيوحنا الرسول وسألوه تأليف إنجيله، فكتبه وأنبأ فيه بميلاد المسيح الأزلي ... وإثبات لاهوت المسيح كما قال : فقد كتبت لتأمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله "5. وقبل تاريخ كتابة هذا الإنجيل لم يكن النصارى يعلمون طبيعة المسيح - عليه السلام - وحقيقته. وهذا يدل على تجاوز الزمن والتاريخ لخطاب العهد الجديد. إنها إشكالية عقدية زمانية تركها المسيح، ورحل دون أن يقدم حقيقة نفسه، وحقيقة الله، رغم أنه كان يعظ في الهيكل أمام مرأى ومسمع الشعب. لقد تحولت هذه البدعة (بدعة الشرك وتأليه المسيح) من بعد ذلك، قانوناً إيمانياً تضطهد بموجبه الكنيسة كل نصراني موحد، يؤمن بالله ربا، وبعيسى رسولا وعبداً.

كما استعان القساوسة بسلطة الدولة الرومانية، وترئيس قسطنطين - الإمبراطور الوثني - على مجمع ديني في القرن الرابع الميلادي، يقر بتأليه المسيح، والبنوة لله، وهكذا غُيبت عقيدة

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن عشر . ص 2482 .

2 محمد بن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الثاني . ص 7 .

3 سورة الكهف : الآية 4 .

4 سورة الكهف : الآية 25 .

5 د. القس إبراهيم سعيد : شرح بشارة يوحنا ، دار نوبار للطباعة ، الطبعة الرابعة 1988 ، القاهرة . ص 24 .

التوحيد. فتحوّلت الكنيسة حَكْمًا وحيدًا على قدسية النص والخطاب، بتوكيل إلهي مزعوم، وإلهام من الروح القدس، لتصبح عقيدة التوحيد وبشرية عيسى - عليه السلام - بدعة في نظر الكنيسة. وكان من أهداف كتابة الأناجيل الأربعة " أن متى يكتب لليهود، ولوقا يكتب لليونانيين، ومرقص يكتب للرومان، ويوحنا يكتب للكنيسة"¹. ولهذا حملت تلك الكتابات خطابات محدودة خاصة بفئة من المخاطبين، وفي مرحلة زمانية ظرفية وتاريخية، دون أن تتجاوز المكان والزمان والتاريخ لتتوجه إلى كل الناس. وقبل هذه المرحلة التاريخية من كتابة يوحنا إنجيله، أحس الفتية الموحدون - أهل الكهف - بخطورة الشرك، وبداية انحراف قومهم عن التوحيد الحق، فخشي الفتية على إيمانهم " إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرَّجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا"². وسياق الخطاب يدل على صراع داخلي بين الفتية وقومهم، فكان اعتزالهم. وأثناء مدة نومهم الممتدة إلى قرون في الكهف، تترسم بدعة التآليه كقانون إيماني تفرضه الكنيسة وتقره، بمجمع نيقية في القرن الرابع الميلادي. وفي زمن الشرك بالله - العقيدة الرسمية - وقانون الإيمان الكنسي، واضطهاد الموحدين، يبعث الله تعالى الفتية الموحدين من نومهم كدليل لا جدال فيه " وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا"³. لتصبح بعثة الفتية الموحدين معجزة مفاجئة ستربك الكنيسة المشركة، ورجال الدين والكهنوت الضالين، وسيتحدى هذا المشهد المعجز اضطهاد الكنيسة. ونحن نسأل إذا كانت قصة النيام السبعة بشكلها المعجز تخدم عقيدة الكنيسة وقانون الإيمان في تأليه المسيح، فلماذا لا نجد لها في التراث المسيحي واضحة المعالم في إيمان الفتية بالمسيح كإله أو ابن إله؟.

لقد جاءت القصة في كتاب القديسين بشكل مقتضب وغامض " إن هؤلاء القديسين قد كانوا إخوة بالجسد ... فهؤلاء الشبان جنود الملك السماوي، قد قربوا لله حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح، بالقرب من مدينة أفسس نحو سنة 252 ميلادية، في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين الملك داكوس قيصر"⁴. لقد دونت الكنيسة قصة الفتية على حسب

¹ ستيفن ملير، رولرت جوب: تاريخ الكتاب المقدس، ترجمة وليم وهبة، دار الثقافة، الطبعة الأولى 2005 القاهرة. ص 609، 610.

² سورة الكهف: الآية 20.

³ سورة الكهف: الآية 21.

⁴ مكسيموس مظلوم: الكنز الثمين في أخبار القديسين، المجلد الأول، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت 1863. ص 278.

اعتقادها، محددة اليوم والتاريخ والمكان. " وقد كرمتهم الكنيسة الجامعة كشهداء حقيقيين، وتحت هذه الصفة الشريفة يمدحون في الخدم، التي تقال يوم تذكارات استشهداهم، في اليوم الرابع من شهر آب المخصص بتذكارات الأعجوبة، التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أفسس¹. فعبارة - قربوا لله حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح - عبارة مبهمة لا توضح ما طبيعة إيمان الفتية بالمسيح، على الرغم من ذكر عددهم وأسمائهم، إلا أن موضوع العقيدة أهم من ذلك. " السبعة الشهداء القديسين الذين بعد إن استراحوا راقدين مدة نحو مائتي سنة في مغارة قريبة من مدينة أفسس². ولهذا لا نجد نصاً مسيحياً واحداً يعطي هذه القصة بعدها الديني الحقيقي. بل تبقى القصة غامضة، لا تصرح بحقيقة إيمان الفتية بالمسيح. كما لا نجد أيضاً قصة دينية، لا زال الباحثون والدارسون يتابعونها، ليدرجوها ضمن الأساطير، كقصة أصحاب الكهف. يقول أركون: " لقد انتشرت هذه الأسطورة في الغرب اللاتيني المسيحي من خلال ثلاث وثائق، وثيقة مكتوبة باللاتينية، ووثيقة مكتوبة باللغة السلتيّة، ووثيقة مكتوبة باللغة الإنكليزية القديمة، ثم أمنت لها سورة الكهف الواردة في القرآن انتشاراً أكثر اتساعاً في الإسلام³. والكتاب لم يسأل نفسه لماذا كان هذا التلاقي الأسطوري - على حد زعمه - بين القصتين القرآنية والمسيحية ؟ .

لقد أدمج المفسرون المسلمون اسم داقبوس في القصة، وكان لهم " في ذلك الزمان ملك يقال له ديقنوس يعبد الأصنام - فيما ذكر عنه - فبلغه عن الفتية خلافهم إياه في دينه، فطلبهم فهربوا منه بدينهم، حتى صاروا إلى جبل⁴. لكن النص القرآني يصرح أن أمرهم كان مع قومهم " هُوَ آءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ ١٥ "5. كما أن عقوبة الرجم التي ذكرت هي عقوبة يهودية، وليست عقوبة رومانية. وقد استعمل الرومان وسائل التعذيب والقتل ضد المسيحيين، باستثناء عقوبة الرجم التي كانت خاصة يهودية. ويقدم لنا المؤرخ يوسابيوس الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، إعدام ثلاثة من النصارى برميهم طعاماً للوحوش " وإن اعترف ثلاثة منهم في مدينة أميسا بفتنة في عبادتهم لله، ألقوا طعاماً للوحوش، من بينهم

¹ مكسيموس مظلوم : المرجع السابق . ص 278 ، 279 .

² المرجع نفسه . ص 280 .

³ محمد أركون : القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب . ص 170 .

⁴ محمد بن جرير الطبري : المرجع السابق ، الجزء الثاني . ص 7 .

⁵ سورة الكهف : الآيتان 15 .

الأسقف سلوانس"1. إلا أن آية سورة الكهف وضحت نوع العقوبة وهي الرجم. - إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ - وهي عقوبة يهودية. وقد نام الفتية حتى بعثهم الله تعالى، زمن انحراف الكنيسة عن التوحيد، وهذا ما نراه .

لهذا نجد أن المدة الزمنية التي ذكرت في القصة القرآنية هي شفرة تاريخية، وأنها لو كانت مدة أسبوع أو شهر من النوم، لكانت كافية بأن تكون معجزة. لكن مدة ثلاث مائة سنة، تدل على مرحلة تاريخية أصبحت فيها الكنيسة مضطهدة للموحدين، لتسن قانون الإيمان بتأليه المسيح، وإدانة أريوس الموحد، وهذا ما حدث في القرن الرابع للميلاد. فكانت " واقعة أهل الكهف وظهورهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع، وهي وقت الانحراف المسيحي في الاعتقاد دليلاً قوياً على بطلانه، وعلى بطلان الأساس الذي قام عليه "2. أما عبارة - وَأَزْدَادُوا تَسَعًا - وضعت المفسرين أمام إشكالية زمانية وتاريخية أخرى، لكن " المقصود هنا هو التقويم اليهودي الذي كان عامة اليهود يطبقونه ولا يزالون، فهو يزيد بمقدار تسع سنوات، عن حساب المدة التي لبثها الفتية في الكهف، طبقاً للتقويم الشمسي الذي كانت طائفة قمران تأخذ به "3. ولهذا فهذه المدة شفرة تاريخية دينية تؤكد " وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، أراد الله أن يفحم به اليهود، الذي لم يكن هناك سواهم يعرف هذا الاختلاف "4. بل يرجع بنا إلى تراث أهل الكتاب، الذي كان يعتمد التقويم القمري، ولعل " وجود تقويمين أحدهما قمري، وهو الذي كان اليهود يتبعونه ولا يزالون، وآخر شمسي هو الذي كان يتبعه الأسنيون، يفسر لنا لماذا أضاف الله تعالى في القرآن الكريم، تسع سنوات بعد الثلاثمائة "5. فهي إذن ليست زيادة لإحصاء الفرق بقدر ما هي دلالة تاريخية دينية تدلنا على تراث الطائفة الموحدة، والتي كان من أبطالها أصحاب الكهف

يسرد القرآن الكريم أحداث القصة، بكل تحد وحق، عارضاً تاريخ العقيدة، وفق المنظور التراثي لأهل الكتاب، واضعاً علامة استفهام كبرى حول التراث المسيحي، والتقويم الكنسي الذي اعتمده الكنيسة. " وكذلك الكنيسة المسيحية التي كشف - أليجرو - المأزق الذي واجهته في أول نشأتها، نتيجة لاختلاف الأعياد اليهودية التي تعترف بها مسيحية بولس، مع التقويم القمري الذي

1 يوسابيوس القيصري : تاريخ الكنيسة ، ترجمة القمص مرقص داود ، مكتبة المحبة ، الطبعة الثالثة ، مارس 1998 ، القاهرة . ص 409 .

2 د . محمد أبو زهرة : القرآن المعجزة الكبرى . ص 437 .

3 المرجع نفسه . ص 139 .

4 المرجع نفسه . ص 139 .

5 د . محمد أبو زهرة : القرآن المعجزة الكبرى . ص 139 .

كان مطبقاً أيام المسيح - عليه السلام - وكيف قام كُتاب الأناجيل بإحداث تعديل، أو قل تزوير في التاريخ الذي ادعوا أن المسيح - عليه السلام - احتفل فيه بعيد الفصح¹. إن المدة الزمانية التي ذُكرت في القصة القرآنية لأصحاب الكهف، تدل على تاريخ الكنيسة الديني، وما لحق بعقيدة التوحيد من تحريف وتغيير، عكس ما جاء في الوصايا العشر للعهد القديم " أنا الله ولا يوجد إله آخر"². وكذلك " اسمع يا إسرائيل إلهنا رب واحد"³، كما يؤكدُها المسيح - عليه السلام - حين سئل عن أول وصية " فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هي : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا واحد"⁴. إذن فعقيدة التوحيد هي وصية موسى وعيسى - عليهما السلام - فمن أي مصدر جاءت الكنيسة بالشرك والتثليث، والبنوة وفكرة الأقانيم المتعددة

وبعد قرون من الزمن ينزل الخطاب القرآني ليقول كلمته في تاريخ العقيدة، وتاريخ الكنيسة الدامي، منذ نشأتها حتى نزول الوحي. ولهذا لم تُبحث حقيقة تاريخ العقيدة في قصة أهل الكهف. فالفتية يمثلون الطائفة الموحدة التي تمسكت بالتوحيد في الديانة اليهودية، وآمنت برسالة المسيح - عليه السلام - وعتقد أن الفتية من فرقة أبيا أي الأبيونيون، و" أبيا معناه أبي هو الله ... وفرقة أبيا هي الفرقة الثامنة من الأربعة والعشرين فرقة التي قسمت إليها طائفة الكهنة منذ وقت داود"⁵. وهي فرقة موحدة " وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهَا إلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝ ١٤"⁶. ولعل عبارة - لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا - توضح كيف انقلبت الحقائق في عيون الكنيسة، وفي الحقيقة أن الشرك هو الشطط والهرطقة. لكن " الكنيسة اتهمت أريوس الموحد بالهرطقة، وأحرقت كتبه"⁷. فأصبحت في القرن الرابع محنة قاسية على النصارى الموحدين. وعلينا أيضا أن نفهم في العصر الحديث، لماذا " ظل المستشرق لويس ماسينيون، طيلة أربعة وعشرين عاما يحي عبادة النوام السبعة في قرية صغيرة - من فرنسا Vieux marche"⁸. وكان

1 د . أحمد علي المجدوب : المرجع السابق . ص 139 ، 140 .

2 العهد القديم : سفر اشعيا ، الإصحاح الخامس والأربعون ، الفقرة 33 .

3 المرجع نفسه : سفر التثنية ، الإصحاح السادس ، الفقرة 4 .

4 العهد الجديد : إنجيل مرقس ، الإصحاح الثاني عشر ، الفقرة 28 .

5 د. القس إبراهيم سعيد : المرجع السابق . ص 8 .

6 سورة الكهف : الآية 14 .

7 إدوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية ، الجزء الأول، ترجمة محمد علي أبودرة، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثانية . ص 310

8 محمد أركون : القرآن من المفسر الموروث إلى تحليل الخطاب الديني. ص 171 .

كعادته " يجمع فيها سنويا بعض المسيحيين والمسلمين لكي يزورها، بسبب الاعتقاد بوجود قبور السبعة القديسين، أو السبعة النائمين "1. وذلك لمزج الحق بالباطل، والحقيقة بالخرافة .

يقول محمد أبو زهرة : " وإذا كان القرآن الكريم ذكر أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، فإنه يكون ظهورهم في وقت ظهور الأفلاطونية التي نسخت النصرانية، والتي دخل فيها قسطنطين، بعد أن ابتداء بالسير بها في طريق التثليث "2. فقصّة أصحاب الكهف القرآنية قدمت كل ما يحتاجه الباحث المهتم بدراسة تحريف عقيدة النصارى عبر التاريخ. وإلا فما دلالة هذه القصة لدى المسلم الذي يقرأها في كتابه المنزل، وهي قصة لموحدين كانوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبعثوا من رقدتهم المعجزة بعد ثلاثة قرون ؟ فرؤيتنا لزمن بعث أهل الكهف أنه كان بعد مجمع نيقية المنعقد في 325 ميلادية، إلا أن الأمر الغريب والمسكوت عليه في تاريخ الكنيسة والمجامع، أنه بعد مجمع نيقية، وفي عام 335 ميلادية، عُقد مجمع كنسي بمدينة صور " وأخيرا أصدر المجتمعون قراراتهم بخلع أثناسيوس من منصبه وقبول الميليتيين في الكنيسة وقد أعدوا العدة لدفن قرارات مجمع نيقية "3. فأعيد الاعتبار إلى أريوس الموحد. وهذا ما يتجاوزه المؤرخون النصارى، ولا يحاولون بيان سبب تغيير القرار السابق الذي رسم تأليه المسيح. ربما يكون بعث أهل الكهف بهذا التاريخ، حيث أجبرت الكنيسة أن تعيد النظر فيما ارتكبه في حق الموحدين، ثم ما لبثت أن عادت إلى ضلالها القديم، لتعود إلى الوثنية في حكم الإمبراطور بوبيانوس عام 363 ميلادية، والذي قال للناس والجيش : " إذا أردتم أن أكون إمبراطوركم كونوا مسيحيين مثلي "4. حيث استمر اضطهاد الموحدين. وتكون قصة أهل الكهف قد أبعدت، وأبهمت عقيدة أصحابها وأحاطتها الضبابية، حتى جاء الوحي بخطابه المتحدي والمعجز ليسرد قصة أهل الكهف من المصدر الحق - نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمُ الْحَقِّ - وأن تكون خاتمتها منتهية ببناء مسجد، وهو إشارة إلى غلبة الطائفة النصرانية الموحدة التي كانت تسجد في صلاتها، وفق ما جاء في المزمور " هلم نسجد ونركع ونجتو أمام الرب خالقنا "5 هذا السجود الذي أبطله بولس الذي غير تعاليم

1 المرجع نفسه . ص 171 .

2 د . محمد أبو زهرة : المرجع السابق . ص 437 .

3 أحمد عبد الوهاب : طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى 1980 . ص 23، 24 .

4 المرجع نفسه . ص 31 .

5 العهد القديم : المزمور الخامس والتسعون ، الفقرة 6 .

المسيح - عليه السلام - لتكون له الشراكة مع المسيح على حد زعمه " لأكون شريكاً فيه "1. مدعياً أنه رسول المسيح، دون أن يلتقي به، أو يلتقى عليه. بل أصبحت رسائله وحياء، غطت حتى على أقوال حواربي المسيح .

كما قام العهد الجديد بسرد نهاية يسوع على الصليب " ابن الإنسان سوف يسلم إلى أيدي من الناس فيقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم "2. بدءاً من محاكمته وانتهاءً بصلبه مساء يوم الجمعة، وقيامته بعد ثلاثة أيام، يوم الأحد. ولقد " عرفنا مما سبق أنه لم يُدفن في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، كما قالت الأناجيل. إذ أن المصلوب دُفن في الأرض لمدة يوم واحد وليلتين على أحسن الفروض "3. ويجد خطاب العهد الجديد إشكالية مع الزمن والتاريخ مرة أخرى " لقد عين الوثنيون وعباد الكواكب أياماً لإحياء أعيادهم التقليدية، فوضعوا للشمس يوماً، وللنجم يوماً، وهكذا. ولنقارن " بين مواقع النجوم الإثني عشر المعروفة في حضارة البحر الأبيض المتوسط، أو ارتباط أيام الأسبوع السبعة بالكواكب السبع، التي لا تزال نخلد ذكرها في الأسماء ... الأحد sunday عيد الشمس، والإثنين moonday عيد القمر "4. فهل من المصادفة أن يكون يوم الشمس وهو الأحد في أيام الأسبوع، يوماً مقدساً عند النصارى ؟ ويكون ميلاد المسيح متطابقاً مع ميلاد إله الشمس ؟ إن المسيح - عليه السلام - جاء ملتزماً بالشرعية التوراتية، وبيوم السبت " أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت "5. فكيف تحول السبت إلى الأحد المقدس ؟ .

يقول تعالى : " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ "6.

فهذه الآية تثبت صفة الأمية لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وأن المرحلة التاريخية للرسالة القادمة، ستكون من حظ نبي أمي. فالخطاب القرآني يضع أهل الكتاب وجهاً لوجه مع نصوص أسفارهم، كما يضعهم وجهاً لوجه مع أحداث التاريخ المتتالية. " قال لهم المسيح لو كنتم أولاد

1 العهد الجديد : رسائل بولس ، رسالة إلى كورنثوس الأولى ، الإصحاح التاسع ، الفقرة 20 .

2 العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح السابع عشر أ الفقرة 23 .

3 المؤسسة العامة للإدارات والبحوث العلمية : مناظرة بين الإسلام والنصرانية . ص 128 .

4 روي بروتز : المرجع السابق . 11 .

5 العهد القديم : سفر التثنية ، الإصحاح الخامس ، الفقرة 15 .

6 سورة الأعراف : الآية 157 .

إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله "1. فما هي أعمال إبراهيم - عليه السلام - ؟ إنها عبادة الله الواحد. لا يترك الخطاب القرآني أي هامش للمناورة، فهو يتحداهم حتى في نصوص كتبهم، كما يتحداهم بالواقع التاريخي، وما لهم من بد، سوى التسليم أو الإنكار. وهكذا يضع الخطاب القرآني النصارى وعقيدتهم - التي بدأت بالثنائية، إلى التثليث - أمام عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم - عليه السلام - فهي إسلام الوجه لله رب العالمين لا شريك له، ورب العالمين ليس أقانيم متعددة، وليس إلهاً قومياً أو عنصرياً، فالله تعالى هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء، وهو الواحد الأحد .

ومع كل ما يظهر من حق في الخطاب القرآني، يبقى دائماً في دائرة الاتهام والتشكيك لدى الملحد، ويبقى الباحثون الغرب يوجهون للوحي الاتهام تلو الآخر، دون أن يجروا أية مقارنة جادة في إطارها الحقيقي. كما أنهم يتهمون القرآن الكريم بتقديم شخصيات غير واقعية. والقرآن الكريم حين سرد قصة بني إسرائيل ودخولهم مصر، اكتفى بذكر الدلالات التاريخية، سواء الأمكنة كالبلد مصر ومدين، وأرض التيه سيناء، ودخول الأرض المقدسة، أو بذكر الشخصيات كفرعون وهامان وقارون. كما صحح القرآن الكريم ما اختلف عليه أهل الكتاب. " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ "2. وبهذا سطر الوحي حركة التاريخ بخطابه الخالد، والدورات التاريخية خاضعة للخطاب القرآني، وليس العكس. وتفادياً للشك ورد التهم، ينبغي للدراسة اللغوية والتاريخية أن تقوم بمهمة البحث. إن " فرعون في القرآن هي تعريب - برعا - المصرية القديمة ... والثابت لدى علماء المصريات أن - برعا - لم تصبح اسماً دالاً بذاته على شخص الملك، إلا منذ الأسرة التاسعة عشر، عصر الرعامسة الذي كان منهم فرعون موسى "3. لهذا فالنقد الأدبي يجد صعوبة في التعامل مع الخطاب القرآني وارتباطه بالتاريخ، أثناء تحليله لشخصيات القصص القرآني، لأن ذلك يتطلب تخصصاً متعددًا، بالإضافة إلى افتقارنا للبحث اللغوي في اللغات القديمة .

1 العهد الجديد : إنجيل يوحنا ، الإصحاح الثامن ، الفقرة 39 .

2 - سورة النمل : الآية 76 .

3 رؤوف أبو سعدة : العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن ، الجزء الثاني ، دار الهلال، القاهرة (ب ت) . ص 33 .

ومن " إعجاز القرآن الكريم، أنه مطلع القرن السابع للميلاد يوم كانت اللغة المصرية القديمة، وكان التاريخ المصري القديم طلاس مطلمة عند العالم أجمع ... لم يعلم فقط معنى - برعا - في اللغة المصرية القديمة، وإنما علم أيضا منذ متى بدأ إطلاق هذه الكنية على ملوك مصر"1. فاللغة القرآنية تقدم إشارة زمانية لها مدلولها التاريخي الدقيق. وإذا رأينا متى استعمل نص العهد القديم اسم فرعون كحاكم لمصر، نجده قد جعلها معاصرة لإبراهيم - عليه السلام - " فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا * ورأها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون"2. وبهذا يظهر الخطأ التاريخي الذي وقع فيه الكتاب المقدس. لكن الكاتبة كاترين أمسترونج تقع في تناقض آخر، حين تقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " فساعدته معرفته الجديدة بالتوراة على تطوير رؤاه، فقد تعلم - ولأول مرة - التسلسل التاريخي الدقيق للأنبياء، وكان ذلك ضبابيا له فيما سبق، فأصبح الآن أن يرى الأهمية الكبيرة بأن إبراهيم قد عاش قبل كل من موسى أو يسوع"3. لكنها لم تر معاصرة فرعون لإبراهيم في الكتاب المقدس، أليست هذه ضبابية نص العهد القديم؟ أما القرآن فيقول: " قَوْلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٦ "4. فهو يعلن بكل وضوح فترة إبراهيم التي سبقت فترتي موسى وعيسى - على جميعهم السلام - .

كما أننا نجد القرآن الكريم حين " يذكر ملوك مصر الذين سبقوا فرعون موسى، كما ترى في حديثه الملك الذي استخلص يوسف لنفسه... فهو يقول الملك، لا يخطئ مرة واحدة فيقول فرعون"5. أما كتبة التوراة فكان " شأنهم شأن الناس جميعاً، فقد جهلوا هذا وذاك. فسروا - برعا - على التخمين بأنها لفظة في المصرية القديمة تعني الملك، وأطلقوها بلا قيد في سفري التكوين والخروج، لا فرق بين فرعون موسى، وفرعون يوسف. وهذا يدلنا بالنقد اللغوي وحده"6. كما تكررت لفظة ملك في سورة يوسف ثلاث مرات. إن " هذه معجزة تاريخية للكتاب الكريم

1 المرجع نفسه . ص 33 .

2 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثاني عشر ، الفقرات 14 ، 15 .

3 كارين أمسترونج : الله والإنسان . ص 162 .

4 سورة البقرة : الآية 136 .

5 رؤوف أبو سعدة : المرجع السابق . ص 34 .

6 المرجع نفسه . ص 34 .

... وهذا يدل على أن الأسرة التي كانت تحكم مصر في عهد يوسف - عليه السلام - لم يكن يطلق عليها لقب الفراعنة "1. أما نص قصة العهد القديم فذكر مرة لفظة الملك ومرى لفظ فرعون " وحدث بعد هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والخباز أذنباً إلى سيدهما ملك مصر* فسخط فرعون على خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين "2.. فقصة العهد القديم سارت بشخصيتين مختلفتين وبعيدتين زمنياً وتاريخياً، ليظهر نسيان اسم الشخصية في مساحة ضيقة من السرد. وهذا دليل كاف على التناقض والاختلاف الذي يظهر حين يتعامل خطاب العهد القديم مع التاريخ. " فالمسلمون ينظرون ما أورده القرآن عن الماضي السحيق خاصة زمن نزول التوراة باعتباره أكثر صحة وأشد توثيقاً من التراث التاريخي التقليدي، وهذا يعني قناعتهم بأن القرآن مصدر للمعلومات التاريخية "3. لهذا يقوم القرآن بمهمة التصحيح، وهي مهمة جلية وخطيرة في الحقل الديني والتاريخي، تشترط المبدأ الحق، وصدق الخبر، ودقة المعلومة، وإلهية المصدر. وهذا ما ينعدم في قصة العهد القديم. فمن أي مصدر أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تاريخ بني إسرائيل، وهذا التسلسل التاريخي للأنبياء من نوح إلى عيسى - على جميعهم السلام ؟ .

لقد تحدث بعض الدارسين والمشككين في شخصية هامان القرآنية، حيث اعتبروها غير معاصر لفرعون. وظل هذا الادعاء مستمرا على أن شخصية هامان لم يعرفها تاريخ مصر. وربما دليلهم الوحيد هو ما جاء في سفر أستير، حيث جاء ذكر شخصية باسم هامان وكانت توجد ببلاد فارس، وليس بمصر " بعد هذه الأمور عظم الملك احشوبروش هامان بن همدان الأجاجي "4. إلا أن القرآن الكريم قرن اسم فرعون مع اسم هامان، وكذلك اسم قارون في قوله تعالى: " وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهُمْ أَكْبَرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ٣٩ "5. فالنص القرآني كان صريحا في ذلك، ولربما وجد بعض المفسرين إشكالية في الرد على هذا الاتهام. يقول موريس بيكاي: " إن هامان لم يذكر في التوراة، وقد ذكر في القرآن ست مرات "6. وتكرار ذكر اسم هامان في القرآن الكريم، تأكيد لا شك فيه بأنه شخصية وجدت معاصرة لفرعون، بل

1 د. فضل حسين عباس : القصص القرآني ، ص 403 .

2 العهد القديم : سغر التكوين ، الإصحاح التاسع والثلاثون ، الفقرتان 1 ، 2 .

3 مونتجمري وت : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998 . ص 112 .

4 العهد القديم : سفر أستير ، الإصحاح الثالث ، الفقرة 1 .

5 سورة العنكبوت : الآية 39 .

6Maurice Bucaille: Moisé et Pharaon , libraire Segulier , 1^{ere} édition 1989 Paris . p229 .

كان له جنود كما صرح القرآن بذلك: " وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهُمَّنَّ وَجُنُودَهُمَا مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦ "1 . وهذا ما يجعل التحدي بيناً لكل من أراد أن يخوض في واقع هذه الشخصية وتاريخ وجودها .

لكن مبدأ الإيمان بمصدر النص القرآني، وحقائق قصصه، لا يمكن أن يعلو عليه أي اتهام مهما كان مصدره وصاحبه، ويتوجب علينا أن نقف عند حد عجزنا، لنعلن أن ما جاء به النص القرآني هو الحق، وأن لا علم لنا إلا ما علمنا الله. كما أن القرآن الكريم طالب من المتلقي وخاصة المؤمن، أن يتدبر آياته. والالتزام بهذا المبدأ واجب مفروض علينا عند تلاوة القصص القرآني. لهذا سجل لنا التراث الديني وقوف علماء الإسلام من مفسرين وفقهاء وبلاغيين ونحويين عند كل مسألة وُجدت بالنص القرآني، ومنهم من أطال فيها البحث والتحليل، وفق اجتهاده وطاقته الفكرية، وما أتيح له من وسائل في عصره. إلا أن المؤسف له هو حدوث انقطاع مواصلة البحث بالنسبة للخلف. ونعود إلى شخصية هامان التي ذكرها النص القرآني، وكررها في ست محطات، وهذا التكرار يدل أيضاً أن ذكر الشخصية لم يأت اعتباطاً، وإنما جاء تحدياً واستفزازاً من جهة، وإعجازاً من جهة ثانية، وما على الدارس إلا أن يبحث ويتدبر ويجتهد، شريطة أن يلتزم بمنطوق النص، حيث أننا نجد أن المنظومة القصصية للقرآن إعجازية، تتحدى التنظير النقدي والتاريخي، فهي تتطلب موسوعة معرفية متنوعة، كما أن حصرها في إطار النقد يبعدنا عن مبدأ التدبر .

ولابد أن نشير إلى أن الخطأ الذي وقع فيه المفسرون أثناء الحديث عن شخصية هامان، هو أنهم جعلوه شخصية سياسية، ومنحوه لقب وزير، على الرغم من أن مهمته مصرح بها في الوحي، وتكرر ذكرها مرتين، في سورة القصص " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهُمَّنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنْ ٣٨ الكذابين 2" ، وفي سورة غافر " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهُمَّنْ أَيْنَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ٣٦ 3" . فالخطاب القرآني يحصر علاقة هامان بالبناء وليس بالسياسة، ويطلب منه فرعون بناء صرح له.. يقول موريس بوكاي أثناء بحثه عن حقيقة هامان في قاموس أسماء الأشخاص للأمبراطورية الجديدة،: " ورجعت إلى القاموس فوجدت أن هذا الاسم موجود هناك، ومكتوب باللغة الهيروغليفية، وباللغة

1 سورة القصص : الآية 6

2 سورة القصص : الآية 38 .

3 سورة غافر : الآية 36 .

الألمانية كذلك، كما كانت هناك ترجمة لمعنى هذا الاسم وهو: رئيس عمال لمحجر"¹. وهاهو القرآن الكريم مرة أخرى يعلن التحدي، قبل هذا الاكتشاف التاريخي بقرون، وبعدما جاء اسم هامان ووظيفته في الأثر الهيروغليفي المكتشف في القرن التاسع عشر الميلادي " فهامان كان وبلا منازع رئيس البنائين "². فلم يعرف المؤرخون اسم هامان ولا وظيفته، إلا في القرن التاسع عشر، حيث بدأت تفك رموز اللغة الهيروغليفية، وهنا يتحدي الخطاب القرآني حتى المتخصصين في المادة التاريخية .

إن ذكر اسم هامان في النص القرآني يضيف إشارة تاريخية أخرى، وهي طريقة البناء بالطين المشوي الذي عرفه المصريون، فكانت هذه إشارة زمانية تاريخية أولى لطريقة البناء بالطين المشوي التي كانت فيه مصر سبابة لهذه التقنية. جاء في تاريخ الطبري عن قتادة قال " كان أول من طبخ الأجر يبني به الصرح "³. ويكون بنو إسرائيل قد نقلوا هذه التقنية إلى بابل زمن سببهم. وهذا شبيه بما عرضه القرآن الكريم في تقنية بناء ذي القرنين للسد، حيث قدم تقنية البناء بالحديد والنحاس المذاب، وربما كانت هذه تقنية جديدة استلهمها ذو القرنين " ءأثوني زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءأثوني أفرغ عَلَيْهِ قَطْرًا ٩٦ "4. والخطاب القرآني يقدم إشارات رشيقة ذات دلالة في تاريخ البشرية، كميزة الإنسان الأول، حيث خلقه الله مُكْرَمًا. " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠ "5، وكذلك متعلما " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١ "6. وهذا عكس ما تقول به نظريات التطور، وما تزعمه النظريات التاريخية والانتروبولوجية. وكذلك عكس ما تزعم به النظريات اللغوية ، حيث يصرح القرآن بأن اللغة والبيان هي من تعليم الله للإنسان " خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ "7. لقد " دخل الإنسان التاريخ برأس مال أخلاقي مبدئي هائل، لم يرثه من آبائه المزعومين من الحيوانات "8، والله جل جلاله يقول :

¹ D^c Maurice Bucaille Moise et Pharaon , libraire Segquier , 1^{ere} edition Paris 1989.p229,230 .

² المرجع نفسه . ص 229 .

³ الطبري : تاريخ الطبري ، الجزء الأول ، دار المعارف ، الطبعة الثانية مصر (ب ت) . ص 405 .

⁴ سورة الكهف : الآية 96 .

⁵ سورة الإسراء : الآية 70 .

⁶ سورة البقرة: الآية 31 .

⁷ سورة الرحمن : الأيتان 3 ، 4 .

⁸ علي عزت بيغوفيتش : المرجع السابق . ص 219 .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ¹. فالإنسان في تاريخه وبداية حياته جاء متعلماً متديناً وموحداً ربه، ومغفوراً له خطيئته، وزاوّل عمله، وعبدَ ربه الواحد. أما التطور الذي عُرف عبر التاريخ البشري فهو تطور في الوسائل المادية، لا في العقيدة والأخلاق .

كما يبين لنا الخطاب القرآني مرحلة ظهور الشرك بعد التوحيد، وكان ذلك مع قوم نوح " كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ² وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ه². وهذا عكس ما تراه النظريات الفلسفية ونظريات الأديان المقارنة من أن الشرك تطور إلى التوحيد. " فهي قصة قديمة من عهد نوح - عليه السلام - ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان. وهذه الآية تصور هذه القصة، قصة الرسالة والتكذيب، والطغيان على مدى القرون والأجيال³. كما يسجل لنا القرآن أول جريمة ضد الإنسانية، وهي عملية القتل الأولى التي وقعت على الأرض " فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٠ " 4. حيث عجز القاتل على التعامل مع الجثة، ليبعث الله له غراباً يعلمه كيف يوارى جثة أخيه " فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَيْتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ٣١ " 5. وكذلك يعرض علينا الخطاب القرآني أول جريمة خلقية ارتكبتها قوم لوط، وهي إثيان الذكور، وكانوا السباقين في اقترافها والافتخار بها دون حياء " وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ٨١ " 6. وهذا ما يعكس جلياً أن ما يجري اليوم في المجتمعات الغربية من جرائم خلقية وانحلال وتفسخ، وممارسات شاذة، كانت لها حالات مشابهة في الأمم الماضية البعيدة. وما المجتمع الغربي والأمريكي إلا نماذج متكررة في تلك الأعمال الشاذة، وما إعلامهم الإباحي المكشوف، إلا تكرار لما كان يقوم به قوم لوط سلفاً في أنديةهم " أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢٩ " 7. فالخطاب

1 سورة التين : الآية 4 .

2 سورة غافر : الآية 5 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الرابع والعشرون . ص 3070 .

4 سورة المائدة : الآية 30 .

5 سورة المائدة : الآية 31 .

6 سورة الأعراف : الآياتان 80 ، 81 .

7 سورة العنكبوت : الآية 29 .

القرآني بتقديمه لهذه الحقائق التاريخية السابقة يتحول إلى مصدر لتاريخ الإنسانية، يصح الاعتقادات والمزاعم الباطلة والنظريات والفرضيات التي تقوم على الظن والتخمين .

إن تاريخ عقيدة التوحيد كان كاملاً واضحاً، وأن دورات تاريخ البشرية كانت خاضعة له بداية من آدم ونوح إلى محمد - على جميعهم الصلاة والسلام - . وما قصة بيت الله عبر التاريخ إلا دليلاً قاطعاً على حقيقة العقيدة، وإمامة إبراهيم - عليه السلام - للناس " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَرَبُّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ النَّبِيِّ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٩٧ " . وبالتالي فقصة إبراهيم - عليه السلام - أبطلت كل العقائد الباطلة التي ابتدعتها البشرية منذ انحرافها عن التوحيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فتحطيم إبراهيم - عليه السلام - أوثان قومه، أبطل كل المعتقدات الوثنية " فَجَعَلَهُمْ جُدُودًا إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٥٩ " ، فحول آلهتهم إلى مفعول بها - مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا - كما أصبحت مظلومة لا حول لها ولا قوة. كما أبطلت عبادة النار وتقديسها، حين نجاه الله تعالى منها " قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٦٩ " . وأبطل أيضاً عبادة الشمس والقمر والكواكب، بعد أن أراه الله ملكوت السماوات، وأعطاه بلاغة الحجة " وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٧٩ " . فعبادة الكواكب وتأليه القمر والشمس معتقدات باطلة، لأنها مخلوقة تظهر وتختفي، من طرف خالقها ومسيرها، وحق العبادة للخالق وحده، الذي توجه إليه إبراهيم - عليه السلام - لعبادته، بعد أن قدم هذا الدرس الرائع والواضح لقومه بالحجة والدليل، وبعد أن هداه الله لذلك. وهذا يبطل كل اعتقاد أو افتراء أو زعم بأن إبراهيم - عليه السلام - توصل إلى الهداية والإيمان، بفلسفته الخاصة، وانتقاله من الكوكب إلى القمر إلى الشمس ليصل إلى الله. لأن الدين ليس فلسفة، ولا فكرة متطورة، وإنما هو هداية

1 - سورة آل عمران : الآيات 96 ، 97 .

2 سورة الأنبياء : الآيات 58 ، 59 .

3 سورة الأنبياء : الآية 69 .

4 سورة الأنعام : الآيات 75 ، 76 ، 77 ، 78 ، 79 .

ونور من الله لرسله وأنبيائه - قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ - وهؤلاء الرسل هم الذين هدوا بدورهم البشرية إلى عبادة الله وحده .

كما أبطل تأليه الأشخاص، وهذا في قصته مع الملك ومحاجاته له في حقيقة الألوهية " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٢٥٨ " 1 وأخيراً تبقى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في نهاية المطاف، لتبطل أخطر اعتقاد وأبشعه وأفساه، ألا وهو تقديم البشر كقرايين للآلهة المزعومة، وذلك حين يقوم سيدنا إبراهيم بالتضحية بابنه وفق الرؤية، لكن الله يفنديه بذبح عظيم " فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٣ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ١٠٦ وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧ " 2. إنه اختبار إلهي لإيمان إبراهيم - عليه السلام - من جهة، وإبطال للتضحية بالبشر من جهة ثانية، لأن الله جل جلاله لا يأمر بهذا، ولم يأمر به أبداً. إلا أن النصارى اختلقوا عقيدة الصلب والفداء، وتضحية الإله بابنه - تعالى الله عما يصفون - وكيف يعقل من الله الذي شفق على ابن إبراهيم، أن لا يشفق على ابنه - تعالى الله عما يشركون ؟. وبكل هذا يصبح إبراهيم - عليه السلام - إماماً للناس، حيث يأمره ربه بأن يرفع القواعد من البيت، ليبقى البيت قائماً مثابة للناس، إلى أن يشاء الله تعالى .

إن قصة العقيدة تتجلى لنا من خلال الخطاب القرآني وارتباطه بالتاريخ، وانتهاجه طريقة مختلفة عن السرد التاريخي، وإلا لاحتاج إلى مجلدات ضخمة لتدوين الأحداث المتتالية والمتعددة. فالقصص القرآني بسياقه التاريخي، لا يؤرخ لأحداث بكتلة سرد متسعة، أو بتفصيل تواريخ الأحداث، ولكنه بإشارات ودلالات تكشف الأبعاد الزمانية والتاريخية حين نقوم بعملية التدبر والاعتبار. كما يربط سرده المختزل والمكثف، بالمستوى العقائدي والنفسي والوجداني والاجتماعي للإنسان، ليصيغ قانوناً ثابتاً وشاملاً، ينطبق على الأفراد والأمم، فالمصير المتشابه يرسمه الموقف المتشابه. كما جاء الخطاب القرآني في مجال التاريخ، بأسلوب السياحة المكانية مع السياحة الفكرية. " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ٦٩ " 3. لقد فتح سياق

1 سورة البقرة : الآية 258 .

2 سورة الصافات : الآيات 103 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 .

3 سورة النمل : الآية 69 .

الخطاب الباب لدراسة التاريخ، دراسة عقلية وعلمية، لا كأخبار ملحمية وأسطورية " فلا أحد حتى الآن من هؤلاء المتخصصين قد خط الخطى على طريق مقارنة صريحة وعميقة مع المعلومات العلمية، التي ندرك أنها ستقودنا إلى الاعتراض على فكرة صحة الكتابات - اليهودية المسيحية - التي لا يجادلها أحد منهم حتى يومنا هذا "1. ليبقى عرض القرآن لتاريخ البشرية والعقيدة حقائق تتحدى كل زعم باطل مدى الزمن .

وفي اعتقادنا أن هناك جانباً علمياً في القصص القرآني، لا يدرسه إلا المتخصصون، لأن الوحي يحمل حقائق علمية وتاريخية وعقائدية دقيقة، تصحح كثيراً من الأفكار السائدة حول تاريخ الكون والإنسان والعقيدة، يصعب معالجتها على أساس قاعدة النقد الأدبي، بل بمساعدة علوم المختصين في ذلك، وبموسوعة معرفية متنوعة. " والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيراً اقتصادياً أو سياسياً، والذين يفسرونه تفسيراً بيولوجياً والذين يفسرونه تفسيراً روحياً أو نفسياً، والذين يفسرونه تفسيراً عقلياً ... أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة، والعوامل المتباعدة التي يتعامل معها الإنسان ويتألف من تعامله معها تاريخه "2. فالقرآن الكريم هو مصدر للتاريخ الإنساني، وليس تاريخاً قومياً لشعب من الشعوب. ولهذا تبقى حقيقة النص القرآني مسلماً بها عند كل مسلم. يقول المستشرق مونتجمري " فالمسلمون ينظرون لما أورده القرآن عن الماضي السحيق خاصة زمن التوراة باعتباره أكثر صحة وأشد توثيقاً من التراث التاريخي التقليدي، وهذا قناعتهم بأن القرآن مصدر للمعلومات التاريخية "3. ونحن كمسلمين لا يمكن لنا أبداً أن نشك في الحقائق القرآنية أثناء تعامله مع التاريخ، لأن الخطاب القرآني لا يقدم النظرة الضيقة، الساذجة المحدودة، وإنما يعرض تاريخ الإنسان ورسالته في الوجود، وتاريخ العقيدة الثابت، من المصدر الحق. وهذا ما جعل " التفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع، ويحيط به، وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله "4. وهذا كله نتيجة الأخذ بمبدأ التدبر، واعتبار القرآن الكريم مصدراً للتاريخ. وبهذا يكون الخطاب القرآني، قد احتوى تاريخ حياة الإنسانية، سواء على المستوى الفردي - قصة آدم

1 موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 33 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، الجزء الثامن . ص 1303 .

3 مونتجمري وت : المرجع السابق . ص 112 .

4 سيد قطب : المرجع السابق . المجلد الثالث ، الجزء التاسع . ص 1303 .

- أو على المستوى الجماعي - قصص الأمم - كما رسم مصير الإنسانية يوم يقوم الناس لرب العالمين، ولا يكون هذا إلا في عالم الآخرة والخلود بعد الموت والفناء، وهنا يأخذ الخطاب القرآني منحى فريداً وميزة خاصة، هي ميزة الخلود .

ج - الخطاب القرآني والخلود :

يتحدى الخطاب القرآني مرة أخرى أهل الكتاب، ليكشف تحريفاتهم وتناقضاتهم. " فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ تَرَوْنَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً^١ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ^٢ ٧٩ "1. وبهذا يكون النص الكتابي قد فقد استمراريته وخلوده. بل نبههم الخطاب لما اقترفوه من ظلم في حق الله " ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الآثم نسل فاعلي الشر أولاد مفسدين تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل ارتدوا إلى الوراء "2. ليصطدموا بعدل الله تعالى وسننه الثابتة، فتتحول هذه الصدمة إلى عملية تحريف للنصوص، وإخفاء الحقيقة التي أظهرها الله تعالى في بيته الحرام - المكان المقدس - وفي خطابه الخالد - الكلام لمقدس - " فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً^٣ مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^٤ ١٣ "3. وبهذا التحريف أمضى خطاب العهد القديم شهادة وفاته، حين تحول إلى مزيج من أهواء الأحرار والقساوسة، وإلى سرد تاريخي خاص بجنس معين، وإله قومي، وعهد متمثل في قطعة أرض، ليتجاوز الزمن والوقائع الغيبية لمصير شعب طالما اعتز كثيرا بعلاقته الخاصة مع الرب الإله، ثم عاش ويعيش أغلب حياته، مستعبداً ومضطهداً ومشرداً في انتظار عودة مجده الضائع، وإعادة بناء الهيكل الخرب. فاليهود " يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن الله خلق العالم من أجلهم وخدمتهم، وكلا الفريقين من أهل الكتاب يزعم صلة بالله ومكانة فريدة عنده "4. إلا أن سنن الله لا تحابي فرداً ولا شعباً، إلا وفق الإيمان بالله الواحد، والعمل الصالح .

1 - سورة البقرة : الآية 75 .

2 العهد القديم : سفر أشعيا ،الإصحاح الأول ، الفقرة 4 .

3 سورة المائدة : الآية 13 .

4 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، ص 76 .

أما النص القرآني وحقائقه، ف " يتقرر لدينا من جديد أن حقائق القرآن العلمية ... تدل جميعها على أن نصوص القرآن لا دخل ليد البشر فيها، وأنها وحي لا شك فيه "1. لكن محمد أركون، وبعد أن جعل تاريخ تدوين القرآن وراء ظهره، يقول: " الخطاب القرآني وهو البلاغ الشفهي من الرسول صلى الله عليه وسلم في مواقف استدعت الخطاب، ولم تنقل جميعها بأمانة إلى المدونة الرسمية المغلقة "2. وهذا يدل على أن كلام الكاتب لا يتناسب مع مكانته العلمية كباحث أكاديمي، حيث يعرض أحكاماً دون تقديم أي دليل. لكن وقائع الأحداث عبر التاريخ الماضي والحاضر تثبت مصداقية الخطاب القرآني. ولذا فالمقارنة الجدية بين الخطابين الكتابي والقرآني واجبة لكشف حقيقة القدسية والخلود " ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُفُؤُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ١١٢ "3. وجاء في العهد القديم " وقال أحجب وجهي عنهم وأنظر ماذا تكون آخرتهم إنهم جيل متقلب أولاد لا أمانة فيهم هم أغاروني بما ليس إلهاً أغاظوني بأباطيلهم فأنا أغيرهم بما ليس شعبا بأمة غبية أغيظهم "4. فاستبدلهم الرب الإله بأمة غبية، بعدما ظلوا مزهوين بنسبهم الإبراهيمي، وسموهم عن بقية الشعوب الأخرى، ومكانتهم الخاصة عند الإله.

يقول العهد القديم حين يخاطب ملاك الرب هاجر: " ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك * وإنه يكون إنسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه "5. ويقول القرآن الكريم في البشري بميلاد إسماعيل - عليه السلام - : " فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِّمٍ حَلِيمٍ ١٠١ "6. هنا فقط يمكن لنا أن نفهم هذه الصفة القرآنية، التي جاءت لتدحض صفة الوحش التي جاءت في العهد القديم. والحوار الذي دار بين إسماعيل الابن، وأبيه إبراهيم - عليهما السلام - تؤكد صفة الحلم " فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ أَعْلَى مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٠٢ "7. فالمسألة ليست رغبة أب فحسب، بل هي أمر

1 موريس بوكاي : التوراة الإنجيل القرآن والعلم . ص 243 .

2 محمد أركون : نافذة على الإسلام ، ترجمة صياح الجهم ، دار عطية للنشر، الطبعة الأولى 1996 لبنان . ص 65 .

3 - سورة آل عمران : الآية 112 .

4 - العهد القديم : سفر التثنية ، الإصحاح الثاني والثلاثون ، الفقرة 19 .

5 - العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح 16 / 12 .

6 - سورة الصافات : الآية 101 .

7 - سورة الصافات : الآية 102 .

إلهي. وبالتالي فعبارة - غُلْمٌ حَلِيمٌ - صفة لإسماعيل، تقابلها عبارة - غُلْمٌ عَلِيمٌ - صفة لإسحاق - عليهما السلام - " قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلْمٍ عَلِيمٍ ٥٣ "1. ولا تتم عملية استيعاب هذه الصفة الخاصة بإسحاق، إلا ضمن قصة مباركته لابنه يعقوب - عليهما السلام - واستعمال يعقوب للتدليس والغش - حسب الرواية الكتابية - لاختلاس بركة أخيه عيسو، بمؤامرة من الأم. ولم يعلم الأب الضرير بهذا الخداع، حتى بعد عودة عيسو من الصيد. ولنا في تحليل هذه القصة تفصيل في الفصل الرابع - إن شاء الله - ففي هذا الموقف فقط، تظهر لنا صفة عليم لتؤدي دورها في نقض المكر والخداع. ليضع الخطاب القرآني حداً لكل باطل يلتصق بأنبياء الله الكرام المصطفين - عليهم السلام - كما ينزهه الله تعالى عن كل نقص يلحق بالذات العليا.

يقول تعالى: " وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٢ "2، ويقول أيضا: " وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١٤ "3. وكلا الفريقين - اليهود والنصارى - نقضا العهد والميثاق، وقد قال لهم المسيح - عليه السلام -: " لذلك أقول لكم إن مملكة الرب سوف تؤخذ منكم وتعطى لأناس يأتون بالثمار "4. فلا حظ إذن لهما في مملكة الرب. " وأما السورة الخامسة (المائدة) فتتعلق بشكل رئيسي باليهودية والمسيحية، وتؤكد من جديد فساد هاتين الديانتين اللتين انبعثت تعاليمهما النقية الطاهرة، واكتملت من جديد في الإسلام "5. إن " اليهود يعلنون إيمانهم بالله الواحد، فهل فكرتهم عن هذا الإله صحيحة؟ وهل ينزهونه من كل نقص، وينسبون إليه كل كمال؟ وهل يرون أنفسهم بعض الناس الذين يتقدمون بالطاعة، ويتخلفون بالمعصية؟ كلا. لقد صادروا عقيدة الألوهية لحساب جنسهم، وأصبح الإله حارسا لمزاعمهم ومنافعهم، إنه إله خاص يرضيهم، أكثر مما يرضونه "6. فقصة إبراهيم - عليه السلام - تقطع الصلة بكل كافر ومشرِك، حتى ولو كان

1 سورة الحجر : الآية 53 .

2 سورة المائدة : الآية 12 .

3 سورة المائدة : الآية 13 .

4 العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح الثالث والأربعون ، الفقرة 21 .

5 جيفري لانغ : حتى الملائكة تسأل . ص 208 .

6 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 86 .

ابنا له. " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥ " 1. ويقول المسيح لبني إسرائيل: " لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم " 2. وعمل إبراهيم - عليه السلام - كان عبادة الله الواحد الأحد - سبحانه وتعالى -

إن " النظرة المحايدة إلى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم تؤكد أنه لا نظير له بين تراث النبيين جميعا . كما أن النظرة إلى حياة محمد، تشير إلى أنه تفرد بنسق في الذكر والشكر والصبر والتوكل وبعد الغاية، تجعلنا نجزم أنه إذا سُلِبَ النبوة، لم يستحقها من بعده أحد في الأولين والآخرين " 3. على الرغم من تقديرنا للشيخ الغزالي، وإيمانه وعلمه، إلا أننا نعترض عن استعمال عبارة (كتاب محمد)، ولا بد أن ننسب الكتاب إلى صاحبه وهو الله، وأن نعلن أنه منزل على محمد، وهذا تفاديا لكل إشكال، أو سوء فهم يقع فيه غير المسلم. فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يملك من هذا الوحي المنزل عليه، سوى تبيلغه للناس كما أمره ربه، فمحمد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا " وصف محمد وحده بشيء فهو أنه أفصحهم بيانا، وأشدهم بلاء ، وآملهم في إحياء الفطرة ومناشدة العقل ... وتراثه الباقي لا يزال، وسوف يبقى إلى قيام الساعة يؤسس اليقين، ويوقظ الغافلين، ويسدد الخطى إلى رب العالمين " 4. فالخطاب القرآني لم يتأثر بعامل الزمن، منذ زمن إقرأ. فميزته على المستوى الزمني ليست تاريخا بدأ ثم انتهت مرحلته، بل هو خطاب تواصلية شامل، لا يعرف الحدود التي تعيق الخطاب لتجعل منه رغبة ذاتية، أو نزعة قبلية، أو نزوة عابرة، أو فكرة قومية، أو ثقافة عنصرية، يفقد معها الدين حقيقته، والرب ألوهيته وخالقيته، والإنسان رسالته، والخطاب خلوده وقديته. فهذه نزعة ترسم هوى النفس، نبتت من الأرض، ولم تنزل أبدا من السماء، وإلا فما هو الفرق بين الخطاب البشري المتزمن، والخطاب الإلهي السماوي الخالد ؟ .

إن الوحي قد رسم الأحداث لقصصه بأسبابها ونتائجها كما مر بنا في الفصل الثاني وفق قوانين ثابتة تجريها سنن الله بمشيئته وعلمه، وبحكمة بالغة، وقدرة مطلقة. فمصير الأفراد والأمم يحدده الموقف من الحقيقة الأزلية - لا إله إلا الله - وإذا بحثنا قصص الأنبياء : إبراهيم وموسى

1 سورة إبراهيم : الآية 35 .

2 العهد الجديد : إنجيل يوحنا ، الإصحاح الثامن ، الفقرة 36 .

3 محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 67 .

4 المرجع نفسه . ص 67 .

وعيسى - عليهم السلام - نجد قصة إبراهيم تؤكد عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء الذين سبقوه، فتفانى في نبذ الشرك، وإثبات وحدانية الله قولاً وفعلاً. أما الرسل الذين سبقوه فقد اكتفوا بالدعوة قولاً، ووفق ما أمرهم الله تعالى، فنجاهم الله والمؤمنين معهم، وأخذ الكفار بعذاب من عنده. ولهذا فإبراهيم - عليه السلام - انتهى بتحطيم أوثان قومه متحملاً كل الأذى في سبيل الحق، متكللاً على الله وحده، ومهاجراً إلى مكان سيثيب منه نور التوحيد، ويبقى إلى ما شاء الله له، لتسقط خرافة الألوهية المزعومة، لكل مخلوق مهما كانت صفته، وتتجلى حقيقة لا إله إلا الله الأزلية. فهجرة إبراهيم - عليه السلام - كانت خالصة لله الواحد " فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٦ "1. وينتهي به المطاف في مكان بالصحراء مقفر، حيث ستقيم ذريته فيه من بعده، يشدها إلى هذا المكان، البيت الذي سيرفع قواعده بأمر من الله تعالى، ليكون مصلى لكل الأمم، وعبر عنه العهد القديم كما ذكرنا سابقاً .

إن سورة العلق التي تمثل قصة بداية التنزيل، قد استوعبت في عدد من الآيات، ما لم يستطع أهل الكتاب أو المشركون تحمله " أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ٦ إِنَّ رَبَّهُ اسْتَمَعَ نَهْمَ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ٨ "2. إن النبي الأمي صلى الله عليه وسلم سيقراً ويتعلم بلا قلم وكتابة. إن الذي خلق الإنسان من علقه، قادر على أن يجعل الأمي عالماً، ومحمد ما تطلع إلى وحي أو رسالة، فقد بهت بما كان. فلما استيقن من اصطفاء الله له، شرع بيني الملة الجديدة، كما فعل من قبله إبراهيم وموسى - عليهما السلام - "3. فالعلم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو علم إلهي، لا يخطئ ولا يزل. وبينما تناسى بنو إسرائيل ذكر الآخرة، وغفل الأميون عن هذا اليوم، وركنوا إلى الحياة الدنيا، يفاجئهم الوحي في أول تنزيل بآية - إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ - . وكان سياق الخطاب القرآني يواجه كل الناس بهذا اليقين، الذي أزاله اليهود من أسفارهم، وأحتكره النصارى لأنفسهم، وجهلته الأمم الوثنية الأخرى وأنكرته. ففتح الخطاب القرآني جبهة صراع ومقاومة مع كل عقيدة باطلة، ومع كل فلسفة مادية وإلحادية، كانت قد شوهدت الفطرة السليمة، وأبعدتها عن ذكر الله واليوم الآخر. فَرَدَّ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ إِلَىٰ مَنبَعِهَا الصَّافِي، الذي لا يشوبه أي شرك أو غموض،

1 - سورة العنكبوت : الآية 25 .

2 سورة العلق : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 .

3 الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 530 .

كما رد العقل إلى وظيفته التي خلق لها، وهي التدبر والتفكر في مخلوقات الله تعالى، لاستجلاء مظاهر عظمة الخالق ، وطلاقة قدرته .

إن بني إسرائيل قد عبدوا المادة، وقست قلوبهم وتعلقت بالدنيا الفانية، ونسوا اليوم الآخر، فبعث الله لهم عيسى بن مريم - عليه السلام - ليرقق قلوبهم ويذكرهم بالله والبعث. وقد فرغت كتبهم من ذكر ذلك اليوم الذي لا ريب فيه. وهذا ما جاء على لسانه حين أنطقه الله في المهد: " قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي ٱلْكِتَآبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ۳٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلَوةِ وَٱلزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ ۳١ وَبُرًّا بِوَٱلدِّينِ وَٱلْمَ جَعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ ۳٢ "1. ليفصل في قضية الألوهية، مبرناً أمه ونفسه بإعلان عبوديتهما لله وحده، ومصداقاً بالتوراة. لقد " كان اختيار مريم فيه طلاقة قدرة، واصطفأؤها الأول فيه طلاقة قدرة ، واصطفأؤها الثاني فيه طلاقة قدرة، ومولد عيسى بن مريم طلاقة قدرة، ثم بعد ذلك رسالته مؤيدة كلها بطلاقة القدرة، ورفعها إلى السماء فيه طلاقة قدرة "2. كما أنه بشر برسول يأتي من بعده. " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ ٦ "3. وهذه البشارة التي أعلنت نبوءتها ، على مسامع بني إسرائيل، ستشخذ في نفوسهم عملية البغض والكرهية الشديدة لهذا النبي المنتظر ، والذي سيظهره الله، رب المكان والزمان والناس.

فالقرآن الكريم قد " مزق حواجز الغيب .. مزق حواجز الزمان والمكان "4 والزمان بمراحله الثلاث تمثل حواجز كان القرآن الكريم قد تجاوزها بخطابه، ويعلن على لسان الرسول، نافيا حضوره وعلمه بأحداث القصص الماضية والمستقبلية: " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۚ ٤ "5، ويقول أيضا: " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۚ ٤٦ "6. فيتأكد أن مصدر الوحي، وهو الله سبحانه وتعالى " إنه ليكاد يتعذر الحصول على نص لا نستشف فيه حضور الذات الناطقة به، إن هذه الأخيرة تسجل دائما حضورها في ملفوظها "7. ولا يخلو سطر أو آية، إلا ووجدنا فيها صفة

1 - سورة مريم : الآيات 30 ، 31 ، 33 .

2 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . ص 364 .

3 - سورة الصف : الآية 6 .

4 - الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق . ص 114 .

5 سورة القصص : الآية 44 .

6 سورة القصص : الآية 46 .

7 دومنيك مانغز : المرجع السابق . ص 122 .

الذات العليا، وهو رد على كل مشكك في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأن كل الدلائل التاريخية تؤيد صدقه صلى الله عليه وسلم . يقول موريس بوكاي : " إنه يُطلب إلينا ألا ننظر إلى التاريخ في التوراة، حسب النوع التاريخي الذي يمارسه المحدثون "1. إن تجاوز الزمن لنصوص العهد القديم، يُبقي الخطابَ ضمن الإطار الفني، محصوراً في فترة زمنية معدودة، لا تلبث أن تتحول إلى لحظة ماضية فانية، داخل إطارها المكاني والزمني، على عكس الخطاب القرآني، الذي يتجاوز الزمكانية. إن النص القرآني هو " النص الوحيد الذي يفرض سلطته وجوبا على القارئ، ولا يوجد فيه نص يعود لحقبة ما ينتهي بانتهائها، فالتاريخ بالنسبة للنص صفر "2. وهكذا يكتسح النص القرآني كل الفضاءات المكانية - الأرض والسموات - وكل المراحل الزمانية - الدنيا والآخرة - وهذا مما لا نعثر عليه في أي نص على الإطلاق .

يستمر الخطاب القرآني ما بعد فناء المكان والزمان، لينتقل إلى عالم الخلود " هذه اللفظة - الخلود - وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى - ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ كما وردت مشتقاتها في آيات القرآن ست وثمانين مرة ... ولا يكون الخلود إلا في الجنة أو في النار "3. ولهذا تكررت مشاهد القيامة والبعث والحساب في عالم الخلود في سور القرآن الكريم " بينما المشهد هكذا معروضاً في الدنيا، إذ السياق ينتقل، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة بلا توقف ولا فاصل. فالشريط المعروض موصول المشاهد، والنقلة تتخطى الزمان والمكان، وتصل الدنيا بالآخرة "4. إن الخطاب يبقى مستمراً على الرغم من اختلاف العوالم، وانتقال البشر من الحياة إلى الموت، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب. " إننا لا نتكلم أبداً سوى جملة واحدة، الموت وحده يقطعها "5. ولن يستطيع أحد أن يتحدى متجاوزاً الموت وما بعده، إلا الخالد خالق الموت والحياة. " وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ بَلْ رَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۗ ٤٨ "6. في موقف الموت وما بعده، يتوقف السرد الفني والتاريخي، ويفتح الخطاب القرآني كعادته عالم الغيب، بعدما اقتحم عالم الشهادة، ليستمر في عملية التدفق

1 موريس بوكاي : المرجع السابق . ص 49 .

2 أد . حمزة فاضل يوسف : المرجع السابق . ص 20 .

3 الموسوعة القرآنية المتخصصة : ص 745 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، الجزء الثامن . ص 1260 .

5 رولان بارت : التحليل النصي . ص 49

6 سورة الكهف : الآية 48 .

دون انقطاع، ليصبح السرد الفني والتاريخي محصورين ضمن زمكانية محدودة. فموت النص أو موت الشخصيات، أو موت السارد ونهاية المكان، كل هذه الحالات تؤسس لمحدودية الخطاب البشري، لتحرمه صفة الاستمرارية والخلود. أما الخطاب القرآني فتناول قصة الحياة والموت، والوجود والمصير والخلود. فيظل ملازماً حياة الإنسان، وسيبقى ملازماً له في الموت وما بعده، ليعلن على أن ذلك اليوم لا ريب فيه. فالألوهية والبعث، هما المحوران الرئيسيان اللذان دار عليهما القصص القرآني. " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ٦ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧ "1. فمن الذي بمقدوره أن يسرد علينا هذا المشهد بعد فناء المكان والزمان والناس؟ إن " السجل المثبت للتجربة الإنسانية لا يتضمن حقيقة الخلود، وليس هناك نظرية رياضية تبرهن عليه "2. فليس للعلم ما يقوله في مجال ما بعد الموت، ولا رأي للتاريخ، ولا للنقد الأدبي كذلك، إلا في خطاب صاحبه هو خالق الموت والحياة والناس .

إن مرحلة ما بعد الموت مسألة غيبية أولاً، ومعجزة ثانياً، تطرح إشكالية خطيرة لمن لا يؤمن بالله والبعث. وقد وضح القرآن الكريم علاقته بالمنكرين، فهم عاجزون عن رؤية حقيقة الألوهية في آيات القرآن ، كعجزهم عن رؤيتها في آيات الكون " فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٠ "3. فهذه الآية تبرهن على أن الذي أحيا الأرض، قادر على إحياء الموتى. أما العاجز عن النظر والرؤية فلن يستوعب هذه الحقيقة. " وَمِنْ آيَاتِنَا أَنَّا نَرَى الْأَرْضَ خُشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٩ "4. ولا نجد في هذا الخطاب شفرات أو تعقيدات يتعسر فهمها على المتلقي، لأنه تمهيد للولوج في عالم الغيب، انطلاقاً من عالم الشهادة، بعيداً عن كل خطاب فلسفي أو أسطوري. إنه تفسير علمي واضح وبسيط، لحل أخطر مسألة غيبية، مسألة البعث. " أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٣ "5. هنا يسقط ادعاء تعب الله بعد الخلق، كما جاء افتراء في سفر التكوين " واستراح في اليوم

1 - سورة القمر : الآيتان 6 ، 7 .
2 رالف بارتون بري : إنسانية الإنسان . ص 197 .
3 سورة الروم : الآية 50 .
4 سورة فصلت : الآية 39 .
5 سورة الأحقاف : الآية 33 .

السابع من جميع عمله الذي عمل "1. لقد تصدى الخطاب القرآني لكل هذه الخرافات والأباطيل ليكشف زيفها وبطلانها. " لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢ "2. وهكذا أثبت القرآن الكريم مصداقيته وإعجازه من داخل خطابه.

فلاستمرارية تجعل الخطاب القرآني خطاباً يتجاوز حدود الزمكانية، وتجعل تدفق السرد مستمراً لا ينتهي، مبتدئاً من الماقبل إلى المابعد. " ويستمر السياق إلى صور النعيم والتعذيب فتحس أنك قطعت الرحلة في لحظات، وهي تبدأ قبل خلق الإنسان يوم لم يكن شيئاً مذكوراً، وتنتهي في الجنة وفي النار، وتضم في خلالها الحياة في بضع فقرات قصار"3. لهذا فالخطاب القرآني يتجاوز الزمن والتاريخ، ليبقى ممتداً امتداد الخلود الذي لا يعرف حداً ولا نهاية. فكل تلك المشاهد التي جاء بها، والخاصة بعالم الخلود، تجلي لنا أحقية الله سبحانه وتعالى في تفرده لوحده في ملكية يوم الدين " مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ "4. وإذا كان الناس في الدنيا يتحركون ويتحدثون بهامش من الحرية الشخصية، التي منحها لهم خالقهم، فهم لا يقدرّون على ذلك حين يُبعثون بعد موتهم، لتظهر لهم حقيقة أنفسهم، وتسقط أمامهم كل الأوهام والتصورات التي زعموها وجادلوا رسلهم لإنكارها. " أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ مُّخْرَجُونَ ٣٥ هَيَّاهُتَ هَيَّاهُتَ لِمَا تُوَعْدُونَ ٣٦ "5. إن الخطاب لا يبني هذه المشاهد على الأسطورة والخرافة والخيال، والفرضيات الزائفة، بل على الحق واليقين. فعَمِلَ على تقابل مشهد الخلود من الجانبين، جانب النعيم الأبدي للمؤمنين، وجانب الشقاء الأبدي للكافرين.

لا تنتهي قصة الإنسانية إلا حين يستقر الأمر في دار الخلود " إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٢ "6. فقصة فرعون وأتباعه لا تنتهي عند حادثة الغرق، وإنما تستأنف لما بعد ذلك " النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦ "7. وبالتالي تظهر الحقيقة لكل الكافرين المكذابين. " هذا العالم بسيط كل البساطة واضح وضوح العقيدة الإسلامية، موت وبعث، ونعيم وعذاب. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم، وأما

1 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثاني ، الفقرة 2 .

2 سورة فصلت : الآية 42 .

3 سيد قطب : مشاهد يوم القيامة ، دار الشروق ، الطبعة السادسة عشر ، 2002 القاهرة . ص 44 .

4 - سورة الفاتحة : الآية 4 .

5 - سورة المؤمنون : الآيتان 35 ، 36 .

6 سورة القيامة : الآية 12 .

7 - سورة غافر : الآية 46 .

الذين كفروا وكذبوا بقاء الله، فلم النار بما فيها من جحيم" ¹. فالخطاب يرسم كل تفاصيل المشهد الغيبي ليوم القيامة، ليقرر الحقيقة الأزلية التي أنكرها الكافرون. يلج الخطاب في عمق الحدث الذي لا يقدر أياً كان أن ينقله بحقيقته وهوله. هنا يتوقف كل سرد، ويعجز كل سارد عن تصوير هذه اللحظة الحاسمة، وما بعدها. " فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ١٠١ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ١٠٤ " ². إنها المرحلة الأخروية بأحداثها ومكانها وشخصها، بكل حقائقها للوصول لجميع الناس إلى المستقر الأبدي .

إن الخطاب القرآني يمتد مع الموت، وما بعد الموت، في عرضه مشاهد يوم القيامة والحساب، ونقله للحوار الذي سيدور يقينا بين الكفار والمؤمنين، وبين الطغاة وأتباعهم المستضعفين، وبين الكفار والملائكة، وبين الله ورسوله. كما ينقل محاكمة المجرمين المكذبين التي ستمت أمام كل الخلائق. ويعيد الخطاب القرآني عرض إشكالية الزمن في اليوم الآخر. " قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِيْنَ ١١٣ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١٤ " ³. ويقول السيد قطب: " وهي إجابة الضيق واليأس والقنوط " ⁴ فاخترت لديهم مدة الدنيا في قولهم - يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - . إن زمن الدنيا لا يساوي شيئاً مهما امتد وطال، مقابل حياة الآخرة والخلود، إنها حقيقة الزمن التي تجلت يوم القيامة. وبالتالي لا يُقاس زمن الدنيا الفاني، بزمن القيامة الباقي، وهذا ما يبين لنا عدم التفات القرآن الكريم في سرد قصصه إلى زمن الدنيا، لاعتباره حدثاً عارضاً وفانياً. إن الخطاب القرآني نجده قد أهمل التصوير المادي لحياة شخص قصصه في الدنيا مُركزاً على العاقبة والمصير، وهذا عكس ما جاء به في عالم الآخرة، من وصف وتصوير بشكل محسوس، وواضح يجسد أسباب النعيم المادي والمعنوي، وما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين .

لكن كارين أمسترونج تقول: " فصل التراث الإسلامي كلا من الجنة والجحيم ويوم الحساب، ولكن بقي القرآن متحفظاً ولغته غامضة ومحيرة فيما يخص تلك الغيبيات " ⁵. وهل أن

¹ سيد قطب: مشاهد يوم القيامة . ص 43 .

² سورة المؤمنون : الآيات 101 ، 102 ، 103 ، 104 .

³ سورة المؤمنون : الآيات 112 ، 113 ، 114 .

⁴ سيد قطب: في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، الجزء الثامن عشر . ص 2482 .

⁵ كارين أمسترونج : محمد نبي زماننا . ص 56 .

رواية رسالة الغفران، هي تفصيل وتوضيح لعالم الآخرة، أكثر وضوحاً من النص القرآني؟ يقول المعري عن بطله: " فيسير في الجنة ... ومعه شيء من طعام الخلود "1. وبعد التجول في الجنة يتجه البطل إلى جهنم " فيطلع فيرى إبليس - لعنه الله - وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع من حديد "2. ليتحول الغيب لدى الكاتب إلى ألعوبة خيالية تجيزها العملية الفنية، ويحذر منها الوحي الإلهي - وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا - ويبقى الخطاب القرآني هو الخطاب الوحيد الذي يقدم حقيقة عالم الخلود، بل قد قدمه لنا في صورة محسوسة واضحة. " لقد عني القرآن بمشاهد القيامة - البعث والحساب والنعيم والعذاب - فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفاً فحسب، بل عاد مصوراً محسوساً، وحياً متحركاً وبارزاً شاخصاً "3. وكيف تضيع الأمور وتُهمل، والخطاب القرآني يؤكد على الدقة في الحساب والميزان والعدل، حتى وإن كان مثقال ذرة؟ بل كان الخطاب القرآني دقيقاً حتى في وصف ما في الجنة من نعيم مادي ومعنوي، وما في النار من عذاب وشقاء مادي ونفسي. ولو تتبعنا العرض القرآني لمشاهد يوم القيامة، فيستحيل أن نجد كتاباً دينياً واحداً عرض هذا اليوم عرضاً حسيماً مفصلاً، والتقطت عدسات تصويره كل كبيرة وصغيرة في مشاهد ذلك اليوم الذي لا ريب فيه، كهذا الكتاب الخالد .

فقد فصل الحديث عن عالم الآخرة بكل مكوناته ومزاياه، فالجنة تجري بها أنهار من كل شراب وذوق " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشُّرْبِ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ "4. وأصحابها يحلون فيها من لباس وأساور " أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا "5. ونجد صورة الجنة المتكررة بأنهارها وعيونها الجارية، وبظلمها الدائم ورزقها الغير الممنوع ولا المقطوع " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَنْفَقُوا وَعُقْبَى الْكُفْرِينَ النَّارُ "6. ويقدم لنا الخطاب صورة نعيم الجنة في سورة الغاشية " فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۙ ۱۲ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۙ ۱۳ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۙ ۱۴

1 أبو العلاء المعري : رسالة الغفران، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف القاهرة (ب ت) . ص 175 .

2 المرجع نفسه . ص 309 .

3 سيد قطب : مشاهد يوم القيامة . ص 42 .

4 سورة محمد : الآية 15 .

5 سورة الكهف : الآية 31 .

6 سورة الرعد : الآية 35 .

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَرَزَابِيُّ مَبْتُوثَةٌ ١٦" 1. كما نجد من جهة ثانية تفصيل صورة الشقاء في الجحيم، وما يحيط بها من هول، وما يوجد فيها من عذاب، بل حتى نوع الطعام والشراب " تَصَلَى نَارًا حَامِيَةً ٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ٧" 2. هذا هو مكان الجنة ومكان الجحيم. فالخطاب القرآني قد أكثر من هذه التفصيلات لأنها حق وستبقى خالدة، ويبقى الفريقان في سعادة أبدية، أو شقاء أبدي، كل فريق وفق تصديقه أو تكذيبه بهذا اليوم .

يبدأ يوم الحساب وقصته بتوبيخ الكفار المكذبين " أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْفُرُوا ١٠٥ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا لَا كُنَّا نَلْمُهُمْ أَجْرًا فَاتُخَذُوا لَكُمْ آيَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنْتُمْ مُكَذِّبُونَ ١٠٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ١٠٧ قَالَ أَوْسُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ١٠٨" 3. إن عبارة - أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ - تدل على مكانة المخاطب السامية والمطلقة. إن " تحليل الخطاب يجب أن يجلي العلاقات المركبة بين هذه المنازل " 4. ليصبح المخاطبون في منزلة سفلى " الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ١٠٥" 5. فلا وزن لهم. وتُعاد قضية جريمة أهل الكتاب الذين ادعوا ألوهية عيسى وعبادته. " وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ١١٦" 6. ليسقط الادعاء وتثبت براءته - عليه السلام - ويخسأ المكذبون. " مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٧" 7. ولربما قال البعض: " فإن هذا القول وهذا الحوار، تصوير لموقف لم يحدث بعد، بل لن يحدث، إذ القصد منه كما سبق أن ذكرناه، التأثير على المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم والعمل على تنفيرهم من عبادته وعبادة أمه - عليهما السلام - " 8. لكن " السر في ذلك أن كل الأحداث حاضرها ومستقبلها قد حدثت في علم الله، وليس عند الله، زمن يحجب عنه المستقبل. فهو سبحانه

1 سورة الغاسية : الآيات 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 16 .

2 سورة الغاشية : الآيات 4 ، 5 ، 6 ، 7 .

3 سورة المؤمنون : الآيات 105 ، 106 ، 107 ، 108 .

4 دومنيك مانغز : المرجع السابق . 97 .

5 سورة الكهف : الآية 105 .

6 - سورة المائدة : الآية 116 .

7 - سورة المائدة : الآية 117 .

8 - محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ، ص 83 .

فوق الزمان والمكان "1. يقول الله تعالى: " قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١٩ اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢٠ "2. ولهذا فإنكار وقوع أمر في الغيب، جاء به النص القرآني صريحا هو تكذيب بيوم البعث. " والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصوير في نفس الإنسان، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك الحيوان "3. ويبقى يوم القيامة الذي كذب به الأولون، يكذب به المتأخرون أيضا، وهذا هو الكفر بالله وبوحيه وبيوم البعث.

يفضح هذا الخطاب الخالد في هذا المشهد العظيم، وفي عالم الخلود، أعظم بهتان اختلقه المكذبون، وهو افتراءهم على عيسى - عليه السلام - بأنه ابن الله - تعالى الله عما يصفون - وجاء الرد حاسما وقاطعا يوم القيامة. لقد أثبتت نبوة وبشرية عيسى - عليه السلام - وعبوديته لله عز وجل. كما أثبتتها وصية المسيح " اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا واحد "4. وهكذا يُفْتَضَحُ كَذِبُ وبهتان النصارى الضالين عن الحق، والمضلين من قساوسة ورهبان، وتحول كل ما ألقوه في تأليه عيسى النبي، وقصة صلبه، وكل ما اعتقدوه من بعده إلى يوم القيامة، محض كذب وافتراء " إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى بن مريم - عليه السلام - وحده لأن عيسى بن مريم هو الذي فتن قومه فيه، وهو الذي غام الجو حوله بالشبهات، وهو الذي خاض فيه الناس في الأوهام والأساطير، حول ذاته وحول صفاته، وحول نشأته ومنتهاه "5. فالنص القرآني لا يترك أي خطاب يحمل التأليه والتقديس لغير الله سبحانه وتعالى، إلا دحضه، وأظهر زيفه وكذبه، في الدنيا والآخرة. إن ما ألقه أهل الكتاب في طبيعة المسيح وأمه مريم - عليهما السلام - لا يصمد أمام حقيقة الخطاب القرآني، الذي يظل مواكبا زمن الدنيا ومرحلة الخلود. ولن تُحسم مسألة العقيدة نهائياً، إلا حين يقف جميع الناس في يوم واحد أمام ربهم " يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ "6. فنتهاوى كل المعتقدات الباطلة أمام عقيدة التوحيد، ويتهاوى كل الأرباب

1 د . مصطفى محمود : لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد؟ ، مجلة العلم والإيمان، العدد32، السنة 1974 تونس . ص 33 ، 34 .

2 سورة المائدة : الأيتان 119 ، 120 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء التاسع . ص 1408 .

4 العهد الجديد : إنجيل مرقس ، الإصحاح الثنائي عشر ، الفقرة 20 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء السابع . ص 997 .

6 سورة غافر : الآية 16

المزعمين أمام رب العالمين، وتنتهي كل الخطابات الزمنية أمام الخطاب القرآني الخالد بسؤال الله تعالى - لِمَنْ أَلْمَلْتُ الْيَوْمَ بِهٖ الْوَحْدَ الْفَهَّارَ - و لا تبقى إلا الحقيقة الأزلية لا إله إلا الله، وحده لا شريك له .

فمن أين للكاتب أن ينكر كل ذلك ؟ والخطاب القرآني واضح وصريح، إلا إذا أراد الكاتب أن يُحكم هواه ورأيه، وهذا دين المشركين من قبل، حين أرادوا إن يخضع الوحي لهواهم، وينزل عند رأيهم، فطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبدل القرآن " وَإِذَا تُلِّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِرُءُوفٍ غَيْرٍ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَلَّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْفَافٍ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ "1. إن الوحي إلهي المصدر، وخطابه أزلي، فهو ليس صناعة بشرية. أما ما جرى من تحريف وتبديل، وحذف وزيادة في النصوص عند أهل الكتاب، جعلت خطاب أسفارهم لا يتعدى الزمن الذي ألف فيه، ولا يعبر إلا عن آراء كتابه ونزعاتهم الشخصية وأهوائهم، ولم يبق من الحق إلا قليل. " ولا زال قوام النقد في معظم الأحيان، ينصب على القول مثلا: إن عمل بودلير يمثل إجحاف الإنسان بودلير، وإن عمل فان غو يمثل جنونه، وإن عمل تشايفوسكي يمثل رذيلته. وهكذا فإن البحث عن تفسير للعمل، يتجه دائما إلى جانب ذلك الذي أنتجه "2. فلا يمكن لهذه الذاتية المتقلبة والمتزمنة أن تكتسح ميدان الإنسان والوجود والحياة والمصير، اكتساحاً مطلقاً، كما لا تصمد أمام التيارات الفكرية المتجددة عبر الامتداد الزمني. ولا بد " أن تظهر معلومات العصر وثقافته في الأثر الذي يتركه لنا الكاتب، ومن المستحيل أن نتصور كاتباً يؤلف قبل ألفين أو ثلاثة آلاف عام، دون أن يقع في كثير من الأخطاء العلمية والتاريخية، ودون أن تدخل في كتاباته عناصر الأسطورة "3. فالبشر لهم ما يكتبون وينتقدون ويفترضون، حسب ما اتفقوا عليه من قواعد وضوابط، سرعان ما تتبدل وتتغير وتنفعل بالزمن والهوى.

فمع زمن المستقبل والغيب " لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء، لأنه لا يملك أي عنصر من عناصر الحدث، والذي يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده ... ونقول: إن الذي يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى، وليس أنسانا مثلك محكوما بأزمانه. بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان

1 سورة يونس : الآية 15 ..

2 رولان بارت : نقد وحقيقة . ص 17 .

3 د . محمد علي البار : مدخل لدراسات التوراة والعهد القديم . ص 15 .

وخالفها "1 . وقوله تعالى : " أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١ "2. معناه " أن أمر الله آت لا محالة، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألا يكون. وأي فعل من الحق سبحانه وتعالى، إنما جُرد على ملابسات الزمن، وعن ملابسات المكان "3. وإذا بقيت دراسة إشكالية الزمن في الخطاب القرآني بعيدة عن حقيقة الألوهية، وطلاقة إرادة الله وفاعليته، فيستحيل أن يصل الباحث إلى استنتاج موافق لمبدأ الإيمان الحق. كما لا ينبغي لنا أبداً، أن نبعد صاحب النص عن النص القرآني. ولقد " نعلم أنه لكي تسترد الكتابة مستقبلها، يجب قلب الأسطورة، فموت الكاتب هو الثمن الذي تتطلبه ولادة القراءة "4. لكن تلاوة النص القرآني تفرض علينا أن نبدأ بذكر اسم صاحبه - بسم الله الرحمن الرحيم - بل إنه لا يكاد يخلو فيه ذكر اسم الجلالة أو ضمير الغائب، أو ضمير المتكلم - أنا، نحن - إضافة إلى ذكر صفاته العليا سبحانه .

إن الخطاب القرآني بهذا الأسلوب الصريح، يفضح ادعاء النصارى في الدنيا قبل الآخرة، حيث يتلاقى مع ما جاء في إصحاح الإنجيل المنسوب ليوحنا في قول المسيح " وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته "5. فسياق الخطاب يلتقي مع قول عيسى- عليه السلام - في القرآن الكريم عن حقيقة وتنزيه الله تعالى، والإقرار له بالألوهية لوحده سبحانه وتعالى: لا إله إلا الله، والمسيح عبد الله ورسوله . فالسياق واضح، والحجة قائمة ضد الادعاء بتأليه المسيح. " إن عيسى - عليه السلام - بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله، فأنت بهذا المعنى أنه على علم يقيني ضروري، بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته، عن أن يشارك في ألوهيته، وانتقل من هذا إلى بشريته نفسه "6. هذا ما يؤسس لحقيقة خلود الخطاب القرآني، ويثبت حقيقة وحدانية الله والبعث. فإذا نظرنا إلى علاقة الخطاب القرآني ببقية الخطابات السابقة في قوله تعالى : " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ "7. فسياق الخطاب يثير مسألة الزمانية، سواء في مجال التشريع، أو في مجال العقيدة، أو مجال السرد، وهي هيمنته على بقية الكتب والنصوص السابقة واللاحقة .

1 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد السادس . ص 3469 .

2 سورة النحل : الآية 1 .

3 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق . ص 3469 .

4 رولان بارت : نقد وحقيقة . ص 25 .

5 العهد الجديد : إنجيل يوحنا ، الإصحاح السابع عشر ، الفقرة 3 .

6 محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، الجزء السابع . ص 265 .

7 سورة المائدة : الآية 48 .

إن التحريفات التي أصابت خطاب العهد الجديد، جعلت نصوصه مهجورة، لا تراوح الأديرة والكنائس، ولا تُقرأ إلا وقت مراسيم القداس، كما " أن النص ليس سطرًا من الكلمات ينتج عنه معنى أحادي، أو ينتج عنه معنى لاهوتي (الرسالة التي جاءت من قبل الله). ولكنه فضاء، لأبعاد متعددة تتزاح فيها كتابات مختلفة وتتنازع، دون أن يكون أي منها أصليا فالنص نسيج لأقوال ناتجة من ألف بؤرة من بؤر الثقافة"¹. لكن تنوع الثقافات يدل على تنوع المزاج البشري، المحكوم بالزمن والهوى. بل يظل التنوع الثقافي يتابع تطوره وتغيره، وتتوالد على إثر كل نص، نصوص أخرى في حركة زمانية دائمة ومتتابعة، تحد من عمر النص السابق، كما يتحدد عمر مؤلفه. فإشكالية الزمن دائما تبقى عائقاً أمام النص ومؤلفه، فكلاهما في الخضوع لشرط الزمن سيان، و" قارئ الأسفار الخمسة يعيش في جو البداوة والضيق. أما المسيحية فهي لم تنقض النواميس الأولى، وإنما نزعت إلى ترقيق العواطف ... أما الإسلام فأفق آخر، بين الجسد والقلب والعقل، والدنيا والآخرة"². ولهذا أثار النص القرآني مسألة الهيمنة في سورة المائدة، لأنها السورة التي حملت نبأ أتمام الدين. ودلت على اقتراب نهاية التنزيل، وبهذا يكون الوحي قد حسم قضية النص وسلطته وخلوده.

وتنقلنا سورة الزمر إلى ذلك المشهد الغيبي حين يقضي الله بين الناس بالحق. " وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيٰمٌ يَنْظُرُونَ ٦٨ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتٰبُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَّ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظَلَّمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءِ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلٰى وَلَكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٧١"³. ثم تعرض السورة مشهد الفريق الثاني ومكانه في الخلود. " وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خٰلِدِينَ ٧٣"⁴. تتتابع مشاهد اليوم الآخر، وتعرض مواصفات مكان الخلود

¹ رولان بارت : نقد وحقيقة . ص 21 .

² الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص 81 .

³ - سورة الزمر : الآية 68 ، 69 ، 70 ، 71 .

⁴ - سورة الزمر : الآية 73 .

للكافرين، ليتناسب مع ما اقترفه في مسيرتهم الدنيوية، وما ارتكبه من جرائم، وما سطره من ادعاءات وأباطيل، وما قالوه في حق الله والرسول، والوحي والبعث.

كما ينقل لنا الخطاب في عدد من السور، نص الحوار الذي يدور بين الكفار حين تبدأ كل أمة تلعن أختها، وهم ينتابعون لدخول جهنم. " قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هُوَ آءٌ أَضَلُّونَا فَآتِيَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨ "1. وكذلك وهم يعانون من العذاب الشديد. " وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ "2. فلن يلتفت لاستعتابهم ولا لصريخهم، بل لابد من رفع درجة العذاب. بل حتى أن جلودهم تتبدل لكي يذوقوا شدة العذاب " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦ "3. إنه المشهد المرعب، الذي لا يطيقه أي متلق، مكذب بالوحي. أما المؤمن فلا يملك إلا استغفار ربه، والرجاء منه بأن يجنبه العذاب، ويقبه نار جهنم، وأن يحشره ضمن زمرة المتقين لربهم الفائزين بجنته .

وهاهم الكفار واقفون أمام النار معاينة وحضورا " هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصَلَّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ "4. إن الخطاب وهو يعرض تلك المشاهد الغيبية التي ستقع يقينا، يوقف الكافرين المكذبين بيوم الدين، ليجعلهم وجها لوجه أمام مكان الخلود في نار جهنم ليسترجع معهم كذبهم، في زمن الدنيا الفاني. إنها لحظة زمانية كانوا فيها غافلين مطمئنين، لكن كل شيء انتهى، وحانت ساعة الجد والفصل واليقين. فكيف يكون موقف المتلقي منها؟. هنا تبدأ الإشكالية، ويحاول الكل تبرير موقفه. أما الذي يحدد الموقف من هذا الخطاب، ليس النقد الأدبي، ولا العلم التجريبي، وإنما الشعور الإيماني باليقين، الذي يقف أمام عظمة صاحب الخطاب، ليراه متجاوزا المكان والزمان، والحدود والنهايات - إنه رب العالمين - .

1 سورة الأعراف : الآية 38 .

2 سورة فاطر : الآية 37 .

3 سورة النساء : الآية 56 .

4 سورة الطور : الآيات 13 ، 14 ، 15 ، 16 .

لقد انتهت مدة - إلى حين - وعاد المشهد إلى نقطة البداية الأولى. " يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ١٠٤ "1. هنا نصل إلى مرحلة المنتهى والرجوع والمستقر " إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْرُجْعَىٰ ٨ "2، الآية التي جاءت ضمن آيات سورة العلق في أول نزول الوحي، لتحسم القضية منذ البداية، وتتأكد خالقية الله للإنسان وإرجاعه إليه، برسم خط الحياة المبتدئ من الله والمنتهي إليه. " انطلقت البشرية من هناك من عند ربها سبحانه، انطلقت إلى الأرض تعمل وتسعى وتكد وتشقى، وتصلح وتفسد... ثم هاهي ذي تؤوب، هاهي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال "3. تلك هي قصة البشرية بداية ونهاية، وينقلنا المشهد القرآني إلى الموقف الحاسم الذي يظهر بأن لا شيء كان يخفى على الله تعالى. وتتحول أعضاء الجسم شهوداً على الكافرين " يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ "4 لقد توزع الخطاب القرآني على حواس الكفار في عرض إعجازي يثير حيرة المتلقي ودهشته. " حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢ "5. إنها المفاجأة بكل المقاييس بالنسبة للكفار والظالمين، وكذلك بالنسبة لمتلقي النص، الذي له أن يسأل كيف تنطق الحواس؟ في ذلك الموقف الغيبي العجيب، يُجَرِّدُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ وَحَرَكَةٍ، وَيُنزِعُ مِنْهُمْ هَذَا السُّلْطَانَ. إِنَّ " أَلْسِنَتَهُمْ مَعْقُودَةٌ لَا تَنْطِقُ، فَقَدْ كَانَتْ تَكْذِبُ وَتَفْتَرِي وَتَسْتَهْزِئُ، وَأَنْ أَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَجُلُودَهُمْ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ، لَتَسْتَجِيبَ لِرَبِّهَا طَائِعَةٌ مُسْتَسْلِمَةٌ "6. فحتى أعضاءهم تمردت عليهم.

إن الخطاب القرآني قد شمل كل الكائنات، كما شمل كل المكان - الكون كله - لقد شمل كل الكائنات الحية من الإنس والجن والملائكة، وكذلك الجامدة وغير العاقلة. فالخطاب بهذا التفرد المميز يصل إلى قمة الإعجاز والإثارة، حيث الإحاطة التامة والشاملة ليجلي قدرة الخالق المطلقة. ونهاية المطاف يوم التلاقي. " وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التي تشهد ذلك اليوم

1 سورة الأنبياء : الآية 104 .

2 سورة العلق : الآية 8 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الثامن . ص 1244 .

4 سورة النور : الآية 24 .

5 سورة فصلت : الآيات 20 ، 21 ، 22 .

6 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الجزء الخامس والعشرون . ص 3118 .

المشهود وتتلاقى الخلائق كلها بربها في ساعة الحساب فهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي "1. وهذه كانت مهمة الرسل وختاماً بالنبي محمد - على جميعهم الصلاة والسلام - " رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُقْفِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرَةٍ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادَةٍ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥ "2. لقد تعدى الخطاب القرآني الإطار الزمني الذي لا يستطيع السارد البشري تجاوزه. كما شمل مراحل الخلق وأنواعه، من حي وجامد، وعافل وغير عافل. فلم يترك القصص القرآني مكاناً، إلا واحتواه، سواء في الدنيا - الكون - أو في الآخرة والغيب - الجنة والنار - كما لم يدع أي كائن إلا وأنطقه، فسجل حوار الملائكة وإبليس والجن والإنس، بل تجاوزه إلى البهائم والطيور، فالى الجماد. إن هذه الشمولية هي أمر خارق يؤسس لإعجازية الخطاب القرآني، الذي جاوز كل مستويات الخطابات، وهذا يحيلنا على صاحبه، وهو الله تعالى الواسع العليم، الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وإليه يعود الأمر كله، عالم الغيب والشهادة - سبحانه وتعالى عما يشركون -.

لذا فلا بد أن تكون هناك وحدة في دراسة الخطاب القرآني، بين النص وصاحبه فالوحدة التي يوجد بها الخطاب الفني بين السارد والمسرود، باعتبارهما داخلين ضمن الإطار الزمني خاضعين له، هي التي تؤكد محدوديتهما معاً. في حين أن الخطاب القرآني بإعجازيته يجلي ألوهية صاحبه، بأنه هو الخالق وحده. " والنص القرآني دائماً أبعد مدى من المناسبة الخاصة "3. وعلى هذا الأساس، يكون القرآن الكريم، قد طرح إشكالية الزمن ضمن قصصه في المكان والأحداث والخطاب. كما تكون القصة القرآنية قد تناولت الظاهرة الزمانية في مستواها الغيبي والخارق، بعيدة كل البعد عن التوظيف الخيالي والأسطوري. بل إن القصص القرآني حق. أما السارد البشري فهو ينقل سرده دون أن يذكر صدقه وحقيقته، وحتى وإن أشار إلى ذلك، فلا يكون الصدق إلا صدقاً فنياً، أو نسبياً .

فالخطاب السماوي يختلف حتماً، عن كل خطاب أرضي آخر، لأن مقاييس النقد هي من وضع البشر، في حين أن الوحي كلام الله الخالد. لهذا اكتسب الخطاب القرآني ميزة الخلود والاستمرارية، لأن الاختلاف لا يكمن في المصدر والمكان، بل أيضاً في توظيف الزمان ، وحتى

1 المرجع نفسه . ص 3073 .

2 سورة غافر : الآية 15 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء التاسع . ص 1404 .

في المعاني. " فمعاني القرآن الكريم مع المتدبرين ولادة بعد ولادة، لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها" ¹. وما هو السر في هذا التوالد والاستمرارية؟ إن كلام الله الخالق غير كلام الإنسان المخلوق. لا بد أن نضع لأنفسنا حداً أمام حقيقة وحي الله. يقول الله تعالى " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ١٠٩ " ². فمقارنة حجم كلمات الله لا يقدر على أن يحتويها مداد بسعة البحر. إن الصورة التي ترسم في ذهن المتلقي، تدفعه للوقوف أمام عظمة كلام الله تعالى. تأتي " آية تتحدث عن كلمات الله، وهو يحيي ويميت، ويوجه الكائنات كلها وفق ما يريد، إنه يأمر فيتحرك العالم أجمع من إنسان وحيوان ونبات، وتأخذ الموجودات أوصافها وأشكالها وأعمارها، لا في لحظة واحدة بل على امتداد الزمان، كل يوم هو في شأن " ³. فالخطاب القرآني يتوزع على هذا الفضاء الواسع الخارق، الذي لا نقدر بمحدوديتنا وطبيعتنا البشرية، أن نحصره في نظرية نقدية متزمنة .

إن هذا الخطاب يثير فينا دائماً الظاهرة الزمانية، مع طلاقة القدرة الإلهية. " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٧ " ⁴. إنه " المحدود يواجه غير المحدود. ومهما يبلغ المحدود سينتهي، ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئاً على الإطلاق ... إن كلمات الله لا تنفذ، لأن علمه لا يحد، ولأن إرادته لا تكف، ولأن مشيئته سبحانه ماضية ليس لها حدود ولا قيود " ⁵. فالصورة التي ينبغي أن نخرج بها، هي ميزة الخلود. ولهذا فالتعامل مع الخطاب القرآني يجب أن يكون تعاملًا حذرًا، إذ لا نقيس طبيعة النص المحدودة، بميزة اللامحدودية كلام الله. أو نضع مقياساً نقدياً، أو توصيفاً لمفهوم فني، ثم نخضع له الخطاب الإلهي. إن هذا هو العمل بالهوى في كلام الله، والذي يترجمه هذا القول " حين نذكر قصة إنما نقصد شيئاً آخر، أهم من متابعة الخبر أو الحدث، نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو لبطل له وجود، ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع " ⁶. فالكاتب أصل الخيال في مفهوم العمل القصصي، ليجعل النص القرآني

1 - د. عبد العال سالم مكرم : قضايا قرآنية . ص 47 .

2 سورة الكهف : الآية 109 .

3 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص 239 .

4 سورة لقمان : الآية 27 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الجزء الواحد والعشرون . ص 2795 .

6 محمد احمد خلف الله : المرجع السابق . ص 152 .

محصوراً فيما يراه هو، ويقيم الحجة على القصص القرآني من خلال رأيه وهواه. وهل يقبل العلم أن تدرس قوانين الطبيعة بمقاييس يضعها العلماء مسبقاً، أم أن بحوثهم في الطبيعة، هي التي جعلتهم يستنبطون قوانينها ويكتشفون بعضها من أسرارها؟. إن المنهج العلمي يفرض علينا دراسة الخطاب القرآني من ذاته، وليس من ذاتنا، ومن الزاوية التي وظف فيها الخطاب القرآني الزمن، وليس من توظيف الفنان للزمن في خطابه المحدود.

فإذا نظرنا من زاوية الزمان، نجد استمرارية الخطاب مع استمرارية الزمان، لكن حين يتوقف الزمان الدنيوي، وينتهي الخلق، ويفنى المكان، ونظن أن كل شيء انتهى، يواصل الخطاب استمراريته، ليفرض خلوده. حيث ينقلنا من عالم الدنيا الفاني، إلى عالم الآخرة الباقي، وفي هذا المكان الأخروي الذي هو مخالف لكل خيال واعتقاد. " فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"¹. لا يمكن لأي خطاب أن يشمل أو يضاهيه، إلا إذا كان صاحبه خارج هذا الإطار المكاني والزمني، والمتصرف فيهما بإرادته وقدرته وحكمته وعلمه. إن كل تصور لعالم الآخرة، هو مخالف تماماً لما عليه، إنه عالم الأبدية والخلود.

ومن هنا يجد البعض نفسه، أمام هذه الإشكالية الغيبية، التي أدت إلى ظاهرة تأويل النص القرآني، وظهر معه ما يُدعى بالتفسير الصوفي للنص القرآني. فذهب المتصوفة إلى " تأويل القرآن الكريم بما يوافق أفكارهم وثقافتهم المتأثرة بالثقافات الوافدة، وإشراقاتهم الروحية وتعسفها في هذا التأويل، وحاولوا أن يجعلوا القرآن الكريم، خادماً لتعاليمهم ومبادئهم. وشيخ هذا المنهج محي الدين بن العربي - المتوفي سنة 638 هجرية - وهذا المنهج هو المنهج الصوفي النظري"². ونحن إذ أشرنا إلى هذا التيار الفكري، فلكي نبين مدى أثر إشكالية الزمن، وموقف المتلقي للنص القرآني منها. لهذا كان الخطاب القرآني في القصص يتراوح ما بين عالمي الغيب والشهادة، ليجعل تعاملنا معه في حدود لحظتنا الآنية، ولا ينبغي أن نتجاوز أمامه طبيعتنا البشرية، لنمارس على الخطاب القرآني نظرتنا النقدية التي اكتسبناها من ثقافات النقد الأدبي. " فالقرآن ما أنزل لأجل أن يفلسف له القراء من الخارج، ما يظنون أنه يصلح لأن ينسب إليه، فيكون القرآن

¹ الإمام البخاري : صحيح البخاري . ص 507 .

² د . عبد اللطيف عبادة : التفسير الصوفي للشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، مؤسسة عالم الأفكار ، الطبعة الأولى 2007 ، الجزائر . ص 14 .

وعاء لإسقاطات القراء، ولأفكارهم وتوجيههم¹. يجب أن نجعل النقد الأدبي يستفيد من المنهج القصصي للقرآن الكريم. وإلا استمرت حركة الجدل العقيم في طبيعة كلام الله، من القول بخلق القرآن، والتي سادت بين المتصوفة والمعتزلة، لتتحول الآن بين العقلانيين والأصوليين والعلمانيين لتنتهي بأنسنة النص القرآني، كما تأنسن الإله في معتقد النصارى .

لقد وضح الإمام أحمد الفرق بين مسألتني : القرآن والمسيح، بأن " المسيح نفسه ليس هو كلاما، فإن المسيح إنسان بشر، مولود من امرأة، وكلام الله ليس بإنسان، ولا بشر ولا مولود من امرأة"². ولهذا ذكرنا سابقا أن التعقيد يزداد حدة، حين تبحث علاقة الخطاب القرآني بالزمن، وهذا ما أدى بفئة العقلانيين إلى بحث هذه المسألة، لكنهم لم يتمسكوا بمبدأ الإيمان، وراحوا يسقطون كل محاولة نقدية على النص القرآني وخطابه، ويتهمون علماء التفسير بالتقليد. وحاول بعضهم أن يضع رأيه، قبل أمر الله وكلامه، وهذا غرور فكري، وشطحات شبيهة بالشطحات الصوفية. " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجِدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ٨"³. ولا يقدر أي مخلوق أن يصف كلام الخالق، إلا الخالق ذاته، كما لا يقدر أي مخلوق أن يحيط بصفات الذات العليا، إلا الخالق ذاته، وهذا يقتضي الوقوف عند النص القرآني دون تجاوزه .

إن الوحي ليس صناعة بشرية، فهو كلام الله تعالى الذي - لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ - فإذا عجز العقل على أن يبدع خطابا شبيها بالخطاب القرآني - على الرغم من امتلاك العقل للملكة اللغوية - فكذلك يعجز الخيال أن يبدع في تصوير ذلك العالم الأخرى، لأن الطبيعة البشرية، ستبقى عاجزة على الإطلاق، ومهما ادعت خلافا لذلك، حتى يتبين لهم أنه الحق من ربهم " سُنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ ٥٣"⁴. كما انه إذا وقع عليهم القول سيخرج الله لهم دابة تكلمهم " وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝ ٨٢"⁵. ولا يبقى أمام هذه

1 أد. حمزة فاضل يوسف : المرجع السابق . ص 20 .

2 ابن تيمية : التفسير الكبير ، الجزء الثالث ، دار الكتب العلمية ، بيروت (ب ت) . ص 212 .

3 سورة الحج : الآية 8 .

4 سورة فصلت : الآية 53 .

5 سورة النمل : الآية 82 .

المعجزة الغيبية التي ستتحقق يقينا، إلا الخضوع والتسليم لأمر الله تعالى الذي أنطق كل شيء، وإليه المصير .

ولكي نقرب من فهم حقيقة الإشكالية، في مفهوم الخطاب القرآني، وعلاقته بالزمن، فلنترك الخطاب نفسه يعبر عن ذاته. والله عز وجل سمي وحيه وقوله بالحق، فهو الحق، وقوله الحق. يقول تعالى: " بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢٢ "1. فسياق الخطاب " هو أن هذا القرآن مجيد مصون من التغير والتبدل 2. كما نجد آيتين في سورة الواقعة في السياق نفسه. يقول تعالى: " إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ "3. " والمحمتمل أن يكون المراد كونه محفوظا من اطلاع الخلق عليه، سوى الملائكة المقربين، ويحتمل أن يكون المراد، لا يجري عليه تغير ولا تبديل "4. وقد جاء في تفسير ابن عاشور إشارة زمانية في معنى قرآن " وهو من القراءة وهي تلاوة كلام صدر في زمن سابق لوقت تلاوة تليه بمثل ما تكلم بهم متكلمه، سواء كان مكتوبا في صحيفة، أم كان ملقنا لتاليه، بحيث لا يخالف أصله. ولو كان أصله كلام تاليه، ولذلك لا يقال لنقل كلام أنه قرآن، إلا إذا كان كلاما مكتوبا أو محفوظا "5. واسم القرآن لا يكون إلا لكلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن الحد الذي لا يستطيع أحد تجاوزه، هو أن هذه المسميات هي أمور غيبية، ولم يثبت حديث صحيح في ذكر اللوح، ولا في خصائصه. لهذا يقول سيد قطب: " اللوح المحفوظ لا ندرك طبيعته، لأنه أمر الغيب الذي تفرد الله بعلمه، إنما ننتفع بالظل الذي يلقيه التعبير، والإيحاء الذي يتركه في القلوب، وهو أن هذا القرآن مصون ثابت "6. لذلك نجد دائما في وحي الله حدودا، لا يمكن تجاوزها، وهذا من خصائص القرآن الكريم وإعجازه. وفي اعتقادنا أن إثارة الخطاب القرآني لهذه المسائل الغيبية، المقصود منه هو مؤشر دلالي لقياس إيمان المتلقي للنص، حيث يحدد موقفه من الغيب، ليقول في نهاية المطاف - الله أعلم - وهذا لا يعني أبدا قطع الصلة مع

1 سورة البروج : الآيتان 21 ، 22 .

2 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الحادي والثلاثون . ص 125 .

3 سورة الواقعة : الآيتان 77 ، 78 .

4 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق . ص 126 .

5 الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الثلاثون . ص 253 .

6 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد السادس ، الجزء الثلاثون . ص 3876 .

النص القرآني لتدبر آياته، بل يعني أن يتخذ الدارس خطأ واضحاً لدراسته، يكون مبنياً على الإيمان بحقيقة الله الذي ليس كمثل شيء، وطلاقة قدرته تعالى .

ويبقى الخطاب إشكالية أمامنا، حيث عسرت من مفهومه الظاهرة الزمانية، وقد كنا قد طرحنا السؤال الذي يلقي بحيرة للمتلقي، وهو: كيف يمكن للوقائع والأحداث أن يسردها الخطاب القرآني، وهو في اللوح المحفوظ، وهي لم تكن وقعت بعد؟ سؤال منطقي يطرح إشكالية عسيرة، حول مفهوم الخلود والأزل، مقابل محدوديتنا نحن البشر. لهذا أراد الله سبحانه وتعالى - أن يبين لنا الفرق الشاسع بين كلامه الذي لا يزول ولا ينمحي، وبين كلام البشر الذي لا يراوح مكانه الظرفي الآني. وربما أهم من هذا الفرق بين تنزيل القرآن وحياً، وبين تنزيل التوراة مكتوبة في الألواح. وليس " في الآية أكثر من اللوح أودع فيه القرآن، فجعل الله القرآن مكتوباً في لوح علوي، كما جعل التوراة مكتوبة في ألواح، وأعطاهاموسى - عليه السلام - فقال - وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وقال - وَالْقَى الْأَلْوَابَ ... وأما لوح القرآن فجعله محفوظاً في العالم العلوي "1. وهنا تبرز خصائص رسالة الرسولين موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - والفارق بينهما في محدودية الأولى وشمولية الثانية. وبالتالي تكفل الله بحفظ وحيه المنزل، لأن الدين من الله وحده، ولا يحفظه إلا الله عز وجل. أما كيف ذلك؟ فهنا نقف عند الحد الإيماني، ونحن نلاحظ الظاهرة الدينية، كما نلاحظ الظاهرة القرآنية.

إن " الحاجة لقص القصص، وإلى سماعها، حاجة إنسانية للجنس البشري في إعادة قص القصص من الكتاب المقدس. وأما الحاجة الثانية فتتمثل في - الرب المحسوس- الذي يأتي بعد الغذاء، وقبل الحب والمأوى "2. هذا التوصيف لإله التوراة التي حرفت، هو الذي حكم على محدودية الخطاب، وانتصار الزمن عليه، وعلى الرب الذي لم يكن يعلم لماذا خلق الإنسان، بعد أن كان قد هياً له الكون لاستقباله، والعيش فيه. فالسرد " لا بد له من سارد يرى الأحداث ويرويها، وانطلاقاً من هذه القاعدة، فإن السارد الذي يقوم بعملية السرد، لا بد له من موقع يتخذه، يكون ثابتاً لمدة معينة، أو يتراوح بين الثبات والحركة، لتكون له رؤيته وموقفه من الأحداث "3. هذا توصيف

1 الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الثلاثون . ص 253 .

2 جوناتان كيرتش : حكايات محرمة في التوراة ، تعريب نذير جزماتي ، اليازجي للطباعة ، الطبعة الأولى 2005 سورية . ص 20 .

3 هيثم الحاج علي : الزمن النوعي وإشكالية السرد النوعي . ص 49 .

النقد للسارد البشري المنفعل بالأحداث، والخاضع للزمن والمحدود بالمكان. أما صاحب الخطاب القرآني فهو المشرف على كل صغيرة وكبيرة، والخارج عن المكان والزمان. لهذا فمفهوم الخطاب القرآني بخصائصه المتفردة، يكون قد تجاوز النقد، ولانستطيع أن نُحکم النظريات النقدية ومفاهيمها المحدودة والمتجددة على الخطاب القرآني الخالد .

كما أن " الروايات لا تصور الحياة، بل تصور الحياة كما تمثلها الأيدولوجيا، فالأيدولوجيا تجر العرض الروائي إلى الحياة العامة، وتجعله يبدو طبيعياً، أو يتمشى مع الفطرة السليمة، ويقدم ما يعد معنى كاملاً مبنياً كشيء متأصل فيها يتم عرضه. لكن هذا هو ما نجده في الروايات بعد الحديثة"¹. إن عملية إنتاج النص، لا تستطيع أن تكون بعيدة عن الوصم البيئي للحظة الزمنية الآنية، فالزمن لا يقاوم. ولهذا فطابع المحدودية بارز بشكل لا يقبل الشك أبداً، ولا بد أن نميز بين الخطاب الفني الذي لازال النقد يُنظر له، وبين كل خطاب مقدس، لنصل إلى تحديد مميزات التقديس، و ما هي خصائص الخطاب الفني والخطاب المقدس؟. وهذا ما أردنا الوصول إليه ببحثنا هذا، لاستيعاب إشكالية الزمن في القصص القرآني، وميزته المتفردة بالخلود .

يقول تعالى: " فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسَوَّأَ حَطًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهَا وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣"² . لقد قام أهل الكتاب بعملية تزوير مفضوحة. " وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه، تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إما بإضافة الكثير... وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية، وفق الهوى والمصلحة والهدف"³. وهذا التحريف هو الذي غيب خصائص الخطاب المقدس، وجعل منه نصاً زمنياً، لا يختلف خطاب أسفاره على كلام البشر. لكن الخطاب القرآني مع كشفه لظاهرة التحريف، تحدى البشر على امتداد الزمن، أن يكتشفوا فيه تناقضاً، أو اختلافاً واحداً. " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ٨٢ "⁴. لقد حدد النص القرآني ميزة الخطاب الإلهي، وهو خلوه من التناقض والاختلاف. ولهذا كان كل هم المستشرقين والعقلانيين دائماً هو البحث عن وجود تناقض

¹ بيتر بروكر : الحداثة وما بعد الحداثة ، ترجمة د. عبد الوهاب كلوم، منشورات المجمع الثقافي، الطبعة الأولى 1995 أبو ظبي . ص 364

² سورة المائدة : الآية 13 .

³ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء السابع . ص 859 .

⁴ سورة النساء : الآية 82 .

في القرآن الكريم. لكن البحث الجاد يتطلب إجراء مقارنة بين كل النصوص الدينية للوصول إلى معرفة خصائص الخطاب الديني، وفي أي خطاب يكمن التناقض والاختلاف ؟ .

لقد بدأت دير العبادة - الكنائس - تفرغ من روادها، وتحولت إلى أماكن فارغة مهجورة، تقابلها استمرارية حركة بناء وعمارَة المساجد، وكل منها تدعى بيوت الله. لكن المساجد التي قال الله في حقها: " فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ٣٦ "1. بقيت حركة رفعها متواصلة، كما ظلت حركة الصلاة والتسبيح والعبادة والتلاوة متكررة يوميا بزمنها - بالغدو والآصال - لتتلاقى مع دعاء إبراهيم - عليه السلام " رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٤٠ "2. وانتشر القرآن الكريم في الأركان الأربعة من الأرض،. " فالقدسية هيمنة وتسلط وانقياد، فإن امتلاكها النص تمتع بها، ومارسها على القارئ ... فالنص المهيمن هو النص المقدس، فإن تخلى عن مركز الهيمنة، وأوكلها للقارئ سينتقل مركز السلطة له "3. ومن هنا نجد أن ميزة الخطاب المقدس، هي الهيمنة والاستمرارية التي لا تخضع لشروط الزمان القاسية، مما تجعله يلامس روح الخلود، منذ أن نزل وحياً من السماء، واتصل بالأرض، وتم تنزيله وأغلق النص وبقي محفوظاً. إن " المقدس مشيع بالكينونة، وقوة مقدسة تعني في آن واحد، حقيقة وخلوداً وفاعلية "4. ولربما ظن أحد المتنبئين المعاصرين* أنه باستطاعته أن يتحصل على النبوة بتأليفه كتاباً سماه الفرقان الحق، معتقداً باستطاعته أن يفتك لنصه سمة التقديس، مبتدئاً بنص افتتاحي سماه البسمة - the Blessing - فجرتها عبقرية التثليث، ليقول " باسم الأب الكلمة الروح الإله الواحد الأوجد مثلث التوحيد موحد التثليث ما عدد فهو أب لم يلد وهو كلمة لم يولد "5. وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب " إلى الأمة العربية خاصة وإلى العالم الإسلامي عامة "6. وماذا عن بقية سكان العالم ؟ . وكَم من السذاجة بمكان، أن يظن أن بإمكانه أن يؤلف من هذا الخلط وحياً، ليصبح به نبياً، وأن يصوغ من معتقد التثليث توحيداً. لكن صورة (مسيلمة الكذاب) دائماً تتكرر عبر الزمن.

1 سورة النور : الآية 36 .

2 سورة إبراهيم : الآية 40 .

3 أد. حمزة فاضل يوسف : المرجع السابق . ص 20 .

4 مرسيا إلياد : المفدس والمدنس . ص 18 .

* هو أنيس شروش أمريكي من أصل فلسطيني دكتوراه في اللاهوت ، وناظر أحمد ديدلت عام 1980 ، وادعى بأنه صفي الله .

5 ANIS SHORROSH : The true furqan , wine press publishing , first edition 2001 ; U.S.A . p 7.

6ANIS SHORROSH . المرجع نفسه ص 5 .

فالخطاب الذي ظهر مع خلق الإنسان الأول، قد سار مع آدم وذريته بعقيدة التوحيد دون تغيير أو تبديل، ذلك النداء الذي تناسته الأمم الكافرة " أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۚ ۓ أَلَّا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ۚ ۓ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ ۓ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ ۓ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۚ ۓ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۚ ۓ " ¹. ولم يبق في حقيقة الأمر وجود لخطاب سماوي - لا زال يُرتل كما أنزل عبر الامتداد الزمني - إلا هذا القرآن الكريم - " شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۚ ۓ " ². فالخطاب القرآني جمع كل الخطابات السابقة التي تلقاها أنبياء الله، وخاصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - وصاغها في خطاب واحد، شامل لكل زمان وكل مكان، مؤكدا بطلان كل اعتقاد لا يدين بعبادة الله الواحد. ليصبح القصص القرآني يهتم بالعقيدة الخالدة، أكثر من اهتمامه بالزمن الفاني وتفصيله. وبهذا نكون قد اقتربنا من ميزة الزمن في القصة القرآنية، وهو موضوع خصصناه للفصل الرابع من هذا البحث - إن شاء الله.

¹ سورة النجم : الآيات 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 40 ، 41 ، 42 .

² سورة الشورى : الآية 13 .

الفصل الرابع

زمانية القصة القرآنية

تمهيد

أ - الزمن في القصة القرآنية

ب - الارتداد الزمني في القصة القرآنية

ج - اللازم في القصة القرآنية

تمهيد

لقد أجاب القرآن الكريم على إشكالية الزمن في كل قصة تناولتها سورة، حتى وإن اعتقد البعض أنه قد أهمل عنصر الزمان أو أبهمه. وإذا كان القرآن الكريم بتوظيفه الزمن ضمن قصصه، يجعل المتلقي يرى فعل الزمن وحركته، هما من اختصاص الله تعالى، فهو بهذا المسلك يكون قد ابتعد عن كل طرح فلسفي، يزيد الموضوع تعقيداً وغموضاً. بل قرب لنا مفهوم الزمان ضمن المكان والأحداث والخطاب، داخل واقع القصص، حتى يجعلنا ندرك سر عظمة الخالق، وعلمه المطلق، ومشيبته العليا. هذه العظمة المطلقة للذات الإلهية، والتي تتجلى في واقع الآيات القرآنية، تجليها في واقع الآيات الكونية، تخلق انسجاماً تاماً، وترابطاً وثيقاً، بين الكتاب المسطور، والكتاب المنظور، مما يدل على دقة الخلق، وحكمة الخالق في تدبير شؤون الحياة والوجود. يقول تعالى: " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ٨٨ "1. وكيف يكون الخلل في صنعه، وهو الخالق الخبير العليم " سبحانه يتجلى إتقان صنعه في كل شيء في هذا الوجود، فلا فلتة ولا مصادفة، ولا ثغرة، ولا تفاوت ولا نسيان. ويتدبر المدبر كل آثار الصنعة المعجزة، فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير، ولا حساب في الصغير والكبير، والجليل والحقير. فكل شيء بتدبير وتقدير، يدير الرؤوس التي تتابعه وتتملاه "2. كما يبين الأحكام والتفصيل في آيات وحيه. " الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ "3. فالقرآن الكريم يجيب عن نفسه بنفسه، مبينا ميزته المتفردة والمتمثلة في دقة الأحكام والتفصيل .

إن الإشراف التام والإحاطة الكلية بعناصر القصص، كالإشراف التام على عناصر الحياة والوجود، فهما عند الله الخالق على حد سواء. وإدراكنا لهذا المبدأ يجعلنا نقف أمام تجلي طلاقة القدرة الإلهية، التي تتمظهر في عملية السرد، حين يمدد الله عز وجل - وهو الفاعل الحقيقي - عنصر الزمن، ويقلصه كما يشاء إلى أن يصير إلى لحظة لازمن. وهذا شبيه بتقليص الظل وتمديده ، في قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ٤٥ ثُمَّ

1 سورة النمل: الآية 88 .

2 سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، الجزء العشرون. ص 2669 .

3 سورة هود: الآية 1 .

قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ٤٦ "1. فالذي يمدد الظل ويقلصه، هو ذاته الذي يمدد الزمن ويقلصه، وهو العليم الذي وسع علمه كل شيء. إن " العلم الإلهي صفحة واحدة يقترب فيها الأزل من الأبد، والأرض من السماوات، وعالم الحشرات والجراثيم، بعالم الإنس والجن والطيور "2. فعلم الله الواسع هو علم واحد، لا يخضع للزمكانية، بل يتساوى فيه الماضي والحاضر والمستقبل، كما يتساوى فيه الغيب والشهادة. وإذا كانت الزمانية في النص القرآني تتراوح ما بين لمح البصر، ويوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فبالنسبة لله تعالى - وهو الخالق العليم - ، فكلا التقديرين سواء. " فالله يخلق ما يشاء وهو قادر على أن يخلق يوماً مدته اثنتا عشرة ساعة، وأن يخلق يوماً مقداره خمسون ألف سنة، وأن يخلق يوماً مقداره مليون سنة "3. وهذا خلافاً لما نحس به نحن البشر المخلوقون والمحدودون، من فروق في وحدات الزمن بالفعل والحركة .

إن هذا المجال لتوظيف الظاهرة الزمانية، هو الذي يعطي القصص القرآني مدلوله الإعجازي، ويؤكد على مصدره الإلهي، وصولاً إلى تجليات عظمة الألوهية، حين يشمل الخطاب القرآني كل الحيز الزماني والمكاني، من مرحلة الأزل إلى مرحلة الأبد، ومن الدنيا إلى الآخرة. هذه المسافة الزمانية واللازمية، التي تقف أمام سرها وغيبها وعلمها العقول محتارة ومتسائلة، وتعجز آلات التكنولوجيا المعقدة والدقيقة على تفصيلها وبيانها وإحصائها. وهذه المكانية التي احتوت عالمي الغيب والشهادة، لا يستطيعها الكائن المخلوق المحدود بالمكان، والخاضع لشروط الزمان، والمعرض للفناء والموت. لذلك أنكر القرآن الكريم على المشركين تسويتهم الخالق بالمخلوق " أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "4 مشنعاً عليهم هذا الاعتقاد الباطل. كما سيظهر للمشركين يوم القيامة، حقيقة الأنداد الذين اتخذوهم أرباباً في الدنيا، وجعلوهم شركاء لله تعالى " تَأَلَّهَ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨ "5. وبالتالي تستحيل مساواة الذي خلق الزمن، بالمخلوق الخاضع للزمن. إن المقارنة هنا ليست مستحيلة فحسب، بل لا ينبغي أن نفكر فيها إطلاقاً، لأننا نكون قد أغينا عقلنا وبشريتنا، فالوجود والخلق، لا يكون إلا بالخالق الأزلي المتفرد عن خلقه - سبحانه وتعالى عما يشركون - .

1 سورة الفرقان : الآيات 45 ، 46 .

2 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 201 .

3 عبد الغني عبد الرحمن : الزمن بين الدنيا والآخرة . ص 7 .

4 - سورة النحل : الآية 17 .

5 سورة الشعراء : الآيات 97 ، 98 .

إن الوحي الإلهي لا ينطلق إلا من حقيقة أزلية، تعيد العقل إلى رشده وفطرته، وتضع المتلقي يقف عند حدود طبيعته البشرية، ليدرك كنه الخالق التي يتفرد بها صاحب هذا الوحي ، وذلك حين يوجه الوحي هذا المتلقي المخلوق، إلى التأمل في الآيات الكونية، وكذا الآيات القرآنية لذلك " جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكير والتدبر والتذكر. فلا تقرأ منه قليلا إلا وتراه يعرض عليك الأكوان، ويأمرك بالنظر فيها، واستخراج أسرارها واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها"¹. وأي خلل أو قصور في فهم الآيات الكونية، أو الآيات القرآنية، سببه خلل أو قصور لدى المتلقي. إن " دلالة الكون الصامتة، تقابلها دلالة القرآن الناطقة، وأنها تتبادلان المواقف في تعريف الناس بربهم، واقتيادهم إليه "². هذا المنهج هو الذي تناول به القرآن الكريم موضوع قصصه. فالقصص القرآني حقائق واقعية كالحقائق الكونية، وليست خواطر جادت بها نفس بشرية. إنه حقائق يقينية، سواء كانت في الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وسواء كانت زمنا خارقا أو غيبيا. و" الزمان من أسرار الكون التي تُعرف بآثارها، ولا تُدرك حقائقها "³. فلا يعرف سر الزمن وكنهه، إلا خالقه الذي خلقه، وقدره ووظيفه " إن الزمن هو مقياس حياتنا، هو مقياس الأحداث التي نمر بها، والزمن حجب من الغيب، فهو يحجب عنا الماضي، فلا ندري ما يحدث فيه، إلا أن نقرأه في كتب التاريخ أو يرويه لنا الرواة. والزمن هو حاجب المستقبل، فنحن لا ندري ماذا سيحدث غدا أو بعد غد، أو في الأعوام القادمة. وكل ما ندريه هو حاضر نعيشه، وماض عشناه فنعرفه، ومستقبل لا ندري ما هو قضاء الله فيه "⁴. فإدراك الإنسان لا يتعدى اللحظة الآنية الظرفية، وهذه هي حدوده الطبيعية والبشرية التي خلقه الله عليها .

إن الحقيقة الكاملة هي التي تتجسد ضمن القصص القرآني بمكانه وزمانه، وبأحداثه وشخصه. فالزمانية ليست إشكالية بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى. إن " إدارة شؤونه تحتاج بمقاييسنا الزمنية، إلى أزمنة بعيدة، إلى ألف عام أو أكثر. لكنها في عمل الخالق الكبير، لا تستغرق زمنا يُذكر. إن الله يريد فيفعل، فإذا في دنيانا محو وإثبات، ووجود وموات، وهزائم وانتصارات "⁵. أما الإنسان المخلوق، فهو الذي جعل من الزمن إشكالية، حاول كل باحث مختص معالجتها

¹ محمد رشيد الرضا : تفسير المنار ، الجزء الأول ص 250 .

² الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآني . ص 208 .

³ المرجع نفسه ، ص 517 .

⁴ عبد الغني عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 9 .

⁵ الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 319 .

حسب ميدانه الضيق والمحدود، سواء كانت معالجة فلسفية أو علمية، أو فنية. أما الخالق فهو ليس كمثلته شيء. فالشيء " ليس هو كذلك إلا لكونه محدوداً، إذ ليس يمكن أن يكون شيء لا محدوداً، وإلا عاد إلى الامتداد المجرد، وفقد هيئته "1 إنه سبحانه منزّه عن الشئئية يقول ابن تيمية: " إن أهل السنة متفقون على أن الله ليس كمثلته شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله "2. " ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ٦٢ "3. " فأفاد أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه "4. فهو الخالق، لا إله إلا هو، وما عداه مخلوق به، ومربوب له .

فالزمن عنصر مخلوق، و باحث موضوع الزمن، هو أيضا كائن مخلوق، متأثر بهذا الزمن، وكلاهما - الزمان والإنسان - مخلوقان من مخلوقات الله تعالى " الزمن من أغرب المخلوقات الجبارة التي خلقها الله تعالى، وليس الإنسان سوى مسافر في الزمان، والزمن مخلوق عجيب، إنه من فرط شفافيته ورقته لا يكاد يُرى "5. وبناء على هذه المخلوقية، يجب أن يكون الاعتراف والإقرار بالخالقية لله تعالى وحده، قبل أن يُبحث عنصر الزمن. وإلا تحول الزمن إلى إشكالية معقدة، تُسبب كثيراً من الحبر، ويُبدل فيها كثير من الجهد، دون أن نتوصل إلى حقيقة مدلوله. يقول القديس أغسطين: " فما هو الوقت إذاً؟ إن لم يسألني أحد عنه أعرفه، أما أن أشرحه، فلا أستطيع "6. كما جاء القول عن نظرية النسبية لأينشتاين " إنها معقدة وغير مفهومة، وهناك نظريتان - نظرية النسبية الخاصة، ونظرية النسبية العامة - وكلتاها في غاية التعقيد. ولا يستطيع أي إنسان أن يشرحهما، في مجلة أو لعامة الناس، مَهْمَا أُوتِي من القدرة على التوضيح "7. إن هذه النظرية البشرية بقسميها، بقيت عصية على الفهم، وستبقى كذلك إلى أن يثبت العكس، ولكن ما سبب هذه الصعوبة والتعقيد؟ . إن الصعوبة التي تعتري المفاهيم الفكرية، ليست نتيجة تعقيد في القوانين الطبيعية، والسنن الكونية، وإنما نتيجة قصور في العقل البشري، واستحالة تجاوز أفقه المحدود مَهْمَا حاول. لهذا فالقرآن الكريم لم يتناول موضوع الزمن من زاوية مجردة، أو زاوية فلسفية، أو أسطورية. بل أدخله إلى ميدان الواقع والتطبيق، من خلال قصصه. فكان توظيف الزمن

1 مطاع صفدي: نقد العقل الغربي، مركز الإنماء القومي، بيروت 1990. ص 185.

2 ابن تيمية: منهاج المسلم، الجزء الثاني، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى 1986. ص 110.

3 سورة غافر: الآية 62.

4 محمد حسين الطباطبائي: الميزان في التفسير، الجزء الأول، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى 1997 بيروت. ص 22.

5 عبد الغني عبد الرحمن: المرجع السابق. ص 17.

6 القديس أغسطين: اعترافات أغسطين. ص 249.

7 مايكل هارت: الخالدون المائة، ترجمة أنيس منصور، دار الرشاد. ص 31

بمجاله النسبي والخارق والغيبى، ليلفت انتباهنا إلى الظاهرة الإعجازية، ويضفي إشارة محفزة تدفع بالبحث في تلك المجالات وأبعادها، وإعمال الفكر لاستخلاص الحكم والعبر، وفق مبدأ التدبر والاعتبار، للوصول إلى كنه عظمة الخالق - الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى - فهو الخالق الحكيم، وهو الهادي العليم، ولولاه ما كان وجود شيء على الإطلاق، وما تحول العدم إلى وجود، وما وُجد مكان ولا زمان .

لذلك " يجب أن لا يغيب عنا، أن كل السنن الإلهية متفقة في المصدر والخلق والتقدير وفي الأهداف العامة. فمصدر السنن والقوانين التي تحكم الأشياء واحد، هو الله تبارك وتعالى . ومصدر الأشياء والأحياء التي تطبق عليها السنن واحد أيضاً، هو الله جل وعلا. فهو الذي خلق - كل شيء، فقدره تقديراً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وهي جميعاً تمثل مظهراً من مظاهر قدرة الله، وحكمته وعلمه، وسائر أسمائه وصفاته "1. ومن عظيم الحكمة أن يتدبر المؤمن سنن الله تعالى، وأن يقرأ آيات القرآن الكريم، بتدبر وإمعان، كقراءته لآيات الكون البديع. كما يجب أن نتدبر قصص القرآن الكريم، كتدبرنا سنن الله الكونية، وإلا ابتعدنا عن مبدأ التدبر والاعتبار ، وعن قوله تعالى : " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١ "2. فهذه الآية قياس ومؤشر رباني يوجهنا صوب دراسة القصص القرآني. " وهكذا تتولى العمليات المنهجية في خطة التاريخ المبدع، الكشف عن أشكال التخليق ومواضعه، ونماذجه ودرجاته في الآيات القرآنية، مستخرجة منها مختلف الأدلة التي تثبت مبدأ الاعتبار "3. فإن ابتعدنا عن هذا المبدأ، نكون قد خالفنا صريح الآية الكريمة، وانتهجنا لأنفسنا ادعاء معرفة لا مصدر لها، تزيد من غرورنا، وبُعدنا عن المنهج الرباني، فضلاً على أنها تخرجنا بدراسة عقيمة، كثيرة الأصفار، فارغة الرصيد حتى وإن احتوت كُتباً ومجلدات. وهذا هو الضلال المبين الذي يبعدنا عن الحق المبين، والهباء المنثور الذي ستذروه رياح الحق، ولا نكسب منه شيئاً يُذكر .

1 : د. حسن بن صالح الحميد : سنن الله في الأمم ، دار الهدى النبوي ، الطبعة الثانية 2011 مصر . ص 25 .
2 سورة يوسف : الآية 111 .
3 طه عبد الرحمن : روح الحداثة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 2006 ، الدار البيضاء . ص 204 .

وإذا كان القصة القرآني، قد صاحب الزمن منذ بداية الخليقة إلى نهايتها، ومن نشأة الكون إلى فنائه، ولم يتوقف عند هذا الحد. بل يتغلغل ليلج عالم الغيب والخلود واللازم، فعلينا أن نبحت هذا التوظيف لمرحلتى الدنيا والآخرة، مرحلتى الفناء والخلود، وفق ما جاء به النص القرآني، ليقر حقيقة الألوهية، وحقيقة يوم البعث، وليس بعد الحق إلا الضلال. لقد " تغير عالمنا، لم نعد محصورين بشكل مريح، بين بدء الخليقة ويوم الحساب، وقد انحسرت آفاقنا الزمنية، فلم تعد مسألة إيمان لا غير. وأصبح كل فرد يحمل على عاتقه نظامه الزمني الخاص به. ولا ينفك كتابنا ومفكرنا يذكرنا، بأن مطلب أخذ الزمن مأخذ الجد، هو من النغمات الأساسية للحدث "1. وإذا كان الزمن قضية جوهرية للمفكرين الحدائين، فالقصة القرآني يكون بتوظيفه لعنصر الزمن، قد أعطى سمة متفردة للقصة القرآنية، التي امتازت بقدرة استيعابها كتلة زمن الوجود، بمراحل الماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الغيب والشهادة، لترسي عقيدة الإيمان بالله والبعث. لأن زمانية القصة القرآنية تجاوزت إلى مرحلة الأزل والأبد، وإلى مرحلة اللازم، وهي سمة لا تتوفر إلا في القصة القرآني .

ربما أدى مجال الإعجاز، وعدم استيعاب حقيقة القصة القرآني بالبعض إلى القول بأن " المواد الأدبية في القصة التمثيلية كانت أحداثاً، لا نعرف لها هذه الصفة التاريخية والواقعية، ومن هنا استطعنا أن نسميها في عرفنا البشري أحداثاً مفروضية، أو تخيلية "2. وهذا في العرف البشري، وليس في المبدأ القرآني، لأن الله هو الحق، وكلامه حق. ولسنا ندري كيف يريد الكاتب، أن يخضع القصة القرآني إلى العرف البشري، وصريح القرآن يقول: " قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ أَلْحَمَّ إِلَّا لِلَّهِ يَفُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ٥٧ "3. لقد نجح القصة القرآني في إبقاء القارئ مشدوداً إليه، عبر امتداد الزمن، وفي كل عصر وجيل، وهذا رغم محاولة هؤلاء العلمانيين والحدائين إخراج النص القرآني من القدسية، ومحاولة إخضاعه للمقاييس النقدية البشرية. " فإخضاع كلامه لمقاييس الفن التي اصطلح على وضعها البشر، ضرب من العنت، لأنه سبحانه لا ينظر إلى الأشياء نظرة الإنسان، ولا تقوده العواطف فتدفعه إلى القول. ولكنه ابتدع في

1 أ أ مندولا : الزمن والرواية . ص 16 .

2 محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم . ص 198 .

3 سورة الأنعام : الآية 57 .

هذا القول الحكيم منطقته، كما ابتدع منه¹. والفرق شاسع وواضح بين كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلام البشر الخاضع للخطأ والنقص. " هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكررة قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة، وتصوراً كاملاً لهذا الوجود². وهذا ما جعل النص القرآني، يفرض نفسه على الزمن، وتلامس قصته الخلود، في حين يفرض الزمن أثره على كل فضاءات السرد، مهما كان نمطها ومبدعها. " والإنتاج الفلسفي والفني والتاريخي، يحمل زمانيته الخاصة، لكون كل ظاهرة فيه لها اختلافها³، فحتى نصوص العهد القديم والجديد لم تسلم من أثر الزمانية. ولا يتأتى لنا معرفة ذلك، إلا إذا بحثنا إشكالية الزمن، ضمن إطار منطوق النص، وداخل القصص القرآني، دون أدنى تحييد، ووفق دراسة مقارنة جادة، من خلالها نستكشف ميزة النص القرآني، وزمانية قصصه .

إن صورة الموت والحياة التي تتكرر عبر كل لحظة زمانية، لا تؤكد سوى حقيقة واحدة هي : أن هناك خالقاً واحداً، تعود له مخلوقية كل شيء. " اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁴ " ١١. وبالتالي قد تم تحديد مصير كل الخلق بالموت الحتمي، والخضوع إلى هذه الظاهرة، دون أن يفلت منها أياً كان. يقول تعالى : " وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁵ ". هنا تتحدد معالم القصة القرآنية، ومصدرها الخالد الذي بيده كل شيء، خالق المكان والزمان والشخص، والذي يشرف بعلمه الواسع على الكون كله. يقول تعالى : " فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ⁶ " ٧. ولم يغفل السرد القرآني أي جزء من هذا الكون الشاسع الممتد، فمن الأرض إلى السماء، إلى سدرة المنتهى، إلى عرش الرحمن. ومن الإنس إلى الجن، إلى الملائكة. ومن الدنيا إلى البرزخ، إلى الآخرة. ومن الحياة إلى الموت، إلى البعث، ومن الما قبل إلى المابعد، ومن عالم الفناء إلى عالم الوجود فالإلى عالم الخلود، ومن عالم الزمن إلى عالم اللازم. يقول تعالى في مشهد خلق الأجنة وفي مشهد إحياء الأرض : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

1 التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن . ص 500 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد السادس ، الجزء السابع والعشرون . ص 3466 .

3 مطاع صفدي : نقد العقل الغربي . ص 185 .

4 سورة الروم : الآية 11 .

5 سورة القصص : الآية 88 .

6 سورة الأعراف : الآية 7 .

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ¹. ويقول في مشهد غيبي: " وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٧٥ ². إن هذه النقلة بين العالم السفلي والعالم العلوي، وبين عالم الشهادة وعالم الغيب، لا يمكن أن نعثر عليها إلا في نص مصدره الخالق العليم. فأني سرد فني أو تاريخي يتحمل هذه الكتلة الزمنية للوجود بداية ونهاية، والتي لا يقدر على إحصائها والإشراف عليها، إلا الله جل جلاله خالق المكان والزمان؟. " تهتم قصة الخلق التوراتية - في المقام الأول - بالأرض والكائنات البشرية، ولم يرد بها ذكر لبقية الكون ³. وبهذا تبقى قصص العهد القديم رهينة المكان والزمان المحدودين، تعبر عن بشرية الخطاب الذي يكشف عن ذاته. " فنحن ندرس مؤلف الرواية من غير أن نسأل أنفسنا إذا كان هو الراوي نفسه (فالقصة في معظم الأحيان تقول أنا أكثر من قولها أنت) ⁴. وماذا سيقول النقد أمام هذه الظاهرة الزمكانية، والتي لم يوجد لها أي تمظهر في أي فضاء سردي سابق، أو لاحق لزمن إقرأ؟ ولا يسعنا في هذا المجال، إلا أن ندرس الزمن في القصص القرآني، وفق ما وظفه الوحي، وجاء به النص، دون أن نحمل النص ما لم يحتمل، أو أن نقوله ما لم يقل، لأننا نكون قد خرجنا عن مبدأ التدبير، وعملنا بهوانا، و" الهوى في المنظور القرآني هو عين الجهل والخطأ ⁵ وهذا ما حذر منه القرآن الكريم. يقول أدونيس: " أشير أولاً لأنني أتكلم على الكتابة القرآنية، بوصفها نصاً لغوياً خارج كل بعد ديني نظراً وممارسة، نصاً أدبياً نقرأه كما نقرأ نصاً أدبياً ⁶ وما هي هذه القراءة اللغوية التي تبعد النص القرآني عن بعده الديني، إلا إذا أراد هذا القارئ تجاوز حقيقة القرآن الكريم، ككتاب ديني يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين بالجنة، وينذر الذين كفروا بعذاب جهنم؟ .

لكن تنزيل القرآن الكريم، وسرد قصصه لم يكن إلا لفهم المغزى من حقيقة وجودنا ومصيرنا، وهو عبادة الله الواحد، ولغة الوحي تدل على ذلك حقيقة ومجازاً، فإن " أية شبكة معقدة

¹ سورة الحج : الآية 5 .

² سورة الزمر : الآية 75 .

³ إسحاق عظيموف : البدايات ، ترجمة ظريف عبد الله ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2001 . ص 261 .

⁴ رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوي . ص 70 .

⁵ معتصم السيد أحمد : الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي ، دار الهدى للطباعة ، الطبعة الأولى 2009 . ص 143 .

⁶ أدونيس : النص القرآني وآفاق القراءة ، دار الآداب ، الطبعة الأولى ، 1993 ، بيروت . ص 19 .

من الترابطات هي معجم في وجهها اللغوي، وهي رؤية للعالم في وجهها المفهومي "1 وأي انحراف عن هذه الحقيقة الأزلية، وعن الهدف السامي، هو كفر بالله الخالق، وجهل بحقيقة الإنسان المخلوق. وهنا مفترق الطرق بين القصص القرآني الذي يُسرد للتدبر والاعتبار، في مجال العقيدة والوجود والإنسان، عبر مسيرة الزمن منذ بداية الخلق إلى نهايته، وما بعد النهاية والفناء، وبين القصص الفني والتاريخي الذي لا يتجاوز دائرة زمنية ضيقة بدأت ثم انتهت، وتلاشت في عالم النسيان، لينتصر عليها الزمان. أما القرآن الكريم فهو " النص الوحيد الذي يفرض سلطته وجوباً على القارئ، ولا يوجد فيه نص يعود لحقبة ما ينتهي بانتهائها. فالتاريخ بالنسبة للنص صفر "2. وهذا ما يجعل دراستنا للقصص القرآني هي عملية استيعاب لإشكالية الزمن، الذي ظل هاجساً لكل محاولة سرد فني أو فلسفي أو تاريخي أو علمي. ولا يمكن لنا استيعاب ظاهرة الزمانية في القصة القرآنية، إلا بمقارنة جادة بينها، وبين قصص أسفار أهل الكتاب، وما أبدعته البشرية من فضاءات سردية سابقة ولاحقة، أسطورية وواقعية، لتظهر هيمنة النص القرآني، وهي ميزته المتفردة على تلك الفضاءات السردية. وهنا فقط يحق لهؤلاء النقاد والعلمانيين والحدائثيين والمستشرقين أن يحكموا بما بدأ لهم، وهذا ما طالب به النص القرآني، ويؤكد قصصه الخالد الذي لازال يفرض نفسه وحقيقته على مخابر الدراسة والبحث، وعلى مستويات المعاهد والجامعات، عبر امتداد الزمن

فالبحت الذي أجراه بول ريكور في قضية الزمن والسرد والتاريخ، معتمداً على دراسة مؤلفين قديمين: الأول لأرسطو، والثاني للقديس أوغسطين، حيث اعتمد أوغسطين في تحليله للزمن على نصوص العهد القديم. يقول بول ريكور: " ولا بد لي من الإدلاء بملاحظتين أوليتين الأولى أنني أبدأ قراءتي الكتاب الحادي عشر من الاعترافات مع السؤال ما الزمان إذن؟ . ولست أجهل أن تحليل الزمان، يرتكز على التأمل في العلاقات بين الأبدية والزمن، مستوحياً الآية الأولى من سفر التكوين في البدء خلق الله "3. ولربما نسأل قبل البدء ماذا كان؟ لأن عبارة العهد القديم - في البدء - لا تملك جواباً عن مرحلة اللازم، أو اللابدء. فعبارة في البدء تتساوى مع عبارة القصاصين

1 توشيهيكو إيروسو : الله والإنسان في القرآن، ترجمة د. هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007 . ص 67 .

2 أد . حمزة فاضل يوسف : المرجع السابق . ص 20 .

3 بول ريكور : الزمن والسرد ، ص 23 .

الذين يبدأون سردهم بعبارة - كان في بداية الزمان، كان ذات يوم - إنها دمغة البشر الزمنية على السرد، وميزتها الخاصة به .

وربما نتأسف لهذا الفيلسوف المعاصر الذي لم يطلع على النص القرآني، لكون عقيدة الذات كانت حائلاً بينه، وبين عقيدة الآخر. وهذا ما لاحظناه أثناء دراستنا لمؤلفات المفكرين والفلاسفة الغربيين، وعلى الرغم من تناولهم بالبحث والدراسة كل المعتقدات والأديان الأرضية منها والسماوية - وخاصة المعتقدات الشرقية - لكنهم لا يذكرون الإسلام، ولا القرآن الكريم، إلا نادراً، إنه حقاً أمر غريب وعجيب. يقول ريكور: " إن عزل تحليل الزمن عن التأمل يعني ممارسة العنف على النص "1. وبالفعل فإن الدراسة التحليلية لزمن النص، تساعد على استيعاب أبعاد النص وحقيقته، وخاصة في دراستنا للنصوص والقصاص الدينية. لكن حصر نظرنا أثناء دراسة النص القرآني، في تكرير وإعادة ما سبق من تفسير، أو محاولة تطبيق النظريات النقدية التي استخلصت من النصوص الأدبية المحدودة، وإسقاطها على النص القرآني للخروج به عن إطاره الأزلي والمقدس، وبالتالي " يصبح القرآن نصاً تاريخياً ثقافياً، مما يفتح الباب أمام أي عمل تأويلي، له الحق في إيجاد دلالات جديدة للنص، لم يكن محتفظاً بها سلفاً "2 وهذا ما يسعى إليه هؤلاء العلمانيون المقلدون للفكر الاستشراقي المتعصب، في محاولة مستميتة، هدفها نزع صفة وحي الله عن النص القرآني وقصصه .

إن الانتقال في زمانية ومكانية القصة يجعل منها مشهداً ممتداً حيث لا ينتهي السرد القرآني، عند إلى حين، بل يمتد إلى ما بعد، إلى حين. إن " القرن العشرين منذ مطلعته يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان، وعلى الإنسانية، ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديماً معاداً، أو جديداً مبتدعاً، هو أوفق من عقيدة القرآن، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان. وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية، شملت ملايين الخلق "3. وكتاب يحتوي على عقيدة كهذه، لا بد أن تكون قصصه شاملة ومستوعبة لكامل الزمان، ولمراحل الوجود من حياة وموت ومصير " القرآن خطاب لكل إنسان حتى تقوم الساعة، وطبيعة هذا الخطاب تشهد بأنه من عند الله وحده "4.

1 المرجع نفسه. ص 23 .

2 معتصم السيد أحمد : الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي . 185 .

3 عباس محمود العقاد : موسوعة العقاد الإسلامية ، المجلد الرابع ، القرآن والإنسان . ص 220 .

4 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 324 .

فلا غرو أن تكون زمانية القصة القرآنية ممتدة عبر حياة الإنسانية من بدايتها إلى منتهاها، مسابرة لمرحلة البشرية من آدم، إلى حياة آخر ابن له. كما أن ظاهرة الاستمرارية والتواصل بين عالمين مختلفين تمام الاختلاف، يؤدي إلى تمظهر مستوى الزمن النسبي والمطلق، ومرحلة الفناء والخلود، ومرحلة الزمن واللازم. وبهذه المستويات لا يهتم القصص القرآني بالزمن الموضوعي أو التاريخي عند سرد أحداثه، إلا إذا كان من وراء ذلك القصد حكم، نستطيع استخلاصها وفق مبدأ التدبر، وليس وفق التنظير النقدي. وسنحاول في هذا الفصل بحث زمانية القصة القرآنية مستعرضين التوظيفات الزمانية والاستثناءات الواردة في القصص القرآني للوصول إلى استيعاب إشكالية الزمن .

لذا رأينا أن يكون الفصل الأخير لهذه الدراسة، هو زمانية القصة القرآنية، مستهلين ذلك بمبحث الزمن في القصة القرآنية، والأمر الذي ينبغي أن نذكره قبل ذلك، هو أن بحث موضوع الزمن في القصة القرآنية، يتطلب سعة الحديث، وتتبع تفصيل زمن أحداث القصص القرآني، وفي أي جانب كان اهتمام القرآن الكريم بالزمن وما السبب ؟ وذلك لمعرفة الحكمة من ذلك. وهذا عمل يتطلب منا الالتزام بالنص والابتعاد عن الاختلافات أو الافتراضات التي تبعدنا عن حقيقة مبدأ التدبر. لأن تأليف قصة شبيهة بالقصة القرآنية مع كتلتها الزمانية، يتطلب جهوداً متظافرة لذلك، مما يجعل ذلك مستحيلاً على البشر. فتحليل القصص القرآني يتطلب موسوعة معرفية متنوعة لا تقتصر على جانب النقد فحسب، كما هو الشأن في دراسة القصة الفنية. وهذا ما جعلنا نختار موضوع الزمن الذي لم يجد القصص القرآني أمامه أي إشكال في توظيفه أو تفصيله أو تجاوزه، لأن سارده ومنزله هو خالق الزمن، وبالعكس من ذلك يجعلنا نستوعب موضوع الزمن وتوظيفه في القصص القرآني بالشكل الذي أراده الله سبحانه وتعالى، لتتجلى لنا طلاقة قدرته وعلمه ومشيبته، وصولاً إلى الحقيقة الأزلية : أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

أ - الزمن في القصة القرآنية :

القصة القرآنية " ليست أولاً خاطرة في ذهن الله، ولا هي ثانياً تسجيل لتجربة مرت بها مخيلته، ولا هي ثالثاً بسط لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بكلام، وليست القصة القرآنية لونها من ألوان الأقصوصة، أو القصة أو الرواية، أو الحكاية بالمعنى

المتواضع عليه، وكذلك فهي لا تحمل العناصر الفنية، ما حملها نقاد العصر الحديث¹ إنها القصة القرآنية، بميزاتها الخاصة والمتفردة عن كل لون قصصي. إلا أن " من مقومات القصة الزمان، والقصة القرآنية بما هي في الأغلب، سيرة نبي عاش في قومه، ضمن ظروف محددة، فإنه لأمر طبيعي، أن تتبلور هذه القصة من معطيات تلك الظروف، وأن تنطبع أدبيتها بطوابع الزمان والبيئة². فالقرآن الكريم حين تناول قصص الأمم الماضية التي تلاحقت، وقصة الإنسان الذي خلقه الله تعالى، وجعله يحيا على وجه هذه الأرض، اندمجت هذه القصص ككتلة قصصية واحدة، على أساس خضوع الكل لسنن الله الثابتة، وهذا ما جعل القصص القرآني يتجدد بحديثاته وعناصره المختلفة، في إطار قصة واحدة، هي قصة الإنسانية. حتى أن السورة القرآنية تدمج في بعض الأحيان الأمكنة والأزمنة والأحداث، في إطار سردي واحد " ففي سورة يونس، جرى دمج لعصور وأمكنة، وأحداث وملابسات في صيغة سردية واحدة، كأنها صادرة عن فاعل (جمعي) واحد. فكان من جراء ذلك، هذه الوحدة في الموقف، وفي الاستجابة، وفي الحوار وفي المصير"³. وهذا ما اهتم به القرآن الكريم من خلال عرض العقيدة والألوهية، وموقف الإنسان من ذلك. ولذا تكررت صورة الحياة والموت، ونشوء الأمم السابقة وإهلاكها، بسبب كفرها بالله واليوم الآخر.

هذا " المنهج المتكامل من استحضار الأحداث والعبر والتذكير، وتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم وإيناسه، والهداية والرحمة، والإبانة والاتباع، وضرب المثل والتدبير والإنذار، وغير ذلك من أسرار النهج الإلهي العظيم، استدعى أن يستند على مصطلح له اشتقاقه المتناسب، مع الغوص في أعماق التاريخ، وتأمل سلوك الأمم"⁴. لكن أي عبقرية بشرية تقدر على هذا كله، وعُمُرُ صاحبها محدود بمرحلة زمنية، أقصر بكثير من هذه الذاكرة المستجمعة لقيمة الحياة ومراحلها، ووجود الإنسان وخلقته ومصيره؟. " وماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق، وما فصله من تلك الأنبياء، على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون: إن التاريخ يمكن وضعه بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى، فيقولون: إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها قرنا، فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان

1. خالد أحمد أبو جندي: الجانب الفني في القصة القرآنية. ص 127.

2. سليمان عشارتي: الخطاب القرآني. ص 103.

3. المرجع نفسه. ص 40.

4. يوسف حسن نوفل: مفهوم القصة القرآنية، مجلة الأدب الإسلامي، العدد الرابع، ربيع الثاني 1415 هـ. ص 80.

؟ أو أنه ورث كتب الأولين، وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها ؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذلك، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن من أولئك، ولا من هؤلاء "1. جاء في كتاب قصة الحضارة " وإذا ما حَكَمْنَا على العظمة، بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ "2. لقد صدمت حقيقته صلى الله عليه وسلم وحقيقة الوحي المنزل عليه كل المشككين في نبوته ورسالته، لأنهم لم يستوعبوا جيداً قصة نزول الوحي على هذا النبي الأمي، في مكان صحراوي مجهول، كاد أن يطويه النسيان والإهمال، لولا إقامة قواعد بيت الله فيه، منذ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ليكون مثابة للناس وأمناءً، شاهداً هذه الحركة الدائبة حوله، من حج وعمرة وطواف، دأب حركة الليل والنهار، ليصبح نقطة التقاء المسلمين الوافدين من كل فج عميق، على مر التاريخ وامتداد الزمن .

ومن الأجدر أن يرتبط الكلام المقدس بالمكان المقدس، كما بينا ذلك في الفصل السابق، وأن تبقى معالم بيت الله قائمة، كما تبقى آيات وحيه محفوظة، متجددة الأثر عبر امتداد الزمن والمكان. هذه الصدمة العجيبة هي التي جعلت أحد المفكرين المعاصرين يصنف النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أول العظماء على رأس مائة عظيم، من فجر البشرية حتى العصر الحديث، فيقول: " لقد اخترت محمداً صلى الله عليه وسلم في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم الحق في ذلك. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي. وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً. وبعد 13 قرناً من وفاته، فإن أثر محمد صلى الله عليه وسلم ما يزال قوياً متجدداً "3. أما بالنسبة لنا نحن - المسلمين - فمحمد ما هو إلا رسول الله، والكتاب الذي جاء به هو وحي الله تعالى. فالنص القرآني أكد استمرار الصراع لجدلية المعتقد، و" القرآن في قصصه قد صدر عن وقائع تاريخية تتمحور، حول شخصيات أنبياء الله ورسوله ودعوتهم إلى أقوامهم وأممهم. كما صدر أيضاً عن أخرى تمثيلية كانت حديثها تستلزم الواقع والمألوف الإنساني "4. ولهذا تتمحور النص القرآني حول الألوهية والبعث. لكن الصراع العقدي

1 د . عبد الله دراز : النبأ العظيم . ص 36 ، 37 .

2 ول وإيريل ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع الجزء الثاني ، ترجمة محمد بدران ، بيروت . ص 47 .

3 مايكل هارت : الخالدون المائة ، ترجمة أنيس منصور دار الرشاد للنشر ، 2009 ، قسنطينة الجزائر . ص 9 .

4 د . سليمان عشارتي : المرجع السابق . ص 03 .

يبقى مستمراً استمرار الزمن الدنيوي، ولن يتم الفصل فيه إلا يوم القيامة " إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِّينَ وَالنَّصِرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧ "1. هذه هي الحكمة من خلق الناس، والسر في اختلافهم. يقول تعالى: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩ "2. إن مشيئة الله العليم، هي التي أرادت ذلك، فمسألة الإيمان والكفر مسألة اختيارية للناس " وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ 3". ولهذا فالجدال حول العقيدة أو محاولة فرضها على الناس قهراً، عمل بعيد عن الهدف السامي الذي خلق له هذا الإنسان المتميز بالعقل وحرية الاختيار، وإنسانيته تجعل منه الكائن الوحيد المسؤول عن أعماله ومصيره .

إن نهاية هذا الجدل الديني لن تتوقف في الزمن الدنيوي، ولن تُحسم إلا في عالم الخلود حين يموت الإنسان، فيمتد بصره إلى ما وراء الدنيا " لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢ "4. ثم يُبعث الناس جميعاً ليقفوا أمام ربهم وخالقهم " وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ٥١ قَالُوا يُؤَيَّلْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ٥٢ إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميعٌ أدنينَا مُحْضَرُونَ ٥٣ "5. فالقصة القرآنية لا تتوقف بزمن موت الشخص، بل تجعل الموت بداية حياة أخرى، تلتمس فيها الحقيقة الأزلية في عالم الخلود، الذي كان في ظن المكذبين خيلاً ووهماً، يستحيل في ظنهم معه إعادة تشكيل الزمن، وإعادة إحياء الموتى مرة أخرى. لقد " كان الزمن من أهم المدركات الصريحة والضمنية التي تصدت بها أدبية الخطاب القرآني، إلى معالجة هذا الموقف المكذب باليوم الآخر "6. ولطالما ظل الكفار يكذبون بيوم البعث " وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨ "7. وكان نداء الفطرة ظل يفرض نفسه عليهم، لكنهم حاولوا أن يخفوه بقسمهم هذا، وإنكارهم المتكرر، وإصرارهم على تكذيب رسل الله وإنكار وحيه .

1 سورة الحج : الآية 17 .

2 سورة هود : الأيتان 118 ، 119 .

3 سورة الكهف : الآية 29 .

4 سورة ق : الآية 22 .

5 سورة يس : الآيات 51 ، 52 ، 53 .

6 د . سليمان عشراي : المرجع السابق . ص 141 .

7 سورة النحل : الآية 38 .

يقص علينا القرآن الكريم قصة الحياة وما قبلها، كما يقص علينا قصة الموت وما بعده. وهكذا " نقف على معنى القصص القرآني المرتبط بغاية سامية، والمستند إلى مادة وفيرة عمرها القرون المتعاقبة. وإن الحدث والحديث والخبر والنبأ فيها، هو مما يعجز عن استيعابه راوٍ أو قصاصٍ من البشر، لأنه يتطلب الاستقصاء إلى أبعد مدى، والتوغل إلى أقصى غاية"¹. لقد استوعبت القصة القرآنية الحيز الزمني للدنيا، والذي جاء في قصة آدم من البداية إلى النهاية - إلى حين - وبالتالي فالزمانية قد جعلت من القصة القرآنية، قصة كونية ممتدة. وهي محيطة بكل الأحداث التي دارت منذ زمن خلق آدم، إلى زمن آخرٍ واحدٍ من ذريته، فتكون قد استوعبت أيضا الفضاء المكاني المتمثل في الأرض والسماء. إن " حدثية القصة كما نرى مترابطة يكاد الحس الزمني فيها يغيب، فهي مواقف إلهية مع الملائكة، ثم مع إبليس، ثم مع آدم، ثم ما كان من باقي الأحداث التي تجري خارج الحيز الزمني الأرضي"². أما مقولة رولان بارت: " ولأن القصة كونية ومتجاوزة للتاريخ والثقافة"³. فهي مغالطة لا تعكس حقيقة أي قصة فنية، فالقصة الفنية لا تشمل إلا مساحة ضيقة من هذا المكان الكوني الشاسع، المترامية أطرافه، ولا تعبر إلا عن لحظة زمنية قصيرة من عمر هذه الإنسانية الممتدة قرونا وقرونا من الزمن. وهذا ما يبين جليا تفرد القصة القرآنية من حيث الزمانية .

فالحركة المترابطة بين هبوط آدم من الجنة إلى الأرض، وصعود روحه من الأرض إلى السماء عند الموت، هي قصة زمن كل إنسان يأتي إلى هذا الوجود، ثم يغادره مرغماً. إنها قصة الحياة المتكررة. فالقصة القرآنية تتابع هذه الحركة الممتدة وتسايرها، وتجعل منها مشهدا متواصلا، يتقاسم فيه المكان والزمان والحدث، مراحل الوجود الإنساني، مراحل حياته ومصيره، من النشأة الأولى إلى الرmq الأخير، ومن الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى البعث، ومن البعث إلى الخلود " قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"⁴ لتتابع القصة القرآنية هذه المرحلة الغيبية، وتبقى تساير الإنسان كوجود نوعي متواصل، لا ينتهي بالموت المحتوم، ولا يفنى بالجسد المتلاشي. وإنما

¹ د . يوسف حسن نوفل : المرجع السابق . ص 80 .

² د . سليمان عشراي : المرجع السابق . ص 128 .

³ رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوي . ص 26 .

⁴ سورة الأعراف : الآية 25 .

ينتقل من مرحلة حياتية دنيوية، إلى مرحلة حياتية أخروية، ومن لحظة زمانية فانية، إلى مرحلة خالدة أبدية .

إن الكتلة الزمانية التي استوعبتها القصة القرآنية مع الكتلة المكانية، لا تستطيع أن تستوعبها عبقرية السرد البشرية، مهما تجمعت وتضافرت كل الجهود، لأنه محكوم عليها بالمحدودية والفناء، وإنها تعيش ضمن حدود المكان والزمان، ليهزمها الزمن حين يمارس على البشر عامل التغيير والتحول من الشباب إلى الشيخوخة، ومن الكينونة إلى التلاشي واللاكينونة، ومن الحركة إلى السكون. وها هو القرآن الكريم يسرد على الناس قصة خلقهم وميلادهم بمراحل الزمن المختلفة التي تنقلهم من طور إلى طور، دون حول منهم ولا قوة. يقول تعالى: "يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُؤَقِّبُ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدِّدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٥" ¹. فأي آلهة تحدثت في خطابها الأسطوري بهذا المنهج الإعجازي، والمتكرر في دنيانا؟ بل وأي آلهة تجرأت على هذا الخطاب القرآني لتضع له حداً، وتنتصر على الموت والفناء؟ "الحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها، إنما هي يد الله تجري المعجزات، وتبث روح الحياة في الموات" ². لقد كانت هذه القصة القرآنية لخلق الناس وحياتهم بمراحل زمنها، لفتة لكل منكري الألوهية والبعث " بهذا نكون قد وصلنا إلى أن الزمن خلق من خلق الله، وأنه سبحانه وتعالى يستطيع أن يخرجنا من قوانين الزمن ونحن أحياء، كما حدث لأهل الكهف، أو نحن أموات كما حدث للرجل الصالح الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه" ³. وهذا تحد لكل الآلهة المزعومة التي أنتجتها الأساطير والخرافات، والتي اختبأت الآن في منطقة النسيان واللاشعور، والمخيال الشعبي، وتلاشت على مسرح الفعل والقول، والحقيقة والواقع، فأصبحت أخبارها أساطير تروى، تبرا منها الدين والعلم والعقل، وتلاشت ملاحمها ليطويها النسيان مع مرور الزمن .

¹ سورة الحج : الآية 5 .

² سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثالث والعشرون . ص 2967 .

³ عبد الغني عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 8 .

لقد تحولت هذه القصة القرآنية إلى لفظة للمكان وفاعلية الله عليه، حيث تحولت الأرض مكانا حيا، بعد ما كانت مكانا يابسا ميتا. ليكرر القرآن الكريم مشهد خلق الناس، ومراحل حياتهم من زمن التراب - زمن الخلق الأول - إلى زمن النطفة والجنين والطفولة، وزمن الشباب والشيخوخة، زمن الحياة والميلاد والموت. يقول تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ طَبِّهِ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" ٦٧¹. فهل انتصر أحد على فاعلية الزمن عبر تقبله في تلك المراحل المفروضة والمتتابة؟ حتى قيل "الزمن لص ظريف يسرق شبابنا"². وهل فكر الإنسان الحدائثي في فاعلية الزمن، والتعرف على الفاعل الحقيقي الذي يجري عملية الخلق وتوظيف الزمن؟ والزمن يملكنا ولا نملكه، فلا يستطيع الإنسان منا أن يعيش خارج الزمن، لا يستطيع أن يبقى طفلا فلا يكبر، ولا أن يبقى شابا فلا يصل إلى مرحلة الشيخوخة، ولا يستطيع أن يعيد الماضي"³. إن من الخطأ الشنيع أن نعرض عن الفاعل، لنلتفت إلى الفعل، ونحن المفعول به والمنفعل. والخطأ نفسه انتهجه النقد حين قام بدراسة مفعولية الزمن، لينسب فاعليتها للساد الذي يتساوى في المفعولية، وينسى خالق الزمن. ولهذا فالآيتان السابقتان تثيران فينا التساؤل عن الفاعل الحقيقي للعملية الزمانية، ولعملية إبداعنا وخلقنا نحن البشر المخلوقين. وأي نص سردي في أدب النقد يتجه بنا هذا الاتجاه السليم للوقوف على الفاعلية الحقيقية؟ .

لقد كثرت القراءات التأويلية للنص القرآني، إلا أنها "ارتكزت على كون النص - القرآني بناء تاريخيا ثقافيا - وبالتالي يصبح النص ضمن آلية التطور الثقافي. والثقافة هنا ليست شيئا آخر غير العقل في تصورهما، مما يعني حاكمية العقل على النص، بشكل أو بآخر. وعلى هذا الأساس كانت حتمية تعدد الدلالات، ونسبيتها نتيجة متوقعة"⁴. لكن "القرآن آية للبلغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه... ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعا، كالغيب والاختلاف، والحكم والعلم والبيان"⁵. ولهذا فالقصة القرآنية حين استوعبت هذا الكم الهائل لزمانية الدنيا وزمانية الحياة، وزمانية الخلق، وزمانية الكون، وزمانية الوجود بشهادته

¹ سورة غافر: الآية 67 .

² موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية . ص 14 .

³ عبد الغني عبد الرحمن : المرجع السابق . ص 9 .

⁴ معتصم السيد أحمد : المرجع السابق . ص 123 .

⁵ محمد حسين الطباطبائي : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 62 .

وغيبه، فلا يسعها إلا أن تكون قصة مصدرها خالق هذا الكون، والمشرف عليه. لقد وُظف عنصر الزمن في القصص القرآني بمستواه الدنيوي والأخروي، وكذلك بمستواه الخارق والغيبي، والموضوعي والتاريخي، والنسبي والمطلق، بعيدا عن كل توظيف أسطوري أو خرافي. وهذا يؤدي إلى تفرد توظيف الزمن في القصة القرآنية، عن كل فضاء سردي. إن " كل عمل عبارة عن كل، تصل فيه حظوظ الأفراد وأقدارهم إلى نتيجة تتسجم مع الفكرة التي كونها المؤلف أصلا. أما الحياة الواقعية، فهي خليط غير متجانس، مؤلف من مشاهد لا رابط بينها. والمؤلف العظيم لمسرحية الحياة، لم يضع النهاية لمؤلفه"¹. وهل نظر النقد إلى عظمة خالق الحياة، كيف صاغ في وحيه الخالد، هذا القصص المتفرد؟ وهل وقف أمام عظمة وحيه المنزل الذي تحدى به الكل عبر الأزمنة والأمكنة؟ وهل استوعبت حقيقة زمانية القصة القرآنية من حيث الفاعلية، والتوظيف والاستثناءات؟

إن ميزة كونية القصة القرآنية، هي التي ينبغي أن تُبحث، وتُدرس مجالاتها الإعجازية مما يجعل الهوة أبعد مما تكون بينها، وبين ما جاء من قصص في أسفار العهد القديم، حين تُعرض على بساط البحث والمقارنة، وفق منهج موضوعي وعلمي " فنبوات بني إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة، تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها، عن سائر الأمم"². وهذه الميزة لوحدها تُحد من زمانية ومكانية قصص العهد القديم. فالقصة القرآنية لا تحصر واقعها في رقعة مكانية موصوفة، ولا في لحظة زمانية معينة، ولا في سلالة بشرية خاصة، ولا في إله جعل فئة من الناس شعبا مختارا، وأهم بقية الشعوب، حتى قال ألبرت آينشتاين: " فكرة الإله الشخصي فكرة غريبة تماما عني، بل واعتبرها ساذجة أيضا"³. لأن تدبره في الكون البديع جعله يقول: " إن الشعور الديني الكوني هو أقوى وأنبأ الدوافع للبحث العلمي"⁴. فصاغ نظريته النسبية وفق تفسيره للكون تفسيراً زمنياً، ليقف بعد ذلك كله معلناً غرابته لفكرة الإله الشخصي، والإله الزمني، أي إله القبيلة والقومية، وإله الخرافة والأسطورة الإله المتأنس والمتجسد - تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا - .

1 أ أ مندولا : المرجع السابق ، ص 59 .

2 عباس محمود العقاد : المرجع السابق . ص 236 .

3 ريتشارد دوكنز : المرجع السابق . 17 .

4 والتر إيزاكسون : أينشتاين وعالمه ، ترجمة هاشم أحمد ، كلمة الطبعة الأولى 2010 ، الإمارات العربية . ص 392 .

إن القصة القرآنية قبل كل شيء، هي تجسيد لطلاقة قدرة الله على الزمان والمكان والوجود، وتجل لعدل الله الذي لا يظلم أحداً " تَلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِأَلْحَقٍ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ١٠٨ "1. كما هي تجسيد للسنن الإلهية التي لا تعرف تبديلاً ولا تغييراً، لأن " السنن الإلهية في الحياة الإنسانية عموماً، وفي حياة الأمم خصوصاً، موضوع ضخم في حجمه، بالغ الأهمية من حيث قيمته وخطره. فالسنن هي النظام الإلهي لحياة البشر، ومعرفتها تفي القدرة على تفسير التاريخ تفسيراً صحيحاً "2. وبالتالي تفق هذه السنن مع زمانية القصة القرآنية سنداً يدعم حقيقتها التي لا ريب فيها، ويفضح قصص العهد القديم التي نسبت صفات النقص والتجسيد لله الخالق العليم. وباكتشاف " تلك القيم والسنن الموثقة في النص، والتي يمكن أن تتصف بالديمومة والشمولية، يمكن أن تجعل النص الديني مشرفاً ومهيماً على الزمان والمكان "3. وهذا هو الاختلاف الذي يميز بين القصص القرآني، وبين قصص العهد القديم، وكذلك بين الأساطير والخرافات، وبين كل فضاءات السرد الفني والتاريخي .

لن ينفع أي بحث توجه صاحبه ليستخرج ما جادت به عبقرية النقد في دراسة عنصر الزمن لظاهرة السرد في القصص القرآني، مراوفاً دراسته بين زمن المؤلف، وزمن القراءة ، وزمن الأحداث. حيث يقول بوجود " أزمنة خارجة يدخل معها النص في علاقة زمن الكاتب ، زمن القراءة "4. إن هذا الاتجاه في دراسة زمانية القصة القرآنية، لا يتماشى في اعتقادنا مع الحكمة الربانية التي وُضِعَ على أساسها القصص القرآني، وأثار ضمنها ظاهرة الزمكانية. ولهذا نرى أن الوحي قد تعمد إثارة الظاهرة الزمانية في مجالات الغيب والخارق ضمن قصصه، ليجلي لنا خالقية الله تعالى، وطلاقة إرادته وفاعليته في إدارة سيرورة ومصير هذا الكون الشاسع، والذي لا نمثل فيه نحن البشر، سوى جزء ضئيل من ذراته الدقيقة، مقارنة بأجرامه الهائلة. يقول تعالى: " لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧ "5. ليطرح الوحي السؤال على هؤلاء المتجبرين: " ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَّاها ٢٧ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا ٢٨

1 سورة آل عمران : الآية 108 .

2 : د. حسن بن صالح الحميد : سنن الله في الأمم . ص 48 .

3 معتصم السيد أحمد : المرجع السابق . ص 132 .

4 تزفيتيان تودوروف : مفاهيم سردية . ص 108 .

5 سورة غافر : الآية 57 .

وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحُلَهَا ٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَلَهَا ٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١¹. إن هذا الخطاب القرآني يبين لنا طلاقة القدرة الإلهية في خلق هذا الكون الشاسع - بمكانه وزمانه وعناصره - مع عملية إخراج الزمن بليله ونهاره، بظلامه ونوره. أليست هذه الظاهرة الإعجازية للزمكانية وبدائيتها هي التي يجب أن نفق أمام عظمتها وعظمة من أوجدها ؟ .

ولهذا فدراسة الزمن في القصة القرآنية، وفق الظاهرة الإعجازية، توقفنا أمام صفات الذات العليا المهيمنة والفاعلة حقاً. إن الله تعالى هو الذي خلق هذا الكون، خلق سماءه ورفعها وخلق أرضه ومهدها. كما خلق الزمان وأنشأ أدواته، وخلق الليل والنهار، وجعل الشمس والقمر دليلاً على اختلاف الزمان " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَشَّمْسٍ ضِيَاءً وَاللَّيْلِ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ه²، وهذا معناه " أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان، إنما حصلت بتدبير الله وتقديره³. وهذا رد عما جاء في نص سفر التكوين " وكانت الأرض خربة وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء⁴. هذه الصورة المجسدة قد جعلت من الأرض مكاناً خالياً ومظلماً، مُهْملاً ومتروكاً دون تدبير ولا تقدير، بل ربطت خالق الكون والحياة بهذا المكان وحصرته. إن النص القرآني يجلي بكل وضوح طلاقة القدرة الإلهية في خلق المكان والزمان، والإشراف المطلق على الخلق دون شريك ولا معين. فكما يكون الإشراف على الظاهرة الزمكانية في هذا الوجود لله سبحانه وتعالى، فكذلك يكون الإشراف ذاته على زمكانية القصة القرآنية أيضاً " إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة⁵. لتتضح لنا سمة الخالق الخبير الحكيم، وكذلك سمة السارد العليم القدير، فهو الفاعل الحقيقي لعملية السرد. حيث تخضع كل عناصر القص من ألفه إلى يائه إلى طلاقة إرادته ومشيبته، وعلمه وحكمته، فتسير تحت إشرافه وإحاطته، دون أن يتمرد أي عنصر على الإطلاق، عن إرادته ومشيبته سبحانه .

فكيف يصبح هذا الإله الخالق عاجزاً أمام هذا الإنسان المخلوق، ولم يعلم مستقبلاً. إن كان هذا الإنسان المخلوق، سيأكل من شجرة الحياة فينافسه الخلود ؟ فكيف يغيب هذا عن علمه، وهو

¹ سورة النازعات : الآيات 27 ، 28 ، 29 ، 30 ، 31 .

² سورة يونس : الآية 5 .

³ الإمام فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، الجزء الحادي والثلاثون . ص 48 .

⁴ العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الأول ، الفقرة 2 .

⁵ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الحادي والعشرون . ص 2839 .

الإله الخالق؟ بل ويجعل على طريق الجنة حارساً؟ " ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" ¹. كيف سيجيب نص العهد القديم أمام ذاته وجها لوجه أمام حقيقة هذا الرب؟ إن سرد هذه الحادثة يفتضح فيها أمر الرب، بعدم علمه بما سيحدث. " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد" ². وهذا يبين " أن الحياة والموت ليس بيد الله وقدرته، بل بسبب المأكولات، وأن الله خشي من حياته الأبدية بسبب أكل الشجرة، فأخرجه من الفردوس" ³. إنها حقا إشكالية زمانية يستحيل حلها، إن حدث صراع بين الخالق والمخلوق، بين الإلهي والبشري، وخاف الخالق من انتصار مخلوقه على الموت، ولم يعلم مصيره. فأين الحكمة من الخلق؟ وكيف يحق لخالق الكون أن يخاف المخلوق، ويجهل فعله وتفكيره مستقبلاً. إن الخالق بهذا السلوك أصبح مفعولاً به بفاعلية الزمن الفاعل، وهو الخالق للزمن وموظفه، إن " الإله لا يلعب" ⁴. وهذا أمر يستحيل حتى أن نفكر فيه، فضلاً عن يُعرض في سرد يوصف نصه بالمقدس، وأنه موحى من الله الخالق، وأن كتيبته مؤيدون وملهمون بالروح القدس .

إن إله نصوص العهد القديم قد تجاوزته الزمكانية، فهو لا يعلم ماذا يدور في جنته ، فضلاً عن كونه. لا يعلم أن باستطاعة هذا الإنسان المخلوق، أن يسرق الحياة لينتصر على الموت " لكن الإنسان طُرد من جنة عدن لأن شجرة الحياة موجودة هناك ولأنه كان بوسعه أن يستعيد الخلود بأكل ثمارها" ⁵. كما باستطاعته أن يسرق البركة والنبوة والرسالة، موظفاً كل أساليب الخبث والخداع والمكر، أمام عجز وصمت هذا الرب الإله. يقص علينا العهد القديم قصة يعقوب، وكيف حاز البركة من أبيه إسحاق الضرير، منتحلاً شخصية أخيه عيسو " فدخل على أبيه وقال يا أبي فقال ها أنذا من أنت يا ابني فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بركك قد فعلت كما كلمتني قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك" ⁶. وأمام صمت الرب الإله تُغتصب البركة، وليس من يد الأب الضرير فحسب، بل من إرادة الله الخالق. لقد انفلتت الأمور من قبضة الرب الإله، وخضع لنزوة

¹ العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرة 24 .

² المرجع نفسه ، الفقرة 23 .

³ الإمام علاء الدين الباجي : الرد على اليهود ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى 2007 بيروت . ص 38 .

⁴ ريشنارد دوكنز : المرجع السابق . ص 20 .

⁵ جاك شورون : الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، أبريل 1984 الكويت ص 94

⁶ العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح السابع والعشرون ، الفقرة 18 .

الأشخاص الماكرين، مستسلما لرغباتهم، وشاركهم الغدر والخيانة بصمته وعدم تدخله - تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا - والتمثيلية التي قام بها يعقوب مخادعا أباه إسحاق الضرير ليفتك المباركة ويكون له السبق في ذلك، نراه قد لجأ مرة أخرى إلى القوة ليفتك البركة هذه المرة، ولكن ممن؟ من الرب الإله، وعلى إثر مصارعة معه تنتهي فجرا " وبقي يعقوب وحده فصارعه رجل حتى طلوع الفجر ... ولما رأى أنه لا يقوى على يعقوب في هذا الصراع ضرب حُق وركه فانخلع وقال ليعقوب طلع الفجر فاتركني فقال يعقوب لا اتركك حتى تباركني فقال الرجل ما اسمك قال اسمي يعقوب فقال لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن بل إسرائيل¹. فمن هو الذي تصارع مع يعقوب؟ وكيف يباركه، وهو لا يستطيع أن يخلص نفسه منه؟ بل قد فاجأه طلوع الفجر، وربما خاف أن ينكشف أمره، وتحت هذا الضغط بارك الرجل المهزوم أو الإله المهزوم، يعقوب المنتصر، لينجو بنفسه ويصعد إلى السماء. هذه قصة مباركة يعقوب الذي تغير اسمه إلى إسرائيل، لينجب أبناء سيكونون شعب الله المختار، وهم بنو إسرائيل. يقول رولان بارت: " أنت غلبت الله، والذي يكلمك هو من غلبته، إذن الذي يكلمك هو الله². إن صراع البشر مع الآلهة لا يمكن أن يعرف طريقه إلا إلى نصوص الأساطير، وليس إلى كلام الله الحق .

هكذا يُوصف يعقوب النبي - عليه السلام - بهذا المشهد في العهد القديم، وإله يتحدث عن صراعه مع إنسان مخلوق، ثم انهزامه، ليفاجئه طلوع الفجر، فقد هزمه الزمن. " ولا يهم من وجهة نظر البنية، أن يكون ضميرا مجهولا أو رجلا، أو الله أو ملاكا، ولم يهزم في الحقيقة، بل أوقف، ولكي يتم ظهور الإيقاف بمظهر الهزيمة، لابد من إضافة حد الزمن، إنه طلوع الفجر³ إله يهزمه البشر ويهزمه الزمن، ومع ذلك فهو يوزع البركات عليهم تحت الضغط والهزيمة، محاولاً الإفلات من قبضتهم. هكذا تُسرد القصة في العهد القديم، ليفتضح فيها أمر الرب، ومباركة البطل يعقوب. إن " بسفر التكوين في الإصحاح الأول الشهير يحتل الرب الخالق المركز بدون منافس كلي القدرة والخير، يبارك الأشياء التي صنعها. لكن تبدو بقية سفر التكوين، وأنها تفكك هذه النظرة اللاهوتية، فالرب الذي كان كلي السيطرة في الإصحاحين التاليين، والرب العادل غيرالمتحيز الذي بارك الأشياء جميعا، دونما تمييز بينها يصبح محايبا بجلاء. كما أن اختياراته الاعباطية - نادراً ما يكون

¹ العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثاني والثلاثون ، الفقرات 23 ، 33 .

² رولان بارت : التحليل النصي . ص 62

³ المرجع نفسه . ص 64 .

أشخاصه المختارون نموذجيين - أثارت البغضاء بين البشر وحرصتهم على بعضهم بأسلوب قاتل¹. لتقف قصة العهد القديم أمام إشكالية الزمانية، وتتحول النبوة فيها والرسالة إلى قرار نزوة شخصية، وليس قراراً إلهياً حكيماً، يُفكك رغم إرادة الرب الإله، ووفق أساليب اللصوص والمخادعين ، وليس وفق إرادة الله وعلمه وحكمته، ومع الكاذبين الماكريين ، وليس مع عباده المتقين الصادقين المخلصين. هذه قصة مباركة يعقوب - عليه السلام - وفق رواية العهد القديم. فكيف يعرض القصص القرآني أحداث الرسالة والرسول والأنبياء المختارين من الله سبحانه وتعالى، وعلى امتداد الزمن والتاريخ ؟ .

فإنه عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته، والنبوة والرسالة ليست مالا يُسرق، فلا يحظى به إلا اللصوص، ولا طائفة يحول وجهتها قرصنة الجو، وليست رغبة فرد أو جماعة أرادت ذلك، وحالفها الحظ والمكر. إن النبوة والرسالة لا تتحقق هبتهما إلا بالله الخالق العليم، الذي قدر الأمور في علم غيبه السابق " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣ "2. وقد اصطفى أنبياءه ورسله على ملايين البشر، عن علم وحكمة، ليبلغوا عنه حقيقة الدين بأمانة وصدق، ويهدوا الناس إلى الطريق المستقيم بالإيمان والعمل الصالح، ولا يكونون أبداً أمثلة ونماذج للشر والخداع والكذب والمكر. فالفرق شاسع بين القصتين، إذ يقول تعالى في شأن البشري لإبراهيم - عليه السلام - : " وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ٧١ قَالَتْ يَوَيْلَ لِيَ وَإِنِّي لَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ٧٢ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ٧٣ "3. فالبشارة تجاوزت الزمن ومزقت حجب الغيب، وأعلنت عن ميلاد الابن ومن بعده الحفيد قبل زمن الحمل. ولا أمر يدعو للعجب في أن المرأة تجاوزها زمن الحمل والولادة، ولا الرحمة والبركة محل سرقة واختلاس. بل كل أمر تقرر بعلم الله وحكمته، وفي الزمن المناسب، وعلى الشخص المناسب. تقول كارين أمسترونج: " وهكذا كان القربان لا معنى له في حياة إبراهيم كلها التي كانت قائمة على الوعد بأنه سيصبح أباً لأمة عظيمة "4. فكيف يبارك الرب الإله إبراهيم - عليه السلام - في زمن المستقبل بزيادة نسله وتكاثره كثرة عدد النجوم،

1 كارين أمسترونج : الله والإنسان . ص 73 .

2 سورة آل عمران : الآية 33 .

3 سورة هود : الآيات 71 ، 72 ، 73 .

4 كارين أمسترونج : المرجع السابق . ص 32 .

وفي الوقت نفسه يأمره بأن يضحى بابنه الوحيد إسحاق ؟ لقد تجاوز الزمن مرة ثانية هذا الرب الإله، ويبقى الزمن إشكالية له ولوعده وقصصه، ولن نجد حلا لهذا اللغز .

إن يعقوب - عليه السلام - أصبح نبيا مباركا من طرف الله تعالى، وتمت البشارة به في القصة القرآنية قبل زمن ميلاده، ليكون نبيا بمشيئة الله تعالى، وليس برغبة أمه التي أرته الحيلة لاختلاس بركة أخيه عيسو، ولا بقوته الجسدية حسب قصة العهد القديم. كما وضحت القصة القرآنية إبعاد إسحاق من التضحية، ما دام الله قد أعلم إبراهيم بأن إسحاق سيعيش وينجب ابنا هو يعقوب - عليهم السلام - . وبالتالي فتوظيف الزمن في القصة القرآنية أظهر تجاوز الزمن لقصة العهد القديم، كما أظهر بطلانها " إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَعَٰثِرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٢ "1. فالله علام الغيوب يستحيل عليه إطلاقا، أن يفوته أمر في ملكه، أو يغيب شيء عن علمه. ولا يسمح إطلاقا لهوى البشر، أن يعبت بسننه الثابتة. بل إرادته هي النافذة، وحكمته هي البالغة منذ أن خلق السماوات والأرض، وقدر فيهما بحكمته وعلمه، ما كان وما هو كائن، وما سيكون. إذن يتعين على العلماء، كما يقول أينشتاين: " أن يرفضوا - وهم في سعيهم هذا - فكرة أن الإرادة الإلهية، أو الإرادة البشرية تستطيع أن تمارس دورا يمكن أن يفسد هذه السببية الكونية "2. أما صراع البشر مع الآلهة، وانتصار بعض الأدميين عن الإله، فلن يصنع من القصة وحيا سماويا، بقدر ما يجعلها تلتصق بالأرض، لتتضم إلى فضاء الأساطير والخرافات، ويتجاوز الزمن نصها. وبمقارنة النصوص الدينية تتجلى ميزة وحي الله وتفردته عن كلام البشر .

إن النقد الأدبي يجب عليه أن يستوعب الظاهرة الزمانية، حين يتناول القصص القرآني بالدراسة والتحليل، وأن يبين كيف تعامل الوحي مع الزمن الغيبي في قصصه. وأن يلتزم بمنطوق النص، وأن لا يخرج عن إطاره، وإلا ابتعدت العملية عن الروح العلمية. كما يجب على التفسير أن يلتزم بما جاء في النص القرآني، وأن يقف عنده دون أن يتجاوزه. فالناظر " لآليات الفهم والتفسير التي تراكمت عبر حقبة متتالية، يقف على عمق تلك العقدة، التي تهدد الصيغة الفكرية والمعرفية للإسلام. ومن هنا لا يمكن أن تكون هناك، أي محاولات تُوصف بكونها جادة، لتجاوز

1 سورة يس : الآية 12 .
2 والتر إيزاكسون : أينشتاين وعالمه . ص 400 .

هذه العقدة، ما لم تقدم مساهمة منهجية تنطلق من رؤية النص ذاته للعقل، في محاولة تأصيلية¹. ويوضح الكاتب هذه العملية التأصيلية بأنها " تتسم بالبساطة وبالمتانة في الوقت نفسه، فأما المتانة فلما يقتضيه البناء المنهجي. وأما البساطة فلأننا لا نتعقل كون القرآن الكريم الذي جاء ليتفاعل مع كل زمان ومكان، مليباً آفاق الإنسان وطموحاته، يكون مرتكزا على نسيج من التعقيد المنهجي"². والأمر الذي نتفق عليه مع الكاتب هو فعلا، بُعد منهج القرآن الكريم عن التعقيد .

فليس عبثا أن تكون في القرآن الكريم مدة خلق الكون محصية ومفصلة، وهي مدة غيبية عجز السابقون واللاحقون في تفسيرها وإحصائها، في حين يغفل القرآن الكريم تفصيل الزمن ضمن أحداث قصصه ؟ " إنها قد تكون ست مراحل، وقد تكون ستة أطوار، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام ... وقد تكون شيئا آخر، فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد، وكل حمل لهذا النص ومثله على تخمينات البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن باسم العلم هو محاولة تحكيمية منشؤها الهزيمة الروحية أمام العلم الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض"³. وليس عبثا أيضا أن يقوم القرآن الكريم بهذا البناء الهندسي المنسجم، وهذا التناسق بين ألفاظه وآياته وقصصه، دون حكمة مرجوة من ذلك. فلفظ " اليوم قد تكرر (خمسا وستين وثلاثمائة) 365 مرة، أي بقدر أيام السنة، وأن الشهر تكرر (إثنى عشرة) 12 مرة"⁴. وهل جاء هذا مصادفة في كتاب الله المحكمة آياته ؟ " إن الصدفة تناقض الإيمان، إذ لا يقع في ملك الله إلا ما كتبه الله وقدره وسبق في علمه"⁵. إن التنااسب المدهش بين الألفاظ، وهندسة الانسجام والتناسق، يبطل القول بأن القرآن الكريم يكون قد أهمل أو أغفل تفصيل زمن الأحداث. بل علينا أن نصل إلى فهم الحكمة من وراء إعراض القرآن الكريم عن تفصيل الزمن في قصصه، إلا بالقدر النادر. ولماذا تم تفصيل زمن أحداث في قصص دون قصص أخرى ؟ وما المقصود من ذلك ؟ وهذا هو الذي نراه يؤدي إلى الاقتراب من الهدف السامي للقصص القرآني، حتى يتحقق لنا مبدأ التدبر والاعتبار .

¹ معتصم السيد أحمد : المرجع السابق . ص 122 ، 123 .

² معتصم السيد أحمد : المرجع السابق . ص 123 .

³ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني الجزء التاسع . ص 1296 .

⁴ عبد الرزاق نوفل : الإعجاز العددي للقرآن الكريم ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الخامسة ، بيروت 1987 . ص 251 .

⁵ المرجع نفسه ، ص 251 .

علينا أن لا نلتفت إلى الظاهرة الزمانية في النص القرآني، ولا نبحت زمانية القصة القرآنية وفق ما نريده نحن، أو ما نصت عليه نظريات النقد الأدبي. بل كما أراد الله عز وجل ووفق ما جاء به كلامه المنزل، وعلينا أن نتدبر آية الزمان في الكون والطبيعة، كتدبرنا آية الزمان في نصوص القرآن الكريم، فالتناسق والانسجام بادٍ بينهما. والقصص القرآني حين يُعرض بهذا المنهج الدقيق، وضمن زمانية معينة مفصلة تارة، ومجملة طورا، معدودة أحيانا، ومبهمه أحيانا أخرى، يريد أن يقطع الطريق أمام كل عبث وادعاء باطل، ويدفع بالبحث عن المقصود من وراء ذلك، لتتجلى طلاقة قدرة وعلم الله بالغيب. بل يثير هذا العرض شهية المتلقي للنص، حيث يتولد لديه تلاحم المشاهد الموثقة، ضمن سور القرآن الكريم في عرض قصصي موحد، ليعطي أحمدة إلى سرد قصصي مُستجمع لقصة واحدة، هي القصة القرآنية، بزمايتها كما أرادها الله الخالق العليم، بعيدا عن كل توهم وادعاء. فالقصة القرآنية قد اتضحت معالمها الكونية الدالة على زمانية ممتدة من بداية الخلق إلى نهايته. فهي تمر بشريط متواصل أمام أعيننا، ونحن نتابع مشاهدنا، من ماضٍ وحاضر ومستقبل، نجدها قد استجمعت كلها في وحدة زمانية هي - إلى حين - فكم استهلكت هذه المدة الزمانية من مكان وزمان، وشخوص وأحداث؟ وكم استغرقت وستستغرق المدة الزمانية بدءا من عملية الأمر بالهبوط، وانتهاء بحد مدة إلى حين، في قوله تعالى؟: " قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ٢٤ "١. فلفظة - إلى حين - تغطي مرحلة تاريخ البشرية من البداية إلى النهاية، كما تغطي مرحلة وجود كل إنسان، من زمن الميلاد، إلى زمن الوفاة .

إن قصة آدم في القرآن، هي قصة الإنسان المخلوق من طرف الله سبحانه وتعالى، والذي علمه من علمه، وكرمه وفضله على كثير مما خلق، وهداه ويسر له السبيل. كما يسر له الحياة على هذه الأرض، وسخر له كل شيء. كما غفر له خطيئته، بعد أن حذره من عداوة الشيطان له. فكل هذه الأحداث والوقائع عرضها علينا القصص القرآني، وتمت بعلم الله تعالى السابق، ولم يفلت أي أمر أو يغيب عن علم الله الواسع. لكن قصة آدم في العهد القديم تجعل الإله الرب نادما على خلق الإنسان، وفي غفلة منه، يباغته شر الإنسان " ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم * فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف

¹ سورة الأعراف : الآية 24 .

في قلبه * فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته ... لأنني حزنت أني عملتهم "1. إنه إله تجاوزه الزمان والأحداث، بل إنه لا يعلم الحكمة من خلقه لهذا الإنسان الذي سبب له هذه الشرور، وهذا الحزن والندم، حتى كاد هذا الإنسان المخلوق، أن ينتصر على الموت والزمن. كل هذا يجعل من سرد قصة العهد القديم فاضحا لأمر ساردها، ومعبرا عن ضعفه، وجهله بما سيحدث في كونه، ومع مخلوقاته. وماذا يكون موقف هذا الإله زمن تكاثر ذرية آدم مستقبلا ؟ فخطورة الإشكالية ستزداد بمرور الزمن، ويفقد هذا الإله ربوبيته وخالقيته، كما يفقد كلامه خلوده وقديسيته .

لقد عرضت القصة القرآنية رد الله جل جلاله على ملائكته، قبل أن يخلق الإنسان، ويجعله في الأرض، بأن علمه شمل كل الكون، وشمل السر والعلن " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ ٣١ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ "2. إن قصة آدم القرآنية ركزت على علم الله الواسع، علم غيب السماوات والأرض، وعلم ما تخفي النفوس وما تبديه. إنه علم لا يحده زمان ولا مكان، ولا يستطيع أن يخفي أي مخلوق أمرا، عن علم الله المطلق " وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ٣ "3. وقد تكررت في سور القرآن الكريم صفات الله الحسنى الكثيرة، كما تكررت لفظة علم ومشتقاتها في قصة آدم في سورة البقرة، وهذا لتؤكد طلاقة علم الله تعالى دون حد أو نهاية، كما تؤكد تنزيهه الله تعالى، وتبطل كل كلام سخي، لا ينزه الذات العليا، مهما كان مصدره وسارده .

بهذا التقابل يمكن لنا أن نتبين وظيفة الزمن في القصة القرآنية، وقصة العهد القديم ومدى الفرق الشاسع بينهما، حيث أن معالم القصة القرآنية تركز على علم الله تعالى اللامحدود و المطلق الذي يحيط بكل مجالات الزمن، الماضي والحاضر والمستقبل. في حين أن قصة العهد القديم لا

1 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح السادس ، الفقرات 5 ، 6 ، 7 .

2 سورة البقرة : الآيات 30 ، 31 ، 32 ، 33 .

3 سورة الأنعام : الآية 3 .

تكاد تتجاوز أي لحظة زمانية ماضية أو مستقبلية، وهذا وحده كاف لينزع عنها صفة التقديس، فضلا على التناقض الذي رسمته معالمها مع ذات الله الخالق، وطبيعة الإنسان المخلوق، حيث يستحيل أن يتصرف المخلوق دون علم الخالق، الأمر الذي لم تسمح به القصة القرآنية التي ظلت تؤكد تنزيه الذات العليا، عارضة حقيقة طبيعة الإنسان المخلوق الذي اكتسب علمه من الله العليم، كما جاء في أول التنزيل " أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ٥ "1. وبهذا ينبغي أن نستوعب إشكالية الزمان التي تعامل معها النص الديني، والقصة الدينية، وعليه يتبين لنا منهج القرآن الكريم في السرد وفي تعامله مع الأولويات، حين يعرض القرآن الكريم قصص الرسل مع أقوامهم، فيهتم بالزمن النفسي - السيكولوجي - أما حين يعرض قصة خلق الإنسان، فيبين علم الله الغيبي، ليؤسس لزمن المستقبل، ومصير الإنسانية .

لقد كان مدخل الشيطان إلى النفس الإنسانية من باب الخلود والملك الدائم، حين قص علينا الوحي قصة معصية آدم - عليه السلام - يقول تعالى : " فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ۚ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ١٢١ "2. فماذا كان من وراء هذه المعصية ؟ وماذا كان يريد هذا الإنسان الذي خدعه الشيطان ؟ إذن " الإنسان يريد شيئين من الدنيا ... يريد أن يبقى خالدا لا يموت ... وأن يكون له ملك، يوفر له حياة الترف والعبث التي تهواها النفس ... وألا يتأثر عمره بالسنوات "3. وكان غريزة حب البقاء كانت أول دافع، يقوم بالمناورة في طبيعة آدم الإنسانية، وأول من قام بدفع هذا المخلوق إلى معصية الخالق " والشجرة رمز لكل أمر حرام حرمة الله تعالى على عباده، حتى لا يقعوا فيه "4. إن " تلك الوسوسة كانت بتطمينه في أمرين أحدهما قوله (هل أدلك على شجرة الخلد) فأضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود، لأن من أكل منها صار مخلدا بزعمه. والثاني قوله (وملك لا يبلى) أي من أكل من هذه الشجرة دام ملكه "5. هذه وسوسة الشيطان اللعين، وادعاؤه المزعوم الكاذب. لكن الأهم من كل ذلك، هو حقيقة قصة الخطيئة والمعصية، وكيف صيغت لدمجها عبر تاريخ العقيدة والإيمان لدى أهل الكتاب، وخاصة النصارى .

1 سورة العلق : الآيات 3 ، 4 ، 5 .

2 سورة طه : الآيات 120 ، 121 .

3 الشيخ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن الكريم ، الجزء الثاني . ص 21 .

4 أد . عباس عوض الله عباس: محاضرات في التفسير الموضوعي، دار الفكر للطباعة الأولى 2007، دمشق . ص 139 .

5 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثاني والعشرون . ص 126 .

إن " قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد والصحوة من بعد السكر، والندم وطلب المغفرة، إنما هي هي، تجربة البشرية المتجددة المكررة "1. فهذه الخطيئة لم تفاجئ علم الله الغيبي، على عكس ما قالت به عقيدة النصارى، ويُحكم على آدم وذريته بالخطيئة أبد الدهر، حتى يأتي حل الإشكال بالصلب والفداء، وبعد مرور قرون من الزمن، عاشت فيها البشرية ملوثة بالخطيئة الموروثة، من آدم حتى آخر نبي قبل عيسى - عليه وعليهم السلام - فكلهم ماتوا مخطئين، لأنهم لم يعرفوا طبيعة المسيح، ولا قصة الصلب والفداء، ولا عقيدة الخلاص، إنها فعلا إشكالية زمانية. لقد أصبح عامل الزمن إشكالية خطيرة في عقيدة النصارى، وقصة الخطيئة في العهد الجديد، ليصبح الناس من آدم إلى آخر واحد، قبل صلب الابن، بما فيهم أنبياء الله ورسله، جاهلين حقيقة الله، وعدد الأقانيم، إلى أن عاد المصلوب بعد قيامته، ليطلب من تلامذته الذين هربوا أثناء صلبه، ليقول لهم: " اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس "2. لكن هذه العبارة لم يصرح بها المسيح طيلة حياته التي كان يعظ فيها الشعب علناً، لكن الأمر تم بعد قيامته. فإشكالية الزمن لم تعد في قصة الخطيئة، وإنما أصبحت العقيدة كلها تواجه إشكالية زمانية، حين ظهر التثليث، بعدما دب الاختلاف بين النصارى في طبيعة المسيح. ولهذا رأينا في قصة أصحاب الكهف، كيف تحولت الحادثة الخارقة إلى إشكالية أمام الكنيسة المثلثة، بعدما رسمت ألوهية المسيح، ليُضاف أقنوم ثانٍ كشريك مع الله الواحد، لتتطور بعد ذلك مع الزمن إلى ثلاثة أقانيم .

يقول تعالى: " فَسَوَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ٢١ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ٢٢ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٢٣ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ٢٥ "3. لقد اتضح علم الله الواسع والغيبي، ورسب آدم وزوجه في الامتحان - افعل ، لا تفعل - أمام وسوسة الشيطان اللعين، فحقق الشيطان مبتغاه، وعرف آدم

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 59 .

2 العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح الثامن والعشرون ، الفقرة 20 .

3 سورة الأعراف : الآيات 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 24 ، 25 .

الآن عداوة الشيطان له، كما عرف رحمة الله به التي أدركته بمغفرة ذنبه بسبب توبته " فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٣٧ "1. أصبحت القصة القرآنية - وبكل مقاييس الحق والصدق - بعيدة كل البعد عن قصة العهد الجديد، إنها قصة كل بشر مع وسوسة الشيطان، تتكرر مع بني آدم ، عبر امتداد الزمن، وتلاحق الأجيال .

لهذا استمرت القصة القرآنية بهذا النداء والخطاب الإلهي لبني آدم من أولهم إلى آخرهم. " يُبَيِّنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧ "2. إنه فعلا صراع على مكان النعيم الخالد الذي حُرِمَ الشيطان اللعين دخوله، نتيجة تمرده واستكباره، لذا لن تنتهي أبدا وسوسة الشيطان لبني آدم . فقصة آدم القرآنية، منذ خلقه إلى خروجه من الجنة، قد وضعت حداً لما كان عليه من اعتقاد خاطئ، حول قصة الإنسان ومصيره، وقصة الخطيئة ومغفرتها، وحقيقة الألوهية ووحدانيته. فتكون بهذا قد أكدت علم الله الذي سطره منذ الأزل، وخاصة في حقيقة الله الذي ليس كمثله شيء، وهو العليم الحكيم. لكن قصة العهد الجديد قد وضعت اعتقادا بسبب خطيئة الأب آدم، وتوارثت ذريته خطيئته من بعده. فكان على قصة آدم القرآنية، أن تسرد علينا كيف استغفر آدم وزوجه ربهما. فزمن الخطيئة قد انتهى مع فعل صاحبيه، ولا علاقة لأي بشر بخطيئة آدم، فآدم وحده هو الذي يتحمل وزرها، وهو الذي وحده يطلب رحمة الله. أما ذريته التي تأتي من بعده، فقصة صفحاتها الزمانية جديدة ومفتوحة مع ربها، ولا يتطلب منها إلا الإيمان به، وطلب الهداية والمغفرة منه وحده على ذنوبها هي بذاتها " وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَرَكَّىٰ فإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ١٨ "3. فلا وزر على ذرية آدم، إلا فيما ارتكبه هي بنفسها وبارادتها. لقد انتهى زمن الخطيئة مع مرتكبها هو ذاته .

تستمر القصة القرآنية استمرار حياة البشرية على وجه الأرض منذ خلق آدم وزوجه إلى زمن الحد المعلوم. كما تستمر العقيدة واحدة منذ زمن آدم، وهي عبادة الله الواحد. كان " من أغراض القصة في القرآن إثبات وحدة الإله، ووحدة الدين، ووحدة الرسل، ووحدة طرائق

1 سورة البقرة : الآية 37 .

2 سورة الأعراف : الآية : 27 .

3 سورة فاطر : الآية 18 .

الدعوة، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون "1. وما التغيير الذي أحدثه الناس في عقيدة التوحيد، من تجسيد وتعدد وشرك وكفر بالله الخالق، عبر الأزمنة المتلاحقة، إلا من وسوسة الشيطان التي صرفت الناس المغترين عن الحق، وألبستهم الضلال بدل الهداية، بعد أن ألبسهم الله لباس التقوى، منذ هبوط آدم إلى الأرض، وتقدير له حياة بزمن محدود، هو وذريته التي جاءت من بعده، لتنتقل البشرية إلى حياة أخرى في عالم الخلود. فالبشر بعد الموت، ينتقلون إلى عالم الغيب الذي آمن به بعضهم، وأنكره البعض الآخر. أما الشيطان اللعين، فقد صاحَبَ فترة البشرية، ينشط موسوساً لذرية آدم، ليقوع بهم في شباك الكفر والهاوية والضلال، وقد أمهله الله تعالى، وأبقاه إلى الوقت المعلوم. يسرد علينا القرآن الكريم قصة إبليس حين حلت عليه لعنة الله تعالى، بسبب استكباره، يقول تعالى: " قَالَ فَأَخْرِجْ مَنهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٨٠ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٨٣" 2. إن إرادة الله هي التي قررت الوقت المعلوم، وحكمة الله هي التي شاءت أن تبقى إبليس هذه المدة، وليس كما أراد إبليس حتى يوم البعث .

إن " آدم تاب إلى ربه فتاب عليه، وهذاه واجتباها، وجعله موضع مغفرته ورحمته. وإن إبليس أصر على عصيانه، واحتج على ربه، فلعنه وأخزاه، وجعله موضع عدله في عقابه . وقص قصصهما على المكلفين من ذريتهما، أو أظهر حقيقة النوعين، ومآل العملين عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين، وابتلاء للعالمين "3. وسيلقى إبليس ومن غرهم المصير نفسه. " فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنَ ٩٤ وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥" 4. فكانوا في المصير سواء. إن " الإنسان مع الشيطان ليس مغلوباً على أمره، وإنما هو مخدوع كبير، أو مستغفل غرير. إن الشيطان يملك جهاز إذاعة طويلة الأمواج أو قصيرتها، والإنسان يستطيع أن يسمع وألا يسمع "5. وللإنسان حرية اختيار طريق الحق أو الضلال، ولن يكون مرغماً على ذلك أبداً ، وإلا أصبحت عملية الثواب والعقاب أمراً عبثياً، يتنافى مع صفات الله الحسنى، وحكمته البالغة و عدله المطلق، ورحمته الواسعة. هذا

1 سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم، مطابع الشرق ، الطبعة الشرعية السادسة عشر 2002 . ص 171 .

2 سورة ص : الآيات 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 .

3 محمد رشيد الرضا : تفسير المنار ، الجزء الثامن . ص 341 .

4 سورة الشعراء : الآيتان 94 ، 95 .

5 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 112 .

هو مشهد حقيقة الوجود والحياة والمصير الذي عرضته القصة القرآنية، من بداية زمن الخلق إلى نهايته.

فإعجازية القصة القرآنية قد تكرست عبر كل مستوى زمني لمرحلتني الماقبل والمابعد مع الإشراف التام والإحاطة الكاملة. " عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْعَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٣ "1. فعلم الله مطلق، وهو " صاحب العلم الشامل المحيط ... إن أرجاء الكون صفحة واحدة أمامه، لا يخفى منها شيء "2. كما أن فاعليته مطلقة، لا تخضع لشروط الزمكانية " والفعل كما نعلم يقتضي فاعلا ومفعولا وزمانا وسببا دافعا، وقدرة تمكن الإنسان من الفعل. فهل يملك أحد شيئا من كل هذا ؟ "3. ولهذا لا بد أن ننتبه إلى مصدر فاعلية الزمن في القصص القرآني، وإلى حقيقة الفاعل الذي يرسم حدثية القصة، ويشرف عليها بعلمه المطلق، ليظهر لنا كيف تعامل القرآن الكريم، مع إشكالية الزمن في فضاء سرد قصصه. إن زمانية القصة القرآنية توقفنا أمام حقيقة الفاعلية للزمانية، سواء في عالمنا الدنيوي أو الأخروي، كما مر بنا في أحداث القصص القرآني، حين تصبح إرادة الله نافذة، لا يعجزها شيء على الإطلاق. بل كيف يكون ذلك، وهو القائل عن نفسه ؟ : " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٨ "4، ويقول أيضا : " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ٦١ "5. وهل " يجترئ عاقل على أن يأتي بكتاب يدعيه هدى للعالمين ثم يودعه أخباراً في الغيب مما مضى ويستقبل، وفيمن خلت من الأمم وفيمن سيقدم منهم ... في أبواب مختلفة من القصص والملاحم والمغيبات المستقبلية، ثم لا يختلف شيء منها عن صراط الصدق ؟ "6. إننا نحن البشر " مسيرونا في أغلب ما نعاني ونسعى، لا خيرة لنا في مكان الميلاد وزمانه، لا خيرة لنا في قيمة المواهب التي نُزود بها، ولا خط الحياة التي نسلكها "7. وهل باستطاعة أحد أن يختار ما هو كائن في غير المكان والزمان الذي يريده أو لا يريده ؟. أما في مسألة العقيدة، فقد بينته الآية في قوله تعالى : " وَقُلِ الْحَقُّ

1 سورة سبأ : الآية 3 .

2 الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 330 .

3 الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المجلد الحادي عشر . ص 6540

4 سورة الأنعام : الآية 18 .

5 سورة الأنعام : الآية 61 .

6 محمد حسين الطباطبائي : المرجع السابق ، الجزء الأول . ص 3 .

7 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 99 .

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ¹. إنا أحرار الإرادة في اختيار عقيدتنا، ونحن مسؤولون على ذلك بعد موتنا. وبهذا العرض القرآني البين، نستوعب قضية القضاء والقدر، والتي أسالت كثيرا من الحبر بسبب ما جاءت به الفرق التي ظهرت في المجتمع الإسلامي .

لن يستطيع أحد أن يفلت من زمكانية قصة حياته، ووجوده مهما ادعى، فهو مقهور بزمكانية الميلاد، كما هو مقهر بزمكانية الوفاة. " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ². فالإنسان مهما ادعى واعتقد، فهو لن يستطيع أن يتحرر من قبضة الزمكانية التي تحاصره. يقول أينشتاين: " فأنا أو من بالاحتمية، فكل شيء - من البداية حتى النهاية - تحدده قوى ليست لنا سيطرة عليها، هو محدد للحشرة كما هو للنجم، أو البشر أو الخضروات أو الغبار الكوني، فجميعنا نرقص على أنغام لحن غامض، يعزفه من بعيد عازف لا نعرفه"³. إنها الإرادة الفوقية التي رسمت لهذا الإنسان حدوده الطبيعية، التي فرضت عليه ظروف الحياة ونهاية المصير. ولن يستطيع أن يعلم ما سيكون عليه مصيره، سوى أنه يعلم يقينا أنه سيرحل عن هذه الدنيا عاجلا أو آجلا، ولكنه لا يعلم زمن الرحيل ولا مكانه. إنها الطبيعة الإنسانية التي خلقها الله على تلك المحدودية، لكنه خلقه حرا مختارا مسؤولا عن كل سلوك وقرار تطاله دائرة اختياره .

فإذا جننا إلى عالم الخلود، أوقفنا الآية القرآنية أمام مشهد كل الخلق مجتمعين وبارزين في مكان واحد وزمان واحد، أمام الله الواحد القهار " يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ "⁴. إن السرد القرآني لا يغفل الزمكانية سواء في قصة الحياة الدنيا، أو في قصة حياة الآخرة. لتجسد القصة القرآنية الفعل الإلهي المطلق، والملك المطلق لله وحده، ليسقط معه كل ادعاء باطل للفاعلية أو الخلق، أو الملك لغير الله. وإن كل عناصر القصة هي مفعول بها ومنفعلة، فهي خاضعة لفاعلية وعلم الله، خضوع عناصر الكون كله له وحده سبحانه وتعالى. ولا جواب للكافرين في ذلك اليوم المشهود، حين تحل اللعنة والخزي على الذين أنكروا الخالق، وكذبوا بيوم الدين. فهم لوحدهم الذين يتحملون نتيجة اختيار الكفر عن الإيمان، والضلال عن الهداية، واللوم كل اللوم يقع على عاتق كل واحد مسؤول عن نفسه .

¹ سورة الكهف : الآية 29 .

² سورة لقمان : الآية 34 .

³ والتر إيزاكسون : المرجع السابق . ص 401 .

⁴ سورة غافر : الآية 16 .

وإذا بحثنا الدلالة الزمانية في قصص الأنبياء المتكررة، نجدها عاملا أساسيا في الجانب العقدي من جهة، وفي تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى. وإنما " أصبح المسلم مضطراً إلى أن يتناول في صورة أخرى بوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي والموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طرقاً للتحليل الباطن"¹. ومنتفق مع الكاتب على هذا الاتجاه، لأنه يصل بنا إلى استخلاص الحكم من القصص القرآني، والذي هو لب الدراسة القرآنية وجوهرها. إن قصة نوح - عليه السلام - في سورة العنكبوت التي أحصت المدة الزمنية بعدد السنين، وعلى الرغم من طول المدة، إلا أن عدد الآيات في السورة كان آيتين. " وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٤ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ١٥"². " ههنا للمرة الأولى تتحدد مدة المحذوف ... فإن قوله تعالى - فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ - يدل بوضوح على ما كان منهم في هذه المدة الطويلة من ظلم أوجب أخذهم بالطوفان. إنه ليس حذفاً بقدر ما هو إيجاز"³ وكان حركة سير سرد القصص القرآني حركة طردية، كلما امتدت كتلة زمان الأحداث طويلاً، تقلصت مساحة السرد إيجازاً وتكثيفاً. فإذا كان النقد يرى أن " روايتنا المعاصرة تزداد بساطة كل يوم نتيجة كراهيتنا للحبكات المعقدة الزائفة، يكفيك صفحة من حياة الإنسان لإثارة الاهتمام، وتحريك العواطف العميقة الذاتية"⁴. فقصّة نوح تصبح نموذج عبرة، من هذا الجانب، بل تيسر لنا معرفة سر طبيعة الإيمان وحرية الاختيار لدى الإنسان. وقد " كان من أهداف القرآن الكريم أن يثير قضايا الحياة أمام الإنسان بطريقة نموذجية، ليشرع معها بالوضوح الذي يجسد الفكرة ... وكانت القصة من أفضل الأساليب تحقيقاً لهذا الهدف، مما تتيح من عرض الفكرة، بعيداً عن التجريد في إطار حركة الأشخاص داخل الفكرة"⁵. وبهذا يكون السرد القرآني قد انتهج أسلوب الوضوح والبيان والتيسير، لا الإطالة والتعقيد والغموض، وبيان مدلول توظيف الزمن في القصة القرآنية، وتفردتها عن كل فضاء سردي .

يقول الله تعالى في سورة نوح: " إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْوِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى

¹ مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص 67 .

² سورة العنكبوت : الآيتان 14 . 15 .

³ محمد مشرف خضر : بلاغة السرد في القرآن الكريم ، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه ، جامعة طنطا . ص 90 ، 91 .

⁴ أ أمندولا : المرجع السابق ، ص 60 .

⁵ محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن ، الجزء الثاني ، دار المنصوري للنشر ، الجزائر . ص 17 .

أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩¹. وهذا استثناء دلالي متميز عن بقية ما جاء في قصص الأنبياء الآخرين : هود وصالح وشعيب ولوط - عليهم السلام - فالدعوة التي استغرقت تلك المدة الاستثنائية، بليلاتها وأيامها، بشهورها وسنواتها، واستحالت السنوات قرونا، بقي فيها النبي نوح - عليه السلام - مواصلاً الدعوة لقومه، دون كلل أو ملل، مستعملاً معهم كل أساليب الدعوة - ليلًا نهارًا، سراً وعلانية - ابتغاء تبليغ رسالة ربه، وحرصاً على إيمان القوم المتعنتين .

لكن مقابل دعوة نوح المديدة مع الصبر الطويل، كان إصرار أكثر قومه على الكفر بالله " قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ٢٢ وَقَالُوا لَا تَنْزِرْ آيَاتِنَا إِلَّا تَنْزِيرًا وَمَا نُنزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَنبَاءٍ مُّبِينَةٍ ٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٤². لقد تشبثوا بالهتهم المنحوتة والمزعومة. وكذلك في سورة هود يتضح موقف القوم المقابل، والمستغرق للمدة الزمانية المديدة " قَالُوا يَبْنَؤُا قَدَّ جِدَانِنَا فَأَكْثَرْت جِدَانِنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣٢³. وبعد " أن ملوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذي أنذرهم به، وقد استنبطوا مجيء هذا العذاب "4. إنهم يريدون حسم الجدل الذي طال أمده، لكن الأمر ليس بيد نوح - عليه السلام - فلما بدأ في صناعة السفينة بأمر من الله تعالى، وأغلقت قائمة المؤمنين، انقلب القوم ساخرين منه على امتداد زمن عملية الصنع " وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨⁵. إن تتابع هذه المراحل بداية من زمن الدعوة إلى زمن صناعة السفينة، يشعرا بحقيقة ثقل المهمة التي ألقيت على عاتق هذا النبي الكريم، الذي ظل صابرا محتسبا متوكلا على الله تعالى، وكم سيكون العذاب مفاجئا لقوم غافلين معاندين .

¹ سورة نوح : الآيات 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9 .

² سورة نوح : الآيات 21، 22، 23، 24 .

³ سورة هود : الآية 32 .

⁴ الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد الحادي عشر . ص 6540 .

⁵ سورة هود : الآية 38 .

إن هذا التقابل في الموقف والرد المتبادل بين النبي وقومه، الذي استعرضته القصة القرآنية، هو الذي يشير للدلالة الزمانية التي كرست هذه الإستثنائية في قصة نوح - عليه السلام - دون بقية إخوانه من الأنبياء الذين جاءوا بعده. وهذا ما يجعلنا نركز على تتبع الإستثناءات الواردة في قصص الأنبياء المذكورين ضمن السورة الواحدة. وبالتالي يحسم الله تعالى الموقف، بالعذاب الذي تقرر في علمه سبحانه وتعالى، لتختتم الدعوة المديدة بعدد المؤمنين القليل. يقول تعالى: " وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا تَبْنَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ٣٧ "1. ليكون تفصيل مدة زمن دعوة نوح - عليه السلام - تفصيلا استثنائيا، دلالة على قضية الإيمان الذي لا يستطيع أي نبي أن يفرضه على القوم، ولو استنفذ جميع وسائل الدعوة، واستغرقت دعوته مئات السنين مستمرة دون انقطاع " حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠ "2. وهكذا فلم تنتج المدة الزمانية التي استغرقتها الدعوة إلا عددا قليلا من المؤمنين. وتُصنع السفينة بوحى من الله عز وجل، وتستغرق صناعتها مدة من الزمن أيضا. ونحن نقف متسائلين كم استغرقت مدة الصناعة، ومدة عملية الجمع من كل زوجين اثنين؟ إننا نقف أمام الزمن وأهميته، بل الأهم من ذلك كله، هو مصير ونهاية الكافرين، ومعجزة نجات المؤمنين المحمولين في السفينة، وسط هذا الطوفان الكاسح العارم الذي لا يبقي ولا يذر .

إن الدلالات الزمانية قد تتابعت وتكررت، لتجمع بين موقفين : موقف نوح - عليه السلام - وموقف قومه المصرين على الكفر والتكذيب. دل عليها توظيف الألفاظ : - كلما ، فسوف، أكثرت، حتى - " ولذلك جاء ب 'سوف' لتدل على أوسع مدى زمني "3. لقد تقرر موعد عذاب القوم بالطوفان، واتضح مصير كل فريق وفق ما اختار لنفسه. فالمدة الزمانية قد قسمت مراحلها بأوامر من الله تعالى، وبما قام به نبيه نوح - عليه السلام - ابتداء من الأمر بالإنذار، إلى غاية الأمر بركوب السفينة ، فأنت متتالية : - أن أُنذر، واصنع الفلك، احمل فيها، اركبوا فيها - قد جُمعت هذه المراحل كلها في مدة ألف سنة إلا خمسين عاما. وكل أمر إلهي لنوح - عليه السلام - قطع شوطا زمانيا

1 سورة هود : الأيتان 36 . 37 .

2 سورة هود : الآية 40 .

3 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد الحادي عشر . ص 6468 .

محصيا ومحددا في علم الله، وما على نوح النبي، إلا الطاعة والتنفيذ، دون الالتفات إلى عامل الزمن .

ونلاحظ أن قصة الطوفان في سفر التكوين سجلت تفصيلا لبعض من الأزمنة " لأنني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة "1. ونحن نتساءل عن من كان السارد لأحداث القصة، والناجون كانوا داخل الفلك؟. إن ذكر المدة الزمنية، وعرض مشهد هذه الحادثة، لا يمكن أن يكون مصدره، إلا من خارج المكان والزمان. فمن قام بتصوير تلك المشاهد؟ بل من كان يوجه السفينة، وهي وسط موج كالجبال؟. هنا تتجلى طلاقة القدرة الإلهية " وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١ "2. لقد انتهت أوامر الله لنبيه نوح - عليه السلام - لما تمت عملية الركوب. إن " هذه الحفنة - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون، وأن يجري لها الطوفان الذي يغمر كل شيء، وكل حي في المعمور وقتها من الأرض، وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها الاستخلاف من جديد "3. وفي وسط هذا المشهد الطوفاني تتجلى طلاقة قدرة الله تعالى، ونجاة عباده المؤمنين عبر كل زمان وفي كل مكان. فهو المسير والموجه للسفينة، وهو المتصرف في الطوفان بداية ونهاية .

هنا أيضا يفترق القصص القرآني مع قصص العهد القديم . ذلك " أن الهدف التاريخي لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية، كالهدف القصصي سواء. فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني "4. كما تبتعد القصة القرآنية عن أي سرد أسطوري تناول حادثة الطوفان. إننا نجد في قصة العهد القديم أيضا، غياب الإله الرب وحيرة نوح - عليه السلام - في التأكد من نهاية الطوفان " فكشف نوح الغطاء في الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف "5. في حين أن القصة القرآنية كما بدأت بالأوامر وإشراف تام من الله تعالى، جاءت كذلك بالأمر بالهبوط عند نهاية الطوفان : " قِيلَ يُنوحُ اهْبِطْ بِسَلْمٍ مِّنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ أُمَّةٍ مِّن مَّن مَّعَكَ وَأُمَّةٍ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ

1 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح السابع ، الفقرة 4 .

2 سورة هود : الآية 41 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1892 .

4 سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم . ص 162 .

5 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثامن ، الفقرة 13 .

٤٨ "١. بعد زمن الهبوط، تُفتح صفحة زمن التمتع مستقبلاً وفق سنن الله الثابتة. لقد غطى الخطاب مراحل الزمن المستقبلية والمتبقية من بعد الطوفان، إلى حين النهاية، وستشهد بعض الأمم المتعاقبة عذاباً من الله بسبب كفرها، وخروجها على نهج الرسل والدين الحق. هذا هو تاريخ الإنسانية، وتاريخ العقيدة الذي بقي خطأ واحداً لا تغيير فيه، ولا تبديل، وهو عبادة الله الواحد الأحد، وعودة الناس إليه ليعثهم يوم القيامة لا ريب فيه .

لقد أكدت قصة نوح القرآنية سنة الله الثابتة في علمه، وجعلت حداً لكل سرد يعرض قصة تاريخ العقيدة بالتعدد لينتهي بالتوحيد. " كَانِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢١٣ "٢. وعن ابن عباس قال: " كان بين نوح و آدم عليهما السلام - عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق، فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين "٣. وهذا عكس ما تعرضه الأساطير والخرافات من صراع الآلهة، فكانت " هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً، وإلا التوحيد عقيدة، وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم، انحرفت عن التوحيد .. ربما للثنائية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة "٤. وعكس ما يعرضه نص سفر التكوين، بندم الرب الإله على خلق الإنسان، وإغراق الأرض بالطوفان. وهذا لا يتماشى مع حكمة الله وعدله المطلق " فَكَلَّمْنَا بَدْنِيَّةً فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ "٥. ولهذا تبيين القصة القرآنية أن " عقاب الله عادل، وأنه لا يأخذ القوم إلا بعد الإنذار، كالذي ورد في سورة العنكبوت، عقب قصص الأنبياء مجتمعة "٦. دون النظر إلى جنس أو لون أو نسب. هنا ترسم معالم القصة القرآنية عبر امتداد الزمن والتي تركز مقوماتها على عامل الإيمان والمصير الذي يأتي في المقام الأول، ليأتي بعد ذلك عامل الزمان والمكان .

١ سورة هود : الآية 48 .

٢ سورة البقرة : الآية 213 .

٣ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء الأول . ص 232 .

٤ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1885 .

٥ سورة العنكبوت : الآية 40 .

٦ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم . ص 169 .

ينظر النقد في مسألة الزمن إلى كل " فرد في القصة كما هو الحال في الحياة يحمل على عاتقه نظامه الخاص للزمن، بمعنى أوسع مما قصده آينشتاين، عندما وضع قوله المأثور فالبطل يصل إلى المكان الذي ضرب فيه الموعد في الوقت الكرونولوجي - الوقت الذي تحدده له الساعة، وهو نفسه عند جميع الناس - ثم ينتظر نافذ الصبر، مدة تبدو له سنين بالوقت السيكلولوجي - الوقت الذي تقدره ساعته الخاصة التي تقيس الزمن بقيمة وشدة وقعه "1. وربما اهتمت القصة القرآنية بالزمن النفسي - السيكلوجي - بعرضها لمواقف الأنبياء والرسل، والمؤمنين معهم، وسط البيئة المشتركة الضالة. وكما مرت بنا مدة دعوة نوح - عليه السلام - حيث يصبح الزمن هاجساً تمثل في سورة هود التي تلاقت فيها قصص الأنبياء المذكورين، لتؤدي وظيفة زمانية سيكلولوجية، سواء في طول مدة دعوة نوح - عليه السلام - كواقع وحقيقة، أو في تحدي قوم ثمود لنبيهم صالح - عليه السلام - حين عقروا الناقة، فذكرت المدة المتبقية من ميعاد العذاب " فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ٦٥ "2. هذه المدة الزمانية، ربما تعطي عذاباً نفسياً متصاعداً للقوم، فكل يوم يمر، إلا ويزداد الشعور بألم العذاب النفسي، تزامناً مع اقتراب زمن العذاب المادي. وكما أن الزمان جزء من العلاج، فكذلك هو جزء من العقاب النفسي

وفي قصة لوط - عليه السلام - حيث يبرز موقف قومه الراض لدعوته الخلقية، وما كانوا يقومون به من مسخ للطبيعة البشرية، أدى إلى اشتداد تأزم الوضع زمن حلول الضيوف " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ٧٧ "3. فالموقف يجسد قمة الضيق النفسي الشديد الذي ألم بالنبي لوط - عليه السلام - " تبدأ القصة مع مجيء الرسل إلى لوط - عليه السلام - في إيجاز يحمل الموقف النفسي لرسول الله "4. وهذا بسبب ما أراده قومه المسرفون من ضيفه، فتحول إلى يوم عصيب " أي يوم شديد، وإنما قيل عصيب، لأنه يعصب الإنسان بالشر "5. أنه يوم سيئ وفق إحساس لوط - عليه السلام - إلا أن الملائكة أعلموه بأمر العذاب وزمنه، وأمره بالخروج مع أهله ليلاً. " قَالُوا يُلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ

1 أ مندولا : الزمن والرواية . ص 39 .

2 سورة هود : الآية 65 .

3 سورة هود : الآية 77 .

4 محمد مشرف خصر : المرجع السابق . 97 .

5 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثاني عشر . ص 22 ، 23 .

أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُنَّ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ٨١" 1. لقد " تحدد الصبح لإهلاكهم لأنه وقت الدعة والهدوء، فيكون العذاب أشد نكالا "2. وعبارة - أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ - تحمل أيضا دلالة زمانية تختزل المسافة الباقية، لتخفف من شدة التوتر، لليوم العصيب، عند لوط - عليه السلام - .

كانت سورة هود، وهي تعرض علينا المواقف المتوترة، فتحسم طلاقة القدرة الإلهية الموقف، ليتم القضاء على الكافرين دفعة واحدة في عذاب مفاجئ لم يتوقعه أحد. وفي الوقت نفسه، طمأنة للرسول صلى الله عليه وسلم مستقبلا على مصير الدعوة، وهي في بداية زمنها. لهذا قال تعالى في نهاية سورة هود: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ١٢١ وَأَنْتَظِرُونَ ١٢٢ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣" 3. وهذا هو الموقف النفسي الذي أكده توظيف الزمن في سورة هود، وهذا هو منهج القرآن الكريم في تعامله مع الزمن حين اهتم بالجانب النفسي الذي يؤثر في الشعور النسبي للزمن، حسب الظروف والملابسات. لكن الإيمان بالله وحده والتوكل عليه سبحانه وتعالى يخلق اتزاناً في النفس المتوترة، واطمئناناً وثقة بطلاقة قدرة الله تعالى. فالنهاية تكون حتماً لصالح الإيمان والحق، وفق سنن الله تعالى. وقصص أنبياء الله في القرآن الكريم، هي قصة واحدة، في موضوع العقيدة والإيمان، ومصير الكفر والظلم، والله وحده منجي رسله والمؤمنين وناصرهم. " فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدِدَةَ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤٧" 4. إذن الزمن لا ينبغي أن يكون هاجس المؤمن بالله أبداً، مادام رب الزمان والمكان مع كل مؤمن، يهديه وينصره وينجيهِ .

إن عرض مشهد المواقف النفسية من قصص الرسل السابقين، ما هو إلا طمأنة وتثبيت لفؤاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم . وعامل الزمن النفسي أساسي في عملية القص هذه، ولا يقابله إلا الصبر والتوكل على الله تعالى، الذي يعود الأمر له وحده، وبيده كل شيء. وما على الفريقين - المشركون والمؤمنون - إلا الانتظار، فزمن المستقبل هو الفاصل، والعاقبة للمتقين. "

1 سورة هود : الآية 81 ;

2 الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المجلد الحادي عشر . ص 6582 .

3 سورة هود : الآيات 120 ، 121 ، 122 ، 123 .

4 سورة إبراهيم : الآية 47 .

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ١١٠

1. إن التوظيف الزمني هو الذي يوجهنا للوقوف على اختلاف الألفاظ حين تتردد القصة نفسها مع ذكر النبي نفسه. يتساءل الشيخ الغزالي: "هل القصص التي رواها القرآن الكريم متشابهة في سياقها وأحداثها وإفادتها؟ أعني هل هي لون من التكرار الذي يغني قليله عن كثير؟ والجواب لا، لكل قصة في موضعها إيراد مقصود، وأثر مغاير يحتاج إليه السامع لتكتمل به الحقيقة التاريخية والعناصر التربوية"². كان زعم المستشرقين هو الزعم نفسه الذي رده المتأثرون بهم. يقول الشيخ الغزالي: "قد دفعني إلى ذلك أن نفرأ من جهلة المستشرقين زعم أن هذه القصص متناقضة، وأحسب أن دعواهم عن قصور عقلي لا عن عدوان متعمد"³ و نعتقد بأن بحث الزمن في القصة القرآنية مع الالتزام بمنطوق النص هو الذي يقربنا من فهم الإشكالية الزمانية، والتي من خلالها نلمس مظاهر القدرة الإلهية التي تكشف عن إعجازية النص القرآني عامة، وقصصه خاصة. أما ما ظل يزعمه المستشرقون بادعائهم أن القصص القرآني متناقض، هو ليس نتيجة بحث ومقارنة وتحليل، وإنما هو أحكام جاهزة وسابقة تعكس بُعد الدراسة الاستشراقية، وحقيقة انحرافها عن خط البحث العلمي لا أكثر ولا أقل .

وفي قصة شعيب - عليه السلام - نجد أن السرد القرآني لم يذكر وعدا، ولم يُحدد موعدا للعذاب. يقول تعالى: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثِيمِينَ ٩٤"⁴. وهذا الاختلاف في الصياغة بين قول القرآن في لوط - فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا - وفي قوله في شعيب - وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا - يعطي دلالة زمانية معينة. لأن "الحق سبحانه قد حدد الموعد الذي ينزل فيه العذاب ... والفاء تقتضي التعقيب بسرعة وبدون مسافة زمانية"⁵. إذن فالتوظيف الزمني للقصص القرآني، يأخذ من اختلاف الصياغة، واستعمال الألفاظ المختلفة في مواقف متشابهة، وذلك كله للدلالة الزمانية التي يُستكشف تمظهرها من خلال الوقوف على هذه الاختلافات اللفظية ومعانيها. إن الدلالة الزمانية للألفاظ وتوظيفها في القصص القرآني، هي التي تكشف لنا جانبا من سر ظاهرة التكرار. والهدف من ذلك، قد أعلنته سورة هود " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ

¹ سورة يوسف : الآية 110 .

² الشيخ محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم . ص 101 .

³ المرجع نفسه . ص 101 .

⁴ سورة هود : الآية 94 .

⁵ الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المجلد الثاني عشر . ص 6632 .

مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠" 1. لأن سنن الله الثابتة تحتم مصيرا مشتركا للمؤمنين، يتمثل في نجاة الرسول والذين آمنوا معه، في الدنيا والآخرة، كما تفرض مصيرا مشتركا للكافرين، وهو إهلاكهم في الدنيا وتعذيبهم في الآخرة. يقول تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" 2. وهذا الحق الخاص بالله تعالى لن يؤخره أو يقدمه زمان، ولن يلغيه أو يمنعه أحد، مهما طالت مدة تكذيب الكافرين، أو تضافرت جهودهم للكيد لدعوة الإيمان .

إن " السنن الإلهية في الحياة الإنسانية عموما، وفي حياة الأمم خصوصا موضوع ضخم حجمه، بالغ الأهمية من حيث قيمته وخطره. فالسنن هي النظام الإلهي لحياة البشر، ومعرفتها تعني القدرة على تفسير التاريخ تفسيراً صحيحاً" 3. والبعيد عن فقه سنن الله تعالى في الحياة والكون، بعيد أيضا عن حقيقة استيعاب وحي الله، وميزة قصصه. ولن يصل إلى الإيمان برب الزمان والمكان، رب العالمين، كل ملحد خاضع لنظام الخلق والحياة، وفي الوقت نفسه ينكر خالق هذا النظام والحياة، معتقداً بالمصادفة والعبثية. لهذا بين أينشتاين سبب الفرق بينه، وبين الملحدين بقوله: "إن الشعور بالصنعة التامة أمام انسجام الكون بأسراره بعيدة المنال، هو الفارق بيني وبين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم الملحدين" 4. لهذا صعب على الملحد أن يؤمن بالوحي المنزل، وهذه نتيجة حتمية. أما مناقشة أحدهم لمسألة لا يعتقد هو بها أصلا، فإنه جهد ضائع منه. كمناقشة الملحدين للنص القرآني، فمنهج القرآن الكريم لا يتطلب منا إلا التدبر قبل الحكم.

قد أثارت صيغة الماضي الدال على المستقبل في النص القرآني، إشكالية لدى البعض ليقول: " فنقرأ العبارة القرآنية أحيانا، فنجد أنها تتحدث عن زمانيين مختلفين، وتبدو في ظاهرها متناقضة مثل - أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه - فالأمر قد أتى وحدث في الماضي، لكن الله يخاطب الناس بأن لا يستعجلوه، كما لو كان مستقبلا لم يحدث بعد" 5. لا بد أن تكون دراسة الزمن في القصة القرآنية وفق ما جاء به النص القرآني، وليس وفق رغبة الباحث. وقد نجد هذه " الدقة القرآنية مرة

1 سورة هود : الآية 120 .
* الأنجيل القانونية هي الكتب التي وافقت عليها الكنيسة على إثر اجتماع نيقية عام م ، وتضم الأنجيل الأربعة وهي إنجيل لوقا ، مرقس ، متى ، ويوحنا ، ورسائل بولس ، وأعمال الرسل
2 سورة الروم : الآية 47 .
3 د. حسن بن صالح الحميد : المرجع السابق . ص 478 .
4 والتر إيسراكون : المرجع السابق . ص 399 .
5 د. مصطفى محمود : لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد؟، مجلة العلم والإيمان ، العدد 32 ، السنة 1974 . ص 34 .

أخرى في تناول القرآن للزمن .. فالمستقبل يأتي ذكره على لسان الخالق على أنه ماضٍ. فأحداث يوم القيامة تَرِدُ كلها على أنها ماضٍ ... والسر في ذلك، إن كل الأحداث حاضرها ومستقبلها قد حدثت في علم الله، وليس عند الله زمن، يحجب عنه المستقبل، فهو سبحانه فوق الزمان والمكان "1. أما الذي لا يؤمن بقدسية الوحي، فهو يتناول زمن أحداث قصصه بمنظوره البشري الضيق والمحدود، فيخلق أمامه إشكالية يستحيل أن يجد لها حلاً. مادام يضع تفكيره المحدود، وتعامله البشري مع الزمن، شبيهاً بتعامل الله تعالى خالق الزمان، والمتصرف فيه .

توظف القصة القرآنية الزمن، كعامل نفسي يستخدم للعقاب ضد المتمردين على حكم الله وأوامره العليا، حين رفض بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة. قال تعالى: " قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٢٦ "2. فقد " ظلوا على هذا الوضع وفي هذا التيه إلى الأمد في الوقت الذي حدده الله، وهو أربعون سنة يتيهون في الأرض "3. ولكن الله تعالى برحمته الواسعة، وهو الذي جعل لهم الدنيا سجنًا وعقاباً، قد تكفل بإطعامهم. " وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧ "4. فحين " يؤدب الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يُبقي به حياته، ولو كان كافراً. لأنه سبحانه وتعالى هو الذي استدعاهم إلى الوجود "5. فسيشعر القوم بملل ويأس، فذلك " الإجراء الإلهي ضمن حكمه البالغة، أن يطيل عليهم الوقت، فلو سبحانه وتعالى جعلهم يزرعون ويحراثون، لانشغلوا بأمور الحياة اليومية، لكن الحق أراد أن يطيل عليهم الإحساس بالزمن. فالمسألة ليست طعاماً وشراباً، هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب ... إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً في فترة التيه "6. ويقول الشاعر جوته: " ما الذي يقصر لي الوقت ؟ النشاط ... ما الذي يجعل طوله غير محتمل ؟ الكسل "7. وقد عمدت السورة لذكر المدة مفصلة - أربعين سنة - فكان الزمن عقاباً نفسياً، وكذلك يصبح علاجاً نفسياً لجيل بني إسرائيل الناشئ في صحراء التيه .

1 المرجع نفسه . ص

2 سورة المائدة : الآية 26 .

3 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد السابع . ص 3065 .

4 سورة البقرة : الآية 57 .

5 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد السابع . ص 3065 .

6 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق . ص 3056 .

7 يوهان فون جوته : مختارات شعرية ونثرية، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 1999 ألمانيا. ص 148 .

إننا نجد تعامل القصة القرآنية مع الزمن، حين تفصل مدته، قاصدة من وراء ذلك بيان حكمة الله تعالى في خلقه، وكذلك لهدف عقدي، كما مر بنا في الفصل الثالث، أي في التقاطع الزمني، لتكشف بعدا عقديا، كزمن تقاطع ميقات موسى - عليه السلام - مع ميقات حج المسلمين، أو لتصحيح ما جاء في قصص العهد القديم. فقصة النبي زكريا - عليه السلام - وردت فيها تفصيل مدة امتناعه عن الكلام كآية لبداية الحمل " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَةُكَ أَنَّكَ تَكَلِّمُ النَّاسَ تَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ٤١ " 1. وقال في سورة مريم: " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَةُكَ أَنَّكَ تَكَلِّمُ النَّاسَ تَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ " 2. وهذه آية زمانية من الله جل جلاله تكريماً لنبيه زكريا - عليه السلام - إلا أن بعض المفسرين اعتقدوا أموراً تبتعد عن صفات الأنبياء المختارين - عليهم السلام - وهي شبيهة بمزاعم أهل الكتاب. حيث يرون أن امتناع زكريا عن الكلام هو عقاب إلهي لأنه لم يصدق وحي الله. وهذا الاعتقاد من جهة أهل الكتاب معروف أما أن يصدر عن مفسرين مسلمين فنراه خطأ في تقدير طلاقة قدرة الله تعالى، والبعد عن حقيقة استيعاب زمانية القصة القرآنية. وعن قتادة أن زكريا - عليه السلام - " عُوقِبَ بِذَلِكَ مِنْ حَيْثُ سَأَلَ الْآيَةَ بَعْدَ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ " 3. وهذا ما نجده في أسفار أهل الكتاب . " وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته " 4. ورؤيتنا لتفصيل هذه المدة كما ذكرنا، هو لتصحيح زعم أهل الكتاب .

جاء في النص أن زكريا امتنع عن الكلام طيلة مدة الحمل، ولم ينطق إلا بعد ميلاد ابنه يحيى بثمانية أيام، وهو زمن ختانه وفق عادة اليهود. " وفي اليوم الثامن جاؤوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا ... فطلب لوحا وكتب قائلا اسمه يحيى فتعجب الجميع * وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم " 5. لهذا رد القرآن الكريم بتفصيل هذه المدة بثلاثة أيام وكذلك ثلاثة ليال، مضيفا لفظة - سويا - حيث " اختلفوا في معنى (سويا) فقال بعضهم هو صفة الليلي، وقال أكثر المفسرين هو صفة لزكريا " 6. لكن الوحي يعلن على أنها آية من الله، حيث امتنع عن الكلام، ولكن اللسان لم

1 سورة آل عمران : الآية 41 .

2 سورة مريم : الآية 10 .

3 فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الواحد والعشرون . ص 44 .

4 العهد الجديد : إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ، الفقر 20 .

5 العهد الجديد : إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ، الفقرات 53 ، 63 ، 64 .

6 فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الواحد والعشرون . ص 191 .

يتمتع عن التسبيح. وهنا تتجلى القدرة الإلهية في حبس لسان النبي زكريا - عليه السلام - عن أمر الكلام، وانطلاقه في أمر التسبيح. إن العبارة بين - لا تكلم الناس وسبح الله - تبطل الاعتقاد بعقوبة الله لزكريا - تعالى الله عن ذلك - أو الاعتقاد بمرض أو عيب، وعلى التفسير أن يلتزم بحقيقة الأنبياء وصفاتهم تفاديا لكل انحراف. يقول الرازي: "وقعت هذه البشارة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة، فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق"¹. لهذا كان من الحكمة أن يُستفسر حول ذكر المدة الزمانية وتفصيلها، والحكمة من ذلك، لتقربنا من استيعاب حقيقة القصص القرآني، والوقوف عند تلك الاستثناءات التي جاءت في قصص دون أخرى، وردا على كل من توهم إهمال القرآن الكريم لعنصر الزمن ضمن قصصه. وبهذا يبطل كل ادعاء، وتظهر الحكمة من ذلك، وخاصة في قصص أنبياء بني إسرائيل، لأنهم ذكروا في أسفار أهل الكتاب التي سبقت نزول الوحي، وكان لها القرآن مصححا، وكاشفا تناقضاتهم وأباطيلهم التي نسبوها لأنبياء الله - عليهم السلام - ..

كما تجسد القصة القرآنية الحقيقة الزمانية والتاريخية عبر تاريخ العقيدة، وتاريخ البشرية، وعلى أرض الواقع بمكانها وزمانها، وأحداثها وشخصها. وهذا ما تجسد حقا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي سورة الفتح التي عرضت قصة فتح مكة العظيم، قال تعالى: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ٢٨"². وسجل التاريخ هذا الحدث الزماني والتاريخي العظيم. وشهد الواقع به، دون أي لبس أو غموض أو شك. وهي دلائل تحقق سنن الله تعالى، وتكرر قوله تعالى لهذه الآية في سورة الصف: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩"³. كما وردت في سورة الصف البشارة بمحمد على لسان عيسى - عليهما الصلاة والسلام -: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٦"⁴. فالزمن قد خضع لإرادة الله الفوقية ومشينته العليا التي تجاوزت كُره المشركين للدعوة، ورغبتهم في القضاء عليها، كاشفة تكذيب أهل الكتاب لهذه البشارة، وإخفاء نبئها. فتم الفتح كما

¹ المرجع نفسه . ص 190 .

² سورة الفتح : الآية 28 .

³ سورة الصف : الآية 9 .

⁴ سورة الصف : الآية 6 .

أعلن النص القرآني، وأصبح الزمن خاضعاً لأحداث الفتح، ولكل ما سطره الله في علمه السابق قبل زمن الفتح .

إن إرادة الله تعالى لا بد أن تنفذ، كما أرادها هو سبحانه وتعالى، وليس كما أرادها البشر وأصحاب المعتقدات الباطلة والأساطير. لذا يجب " ألا يغيب عنا أن كل السنن الإلهية متفقة في المصدر والخلق والتقدير، وفي الأهداف العامة. فمصدر السنن والقوانين التي تحكم الأشياء واحد، هو الله تبارك وتعالى، ومصدر الأشياء التي تطبق عليها تلك السنن واحد أيضاً، هو الله جل وعلا، فهو الذي خلق... وهي جميعاً تمثل مظهراً من مظاهر قدرة الله وحكمته، وعلمه وسائر أسمائه وصفاته "1. لكن قبل زمن مدة الفتح، مر النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته بمعانات شديدة، وخناق نفسي حاد، هدد حياة المؤمنين، حين تمت مقاطعة قريش ومحاصرتها لهم. إن سورة هود حين وظفت الزمن، وضعت أماناً عناد الكفار وتشبثهم بالباطل، ومحاولة مقاومة دعوة الأنبياء والرسول، والاستهزاء بهم والسخرية منهم. إن موقف الكفار المعارضين لمنهج الله تعالى، يجعل المدة الزمانية تمتد نفسياً وتطول، حتى ولو كانت قصيرة كرونولوجياً، مما ينتج ضيقاً لدى الرسول، واشتداد الأمر عليهم. وهذا كله بسبب العامل النفسي الذي يدفع باستعجال الأمور، وحسم الخلاف بأقصى سرعة زمانية ممكنة. " خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ۗ "2. وكأن الإنسان بنية زمانية، مما يجعل الناس يعيشون الزمن النفسي الذي أشارت إليه القصة القرآنية، واهتمت به في عرضها لأخبار الأقسام مع رسلهم، وعلى هذا الأساس بُنيت زمانية القصة القرآنية .

عن أبي إسحاق عن عكرمة قال : " قال أبو بكر - رضي الله عنه - سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شيبك ؟ قال : شيبنتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت "3. وفي اعتقادنا أن النبي النموذج الذي يجسد زمن الدعوة الخارق والنفسي في آن واحد، هو النبي نوح - عليه السلام - وقد انتهت قصته في سورة هود، بتوجيه أمر بالصبر للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول تعالى " فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعُقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ "4. ويتساءل الشيخ الغزالي : " ترى ماذا في هذه السورة ينبت الشيب ؟ ... كثرة التوجهات التي تمس شخص الرسول صلى الله

1 د. حسن بن صالح الحميد : المرجع السابق . ص 25 .

2 سورة الأنبياء : الآية 37 .

3 ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثاني . ص 919 .

4 سورة هود : الآية 49 .

عليه وسلم ، وتتناوله بضمير الخطاب المفرد بين الفينة والفينة، كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ¹. إلا أننا نرى أن سورة هود عكست الجانب النفسي للرسول، والرسول صلى الله عليه وسلم اختاره ربه ليكون رسولا للعالمين، فهو النموذج الأعلى في تحمل هذا العبء الثقيل، فلا بد أن يستعد لهذه المهمة الإلهية الجليلة. وإذا كان القرآن الكريم " يقارع أديانا فهو يذكرها ويصفها ويحتج عليها"². وإذا كان قد أنزله الله تعالى لهذه المهمة الجليلة والخطيرة، مصداقا لقوله تعالى: " إِنَّا سَأَلْنَا عَلِيَّكَ قَوْلًا تَقِيلاً ه"³، فكيف إذن يكون الوضع النفسي للمنزل عليه، وقد بدأت دعوته مع قلة من المستضعفين والمطاردين والمهجرين. فلا بد عليه أن يتحمل هذه المهمة العظيمة والخطيرة، وأن لا يتقاعس في تبليغ ما أنزل إليه من ربه. " يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۙ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ ۲ "4. لقد انتهى زمن الراحة والنوم، وبدأ زمن الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، ومقارعة قوى الشرك والباطل، التي لا يهدأ لها بال. ومن يدري ربما سيسلط الله على مشركي مكة عذابا من عنده يحققهم كما فعل بكفار الأمم السابقة. " أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوْءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۙ ۸ "5. إنه نبي هذه الأمة، ورسول للعالمين، وسيد المرسلين، وأعبد الناس، فكيف لا يكون مهتماً بأمر العقيدة ، وأمر هداية قومه ؟ بل أمر عذاب الله الذي لا يُرد ؟ . إلا أن الهداية والضلال متعلقان بمشيئة الله

إن سورة هود طمأنة للرسول صلى الله عليه وسلم خاصة، وللمؤمنين عامة بأن النصر قريب، وأن وعد الله حق. لهذا تتوجه السورة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد عرض قصص الرسل السابقين، لتبين أن هذا التكليف يحتاج إلى صبر طويل، وإلى دعوة مستمرة، لأن وعد الله آت يقينا. كما أنها تكشف على الضيق الذي كان يشعر به الرسول صلى الله عليه وسلم نتيجة إعراض المشركين عن الحق. يقول تعالى واصفاً ذلك الشعور: " فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۗ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۙ ۱۲ "6. فالمهمة التي اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم هي تبليغ الدعوة، وإنذار الناس. أما مسألة الإيمان

¹ الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، ص 167 .

² مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن . ص 158 .

³ سورة المزمل : الآية 5 .

⁴ سورة المدثر : الأيتان 1 ، 2 .

⁵ سورة فاطر : الآية 8 .

⁶ سورة هود : الآية 12 .

فمتروكة لمشیئة الله وعلمه، لا دخل لأي أحد في ذلك، حتى وإن كان من الرسل والأنبياء، وهم الصفة المختارة. ومن هنا يتبين أن القصة القرآنية توحد في زمن مشترك قصص أنبياء جسدوا في وحدة متكاملة مسار الدعوة، عاكسة الجانب النفسي لهم، ومدى صبرهم وتحملهم عناد وكفر أقوامهم، ليتحقق الزمن النفسي الذي يهتم به القصص القرآني، خدمة للرسالة التي كلف بتبليغها النبي صلى الله عليه وسلم. لن يقدر أحد أن يحبس عذاب الله، إذا تقرر بالمكان والزمان والقوم. ولهذا كان قوله تعالى لنبيه إبراهيم - عليه السلام - حين تمنى تأجيل العذاب لقوم لوط : " يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ "1. لقد حُسم الأمر مكانا وزمانا، وتقرر قضاء الله، فلا راد لقضائه سبحانه وتعالى، إلا هو " وكما أن هناك وعداً من الله غير مكذوب، فكذلك أيضا عذاب غير مردود "2. ليبقى كل أمر متعلقا بعلم ومشیئة الله تعالى وحده، وهو المتصرف في الأمور بالزمان والمكان، فلا تقديم ولا تأخير، ولا تعجيل ولا تأجيل " وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۚ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ۝ "3 ولا دخل لأي كان فيما قضى به الله تعالى، في علمه وبحكمته ومشیئته .

لن يتسامح القرآن الكريم في أمر العقيدة والألوهية أبدا، ليقف بقصصه عارضا للإشراف المطلق لله على عناصر القصص، دون أي تجاوز زمني لفعل وقول الله سبحانه وتعالى . هذا هو منهج القصة القرآنية في توظيفها للزمن، فمهما ظن المشركون أنهم انتصروا بقوتهم وعددهم، أو بجاههم وثروتهم، أو مكرهم وسطوتهم. " حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ ۝ ١١٠ "4. فتفاجئ قدرة الله ومشیئته الكافرين، ويباغتهم عذابه في اللحظة الزمانية التي قررها الله تعالى في سابق علمه " وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۚ "5. فالزمن لا يحدده إلا خالقه، ولا يُوظف في قصصه، إلا كما أراده هو سبحانه. وعلى هذا المبدأ أرادت لنا الحكمة الإلهية أن نستوعب القصص القرآني، وأن نستخلص العبر، بعيدا عن كل فرضية فلسفية، تؤمن بالعبثية، أو فكرة أسطورية تجعل من الخيال والخرافة

1 سورة هود : الآية 76 .

2 الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المجلد الثاني عشر . ص 6572 .

3 سورة الحجر : الأيتان 4 ، 5 .

4 سورة يوسف : الآية 110 .

5 سورة الأعراف : الآية 4 .

قصة لخلق الكون والإنسان، والصراع والعقاب والنجاة. " إن الرب الإله في الإسلام لا يطارده عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها، كما تصورها أساطير الإغريق، ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية، كما تزعم الأساطير المزورة في العهد القديم"¹. إن القصص القرآني بزمانيته وخطابه لا يسمح للعقل أن يتجه إلى أي فكرة تبتعد عن حقيقة الله الخالق الذي ليس كمثله شيء، وعن طلاقة قدرته وسعة علمه، كما لا يسمح لنا بأن نتجه في تفسيرنا اتجاه أصحاب الخيال والأوهام والأساطير .

إن توظيف الزمن النفسي في القصة القرآنية، ليس غرضاً فنيا لذاته، يُبذل فيه الجهد ليعطي طابعا مشوقا، ينتهي به الهدف إلى تسلية، تنتهي بانتهاء قراءة القصة مرة واحدة. إن تلاوة النص القرآني المتكررة، تجعل منه وحدة تتولد منها عملية تواصلية في كشف أسرار هذا القص، المتحرك شريط أحداثه في زمانية لا تنتهي مع لحظة نهاية الأحداث، أو استرجاعها من أغوار الماضي السحيق. بل يبقى القصص القرآني يلامس الحدث النفسي لدى المتلقي، ليستوعب عبراً وحكماً ضمن هذه الظاهرة الزمانية. " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ۚ ۲۱۴ " ². هذه الظاهرة الزمانية الآنية التي نعيشها تجعل التوتر يتصاعد، موهماً بقدرة الكفر والظلم، وانتصارهما على الإيمان والحق، فتدفعنا للاعتقاد بذلك، ملتفتين إلى لحظة الحاضر الزمنية، مع نسيان تصفح تاريخ دعوة الرسل، ومصير الكفار وعاقبة الطغاة، حتى نقف أمام قوله تعالى : " وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ " ³. فتضرب القدرة الإلهية الضربة الحق في نقطة زمانية غيبية وحاسمة ومفاجئة، فيتلاشى الكفر والعناد، وينتهي الظلم والبغي فجأة بهلاك أصحابه. إن العاقبة بالمصير والعمل، وليس في الشوط الزمني الموضوعي والتاريخي الذي تقطعه الأحداث، مهما بلغت المدة. فالسرد القرآني يجعل الزمن بعد الهدف، ولا يلتفت إليه إلا خدمة لحقيقة العقيدة، وإظهارا لطلاقة قدرة الله تعالى الخارجة عن الإطار الزمكاني .

¹ سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 24 .

² سورة البقرة : الآية 214 .

³ سورة الروم : الآية 47 .

فالمدة الزمانية لا يُلتفت إليها، إلا على أساس سنة الله الثابتة، وهذا ما أدى إلى عدم الالتفات إلى الزمن الموضوعي والتاريخي للأحداث، باعتبار أن القصص القرآني استوعب ، ويستوعب كل هذا الامتداد الزمني، كما ذكرنا سابقا. فقصّة تاريخ البشرية في القرآن الكريم تبدأ من - أَهْبَطُوا - إلى - وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَى حِينٍ - . لقد " حقق القصص القرآني غايات سامية في إطار ما صور من المواقف، وما تضمنه من معنى، وكان ذلك مثلا أعلى في عرض حقائق تاريخية، وفي الإشارة إلى معالم تاريخ البشرية "1. فالقصّة القرآنية وإن سردت أحداثا ارتبطت بزمن ومكان معينين، فهي تمتد عبر الفضاء الزمني مع البشرية منذ النشأة الأولى، بل تمتد إلى زمن خلق الكون. إن الإنسان " يمثل جزءا من تاريخ معين بدأ قبل ظهوره، ويمتد في ما بعده، ولا يمكن فهم تاريخ الإنسان، إلا في إطار تاريخ البشرية، بل بالأحرى تاريخ الكون "2. إن وعاء الزمن للقصص القرآني ليس لحظة واحدة سردت مرحلة بطل، أو أبطال ثم انتهت، فهذا شأن السرد الفني " إن عهود الملاحم كالأوديسة والإلياذة ليست هي العهود التي توجه فيها الشعوب طاقتها الاجتماعية نحو أهدافها الواقعية، سواء أكانت هذه الأهداف بعيدة أو قريبة. بل هي تصرف في مثل هذه العهود تسلية وإشباعا لخيالاتها "3. أما القصّة القرآنية فهي قصة الوجود والحياة والمصير بالزمان الموضوعي والتاريخي والغيبى والخارق، لا تتأثر بمرور الزمن، ليتناساها القراء ويتجاوزون حقيقتها بسبب روح الإبداع في عملية السرد من فنون جديدة مبتكرة. فالقصّة القرآنية تلامس روح العقيدة الحقة والأزلية ، وتجسد السنن الإلهية الخالدة التي لا تتغير بمرور الزمان، ولا بتلاحق الأجيال .

وإذا جننا إلى قصة النبي يونس - عليه السلام - نجدها تجسد المشهد التقابلي لفهم زمانية القصّة القرآنية، مقابل قصة نوح - عليه السلام - حين يترك يونس - عليه السلام - قومه غاضبا منهم، بسبب عدم استجابتهم لدعوته. " وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٨٧ "4. إلا أن قومه قد آمنوا جميعا، لما رأوا علامات العذاب، وكان هذا استثناء خاص بقوم يونس، قد لفت القرآن الكريم إليه الانتباه. يقول تعالى: " فَلَوْلَا

1 د . يوسف حسن نوفل : مفهوم القصّة القرآنية ، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد 4 ، ربيع الثاني 1415 . ص 80 .

2 هنري يولاد اليسوعي : الإنسان والكون والتطور ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الأولى 2000 . ص 8 .

3 مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل السقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الأولى 1979 دمشق. ص 21 .

4 سورة الأنبياء : الآية 87 .

كَانَتْ قَرِيَّةً ءَامَنَتْ فَفَعَّهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسِنُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَعَابَ الَّخِزْيِ فِي الَّحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ٩٨¹. ليؤكد القرآن الكريم أن قضية الإيمان لا دخل للبشر فيها، وأن مهمة الرسل هي الالتزام بتبليغ الدعوة. " فَهَلْ عَلَىٰ الرَّسُلِ إِلَّا الَّلْبُغُ الَّلْمِيْنُ"². وعلى الرغم من أن المدة الزمانية لدعوة النبي يونس كانت أقصر بكثير، من مدة أخيه نوح - عليهما السلام - إلا أن قومه قد آمنوا جميعاً، بدون استثناء، فرفع الله عنهم العذاب. إن النبي يونس - عليه السلام - استنبطاً زمن إيمان القوم، لكن هداية الناس أمر متعلق بمشيئة الله سبحانه وتعالى. ولم يكن النبي يونس - عليه السلام - يَعْلَمُ بِأَن قَوْمَهُ سَيُؤْمِنُونَ جميعاً، لِيَتِمَّ ذَلِكَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ - سبحانه وتعالى

إن القصة القرآنية هنا توقفنا عند علم الله المطلق، لتبين أن مهمة الرسل هي التبليغ فحسب، ولا شأن لهم بعامل الزمن، حتى وإن امتد إلى قرون. فهي تكشف عن الاستثناءات المميزة التي تجعل عنصر الزمن لا يؤثر في قضية الإيمان. وهذا ما أشارت إليه قصة يونس - عليه السلام - من ذكر عدد قومه، دون أقوام الأنبياء الآخرين. قال تعالى: " وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَاْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨"³. لا يوجد تصريح بعدد أي قوم في القرآن الكريم، سوى قوم يونس - عليه السلام - مما يجلي ظاهرة التقابل التي نستطيع من خلالها، أن نصل إلى الحكمة المقصودة، ليتضح أن إحصاء القوم هنا أصبح أهم من إحصاء مدة الزمن التي عاشها القوم، أو مكثها يونس - عليه السلام - وهذا يجلي أن ذكر أي لفظة في القصص القرآني أو عدد في الزمن أو الشخص، لا يكون إلا وفق حكمة مقصودة .

تعرض علينا سورة يس، قصة القوم الذين بعث الله لهم ثلاثة مرسلين، يقول تعالى " وَأَضْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ١٤ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥"⁴. لكن العدد المعزز بثلاثة رسل لم ينتج، إلا إيمان رجل واحد من القوم. " وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يُقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ٢١ وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ٢٣ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

¹ سورة يونس : الآية 98 .

² سورة النحل : الآية 35 .

³ سورة الصافات : الآيات 147 ، 148 .

⁴ سورة يس : الآيات 13 ، 14 ، 15 .

٢٤ إِيَّيَّ ءَامَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون ٢٥" ¹. وانتهت القصة بإهلاك القوم، بعد موت هذا المؤمن ونجاته من العذاب، ودخوله الجنة. " وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ٢٨ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خُمُودٌ ٢٩" ². وهنا نقف عند الحكمة من رد المرسلين على قومهم " قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ١٧" ³. هذه هي مهمة الرسل التي تنحصر في البلاغ وحسب، مهما طال زمن مدة الدعوة أو قصر، ومهما كان عدد المرسلين واحداً أو أكثر، ومهما كان عدد المؤمنين، كثيراً أو قليلاً، ومهما كان موقف القوم من الدعوة قبولاً أو رفضاً .

إن منهج القرآن الكريم في تناوله لإشكالية الزمن، وتوظيفه في قصصه، هو الذي جعل من القصة القرآنية ظاهرة متفردة تجاوزت بها حدود الزمن، وبقيت خالدة، تحكمها السنن الإلهية الثابتة، ولا تحكمها شروط الزمن. وعلياً أن نفهم تلك الإشكالية، وفق منهج القرآن الواضح، والبعيد عن التعقيد والغموض. وبمعنى آخر، فالله الذي خلق الزمن، هو الذي يوظفه في قصصه، وفق مشيئته وقدرته وعلمه هو، وليس وفق رغبة البشر المخلوقين. والقصة القرآنية باستراتيجيتها السردية هي انتصار ضد الزمن، إنها تستوعب كل هذا الحيز الزمني لقصة الوجود والكون، والإنسان والمصير. فالرواية " التي هي جزء من خط الزمان المفتوح ... غالباً ما تكون متفتحة على أزمنة مضت قبلها، وأخرى ستأتي بعدها، إنها جزء من حركة الزمن وأحداثه " ⁴. فكل الروايات وإن جُمعت، فهي لا تمثل سوى جزء ضئيل من الامتداد الزمني، الذي تمت عملية استيعابه من طرف القصة القرآنية. فأين محل هذا الرأي النقدي من القصة القرآنية؟ إنه يعكس رأياً خاضعاً لزمن وفن معينين. ومن هنا كان بالإمكان " الإقرار بأهمية وجهة النظر في إصباح سمات زمنية تتعلق بالثبات والحركة على النص السردى القصصي من حيث طبيعته ورؤيته، وخطابه ولغته " ⁵. فالسارد في حياته وعمله السردى، يكون خاضعاً للزمان، لا يقدر أن يتحرر منه أبداً .

إن استراتيجية القصة القرآنية ما جاءت في عرض مكانها وزمانها وأحداثها وشخصياتها وخطابها، إلا لتجسد عقيدة التوحيد، ومؤكدة يوم البعث، مصرحة ببيان واضح وبلغ، إن الله هو الواحد الأحد الصمد " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عُلِّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ

¹ سورة يس : الآيات 20 ، 21 ، 22 .

² سورة يس : الآيتان 28 ، 29 .

³ سورة يس : الآيتان 16 ، 17 .

⁴ هيثم الحاج علي : المرجع السابق . ص 53

⁵ المرجع نفسه . ص 54

إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤" 1. فالنص القرآني إذ ينزه الله عز وجل، فلكي يمنع أي صفة لا تليق بجلاله أن تلتصق في ذهن المتلقي لقصص القرآن، ليقف المتلقي موقف المؤمن بما قصه الله تعالى، وخاصة على المستوى الخارق والغيبى. " قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِمَا كُنْتُ عَلَيْكُمْ إِلَّا هُوَ يُحْكُمُ الْإِنسَانَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٥٧" 2 ليبقى النص القرآني وقصصه ضمن هذه الإستراتيجية التي تتحدث عن صاحبه بصفة التنزيه المطلق، والكمال المطلق، والوحدانية المتفردة، بأن لا إله إلا هو، وحده لا شريك له.

فالقصة القرآنية في مختلف مشاهدتها، سواء مع الأفراد أو الجماعات، وفي مختلف محاورها ومواضيعها، كلها تلتقي عند حقيقة الله الواحد الأحد، تنزيها وتقديسا، وتمجيذا وتسبيحا ولا نعرف نصا في الأولين والآخرين، تكرر ذكر صاحبه في كل عبارة من الخطاب، سواء باسمه أو صفته، أو جاء بضمير المتكلم بصيغة المفرد والجمع، أو بضمير الغائب، إلا في النص القرآني " فكلمة الله هي " الكلمة المركز العليا" 3. ولا نعرف ساردا لأي مسرود، كان فاعلا حقيقيا مؤثرا في الأحداث لا متأثرا بها، إلا في هذا القصص القرآني. ولا نعرف نصا قصصيا ، لامس الزمن الخارق والغيبى والنسبي، وكرسه في الواقع، حقيقة وواقعا، إلا في السرد القرآني. بل تحدى كل الناس، أن يغيروا من الظاهرة الزمانية لحظة واحدة. " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٧٢" 4. إن التحدي واضح المعالم، لا ينكره أيا كان، ولا أحد يستطيع أن يدعي إضافة لحظة زمانية، أو ذرة ضياء، أو ظلام لليل، أو ضوء لنهار. ولا نعرف سردا اهتم بقصة خلق الإنسان ومصيره، إلا في هذا القصص القرآني .

إن الإنسان هو الموضوع المحوري في القصة القرآنية " أما الإنسان فهو ذروة اللغز ، وهو المدار الذي يدور حوله القرآن بحكم الخطاب. والإنسان في القرآن مأمور بالعمل ومسؤول ومحاسب على أعماله" 5. فالقصة القرآنية تبقى بخطابها الخالد قصة، شخصيتها الرئيسية هي

1 سورة الحشر : الآيات 22 ، 23 ، 24 .

2 سورة الأنعام : الآية 57 .

3 توشيكو إيزوتسو : الله والإنسان . ص 76 .

4 سورة القصص : الآيتان 71 ، 72 .

5 هنري يولاد اليسوعي : المرجع السابق . ص 31 .

الإنسان، وشخصها هم البشر والملائكة والجن، وبمكانها هو الكون بأرضه وسماؤه، وبالعالم الغيبي، وبزمانها الممتد من بداية الخلق، إلى ما بعد فناء البشرية والكون، وأن تستمر في عالم الخلود. والقصة القرآنية بهذا الحجم الزمني، لا يمكن استيعابها، إلا إذا قمنا أيضاً بتحليل ظاهرة الارتداد فيها، والتي تفرض استدعاء الموسوعية المعرفية، واستعراض تاريخ العقيدة وتاريخ البشرية على حد سواء، حتى نتمكن من الوصول إلى الهدف الأسمى الذي رسمه منهج القرآن الكريم .

بهذا تكون القصة القرآنية قد وظفت الزمن لهدف عقدي، حرصت على التركيز عليه حين جعلت في أولويات الأولوية، قضية العقيدة، لتركز على الموقف والمصير. كما أنها وظفت الزمن النفسي لتعكس واقع الدعوة وما صاحبها من معانات وتوترات لأنبياء الله ورسله نتيجة مكابرة الكفار، ورفضهم دعوة التوحيد. وكذلك أن القصة القرآنية - وبإشارة رشيقة - قامت بعملية تقاطع زمني، كما مر بنا في قصتي النبيين موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - فتساوت مدة ميقات موسى - عليه السلام - مع مدة ميقات حج المسلمين، كما تساوت مدة مكوث موسى - عليه السلام - بمدين مع المدة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة بعد الهجرة، وكلاهما هاجرا خوفاً من القتل. ولهذا كانت سورة القصص تؤكد مصير الرسولين غيباً، حيث جاء فعل - رادوه أو رادك - في سورة القصص لفاعل واحد هو الله تعالى. ولهذه الحكمة فصلت هذه المدة من حياة موسى - عليه السلام - كما تذكرنا بما جاء في نصوص أهل الكتاب، بأنه سيُبعث رسول بعد موسى يكون مثل موسى. وجاءت القصة القرآنية أيضاً مصححة ما اعتقده أهل الكتاب. ووظفت القصة القرآنية إشارة زمنية رشيقة، صححت بها خطأ النصارى في تحديد ميلاد عيسى - عليه السلام - كما فصلت القصة القرآنية مدة الزمن الغيبي أو الخارق لتجلي طلاقة القدرة الإلهية، وإعجازية القصص القرآني. لهذا سارت القصة القرآنية مع الزمن وفق علم الله الواسع، وإرادته العليا، وحكمته البالغة، وليس كما اعتقده النقاد ونظروا له، أو كما توهمه المستشرقون والحداثيون وادعوه، ومن دار في فلكهم من التابعين العرب، أو كما زعم بعض المفسرين الذين أخطأوا التقدير وانحرفوا عن مبدأ التدبر. وكان من الواجب أن تتجه الدراسة القرآنية إلى استبيان الحكم وفق مبدأ التدبر والاعتبار والوقوف عند حدود النص.

وتستمر الظاهرة الزمانية في القصص القرآني لتدفع بالبحث في عملية الارتداد الزمني حيث تحتم علينا توقفا بعد أن نكون قد قطعنا مع أحداثها شوطاً، لتفرض علينا ارتداداً زمانياً يتطلب موسوعة معرفية تجعل الباحث دائماً يعلن أمام هذا القصص، إيمانه بأنه من عند الله تعالى. لهذا سنبحث في هذا المبحث الثاني ظاهرة الارتداد الزمني في القصة القرآنية لنبرز خصائصها التي تتفرد بها عن أي فن قصصي سابق أو لاحق، وهذا ما يؤكد إعجازية القصص القرآني .

ب - الارتداد الزمني في القصة القرآنية :

إذا كان توظيف عملية السرد للزمن يعتمد " في أساس رؤيته على الاسترجاع بما له من أوشاج ماضوية، فإنه على مستوى التقنية قد يستخدم أزماناً أخرى أهمها الحاضر، وإذا كان السرد التقليدي ... يعتمد في الأصل على الزمن الماضي، بوصفه مُطلقاً وإطاراً زمنياً للسرد، فإن الاتجاهات الحديثة في السرد، قد اعتمدت على آلية التنقل بين الأزمان "1. ونرى بأن " الزمنية السردية لا تطرد قدماً، ولكنها تسجل ارتداداً إلى الوراء وإلى الأمام "2. إلا أننا نريد أن نبحث هذه الظاهرة، من خلال ما يقدمه لنا القصص القرآني ، حين نتتبع عرضه للأحداث، فتستوقفنا القصة القرآنية بارتداداتها، وتفرض علينا استدعاء الموسوعة المعرفية، لترجع بنا إلى الوراء، وهذا ما نلمسه لدى المفسرين للقصص القرآني، من اختلاف في التفسيرات ليتوقف كل واحد منهم، عند دلالات وإشارات، تجعلهم يتفرقون، ويخوضون في مسائل مختلفة، وفق اجتهاد كل واحد منهم. وقد أشرنا سابقاً إلى أن الإشكالية الزمانية في القصة القرآنية كان يتوقف عندها دائما المفسرون والدارسون، مما يوضح أن توظيف تلك الدلالات كان متعمداً ومقصوداً، من أجل التدبر والاعتبار، مصداقاً لقوله تعالى " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا ۚ ۲٤ "3. والقلب المقفل كالفكر المقفل، لا يمكن له أن يتدبر كلام الله الحكيم، ولا آيات كونه المتقن .

إن ميزة الظاهرة الارتدادية في القصص القرآني، جعلتنا نلاحظ أنها تسجل ارتداداً إجبارياً، يرغم الدارس على اللجوء إلى الموسوعة المعرفية، وأن يعود عهوداً إلى الوراء، سائلاً سجل الإنسانية الحافل بتلك الأحداث التاريخية الماضية. ومادامت القصة القرآنية قد استوعبت

1 هيثم الحاج : المرجع السابق . ص 116

2 د . سليمان عشراي : المرجع السابق . ص 112 .

3 سورة محمد : الآية 24 .

تاريخ الوجود البشري، تكون قد أكدت على أن تاريخ العقيدة لم يمر بتطور، لأن الدين ليس فكرة بشرية تطورت عبر حقب التاريخ، بل هو فطرة الله التي فطر الناس عليها. " فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠

"1. فأراء " الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا، فهي ليست الكلمة النهائية"2. والارتدادات في القصة القرآنية تحيننا على أن عقيدة التوحيد هي دعوة كل الرسل والأنبياء، دعوة واحدة لعبادة الله الواحد الأحد. كما تسجل بعض الارتدادات اتجاهها نحو بحث مسائل تاريخية تختص بأهل الكتاب، وتتحداهم في نصوصهم التي يؤمنون بها، لتجعلهم وجها لوجه مع حقيقة هذه النصوص ومدى صدقيتها. وهذا ما وضحنا بعضا منه في الفصول السابقة، مبينين اختلاف القصص القرآني على قصص العهد القديم، وخاصة في حقيقة الألوهية والعقيدة وطبيعة المسيح - عليه السلام - .

لقد رأينا كيف يتحدى القرآن الكريم، ليعلن عن الحادثة التاريخية بكل إعجاز، وعن طريق دلالات وشفرات تسترعي انتباهنا وتلفت نظرنا. وقد " يجد التحليل السردى نفسه بين مطالب التاريخ في عرض الأحداث، وموقعها داخل الدفق الزمني، وبين مطالب الفن الذي يلتفت فيها إلى الكيفيات التي اختارها الله عز وجل بروايتها. فهي في امتلاكها ناصية التاريخ ، وانتشارها في عالم الفن القولي، تستمد من الحلقتين خصائصهما العامة"3. فالقرآن الكريم كتاب يختلف عن بقية الكتب الدينية، وقد ذكرنا بأن المقارنة بين نصوصه وبين نصوص تلك الكتب، هي الكفيل الوحيد الذي يُظهر حقيقة هذا الاختلاف البين. لذا نعتقد أن الباحثين الذين استشهدنا بأرائهم كأمثال عبد الأحد داود، محمد أسد، موريس بوكاي، جيفري لانغ، توماس كاريل، ومراد هوفمان، قد تمكنوا من الوصول إلى حقيقة النص المقدس بدراستهم المقارنة، وهذا ما نراه يتمشى مع روح العلم، والبحث الموضوعي. فالتعامل مع القصص القرآني، لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة مفيدة، إلا إذا التزمنا بالنص، وحاولنا أن نقارن بما جاء مماثلا ، لما في العهد القديم أو الجديد .

إن " القرآن لا يقص قصه إلا ليواجه بها حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا، إنه يتحرك حركة واقعية حية، وسط واقع حي. إنه لا يقر حقائق للنظر المجرد، ولا يقص قصصه

¹ سورة الروم : الآية 30

² سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1885 .

³ أ د . حبيب مونسي : التردد السردى في القرآن الكريم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010 . ص 65 .

لمجرد المتاع الفني "1. فالقصة القرآنية حين تستوقفنا بهذا الأسلوب، تجعلنا نعود إلى الوراء مراحل متأخرة من الزمن، لكي تذكرنا بمصير الأمم الماضية. و" خطاب السرد في القصة القرآنية يستقي درسه من هذه الدورة المفتوحة على التجدر، إنه حين يوقفنا على الماضي بأخطائه وأتاعبه يريد لأبطال القصة أن يستفيدوا من درسه أولاً لتأسيس الغد المنفتح أمامهم. كما يلتفت إلى القارئ ليقرأ في التحولات التي تابعها حقيقة المصير في ارتباطه بالسلوك الشخصي والعام "2 فهو لا يهمل المتلقي، ليؤكد الحكمة والهدف من القص، وهذه هي القضية الأساسية التي عملنا على توضيحها في الفصول السابقة. بل هي التي جعلتنا نعتبر أن النقد الأدبي لا يستطيع أن يتسع لدراسة القصة القرآنية، لأنه يبعدنا عن المقصد الرباني الذي أكدته الله تعالى في كتابه العزيز " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ "3. ولهذا ركزنا في دراستنا على الجانب الإعجازي والعقدي، ولم نكتف بما يُنظر له النقد، لأنه حبيس الفنون السردية البشرية .

هذه هي وجهتنا في الدراسة القرآنية، والتي نعتقد بأنها تتماشى مع الروح الإيمانية التي حددها لنا المنهج القرآني. الأمر الذي حاولنا أن نبينه في هذا المبحث بالنسبة لظاهرة الارتداد، والتي اعتبرناها ظاهرة مميزة، سارت مع كل قصة، ليتوقف عندها الدارس مجبراً مسجلاً عودة إلى الوراء، وهو يسائل النص والتاريخ، وتراث الإنسانية، ويبحث الموسوعة المعرفية، لعله يقترب من تفسير تلك الظاهرة واستيعابها. لكننا دائماً نبقى نسير وفق خطة القرآن الكريم ومقصده، من عرض العقيدة والألوهية والبعث، بمنهج منطقي وواقعي، في ثوب إعجازي لا يقدر عليه إلا الله الخالق، عالم الغيب والشهادة. فظاهرة الارتداد التي حاولنا - وفق رؤيتنا - أن نرصدها في القصص التي سندرسها، هي التي استوقفت المفسرين أيضاً، وجعلتهم يجتهدون ويختلفون في تفسيرها. وهنا يتبين لنا أن منهج القرآن الكريم في عملية السرد، يساير العقل والفكر والتاريخ الإنساني، ولا يريد أن يعرض سرداً لمجرد السرد، أي أنه يتجاوز الجانب الفني رغم أنه لم يهمله في قصصه، بل إنه باستعماله الألفاظ الدالة وبلاغة التعبير، وتوظيفه المكان والزمان كقيم جمالية، يُعطي بُعداً فنياً لقصصه، إلا أن هذا ليس موضوع بحثنا. كما أن توظيف القرآن الكريم للزمان يأتي بعد قضية الموقف والمصير من حيث الأولوية. وهذا ما حاولنا تأكيده في هذا البحث، عملاً بالمبدأ القرآني الذي

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الثامن . ص 1245 .

2 أ . د حبيب مونسى : المشهد السردى ، ص 257

3 سورة يوسف : الآية 111 .

يأمر بالتدبر لاستخلاص الحكم والعبر، الذي يقودنا للإيمان بوحداية الله ، كما يقودنا للإيمان بالبعث

إن القصة القرآنية بتوظيفها لتلك الظاهرة الارتدادية، تجعل استحالة تأليف قصة شبيهة بها، على الرغم من أن كثيراً من القصص والروايات ألفها ولا زال يؤلفها عدد من عمالقة الأدب والفكر. إذن فما هو السر من وراء ذلك؟ ولكي نستوعب المسألة بشكل واضح، لابد أن نبحث في قصص القرآن الكريم، ونتوقف عند تلك الدلالات التي تجبرنا على التوقف. ولا نريد أن نبحث مسائل لم يأت القرآن الكريم على ذكرها. بل رأينا من الحكمة أن دقة التعبير القرآني، واستعماله لبعض الألفاظ تسترعي الانتباه، وتفرض توقفاً عندها. ولهذا فذكرها هو حث على تدبرها، واستفزاز لكل مكذب. وعلى هذا الأساس، كان هدفنا هو بحث هذا الارتداد، ومحاولة فهم دلالاته، بما يناسب موضوع القصة، وما يتقاطع معها، مقدمين ما رآه بعض المفسرين والدارسين لقصص القرآن الكريم. وخاصة فإن بعض المسائل في قصص القرآن لا زالت تثير التساؤل المستمر، مما عقدت إشكالية استيعاب القصة القرآنية، في حين أن القرآن الكريم ميسر للتدبر، فمنهجه ليس فلسفياً، بل هو الحق، ومصدره الحق تبارك وتعالى .

ونبدأ بقصة آدم - عليه السلام - حيث نجد أن نقطة التوقف في هذه القصة، بعد عرض تفاصيلها وتردادها في سور القرآن الكريم، هي في قوله تعالى " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غٰفِلِينَ ۝ ١٧٢ "1. هنا نقطة التوقف والاختلاف والارتداد، حيث يفرض علينا هذا المشهد التوقف ليعيدنا إلى مرحلة، كثر حولها النقاش والاختلاف، وخاصة مسألة خلق ذرية آدم في عالم الذر " مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود "2. ومهما كان تصورنا لذلك العالم أو تلك المرحلة الغيبية السابقة، فلا نجد قدرة على أي عبارة تدل على هذه المرحلة، إلا الإيمان بها كما وردت. " وعلى أي حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كفاءاتها في غير حدود النصوص، لأن العقل لا سبيل له في هذا المجال

1 سورة الأعراف : الآية 172 .

2 سيد قطب: المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء التاسع . ص 1392 .

بحال من الأحوال "1. فيتوقف التفسير الذي نظن أنه كان يسير في اتجاه واحد، حول قصة آدم، من حيث، خلقه وسجود الملائكة له، وتعليمه، ومعصيته. لكن الأمر تغير في هذا المشهد، وليبدأ الاختلاف والاجتهاد، وتبقى دلالة هذا العبارة - مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ - دلالة زمانية لا يمكن أن نستوعبها في إطار النقد الأدبي، كما لا يمكن للعلم أن يصل إلى حقيقتها. فهل هي استفزاز وتحد في شكل إعجاز زمني؟ وما المقصود من ذلك؟ .

إن الآية تفرض ارتداداً يُملي اجتهاداً وبحثاً وتأملاً لا ينتهي. صارت " الآية حالة على أمرين : أحدهما صريح، وهو ما أفاده لفظها، وثانيهما مفهوم وهو فحوى الخطاب. وجاء في الآية أن الله أخذ على الذريات العهد بالإقرار بربوبية الله "2. وهنا يقف العقل أمام هذا المشهد، ومع معجزة الخلق، لتتجلى لنا طلاقة القدرة الإلهية، في أمر الخالقية " والكلام تمثيل حال من أحوال الغيب، من تسلط أمر التكوين الإلهي على ذوات الكائنات، وأعراضها عند إرادة تكوينها، لا تبلغ النفوس إلى تصورها بالكنه، لأنها وراء المعتاد المؤلف فيراد تقريبها بهذا التمثيل "3. يمكن لنا أن نقول بأن هذا الارتداد يعود بنا إلى سؤال إبراهيم - عليه السلام - حول كيفية إحياء الموتى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠ 4. وهذا يعود بنا إلى قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وجاءت القستان متتابعتين في سورة البقرة. فأراه الله كيف يعيد الحياة إلى العظام وهي رميم " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٥٩ 5. مشهذان بسؤال واحد، وجواب واحد، حول مسألة خطيرة ظلت مطروحة مع الإنسان، حتى مع أنبياء الله المختارين. إلا أن الله تعالى قدم لهم الجواب مشهداً عينياً بالزمان والمكان، كما قصه علينا في وحيه الخالد. لكن السر الذي احتفظ به الله تعالى لنفسه، هو عملية الخلق، ولهذا ستبقى عبارة - مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ - مسألة

1 المرجع نفسه ، الجزء الرابع عشر . ص 2141 د
2 الشيخ طاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، الجزء التاسع . ص 167 .
3 المرجع نفسه . ص 168 .
4 سورة البقرة : الآية 260 .
5 سورة البقرة : الآية 259 .

يصعب على التفسير أن يجد لها حلاً نهائياً، لأنها تعود بنا إلى مرحلة غيبية لازمنية، ولا يمكن أن تدركها عقولنا المحدودة. وهذا التقاطع في المشاهد والتناسق يجعلنا نقف عند سر الحياة والخلق، ليس باعتبارهما لغزاً، وإنما معجزة إلهية يعود سرها للخالق وحده. وهنا نصل إلى لحظة إيمانية تعكس حقيقة بشريتنا المخلوقة أمام عظمة خالقنا، لنقول وبكل تسليم - الله أعلم - وهذا ما يريده لنا وحي الله، بالوقوف أمام طلاقة قدرة الله، أمام تلك اللحظة الغيبية اللازمانيّة، حين أشهد كل الذرية على ربوبيته، ويبقى كل من الكيف والمكان والزمان مجهولاً لنا، لنقف عند حد طبيعتنا المحدودة، وعند حدود ما علمنا الله تعالى .

أما في قصة نوح - عليه السلام - فنرى اتجاه القصة يتوقف بنا في هذه الآية " وَقِيلَ يَا رَأْسُ أَبِ لَعِي مَاءِكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤٤ " 1. وكما مر بنا فإن القصة عرضت علينا أحداث الطوفان، من خلال مشهد ركوب المؤمنين، وحمل أزواج الطيور والبهائم، وجريان الفلك وسط أمواج كالجبال. وكل هذا يوحد وجهة التفسير، حتى توقفنا عبارة - وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ - فيكون الارتداد للبحث عن المكانية، عبر جغرافية المكان، والبحث عن الاسم العلم، لנסائل الجغرافيا والتاريخ، والنصوص الدينية السابقة. كما نبحت قصة الطوفان عبر ما سجلته ذاكرة البشرية في النصوص القديمة، إن أمكن ذلك. لنقف على الاختلاف حول مسميات مكان توقف السفينة. وكأن بتوقف حركة الفلك، وانتهاء القصة، كذلك يتوقف المتتبع للأحداث، ويتوقف التفسير، ليسأل عن دلالة هذا اللفظ، وموقعه الجغرافي وفق الاعتقاد بالمكان. وينبغي علينا أن ندرس هذه الظاهرة الارتدادية وفق منهج علمي ومعرفي، بعيد عن كل فرضيات واحتمالات، تبعداً عن المبدأ القرآني. لنصل إلى أن للقصة القرآنية، وحدة إعجازية تجعلها تتحدى كل معرفة إنسانية، أو سرد تاريخي في الزمن الماضي أو المستقبل، من خلال ما تقصده من دلالات، لا يمكن أن يمر عليها المتلقي لقصاص القرآن، دون أن تفرض عليه توقفاً، ثم تجبره على أن يسترجع أحداثاً تاريخية، وأن يبحث الموسوعة المعرفية، مع بذل جهد حقيقي لحل رموز وشفرات تلك الدلالات .

1 سورة هود : الآية 44 .

لقد وجد المفسرون إشكالية في معنى لفظة الجودي، ووفق السياق والمنطق، فالمعنى يشير إلى مكانية، بعد أن غيض الماء، كما عبر القرآن الكريم. لكن السؤال هو : هل هذه اللفظة تحمل اسماً علماً لمكان ما ؟ أم هو مدلول لغوي يدل على سطح الأرض، حيث جف الماء، واستوت السفينة عليه ؟. إن التوقف هنا لا بد أن يأخذ المفسرين إلى إمعان النظر في قضية المكانية، التي ارتبطت بنهاية الطوفان. والملاحظ أن لفظة جبل تكررت في السورة، حيث وصف القرآن الكريم قوة الموج وعلوه بالجبال. " وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ "1. كما رأى ابن نوح أن الاعتصام بجبل، هو النجاة من الطوفان. " قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ "2. وهذا المشهد يدل على قوة الموج، وقوة الطوفان الذي سيغطي قمم الجبال، بل إن حركة الماء تعاونت فيها السماء مع الأرض، فلا نجاة إلا لمن رحمه الله .

ربما ورود كلمة جبل في السورة، أوحى للبعض بالقول برسو السفينة على جبل واستدلوا على ذلك بلفظة الجودي كاسم له، ثم حددوا موقعه الجغرافي " والجودي اسم جبل بين العراق وأرمينيا، يقال له اليوم (أراراط) "3. ويقول ابن عاشور : " فالمعنى : واستوت السفينة على جبل بالجزيرة ، يقال له الجودي، وكان ذلك الجبل جبلاً منخفضاً . فكان استواء السفينة عليه دليلاً، على انقطاع مادة ذلك الماء، وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء "4. ونحن لا نريد أن نعطي المسألة أكثر مما قدمه القرآن الكريم لكلمة الجودي، فقد تركها دون أي توضيح لمكان، تصريحاً أو تلميحاً. وقصة الطوفان، قد جاء ذكرها في العهد القديم " واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط "5. إذن فكلمة (أراراط) التي جاءت في بعض التفسيرات، قد وردت بسفر التكوين. ومعنى " أراراط - العبري يعني : أرمينية نفسها، لأن سفر التكوين لم يُسم جبلاً بعينه ... وإنما قال ببساطة رست على جبال أرمينية "6 فعلى حسب قول الكاتب، أن لفظة (أراراط) اسم بلد، وليس اسم جبل. ولهذا وضح الكاتب خطأ المؤرخين واعتقادهم. فيقول : " لكن التسمية ثبتت وانتهى الأمر، نجدها في المعاجم الأوروبية علماً على جبل بعينه في أرمينية شرق

1 سورة هود : الآية 12 .

2 سورة هود : الآية 43 .

3 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثاني عشر . ص 79 .

4 الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء التاسع . ص 244 .

5 العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الثامن ، الفقرة 4 .

6 رؤوف أبو سعدة : المرجع السابق . ص 234 .

تركيا"¹. وهنا لا يسمح بالخوض في هذه المسائل، إلا التخصص اللغوي الذي باستطاعته أن يُظهر معنى اللفظ، كما يفرض علينا الالتزام بما جاء في النص .

فالقُرآن " يقول لك أن الماء غيظ أولاً ... استوت بعد أن غيظ الماء تماماً، حتى استوت السفينة على قاع من الأرض، هبط إليه نوح - عليه السلام - والذين معه بسلام "² فالقرآن الكريم لم يحدد معنى لفظ الجودي، والتي لم تُذكر إلا مرة واحدة في القرآن الكريم . وبالتالي يصل الكاتب إلى أن " الجودي الذي في الموصل، على ما ذكره مفسرو القرآن، فليس هو بالضرورة الجودي المعني في القرآن. بل الراجح عندي أنه جبل تسمى بهذا الاسم بعد نزول القرآن "³. إنها إشكالية زمانية لا بد من بحثها، عبر أماكن الجغرافيا، حيث تعود بنا إلى بحث تاريخ منطقة الموصل، وكذا تاريخ أرمينيا، وكلاهما مناطق جغرافية محددة المكان، وأن التسمية قد أصقت بالجليلين. لكن الكاتب بعد ذلك، حاول أن يبحث الجانب اللغوي، فقال: " والعرب يسمون شاطئ النهر وناحية الجبل الجُد، الجُدّة. ومنه اسم الميناء المعروف جُدّة، بالمملكة العربية السعودية "⁴. ليصل إلى القول: " إن صح ذلك، وهو غير بعيد، كان المعنى استوت على الجودي - والله بغيه أعلم - أن السفينة رست على مرساها، لا أكثر ولا أقل، دون تحديد موقع "⁵. ونحن نرى أن المفسرين قد اختلفوا، ولا زال الأمر كذلك .

لكن محاولة هذا الباحث لاستعماله الموسوعة اللغوية حيث رجع إلى المعجم العبري ليوضح معنى اللفظ العبري أراراط ، كما لجأ إلى المعجم العربي لتوضيح معنى لفظ الجودي . إلا أن عدم معرفة العبرية، يؤدي إلى صعوبة التدقيق، حين تفرض المقارنة اللغوية نفسها على الدارسين والمفسرين. وربما هذا هو الخطأ الذي يقع فيه كل منهم، حين لا تتم مقارنة بين قصص القرآن، وقصص العهد القديم. لكن عبارة - وَأَسْتَوَّتْ عَلَى الْجُودِيِّ - تبقى دائما محطة توقف إجبارية ترجعنا إلى البحث عن المعنى الدقيق لها، اعتقاداً من البعض أن سفينة نوح ستبقى آية. وقال قتادة " قد أبقى الله سفينة نوح - عليه السلام - على الجودي من أرض الجزيرة، عبرة وآية حتى رآها

¹ المرجع نفسه . ص 235 .

² المرجع نفسه . ص 36 .

³ المرجع نفسه . ص 235 .

⁴ رؤوف أبو سعدة : المرجع السابق . ص 236 .

⁵ المرجع نفسه . ص 236 .

أوائل هذه الأمة"¹. وكل هذا الأخذ والرد في مسألة السفينة ومكان رسوها، أدى بكل تلك الاختلافات بين المفسرين في تحديد المعنى القرآني لكلمة الجودي. وجاء في قاموس المحيط، وفي مادة جدد، أن الجودي " جبل بالجزيرة العربية استوت عليه سفينة نوح - عليه السلام - "². لكن كلمة الجودي لم تذكر إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، مما يجعل تحديد معناها غير محسوم. ولهذا ربما تعود بنا كلمة الجودي القرآنية إلى عملية حفر في الموسوعة اللغوية، وكذلك في الموسوعة التاريخية، ليبقى البحث متواصلًا. وعرضنا لهذه المسائل، كان استبياناً لظاهرة الارتداد في القصة القرآنية، بأن إشارة رشيقة كهذه، تفرض علينا توقفاً وارتداداً زمنياً وتاريخياً ولغوياً لاستيعاب المسألة، ولهذا تبقى اختلافات المفسرين متواصلة عبر امتداد الزمن .

وبالتالي فلماذا القرآن الكريم يتعمد تلك الإشارات ؟ فهل يجعل المتلقي متسائلاً، كما يجعل قصصه وجهاً لوجه مع قصص العهد القديم، وهو يخالفها بصريح اللفظ ، كما يوافقها في بعض منها ؟ إنه التحدي الذي يفرض على الدارس، أن يعيد النظر والبحث، مسترجعاً الذاكرة التاريخية والعقدية الخاصة بأهل الكتاب، وليتحدى علماء التوراة، ليظهرهم عاجزين، وليستفز كل المشككين والمكذابين، حين يعثرون، وبكل سهولة عن تلك الأسماء المخالفة لأسماء نصوص العهد القديم " إنما أراد عامداً متعمداً تحدي المتقولين عليه، أصحاب دعوى النقل والاقْتباس، فجابهم بما ينقض دعواهم. والقرآن ههنا يريد المخالفة لذاتها، لا يريد منها تأصيل منهج أو إثبات عقيدة، وإنما يأتي بها للدلالة على إعجازه فحسب "³. لكن قبل هذا، فالقرآن الكريم يقدم حقائق، ولا مجرد تقديم مخالفات لذاتها، بل هو مصحح لما في يد أهل الكتاب من أخبار واعتقادات .

لهذا فتعامل القرآن الكريم بهذا الأسلوب، نعتبره منهجاً ارتدادياً ذا ميزة متفردة في السرد القصصي، وهذا ما نراه كميزة للظاهرة الارتدادية في القصة القرآنية، حيث تفرض علينا محطات توقف إجبارية، للعودة بنا إلى الوراء لتتعامل مع الموسوعة التاريخية والعلمية واللغوية، والتي تتجاوز مجهود الشخص الواحد. إننا نشعر بعجز كبير أمام منظومة القرآن القصصية، كما نشعر بعظمة الخالق، أمام موسوعة المنظومة الكونية. وبالتالي نقف عند حدود طبيعتنا البشرية، لنستوعب

¹ ابن كثير : المرجع السابق ، الجزء الثاني . ص 928 .

² الفيروز آبادي : القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثامنة 2005 بيروت . ص 275 .

³ رؤوف أبو سعدة : المرجع السابق . ص 259 .

روح الإعجاز في القصص القرآني. كما أن تأليف قصة من قصص القرآن يستحيل أن يتأتى لبشر مهما كان، بل حتى وإن اجتمعوا لذلك. ولهذا فكلما تمت قراءتنا لقصة قرآنية استوقفنا محطاتها للمراجعة والبحث والحفر، ولتكون عودتنا استعراضاً لتاريخ الإنسانية وتاريخ العقيدة، وليس ارتداداً فنياً خالصاً. " وهكذا يرتاد القرآن بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان، يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون ... كله في لمحات لعلها تتذكر ولعلها تسمع للندير "1. وهذا ليس كما هو الشأن فيما يُنظر له ميدان النقد في فضاءات السرد القصصي والتاريخي. إن " السردية القرآنية ذاتها حدث زمني، من حيث نظام حركتها اللامحدود، فهي تلتفت وتستطرد، وتقطع وتوصل، وهي ليست أيضاً رياضية، إذ تعتمد معطى الغيبية في سياق الرؤية العقلية الشهودية "2. وبهذه الرؤية كانت نظرنا لزمانية القصة القرآنية، والتي تؤسس لتاريخ العقيدة، بداية من زمن الهبوط إلى الأرض، حتى نهاية الخلق .

فالقصة القرآنية، ونحن نعيش لحظة زمانية معها ضمن أحداثها، فإذ بها ترجعنا في مشهد خاطف إلى لحظة الخلق الأول، أو تعود بنا إلى الوراء مع بداية الوثنية والشرك، بداية بدعوة النبي نوح - عليه السلام - قومه لعبادة الله الواحد. فكانت " هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً، وإلا التوحيد عقيدة، وإنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم، انحرفت عن التوحيد .. ربما للثنائية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة "3. لتضعنا أمام خط إيماني واحد منذ زمن الهبوط، وأمام عقيدة واحدة دَعَا لها جميع رسل الله وأنبياءه. يقول تعالى في بداية سورة هود: " الرَّ كُنْتُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ٢ "4. هذه " الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها، أن يُعبد الله - جل وعلا - وحده، ولا يُشرك به في عبادته شيء "5. فحكمة إحكام آيات القرآن الكريم وتفصيلها، هي من أجل عبادة الله الواحد، وهذا هو الهدف الأسمى .

إن " هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أن الدين جاء وحيّاً من عند الله، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم، وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور، ولم يجئ بغير التوحيد في أية

1 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، الجزء الثامن . ص 1294 .

2 د. سليمان عشارتي : المرجع السابق . ص 216 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني عشر . ص 1885 .

4 سورة هود : الآيتان 1 ، 2 .

5 الإمام الشنقيطي : أضواء البيان . ص 239 .

فترة من فترات التاريخ، ولا في أي رسالة¹. لذلك فإن كانت وظيفة النقد التحليلية تبعدنا عن هذه الغاية الإيمانية، بما تقدمه لنا من نظريات أنتجت أفكار البشر ارتبطت بالأرض أكثر من السماء، فلا نظنها أبدا ستجلي لنا هذا الهدف الأسمى. والقصة القرآنية بتوظيفها لتلك الوقفات والارتدادات لا تريد منا إلا فتح العقل الإنساني، وليس العقل المادي القومي، وتريد منا الفطرة الإنسانية، وليس النزعة الجنسية العنصرية. فهي تريد منا أن نكون عبادا لله الواحد الخالق، وليس عبيد أصنام مادية منحوتة أو مخلوقة .

أما قصة مريم - عليها السلام - وهي التي سنتناولها بكثير من التفصيل، لأنها تتقاطع فيها عدة محطات في هذه الآية " يَاخْت هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۚ ۲۸ "2. ونقطة توقفها هي عبارة - يَاخْت هُرُونَ - والتي توقف عندها المفسرون كثيرا. فجد ميزة ذكر اسم الشخصية وعلاقتها بشخصية القصة المحورية، دون أي زيادة عن ذلك. لكن هذه المرة، قد أحدث ذكر الاسم إشكالية زمانية، ولا سيما أن هارون الذي يعرفه المسلمون بعيد زمانيا وتاريخيا عن مريم. مما حير المفسرين. أما المستشرقون فوجدوا في هذه العبارة مرتعا خصبا، فتح لهم شهية النقد والتطاول والتشكيك. يقول المستشرق مونتجمري: " يبدو أن خلطا ما حدث مع مريم أخت هارون وموسى، وقد حاول علماء المسلمون حل هذا الإشكال - والواقع أن الناس العاديين من أهل مكة كانوا وقت نزول القرآن يخلطون بين المرأتين (أم عيسى عليها السلام) من ناحية، وأخت هارون وموسى من ناحية أخرى "3. إن كل هذه الاختلافات والآراء تركزت حول مدلول الاسم الزمني والتاريخي، والذي كان قبل مريم - عليها السلام - بعدة قرون. لأن الذي أكثر الجدل في هذه القضية بالذات، واشترك فيها المستشرقون والعلمانيون والمفسرون، هو أن القصة تمس أهل الكتاب بالدرجة الأولى. لكن السؤال الذي يمكن طرحه هو: لماذا لم يذكر القرآن الكريم موسى بدل هارون - عليهما السلام - وتكون المسألة أوضح بكثير؟ . وكأن القصص القرآني كل ما سيرنا معه في جانب قصصي، إلا وفاجأنا بوقفة، لا نكون في انتظارها، فكأنها ومضة إعلانية يأخذ سحرها بالفكر، ليتوقف منتبها ومشدوها، فيتوقف الدارس عندها، متسائلا دائما، ما المقصود من ذلك؟ .

¹ سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع، الجزء الثاني عشر. ص 1885 .

² سورة مريم: الآية 28 .

³ مونتجمري وت: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998. ص 96 .

لقد نقل القرآن الكريم هذا الخطاب على ألسنة بني إسرائيل: " فَأَنْتَ بِهٖ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا قَالُوا يُمَرِّمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٧ يَاخْتِ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨ " ¹. وبنو إسرائيل هم قوم مريم، وهم أعرف بها، وبأسرتها وبنسبها، فلا ينبغي لهم أن يخطئوا النسب. وكان مثلا على القرآن الكريم أن يتجاوز عبارة - يَاخْتِ هُرُونَ - ويُبقي على اسم أبيها. لكن القرآن الكريم وفي كل مرة يأخذ بنا إلى بحث مسألة جديدة، وكأنه بهذا المنهج، لا يريد منا إلا أن نكون أكثر يقظة وانفتاحا على النص. وهو في نقل قول بني إسرائيل، ينقله دون زيادة وحذف، قاصدا من وراء ذلك إما تصحيحا لخطأ، أو إقامة حجة عليهم. وبالتالي فهو دائما يريد أن يتحداهم، وأن يفضح كذبهم وادعاءاتهم الباطلة. فهذه العبارة قد جاءت على لسان القوم، وهذه المسألة الأولى .

أما المسألة الثانية فهي، لماذا نسبوا الأخوة لهارون، ولم ينسبوا لموسى - عليهما السلام والمسألة الثالثة، هي لماذا جاء القرآن الكريم بهذه الأخوة؟ ولم لا يتجاوزها ويسكت عنها؟. إن هذه الأخوة قد صعبت من مهمة المفسرين من جهة، وفتحت باباً للمكذبين والمشككين من جهة أخرى. كما جعلت القارئ المسلم ينتبه إلى هذه القضية أكثر من القضايا التي سبق ذكرها في مبحثنا هذا، وربما لا يجد لها حلا. ولهذا لا بد لنا أن نتناول كل مسألة طرحناها بتحليل واضح ومفهوم، لا يبعدنا عن مقصد القرآن الكريم. إننا سنجد - ومنطقيا - أن السؤال سيتوجه للمسلمين، وليس لبني إسرائيل، بحكم أن عبارة - يَاخْتِ هُرُونَ - وجدت بالنص القرآني، وهذه حقيقة لا مفر منها. لكنها جاءت على لسان بني إسرائيل، وفق إيماننا بالقرآن الكريم، ولا بد أن نرى ما قال به بعض المفسرين .

يقول الرازي: " وأما هارون ففيه أربعة أقوال الأول : أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح ... والثاني : أنه أخو موسى - عليهما السلام - وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنما عنوا هارون النبي وكانت من أعقابه. والثالث : كان رجلا معلنا بالفسق فنسبت إليه ، بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة. والرابع : كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به " ². ويقول الشيخ ابن عاشور: " ويحتمل أن معنى - أخت هارون - أمها إحدى النساء من

¹ سورة مريم : الأيتان 27 ، 28 .

² الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الحادي والعشرون . ص 208 ، 209 .

ذرية هارون أخي موسى - عليهما السلام -¹. لكن إذا توقفت علاقة مريم بهارون، على أنها من ذريته، ولم يزد التفسير عن هذا، فما الفائدة من معرفة ذلك؟ إن المسألة لا نظنها قد تتوقف عند هذا الحد، ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو: ما المقصود من وراء هذه العلاقة الأخوية؟

إن عبارة - يَأَخَتْ هُرُونَ - القرآنية حتمت علينا أن نقوم بعملية استرجاعية في تاريخ بني إسرائيل، للوصول إلى المقصود من وراء ذلك. لذا فما دام الكلام جاء على لسانهم، فعلينا أن نبحث علاقة هارون النبي بقومه، ولا سيما أن القرآن الكريم قد أطلعنا على دوره مع أخيه موسى عليهما السلام - في الاشتراك في الدعوة. " وَفَدَّاءَاتَيْنَا مُوسَى الْكَتَبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هُرُونَ وَزِيْرًا ۝ ٣٥ " 2. كما نجد أن هارون قد استخلفه موسى على القوم، حين ذهب إلى ميقات ربه. يقول تعالى: " وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هُرُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝ ١٤٢ " 3. هنا سيظهر دور هارون عند غياب أخيه موسى - عليهما السلام - وهنا في مدة أربعين يوما، سيبقى لوحده مع القوم، يدعوهم إلى الحق، ويصلح من شأنهم. وهنا أيضا تتقاطع المدة الزمانية مع العهد القديم، لكن قصتي الاستخلاف - الكتابية والقرآنية - ودور هارون - عليه السلام - تختلفان. وهذا ما يجعلنا نسترجع أحداث القصتين كما جاءتا، ثم نبين ما المقصود من هذا الارتداد الذي فرضته علينا عبارة أخت هارون القرآنية .

لا بد أن نسترجع تاريخ بني إسرائيل العقدي، وماذا يمثل هارون في التقليد اليهودي فيجبنا على أن هارون النبي - عليه السلام - بقيت في ذريته الكهانة متسلسلة، فهارون من سبط لاوي " وهذه أسماء بني لاوي بحسب مواليدهم ... وأخذ عمرا م يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى " 4. وأن اختيارهم ووضع الكهانة فيهم يمنع على أفراد العائلة أن يرتكبوا أي سلوك غير خلقي، باعتبار أن الله تعالى اصطفاهم لهذه الوظيفة الدينية المقدسة بحفظ وصايا الرب، ومنها عبادة الله الواحد. وأن نسب مريم - عليها السلام - يعود إلى اللاويين، وقد شهد قومها لها بصلاح والديها، كما ذكره القرآن الكريم. لكن حيرتهم كانت منكبة على مريم وابنها، وهي كما عرفوها طاهرة عفيفة، يستحيل أن تقع في معصية كهذه .

1 الشيخ الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء السادس عشر . ص 96 .

2 سورة الفرقان : الآية 35 .

3 سورة الأعراف : الآية 142 .

4 العهد القديم : سفر الخروج ، الإصحاح السادس ، الفقرة 16 ، 20 .

إن أمر ارتكاب الفاحشة بعيد عن أفراد بني لاوي. وهذا لا تتم معرفته إلا بالاطلاع على التقليد اليهودي ومعتقداتهم. بالإضافة إلى أن نسب مريم - عليها السلام - يلتقي مع زوجة زكريا - عليه السلام - يقول إنجيل لوقا: " كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامراته من بنات هارون واسمها أليصابات "1. ثم يخاطب الملاك مريم قائلاً لها " وهو ذا أليصابات نسيبتك هي أيضا حبلى بابن في شيخوختها "2. إذن هناك نسب مشترك تلتقي فيه مريم وأليصابات بهارون. وهذا ما جاء في نصوصهم المقدسة التي يؤمنون بها. لكن ما هو المقصود من كل هذا ؟ إن قصة هارون - عليه السلام - في العهد القديم تكشف كذب بني إسرائيل وقولهم بهتاناً على نبيهم، حين استخلفه موسى - عليهما السلام - وذهب لميقات ربه . يقول سفر الخروج: " ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصدعنا أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه "3. وماذا سيكون موقف هارون وهو النبي المستخلف من هذا الشرك الصريح لقومه ؟ " فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وأتوني بها * فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون * فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكة فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدعتك من أرض مصر * فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال غدا عيد الرب "4. هذا هو نصهم المقدس ، الذي يؤمنون به .

إن نص سفر الخروج الذي يسرد قصة العجل، وردة بني إسرائيل يجعل أيضاً، وبكل وضوح من النبي هارون - عليه السلام - ناحتنا لصنم العجل، بل داعياً للشرك والكفر، وهو النبي المختار من الله - سبحانه وتعالى عما يصفون - بل أمراً قومهم بأن يعبدوا هذا العجل من دون الله وأكثر من ذلك، أن يجعل لهم يوماً يسميه عيد الرب لعبادة العجل. ويتم كل هذا في غياب موسى - عليه السلام - لكن الرب الإله يخبره بما فعله قومهم: " فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصدعته من أرض مصر * زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به صنعوا لهم عجلاً مسبوكة وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل "5. ولم يذكر الرب الإله هنا، أي

1 العهد الجديد : إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ، الفقرة 1 .

2 المرجع نفسه ، الفقرة 35 .

3 العهد القديم : سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والثلاثون ، الفقرة 1 .

4 المرجع نفسه ، الفقرات 2 ، 3 ، 4 ، 5 .

5 المرجع نفسه ، الفقرتان 7 ، 8 .

شيء عن هارون لا صانع عجل، ولا أمراً قومه بعبادته في هذا الخبر، رغم أنه - على حسب الرواية الكتابية - هو النبي المستخلف، وهو الذي صنع العجل، وهو الذي نادى وسطهم قائلاً : غدا عيد الرب. ولكن ما هي الحكمة من وراء كل هذا، وما علاقته بما جاء في قصة مريم القرآنية ؟

تعود بنا القصة إلى أسرة اللاويين، ووظيفتهم الكهنوتية التي حافظوا عليها، وهذا لم يكن لهم، لولا أن اختار الله هارون - عليه السلام - نبياً أولاً، وأنه حافظ على عهد الله ثانياً والمتمثل في عبادة الله وتوحيده، والتخلي بالأخلاق السامية، أخلاق الأنبياء والرسل. وجاء في دائرة المعارف الكتابية عن اسم لاوي " وهم سبط لاوي الابن الثالث ليعقوب من زوجته لينة ، وقد اختارهم الرب لخدمته بسبب موقفهم الشجاع في أمر العجل الذهبي "1. والقرآن الكريم لن يسكت عن هذه التهمة الشنيعة والباطلة، والتي كثيراً ما أَلصقتها نصوص العهد القديم بأنبياء الله المصطفين. وبالتالي فعبرة - يَأْخُذُ هُرُونَ - قد أرجعنا إلى زمن موسى وهارون - عليهما السلام - وحثنا على بحث هذه العلاقة الأخوية التي ظنها هؤلاء أنها زمانية، بل هي تاريخية روحية ، مما جعل وجهتنا أولاً، نصوص العهدين القديم والجديد، لعرض القصة وفق الرواية الكتابية، ومقارنتها بالقصة القرآنية التي جاءت في سورة طه " قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥ "2. هنا يصرح القرآن الكريم باسم المضل صانع العجل، وهو السامري، وليس هارون كما ادعى كتابهم المقدس. لقد أخبر الله تعالى نبيه موسى - عليه السلام - بذلك : " قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧ "3. وفي هذا المشهد الخطير عن عقيدة التوحيد لا بد أن يُذكر اسم المضل، وما قام به من فعل شنيع ، تصحيحاً لما جاء في نص العهد القديم، وتكذيباً لزعم بني إسرائيل، وتبرئة لهارون النبي - عليه السلام - . وبالتالي هذه الظاهرة الارتدادية هي إعجازية تختلف عما يتجه إليه النقد الأدبي، لأن القضية المحورية قبل أن تكون ارتداداً زمنياً، كانت ارتداداً عقدياً، يرسم خطأ ثابتاً لعقيدة التوحيد عبر تاريخ بني إسرائيل، وفعلاً شنيعاً للقوم، لمحاولة تبديل عبادة الله الواحد، بعبادة صنم عجل منحوت. والقستان الكتابية والقرآنية اتفقتا في قيام بني إسرائيل بعبادة العجل زمن غياب موسى، في استخلاف هارون - عليهما السلام

1 مجموعة من المؤلفين : دائرة المعارف الكتابية ، المجلد السابع ، دار الثقافة القاهرة . ص 14 .

2 سورة طه : الآية 85 .

3 سورة طه : الآية 87 .

- لكن القصة الكتابية افترت على النبي هارون - عليه السلام - بهتاناً عظيماً، لا يليق أبداً بشخص الأنبياء. لهذا قام القرآن الكريم، مصححاً الموقف الخطير، مسترجعاً قصة العجل لدى بني إسرائيل، لأنه لا يتسامح أبداً مع مواقف الشرك والكفر والبهتان على أنبيائه .

ذكرت القصة القرآنية اسم شخصيتين هما - هارون والسامري - وتم التعرف عن الثانية، بذكر الاسم مع الدور الضاللي الذي قامت به - وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ - . أما هارون فذكر بعلاقة الأخوة، مقروناً باسم مريم التي تبتعد عنه زمانياً. وهذا المنهج فرض على كل مفسر ودارس التوقف لتسجيل عملية استرجاعية عبر المراحل، التي مضت من تاريخ بني إسرائيل، حيث نجد أن القرآن الكريم، وبإشارة رشيقة واحدة استطاع من جهة، أن يستفز كل مكذب ومشكك، ويجعل احتجاجه في التكذيب مرتداً عليه، ومن جهة أخرى، يحث المتلقي المؤمن بأن يبحث ظاهرة الارتداد، للوقوف على الحكمة منها. وصولاً إلى حقيقة خبر صناعة العجل وعبادته، والتي هي ضلال وشرك، قام به شخص يُدعى السامري، وأن هارون - عليه السلام - يستحيل أن يقوم بهذا العمل الشنيع، ولا سيما وهو النبي المستخلف. كل هذا يرجعنا إلى عملية السرد القرآني في قصة موسى عليه السلام - مع قومه حين فتنهم السامري، وأضلهم بعبادة العجل الذهبي .

لكن المشهد يُستأنف مع موسى - عليه السلام - حيث تقرر عقاب القوم نتيجة تمردهم وعصيانهم، ليأتي السؤال المفتاح، ومن خلاله تتبين حقيقة قصة صانع العجل. ولذا فما دام قد نسب النص المقدس قصة العجل وصناعته إلى هارون النبي، فلماذا يُعاقب الشعب بالقتل ويُستثنى صانعه والداعي لعبادته، وينجو من عقوبة الموت؟ " فقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذيه ومروا وارجعوا من باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه * ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل "1 هذه هي الرواية الكتابية. أما القرآن الكريم فهدفه تصحيح كل خطأ يمس عقيدة التوحيد، كما يبطل كل كذب على الله تعالى وأنبيائه المصطفين. لذا يسرد علينا الوحي وقائع أحداث عودة موسى - عليه السلام - من ميقات ربه: " وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا قَالَ إِنِّي أَنَا قَاتِلُكُمْ وَمِن بَيْنِكُمْ فَكَذَّبُوا بِأُفْسُوسِكُمْ وَأَتَتْكُمُ الْغَمَامُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهَا لَن يَكُونُوا مَعَ الْكَافِرِينَ "2

1 العهد القديم : سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والثلاثون ، الفقرتان 27 ، 28 .

فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ¹. يرسم لنا هذا المشهد حالة شدة الغضب التي انتابت موسى - عليه السلام - حتى أنه ألقى الألواح التي كتبت فيها شريعة الله .

قام موسى بتعنيف أخيه هارون - عليهما السلام - تعنيفاً شديداً، على تقصيره في منع القوم من هذا العمل الشنيع، إنه موقف جد متوتر. لكن كل هذا التوتر كان نتيجة غضب موسى عليه السلام - من ردة قومه إلى الكفر بعد غيابه القصير، زمن الميقات، وهو موقف طهر وتبتل . ويرد الأخ متوسلاً من أخيه النبي - عليهما السلام - أن لا طاقة له على القوم حين استخلف عليهم فاستضعفوه وصمموا على الكفر، وأقبلوا على ذلك العجل، دون أن يستمعوا لنصيحته وتحذيره فالقرآن الكريم لا يتسامح إطلاقاً مع مواقف الشرك، والمس بالعقيدة، أو بالألوهية والكذب على أنبياء الله ورسله - عليهم السلام - فهارون يلح على أخيه موسى أن يخرج من دائرة الظالمين الذين تعاونوا كلهم في صناعة العجل وعبادته - وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - ولهذا فالأهم هو تبرئة النبي هارون - عليه السلام - من كل عمل يغضب الله تعالى. وكيف يليق بنبي اختاره الله عن علم، أن يسلك هذا السلوك الشنيع المخالف لأمر الله تعالى؟ ولفطرته التي فطر الناس عليها؟ وأمر أنبياءه ورسله بالدعوة لعبادته وحده سبحانه وتعالى عما يصفون. وقد عرف موسى بعد هدوئه من الغضب حقيقة المزل فاستغفر ربه له ولأخيه. " قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ² ١٥١. فالقصة القرآنية لا تترك غموضاً أو التباساً حول قضية العجل وبني إسرائيل، بل تُقرر عقاباً لهم في قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ³ ١٥٢. فسينال القوم جزاءهم وفاقاً، ويستثنى هارون من ذلك، وهذا دليل قاطع على براءته من ذلك العمل الشنيع، مما يجعل قصة العهد القديم محل شك وافتراء وتزوير، وتناقض مع حقيقة اللاويين المترفعين عن الضلال حسب التقليد اليهودي .

هنا نلمس هذا الإعجاز القرآني، لظاهرة الارتداد، حيث تكشف عدة أمور كانت مجهولة لم يكن يعلمها في هذه القصة، حتى أهل الكتاب أنفسهم، ويبين لنا أن اتهام القوم لمريم الطاهرة كان باطلاً، والدليل على بطلانه، هو الأسرة اللاوية التي بقي فيها أمر الكهانة. " فكانوا يقومون بخدماتهم

¹ سورة الأعراف : الآية 150 .

² سورة الأعراف : الآية 151 .

³ سورة الأعراف : الآية 152 .

تحت إشراف الكهنة من بني يعقوب¹. وعليه فهارون بريء من التهمة التي ذكرها النص الكتابي في قضية العجل، باعتراف النص الكتابي نفسه، وهذا ما يعرضه للشك والتناقض. أما بالنسبة للنصارى، فنص إنجيل لوقا، مذكور فيه اسم هارون، ونسبه قاسم مشترك - كما مر بنا - مع أليصابات ومريم. إنها عدة تقاطعات تستلزم عملية مقارنة وبحث وحفر، قبل أن يوجه أي اتهام للقصة القرآني. وربما هذه التقاطعات الموثقة في القصص القرآني هي التي تجعل من القصة القرآنية وحدة متكاملة وإعجازية، ساهمت في ظاهرة التكرار في القصص القرآني، حيث ظن البعض أنه مجرد تكرار، والجواب بكل بساطة، إن القرآن الكريم محكمة آياته ومفصلة من الله الحكيم العليم .

والمسألة شبيهة بالذي ينظر في نظام الكون الدقيق، ثم يقول بالمصادفة والعشوائية، وهو يعلم علم اليقين، إن المصادفة لن تقيم نظام ذرة واحدة، فضلا عن نظام آلاف المجرات. كذلك إن الأمية لن تخط حرفا واحدا، فضلا عن تأليف كتاب به منظومة قصصية، بارتدادات متنوعة ، تحتاج إلى بذل جهد كبير، وبحث مستفيض في موسوعية معرفية، لاستيعاب الظاهرة. إن ظاهرة الارتداد التي عرضناها وفق هذا الأسلوب، كان الهدف منها هو الوقوف على إعجازية القصة القرآنية، حين تتعامل مع الزمن كعنصر خلقه الله تعالى، وكمعجزة حين توظفه في مستوى الارتداد، بدلالات رشيقة تكفي واحدة منها، أن تؤدي إلى عدد من التقاطعات في مواقف سردية متنوعة، تتطلب بحثا مستفيضا، لا يهدف إلى تراجع زمني في حد ذاته، بقدر ما يهدف إلى استرجاع تاريخ العقيدة، وتصحيح كل قول يخالف دعوة التوحيد، ويناقض سلوك الرسل والأنبياء المصطفين. وربما " فسر لنا هذا الفارق سر تشظي السرد في القرآن الكريم، على النحو الذي نشهده في قصة موسى - عليه السلام - إذ ليس المراد رواية قصته، بقدر ما ينصرف المراد إلى غايات أخرى، تتصل بالدين الجديد في حركته نحو إنشاء المدنية الجديدة"². فأساس العملية السردية في القصة القرآنية هو عقيدة : أن لا إله إلا الله، الحقيقة الأزلية. لهذا لاحظنا أن القرآن الكريم لا يتسامح إطلاقا مع أي زيغ يمس عقيدة التوحيد، أو حقيقة الألوهية، وتنزيه الذات العليا.

¹ العهد القديم : سفر العدد ، الإصحاح التاسع عشر ، الفقرة 19 .
² أ د . حبيب مونسي : التردد السرد في القرآن الكريم . ص 70

فالله تعالى أكد إحكام آيات كتابه الكريم وتفصيلها وهو العليم الخبير. وآيات القرآن الكريم " جاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها، وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم، متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد ثم فصلت، فهي مقسمة وفق أغراضها مبوبة وفق موضوعاتها، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه"¹. ورؤيتنا لما يسميه النقد بالنتشطي كمصطلح، فهو في القرآن الكريم تفصيل مُحكم، توزع على مساحة القصة وفي فضاء النص، ليجعل خيوط نسيج القصة مشدودة بخيط مركزي، كلما حاولنا تناول أي خيط، أوصلنا إلى خيط الدين الحق. لهذا لا بد أن تسجل القصة القرآنية تلك المقاطع الارتدادية التي تُوقفنا، وتجعلنا نتساءل عن القصد من ذلك، وأن نبحت العلاقة الممكنة. لكن كل هذا التحليل يجعلنا، نقف أمام منظومة القصص القرآني على أنها منظومة إعجازية، ولن يستطيع أي أحد مهما بلغ، أن يقوم بتأليف قصة شبيهة بالقصة القرآنية، حتى ولو كانت قصيرة وموجزة. لأن منهج القصة القرآنية واستراتيجية سردها للأحداث، وربطها للعلاقة بين المواضيع، ضمن السورة الواحدة، يجلي إعجازيتها التي تعيدنا بدلالاتها الزمانية والتاريخية إلى مسافات موهلة في الماضي المتواري، وتوقفنا على تلك المراحل الغيبية التي لا طاقة للنقد أو العلم أن يقول كلمته فيها. إن الموسوعة المعرفية التي تتطلبها القصة القرآنية لاستيعابها بالشكل المقصود والهادف، لا بد أن تكون موسوعية ثرية، ومتنوعة بالعلوم والمعارف والحقائق. ولهذا فالزمن الذي تعيدنا إليه القصة القرآنية تارة هو مرحلة بداية الخلق في الماضي السحيق، وتارة يكون في تاريخ العقيدة والتوحيد، لترجعنا إلى تاريخ ظهور الشرك، بأنه بدعة وانحراف عن الفطرة السليمة، وأنه صناعة بشرية مضللة أملتها غواية الشيطان والخرافة والهوى على البشر، فتدفعنا للقيام بعملية حفر وبحث في معتقدات الشعوب وتاريخها، وفي النصوص الدينية والتراثية السابقة لزمان إقرأ .

تنتهي قصة موسى - عليه السلام - مع قومه، دون أن ينسى القرآن الكريم حادثة الردة التي أوقعها بهم السامري في غياب موسى واستخلاف هارون - عليهما السلام - " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا

¹ سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع، الجزء الثاني عشر. ص 1851.

يَأْمُرُكُمْ بِهَا إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩٣" 1. لتتوقف عند عبارة - وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْعَجَلْ - وهنا أيضا كان اختلاف المفسرين، وخاصة أن مسألة إشراب العجل، قد أثارها النص القرآني في سورة البقرة، وحاول المفسرون أن يفسروها تفسيراً بلاغياً للدلالة على شدة ارتباط القوم بالعجل " والإشراب هو جعلُ الشيء شارباً، واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء، وداخلاً فيه ووجه الشبه وشدة الاتصال ... وإنما جعل حبهم للعجل إشراباً لهم، للإشارة إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغَ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه "2. وهذا يدل على مبلغ العجل من قلوب القوم، ويقول الرازي في مسألة عملية الإشراب: " إن المراد من إشراب، أي زينه عندهم ودعاهم إليه، كالسامري وإبليس وشياطين الإنس والجن "3. إنها عملية يطول فيها الأخذ والرد، بين مسائل لغوية وعقلية. ولكن قضية العجل هي مسألة خاصة ببني إسرائيل، وقد جاء القرآن الكريم يقص عليهم أكثر الذي هم فيه يختلفون. وهذه إشارة إلى ماذا يقول كتابهم في قضية ردتهم؟ ومن قام بعملية إشرابهم العجل؟ وما المقصود بذلك؟ .

يتابع سفر الخروج قصة العجل " ثم أخذ (موسى) العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل * وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة "4. لازل النص الكتابي يستأنف اقتراءه على الأنبياء، فبعد هارون جاء الدور على موسى - عليهما السلام - ليقوم كما يذكر النص بسقى بني إسرائيل محلول العجل، كشراب شركي ليستقر في قلوب القوم استقراراً يمتزج بالدم. إنها وصفة شركية، ومحلول ضلالي عميق المعنى والدلالة، يعكس طبيعة بني إسرائيل وموقفهم العجيب من نبيهم. وإذا كان هذا هو عمل الأنبياء، فماذا سيكون عمل الكفرة؟ فلا لوم عليهم، ما دامت نخبة الإيمان - وفق الرواية الكتابية - تتصرف هذا التصرف الضال، لتشارك بالله الذي أرسلهم، وأمرهم أن يدعوا إلى عبادته وحده سبحانه وتعالى. وهل من المعقول والمنطق أن يقوم موسى - عليه السلام - بهذا العمل الشنيع - وهو منه بريء - وقد قام بتعنيف هارون أخيه على الفعل نفسه؟ .

إنها مفارقة عجيبة لا تُظهرها، إلا مقارنة بين القصتين، ولا نستوعب العبارة القرآنية - وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلْعَجَلْ - إلا عندما نقابلها بعبارة سفر الخروج - عندما أخذ موسى العجل وطحنه

1 سورة البقرة : الآية 93 .

2 الشيخ الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص 611 .

3 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء الثالث . ص 202 .

4 العهد القديم : سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والثلاثون ، الفقرتان 20 ، 21 .

حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل - فهل موسى النبي - عليه السلام - قام بعملية الإشراب؟ إننا نستطيع كشف تحريف أهل الكتاب وتزويرهم الشنيع لنصوص كتبهم، بفضل ظاهرة الارتداد في القصة القرآنية. ولو بقينا فقط في دائرة النقد والبلاغة، ما استطعنا أن نصل إلى مقصود تلك الارتدادات في القصة القرآنية، لأن حصرها في إطار البلاغة يكون غير مكتمل، وربما يبعدها عن قصدية القص الذي ما كان حديثاً يُفتري. الأمر الذي أدى بنا إلى متابعة قصص بني إسرائيل ضمن نصوصهم، لنتوقف أخيراً على حقيقة معنى - وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَل - وبعدها الدلالي، والتي تعكس طبيعة ونفسية بني إسرائيل، وما كتبه زورا وبهتانا على موسى وهارون - عليهما السلام - وهذه إشارة زمانية مستقبلية، تحذرننا من مكرهم وبهتانهم، وعدم محافظتهم على كلام الله الذي أنزل على موسى بألواح مكتوبة .

إن قصدية القصة القرآنية تتنوع وتتوزع عبر منظومة واسعة من المعرفية والعلمية والتاريخية، يصعب على الواحد أن يحيط بها، لأن محدودية الطبيعة البشرية، وعامل الزمن وممارسته على الإنسان ومراحل عمره، يؤكدان استحالة هذه الإحاطة التامة والشاملة، أن يكون مصدرها البشر الذين يخضعون لأحكام الزمن. ولهذا كان تناولنا لعملية الارتداد كظاهرة تكرر إعجازية القصة القرآنية، بعيدا عن كونها عملية فنية محضة. ومن أجل أن نفرق بين القصة الفنية والقصة القرآنية، وهذا ليس تكلفا، بل روح الإيمان، ومبدأ الدراسة القرآنية يفرضان علينا هذا الخط الدراسي. كما أن دراسة القصص القرآني لا ينبغي أن تكون مغامرة جري وراء المصطلحات النقدية، لتجعل من النص القرآني حقل تجارب خاضع لها. لكن العكس هو الأسلم. فكلام الله وأمره مقدم على كل كلام بشري. ولا يُعقل من عالم الكونيات مثلا أن يُخضع سنن الكون وقوانين الطبيعة، لتصوراته وافتراضاته الشخصية. بل إن كل هذه القوانين العلمية هي نتيجة عملية كشف بعد عملية فكر وبحث ودراسة لأسرار الكون .

ينبغي أن ندرس منهج القصص القرآني ونبحثه، لاستخلاص النظريات السردية، وفق خط العقيدة الصحيحة، والحقيقة الأزلية : لا إله إلا الله. أما ما يذكره النقد من تشظ كمصطلح في عملية السرد أو الزمن، فنراه مرهونا بنظرة هذا الإنسان إلى الكون، ومسألة الخلق والوجود، وربما نظرية الانفجار الكبير وتشظي أجرامه، هي التي كانت وراء هذا التنظير في النقد. فتنثر أجزاء النص شبيهة بتناثر أجزاء الكون الذي تم بالمصافة والعشوائية والفوضى، بعيدا عن حقيقة الخلق

وحكمة الخالق وعلمه، وهذا ما يرفضه الوحي ويدحضه. وحينما " يتهيأ لنا الوصول إلى نظرية قوية ثمينة في الكون، نجد فيها اعتقاداً قوياً ثميناً، هنالك فقط يكون في وسعنا إيجاد حضارة جديدة¹ ولهذا لا يستقيم مفهومنا للوجود والحياة، إلا إذا استقام مفهومنا للكون المخلوق والإيمان بخالقه ومنظمه. ولهذا يقول محمد إقبال: " جاءت نظرية أينشتاين برؤية جديدة عن الكون، وفتحت آفاقاً جديدة من النظر إلى المشكلات المشتركة بين الدين والفلسفة"². وهذا ما يُمكننا للوصول إلى معرفة الخالق، ولا يتم ذلك إلا من خلال خطاب خالق الكون وحده .

ونعود إلى قصة موسى - عليه السلام - مع قومه في مدة الميقات، إذ نتج عن ذلك موقفان متناقضان، كما ذكرنا في الفصل الثاني. موقف التبتل والطهر والعبادة، وتلقي الشريعة من الله تعالى مباشرة، يقابله موقف القوم المتناقض تماماً، والذي يمثل الردة والتمرد والكفر، وعبادة الوثن والشرك بالله تعالى، وكلا الموقفين تما مدة أربعين يوماً زمن الميقات. هذه المدة الزمانية التي تَدنس فيها بنو إسرائيل بالكفر والشرك، وتحولوا من الإيمان بالله الواحد وعبادته، إلى عبادة الذهب والوثن. قد جعلها الله تعالى مدة زمن حج المسلمين بيته الحرام، وفي يوم عرفة، يُعاد الزمان والمكان والتاريخ والحدث، لكنها عودة إلى التوحيد الصافي، والإيمان بالله وحده لا شريك له. تُعاد ذكرى إبراهيم - عليه السلام - في عمله التوحيدي، ووصيته لبنيه بالتوحيد، وتُعاد ذكرى يعقوب - عليه السلام - ودعوته التوحيدية، ووصيته لبنيه بالتوحيد، وتُعاد ذكرى موسى - عليه السلام - لميقات ربه وإنزال الشريعة، متلازمة مع ذكرى بني إسرائيل في سلوكهم المخالف لوصية الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - اسمع يا إسرائيل إلهنا رب واحد - . فنقضوا عهد الله تعالى زمن الميقات، رغم وصايا آبائهم الذين يعتزون بهم ويفخرون بالانتساب إليهم. فالآباء ما عرفوا يوماً إلا الله الواحد، وما عبدوا يوماً إلا الله الواحد، وما دعوا يوماً إلا لعبادة الله الواحد لا شريك له .

إن الحج هو حركة انتقال الميقات مكاناً وزماناً، ليبقى الظاهرة الوحيدة المستمرة بالزمان والمكان والحدث، كارتداد لقصة العقيدة السماوية التي سارت بخط توحيدى، منذ آدم إلى محمد، وأكدها إبراهيم - على جميعهم السلام - لتبقى عهداً محفوظاً لدى ذريته. " يبدو أن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم يقف ما بين العالم القديم، وبين العالم الحديث، فهو من ناحية مصدر الرسالة،

¹ د . محمد السباعي : من روائع حضارتنا ، دار الوراق للنشر ، الطبعة الأولى 1999 ، السعودية . ص 38 .
² محمد إقبال : تجديد الفكر الديني . ص 23 .

يُعتبر مُنتمياً للعالم القديم، أما من ناحية روح رسالته فيُعتبر مُنتمياً إلى العالم الحديث¹. وهكذا كان مدى استيعابنا لظاهرة الارتداد الزمني في القصص القرآني، ولهذا أيضاً تكررت قصة موسى - عليه السلام - أكثر من قصص الأنبياء الآخرين - عليهم السلام - . فالقصة القرآنية بتوظيفها الزمن بمختلف مستوياته، لم تهتم بعرض تفاصيل الزمن الموضوعي أو التاريخي، ولم يكن توظيفها لعملية الارتداد توظيفاً فنياً خالصاً، كما هو عند الكتاب والمبدعين. إن توظيف الزمن في القصص القرآني لا بد أن يقدم دلالات عقديّة تُبقي خط عقيدة التوحيد سائراً على المدى الزمني مع تاريخ البشرية منذ آدم. كما أن القصة القرآنية لم تكتف بهذا التوظيف الزمني الموضوعي والتاريخي، ولكنها تناولت مرحلة الماقبل والمابعد، والتي نعتبرها مرحلة لازمانية. وهنا نصل إلى المستوى الأقصى للإعجاز، حيث يستحيل على السرد الفني والتاريخي أن يتناول مرحلة اللازم، أو يخرج سارده عن إطار الزمكانية .

إن قصة المعراج - وهي معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الزمانية - قد حدثت بداية زمن الدعوة، وكانت مسبقة بحادثة الإسراء التي تناولناها في الفصل الثاني. فأحداث قصة المعراج لم يتم تفصيلها في القرآن الكريم، وإنما فصل أحداثها الرسول صلى الله عليه وسلم وحفظت لنا كتب السيرة أخبارها. إن أحداثها هي ارتداد يوقفنا، لأنها تمت في عالم الغيب، وبوحدة زمانية غير وحدتنا الأرضية، وقد كثر فيها الأخذ والرد، وعن نوعية الرحلة هل كانت روحية أم جسدية؟ . وهنا لا يهمنا ما جاء على لسان الكفار والمستشرقين والعلمانيين، لأن طبيعتهم معروفة وعنادهم معلوم. ولكن ما جاء على لسان من يعلن إيمانه بالله ووحيه، وبالبعث والخلود. لقد وضحنا أن مسألة دراسة الزمن في النص القرآني، ستبقى إشكالية أو لغزاً محيراً، وبعيدة عن عملية الاستيعاب، ما لم يكن إيماننا ثابتاً، وراسخاً بحقيقة الألوهية، وبطلاقة قدرة وعلم الله تعالى، وبالتنزيه التام الذي لا يشوبه أي نقص لذات الله العليا، حيث يقطع كل شك مع قوله تعالى: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ١١ "2، وقوله " كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ "3. وهذا التقابل هو الذي يؤكد انتفاء الشبئية على ذات الله العليا، وأن ما عداه فهو شيء مخلوق محدود بالزمان والمكان، ومعرض للحياة والموت

1 التهامي نفرة : المرجع السابق . ص 207 .

2 سورة الشورى : الآية 11 .

3 سورة القصص : الآية 88 .

فالمبدأ الإيماني الذي يفرض علينا أن نلتزم حدودنا في تعاملنا مع النص القرآني، مؤمنين بطلاقة القدرة الإلهية. ونحن إذ قدمنا هذا التمهيد بالنسبة لقصة المعراج، فلكي يتضح مبدأنا في تناول هذه المعجزة الزمانية، لأن الذي يتعسر عليه استيعاب إشكالية الزمن في القصة الأرضية، فمستحيل عليه أن يستوعب هذه القصة، والتي هي معجزة أولاً، وغيبية ثانياً تمت بعالم الغيب. ولهذا ذكرنا سابقاً أن قصة الإسراء كانت تمهيداً لقصة المعراج المعجزة. والذين أكثروا الحديث عن معجزة الإسراء على أنها عملية تمت بالروح أو بالرؤية، هم الذين لم يستوعبوا طلاقة القدرة الإلهية، وكأنهم بهذا الاعتقاد، حاولوا أن يقوموا بمساعدة الله - تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً - لاكتمال صورة المعجزة لدى عقول الناس. فهم يشككون في حقيقة الألوهية، ولن يؤمنوا أبداً بقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "1. والتي تكررت في آيات الوحي، وقدرته سبحانه، مربوطة بحكمته وعلمه. فقصة المعراج ترجعنا إلى الوراء، كما تدفع بنا إلى الأمام. أما إلى الوراء، فإنها قد وقعت في بداية الدعوة، بل عندما شددت قريش الخناق على الرسول صلى الله عليه وسلم وظن المشركون أن الرسول صلى الله عليه وسلم بات مطارداً، دون حماية أو سند، والمسلمون أقلية مضطهدة، ومستضعفون في وسط وثني متجبر، تنكر لعقيدهم، كما ضن عليهم بحق الحياة معه، إلا تحت الوثنية والشرك والضلال. وكأن المكان أصبح ضيقاً، وضائق الأرض بما رحبت، وكأن الزمان قد طال أمده في انتصار الحق على الباطل. ففي هذه الظروف الزمكانية المتوترة، تأتي معجزة المعراج الزمانية، ليخرق الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حجب غيب الزمان والمكان، ويريه من آياته الكبرى، ما لم ير أحداً من عباده .

يقول تعالى: " وَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ ۚ ۱۳ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ ۱۴ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۚ ۱۵ "2. إن قصة المعراج كلها غيب، فهي معجزة زمانية وقف منها بعض المفسرين موقفاً لا يتطابق مع مبدأ الإيمان واليقين، بل يعكس أثر النزعة العقلية، وتحكيم العقل في الأمور الغيبية التي رأينا أن العلم يقف صامتاً أمامها. وإسناد عملية الغيب إلى العقل، هو تجاوز العقل وظيفته الطبيعية. وهذا لا يعني إطلاقاً ربط الغيب بالمسائل الغربية، حتى لا يقع تداخل معقد لدمج الغيب والخارق مع الأسطورة. أما الذي يسعى إليه كثير من الحدائثيين الذين لا يؤمنون بالوحي إطلاقاً، هو ربط العلاقة بين الغيب

1 سورة القرة : الآية 20 .

2 سورة النجم : الآيات 13 ، 14 ، 15 .

وبين كل غريب وكل خرافة، لإصاق الأسطورة بالدين. لكن إيماننا بالمعجزة قد سبقه إيماننا بالوحي الذي يسبقه الإيمان بالله تعالى. أما المعجزة إن كان مصدرها وحي الله تعالى، فيكون الإيمان بها فرضاً دينياً، وإلا دخل الشك وانتهت النتيجة بالكفر. أما كل غريب ومخالف للطبيعة، وجاء خارج دائرة القرآن الكريم والحديث الصحيح، فهو مردود مرفوض، ولا يشكل أي خطر على رده أو رفضه. وأما ارتداد قصة المعراج إلى الأمام فهو في زمن الغيب حيث أرى الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم من آياته الكبرى، والتي فصلتها السنة النبوية. يقول ابن عباس: "لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم - من آيات ربه الكبرى - من عجائب ربه الكبرى أي العظمى"¹. وجاء في كتاب روح المعاني: "فقد رأى - عليه الصلاة والسلام - آيات كبرى ليلة المعراج لا تحصى ولا تكاد تستقصى"² وهذا ما سيحدث في عالم الغيب والخلود، أي عند قيام الساعة. وبالتالي فمعجزة المعراج معجزة زمانية ومكانية تعكس هذا الارتداد المعجز الذي لا يقدر على تحقيقه إلا رب الزمان والمكان، كما لا يتحقق إلا لرسول الله خاتم النبيين والمرسلين، ولا يأتي إلا في خطاب من وحي الله تعالى، أو بحديث رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم. وكل ما جاء خارج دائرة الوحي والسنة الصحيحة فلا يعتد به على الإطلاق .

فإذا تناولنا القصص القرآني الذي استرجع أبناء الأمم السابقة مع رسلهم، من نوح إلى شعيب - عليهم السلام - والتي تكررت قصصهم في ارتدادات متشابهة في بعض السور، كسورة الأعراف، ويونس، وهود، نجد الغرض الديني هو الذي أدى إلى هذا التكرار، فنشأ "من خضوع القصة لهذه الأغراض، أن يعرض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان بدين واحد، والإنسانية المكذبة بهذا الدين الواحد ... ذلك أن عرض هذا الشريط يخيل للمتأمل أنه نبي واحد، وأنها إنسانية واحدة على تطاول الأزمان والأماد"³. هذا كله من أجل الإبقاء على خط العقيدة خطأ واحداً وهو عبادة الله الواحد، ونفي الشرك عنه، لتسقط كل مقولة تدعي غير ذلك، مهما كان مصدرها. وهذا هو مبدأ القصص القرآني، قبل أن يكون عرضاً زمانياً وتاريخياً للأحداث .

¹ ابن عباس : تنوير المقياس من تفسير بن عباس ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت 1992 . ص 446 .

² الألوسي : روح المعاني ، الجزء السابع والعشرون ، ص 52 .

³ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم . ص 101 .

ونصل ربما إلى إشكالية الإشكاليات الزمانية، كمبحث أخير لهذا البحث، حيث رأينا أن القصة القرآنية باستيعابها كتلة الزمان من خلق الكون وهبوط الإنسان إلى فضاء الكون، كل هذا كان مركزا على حقيقة الوجود الذي لا يقوم، إلا بالحقيقة الأزلية وهي : لا إله إلا الله. والقصة القرآنية وفق هذا المبدأ ولجت إلى مرحلة الماقبل، لنتجه إلى مرحلة المابعد، أي قبل الوجود وبعده، أو قبل الزمان وبعده. ليقف العقل عند حدوده الطبيعية التي خلقه الله عليها، دون أن يتجاوزها. إنه المحدود مقابل اللامحدود. والزمن مقابل اللازم، فماذا تقول القصة القرآنية، وبماذا تجيب ؟ .

ج - اللازم في القصة القرآنية :

إن مسألة الأزلية والأبدية والخلود، والوحي والغيب كونت حساسية فكرية لكل ما هو ديني لدى كل ملحد وكافر ومشرك وعلماني، وخاصة لدى المستشرقين المتعصبين والحدائيب والعلمانيين العرب. لكن هذا لن ينقص من تقديس المسلم للوحي المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وإيمانه الثابت بالغيب واليوم الآخر. وتناولنا لمسألة اللازم في القصة القرآنية لا يعني إطلاقا أن بحثنا يتخطى إلى المستوى الفلسفي أو الميتافيزيقي بالمعنى الجدلي الحرفي العقيم، الذي يولد حركة سفسطائية أو شطحات صوفية لا تزيد أصحابها إلا ضلالا وبعدا عن الحق. فالقرآن الكريم لم يتناول مسألة الزمن، إلا بالحق والواقع، ووفق أمر الله عز وجل - كن فيكون - لقد حُسمت قضية الزمن حسما نهائيا، ولم يترك النص القرآني الموضوع مفتوحا على أبواب الشك، والاحتمال والفرضيات، شأن البحوث الفلسفية " لعلنا نجترئ على الحقيقة إذا اعتقدنا أننا الآن قد فهمنا الزمان، ذلك أن البحوث العلمية والفلسفية تتمخض عن مشكلات جديدة أكثر مما تقدم من حلول "1. لكن القرآن الكريم أعلن بكل وضوح وحق مبين، على أن الخالق والعلم، والقدرة والمشيئة، هي لله وحده، فلا شيء سبق الله الخالق، ولا شيء يبقى بعده، وبهذا تحسم إشكالية الزمان، وتستوعب قضية الخلق والوجود، وحقيقة الخالق .

يقول تعالى مخبرا عن ذاته العليا : " هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ 3 "2. فالبقاء والدوام لله وحده، وكل شيء محكوم عليه بالزمانية والفناء والزوال. ولا نبتعد كثيرا لنربط كلامنا بما يراه النقد في علاقة فن القصة بالزمن، فلما " كانت القصة من الفنون

1 روي بورتر : تاريخ الزمان، سلسلة المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1978، ص 45 .
2 سورة الحديد : الآية 3 .

الزمنية، فإن مشكلات بنائها وأعرافها وأساليبها، تشكل نمطا متشابكا، من قيم الزمن وعوامله، ومن هنا فإن التجارب المستمرة في هذه المشكلات تعني الاستمرار في إعادة النظر في قيم الزمن¹. إن أثر الزمن لم يسلم منه النص، بل إن إشكالية الزمن أصبحت تابعة للتجربة، بحكم طبيعة الإنسان المنفعل، والمتأثر بعامل الزمن. " وما الزمن نفسه إلا سلسلة الأحداث التاريخية بدايتها حادثة الانفجار الأعظم، ونهايته المستقبل البعيد اللامحدود². لكن الزمن في حقيقته له بداية ونهاية، وخصوصية النص المقدس، لابد أن تتجاوز حدود الزمن، لأن مصدرها هو الله خالق الزمن والإنسان .

لقد حسم النص القرآني قضية الغيب منذ البداية، أما الذي لا يؤمن بالغيب فهو خارج دائرة النص القرآني، سواء تلقى الإنذار أم لم يتلقه. " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧ "3. فتحدد مصيرهم حسب تحديد موقفهم، وهذا هو دينهم مع مسألة الوحي والألوهية والبعث والغيب، وأيضا مع الحقائق الكونية، حيث يرجعون نشأتها إلى المصادفة والعشوائية، وهم بذلك يقولون بالعبثية التي تتناقض مع نظام الكون وبدايته الزمنية، فضلا عن تناقضها مع العلم الذي يدعون الانتساب إليه، والالتزام به في بحوثهم واستنتاجاتهم .

إن تلك التمهيدات التي أوردها النص القرآني، لم تكن قد جاءت بعد طول تجربة، أو تأمل فلسفي في إشكالية الزمن والوجود والمصير، أو هي خواطر فنان مبدع، صب تجربة خياله الخصب، في قالب سردي، أمام شبح الزمن الذي لم يعد يرحم أحدا " ينبغي ألا ننسى أن الزمان يلتهم أبناءه⁴. فأى عبقرية تستطيع أن تجيب عن مسألة الزمن واللازم؟ ومسألة الوجود والعدم؟ وأي موهبة إبداعية تقدر أن تصف هيئة الزمن واللازم؟ وأي قدرة تستطيع أن تشعر بدائرة الزمن التي اكتملت حركة دورانها، كما جاء في الحديث الشريف، وفي خطبة حجة الوداع " الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض⁵. ومن أخبر النبي الأمي صلى الله عليه وسلم باكتمال دائرة الزمان؟. بل كيف يكون هذا التقاطع مع ما جاء عن المسيح - عليه

1 أ أ مندولا : المرجع السابق . ص 38 .

2 د. عبد اللطيف الصديقي : الزمان أبعاده وبنيته . ص 46 .

3 سورة البقرة : الآيتان 7 ، 8 .

4 روي بورتر : المرجع السابق . ص 45 .

5 الإمام البخاري : صحيح البخاري ، ص 500

السلام - حسب إنجيل مرقس " وبعدهما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله * ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل "1 فالزمان بوصفه تجربة " يتميز في جوهره بالتواتر والتكرار ، فهو ينطوي على دورات متعاقبة "2. أما بالنسبة لنا نحن البشر سيبقى الزمن إشكالية عسيرة، لا يقدر عن تقديم حقيقتها ، إلا رب الزمان وخالقه .

ولكي يخرجنا الرسول صلى الله عليه وسلم من دائرة الشك قال : " يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته "3. إن هذا الحديث يحذرنا من فتنة وسوسة الشيطان التي تجرنا إلى ما قبل الخلق أي : إلى مرحلة اللازم. إن نزول الوحي في بدايته، والإيمان بالله الخالق ينهي الجدل، ويحسم الخلاف بشكل نهائي. فأية سورة العلق : " أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ ١ "4. تحسم المسألة، وتجعل بداية للزمن الذي بدأ بقصة الخلق، كما تؤكد الخالقية لله وحده. وأن مسألة الزمن وما قبل الزمن وما بعده، تثبت الوجود الأزلي والأبدي لله تعالى " ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا الكلام عن خلق الأرض والسماء يتحدثون عن القبلية والبعدية ... وينسون أن قبل وبعد اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى "5. لينتهي النقاش ويُحسم الأمر بالإيمان بالله الخالق. وهكذا لم " يعد الزمان مؤلها، ولم تعد دورات الزمان هي التي تضع النموذج، والمقياس للحياة والطبيعة، وأسقط الزمان نفسه عن عرشه، فأصبح الآن مخلوقا خلقه الله. بات الزمان متناهيا، والله هو اللامتناهي، ومن ثم لم يعد الزمان هو الله "6. الأمر الذي لم يجد النصارى له سبيلا للإيمان بميلاد عيسى - عليه السلام - المعجز من دون أب، فادعوا نسبة الولد لله - سبحانه وتعالى - . إلا أن الاعتقاد " بان الله هو الذي خلق الزمان، أحدث ثورة في فهم الزمان نفسه، فلم يعد الزمان بلا نهاية "7. فللزمان بداية ونهاية، ما دام قد خلقه الله عز وجل، حيث كل شئ ينتهي ويزول باعتباره خلقا من مخلوقات الله الفانية. ولهذا فمنهج القرآن الكريم كان واضحا منذ البداية، في تحديد حقيقة الألوهية، والتفريق بين الخالق المتفرد

1 العهد الجديد : إنجيل مرقس ، الإصحاح الأول ، الفقرتان 14 ، 15 .

2 روي بورتير : المرجع السابق . ص 11 .

3 الإمام البخاري : صحيح البخاري ، ص 511

4 سورة العلق : الآية 1 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 53 .

6 روي بورتير : المرجع السابق . ص 16 .

7 المرجع نفسه . ص 15 .

سبحانه وتعالى، وبين خلقه الخاضع للزمن والموت والنفاء. وقوله تعالى " كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ¹". يؤكد خضوع كل شيء للموت والنفاء، وأن وجود الأشياء مسبق بموجدها الأزلي .

يستحيل تصور الوجود الإنساني بدون مكان وزمان، فمنطقياً أن خلق الإنسان كان مسبقاً بخلق المكان، والذي هو الكون - السماوات والأرض - إذن فالنص القرآني قد ساير حقيقة الزمن وحقيقة الخلق والوجود. وهذا ما نلاحظه في " كثير من آيات القرآن الكريم، إن الحديث عن خلق الإنسان، يسبقه ذكر ما أعد الله عز وجل له من مقومات حياته ². وبهذا تكون القصة القرآنية ملازمة للزمن حين ابتداء، لتجتاز كل مراحلها. إننا نجد أن " نصوص الكتب المقدسة لم تعالج كل هذه المسائل، ولكن المشكلة أن ما حدث بالفعل، هو أن اتباع الأديان على اختلاف مذاهبهم حاولوا أن يجدوا في تلك النصوص، ما يؤيد مذاهبهم في هذه المسائل ³. لكن هذا التعميم يدل على عدم البحث في كل النصوص الدينية ومقارنتها، واستخلاص مفاهيم للزمان وفق ما يطرحه مضمون النص الديني وسياقه، وبالتالي يصبح هذا الحكم ناقصاً وغير صحيح. فالنص القرآني قد عالج إشكالية الزمان معالجة واضحة وواقعية، بعيداً عن الفلسفة والأسطورة. إذ أن " الذكريات والأساطير في معظم الحضارات تفسد وتشوه التسلسل الزمني الدقيق، فهي تسلم بما لديها من شواهد، دون نقد أو تمحيص. كما أنها تخلط الأسطورة بالتاريخ، والبشر بالآلهة والأبطال، والواقع بالخيال، والحقيقة بالمأثور الأدبي ⁴. لهذا يعتبر القرآن الكريم أن الإنسان هو محور الكون، وعلى هذا المبدأ سارت أحداث القصص القرآني .

إننا نجد الآية التي تعتبر تمهيداً لقصة آدم، وتنبيهاً للكفار والمشركين، في قوله تعالى " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⁵ ٢٨. إن هذه الآية تفرض على المتلقي السؤال : أين كان، ومما جاء ؟. فالكلام في " تفصيل الموت يجب أن نفرق فيه بين العدم المحض، والعدم بعد وجود. فالعدم المحض هو ما كان قبل أن نُخلق، ثم أوجدنا الله لنكون أحياء، ثم يميتنا من بعد ذلك، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب ⁶. ولا بد لمسألة الموت من جواب مقنع، لا

¹ سورة القصص : الآية 88 .

² مجموعة من المفسرين : التفسير الموضوعي . المجلد السابع . ص 412 .

³ حسام الألوسي : الزمان في الفكر الديني والفلسفي ، دار الفارس للنشر ، الطبعة الأولى ، العراق 2005 . ص 29 .

⁴ روي بروتز : المرجع السابق . ص 19 .

⁵ سورة البقرة : الآية 28 .

⁶ الشيخ الشعراوي : الدار الآخرة ، دار التوفيقية للتراث ، القاهرة 2010 . ص 46 .

يملك حقيقته إلا خالق الوجود وواهب الحياة. " وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۚ ۲۳ "1.
 وفي " ظاهر الأمر كان من الممكن أن يقول الحق : إنا نميت ونحيي، لأنه - سبحانه - يخاطبنا ونحن أحياء، ولكن الحق سبحانه، أراد بهذا القول، أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول، وهو العدم المحض الذي أنشأنا منه "2. وأي خطاب لا يقدم لنا جوابا كافيا وشفافيا لهذا السؤال اللغز، الذي ظل موضوعا خطيرا وأساسيا، تحدى الفلاسفة والعلماء والباحثين، على امتداد الزمن، لن يستطيع تحقيق قدسيته أبدا. وكيف يكون الزمن موضوعا للبحث، وباحته خاضع للزمن ؟ فلن يستطيع هذا الوجود الزماني، أن يصل إلى حقيقة الزمن واللانزمن، والوجود والعدم، وأن يدرك سر الحياة والموت، بل الذي يدرك هذا السر، هو وحده خالق الزمن والحياة والموت .

إن الحركة الزمانية لا تتوقف، وكذلك وجود الإنسان حتى وإن فارق الحياة والدنيا بالموت المحتوم، وأصبح أمام أعيننا جثة هامة، فارقت فيها الروح مسكنها المادي، دون رجعة تقص علينا سورة يس، مصير الرجل المؤمن الوحيد من القوم الذي دعا قومه لاتباع الرسل، ثم فارق الحياة، بعد أن أقر أمام قومه بالحقيقة الأزلية، حقيقة الله الواحد، و يوم البعث. يقول تعالى إِيَّاهُ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُون ۚ ۲۵ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۚ ۲۶ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۚ ۲۷ "3. إنها بكل بساطة نقلة من مرحلة زمكانية دنيوية، إلى مرحلة زمكانية غيبية، لا نعلم كنهها وسرها، إلا ما قصه علينا الوحي الإلهي بالحق .

يقول سيد قطب : " وطالما عجبت وأنا أطلع تصورات كبار الفلاسفة، وألاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته، كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة "4. مما يدل على أن المسائل الغيبية، لا يمكن أن نعلم حقيقتها إلا من مصدر عالم الغيب. ولهذا فهو " سبحانه الذي شاء فجعل للإنسان ثلاثة أزمان، زمان سبق وجود آدم، وزمان بعد آدم أي منا، ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية، وبذلك يكون لكل منا زمان ماض وزمان حاضر، وزمان مستقبل، وكل منا يدور في تلك الأحداث "5. ولا بد للقصة القرآنية أن تتماشى مع هذه المراحل لخلق الإنسان، وحياته وموته وبعثه، حيث تشمل القصة القرآنية مرحلتي الزمن

1 سورة الحجر : الآية 23 .

2 الشيخ محمد متولي الشعراوي : الدار الآخرة . ص 46 .

3 سورة يس : الآيات 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 24 ، 25 ، 26 ، 27 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الجزء السابع والعشرون . ص 3394 .

5 محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي . ص 6799 ،

واللازم. وبهذا يكون العرض القصصي قد حل إشكالية الزمان والخلق والوجود، والحياة والموت، لتُرد قصة آدم القرآنية على موضوع خلق الإنسان، ليبدأ حياته بعد أن خلقه الله وأوجده، وجعله يعيش في هذا الكون، وبالذات على وجه الأرض - المكان المستقر- " وَكُتِبَ عَلَى آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ أَنْ يَسْتَقْرُوا فِي الْأَرْضِ وَيُكِنُّوا فِيهَا، وَيَسْتَمْتَعُوا بِمَا فِيهَا إِلَى حِينٍ، وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْيُوا فِيهَا، وَيَمُوتُوا ثُمَّ يُخْرَجُوا مِنْهَا وَيُيَعَّثُوا، لِيَعُودُوا إِلَى رَبِّهِمْ، فَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتُهُ أَوْ نَارُهُ فِي نَهَائَةِ الرَّحَلَةِ الْكُبْرَى "1. كما ترد القصة القرآنية أيضا على موضوع اللازم أي: قبل خلق الإنسان، حيث العدم ولا زمن، ثم تم الخلق والوجود، فكان الزمان والمكان، ثم يلقي الإنسان مصيره فيموت، وبعد الموت بعث وحياة أخرى وخلود. هذا ما وضحه لنا الوحي دون تعقيد أو غموض .

يقول أحد الباحثين: " إن السجل المثبت للتجربة الإنسانية لا يتضمن حقيقة الخلود ، وليس هناك نظرية رياضية مستنتجة تبرهن عليه "2. فميدان العلم هو المشهود، أما الغيب فلا جواب عليه إلا النص الإلهي. وها هي قصة الوجود من الماقبل إلى المابعد، عرضت في القرآن بكتلتها المكثفة، بعدد من الآيات، أقل بكثير من الكتلة الزمانية لحياة الإنسانية، واحتوت مرحلتي الزمن واللازم. في حين لم يزل العلم لم يحسم قضية الغيب، وما بعد الموت. وقد عبر هذا الباحث عن أسفه قائلا: " فإنني خالي الوفاض من أي برهان نظري على الخلود، أو حتى من أية آراء حول احتمال وجوده، وهذا يؤسفني. فلو كنت أملك برهانا على الخلود، لتهللت فرحا كحامل لأنباء طيبة سارة، ولكني لا أملك أي برهان "3. ولهذا كان الأهم في القصة القرآنية، هو عرض مراحل خلق الإنسان، لوضع حد للسؤال عن بداية الحياة وماهية الوجود. يقول تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ "4 ويقول: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ٥ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١ "5. هذا الخطاب البعيد عن التعقيد وعن الغرابة والغموض، والذي يتحدث فيه المخاطب عن نفسه - الَّذِي خَلَقَكُمْ - يستحيل على أي مخلوق أن يتقمص ذات المخاطب، كما يستحيل أن يصدر إلا عن خالق الناس والكون .

1 سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الثاني، الجزء الثامن. ص 1270 .

2 رالف بارتون بري: إنسانية الإنسان، ترجمة سلمى خضراء، مكتبة المعارف، لبنان. ص 197 .

3 رالف بارتون بري: المرجع السابق. ص 197 .

4 سورة البقرة: الآية 21 .

5 سورة النساء: الآية 1 .

وهكذا بعرض موجز يؤدي السياق القرآني وظائف سردية زمنية خطيرة ودقيقة، لا تسمح أبدا لأي تأويل يبعد المتلقي للنص عن حقيقة الألوهية، من أن يلحق بها أي نقص، أو عبث، أو أي شرك، أو أي تجسيد. إن الزمن واللازم للذين جسدتها قصة آدم القرآنية القصيرة، لا تنتهي بحدث الخلق، وإنما تبقى مسايرة لمراحل الزمن المختلفة لتستوعب كتلة وجود الإنسانية، وتصاحبها في حياتها وتاريخها - الزمن - وفي موتها ونهايتها - اللازم - ، وما بعد الموت - الأبد والخلود - . هل هناك فنان مبدع، تستطيع عبقريته الأدبية، أن تصوغ اللغة فنا قصصيا يعالج الزمانية، وإشكالية الوجود، بهذا الأسلوب الفذ المعجز؟ وبهذا السرد الممتد من الحياة إلى الموت إلى ما بعد الموت؟ وبهذه الإستراتيجية الواضحة البينة التي لا تماطل ولا تبالغ، ولا تعقد طرح مسائل الوجود والزمان، والإنسان والحياة، والموت والخلود؟ وهذا عكس ما يدعيه النقد " بكون استراتيجية النص تضلل القارئ"¹. فالقرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاب ضلال وقصصه حق. يقول سيد قطب: " وأمامي التصور القرآني واضحا ناصعا سهلا، ميسرا طبيعيا، لا عوج فيه ولا تعقيد ولا التواء، وهذا طبيعي. فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته. أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله"². إن عمل العلماء مهما كان، فهو جهد ناقص ولاحق، مُضاف ومتمم لجهود قد سبقت، كانت تبدو تامة من قبل، لكن حركة سير الزمن كشفت نقصها أو خطأها

لا يحتاج سرد المسائل الغيبية إلى كتلة نصية واحدة، بل إلى مجلدات ضخمة، وموسوعات عديدة ومتنوعة، والعلماء المتخصصون سيقومون جاهدين بإعمال الفكر، بغية الوصول إلى الحقيقة، أو الاقتراب منها. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى هذا الوحي من الله الخالق العليم ، ليلبغه إلى الناس كما أنزل عليه. فالله هو الذي أقرأ رسوله صلى الله عليه وسلم وعلمه. كما كان اكتمال نزول الوحي حين استدار الزمن. لكن الموت يبقى موعدا غيبيا ومفاجئا، يأخذ الإنسان على حين غرة . وكما روي عن الفيلسوف الفرنسي رنوفيي، بعد أن بلغ مرحلة الشيخوخة، وبعد أن " ملاً مجلدات كثيرة بتأملاته قال : إنني اترك هذا العالم قبل أن أقول كلمتي الأخيرة. الإنسان يموت قبل أن ينهي عمله، وهذا أشجى أحزان الحياة"³. فهذا الفيلسوف لن يقدر أن يقرر زمن كلمته

¹ فولغانغ إيزر : فعل القراءة ، ترجمة د. حميد لحداني ود . الجلالى الكدية، منشورات مكتبة المناهل، 1995 الدار البيضاء المغرب . ص 26

² سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الجزء السابع والعشرون . ص 3395 .

³ رالف بارتون بري : المرجع السابق . ص 202 .

الأخيرة، ولا أجله المحدود. والمسألة تنطبق على العالم، انطباقها على الجاهل. وقد وجدت المسيحية إشكالية زمانية، عندما اعتقدت في صلب المسيح، ليعود من جديد، ويقول لهم - تلمذوا باسم الأب والابن والروح القدس - . إلا أن هذه العبارة ما عُرفت على لسان المسيح زمن حياته ووعظه أمام الناس. جاء في كتاب تاريخ الكتاب المقدس " وينتهي الإنجيل (إنجيل مرقس) بشكل مفاجئ في المخطوطات القديمة بقصة النساء عند قبر الرب يسوع الفارغ، ولم يقلن شيئاً مما شاهدنه لأنهن كن خائفات، وقد اربكت هذه النهاية بعض المسيحيين ... وللإجابة على ذلك قام أحدهم في القرن الثاني بإضافة الأعداد الموجودة الآن "1. بل وجد النصارى إشكالية في فهم طبيعة المسيح، حتى أصدر يوحنا إنجيله ليعرفهم بطبيعة المسيح، الإله المتجسد، وابن الله - تعالى الله على ما يصفون - يقول أحد الفلاسفة: " لم يحدث أن رأيت مزارعاً يمعن في الطريقة التي سيقضي بها ساعته الأخيرة "2. إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلقه الله لتلك المهمة الجلية، والرسالة العظيمة. وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال " بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين "3. فلم ينتقل إلى جوار ربه حتى اكتمل نزول الوحي عليه، وبلغه كاملاً، مشهداً الناس على ذلك، في يوم من أيام الله، وفي لقاء ديني، ومكان مقدس، كان تاريخاً لعقيدة التوحيد منذ أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - لينتقل بعد ذلك إلى الرفيق الأعلى. فأغلق النص، وختمت الرسالة والنبوة، ولن يستطيع أي مدع مهما بلغ علمه وجرأته أن يدعي عكس ذلك على الإطلاق، وعبر امتداد زمن المستقبل إلى يوم القيامة .

لا نسأل أبداً، أين نظر النبي صلى الله عليه وسلم آلية التنقل بين الأزمان في النص القرآني ؟ وبأي مقياس قاس وحدات اليوم التي اختلفت كتلتها المترابحة ما بين ألف، إلى خمسين ألف سنة ؟ وبأي وسيلة كانت رحلاته إلى خارج الكوكب الأرضي ؟. فمنذ " الاستكشافات الأخيرة لعلم الفلك فطن العلم إلى نطاقه المنتهي المحدود، وفيما وراء السديميات السحيقة في البعد وراء ملايين السنين الضوئية، وربما ملياراتها تمتد الهاوية التي لا قرار لها - إلى اللانهاية التي يستحيل الوصول إليها

¹ ستيفن ميلر : تاريخ الكتاب المقدس، ترجمة وليم وهبة ، دار الثقافة، الطبعة الأولى 2008 ، القاهرة . ص 73 .

² جاك شورون : الموت في الفكر الغيبي . ص 117 .

³ الإمام البخاري : المرجع السابق . ص 610 .

- أو حتى إدراكها بالنسبة للفكر العلمي "1. ففي أي مرصد فلكي تم رصد مجرات الكون الفسيح، الذي لازال علم الفلك في بداية مشوار بحوثه، لكنه لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في ما وراء ذلك، والعلم نفسه. " لا معنى له وراء السديميات الأخيرة التي تقف على الحدود، بين عالم الظواهر، واللانهاية اللامادية. وراء هذه الحدود يستطيع الفكر الديني وحده، أن يقول شيئاً واضحاً بينا - الله أعلم - "2. وهذا ما كان يردده الصحابة بعد كل سؤال نبيهم صلى الله عليه وسلم لهم، فيجيبون : الله ورسوله أعلم. وهذا ما جاء أيضاً على لسان الملائكة " قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ 32 "3. ولهذا فالبحث عن الظاهرة الزمكانية في النص القرآني، توصلنا إلى اللزمن واللامكان، وإلا فمن يقول لنا ما هو العدم؟ وأين هي سدرة المنتهى، وعرش الرحمن؟ يقول ابن عباس عن سدرة المنتهى: " التي ينتهي إليها كل ملك مقرب ونبي مرسل ويقال ينتهي إليها علم كل ملك مقرب ونبي مرسل وعالم راسخ "4. إن المسألة هنا، هي فوق الزمكانية، وفوق عالم الشهادة، إنها فوق العقل والعلم المحدودين بالزمن .

يقول تعالى: " عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝ ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝ ١٥ "5. هنا يقف العقل عند تلك الحدود، ويستفز النص القرآني مرة أخرى، هؤلاء الجاحدين والناكرين. فماذا يعني هذا المنتهى الذي انتهت إليه رحلة المعراج المعجزة الزمانية؟ التي " انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وقف هو، وصعد محمد صلى الله عليه وسلم درجة أخرى، أقرب إلى عرش ربه وأدنى، وكله غيب من غيب الله ... وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته "6. لقد كان " المنهج العلمي التجريبي الذي شكل الحضارة القائمة الآن، ثمرة من ثمار القرآن، ودعوته إلى النظر والاعتبار، وتقديم الدليل والبرهان. كما قدم تصوراً ميتافيزيقياً للكون، كان من شأنه تحطيم كل الأساطير القديمة التي لاكتها البشرية، ورددتها مئات السنين "7. حيث يلج النص إلى عالم الغيب الذي لا نعلم عنه سوى ما أوضحه الله تعالى لنا في كتابه العزيز " وسدرة المنتهى اسم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة ... وإضافة سدرة إلى المنتهى يجوز أن تكون إضافة بيانية

1 مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية . ص 80 .

2 المرجع نفسه . ص 80 .

3 سورة البقرة : الآية 32 . .

4 ابن عباس : المرجع السابق . ص 561 ، 562 .

5 سورة النجم : الأيتان 14 ، 15 .

6 سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، الجزء السابع والعشرون . ص 3407 .

7 أنور الجندي : سقوط الإيديولوجيات . ص 92 .

ويجوز كونها لتعريف السدرة بمكان ينتهي إليه لا يتجاوزه أحد لأن ما وراءه لا تطيقه المخلوقات¹ وعلى الرغم من ذلك تقترب لنا هذه الصورة الغيبية، دون فلسفة أو تعقيد، ودون أسطورة أو خيال .

إن دراسة القصص القرآني لا ينبغي أن تنتظر الإذن من مستشرق مشكك في الوحي، أو تُبنى على نظرية ناقد ملحد، لا يفقه في علم الإيمان شيئاً، أو بإعادة ما قال به العلمانيون الذين يفرحون بما عرفوا من علم ضئيل، تطفلوا على اكتسابه، وأنكروا فضل الخالق العليم الذي منحهم العقل - وعاء العلم - ويسر تركيبه، لاستقبال العلم والمعرفة. وهل استطاع هؤلاء أن يبحثوا إشكالية الزمن واللازم التي أثارها القصص القرآني متعمدا تارة، ومستقرا طورا، لكي يدفع بالمشككين أن يبذلوا قصارى جهدهم، ليتبينوا حقيقة الزمانية؟. لقد " تبلورت هذه الخبرات في ديانات العالم وفلسفاته الكبرى، والحق أن الدين نفسه استجابة للغز الزمان الأساسي افتقار الإنسان إلى الأمن، حين يحيا في الحاضر، واعيا بأبعاد الماضي والحاضر السحيقة للكون التي لا يملك سلطانا مباشرا عليها، والمملوء بالخوف من الموت، والفناء الظاهري"². ولكن الباحث لم يتطرق إلى مفهوم حقيقة الموت، والفناء في الإسلام، ولهذا نعتبر أن تحليله كان ناقصا. لكن " الموت الذي يعترض محياهم على ظهر الأرض، هو رقدة مؤقتة، أو نقطة فاصلة بين مرحلتين من الوجود، كانت الأولى للغرس، والأخرى للحصاد"³. ولم يكن الخوف من الموت أبدا سببا في التدين، بل العكس من ذلك .

يتوجه القصص القرآني إلى عالم الموت وما بعده، ليفك لنا لغز الموت وحقيقته ، ويصوره لنا كمرحلة انتقال لعالم آخر، يقف فيه الإنسان المخلوق أمام خالقه. يقول تعالى لمن اعتقد أن الموت فناء نهائي دون بعث ونشور: " لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣"⁴. أما المؤمن بالله والبعث، فهو دائما في استعداد مع هذا اللقاء الحتمي، ويعلم يقينا أن هناك حياة بعد الموت. " وخلال لغوب الأحياء في ميادين الحياة، وسكون الموتى تحت صفائح القبور يقع حادث كوني واسع المدى"⁵. ولهذا فالمؤمن لا يخاف الموت، بقدر ما

¹ ابن عثور : المرجع السابق ، الجزء السابع والعشرون . ص 100 ، 101 .

² روي برتور : المرجع السابق . ص 12 .

³ الشيخ محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم . ص 151 .

⁴ سورة ق : الآية 22 .

⁵ الشيخ محمد الغزالي : المرجع السابق . ص 151 .

يخاف الحساب يوم اللقاء، حين يقف أمام الله خالقه. وهذا ما تجاهلته أغلب المعتقدات، وخاصة إن قصة الموت والبعث في الديانتين اليهودية والمسيحية تسودهما الضبابية والغموض. والحل " الذي تقدمه معظم الأديان هو التأكيد على نمط الوجود يتصف بالخلود والتعالى والأبدية، بغير بداية ولا نهاية، مبرئاً من الأخطار، ومنزها عن التغيير الذي لا معنى له : مستقر الآلهة - أو النرفانا البوذية - "1. لكن ما هو المصدر الذي يدل على مستقر الآلهة؟ . فنحن لم نسمع مرة بأن هذه الآلهة نزلت إلى الأرض لتعبر عن نفسها، كما كانوا يزعمون، أو واصلت صراعتها، ليذهب كل إله بما خلق. يفصح القرآن الكريم أسطورة الآلهة المتعددة المزعومة، في قوله تعالى " مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ٩١ "2. فهذا هو الخطاب القرآني ببيانه البليغ وتحديه المعهود، يحدد معالم البداية والنهاية. ووحده الخالق هو الفاعل في خلقه، وكل ما دون ذلك فهو مخلوق مربوب له، فمنه البداية وإليه النهاية. وأمام هذا الخطاب تبطل أسطورة الآلهة، ويبطل ادعاء الولد لله، أو الشريك معه، فكلهم جاؤوا من العدم، وبقدرته سبحانه خلقهم، كما أراد هو وحده .

لقد بقيت الإشكالية قائمة دون حل نهائي، وبقي لغز الموت والبعث والخلود يورق الكثير من معتنقي هذه الديانات الأرضية، أو المحرفة. لهذا السبب عني القرآن الكريم بإبراز " هذه الخصائص أيما عناية، وهذا أمر بديهي، وكيف لا تكون خصائص السنن محل عناية كتاب الله المنزل، لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور؟ وعلى هدى وبصيرة، لا بالطلاسم والألغاز التي لا قبل لعقول البشر وقدراتهم بها "3. إن القصة القرآنية لا تهمل المتلقي للنص مهما كان مستواه الفكري بسيطاً أو عالياً، ولا زمن عصره إن كان متقدماً أو متأخراً، لأن الجميع مخلوقون ومتساوون في الإنسانية " فالقارئ الجاهلي مقصود في النص، فهو له وكذلك القارئ الحالي والمستقبلي "4. فالقصة القرآنية تركز على الجانب الإنساني، وهو القاسم المشترك بين كل البشر، لتجعل المتلقي يهتدي إلى خالقه الذي أوجده وأحياه، ثم يميته فيبعثه. كما تجعله يهتدي لمعرفة نفسه

¹ روي برتور : المرجع السابق . 12 .

² سورة المؤمنون : الآية 91 .

³ د. حسن بن صالح الحميد : المرجع السابق . ص 69 .

⁴ عبد الهادي عبد الرحمن : سلطة النص أم سلطة القارئ، مجلة القادسية، كلية التربية، جامعة القادسية، العدد الأول، 2007 العراق . ص 20 .

كوجود مبتدئ بزمن، لم يكن في مرحلة سابقة " هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ " 1. فالآية موجهة لكل إنسان، في كل زمان ومكان، بعيدا عن أية مكانة اجتماعية، أو علمية أو عرقية، أو أي مكانة أخرى، يتفاوت بها عالم الناس الدنيوي. كما أن القصة القرآنية تجعل وجود الإنسان مستمرا لا ينتهي بالموت، لينتقل إلى عالم الخلود، ومعرفة من هو، ومن أين جاء؟ وإلى أين يصير؟. الأمر الذي لم تلج إليه التصورات والمعتقدات الدينية الأخرى، والتيارات الفكرية والفلسفية القديمة والحديثة، بشكل واضح وصريح .

لقد اهتم خطاب السرد للقرآن الكريم باللازم من اهتمامه بالزمن، واهتم بالموت اهتمامه بالحياة، واهتم بالآخرة اهتمامه بالدنيا، على أساس المصير والنهاية المحتومة للخلق فردا أو جماعة. ولهذا تكرر قوله تعالى: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ١١ " 2. إنها سياحة فكرية زمانية لها بداية ونهاية، تضبطها سنن الله الثابتة، حين تمارس فعل العقوبة على الكافرين المجرمين المكذبين، ويتأمل المتلقي مصير هؤلاء السليبين الذين أمهلهم الله تعالى زمنا، ولكنه لم يهملهم بالعقاب، الذي توعدهم في زمن الدنيا الفاني، وفي عالم الآخرة الأبدي . فإذا مات الإنسان، وانتقل إلى عالم الغيب، تابعه القصاص القرآني لسرد هذه المرحلة التي لا ندري عنها شيئا، باعتبارها غيبا، كما أن لا أحد مات، ثم عاد للحياة من جديد. إن " القبر المأزق الوحيد الذي لم يتمكن أحد حتى الآن أن يخرج منه " 3. وسيبقى المجال مفتوحا أمام الخيال والأسطورة والخرافة، ليصور كل ميدان على حسب اعتقاده وظنه. لكن الظن لن يغني من الحق شيئا، وتبقى المسألة تتحرك في حلقة مفرغة، لا تنتهي حتى تعيد حركتها الاجترارية من جديد، ليتوقف الفن القصصي عند هذا الحد الفاصل والمحتوم .

فكل الفضاءات السردية تجعل من موت البطل نهاية لعملية السرد، دون أن تلج مع الموتى، لتصور حقيقة ما يجري هنالك " إن موت البطل - ماعدا في حالة بعث الأموات الديني - يختم الحكاية " 4. وفي سفر التثنية والمكتوب من طرف موسى حسب اعتقاد اليهود، نجد سرد قصة موت موسى هكذا " فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في الجواء

1 سورة الإنسان : الآية 1 .

2 سورة الأنعام : الآية 11 .

3 موسوعة الأمثال والحكم . ص 9 .

4 رولان بارت : التحليل النصي . ص 106 .

في أرض مؤاب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم"¹. فالموت هنا بين حقيقة مصدر النص، ويستحيل أن يواصل السارد الميت عملية السرد. " إن موت السارد يعني موت الرواية"². لكن في النص القرآني نجد الخطاب يتوجه للنبي صلى الله عليه وسلم " إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۚ ۳۰"³. فهو يتلقى الوحي، ولا علاقة له بعملية الإبداع أو الكتابة. إن الموت يفاجئ السارد فيقف حائراً أمام ظاهرة انتصار الموت عليه، وعلى شخصه. يقول تعالى: " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ۲"⁴ ولهذا يسأل القرآن الملحدِين - كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ - على أنهم لم يكونوا ذات يوم، ثم هم يوجدون، ليقول لهم - ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ - مما يدل بحق على أن هناك خالفاً هو المحيي والمميت، وهو المتحدث والسارد. ليدخل كل حي مرحلة الموت وما بعد الموت، حيث يفقد فيها كل قدرة كان يتمتع بها لحظة زمن الدنيا، فيفقد القدرة على الحركة والكلام، ويفقد الحياة كلها، لينتقل من عالم الحركة والزمن والوجود، إلى عالم السكون واللازمن والعدم. إن التيار الذي كان يمد هؤلاء الموتى بالحياة قد انقطع، ولا أحد من المخلوقين البشر في مقدوره إصلاح العطب، أو إعادة الحياة من جديد، أو إبقاء الناس أحياء .

في هذه اللحظة الحاسمة تصوب وحدها القصة القرآنية عدستها إلى عمق المشهد الحزين زمن الاحتضار، وبداية السفر إلى ذلك العالم الغيبي، ونحو المجهول بالنسبة لكل ملحد، نحو اللاعودة واللا رجوع. ويتابع السرد القرآني المشاهد، فينقلها لنا مرحلة مرحلة، ولحظة بلحظة. إن انتقال النص القرآني إلى ما بعد الموت، يجعل من القصة القرآنية ظاهرة إعجازية، يجسدها تجاوز القصة، مرحلة الزمن الدنيوي، فهي كما احتوت مرحلة الماقبل، كذلك تحتوي مرحلة المابعد. مستهلة لحظة زمن الاحتضار، وخروج الروح ومفارقتها الجسد. إنها لحظة الفراق، فراق الروح للجسد، وفراق الميت للحياة التي عاشها بمدة زمنية معدودة ومحسوبة، لم يكن يدري متى جاء، ومتى سيفارق هذه الدنيا. إنه فراق الإنسان لكل ما تصوره وتخيله، ليرى حقيقة الموت، وما بعد الموت أمام عينيه ماثلة، لا يستطيع أن ينكر أو يتهرب، أو يعود إلى الحياة الدنيا ثانية، فراق عالم الجسد إلى عالم الروح، وفراق عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وفراق عالم الحياة إلى عالم الموت،

¹ العهد القديم : سفر التثنية الإصحاح ، الفقرة

² جبرار جنيت : خطاب الحكاية ، ترجمة محمد معتمد ، المجاس الأعلى للثقافة ، الطبعة الثانية 1997 . ص 19 .

³ سورة الزمر : الآية 30 .

⁴ سورة الملك : الآية 2

الذي سيبقى ولا يزول أبدا " فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُومَ ٨٣ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ٨٥ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٨٧ " 1. لحظة زمانية حاسمة تكشف عجز كل حي، أمام قدرة الله الخالق، الذي يتوفى الأنفس، بعد أن كان قد أحياها من قبل .

تقوم القصة القرآنية بنقل مشهد الموت المتكرر الذي يجسد عالم الفناء والسكون، وانتقال المخلوق من مرحلة الحياة، بحركتها وظلالها وأوانها وزمانها، إلى مرحلة الغيب بمرحلتها الغريبة، والمفاجئة والمجهولة لدى الكافر، الذي أنكر البعث " وأنتم حينئذ تنظرون - تأكيد لبيان الحق - أي في ذلك الوقت تصير الأمور مرئية مشاهدة، ينظر إليها من بلغ إلى تلك الحالة " 2. ولهذا كان عدسة القصة القرآنية، يتم إيلاجها في هذا العالم المظلم والمخيف، الذي لا يستطيع أي فنان أو مصور اقتحامه أبدا، ليوصل الميسرة السردية مع أبطاله الذين حكم عليهم الموت بالخروج من الزمان والمكان، والحركة والفعل. بل يضع كل كاتب قلمه، وكل رسام ريشته، ويغلق كل مصور عدسته، ويطفئ أضواءه، ليوثق كل منهم شهادة نهاية الإبداع الفني ووفاته لتنفرد القصة القرآنية لوحدها بمرحلة ما بعد الزمن الدنيوي. هنا " تقف قدرة البشر، ويقف علم البشر، وينتهي مجال البشر. هنا يسدل الستار دون الرؤية ودون المعرفة، ودون الحركة. هنا تنفرد القدرة الإلهية، والعلم الإلهي، ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة، ولا جدال ولا محال " 3. إنها نهاية الإنسان المحتومة، ونهاية المصير المرسوم لكل سارد ومسروده ، فجاء هذا المشهد في القصة كنهاية لسورة الواقعة .

تواصل القصة القرآنية مسارها المستمر دون انقطاع أو توقف، وتتغلغل في ذلك العالم الغيبي المخيف، لتعلن حياة جديدة، وزمانا آخر لا نقدر على قياسه أو حتى تخيله. تجعل أمامنا المرحلة الأولى لصراع الإنسان مع الموت، الذي كان لحظة من زمن، حيا يتحرك ويتحدث ، وفجأة يتحول من تلك الحالة، إلى هذا المخلوق الضعيف الذي هزمه الموت وانتصر عليه، فسلب منه الحياة. بل تنقلنا القصة القرآنية في مشهد الموت، إلى مصارع الطغاة والمتألهين والجبابرة، كيف انهزموا كلهم أمام قوة الموت، وحتمية المصير. ورأينا كيف قص علينا القرآن الكريم أخبار فناء الأقسام الذين كفروا وكذبوا رسل الله وأنبياءه، وكيف نقل لنا القصص القرآني مصرع قارون

1 سورة الواقعة : الآيات 83 ، 84 ، 85 ، 86 ، 87 . .

2 الإمام فخر الدين الرازي : المرجع السابق ، الجزء التاسع والعشرون . ص 200 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد السادس ، الجزء السابع عشر . ص 3472 .

المغرور بماله، وفرعون المتجبر بملكه. " وَجُورَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلْبَحَرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ ءَأَلَّنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا يُؤْتَوْنَ لَعْنَةً ٩٢ "1. ولهذا " فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين، وأقل يقظة فيها، وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة والمثيرة "2. وهذا هو مبدأ القرآن الكريم في سرد مصير الغابرين المتجبرين، الذين تحولوا عبرة لكل متجبر مكذب .

تتابع سورة الواقعة عرض المرحلة التالية، لتبين مصير الإنسان الذي غادرت روحه الجسد، هنا " وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى، وقد انفصلت عن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون، ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري، ولا يملكون من الأمر شيئاً "3. في هذه اللحظة الغائبة عن كل من هم بالقرب من هذا الميت التصاقاً، والذي تحول جثة هامة ساكنة، يكون هو يرى يقينا، مصيره الذي سيستقر فيه خالداً، وفق إيمانه أو كفره وتكذيبه بهذا اليوم. والآن وقد " بلغ الموقف ذروته، تجيء الخاتمة في إيقاع عميق ورزين - إن هذا لهو حق اليقين فسبح بحمد ربك العظيم - "4. كانت هذه هي الخاتمة، حسب اعتقاد كل إنسان ، وكانت أيضا خاتمة للسورة .

لقد رسمت القصة القرآنية نهاية حياة الإنسان، كما رسمت بدايتها منذ خلق آدم ، وارتكابه المعصية، وهبوطه إلى الأرض. إن القصص القرآني رسم لنا نهاية أمم، كنهاية قوم عاد، ونهاية أفراد كنهاية فرعون، لتلغي صفة التجبر والتأليه، بعد أن قضى عليه الموت ، وتقاذفته أمواج اليم، ليتحول جثة هامة محنطة، ملقاة على رفوف المتاحف، لا حركة ولا حياة . إن الصورة التي تلتقطها عدسة القصة القرآنية، تحمل أبعاداً ذات عمق دلالي، لا علاقة لها بأي فلسفة وجودية، أو أسطورة الموت والفناء، فلا مجال إلا للحقيقة من مصدر رب الأحياء والأموات، رب الوجود، رب العالمين " وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤ "5. تلتقط العدسة القرآنية عدة مشاهد لتصوير موضوع واحد، هو حقيقة الموت، تلتقط صورته من عدة زوايا مختلفة، وخاصة في اللحظة الزمانية الحرجة، وذلك عند

1 سورة يونس : الآيات 90 ، 91 ، 92 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد السادس ، الجزء السابع والعشرون . ص 3366 .

3 المرجع نفسه . ص 3472 .

4 المرجع نفسه . ص 3473 .

5 سورة فاطر : الآية 14 .

خروج الروح. يقول تعالى: " وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝ ١٩ "1. وفي هذه اللحظة الفاصلة بين الزمن واللازم، تتبدل الرؤية لدى الإنسان المغادر للدنيا، وخاصة الكافر المنكر للبعث، فينتقل إلى قانون يختلف تماما عن القانون الدنيوي، يحكم السمع والبصر والروح .

إن المحتضر سينتقل من عالم مادي محدود، إلى عالم الغيب والخلود. إنها " رحلة واحدة تبدأ من الميلاد وتمر بالموت، وتنتهي بالبعث والحساب. رحلة واحدة متصلة بلا توقف، ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد، الذي لا فكاك عنه، ولا محيد، وهو أول الطريق إلى آخره في قبضة الله، لا يتملص ولا يتقلت "2. فهو عالم الروح والغيب والخلود، الذي سيكون مفاجئا لكل كافر مكذب بيوم الدين. هنا توقفنا القصة القرآنية بانفرادها لوحدها، على حقيقة مشاهد هذا العالم الغيبي، الذي لا يستطيع أيا كان أن ينقلنا إليه، إلا خالق الحياة والموت، وخالق الزمن واللازم، وعالم الشهادة والغيب. الحي الذي لا يموت .

تواصل القصة القرآنية نقل مشهد موقفين مختلفين حين يقف الشخص - الأهل - عند رأس المحتضر، يودعونه دون أمل في عودة أو رجوع. وليس كما يقف الأهل يودعون عزيزا لهم ساعة سفره، فأمنيتهم له رحلة سعيدة، وعودة ميمونة عاجلة. فهنا الموقف يختلف تماما، سفر إلى عالم مجهول بدون رجعة، ووداع أخير بدون لقاء. إنها حقا واقعة مؤلمة، قد حلت بالجميع، أكدت عجزهم التام، أمام لحظة الاحتضار، وخروج الروح. فالكل عاجز على إرجاع الروح إلى الجسد. " فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ ٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ ٨٧ "3. هاتان الآيتان تحديان لجميع الناس إن استطاعوا أن يتغلبوا على الموت أو على الزمن. لذلك لا نجد مشهدا سرديا على الإطلاق، ينقل لنا هذين الموقفين حين يدق ناقوس الخطر، ويحين زمن الموت، فمن بمقدوره رد القدر؟. ومن بمقدوره إضافة لحظة زمنية إلى عمر هذا المحتضر؟ .

يبقى الزمن حتى هذه اللحظة، إشكالية أمام الإنسان، لكن الموت هو انتصار على الإنسان والزمن، حيث يحول الحركة سكونا، والنشاط جمودا، والوجود فناء. فتنتهي سورة الواقعة بهذه الآيات، كما تنتهي حياة الإنسان. وقد " ختمت سورة الواقعة بلون من التحدي، تخسأ أمامه الخلائق.

1 سورة ق: الآية 19 .

2 سيد قطب: المرجع السابق، المجلد السادس، الجزء السادس والعشرون. ص 3362 .

3 سورة الواقعة: الآيتان، 86، 87 .

هل يستطيع أحد الإفلات من الجزاء ؟ هل يقدر البشر مهما سند بعضهم بعضا على أن يدفعوا الموت، وينقذوا منه قريبا أو صديقا ؟¹ . فكل الناس تعرف الإجابة، وكل الناس تتبين هنا حقيقتهم، لأنهم في انتظار المصير نفسه إلى حين. إن الواقع والطبيعة البشرية، وانتصار الموت على البشر، كلها تؤكد هذه الحقيقة الباقية والمتكررة، التي يبدو فيها الإنسان كائننا ضعيفا ومحدودا، لا حول له ولا قوة، وهو يصارع سكرات الموت، وفي فراق مع الدنيا التي يغادرها مُكرهاً، كما جاءها بدون إرادة منه. لا قوة في العالم تقدر أن تنتزعه من فك هذا الموت العنيد .

وتبقى العدسة القرآنية تتابع تصوير مشهد الاحتضار والموت، مرحلة مرحلة، ولحظة بلحظة، وكأن الوحي يحرص كل الحرص، على أن لا تضيع أية لقطة، من هذا المشهد المتكرر والخطير، والذي يثير في النفس كل أنواع الخوف والرعب والرغبة، ويخلق توترا حادا، لا يطيقه أي إنسان، مهما كان قويا. ونجد آيات مشهد الموت، تتوزع في سور القرآن الكريم. إلا أن القرآن الكريم يريد أن يلفت انتباهنا لشدة هذه اللحظة الزمانية الفاصلة والحاسمة، ليحمل الخطاب المشهد الغيبي، بعد أن تيقن منه المفارق للحياة، وأصبح يقينا، لا يجدي معه أي إنكار، أو أي اعتراف، أو أي استعجاب .

يلج الخطاب إلى عمق المشهد الغيبي، مع كل منكر ظالم لنفسه. يقول تعالى : " وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظُّلُمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آيئته تستكبرون "2. هنا في هذه اللحظة يتلاقى البشري مع الملائكي، ويبدأ زمن الحقيقة الأزلية، والدخول في عالم الخلود والأبد، بعد لحظة الموت واللازم، ويرفع الستار عن المجهول، ليصبح معلوما، وعن الغيب ليصبح يقينا، لينتهي معه كل تكذيب وادعاء وافتراء. والمتتبع لخطوات خطاب السرد القرآني، أن كل حركة أو فعل للإنسان يتوقف ويسكن، ولا يبقى إلا الحوار الذي يدور بين الملائكة، وهم من عالم الغيب، وبين البشر الذين كانوا في عالم الدنيا، والتحقوا بهذا العالم. فلا نكاد نعثر على الحركة والفعل الصادر من الناس، كما كان عليه الشأن في زمن الحياة الدنيا .

1 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، ص 439 .
2 سورة الأنعام : الآية 93 .

إن القصة القرآنية بدأت تدخل مرحلة اللازم، وفيها يفقد الإنسان حرية التصرف ، والقدرة على الحركة. لهذا تبقى عملية التصوير مركزة على كل حالة تبعث في نفس القارئ ، وضعا سيكولوجيا، إما إيجابيا ونعني به الخوف والرجاء مع الإيمان، أو سلبيا ينتج الغفلة والكفر والتكذيب. يقول الشيخ الشعراوي في هذه الآية: " وحين نقرأ القرآن نجد كثيرا من - لو - ليس لها جواب، لماذا ؟ لأن الإتيان بالجواب، يعني حصر الجواب في دائرة منطوقة ... والحق سبحانه لم يقل ماذا ترى ؟ لأنك ستري عجبا لا يؤديه اللفظ - والغمرات - هي الشدة التي لا يستطيع الإنسان منها فكاكا ولا تخلصا"¹. إن عملية الخضوع التامة تبدأ من هذه اللحظة، التي تبدأ باللازم، عند انتهاء الزمن الدنيوي للإنسان الميت، ونقف وقفة مع القصص القرآني، وهو يعرض مشاهد الآخرة، فنجد قد حقق توازنا في عناصر القص، أي أنه تناول العرض التناسقي والمتوازي بين عالم الشهادة، وعالم الغيب، ليخرج لنا القصة الكونية الخالدة التي لم تهمل أي جانب من الجوانب المتعلقة بالإنسان، في دنياه وآخرته، في حياته ومماته. هذا التناسق والتوازي جعل القصة القرآنية تمتد مع الخلق، في السيرورة الزمانية الفانية، وأن تلتفت إلى مرحلة اللازم التي سبقت الزمن، والتي ستليه أيضا عند انتقال الإنسان إلى علم الآخرة .

هنا يجد النقد إشكالية ستظل مطروحة عليه دائما، بل تزداد تعقيدا عبر تطور العصر، ولن يجد حلا. فالقصة القرآنية حين استوعبت مرحلة الماقبل - مرحلة اللازم - حيث لم يكن إلا الله وحده سبحانه وتعالى. فهو الأول وهو الآخر، لتسير القصة القرآنية أيضا مع نهاية الوجود، ليبقى أيضا إلا الله عز وجل. ومن ذا الذي يملك الأمر في موقف الموت وما بعده، إلا الله سبحانه وتعالى ؟. هنا يتوقف كل سرد قصصي أو تاريخي، ويسكت عن عرض أحداث ما بعد الموت، أو ما بعد الزمن الدنيوي. يقول تودوروف: " الجثة هي مدخل الروايات البوليسية، حيث نعرف فيما بعد الذي سبق الجريمة"². أما بعد الموت فلا رواية ذكرت هذا الحدث، وكأن الموت الذي يجعل حدا لحياة الإنسان، يجعل أيضا حدا لعملية السرد . وتظهر إشكالية زمانية خطيرة، لم يتوقف المفكرون والباحثون والفلاسفة عن بحثها يوما، وهي سؤالهم المتكرر : ماذا بعد الموت ؟ هنا تقتحم القصة القرآنية عالم الغيب، بعدما اقتحمت عالم الشهادة، وبكل تحد وإعجاز، لتنتقل لنا مشاهد ما

¹ الشيخ محمد متولي الشعراوي : الدار الآخرة . ص 69 .
² تزفيتان تودوروف : مفاهيم سردية . ص 111 .

بعد الموت، وما بعد الدنيا، ويستمر السرد القرآني في عملية التدفق دون انقطاع حين ينتهي الفعل، وتتوقف الحركة بالموت في عالم الدنيا .

يقول رولان بارت معلقا على رواية السيد فالدمار للكاتب إدغار بو، وهو سرد أحداث شخص يحتضر بعد عملية تنويم مغنطيسي، لينقل لنا الكاتب حديث البطل وهو ميت. فيقول " إذا كان السيد فالدمار ميتا طيبا، فينبغي أن ينتهي المحكي. إن موت البطل (ما عدا في حالة بعث الأموات) يختم الحكاية"¹. ونحن نرى أن الكاتب إدغار بو قد حاول عبثا أن يأتي بما هو أغرب من الخيال، لكنه لن يستطيع أن ينجح في ذلك إطلاقا، بل راح مواصلا سرده لحديث بطله المحتضر " بدا على المحتضر أنه يستجمع كل طاقته ليتكلم ... أنا أنام ، أنا أموت "²، وصولا إلى قول البطل: "... نعم والآن أنا ميت "³. لكن وراء كل هذا، يقول السارد: " أشعر الآن أنني قد بلغت نقطة في سردي، حيث القارئ الحائق سيحرمني من أي تصديق. لكن واجبي هو أن استمر "⁴. ولكن يعلق رولان بارت على هذا قائلا: " حيث - أنا ميت - تعني حينئذ - أنا لست ميتا - لكن بالأحرى يتعلق الأمر بإثبات نفي أنا ميت ولست ميتا. وهذا منتهى الانتهاك وابتكار مقولة ما سُمعت قط "⁵. وكل هذا يبين أن كاتب الرواية أراد أن يسرد علينا قصة بطل أراد أن يرضى بنهايته، ويفارق الحياة بكل هذا البساطة والسذاجة، دون صراع مع الموت، أو توتر شديد حين خروج الروح. لأن واقع المحتضر يستحيل أن يمر بهذا المشهد الساذج الذي قام السارد بعرضه. وكيف يقبل الحي وبكل هدوء الموت الذي يفر منه الكل؟. والحقيقة أن هذا السارد أراد أن يجعل التنويم المغنطيسي يتحكم في الموت، ليؤجله أو يوقفه إلى حين. والأغرب من كل هذا، يعود الكاتب إدغار ليعلن بعد نشر روايته وقراءتها أنها قصة اختلقها لا أكثر ولا أقل " لقد اعترف إدغار بو في رسالة خاصة أن قصة السيد فالدمار مجرد خدعة "⁶. هذا كل ما في الأمر، أن الكاتب افتضح أمره، واعترف بأن تلك القصة ما هي إلا خرافة بعيدة عن روح الصدق والواقع، ويبقى عالم الموت وما بعده خطأ أحمر يستحيل أن تتجاوزه عبقرية السارد وعلمه، حتى ولو جنح إلى الخيال .

¹ رولان بارت : التحليل النصي . ص 107 .

² المرجع نفسه . ص 126 ، 127 .

³ المرجع نفسه . ص 128 .

⁴ المرجع نفسه . ص 127 .

⁵ المرجع نفسه . ص 108 .

⁶ رولان بارت : المرجع السابق . ص 87 .

يصبح السرد القصصي والتاريخي محصورين ضمن نطاق الزمكانية، فموت النص، أو موت الشخصيات، أو موت المؤلف، ونهاية الزمن والمكان، كل هذه الحالات الحقيقية تؤسس لمحدودية الخطاب السردية، والخطاب التاريخي، والخطاب الفلسفي، لتتزع عنهما صفة الخلود. لكن القصة القرآنية تشتمل على قصة الحياة والوجود، كما تشتمل على قصة الموت والمصير. ونظرا لحساسية الموقف اتجاه قضية الموت وخطورته، استعمل الخطاب القرآني جميع عناصر التوكيد، من لغوية وعقلية وواقعية، لينتهي إلى الإعلان، أن ما يحدث بعد الموت حق لا ريب فيه، كما أن كتاب الوحي حق لا ريب فيه " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ " 1. ليضع تناسقا بين حقيقة يوم البعث، وحقيقة الكتاب، وأن الحقيقة الأزلية - وجود الله ووحدانيته - وحقيقة يوم البعث، هما المحوران الرئيسان اللذان دار عليهما القصص القرآني. وتكون حياة الإنسان قد بدأت بعد إن اكتمل تكوينه ونموه، وجاء بميلاده إلى الدنيا، ثم يغادرها بعد أن يحين أجله. لكن من بمقدوره أن يسرد علينا كل هذا المشهد المابعد بعد ما انتهى الزمان والمكان، وأصبحت في اللاكينونة؟ وماذا يقول النقد والعلم في هذا المجال اللازمي، والمابعد أو الميتافيزيقي، كما تريد الفلسفة أن تسميه .

إن مرحلة ما بعد الموت مسألة غيبية أولا، ومسألة معجزة ثانيا، تطرح دائما إشكالية خطيرة وعسيرة، لمن لا يؤمن بالوحي، ولا بالله والبعث، وقد حدد الخطاب القرآني موقفه من المنكرين والمكذابين والجاحدين، ووضح أنهم عاجزون عن فهم حقيقة الألوهية في آيات الوحي كعجزهم عن فهم حقيقة آيات الكون " فَأَنْظُرْ إِلَىٰ ءَأَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٠ " 2. فالذي يعجز عن هذه الرؤية للآية الكونية، لن يستطيع أن يستوعب حقيقة الخطاب للآية القرآنية، ثم لن يستطيع أن يؤمن بقدره الله في إحياء الموتى. يقول تعالى: " وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْتَرَى الْأَرْضَ خُشْبَعًا فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٩ " 3. فلا نجد في هذا الخطاب شفرات أو تعقيدات يتعسر فهمها على المتلقي، لأنه تمهيد لولوج عالم الغيب انطلاقا من عالم الشهادة، بعيدا عن كل خطاب فلسفي معقد، أو

1 سورة البقرة : الآية 2 .

2 سورة الروم : الآية 50 .

3 سورة فصلت : الآية 39 .

أسطوري خرافي. وبكل وضوح نقول : إنه تفسير علمي منطقي، واضح وبسيط، لحل أخطر وأعقد مسألة وهي : مسألة الموت والبعث .

وإذا كان " الإسلام يقر مفهوم (الوضوح) ويجعله أساسا وقاعدة، فإن كل محاولة لطمس هذا المفهوم عن طريق الدعوة، أو التمرد على القيم، أو الخيال المهوم، فهو محاولة مضللة، على الكاتب المسلم أن يتجاوزها"¹. ولا بد أن نعي بأن المنظومات النثرية للغرب المادي، ومن دار في فلكه، هي وليدة صراعات فكرية ومذاهب مادية، لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر. لقد ظهرت " هذه المذاهب (السريالية، النيووية، الوجودية ...) في أوروبا في مواجهة التحدي بالجمود الديني، وعدم الانفتاح أمام سنن التقدم، وكانت هذه المذاهب محاولة لتدمير الثوابت النفسية والأخلاقية والاجتماعية في عالم الغرب ... ومن هنا فإن فتح باب الخيال والأوهام، والأساطير والحلم وغيرها، على هذا النحو الذي يحاولون طرحه في أفق البيان العربي والفكر الإسلامي يجب الحذر والتوخي من خطره"². ولهذا قد أكدنا في بحثنا هذا أن دراستنا لقصص القرآن الكريم تركز على مبدأ إيماننا قبل كل شيء، بوحى الله تعالى، وأن نقف عند حدود طبيعتنا البشرية، حين نتعامل مع النص القرآني، وأن لا نخضعه للنظريات النقدية الناتجة عن المنظومات النثرية للبشر المخلوقين والمحدودين، وأن لا نجري وراء المصطلحات النقدية المبتكرة لنسقطها ونطبقها على كلام الله رب العالمين، بل يجب علينا أن نستفيد منها، وفق ما يمليه علينا إيماننا بالله تعالى، وبكتابه العزيز، ملتزمين بالمنهج القرآني الحق .

والمصدر الوحيد الذي نأخذ منه قصة حقيقة الموت، وما بعده، هو القرآن الكريم، أو حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، أما دون ذلك فهو محض رجم بالغيب. ولهذا نجد كثيرا من الأحاديث النبوية توضح لنا ما يحدث بعد الموت، وعن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا مات أحدكم عرض على مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وأن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له : هذا مقعدك حتى تبعث يوم القيامة"³. وبالتالي نجد أن العلماء والفلاسفة لم يتجرأوا للولوج إلى عالم الموت وما بعده، وحتى إن كان لهم فيه حديث، فهو

¹ أنور الجندي : المرجع السابق . ص 65 .

² المرجع نفسه . ص 163 .

³ ابن ماجة : سنن ابن ماجة ، الجزء الرابع . ص 502 .

مجرد افتراضات واحتمالات، بعيدا عن الحق والحقيقة. وكان الموت نهاية لكل شيء، للإنسان بحياته وحركاته، وأفعاله وتفكيره. يقول تعالى، واصفا حالة الكافر، والجاحد للبعث، حين يباغته الموت. " حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۙ ٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠ "1. إنه " مشهد الاحتضار وإعلان التوبة، عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك من ورائه، من أهل ومال "2. والذي يلفت الانتباه في الآية الثانية هو عبارة - وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ - ليقف المفسرون أمام إشكالية الزمانية كل مرة، مختلفين في معنى برزخ. " من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيين فهو هنا الحاجز بين الدنيا والآخرة وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون من موتهم إلى يوم يبعثون "3. حيث تصبح مرحلة البرزخ فاصلا بين عالمي الدنيا والآخرة ، وهي بذلك أصبحت تمثل مرحلة لازمنية .

لا بد أن نكتفي بما جاء بصريح القرآن الكريم، والحديث الصحيح. فالقصة القرآنية حين تلج عالم الغيب وما بعد الموت، لا يترك الخطاب فيها أمراً مبهماً، إلا وضحه وبينه، اتقاء الالتباس والشبهات. والقصة القرآنية وهي تتعامل مع الغيب، تحرص كل الحرص على المنهج الواضح الذي تقدم به مشاهد الغيب للمتلقي، والأهم من ذلك، هو الوقوف على مصير الكافر المكذب بيوم الدين، حيث تنقل لنا كلامه، وأمنيته بالرجوع إلى عالم الدنيا الذي غادره دون رجعة، ليصبح طلبه للرجوع مرفوضاً، في رده تعالى - كلا - وهي " ردع للسامع ليعلم إبطال طلبه الكافر "4. ولهذا اتضح لنا أن الله تعالى، لا يتسامح مع الذي يموت كافراً، ولن يقبل منه إيماناً وتوبة حين يحين الأجل المحدد. لهذا كانت القصة القرآنية تركز دائماً على تلك اللحظات الفاصلة بين الدنيا والآخرة، وتجعل من نهاية الإنسان، تحديداً لمصيره في عالم الخلود، وفق إيمانه وتصديقه، أو كفره وتكذيبه. وليس كما زعمه إدغار بو على لسان بطله الميت - أنا الآن ميت - ثم ماذا بعد ؟ لاشيء يُذكر، وهذه العبارة لا تختلف بتاتا على نهاية كل مسرود يموت بطله ليقول الكاتب : ومات البطل، واضعاً نهاية لقصته .

1 سورة المؤمنون : الآيتان 99 ، 100 .

2 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن عشر . ص 2480 .

3 مجموعة من المفسرين : التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، المجلد الخامس . ص 158 .

4 الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الثامن عشر . ص 123 .

إن هذه اللحظة الزمانية الحاسمة التي يقترب فيها أجل الإنسان ونهايته، تعود بنا إلى اللحظة الزمانية الماضية، وتذكرنا بما قام به نبي الله يعقوب - عليه السلام - حين حضرته الموت، يوصي أبناءه بالتمسك بالإيمان، وعبادة الله وحده، وأن لا يموتوا إلا وهم مسلمون " أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣ "1. هذه قصة موت يعقوب (إسرائيل) - عليه السلام - الأب البيولوجي والروحي الذي يفتخر اليهود بالانتساب إليه، حتى أنهم سموا كيانهم الذي أسسوه في القرن العشرين بدولة إسرائيل. كما تعود بنا إلى التذكير بقصة نبي الله يوسف - عليه السلام - حين اقترب أجله " رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّلَاحِينَ ١٠١ "2. فكل من يعقوب الأب ويوسف الابن - عليهما السلام - ماتا على الإسلام، وعبادة الله الواحد. إلا أن عقيدة التوحيد التي تمسك بها الآباء، قد تناسها من بعدهم الأبناء، وهذه وصية كانت من إبراهيم خليل الرحمن - عليه السلام - لأبنائه " وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يُبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢ "3. فعقيدة التوحيد تبدأ مع الإنسان منذ ولادته إلى مماته " إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ "4. فعقيدة الإسلام بدأت منذ بداية تاريخ البشرية، لأن عقيدة التوحيد هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي الحقيقة الأزلية التي لا تتغير ولا تتطور .

تلك " كانت وصية إبراهيم - عليه السلام - لابنيه ووصية يعقوب لابنيه، الوصية التي كررها يعقوب - عليه السلام - في آخر لحظة من لحظات حياته والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عن الموت وسكراته "5. فلا عجب إذا عرضت القصة القرآنية لحظة الموت والاحتضار، لترجع بنا إلى مشهد إيماني، تقدمه في صورة أحد أنبياء الله، مع أبنائه في لحظة الوداع. ورغم مرحلة التوتر النفسي الذي يصحب لحظة الموت والفراق، تبقى قضية العقيدة والإيمان والتوحيد، مسألة مركزية وأولوية عند الأب المودع، ولدى الأبناء المتمسكين بالدين. وتتلاقى هذه الوصية الأساسية وتتقاطع مع ما جاء في وصية العهدين القديم والجديد، كما أكدها القرآن الكريم في قوله تعالى: "

1 سورة البقرة : الآية 133 .

2 سورة يوسف : الآية 101 .

3 سورة البقرة : الآية 132 .

4 سورة آل عمران : الآية 19 .

5 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الأول ، الجزء الأول . ص 116 .

يَأْيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٠٢" 1. إن المولود الجديد المسلم، تزرع في أذنه لأول مرة كلمة التوحيد - لا إله إلا الله - ويعيش بها طيلة حياته، فإن حضرته الموت نطق بالشهادة، أو لقنت له. فحياته الدنيوية تبدأ وتنتهي ب - لا إله إلا الله - إنها الحقيقة الأزلية، التي يعيش من أجلها كل مسلم " قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٦٣" 2. وهكذا ينبغي أن نستوعب حقيقة الموت وقصته، من خلال ما سرده القصص القرآني الذي يتمحور حول الألوهية والبعث، وذلك ببقاء عقيدة التوحيد مع المسلم، حين يأتي إلى الدنيا، وحين تستمر حياته فيها، وحين تنتهي، لينتقل إلى جوار ربه مستعداً للقائه، مؤمناً به ربا واحدا لا شريك له، وباليوم الآخر .

قدمت القصة القرآنية مشهد التقابل في موقف الاحتضار لدى الكافر، والاحتضار لدى المؤمن، وهذا منهج القرآن الكريم في عرض هذا التقابل، لتمكين المتلقي من استيعاب حكمة وقصدية قصصه. فمشهد الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم - وهم الكفار- يقابله مشهد ما جاء في قوله تعالى: " الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٢" 3 أي " تتوفاهم الملائكة منزهين من الشرك، مطمئني النفوس، وهذا مقابل قوله، في أصدادهم الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم" 4. وهذا الوصف " كما ترى لأناس قضوا أعمارهم في الصالحات، وطابت أرواحهم، بعدما جاءهم الأجل، وهم مثابرون على فعل الخيرات وترك المنكرات. والثمر ينضج في منابته، ويطيب بعد فترة يقضيها، بين الماء والضوء، تتم فيها حلاوته، كذلك يرشح المؤمنون لدخول الجنة" 5. ولهذا تعود بنا قصة الموت إلى الابتلاء ، الذي وضعه الله سبحانه وتعالى للناس حين خلقهم، فقال سبحانه: " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٢" 6. فالله خلقنا للبقاء، وليس للفناء، لكن الخلود يأتي بعد عملية الموت، والانتقال من الحياة الدنيا إلى دار الخلود، بعد أن يذوق كل الناس الموت مودعين عالم الدنيا الفاني .

1 سورة آل عمران : الآية 102 .

2 سورة الأنعام : الأيتان 162 ، 163 .

3 سورة النحل : الآية 32 .

4 الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الرابع عشر . ص 144 .

5 الشيخ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 207 .

6 سورة الملك : الآية 2 .

هناك عالم مختلف كل الاختلاف عن العالم الدنيوي، الذي قضت فيه البشرية زمن عمرها، ولا بد أن نلمس الظاهرة الزمكانية هنا أيضا " ومن قال أن زمن الآخرة هو زمن الدنيا إن هذه لها زمن، وتلك لها زمن آخر ... إذن فزمن الآخرة، وإعادة الخلق فيها سيكون أمرا آخر "1. ولذلك تكرر لفظ - يوم - في مشهد القيامة، للتركيز على عنصر الزمان كحقيقة تقع أمام القارئ " ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم "2. ويتساءل الشيخ الغزالي قائلا: " ولسنا ندري، كم نبقي هنا قبل أن تتبدل الأرض، عشرات ومئات من القرون؟. إن تحديد الرقعة الزمنية غير مهم، المهم هو استبانة الحصاد الأخير، لهذا التاريخ الطويل "3. فكأن الزمن الدنيوي الذي عاشته البشرية عبر مراحلها، التي قطعها كل أمة، تحول في نظر الناس إلى مدة ساعة من نهار. ليجمع الله أول البشرية بآخرها يوم القيامة، وكأن الزمن توحد أمامنا " لكن التوقيت يختلف من مكان لآخر ... ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق، إلا يوم القيامة "4. إذن : ما هي المصادر التي استقى منها القاصص القرآني هذه المشاهد، ابتداء من بداية الاحتضار، إلى ما بعد الموت، وذلك ليعرض هذا المشهد الزمني والغيبى على الناس، إنه ليس بإمكان أي واحد أن يقدر على ذلك. ولهذا فصاحب الخطاب الذي يعلن بأنه هو الذي خلق، فهو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يبعث جميع الناس ليوم لا ريب فيه. " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۗ ۸۷ "5. حيث يسقط كل قناع، ويُفصح أمر كل مكذب، ليستقر المؤمنون في جنان الخلد خالدين، ويستقر الكافرون في عذاب النار خالدين أيضا .

والذي يهمنا هو أن القصة القرآنية، قد تناولت مرحلة المابعد، كما تناولت مرحلة الماقبل، والتي نعتبرها مرحلتين لا زمنيتين، حيث تعيدنا قصة آدم إلى مرحلة بداية خلق البشر، وهم في حالة الذر، حين يُشهدهم الله تعالى على أنفسهم بقوله: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ سَهْوًا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غٰفِلِينَ ۗ ۱۷۲ "6. وقد تعرضنا لهذه الآية في المبحث السابق، حيث وقف المفسرون مختلفين حول تعيين هذه المرحلة من

1 الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المجلد الثامن . ص 434

2 سورة يونس : الآية 28 .

3 الشيخ محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم . ص 151 .

4 الشيخ محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق ، المجلد العاشر . ص 5963 .

5 سورة النساء : الآية 87 .

6 سورة الأعراف : الآية 172 .

حياة البشرية، والتي تدل على مرحلة سابقة، تمت فيها الشهادة ، بوحداية الخالق : لا إله إلا الله .
أما الإشكالية التي نراها هنا، هي في الزمانية، وهذا هو سبب الاختلاف في اعتقادنا، لأن هذا
المشهد هو " مشهد العهد الفطري "1. ويبقى تحديد هذه المدة الغيبية التي لم تحسم بعد، بل أنتجت
الاختلافات المستمرة في فهم فحوى الخطاب " وللکلام تمثيل حال من أحوال الغيب، من تسلط أمر
التكوين الإلهي على ذوات الكائنات، وأعراضها عند إرادة تكوينها، لا تبلغ النفوس التي تصورها،
لأنها وراء المعتاد بالمألوف، فيراد تقريبها بهذا التمثيل "2 ونراها مرحلة ماقبل، و نعتقد بأنها مرحلة
لازمنية .

لهذا فمرحلة الماقبل والمابعد هما مرحلتان لازمانيتان، والتي سايرتهما القصة القرآنية
دون إشكال أو غموض، لإقرار الحقيقة الأزلية. لأن " القرآن الكريم لا يقص قصة إلا ليواجه بها
حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا. إنه يتحرك حركة واقعية حية، وسط واقع حي، إنه لا
يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني "3. فهو وإن تجاوزت قصصه
الزمانية، فإنه يعرض تلك المشاهد الغيبية، في إطار العقيدة والإيمان بالله الخالق، وهذا يجعل
الزمان عنصرا مخلوقا، نتساوى معه، نحن البشر في المخلوقية. ومفهوم الإسلام أن " هذا العالم
خلق بعد إن لم يكن، فليس أزليا ولا أبديا بأي شكل من الأشكال. وقد ابتدأ من العدم، وسوف ينتهي
لقيام الساعة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات "4. فهناك مرحلة سبقت وجودنا هي مرحلة
العدم - اللامكان واللازمان واللاوجود، وأن الله تعالى هو الخالق الموجد، لكل هذا الوجود بمكانه
وزمانه وكائناته " ولكن أهل المشاهد يقولون كما يقول القرآن إننا كنا قبل الميلاد في عالم (يسمونه
عالم الذر) ويكون بعد الموت عالم آخر والحياة أبدية، إنه لا موت، وإنما انتقال وارتقاء في معراج
لا ينتهي صعودا وتطورا وتساميا وكدحا إلى الله "5. كما أن الله هو الذي ينهي هذا الوجود كله،
عند اللحظة الزمانية المعلومة عنده في علمه الغيبي، التي أعلن عنها منذ هبوط آدم وهي : إلى حين

1 سيد قطب : المرجع السابق . المجلد الثالث ، الجزء السابع الثامن . ص 1252 .

2 الشيخ طاهر بن عاشور : المرجع السابق ، الجزء الثامن . ص 168 .

3 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الثامن . ص 1245 .

4 أنور الجندي : المرجع السابق . ص 152 .

5 . مصطفى محمود : رحلتي من الشك إلى الإيمان . ص 53 .

لا يستطيع النقد أن يتناول تلك المراحل للوجود والعدم، وماذا عساه أن يقول؟ كما لا يستطيع العلم، أن يقول أي كلمة في هذا الميدان. إن مرحلة اللازم لم تتناولها المنظومة السردية على الإطلاق، ولن يتناولها النقد أبداً، لأن كلا من السرد والنقد مربوطان بما يؤلفه البشر من زمانيات مؤقتة، حسب طبيعتهم المحدودة، وحتى توظيف الخيال لا يفيد في طرح المسائل الغيبية. أما قضية الصدق الفني، ف" يجب أن يفرق بينها وبين الصدق اللحظي، وبين صدق القناعة المستمرة "1 فالفرق بينهما شاسع، ولا ينبغي أن نتحجج بالصدق الفني لشرعنة الكذب والخرافة والإلحاد، لأن " الفكر الإنساني في حالة تحول دائم، ولا يبقى منه سوى الإبداع المنسق، مع الحقائق الكلية المطلقة "2. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم " كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبُطْلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧ "3. فلا بد للإنسان أن يتبين طريق الحق، كما عليه أن يتبين طريق الباطل، وهي مقارنة واعية للوصول إلى حقيقة الوجود، والهدف منه، لمعرفة رب الوجود، والإيمان به .

إن " الحق في هذا القرآن لبين، وإن حجة هذا الدين لواضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه، إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده. وإنهما لطريقان لا ثالث لهما، إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم. وإما ما ران في الحق واتباع الهوى، فهو التكذيب والشقاق. ولا حجة من غموض في العقيدة، أو ضعف في الحجة "4. وأمام ما قدمته القصة القرآنية من حقائق في عالمي الشهادة والغيب، لا يمكن أن يُقاس بما ذهب إليه خيال المبدعين، ولا ما ابتكرته أساطير الشعوب الوثنية في حالتها الطفولية، ولا ما افترضته نظريات فلاسفة الوجود والإلحاد، ولا مذاهب الماديين والعقلانيين في قضية الخلق والغيب. لهذا تقف القصة القرآنية لوحدها صامدة في هذا المجال المعجز، متفردة ومتميزة عن كل عمل سردي وهذا وجه من وجوه الإعجاز الذي لا يطيقه البشر أبداً، حتى ولو اجتمعوا له .

لقد سايرت القصة القرآنية الحدث الوجودي العظيم، باستيعابها كل مراحل الزمن، من بدء الخليقة، ومسيرتها في الدنيا إلى نهاية الحين، ومرحلة اللازم من بعد الموت، إلى أن ينفخ في

1 المرجع نفسه . ص 152 .

2 أنور الجندي : المرجع السابق . ص 164 .

3 سورة الرعد : الآية 17 .

4 سيد قطب : المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الجزء العشرون . ص 2699 .

الصور " يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨ "1. لتبدأ مرحلة الخلود والاستقرار. وهكذا تدخل القصة القرآنية إلى الأبد، ويهيمن النص القرآني هيمنة مطلقة خالدة، تتلاشى أمامه زمانية كل نص سردي، ليعلن على التحدي المعجز والمستمر، وتتجلى قدرة الله الخالق في هذه الإعجازية التي خرقت كل حجب الغيب الذي احتفظ الله سبحانه وتعالى به لنفسه، ولم يطلع عليه أحدا، إلا من ارتضى من عباده. كما تظهر حقيقة محمد وإخوانه من الأنبياء والرسول - عليهم الصلاة والسلام " مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ "2 بهذه العبارة القرآنية الوجيزة لخص الوحي حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم وبالرسالة الإلهية وحدها يجب أن يُعرف دون سواها .

وما القرآن الذي نزل عليه إلا كتاب من عند الله تعالى، وعلى هذا الأساس، يجب أن يُدرس النص القرآني، لمعرفة قصصه الذي سيقى يرتل على الامتداد الزمني. وتزداد دائرة المتأثرين به، والمؤمنين بحقيقته، وبمصدره الإلهي عبر الأجيال المتلاحقة، منذ زمن إقرأ. وإذا كان البعض قد وقف من القصص القرآني، ناكرا حقيقته أو إعجازيته، فهذا لن يوقف تلاوة الوحي عامة، وتلاوة قصصه خاصة. فمقروئية القصص القرآني تبقى متواصلة على مدار الزمن والأجيال. إن القصة القرآنية بأحداثها المتجسدة في العالمين الدنيوي والأخروي، بمراحل الزمن واللازم، تتحدى دائرة النقد المقيدة بحركة إنتاج النص المتزمن. لأن " النقد معرفة، ويطمح أن يكون علما، ولكنه علم بغيره، وليس علما بنفسه "3. والنقد إن بقي تابعا لما تنتجه إبداعات الآخر، والتي لا يكون لنا فيها - نحن المسلمين - أي مساهمة أو اجتهاد، إلا القليل النادر، فماذا يجب علينا، أن نبحثه في النص القرآني عامة، وقصصه خاصة ؟ وقد أعلن القرآن صراحة على أن قصصه أحسن القصص " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ٣ "4. وبهذا تصبح القصة القرآنية النموذج السردى الوحيد الذي توضع على منهجه مقاييس النقد الأدبي. هذه المقاييس التي تفتح لنا طريقا يثير فكرنا، والذي يبقى يعالج الإشكالية الأدبية والفنية تلوى الأخرى لتوضيحها وتبسيطها، لا لتعقيدها وإبهامها. وبالتالي فهل تساءل سارد ذات يوم، حين يبدأ

1 سورة النبا : الآية 18 .

2 سورة الفتح : الآية 29 .

3 د . عبد السلام المسدي : الأدب وخطاب النقد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، الطبعة الأولى ، بيروت 2004 . ص 297 .

4 سورة يوسف ، الآية 3 .

عمليته السردية، عن موجد المكان والزمان ؟ أم يبدأ عمله متجاهلاً ذلك، لأنه يتجاهل ذاته وطبيعته البشرية، ليتجاهل عظمة خالقه الحي القيوم .

على النقد إن كان يبحث حقيقة الظاهرة الإبداعية وبعدها، أن يبحثها في الظاهرة الزمكانية، لا كما يتصورها خيال المبدع والفنان، بل كما أبدع خلقها، الخالق المبدع. وكما عرّضها في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكما يبحث العلماء في الكتاب المنظور ليستخرجوا السنن، والقوانين والنظريات، وفق ما رتبها الله سبحانه وتعالى ، فكذاك على الأدباء والنقاد أن يبحثوا في كتاب الله المسطور، إشكالية الزمكانية، ليستخرجوا النظريات الأدبية والنقدية. إن القصة القرآنية قد رسمت لنا استراتيجية فريدة ومتميزة عن باقي الفن القصصي والروائي، في التعامل مع الظاهرة الزمكانية. لكن غرور التطاول على النص القرآني من طرف المتعصبين العلمانيين، والاستسلام للنظريات النقدية إلى حد التقديس، هو الذي أدى بالشذوذ الفكري، والانحراف عن المنهج القويم، إلى تعظيم الصنم الميت الذي نحتته يد الإنسان، والإعراض عن التدبر في إبداع خلق الإنسان الحي ، وخالقه المحيي .

إن هذا التحدي المزعوم لا يخدم إيماناً ولا فكراً ولا أدباً ولا نقداً، بقدر ما يجعل الجهود تتلاشى وتضيع، لتتحول إلى مفلسين في رصيد العقيدة والأفكار، تنسولها من الآخرين. وفي حقيقة الأمر، أننا وجدنا في دراسة القصة القرآنية مجالاً واسعاً وخصباً لبحث الظاهرة الزمانية التي تتجلى ضمنها الظاهرة الإعجازية. ليقف النص القرآني عبر مسابرة الزمن، يرسم طريق الأزلية والخلود، باحتوائه لكل مراحل الوجود والعدم، والزمن واللازمن، والماقبل والمابعد. لا يعرف الحدود الزمانية التي يتوقف عندها السرد، ويكشف للدارس عن بنائه التناسقي المحكم. فزمانية القصة القرآنية تكشف عن ميزتها، بتفردها عن الفن القصصي. ويلفت الوحي انتباه المتلقي إلى تكرار الآيات ذات الدلالة الزمانية المباشرة، وغير المباشرة، مما يسترعي انتباه القارئ، ليقنتع أن هناك سرّاً يكمن في توظيف النص القرآني للزمن، والمحور الملائم لدراسة موضوع الزمن في القرآن الكريم، هو محور القصص. ليتبين لنا وفق ما استطعنا أن نتوصل إليه هو أن القصة القرآنية انفردت بخاصية توظيف الزمن واللازمن. هذه الميزة الفريدة هي التي عملنا على معلجتها في هذا البحث ودراستها، حين دلنا الخطاب القرآني على طرح مجال النسبية، والخارق والغيب في توظيف الزمن .

إن " الزمنية السردية القرآنية تدمج المطلق والغيبى في منطقتها، وتجعل من الفضاء النصي إطاراً تتأصل فيه إرادة علوية تدير الوجود، وتسوق مؤسساته السردية في اتجاه متحرك متوثب يطوي المكان، ويربط الحسي الأرضي، بالروحي السرمدي، إقراراً للوحدانية"¹. ليتيقن المتلقي المؤمن أن من وراء ذلك قصداً وحكمة، كما من وراءه استفزازاً وتحدياً لمنكري الوحي والرسالة والله والبعث. ولا بد أن نفرق بين توظيف البشر للزمن في منتجهم الإبداعي، بقدرتهم المحدودة، وبين توظيف الزمن في النص القرآني عامة، والقصص القرآني خاصة، حيث تتجلى طلاقة قدرة خالق الزمن وخالق البشر. والمقارنة الجادة هي المنهج الوحيد والكفيل الذي يقف على الفروقات الواضحة بين النص الإلهي، والنص البشري، وبين اللامتناهي والمتناهي.

وعلينا أن نبقي ضمن إطار النص القرآني، دون أن نتجاوزه، أو أن نحمله ما لم يحمل. وأن الله عز وجل قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في كلامه الذي لا يزول: " قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤٩ "2. وليس هناك تحد أبليغ من هذا وأوضح، فأى كتاب في العالم الآن يحظى بهذا الاهتمام البالغ؟. ومن كل طبقات المجتمع المختلفة، ومن كل المستويات الثقافية والفكرية، ونصوصه بصفة عامة، وقصصه بصفة خاصة، يتلوه كل الناس كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، بعيدهم وقريبهم. عربهم وعجمهم، وفي أغلب الحالات يجتمع الناس - وهم من مختلف الجنسيات - يتلون هذا الكتاب بلسان عربي مبين، وكان ذلك منذ زمن إقرأ، وبقي إلى الآن، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

¹ د. سليمان عشراي: المرجع السابق. ص 216.

² سورة القصص: الآية 49.

الختام

القصص القرآني إذ ذكر للعبارة والحكمة، فهو يسير في اتجاه عقيدة التوحيد لإثبات حقيقة الألوهية، ووحداية الخالق، ونفي كل شرك بالله تعالى، كما يدفع للإيمان بيوم البعث، وهذا ما اهتم به القرآن الكريم في عرض قصصه. وقد رأينا كيف يقف القرآن الكريم معلنا طلاقة القدرة الإلهية، أمام البشر المخلوقين، والمربوبين لله تعالى، والخاضعين لإرادته ومشينته العليا، وعلمه المطلق سبحانه وتعالى. ليتضح الفرق بين اللامتناهي والمتناهي، بين المطلق والنسبي، بين الله الخالق، والإنسان المخلوق. وهذا هو الخط الأساسي لنهج القرآن الكريم، والمحور المركزي الذي دار عليه قصصه. وبالتالي نصل إلى أن توظيف أي عنصر من عناصر السرد، ضمن القصة القرآنية، سواء كان مكانا، أو زمانا، أو حدثا، أو خطابا، أو شخصا، فهو توظيف لا يكون إلا خدمة لعقيدة التوحيد، ونبذ كل شرك وكفر، ولا يخرج أي عنصر من السرد، عن هذا الإطار التوظيفي. وبناء على هذا الأساس تم التوصل إلى نتائج البحث التالية :

أولا : توظيف الزمن في القصص القرآني، لم يكن أبدا إشكالية، كما هو الشأن في القصة الفنية، لأن القرآن الكريم لم يُبهم عنصر الزمان، ولم يهمله. وإنما الذي يحدد توظيف الزمان في عملية القص، هو الإطار الديني، ومن خلاله يتحدد منهج القرآن الكريم في توجيه قصصه وسرد أحداثه. الأمر الذي أدى إلى توظيف الزمان، بمستواه النسبي الغيبي والخارق، كظاهرة إعجازية تؤكد طلاقة القدرة الإلهية، ومصدر الوحي الإلهي.

فموضوع الزمن في القصص القرآني ليس إشكالية بالمفهوم الفلسفي أو النقدي أو الفني، ولن يكون كذلك. بل هو موظف وفق ما تمليه حقيقة العقيدة، وليس ما تمليه الأحداث. وإن خضوع الزمان لقدرة الله تعالى ومشينته، باعتباره خَلقا من مخلوقاته، وكل عناصر القصة متساوية في المخلوقية، وخاضعة لإرادة السارد - الله تعالى - الفوقية، التي تتحكم في توجيه الأحداث وتسطيرها، ورسم نهاية كل قصة، ومصير كل الشخصيات أفرادا وجماعات، حسب موقف كل منهم من عقيدة التوحيد، سلبا وإيجابا، كفرا وإيمانا. فالقرآن الكريم اهتم بتوظيف الغيبي والخارق ليتجاوز حدود علم وقدرة البشر المخلوقين، وليثبت خضوعهم لعامل الزمن في حركاتهم وأفعالهم وأقوالهم. وأن أي فعل خارق أو غيبي، تم سرده في القصص القرآني، لم يكن إلا انعكاسا لطلاقة القدرة الإلهية اللامحدودة، مقابل طبيعة الخلق المحدودة، ليتم التمايز بين اللامتناهي والمتناهي، بين الوجود

الأزلي الأبدي، والوجود المبتدئ بزمن، بين الله الخالق العليم، وبين البشر المخلوقين المحدودين ، بين وحي الله الخالد، وبين كلام البشر المتزمن .

ثانياً : تفصيل القرآن الكريم لمدة زمنية في قصصه، هو لحكمة بليغة، ولهدف ديني في المقام الأول. وهذا ما جعل ذكر وإحصاء الزمن مفصلاً بمدته - أيام، شهور، سنوات - لا يكون إلا حالة استثنائية، وفي بعض القصص دون الأخرى، يدل على مقصد ديني أسمى، وحكمة إلهية، كزمن مدة خلق الكون، ومدة مكوث نوح - عليه السلام - بين قومه، ومدة نوم أهل الكهف، ومدة العروج إلى سدرة المنتهى، ومدة ميقات موسى - عليه السلام - ومدة إحضار عرش ملكة سبأ. كما وظفت القصة القرآنية إشارات وشفرات، للدلالة على قضايا وحقائق دينية وتاريخية، وعلمية ولغوية متنوعة، تحتاج إلى طاقة تفسيرية، وموسوعة معرفية لاستيعابها. وأن تلك الإشارات والشفرات التي عرضتها القصة القرآنية، متداخلة مع بعضها البعض، في انسجام يمثل تاريخ العقيدة وتاريخ البشرية منذ آدم، ويؤكد وحدة دعوة الرسل والأنبياء التي كانت قائمة وثابتة على توحيد الله تعالى وعبادته. وبهذا ترسم لنا القصة القرآنية ميزة الخطاب الإلهي الممتد عبر الزمن، والذي يتميز بخاصية الإعجاز والخلود، متفرداً عن كل الخطابات البشرية المبتدئة بزمن.

كما وظفت القصة القرآنية، الزمن وفصلته في بعض المشاهد لتجعله يتقاطع مع أزمنة أخرى. حيث تجعل مدة زمنية سابقة لنزول الوحي ولزمن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم متشابهة، لتتلاقى المدتان في معلم مشترك متساو زمني ومتشابه، كتساوي مدة مكوث موسى - عليه السلام - في مدين، مع مدة مكوث الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة. كما تم توظيف الزمن النفسي - السيكولوجي للتركيز على موقف الرسل من أقوامهم، وموقف الأقسام المنكرين لدعوة الرسل، كالكفر بالله والتكذيب بيوم البعث، واستعجال العذاب، مقابل صبر الرسل والمؤمنين، ليصبح هذا الموقف عاملاً في تمديد الزمن النفسي وإطالة مدته، ليأتي بعد ذلك نصر الله بنجاة رسله والمؤمنين، وإنزال العقاب المباغت على الكافرين في الدنيا وإهلاكهم، ثم إدخالهم جهنم خالدين فيها، إبرازاً لسنن الله الخالدة، وتثبيتاً لعدل الله وحكمته وقضائه .

ثالثاً : تفرد منهج القرآن الكريم في توظيف الزمن في قصصه، عبر المستوى الخارق والغيبى، حيث يستحيل توظيف الزمن بتلك المستويات في المنظومة السردية الفنية والتاريخية، والتي يكون

فيها توظيف الزمن توظيفاً موضوعياً محدوداً، لا يتعدى نظرة السارد الضيقة للأحداث الماضية، وبمعالجة جزئية مؤقتة. لكن القصة القرآنية سايرت وتساير مراحل الزمن من بداية الخلق إلى نهايته، ثم تتعدى المرحلة الدنيوية إلى الآخروية، لتشمل مرحلتى الماقبل والمابعد. وهما مرحلتان لازميتان، لتؤكد وجود الخالق الأزلي قبل الزمكانية، وخلوده الأبدي بعد فناء الكون مكاناً وزماناً وشخصاً. فالقصة القرآنية هي النص الوحيد والمصدر الأوحى الذي يقدم لنا قصة حقيقة الخلق والحياة والوجود، والمصير والإنسان. كما تقدم لنا حقيقة الله الحي القيوم الذي يحيي ويميت. وأن كل الكون - بما فيه ومن فيه - يستمد وجوده من الله تعالى، وهذا ما يؤكد بداية الوجود ونهايته، مما يدل دليلاً قاطعاً على أن لهذا الكون خالفاً قد بدأه ثم سينتهي، وفق علمه ومشيئته، بالمدة الزمنية التي يرجع علمها له وحده سبحانه وتعالى .

رابعاً : قصة الخلق القرآنية هي بداية الزمكانية، التي تحيل على حقيقة المكان المقدس، المكان المركزي للكون الذي يتوجه إليه الناس مع اختلاف ألوانهم وأقوامهم وألسنتهم، في زمن معلوم، ليفقوا في لحظة زمنية واحدة، معلنين وحدانية الله سبحانه وتعالى، لتبين مكانة المكان المقدس عبر التاريخ. وهذا ما يمثل حقيقة عقيدة التوحيد، ويثبت أن الدين عند الله الإسلام. كما يكون هذا المكان، هو مكان نزول وحى الله، وكلامه الخالد. المكان الذي انطلقت منه دعوة التوحيد برسالة خالدة خاتمة وشاملة. وهذا بعد ما تم بعث كل رسول إلى قومه بالمكان والزمان المختصين. وبهذه الرسالة الشاملة الخاتمة يبقى الإعلان عن توحيد الله تعالى وتكبيره وتسبيحه، والركوع والسجود له وحده، متواصلاً عبر الامتداد الزماني والمكاني. هذا ما تجسده حقيقة قصة بيت الله الحرام - البيت العتيق - وحركة طواف المسلمين حوله، على مدار الليل والنهار، دون انقطاع أو توقف، إلا بوقوفهم بعرفة يوم الحج الأكبر. وبهذا يُستوعب منهج القرآن الكريم في توظيفه الزمن ضمن قصصه. كما تستوعب حقيقة خلق الإنسان في قصة آدم، لتأدية رسالته السامية في هذا الوجود، وهي عبادة الله وحده - **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** - ولهذا كانت فاتحة كتاب بقوله تعالى - **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** - كما كانت بداية التنزيل - **أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** - لتعطي بداية زمكانية تبين طبيعة الإنسان المخلوق بإرادة الله الخالق، والتي تتطلب من الإنسان العبد المخلوق حمد الله الخالق المعبود، على الدوام المتكرر، تكرر تلاوة الفاتحة في الصلاة .

خامسا : تُجسد قصة بيت الله، ورفع القواعد منه، حقيقة الزمن الغيبي. كما تبيّن قصة محمد صلى الله عليه وسلم صدق النبوءة والرسالة، ليتم استيعاب حقيقة إشكالية الزمن، والصراع حول مركزية المكان والسلطة الزمانية في بقاء اليهود منتظرين مخلصهم ليعيد لهم في المستقبل بناء الهيكل الخرب كمكان مركزي. وبقاء النصارى منتظرين عودة المسيح ليدين العالم، وينعم النصارى بالحياة الأبدية. وبقاء طائفة من المسلمين في انتظار صاحب الزمان، ليملاً الأرض عدلاً. إلا أن الله تعالى أنزل وحيه، يوم الحج الأكبر قائلاً - أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا - . معلناً إتمام دينه وختم رسالته برسوله الخاتم. وبهذا حُلّت إشكالية الزمن الغيبي بقصة فتح البيت، وبقائه إلى أن يشاء الله، قبلّة لكل المسلمين في كل مكان، مقصداً للحج والعمرة، تلبية للأمر الرباني، ولإعلان وحدانية الله - لا إله إلا الله - الحقيقة الأزلية .

سادسا : قامت القصة القرآنية بحل إشكالية البعث في عالم الخلود، بعرض مشاهد إحياء الموتى في الزمن الدنيوي، بسرد قصة بقرة بني إسرائيل وذبحها، وضرب الميت بجزء منها، لإعادة الحياة له. وقصة بعث الذي مر على القرية الخاوية على عروشها، بعد موته مائة عام. وقصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وسؤاله ربه أن يريه كيف يحيي الموتى. وبعث من اختارهم موسى - عليه السلام - بعد موتهم وهم سبعون رجلاً. وقصة ميلاد سيدنا عيسى - عليه السلام - بدون أب، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله تعالى. بالإضافة إلى قصة أصحاب الكهف، وبعثهم من نومهم بعد قرون من الزمن. وكل هذا لتأكيد حقيقة البعث الذي تُستعصي حقيقة استيعابه، إلا بمبدأ الإيمان بخالق الله تعالى ، وطلاقة قدرته وعلمه .

سابعاً : قدم القصص القرآني حلاً لإشكالية الزمن المتناهي، وحقيقة الله الواحد الأحد الأزلي، الذي لا أول له ولا آخر، بعرض قصة المكان والزمان، بخلق الكون. وعرض قصة الإنسان بخلق آدم وزوجه. وعرض قصة الوجود، بخلق الحياة والموت. وعرض قصة المصير والعقيدة بسرد قصص الأمم والأفراد، والرسل والأنبياء. كما قدمت القصة القرآنية حقيقة الألوهية: بعرضها قصة موسى - عليه السلام - حين طلب النظر إلى ربه، فاستحالت عليه رؤية الله تعالى - ليقف عند حدوده البشرية. كل هذا كان من أجل الهدف الأسمى، والوصول إلى الإيمان بالله تعالى الذي ليس كمثله شيء ، وبيوم البعث الذي لا ريب فيه .

ثامنا : القصة القرآنية قصة كونية، مكانها الكون كله، وبيت الله هو مركز الأرض، وشخص القصة القرآنية هم خلق الله - الملائكة والجن، والناس من أولهم إلى آخرهم - وخير الناس هم أنبياء الله ورسله والمؤمنون بهم. أما شرارهم فهم الشيطان وجنوده من الإنس والجن. وزمنها هو زمن الوجود ابتداء ونهاية، ثم الولوج إلى عالم الخلود، للدلالة على الحقيقة الأزلية : لا إله إلا الله ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن.

وأخيرا فالقصاص القرآني يبتدئ وينتهي بوحداية الله، وحياة البشر تبدأ من الله - أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - وتنتهي إليه سبحانه تعالى - إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ - كما - اللَّهُ أَلَمُّ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ. وبهذا كانت قصة نزول الوحي الذي يُعرف الإنسان بحقيقة مَنْ خلقه، ولماذا أوجده ؟ وإلى أين يصير؟. ولن تقدر البشرية أن تعلم ذلك يقيناً، ولا أن تدرك حقيقة الموت والحياة، والوجود والمصير، إلا من خلال كلام الخالق الحق الذي - لَّا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلًا مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ - وهو القرآن الكريم المنزل على عبده ورسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم .

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

قائمة المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات

الآية	الصفحة
ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَّلْنَا	55
ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَّا	390
ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ	135
ءَأَلَّنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ	150
ءَأَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا	87 . 57
ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدَّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ	424
ءَأَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ	336
ءَأْتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ	111
ءَأَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ	424
ءَأَتَّخِذُوا أَحِبَّارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَحْدًا	313
ءَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا	390
ءَأِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ	209
ءَأِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى	233 . 32
ءَأِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِ ءَأَيُّنَا قَالَ أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ	108 . 46
ءَأِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا	112
ءَأِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ	159
ءَأِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ	154
ءَأِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ	186
ءَأِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يُمَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ	189
ءَأِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ	272 . 93
ءَأِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ	372
ءَأَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ	229
ءَأِرْمِ ذَاتِ الْعِمَادِ	129
ءَأَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونََنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ	190
ءَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ	130

- 358 أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
- 16 أَفَعَبَّرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ
- 8 أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
- 4 أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
- 28 الرَّ كِتَابٍ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
- 129 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
- 129 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
- 20 أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ
- 129 أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ
- 133 أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ
- 134 أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ
- 55 أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ
- 358 أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ
- 367 . 250 . 188 أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا
- 372 . 157 أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
- 419 أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
- 456 . 398 . 251 . 213 . 75 . 66 . 11 . 3 أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
- 398 . 75 أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ
- 402 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ
- 350 إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ
- 402 إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ
- 239 الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ
- 438 . 371 . 240 . 138 الرَّ كِتَابٍ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
- 78 الرَّ كِتَابٍ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
- 369 أَلَا تَنْزُرُ وَازِرَةً وَّرَرَ أُخْرَىٰ
- 438 أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
- 402 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ
- 384 إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

- 169 إِلَهُهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ
- 62 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
- 211 . 98 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
- 161 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
- 372 . 215 أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
- 338 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
- 352 أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْتَنِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ
- 269 أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ
- 211 . 98 أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ
- 131 أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ
- 174 أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
- 290 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا
- 421 أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
- 43 أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَبَهُ فَلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
- 109 أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ
- 476 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي
- 369 أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى
- 124 . 26 إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
- 72 إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
- 359 إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ
- 191 . 120 إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
- 394 إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
- 23 إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ
- 161 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
- 17 . 4 إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
- 179 . 5 إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ
- 259 إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
- 242 . 43 . 34 . 8 إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

- 455 . 144 . 91 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
- 358 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا
- 445 إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سِنًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ
- 202 إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
- 275 إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
- 307 . 102 . 94 . 92 إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ
- 102 إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ
- 76 . 75 إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ
- 82 إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
- 113 إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ
- 186 إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
- 133 إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ
- 384 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
- 161 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
- 394 إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
- 66 إِنَّ قُرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ
- 146 إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا
- 193 إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ
- 331 إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصِلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
- 167 . 127 إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
- 338 إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ
- 272 إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون
- 108 إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ
- 385 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ
- 345 أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَىٰ
- 345 إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْرُّجَعَىٰ
- 424 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خُمُودٌ
- 239 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

- 406 . 268 . 220 إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
- 247 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ
- 54 إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ
- 54 إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
- 419 إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
- 208 إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا
- 248 إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ
- 55 إِنَّا لَمُعْرَمُونَ
- 239 إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
- 395 إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ
- 131 إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا
- 57 إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
- 222 إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا
- 466 إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ
- 299 إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي
- 424 إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَّلٍ مُبِينٍ
- 458 . 424 إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ
- 324 إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرَّجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا
- 338 إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ
- 364 إِنَّهُ لَقَرِيبٌ
- 134 أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ
- 234 أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خَلَّلَهَا تَفْجِيرًا
- 234 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُةٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا
- 71 أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ
- 234 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ رُّحْرَفٍ أَوْ تَرَفَىٰ فِي السَّمَاءِ
- 168 أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
- 433 . 49 أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا
- 13 أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

- 352 أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتْ عَدَنٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
- 353 أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَنًا
- 170 أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
- 349 أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ
- 112 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا
- 26 . 10 بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
- 55 بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
- 113 بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
- 239 بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ
- 458 بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ
- 195 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
- 372 تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
- 137 تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
- 8 تَبْرَكَ الَّذِي يَبْدِئُ الْمَلَكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
- 84 تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ
- 66 تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَجَةُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
- 389 . 122 تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ
- 133 . 126 تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ
- 143 تِلْكَ الْفَرَىٰ نَفْسٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ
- 167 تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا
- 199 تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ
- 470 . 467 تَرَجَعْنَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
- 352 تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَابِيَةٍ
- 352 تُصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً
- 219 . 171 تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ
- 350 تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ
- 134 تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
- 69 . 9 تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ

- 129 أَلْتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ
- 57 ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا
- 149 ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى
- 24 . 13 ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِينَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ
- 147 ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ
- 406 . 220 ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا
- 406 . 220 ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا
- 71 ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى
- 161 . 47 ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجَرْبِينَ أَحْسَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا
- 125 ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
- 142 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ
- 142 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا
- 215 ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا
- 317 . 314 ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ
- 183 . 158 ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْصِنُونَ
- 183 . 58 ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ
- 369 ثُمَّ يُجْرِنُهُ الْجِرَاءَ الْأَوْفَى
- 320 جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَاللَّهْدَى وَالْقَلْبَدَّ
- 89 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ
- 42 حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ
- 221 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
- 60 . 57 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا
- 57 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا
- 57 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
- 89 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ
- 359 حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
- 408 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
- 421 . 413 حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ

- 475 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ
- 280 .252 .11 .2 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
- 103 أَحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
- 455 .144 خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
- 348 خُشَعًا أَبْصَرُوهُمْ يَخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ
- 418 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ
- 398 .260 .75 .23 .3 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ
- 335 .258 .124 خَلَقَ الْإِنْسَانَ
- 216 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ
- 217 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
- 122 ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ
- 123 ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ
- 258 .167 .126 .91 .71 .45 ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
- 190 ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ
- 167 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْسُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ
- 187 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
- 274 ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ
- 374 ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُؤَفَّكُونَ
- 213 .75 الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
- 169 الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ
- 316 الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ
- 169 .98 الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ
- 103 الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
- 353 الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا
- 330 الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي النَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
- 107 الَّذِينَ يُكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ
- 91 .45 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
- 20 الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ

478. 466. 51. 8 الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
- 43 الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وَفَعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
- 478 الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
- 2 ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانَّىٰ تُؤْفَكُونَ
- 17 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهٖ خَيْرٌ
368. 105 رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ
- 477 رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
- 152 رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ
- 115 رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا
302. 98 رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ
- 352 رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ
275. 94 رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ
275. 95 رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ
258. 124 الرَّحْمَنُ
- 390 رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا
- 360 رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
235. 230. 96 سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ
- 123 سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا
- 364 سُنِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
- 103 سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا
- 199 سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ
- 142 شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
- 248 شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ
- 341 ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّنَ مَا تَوَفَّوْا إِلَّا بِحَبَلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبَلٍ مِّنَ النَّاسِ
453. 233. 32 عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ
- 74 عَلَّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ
- 239 عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ
291. 161 عَلَّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ

403	عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
213 . 75	عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ
258 . 124	عَلَّمَ الْقُرْآنَ
335 . 258 . 124	عَلَّمَهُ الْبَيَانَ
108	عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى
453 . 233 . 32	عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
453 . 233 . 32	عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى
55	عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رُغْبُونَ
195	غُلِبَتِ الرُّومُ
344	فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
424	فَأَمَّنُوا فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَى حِينٍ
147	فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ
69	فَاتَّبَعْتَهُمْ فَرَغَوْا بَعْضٌ مِّنْ آلِيهِمْ مِّنْ آلِيهِمْ مَا غَشِبَهُمْ
57	فَاتَّبَعَ سَبَبًا
439	فَأَنْتَ بِهَا قَوْمًا تَحْمِلُهُ قَالُوا لِمَ رِمْتِ لَدًّا جَنَّتِ شَيْئًا فَرِيًّا
312	فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا
150	فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْزَةِ وَالْأُولَى
149 . 68	فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَهُمْ فِي آلِيهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ
190	فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
274	فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَفُوعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ
159	فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ
350	فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ
350	فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ
174	فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
150	فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
76 . 31	فَأَرَاهُمَا السَّيْطَانُ عَنَهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
189	فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدَافِ صَبِيًّا
140	فَاعْرَضُوا قَارِئًا سَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيِّلَ الْعَرَمِ

- فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 474
- فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ 147
- فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً 111
- فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 348
- فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ 336
- فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ 133
- فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ 123
- فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا 47. 160
- فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ 70
- فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ 147
- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ 429
- فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ 399
- فَأَلْفَيْ السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ 152
- فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً 367
- فَنَقَلْنَاهَا رُبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَأَنْبَتْنَاهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا 187
- فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَكْرًا 348
- فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ 54
- فَجَعَلْنَاهُمْ جُدَدًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعْلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ 337
- فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 147
- فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ 54
- فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً 341
- فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَرْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْوَاجًا 83
- فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَرْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْوَاجًا 12. 13
- فَفَضَّلْنَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا 15
- فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ 467
- فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ 467. 470
- فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا 91
- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ 149

- 403..... فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنَ
- 84 فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرَ
- 149 فَكَذَّبَ وَعَصَى
- 149 فَحَسَرَ فَنَادَى
- 98 فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا آلْبَيْتِ
- 338 فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
- 342 فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِيَّيَ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى
- 147 فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ
- 147 فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَحْسَنِ
- 337 فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ
- 337 فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
- 337 فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُفَوِّمُ إِيَّيَ بِرِيءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
- 220 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا
- 150 فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ
- 98 فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ
- 94 فَجَعَلَهُمْ جُذُأًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
- 84 فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَّرٍ
- 66 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ
67. 66 فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ
400. 263 فَذَلَّلَهُمَا بَعْزُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِيفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
- 25 فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ
- 306 فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ
- 84 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ
- 209 فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا
- 223 فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا
- 188 . 51 فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ
- 91 فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا
- 75 ففَلْنَا يَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى

- 420 فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ
- 87 57 فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا
- 64 فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا
- 67 فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِبَةٌ عَلَىٰ غُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصْرٍ مَّشِيدٍ
- 411 فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَدُوبٍ
- 410 290 فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ
- 117 فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا
- 412 فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعِدَّةَ رَسُولَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ
- 156 فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا
- 64 فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا
- 85 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ
- 228 فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمِينَ قَالَ أُنْمِدُونِنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَا اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ
- 182 فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
- 378 فَلَنُقَصِّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ
- 423 فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
- 169 فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
- 350 فَمَنْ تَقَلَّتْ مُوزِنُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ
- 321 فَنَادَلَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا
- 195 فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَّغِيُونَ
- 195 فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
- 368 فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
- 364 فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ
- 199 فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ
- 399 فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ
- 406 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا
- 173 فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُواهُمَا فَوَجَدَا
- 406 إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
- 405 فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السُّوفْيَانَ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ

- 173 فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالِ أَحْرَقْنَاهَا لِتَحْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا
- 173 فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْنَا غُلْمًا فَقَتَلَهُ
- 176 فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا
- 340 فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
- 307 .274 .96 .94 فِيهِ ءَايَةٌ بَيِّنَةٌ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا
- 352 فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ
- 352 فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ
- 401 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
- 401 .397 قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ
- 401 قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ
- 173 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
- 189 قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا
- 173 قَالَ أَقَاتَلْتَ نَفْسًا رَّكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا
- 398 .82 قَالَ يَا أَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ
- 220 قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا
- 228 قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ
- 93 قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ
- 158 قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ
- 147 قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ
- 346 .190 قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا
- 57 قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا
- 350 قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
- 350 قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ
- 443 قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ
- 57 قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
- 151 قَالَ يُمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا ءَاتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ
- 148 قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنَادِي بِهُنَّ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَلِي حَجًّا
- 148 قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتَ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

- 173 قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا
- 173 قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
- 191 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا
- 87 . 57 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي دَعَاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا
- 155 قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
- 156 قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
- 358 قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا
- 152 قَالَ ءَأَمْنُكُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحَرَ
- 183 قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُوهُ فِي سُبُلٍ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ
- 184 قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ
- 353 قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
- 227 قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ
- 402 قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ
- 402 قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
- 402 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ
- 402 قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ
- 306 قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
- 445 قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
- 406 قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۚ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا
- 406 قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا
- 227 قَالَ عَفْرَيْتَ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ
- 173 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
- 353 قَالَ أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ
- 416 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا
- 416 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
- 407 قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا
- 415 قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَاسِقِينَ
- 269 قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

- 188 قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
- 394 قَالَتْ يُؤْتِلَنِي آءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ
- 55 قَالُوا يُؤْتِلَنَا إِنَّا كُنَّا طُغْيَانٌ
- 55 قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
- 350 قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِ الْعَادِيْنَ
- 45 قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ
- 462 . 265 . 177 . 82 قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
- 394 قَالُوا أَنْتَعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
- 342 قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلْمٍ عَلَيْكَ
- 443 قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْرَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ
- 337 قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ
- 87 قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَا جُوجَ وَمَآ جُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
- 151 قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا
- 152 قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
- 352 قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ
- 424 قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ
- 411 . 86 قَالُوا يٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ
- 153 قَالُوا يٰمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ
- 185 قَالُوا أَعَيْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
- 385 قَالُوا يُؤْتِلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ
- 424 قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ
- 103 . 100 قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا
- 289 قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ
- 338 قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
- 426 . 62 . 37 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
- 426 . 62 . 37 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
- 485 . 281 قُلْ فَآتُوا بِكُتُبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنْتَبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
- 360 قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي

- قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 192.229
- قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا 201 . 136
- قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ 234 . 109 . 90
- قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ 202 . 165 . 109
- قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ 69
- قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ 15
- قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْعَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ 238
- قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 107
- قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ 426 . 376 . 138
- قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 478
- قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ 165
- قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ 312
- قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ 165
- قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ 339
- قُلْ فَاتَّبِعُوا مَنِّي مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 484
- قُلْنَا يَا نُؤُوسُ ابْنَ كُوزَيْبٍ بَرِّدَا وَسَلِّمَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ 337
- فَمَ فَاذْرَ 417 . 212
- قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ 332
- قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ 229
- قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ 409
- قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ 458
- كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ 290
- كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا 57
- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ 336
- كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبُطْلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ 482
- كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ 410
- كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ 345
- كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ 180 . 20

- 457 .23 .3 كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
- 169 لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ
- 478 لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
- 108 .49 لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ
- 352 لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ
- 475 لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
- 335 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ
- 233 .32 لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى
- 158 .126 لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
- 46 لَقَدْ وَعدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ
- 133 لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَوْمَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
- 375 .38 لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
- 463 لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ
- 202 لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ
- 318 لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
- 55 لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطْمًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ
- 317 .314 لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
- 141 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
- 241 اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّتَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودٌ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
- 18 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ
- 17 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
- 192 اللَّهُ الصَّمَدُ
- 377 اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
- 479 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيئَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا
- 192 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ
- 241 لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُسْبًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
- 352 لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ

- لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا 208
- لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ 247
- مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا 3
- مَا زَاعَ الْأَبْصَرُ وَمَا طَغَى 32 . 233
- مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ 199
- مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ 464
- مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ 420
- مَا أَلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ 318
- مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ 222
- مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ 353
- مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْرُوفٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ 142 . 312
- مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ 352
- مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا 352
- مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ 85 . 163
- مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ 210 . 277
- مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ 154 . 302
- النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ 215 . 350
- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ 143 . 483
- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى 41 . 126
- نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ 77
- نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 239
- هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى 317
- هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ 358
- هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ 71
- هُوَ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِهِ إِلَهٌ لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ 326
- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ 207 . 312 . 417
- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا 276 . 417
- هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ 33 . 124 . 391

- 387 هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخَرِّجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ
- 27 هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ
- 22 هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
- 465 . 23 . 15 هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا
- 425 . 12 هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
- 425 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ
- 425 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
- 16 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ
- 268 . 158 . 15 هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
- 454 . 255 . 19 هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
- 27 هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ
- 186 هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
- 349 هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ
- 306 وَعَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ
- 369 وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ
- 150 وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ
- 304 وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمٍ
- 53 وَأُحْبِطَ بِنَمْرَةٍ فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
- 112 وَأَحْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
- 272 وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
- 262 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ
- 447 وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا
- 302 . 101 . 92 وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
- 301 . 93 وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا
- 353 وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ
- 418 وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ بِنِيَّ اسْرَأْ عِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
- 303 . 94 وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
- 398 . 265 . 158 . 31 . 15 وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

- وَأَذَّ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ 343
- وَأَذَّ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ نُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ 432
- وَأَذَّ قُلْتُمْ يُمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِ وَاحِدٍ 153
- وَأَذَّ أَحَدُنَا مِيتَتَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا 154
- وَأَذَّ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ 480 431
- وَأَذَّ تُلْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ 43
- وَأَذَّ تُلْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَقْرَاءٌ نَحْنُ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ 354
- وَأَذَّ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ 151
- وَأَذَّ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ بَيْنِي إِسْرًا عِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ 346
- وَأَذَّ قَالَ مُوسَىٰ لِقَلْبِهِ لَا أُبْرِخُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا 64
- وَأَذَّ قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ 243
- وَأَذَّ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ 319
- وَأَذَّ قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ 46
- وَأَذَّ تُلْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا 235
- وَأَذَّ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ 364
- وَأَذَّ سَلَّمْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ 424
- وَأَذَّ غَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا 390
- وَأَذَّ وَقَسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ 385
- وَأَذَّ إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يُقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ 133
- وَأَذَّ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا 66
- وَأَذَّ وَأَنْزَلْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَفُونَ 69
- وَأَذَّ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ 98
- وَأَذَّ وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ 317 314 94
- وَأَذَّ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ 211
- وَأَذَّ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا 390
- وَأَذَّ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ 357
- وَأَذَّ وَأَصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَفُونَ 408 407
- وَأَذَّ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ 66

- 424 وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ
- 110 . 89 وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْتِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا
- 352 وَأَكْوَابَ مَوْضُوعَةً
- 57 وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ ۖ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا
- 174 وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
- 175 وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا
- 394 وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ
- 199 وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ
- 147 وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ
- 256 . 131 . 86 وَإِنَّ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا
- 76 وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ
- 467 وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ
- 239 وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ
- 369 وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمَنَتَهُ
- 369 وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ
- 369 وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ
- 29 وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ
- 50 وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ
- 54 وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا
- 356 وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ
- 406 وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي ءَأَادَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا
- 194 وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
- 407 وَأَوْحِي إِلَيَّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَلِنَسَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
- 145 وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ
- 412 وَأَنْتَظِرُونَ وَإِنَّا مُنْتَظِرُونَ
- 402 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ
- 270 وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا
- 190 وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَوْيًّا

- 44 وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَاهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
- 20 وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
- 47 وَتَرَى السَّمَاسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ
- 106 وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
- 94 وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ
- 226 وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ
- 371 وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
- 378 وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
- 286 وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
- 292 وَتِلْكَ الْفُرْيَانُ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوَّعِدًا
- 155 وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدَى عَلَى يُونُسَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ
- 424 وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ
- 147 وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْأَمْلَأَ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ
- 149 71 وَجُورًا نَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا
- 151 وَجُورًا نَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ
- 190 وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيَّنَّ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
- 155 وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصَةٍ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
- 155 وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَةً قَالَ يُسْرَى هَذَا غُلْمٌ
- 15 وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِّلسَّائِلِينَ
- 69 وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ
- 403 وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ
- 84 وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَحٍ وَدُسُرَ
- 53 وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا
- 146 وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا
- 423 وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
- 189 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
- 209 وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا
- 152 وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جِئِدًا لَهُ خُورًا

- 328 وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا
- 184 . 156 وَرَفَعَ أَبْوَابِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا
- 149 وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ
- 190 وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا
- 259 وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
- 357 وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا
- 357 وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا
- 306 وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ
- 415 وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ
- 195 وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
- 347 وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا
- 398 . 335 وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا
- 20 وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
- 84 وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ
- 338 وَفَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
- 400 وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ
- 408 وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمَرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
- 246 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا
- 316 وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ فَلِمْ يُعَذِّبِكُمْ بِدُنُوبِكُمْ
- 234 وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا
- 136 . 135 . 45 وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
- 146 وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلكَ
- 66 وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ
- 112 وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا
- 184 وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ أَسْتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ
- 149 وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ
- 334 . 149 وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي
- 334 وَقَالَ فِرْعَوْنُ يُهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ

- 222 وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا
- 295 وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا
- 108 وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
- 407 وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا
- 359 وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
- 68 وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهُمَّنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا
- 5 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ
- 464 وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ
- 407 وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلًّا
- 404 . 236 . 135 وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
- 275 وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا
- 404 . 384 وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
- 412 وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ
- 75 وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
- 433 . 84 وَقِيلَ يَا رِضُّ أَبْلِعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي
- 240 وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
- 106 وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فَرْءًا أَنَا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
- 166 وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
- 103 وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا
- 48 وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
- 282 وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
- 337 وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبرٰهِيْمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ
- 324 . 51 . 40 وَكَذٰلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا
- 225 وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ
- 414 . 412 وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
- 196 وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْدًا
- 130 وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
- 67 وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِْسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ نَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

- 54 وَلَا يَسْتَنْتُونَ
- 122 وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
- 103 وَلَئِن أُنذِرْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ
377. 262 وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ
324. 223 وَلِيُثْبِتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاوُا تِسْعًا
- 45 وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
- 19 وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
- 131 وَلِسَانًا وَشَفَعَتَيْنِ
- 223 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ
- 414 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
- 343 وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا
- 161 وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ
- 130 وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
- 142 وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَةٍ مِنْ طِينٍ
452. 233 وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى
- 234 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ
- 84 وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ
335. 169 وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
- 405 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ
- 18 وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ
- 219 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ
- 32 وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى
- 103 وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
- 242 وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلِيمَ
172. 86 وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
- 113 وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
- 139 وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
- 412 وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

- وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ 299
- وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ 147
- وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ 411
- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا 413
- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي 444
- وَلَمَّا سَوَّطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ 152
- وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَوَدَّتْ كَلِمَتُ اللَّهِ 361
- وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ 471
- وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 384
- وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُجُورَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ 85
- وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ 247
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ 293
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون 269. 313
- وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ 313
- وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ 424
- وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ 72
- وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ 420
- وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا 143
- وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا 74
- وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون 160
- وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ 424
- وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ 192. 232
- وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ 137. 165
- وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّهًا 181
- وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ 346
- وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ 346
- وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ 108
- وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا 407

- 363 وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجِدُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ
- 474 وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
- 115 . 27 وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
- 72 وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ
- 294 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
- 404 وَمَا نَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
- 73 وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ
- 53 وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا
- 166 وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ لَمُبْطَلُونَ
- 359 وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
- 314 وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
- 348 وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
- 343 وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ
- 114 وَمِنَ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
- 350 وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ
- 357 وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ
- 652 وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةً
- 467 وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ
- 333 . 145 وَنُرِي فِي رَعْوَنَ وَهَمًّا وَجُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ
- 145 وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
- 338 وَنُنَبِّئُكَ أَنَّ يَابِسَ هِيَمٍ
- 385 وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ
- 131 وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ
- 321 وَهَزَيَّا إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ نُسُقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا
- 319 . 106 وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
- 24 . 17 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
- 264 . 156 . 71 . 42 وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ
- 49 وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى

- 8..... وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا
- 302 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاقِبْتُهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا
- 180 . 20..... وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ
- 357 وَوَفَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ
- 152 وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّيَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
- 4 وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
- 215 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا
- 403 وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ
- 404 وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً
- 398 . 161 وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ
- 68 وَنَادَىٰ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ
- 57 وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنه ذِكْرًا
- 218 وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ
- 84 وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْه
- 189 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
- 323 وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
- 401 وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدَّخِ مُنْقَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْه شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
- 208 وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا
- 407 وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْه
- 477 318..... وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
- 420 . 86 يَا بَرِّهِمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّه قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ
- 438 يَا خَتَّ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا
- 109 . 102 الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا
- 478 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
- 294 يَا هَلْ أَلْكَتِبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ
- 295 يَا هَلْ أَلْكَتِبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
- 110 يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ
- 165 يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ

- يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ 419 . 212
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ 259
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ 460 . 459 . 271
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ أَلْبَعَثْنَا خَلْقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ 378 . 216
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 459 . 271
- يُنَبِّئُ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا 401
- يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۗ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا 193
- يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ 287
- يَعْرِفَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرَ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 406
- يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا 110
- يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ 114
- يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ 359
- يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتٰبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ 359
- يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۗ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ 405 . 354 . 270 . 214
- يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا 112
- يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا 482
- يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ 113
- يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ 183

فهرس الأحادس

الصفحة	الحديث
476.....	إذا مات أحدكم عرض على مقعه
204.....	أنا عبد الله ورسوله
318.....	ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان
456.....	الزمان قد استدار كهياة يوم خلق السماوات والأرض
419.....	شيبنتني هود
308.....	صلاة في مسجدي هذا
353.....	قال الله أعددت لعبادي
24 ، 20.....	كان الله ولم يكن شيء
88.....	لا إله إلا الله ويل للعرب
318.....	لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت
258.....	ما من الأنبياء نبي
79.....	مفاتيح الغيب خمس
176	وددنا أن موسى كان صبر
456.....	يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص

- 1- الإمام البخاري - صحيح البخاري ، مكتبة فياض للطباعة ، مصر 2011 .
- 2- الإمام مسلم - صحيح مسلم ، دار المعرفة ، الطبعة الثالثة 2010 بيروت
- 3- ابن ماجة - سنن ابن ماجة ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى ، 1997 بيروت .
- 4- إبراهيم سعيد - شرح بشارة يوحنا ، دار نوبا للطباعة ، الطبعة الرابعة 1998 القاهرة .
- 5- شرح بشارة لوقا ، دار الثقافة المصرية ، الطبعة الرابعة 1986 القاهرة .
- 6- ابن تيمية -6- منهاج السنة النبوية ، مؤسسة قرطبة ، الطبعة الأولى ، 1986 .
- 7- التفسير الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت . بدون تاريخ
- ابن القيم الجوزية :8- الصواعق المرسله ، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة الرياض بدون تاريخ
- ابن عباس :9- تنوير المقياس من تفسير بن عباس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت 1992
- ابن كثير :10- تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر للنشر ، بيروت 2008 .
- ابن هشام :11- السيرة النبوية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن عمر الجعفي :12- الهفت الشريف، تحقيق د. مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر، الطبعة الثانية بيروت . بدون تاريخ .
- أبو موسى الحريري :13- قس ونبي ، بحث في نشأة الإسلام ، سلسلة الحقيقة الصحية 2005 .
- أبو العلاء المعري :14 رسالة الغفران تحقيق د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف القاهرة بدون تاريخ .
- أحمد بن إبراهيم الغرناطي :15 ملاك التأويل ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، 1983 .
- أحمد عزت شيخ البساتنة :16- علماء الغرب ما الذي وجدوه في القرآن ، التكوين للطباعة والنشر، دمشق 2004 .
- د. أحمد إدريس الطعان :17 القرآن والعلمانيون ، دار بن حزم للنشر ، 1428 هـ
- أحمد المتوكل :18- الخطاب وخصائص العربية ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى الجزائر 2010
- أنور الجندي :19- سقوط الإيديولوجيات ، رابطة العالم الإسلامي، السنة الثانية عشرة، العدد 139، 1414هـ
- أحمد بن فضلان :20- رسالة بن فضلان ، مطبوعات المجمع الغربي ، دمشق . بدون تاريخ
- أحمد عبد الوهاب :21- طائفة من الموحدين المسيحيين، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى 1980 .

- أحمد محمد صبحي: 22- في علم الكلام ، دار النهضة العربية ، الطبعة الخامسة 1985 بيروت .
- الباقلاني: 23- إعجاز القرآن ، دار المعارف ، القاهرة . بدون تاريخ
- توفيق الحكيم: 24- أهل الكهف ، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر 2006 .
- آية الله جعفر السبحاني: 25- العوالم الغيبية في القرآن ، دار جواد الأئمة ، الطبعة الأولى ، لبنان 2008 .
- جودت سعد: 26- أوهام التاريخ اليهودي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، الأردن 1988 .
- أ د ، حبيب مونسي: 27- التردد السردي في القرآن الكريم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010 .
- 28- المشهد السردي في القرآن الكريم ، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية ، الطبعة الأولى ، الجزائر 2009 .
- 29- فلسفة القراءة وإشكالية المعنى ، دار الغرب للنشر، وهران 2002 .
- حبيب جرجس: 30- الأنفس في ملخص الكتاب المقدس، مكتبة الهلال بالفجالة، الطبعة الثانية، مصر بدون تاريخ .
- د. حسن بن صالح الحميد: 31- سنن الله في الأمم ، دار الهدى النبوي، الطبعة الثانية 2011 مصر .
- حسن البنا: 32- نظرات في القرآن ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة 2002 .
- حسام الألوسي: 33 - الزمان في الفكر الديني ، دار الفارس للنشر ، الطبعة الأولى 2005 العراق .
- د. حسن حنفي: 34- من العقيد إلى الثورة ، دار التنوير للطباعة ، الطبعة الأولى 1988 بيروت .
- 35- حصار الزمن ، مركز الكتاب النشر ، الطبعة الأولى 2004 القاهرة .
- د. خالد أحمد أبو الجندي: 36- الجانب الفني في القصة القرآنية ، دار الشهاب للطباعة، الجزائر بدون تاريخ
- خليل عبد الكريم: 37- الفن القصصي في القرآن الكريم عرض وتحليل ، سينا للنشر ، الطبعة الرابعة 1999 القاهرة
- رؤوف أبو سعادة : 38 - العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن، دار الهلال ، القاهرة بدون تاريخ .
- الزركشي: 39- البرهان في علوم القرآن ، دار الحديث ، القاهرة ، 2006 .
- د. سليمان عشارتي: 40- الخطاب القرآني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1998 .
- السمؤال بي يحي المغربي: 41- بذل المجهود في إفحام اليهود ، مطبعة الفجالة ، القاهرة بدون تاريخ .
- سيد قطب: 42- في ظلال القرآن الكريم ، دار الشروق ، الطبعة الأولى 1972 ، مصر .
- 43- التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، الطبعة السادسة عشر 2002 القاهرة .
- 44- مشاهد يوم القيامة ، دار الشروق ، الطبعة السادسة عشر 2002 القاهرة .
- السيد سلامة غنمي: 45- التوراة والإنجيل بين التناقض والأساطير، دارالأحمدي للنشر، الطبعة الأولى، 2000
- الشنقيطي: 46- أضواء البيان ، دار الفضيلة ، الرياض 2005 .

- الشيخ أحمد مغنية: 47- تاريخ العرب القديم ، دار الصفوة ، الطبعة الأولى، بيروت 1994 .
- الشيخ خليل سليمان: 48- الفروقات بين التوراة والقرآن، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت 1999
- الطاهر بن عاشور: 49- التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1984.
- طه عبد الرحمن: 50- روح الحداثة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، المغرب 2006 .
- عباس محمود العقاد: 51- موسوعة العقاد الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت 1970
- 52- الإسلام دعوة عالمية ، دار نهضة مصر للطباعة مصر 1999 .
- أ.د. عباس عوض الله عباس: 53- محاضرات في التفسير الموضوعي ، دار الفكر الطبعة الأولى دمشق 2007 .
- د. عبد السلام المسدي: 54- الأدب وخطاب النقد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، الطبعة الأولى بيروت 2004 .
- د . عبد اللطيف الصديقي: 55- الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات، الطبعة الأولى بيروت 1995 .
- عبد الهادي الشهري: 56- استراتيجية الخطاب ، دار الكتاب المتحدة ، الطبعة الأولى ليبيا 2004
- د. عبد الله دراز: 57- النبأ العظيم ، دار الثقافة ، قطر ، 1985 .
- عبد الرحمن حسن الميداني: 58- قواعد التدبر الأمثل ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ، دمشق 2009 .
- 59- نوح عليه السلام ، دار القلم ، الطبعة الأولى ، بيروت 1990 .
- عبد الحق الإسلامي المغربي: 60- الحسام الممدود في الرد على اليهود ، دار البشائر الإسلامية ، الطبعة الأولى ، بيروت 2001 .
- عبد العال سالم مكرم: 61- قضايا قرآنية ، دار البشير للنشر ، 1987 ، الأردن .
- عبد الرزاق نوفل: 62- الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، دارالكتاب العربي، الطبعة الخامسة، بيروت 1987 .
- د. عبد اللطيف عبادة: 63- التفسير الصوفي للشيخ الثعالبي ، مؤسسة عالم الأفكار ، الطبعة الأولى الجزائر 2007 .
- عبد الغني عبد الرحمن محمد: 64- الزمن بين الدنيا والآخرة ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى 1994 القاهرة
- عبد الودود شلبي: 65- إجابات حاسمة ، مؤسسة الخليج العربي ، الطبعة الأولى 1987 القاهرة .
- الإمام علاء الدين الباجي: 66- الرد عن اليهود ، الأهلية للنشر، الطبعة الأولى ، الأردن 1988 .
- د. عمرو شريف: 67- رحلة عقل ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الرابعة ، مصر 2011 .
- 68- كيف بدأ الخلق ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى ، مصر 2011 .

- أ.د. فاضل شبيب العجمي: 69- صحف إبراهيم ، الدار العربية للموسوعات ، الطبعة الأولى 2006 السعودية
- فخر الدين الرازي: 70- مفاتيح الغيب، دار العلم للطباعة ، الطبعة الأولى، 1981 ، بيروت .
- د. فضل حسن عباس: 71- القصص القرآني ، شركة الشهاب ، الجزائر 1989 .
- الفيروز آبادي: 72- القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثامنة 2005 بيروت
- فيصل بن علي: 73- اليسوعية والفاثيكان والنظام العالمي الجديد ، مكتبة الملك فهد ، الطبعة الأولى ، الرياض 2010 .
- كارم عبد العزيز: 74- الأسطورة والحكاية الشعبية ، عين الدراسات والبحوث الإنسانية ، الطبعة الأولى 2001 . مصر
- د. لطفي فكري الجودي: 75- جمالية الخطاب في النص القرآني، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى، القاهرة 2014 .
- محمد بن جرير الطبري: 76- تاريخ الطبري ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية . مصر . بدون تاريخ .
- 77- جامع البيان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1994 بيروت .
- د. محمد أبو زهرة: 78- القرآن المعجزة الكبرى ، دار الفكر العربي ، مصر ، بدون تاريخ .
- 79- الديانات القديمة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، بدون تاريخ .
- 80 - محاضرات في النصرانية ، شركة الشهاب ، الجزائر 1989 .
- محمد أحمد خلف الله : 81 - الفن القصصي في القرآن الكريم ، سينا للنشر، الطبعة الرابعة ، بيروت 1999 .
- د. محمد بيومي مهران : 82 - دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية 1988 بيروت
- محمد حامد الناصر : 83 - العصرانيون، مكتبة الكوثر، الطبعة الثانية 2001 الرياض
- محمد حسن فضل الله: 84- الحوار في القرآن ، دار المنصوري للنشر ، الجزائر . بدون تاريخ .
- محمد حمدي زقروق: 85- الاستشراق ، دار المعارف ، القاهرة . بدون تاريخ .
- محمد الحسين الطباطبائي: 86- الميزان في التفسير ، مؤسسة الأعلمي ، الطبعة الأولى 1986 بيروت .
- محي الدين بن العربي: 87- رحمة من الرحمن ، مطبعة نصر ، دمشق ، 1989 .
- 88- الفتوحات المكية ، الهيئة الصرية للكتاب، الطبعة الثانية 1985 مصر .
- محمد رشيد الرضا: 89- تفسير المنار ، دار المنار ، الطبعة الثانية ، القاهرة . 1947 .
- محمد عابد الجابري: 90- مدخل إلى القرآن الكريم ، مركز الدراسات العربية ، الطبعة الأولى 2006، بيروت
- 91- فهم القرآن ، دار النشر المغربية ، الطبعة الأولى ، المغرب، 2008 .

- محمد علي البار :92- مدخل لدراسات التوراة العهد القديم ، دار القلم ، الطبعة الأولى 1990 دمشق .
- محمد عبد العظيم الزرقاني :93- مناهل العرفان ، دار الكتاب تاعربي ، الطبعة الأولى 1990 بيروت .
- محمد عبد الله ابن العربي :94- قانون التأويل، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت 1990 .
- الشيخ محمد الغزالي :95- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، منشورات بغدادي ، الجزائر 2000
- 96- المحاور الخمسة في القرآن الكريم ، دار الهدى ، الجزائر ، بدون تاريخ
- 97- معركة المصحف ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، بدون تاريخ .
- محمد متولي الشعراوي :98- تفسير الشعراوي ، أخبار اليوم ، 1991 .
- 99- الدار الآخرة ، دار التوفيقية للتراث ، القاهرة 2010
- 100- معجزة القرآن ، دار الهدى ، الجزائر ، 2004 .
- محمد ناصر : 101- الرحلة الروسية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الطبعة الأولى ، الرياض ، 1993 .
- 102- إلى شمال الشمال ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الطبعة الأولى ، الرياض ، 1993
- . .
- د. مصطفى السباعي :103- من أروع حضارتنا ، دار الوراق للنشر ، الطبعة الأولى 1999 السعودية .
- أ.د. مصطفى مسلم :104- مباحث في القرآن الكريم ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ، دمشق 2005 .
- مصطفى صادق الرافعي :105- تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربي ، الطبعة السابعة ، بيروت 1974 .
- 106- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى 2008 القاهرة .
- د. مصطفى محمود :107- رحلتي من الشك إلى اليقين ، دار المجدد للنشر، الجزائر 2016 .
- مطاع صفدي :108- نقد العقل الغربي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت 1990 .
- معتصم السيد أحمد :109- الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي ، دار الهادي للطباعة ، الطبعة الأولى 2009
- منير العكش :110- تلمود العم سام ، رياض الرئيس للكتاب ، الطبعة الأولى 2004 بيروت .
- ناصر حامد أبو زيد :111- النص والسلطة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، المغرب ، 1995.
- نور الدين السد :112- الأسلوبية وتحليل الخطاب : دار هومة للطباعة ، الجزائر 2010 .
- الأب هنري يولاد اليسوعي :113- الإنسان والكون والتطور، دار المشرق ، الطبعة الأولى ، بيروت 2000
- هيثم الحاج علي :114- الزمن النوعي وإشكالية السرد النوعي، الانتشار العربي، الطبعة الأولى 2008 بيروت .

المراجع المعربة

- إجناس جولدتسهير: 115-** العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة د. علي حسن ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الثالثة ، مصر .
- أحمد ديدات: 116-** النصرانية أم الإسلام ؟ ، ترجمة أكرم ياسين ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ، 2008 المملكة السعودية .
- 117-** ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ترجمة إبراهيم خليل أحمد ، دار المنار ، 1988 .
- 118-** الله في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة محمد مختار، المختارة الإسلامية للطبع القاهرة بدون تاريخ
- إسحاق عظيموف: 119-** البدايات ، ترجمة ظريف عبد الله ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2001 .
- إدوار جيبون: 120-** اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة محمد علي أبو درة ، الهيئة المصرية للكتاب الطبعة الثانية 1997 .
- أ أ مندولا: 121-** الزمن والرواية ، ترجمة بكر عباس، دار صادر، الطبعة الأولى 1997 .
- إسناج سبينوزا: 122-** رسالة من اللاهوت والسياسة ، ترجمة د. حسن حنفي ، دار التنوير للطباعة، الطبعة الأولى ، 2005 ، بيروت .
- أندريه ناتيون ، إدغا رويند: 123-** الأصول الوثنية في المسيحية ، ترجمة سميرة عزمي ، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية
- باتريسيا كرون: 124-** تجارة مكة ، ترجمة آمال محمد الرويني ، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى القاهرة 2005 .
- باتريسيا كرون ، مايكل كوك: 125-** الهاجريون ، ترجمة نبيل فياض المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى 1999 .
- بيتر بوتر: 126-** الحداثة وما بعد الحداثة ، ترجمة د. عبد الوهاب كلوم ، منشورات المجمع الثقافي ، الطبعة الثانية ، أبو ظبي 1995 .
- بول ريكور: 127-** الزمن والسرد ، ترجمة سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديدة ، الطبعة الأولى، طرابلس 2006 .
- 128-** الهوية السردية ، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 1991 المغرب
- توماس أرلوند: 129-** الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن إبراهيم ، مكتبة النهضة المعربة ، 1971 .

توماس كارليل: 130- محمد الأمل الأعلى ، تعريب محمد السباعي ، مكتبة الناظمة ، الطبعة الأولى 2008
مصر

تيزيفيتيان تودوروف: 131- الأدب والدلالة ، ترجمة نديم خشفة ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب 1996 .

132- مفاهيم سردية ، ترجمة عبد الرحمن مزيان ، منشورات الاختلاف ، الطبعة

الأولى 2005 الجزائر .

تيودر نودلكه: 133- تاريخ القرآن ، ترجمة د. جورج تامر ، مؤسسة كونراد ، الطبعة الأولى بيروت 2004

توشيكو إيز وتسو : 134 - الله والإنسان في القرآن ، ترجمة هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة
العربية،

الطبعة الأولى 2007 بيروت

جاك شورون: 135- الموت في الفكر الغربي ، ترجمة كامل يوسف ، المجلس الوطني للثقافة والفنون
والآداب أبريل 1984 الكويت .

جاك لانغاد: 136- من القرآن إلى الفلسفة ، ترجمة وجيه أسمر ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 2000 .

جيرار جنيت: 137- خطاب الحكاية ، ترجمة محمد معتصم ، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الثانية 1997
سوريا .

جيفري لانغ: 138- حتى الملائكة تسأل ، ترجمة د. منذر العيسي ، دار الفكر دمشق ، 2013 .

جونتان كيرتش: 139- حكايات محرمة في التوراة ، ترجمة نذير جزماني ، اليازجي للطباعة ، الطبعة
الأولى سوريا 2005 .

دومينيك مانغوز: 140- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد بحياتن ، الدار العربية للعلوم
الطبعة الأولى الجزائر 2008 .

رالف بارتون: 141- إنسانية الإنسان، ترجمة سلمي الخضراء الجيوسي، مكتبة دار المعارف لبنان . بدون
تاريخ .

رولان بارت: 142- نقد وحقيقة ، ترجمة د. منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، الطبعة الأولى 1994

143- مدخل إلى التحليل النبوي للقصة ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، الطبعة
الأولى حلب 1978 .

144- التحليل النصي ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار التكوين دمشق 2009 .

ريتشارد دوكنز: 144- وهم الإله ، ترجمة بسام البغدادي ، مؤسسة البغدادي ، الطبعة العربية الثانية ،
ستوكهولم ، السويد 2002 .

روجي جارودي: 146- الإسلام ، ترجمة وجيه أسعد ، دار الفرابي ، الطبعة الثانية ، الجزائر 2001 .

روي بروتر : 147- تاريخ الزمان ، كتاب فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة ، سلسلة عالم المعرفة ،
المجلس الوطني للثقافة ، الكويت 1978 .

- زيغريد يونكه: 148-** ليس كمنثبه شيء، ترجمة محمد عبد الرؤوف، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010 القاهرة .
- ستيفن ميلر: 149-** تاريخ الكتاب المقدس ، ترجمة وليم وهبة ، دار الثقافة، الطبعة الأولى 2008 القاهرة.
- ستيفن هونكغ: 150-** تاريخ موجز للزمان، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العلمية للكتاب 2006 .
- ستيفن بنكر: 151-** الغريزة اللغوية ، ترجمة د. حمزة بن قبلان ، دار المريخ ، الرياض 2000 .
- شمندريت أنطوني: 152-** اعترافات تولستوي ، تعريب الشيخ يوسف البستاني، مطبعة العرب للبستاني لبنان 1930
- عبد الأحد داود: 153-** محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة محمد فاروق، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 1997، الرياض .
- علي عزت بيجوفيتش: 154-** الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة محمد يوسف ، مؤسسة بافاريا للنشر الطبعة الأولى 1994 .
- غوستاف لبون: 155-** حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي ، 2012 مصر .
- 156 -** حياة الحقائق ، ترجمة عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي 2012 مصر .
- القديس أغوستين: 157-** اعترافات القديس أغوستين، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق ، الطبعة الرابعة 1991 . بيروت .
- كارين أمسترونج: 158-** معارك في سبيل الإله ، ترجمة د. فاطمة نمر، دار النشر ألفريد نيويورك الطبعة الأولى 2000
- 159-** الله لماذا ؟ ، ترجمة فاطمة ناصر ، مكتبة الأسرة ، مصر 2010 .
- 160-** محمد نبي زماننا، ترجمة فاتن الزلبناني، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2008 القاهرة
- 161-** الله والإنسان ، ترجمة محمد الجورا ، دار الحصاد ، الطبعة الأولى 1996 دمشق
- كاترين مومزن: 162** جوته والعالم العربي ، ترجمة د. عدنان عباس علي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت 1978 .
- مالك بن نبي: 163-** شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الكتاب ، دمشق 2001 .
- 164-** الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر الجزائر
- محمد أسد: 165-** الطريق إلى مكة ، ترجمة رفعت السيد ، منشورات الجمل ، الطبعة الأولى 2010 بيروت
- محمد إقبال: 166-** تجديد الفكر الديني، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الكتاب اللبناني، بيروت 2011 .

محمد أركون: 167- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة للنشر الطبعة الثانية 2005 . بيروت .

168- نزعة الأنسنة في الفكر العربي ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، الطبعة الثانية بيروت 2006 .

169- الفكر الإسلامي ، ترجمة هاشم صالح ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .

170- قضايا نقد العقل الديني ، ترجمة هشام صالح، دار الطليعة ، بيروت . بدون تاريخ .

171- نافذة على الإسلام، ترجمة صياح الجهم، دار عطية للنشر، الطبعة الأولى 1996 لبنان

مرسيا إلياد: 172- المقدس والعادي ، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للنشر، الطبعة الأولى، 1988

173 - المقدس والمدنس ، ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق للنشر الطبعة الأولى 1988 .

174- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق الطبعة الأولى 1987

مارغرين روتن: 175- تاريخ بابل، ترجمة رينا عازار ، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، بيروت 1984

مايكل هارت: 176- العظماء المائة ، ترجمة أنيس منصور ، المكتب المصري الحديث ، مصر لدون تاريخ

موريس بوكاي: 177- القرآن التوراة الإنجيل والعلم ، ترجمة مجموعة من الأساتذة ، دار الفتح القاهرة 1997 .

178- أصل الإنسان ، ترجمة فوزي شعبان ، المكتبة العلمية 1981 .

مونتجمري وت : الإسلام والمسيحية، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998 .

هيدي وايت: 179- الزمن والرمز في فلسفة التاريخ عند ريكور ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي

والتر إيزاكسون: 180- أينشتاين وعالمه ، ترجمة هاشم أحمد ، الطبعة الأولى الإمارات العربية 2010 .

ول وايريل ديورانت: 181- قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، دار الجيل للطباعة، بيروت . بدون تاريخ .
يوسابيوس القيصري: 182- تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود ، مكتبة المحبة ، الطبعة الثالثة 1998 القاهرة .

يوهان فوه جوته: 183- مختارات شعرية ونثرية ، ترجمة أبو العيد دودو ، منشورات الجمل ، الطبعة الأولى ألمانيا 1999 .

مجموعة من الباحثين: 184- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ، ترجمة شركة ماشر ميديا ، الشركة الدولية للكتاب المقدس ، القاهرة 1997 .

أسفار العهد القديم :

185- سفر التكوين :

186- سفر الخروج

187- سفر التثنية

188- سفر العدد

189- سفر أشعيا

190- سفر دانيال

191- سفر حجي

192- المزامير : المزمور الرابع والثمانون .

أسفار العهد الجديد :

193 - إنجيل متى

194- إنجيل مرقس

195- إنجيل لوقا

196- إنجيل يوحنا

197- إنجيل الطفولة

198- إنجيل توما

199- الكتاب المقدس النسخة اليسوعية ، الطبعة الثانية 1988 بيروت

200- كتاب السنكسار القبطي : مكتبة الكتب القبطية ، مصر .

المراجع الأجنبية

201 Anis Sharrosh The True Furqan, wine press publishing, first edition 2001. U.S.A

202 M Kassab : Gloire à DIEU , edition Salama , 1990 . Alger .

203 Maurice Bucaille Moese et Pharaon , libraire Segulier , 1^{ere} edition 1989 Paris .

204 Old testament The King James version

الموسوعات والدوائر والهيئات العلمية

205- الموسوعة القرآنية المتخصصة: تأليف مجموعة من علماء الأزهر، مطابع الأهرام التجارية، قليب

مصر بدون تاريخ

206- موسوعة بيان الإسلام : تأليف مجموعة من العلماء، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى 2012 مصر

207- موسوعة التفسير : تأليف د. محمد عمر الحاجي ، دار المكتبي الطبعة الأولى 2007 دمشق .

208- موسوعة المصطلح النقدي : تأليف د. عبد الواحد لؤلؤة ، المؤسسة العربية للدراسات، الطبعة الأولى

1993 عمان .

209- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية : إعداد منير عبود، ترجمة أحمد حاطوم، شركة

المطبوعات للتوزيع ، الطبعة الخامسة 2010 بيروت .

210- موسوعة العقاد الإسلامية : تأليف عباس العقاد ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى 1971 بيروت

211- موجز دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة نخبة من الأساتذة ، مركز الشارقة للإبداع ، الطبعة الأولى

1998 الشارقة .

212- دائرة المعارف الكتابية : تأليف مجموعة من العلماء ، دار الثقافة ، مصر ، بدون تاريخ .

213- المؤسسة العامة لإدارات والبحوث العلمية : مناظرة بين الإسلام والنصرانية ، دار الحرمين ، الطبعة

الثانية 1992 القاهرة .

البحوث الجامعية :

214- محمد مشرف خضر : بلاغة السرد في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، جامعة طانطا مصر بدون

تاريخ

215- التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه الشركة التونسية للتوزيع،

الطبعة الأولى 1974، تونس

الدوريات :

- 216 - مجلة الأدب الإسلامي : رابطة الأدب الإسلامي العالمي، العدد الرابع، ربيع الثاني 1415 هـ. الرياض
- 217 - مجلة القادسية في الآداب : كلية التربية ، جامعة القادسية ، العدد الأول 2007 . العراق .
- 218- مجلة العربي : وزارة الإعلام بدولة الكويت ، العدد 318 ماي 1985 . الكويت .
- 219- مجلة العلم والإيمان : مجلة علمية، رئيس التحرير د . البشير التركي، العدد 32 العام 1974 تونس .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ ، ر
الفصل الأول	
زمانية المكان	
تمهيد	2
ارتباط المكان بالزمان في القصص القرآني	13
ارتباط المكان بالزمان الخارق في القصص القرآني	38
ارتباط المكان بالزمان الغيبي في القصص القرآني	73
الفصل الثاني	
زمانية الأحداث	
تمهيد	120
سيرورة وحتمية أحداث القصص القرآني	129
ارتباط الأحداث بالزمن الغيبي في القصص القرآني	161
ارتباط الأحداث بالزمن الخارق في القصص القرآني	209
الفصل الثالث	
زمانية الخطاب	
تمهيد	238
ارتباط الخطاب القرآني بالزمن	247
الخطاب القرآني والتاريخ	282
الخطاب القرآني والخلود	336
الفصل الرابع	
زمانية القصة القرآنية	
تمهيد	371
الزمن في القصة القرآنية	381
الارتداد الزمني في القصة القرآنية	425

. 450.....	اللازم من في القصة القرآنية
. 480.....	الخاتمة
. 487.....	فهرس الآيات
. 517.....	فهرس الأحاديث
. 518.....	قائمة المصادر والمراجع
. 530	فهرس الموضوعات